# الموسوعة الشوقية

الأعمال الكاملة

## لأمير الشعراء أحمد شوقي

جمع وترتيب وشرح

ابراهيم الابياري

## المجلد الأول

## شوقي بين الشعراء

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ ١٩٩٥م

دار الكتاب العربي

الطابق الثامن - بناية بنك بيبلوس - فردان - تلفون : ٨٦١١٧٨ / ٨٠٠٨١١ / ٨٦٢٩٠٥
تلفاكس : ٤٧٨١٤٣١ (١٢١٢) تلكس : ٤٠١٣٩ L.E كتاب برقياً : الكتاب . ص.ب : ٥٧٦٩-١١ بيروت - لبنان

# الموسوعة الشوقية

الأعمال الكاملة

لأمير الشعراء أحمد شوقي



# الشعراء قبل شوقي



بسم الله الرحمن الرحيم

# العصر الجاهلي

## (١)

الأدب ظل لحضارة الأمة، كما تكون يكون، سعة وضيقاً، وهو كما يمتد بها تمتد هي به، أعني كما يستملي يُملي، يستوي هذا في الحضارات على حاليها ازدهاراً وركوداً، إذ الأديب هبة من هبات وجوده، كالشجرة تتغذى من هذا الوجود لتغذي هذا الوجود، ليحيا حياة أكثر ينعاً وازدهاراً.

والأدب الذي لا يمثل حضارته، أدب انعزالي لا يغنى به غيرُ صاحبه، والأدب الذي يمثل حضارته ولا يُضيف إلى حضارته، أدب مغمور ليس فيه إلا متعة القول، لم يوجَد ليزيد الوجود وجوداً، والأدب الذي يجمع بين الأخذ والإعطاء هو الأدب المنشود، الذي يضيف ويزيد، ولهذه كان الأدب، ولغيرها لا يصح أن يكون أدب.

فالكلمة إن جرت مُصوِّرة لما حولها أصدق تصوير، فما أولاها بالتقدير، وما أحقها بأن تكون متعة صادقة، لأن النفوس عندها تَراح لها، إذ هي تُذكِّرهم بما هم فيه وتصوره لهم، ثم إذا هي أيقظت النفوس على صفة يُؤخذ بها، وأخرى تُطرح، أضافت إلى متعة الأُنس بما وُجد مُتعة تَدَارُك ما لم يُوجد.

وهذه الأخيرة هي الوظيفة التي خُلقت لها الكلمة، والتي بها خرج الوجود من طور أدنى إلى طور أَسْمى، والأُمم التي جمدت على حال هي الأُمم التي فقدت هذه الكلمة المُوجِّهة، وقنعت بالكلمة المُمتعة.

وهل كانت كلمات الرسل وكلمات الناهضين بها بالوجود إلا هذه الكلمات التي جمعت بين المتعة والتوجيه.

هذه هي رسالة الأدب الحق، فرسالته أن يجمع بين تصوير الواقع وبين

النهوض بالواقع، فإن هو فقد الثانية كان أدب متعة فحسب، وما لهذه خُلقت الكلمة ولا خُلق الأدب.

وفي ضوء هذا سيكون تقويمنا لشاعرنا أحمد شوقي.

## (٢)

وقبل أن آخذ فيما أريد أن آخذ فيه، أحب أن أعرض لك رؤيتي للشعر العربي، منذ كان إلى أن كان شاعرنا شوقي.

كما أحب أن أسبق هذا فأبسط لك فَهمي لحضارة الأُمم.

في فَهمي كما في فَهم الآخرين أنّ حضارة أُمة ما تعني ما هي عليه من نهج في الحياة من أخذ وإعطاء، وما هي عليه من مرتبة علت بها عن الهمجية، ثم ما لها من مشاركة في الأساليب التقدمية في شتى فروع الحياة.

وهذا كله يَطغى على الفرد في سُلوكه وفي عواطفه، فإن قال وَجَدْتَ قولَه صورة من حضارته، وإن فعل وجدت فعله صورة من حضارته.

وسلوك الرجل العام لا يختلف عن سلوكه الخاص، وعواطفه العامة لا تختلف عن عواطفه الخاصة، وأعني بها العِشق، فهو عاشق يَعشق مَن حوله وما حوله، وهو حين يقول في عِشقه فهو مُضيف إلى معروف العشق جديداً، قد يكون مما يُؤثر له، وقد لا يكون، فيمضي بعشقه هذا مثلاً يروى ولا ينتهج.

وبعد، فلأعد بك إلى حيث أردت أن أبدأ، فأقول:

إن البيئة العربية الأولى، والتي تسمى بالجاهلية، تنشطر شطرين:

أ ـ جاهلية أولى، وهذه تبدأ من قبل التاريخ إلى القرن الخامس للميلاد. وهذه لا نجد بين أيدينا منها ما يسعفنا للتحدث عن تاريخها وآدابها، والأمر فيها حدس وتخمين.

ب ـ جاهلية ثانية، وهذه تمتد من القرن الخامس بعد الميلاد إلى ظهور الإسلام (٦٢٢ م).

ولقد كان العرب في جاهليتهم الثانية أكثرهم ينزلون البوادي والنجوع، وكانوا على ذكاء ونباهة، يستلهمون قرائحهم فيما يُصدرون من أحكام، ولغتُهم تدلُّك على ما كانوا عليه آجتماعيّاً وسياسيّاً، إذ اللغة لا توجد من فراغ، وإنما هي تعبير عما هو كائن، فكم في لغتهم من مسميات للباس وطعام، وكم عَمرت بوُجود آنيّات وفضائل، وما تراه في لغتهم من ألفاظ العَدد يدلُّك على ما كانوا عليه من حظ ما في الاقتصاديّات، وهذه الأمثال والكنايات التي ذَخرت بها لغتهم تدلُّك على أنهم كانوا على حظ ما من الفلسفة والحكمة، ثم هذا الذي عرفناه لهم من تقديرهم للنابغين فيهم نثراً وشعراً يدلُّك على أنهم كانوا أصحاب مشاركة في الأدب.

ويبدو أن الأدب كان هو الكلمة الفُصحى عن هذا كله، والمُعبِّر عما يدور بأخلادهم. لهذا اجتمعوا له في أسواقهم، وأقاموا له حُكَّاماً يحكمون للمجيد منهم.

وكان الشعر يبُزّ صِنْوَه النَّثر، لذا كان احتفاؤهم به أكثر، وتلك المعلقات التي علقوها في الكعبة تُصدِّق هذا، فلم نجد من النثر ما خصوا به الكعبة يُقدِّسونه تقديسَه، ولكنا وجدنا الشعر هو الذي انفرد بتلك المرتبة.

والأدب في كُل أُمة صفحة من صفحات حضاراتها المختلفة، وهو عند عرب الجاهلية الثانية الصفحة الفريدة اليتيمة لحضارتهم، وإذ كان الشعر أعلى كَعباً من صِنوه النثر، كما ذكرت، لذا كان الشعر عندهم هو تلك الصفحة الفريدة اليتيمة.

## (٣)

وتنتظم هذه الجاهلية الثانية، التي امتدت قرناً ونحواً من ربع القرن، جُملة من الشعراء النابهين لا المغمورين، وهم على ترتيب سِني وفاتهم:

١ ـ المُمزَّق العبديّ (٤٨٠ م).
٢ ـ عامر بن حُليس الهُذليّ (٥٠٠ م).
٣ ـ المُهلهل عديّ بن ربيعة التَّغلبي (٥٠٠ م).

٤ ـ الشَّنفرى الأزدي (٥١٠ م).
٥ ـ أبو دُؤاد الإياديّ (٥٢٠ م).
٦ ـ سَلامة بن جَندل التميميّ (٥٢٠ م).
٧ ـ المثقَّب العبديّ (٥٢٠ م).
٨ ـ الحارث بن عبّاد البَكريّ (٥٢٥ م).
٩ ـ البَرّاق بن رَوْحان التميميّ (٥٢٥ م).
١٠ ـ أعشى قيس الثَّعلبيّ (٦٢٩م).
١١ ـ بِشر بن أبي خازم الأسديّ (٥٣٠ م).
١٢ ـ تأبَّط شرًّا الفَهميّ (٥٣٠ م).
١٣ ـ الفِند الزِّمانيّ (٥٣٠ م).
١٤ ـ عمرو بن قَمِيئة البكريّ (٥٣٨ م).
١٥ ـ أمرؤ القيس الكِنديّ (٥٣٩ م).
١٦ ـ المتلمِّس الضَّبيّ (٥٥٠م).
١٧ ـ عَبيد بن الأبرص الأسديّ (٥٥٠ م).
١٨ ـ طَرفة بن العَبد البَكريّ (٥٥٢ م).
١٩ ـ السَّمَوأل بن غَرِيض الأوسيّ (٥٦٠ م).
٢٠ ـ الحارث بن حِلِّزة البَكريّ (٥٦٠ م).
٢١ ـ زُهير بن جَناب الكَلبي (٥٦٠ م).
٢٢ ـ عَلقمة بن عَبَدة التَّميميّ (٥٦٠ م).
٢٣ ـ أُحَيْحة بن الجُلاَح الأوسيّ (٥٦١ م).
٢٤ ـ عبد الله بن العَجْلان النَّهديّ (٥٦٦ م).
٢٥ ـ حاتم الطَّائيّ (٥٦٩ م).
٢٦ ـ المُستوغر بن رَبيعة السَّعديّ (٥٧٠ م).
٢٧ ـ خِداش بن زُهير العامريّ (٥٧٠ م).
٢٨ ـ المسَيَّب بن عَلَس البَكريّ (٥٨٠ م).

٢٩ ـ لَقيط بن زُرارة الدَّارِميّ (٥٨٢ م).
٣٠ ـ حاجِز بن عوف الأَزْديّ (٥٩٠ م).
٣١ ـ خِنان بن نُدْبة السُّلميّ (٣٥٩٥).
٣٢ ـ عُروة الصعاليك بن الوَرْد العَبْسيّ (٥٩٦م).
٣٣ ـ عَدي بن زيد العِباديّ (٥٩٧ م).
٣٤ ـ المُتنخّل بن عُويمر الهُذليّ (٦٠٠ م).
٣٥ ـ الحارث بن ظالم المُرِّيّ (٦٠٠ م).
٣٦ ـ الأسود بن يَعفر الدارميّ (٦٠٠ م).
٣٧ ـ النابغة الذُّبيانيّ (٦٠٤ م).
٣٨ ـ سُليك بن السُّلَكة السَّعديّ (٦٠٥ م).
٣٩ ـ زُهير بن أبي سُلْمى المُزَنيّ (٦٠٩ م).
٤٠ ـ إياس بن قَبيصة الطائيّ (٦١٠ م).
٤١ ـ أُوس بن حَجر التَّميميّ (٦١٠ م).
٤٢ ـ قَيس بن الخَطيم الأَوسيّ (٦١٢ م).
٤٣ ـ عَنترة بن شَدَّاد العَبْسيّ (٦١٥ م).

## (٤)

ومن هؤلاء الشعراء مَن هو صاحب أبيات، ومنهم مَن هـو صاحب مُقـطَّعات، ومنهم من هو صاحب ديوان.

ومـا أظن صاحبَ الأبيـات، ولا صاحبَ المقـطّعات، عنـد هذا أو ذاك آنتهى نتاجهما، بل كان هذا أو ذاك هو ما حُفظ لنا من نِتاجهم، فبَعيدٌ أن يَتْيَه شاعر ويَبقى آسمُه لهذه الأبيات، أو تلك المَقطَّعات.

غيـر أن هذا القليـل الذي حُفظ لنـا يُمثِّل لا شـك. الكَثِيرَ الـذي غاب عنّـا، وسوف لا ينقص من حُكْمنا عليهم.

وهأنذا بادىء بالمُقِلِّيـن غير أصحاب الدواوين فعارضٌ لشعرهم.

وكان شاعرنا الأول في هذا هو **الممزَّق العبديّ** (٤٨٠ م) صاحب البيت الذي تمثّل به عثمان لمّا حُوصر، وكتب به إلى عليّ:

فـإن كنتُ مَـأْكـولاً فكُنْ خيرَ آكِـلٍ وإلّا فـأَدركـنـي ولـمَّـا أُمَـزَّقِ

وهذا البيت من مقطوعة تبلُغ أبياتها الثمانية، كَتب بِها الممزَّقَ إلى النُّعمان ملِك الحِيرة يَعتذر عن شيء أتاه، ويَضْرَع إليه أنْ يعفو عنه، يقول فيها قبل هذا البيت الذي سُقناه أولاً:

أَحـقًّـا أَبَيْـتَ اللعـنَ أنْ آبنَ فَـرْتَـنـا عَلى غيـرِ إجـرام بـرِيـقيَ مُـشْـرِقِي

ويقول فيها بعد البيت الذي سُقناه أولاً:

فـأنت عَمِيـدُ النـاس مهمـا تَقُـلْ نَقُـلْ ومهمـا تَضَـعْ من بـاطـلٍ لا يُحقَّقِ

أكـلَّفـتْـنـي أدراء قـومٍ تـركـتُـهـم فـإلَّا تَـدارَكْـنِي مـن البَحـر أَغْـرَقِ

فـإن يَعْمِنُـوا أَشْتِـمْ خِـلافـاً عليـهمُ وإن يُتْهِمـوا مُسْتَحْقِبِي الحَـرْب أُعْـرِقِ

أي أن يأتوا عُمَانَ أُخالفهم أنـا وآتي الشام، وإن يـأتوا تِهـامة آتي أنـا العراق وهذه الصورة تُريك كيف كان مُجتمع الحِيرة: سيِّدٌ عـاتٍ، ومَسُودٌ مَقْهـور، وشاعـر ضارع، لا يعرف حَقَّ الكلمة، وحقها أن يكـون لمُناهضـة الظُّلم لا الاستسـلام له، وعلى هذا النحو من مُداهنة النُّعمان جاءت مقطوعة الممزَّق التي مطلعها:

صحـا مِن تَصـابِيـه الفُؤادَ المُشَـوَّقُ وحـانَ من الحَـيِّ الجميـعِ تـفـرُّقُ

ثم إذا الممـزق يُفيق من غَشيته، ويصحـو ضميـرُه، فـإذا هـو آسِف على مـا فرط، وإذا هو زاهد في متاع الدنيا، ثم إذا هو يخشى ما سيكون مصيرُه بعد موتـه، وهذا في مقطوعته التي يقول في أولها:

هـل للفتى مِن بنـات الـدَّهـر مِنْ واقِ أمْ هـل له من حِمـام المَوت من راقِ[1]

* * *

وثاني هؤلاء الشعراء، أصحاب الأبيات والمقطعات: **عامر بن حُليس أبو**

---

(١) المفضليات ـ الشعر والشعراء ـ معجم الشعراء للمرزباني.

**كَبير الهذليّ**، (٥٠٠ م)، والذي أُثرت له مقطعات خمس، أربع منها في الزهد، وواحدة في الحماسة، أما الأربع التي له في الزهد فآستهلالُها واحد، وقوافيها تَختلف، أُولاها:

أَزُهَيْرَ هل عن شَيبة من مَعْدلِ      أم لا سَبِيلَ إلى الشَّبابِ الأَوَّلِ

يعني: زهيرة ابنته.

ويستهل الثانية بقوله:

أُزهير هل عن شَيبة من مَقْصر      أم لا سَبيلَ إلى الشباب المُدْبرِ

ويستهل الثالثة بقوله:

أزُهير هل من شَيبة من مَصْرِف      أم لا خلود لباذِل مُتكلِّفِ

ويستهل الرابعة بقوله:

أزُهير هل عن شَيبة مِن مَعْكِمِ      أم لا خُلود لباذل متكرِّمِ

المعكم: المعدل والمصرف.

أما حماسيته فيستهلها بقوله:

ولقد سَرَبْتُ على الظَّلام بِمَغْشَمٍ      جَلْدٍ من الفِتيان غيرِ مُهبَّلِ

والمغشم: الذي يركب رأسه لا يثنيه شيء لشجاعته. والمهبل: الكثير اللحم المورم الوجه.

فهذا شاعر يحدثنا عن نفسه شاباً وشيخاً لا تحس للوجود من حوله في شعره أثراً، فليس في شعره غير المُتعة فحسب.

ولو أخذنا بقول من يقول: إن هذه المقطوعة الرابعة لتأبّط شرّاً كِدنا أن نقول: إن هذا الشاعر لم يُحفظ له في شبابه شيء، وقد يكون هذا الشيء الذي لم يُحفظ عن شبابه، فيه ما يكون عن حياته[1].

---

(١) الشعر والشعراء.

وثالث أصحاب الأبيات والمقطعات: **أبو دُؤاد الإياديّ (٥٢٠ م).**

وكان أبو دُؤاد شاعراً عاش لبيئته بمظاهرها المادّية، فوصف الخيل فأجاد، ووصف الإبل فأجاد.

وحين أخافه بعضُ الملوك إذا هو يَفِرّ إلى اليَمن، وينزل على بعض ملوكها فيُحسن الملك جِوارَه.

يحدث هذا كله لشاعرنا أبي دُؤاد ولا نسمع له بيتاً يَنعى فيه على الظالم ظُلمه، كما لم يَرو لنا الرُّواة بيتاً يمتدح فيه من أجار، والذي ضُرب المثل بحُسن جواره، والطريف أن الذي لم يُحرِّك لسان أبي دُؤاد حرَّك لسان شاعر جاء بعده، وهو طَرفة، فتسمع له يقول:

إنّي كفانِيَ من همٍّ هَمَمْتُ به جارٌ كجارِ الحُذافِيّ الذي آنتصفَا

والحُذافيّ، هو أبو دؤاد، وحُذافة: قبيلة في إياد.

ترى هل كان لأَبِي دُؤاد شِعر فيمن ظلمه، وشعر فيمن أَجاره، وأنه غاب عنّا كما غاب غيره؟ أم أنه لم يقل شيئاً في هذا أو ذاك؟ وكان من أصحاب الكلمة المُمتعة لا الكلمة الموجِّهة(1).

* * *

وهذا شاعر آخر من شُعراء الأبيات والمقطّعات، وهو **البَرّاق بن رَوْحان (٥٢٥ م)** وهو من ربيعة، قوم كُليب والمُهلهل.

وحين نشبت الحرب بين ربيعة وبين قضاعة وطيء، أتاه كُليب يَستنهضه لنُصرته ويقول:

إليك أتينا مُستجيرين للنَّصر فشَمِّر وبادرْ للقتال أبا نَصْرِ

فيرده البراق خائباً وهو يقول:

وهل أنا إلّا واحدٌ مِن رَبيعة أعِزُّ إذا عَزُّوا وفخرُهُم فخرِي

(1) الأغاني ـ الشعر والشعراء.

ولكن البَرّاق ما لبث أن جَرَّته تلك الحرب إلى ساحتها، وإذا هوَ يستنهض قومه ويقول:

لَعمري لست أترك آلَ قَومي ... وأَرحل عن فِنائي أو أسيرُ

ثم إذا هوَ تتَّقد نفسُه حميَّة فيقول:

إذا لم أُقُد خيلاً إلى كُل ضَيغم ... فآكل مِن لحم العِداة وأَشبعُ

فلا قُدْتُ مِن أقصى البلاد طلائعاً ... ولا عِشت محموداً وعَيشِي مُوسَّعُ

وينبري له فارس طائيّ لينازله، ولكنه ما لبث أن آنخذل، فيقول البَرّاق:

دعاني سَيّدُ الحَيَّيْن مِنّا ... بَني أسد السَّمَيْذَعُ للمُغارِ

إلى أن يقول:

وأَفْلت فارسُ الجَرّاح مِنّي ... لِضَربة مُنْصِلٍ فوق السِّوَارِ

فقُل لابن الذَّعيرِ النَّذْل هَلّا ... تَصَبَّرُ في الوغى مِثْلَ اَصْطبارِي

وفي هذه الحرب يُقتل أخٌ للبَرّاق فيقول يَرثيه:

عَيْنٌ تَجُود وقلبُ والِهٌ كَمِدُ ... لمَّا ثَوَى في الثَّرى الضِّرغامة الأَسدُ

وتَنْشب الحربُ بين بني وائل وبين الفُرس فيقول البرّاق يستنهض قومه:

لَمْ يَبْقَ يا وَيْحكم إلّا تَلافيها ... ومِسعرُ الحَربِ لاقِيها وآتِيهَا

إلى أن يقول:

أَبْلِغ بَني الفُرْسِ عنّا حينَ تَبْلُغهم ... وحَيَّ كَهلان أنّ الجُنْد عافِيها

ويُقتل للبرّاق في تلك الحرب أخٌ اسمه غُرْسان فقال يرثيه:

تَولَّت رجالِي بالغنائم والفِنَى ... مُزجِّين للأَجمال من رَمَلانِ

إلى أن يقول:

أرُوب إلى أُمِّي سَلِيماً مُكَرَّماً ... وغَرْسان مَقتول بِدار هَوَانِ

ثم يَرثيه بقوله:

بَليتُ لِغَرْسانٍ وحَقَّ لناظِرِي ... بُكاءُ قَتيل الفُرس إذ كان نائيا

ويقول في رثائه أيضاً:

كم باكياتٍ تُرى يَرْثِين في أَسَدٍ ... ونادباتٍ بِحرَّاتٍ لِغَرْسَانِ

وبعد هذا تقرأ له وقد عاد من بعض غزواته غانماً:

عَبــرتُ بقـومي البَحــر أُنــزِفت مــاءَهُ ... وهــل يَنْـزِفَنّ البحــرَ يا قــومُ نــازِفُ

وكان للبرّاق هوىً بليلى، ابنة لُكيز، غير أنّ لُكَيـزا كان عنـه راغباً، وإذا ليلى هـذه تقع أسيـرة في طيء، فيثور لهـا لا ترده عن ثـورته رَغبـة أبيهـا عنـه، ويمضي لاستخلاصها، وهو يقول:

ولأُرْجِّعَنّ اليــوم ذات المَبْسِـمِ ... بـنتَ لُكيــز الـوائـليّ الأرقـمِ

وهكذا نرى البَرّاق قد لَفَّته بيئتُه بِردائها فلم ينفلت منه، عاش بها ولها، تكـاد تُؤرِّخ أشعارُه لأحداثها التي غلبته على أمره ولم تكن منه التفاتة لمغالبتها[1].

* * *

ومن شُعراء الأبيات والمُقَطَّعات **بِشْر بن أبي خازم** (٥٣٠م).

شاعر فـارس، شهد الحـربَ التي كانت بين قـومه بني أسـد وبين طيء، وإذ كـان شاعـراً فلقد ملك إلى سِنـانه لسـانَه، فـإذا هو يُـطلق لسانَـه في هَجو أوس بن حارثة بن لأم الطائيّ، وأفحش في هَجو أوس حين عَرَّض بأُمه، ويشاء القدر أن يقع بشر أسيراً في بني نبهان الطائيين، فأسرع عندها أوس إليهم واستوهبه منهم، وكـان أوس قد نذر إن أمكنه القدَر من بِشر ليحرقنّه، وحين هَمَّ أوس أن يفعل بِبِشْر ما كان يحب، كَفَّته أُمه، وهي تذكر له أن ما أحب أن يفعله ببشـر لن يمحو مـا قال، فعفـا أوس عن بشر، وإذا بشر يجعل بإزاء كل قصيدة هجا بها أوساً وأمه قصيدة مدح.

وتنتهي حياة هذا الفارس على غير ما كان يُخال، فلقد أغـار بِشر على الأبنـاء من بني صعصعة بن معاوية، وإذا هو يمر بغلام منهم، فيصيـح به بشـر: آستأسـر، فإذا الغلام يقف له صامداً وهو يقول: لتمضين أو لأرميَنَّك بسهم من كنانتي، ويأبى بشر إلا أن يأسر الغلام، فما كان من الغلام إلا أن رماه بسهم نفـذ في ثُنْدوتـه وكان فيه حتفه.

---

(١) شعراء النصرانية.

وشِعر بشر يُمثِّل لك هذا كله.

فمنه قصيدته التي يستهلها بقوله:

عَضت من سُلَيمى رامـة فكَثِيبُهـا    وشَطَّت بها عنك النَّوى وشُعوبُها

ثم قصيدته التي يستهلها بقوله:

أحـق مـا رأيـت أم احـتـلامُ    أم الأهـوال إذ صَحبي نِيـامُ

ثم قصيدته التي يستهلها بقوله:

ألَا بـان الـخـليطُ ولـم يُـزاروا    وقلبُـك في الـظمـاءة مُستعـارُ

ثم قصيدته التي يستهلها بقوله:

لمن الـديار غشِيتهـا بـالأنْعمِ    تبـدو معـارفهـا كلون الأَرْقـمِ

ولقد كان بشر بعد هذا وصّافاً:

يصف فرسه فيقول:

على كُـل ذي مَيعـة سـابـحٍ    يُقـطِّع ذو أَبهـريـه الحِـزَامَـا

ذو أبهريه، أي جنباه، يعني أنه إذا انحط قطع حزامه لانتفاخ جنبيه.

ويقول في وصف سفينة:

أُجـالـد صفهـم ولقـد أراني    عـلى زَوْراءَ تـسـجُـد لـلرِّيـاح

وهذان البيتان لم يجيئا للوصف الخالص، بل انتظمتهمـا قصائـده الحماسية التي لم تخل من تشبيب، ومن وصف للمفاوز والبيد، والكر والفرّ في الحروب.

فبشر شاعر أملت عليه البيئة فلبّاهـا خَير تلبيـة ما تخلَّف، ولا كـانت له كلمـةُ مناهضة تحمل رأياً يُسدِّد ويَهدي[1].

* * *

ومن أصحاب الأبيات والمقطَّعات: **تأبط شراً (٥٣٠ م).**

واسمه ثابت بن جابر، ولُقِّب تـأبط شرًّا لأنـه تأبط سَيفـاً وخرج، فقيـل لأُمه:

---

(١) المفضليات ـ الشعر والشعراء.

أين هو؟ فقالت: تأبط شراً وخَرج.

وكان من لُصوص العرب المُغيرين.

وأغار مرة على بَجيلة، فوقع في أيديهم أسيراً، وكان معه في الأسر قرينان له، هما: الشَّنْفرى وعمرو بن بَرَّاق، فدبَّر لإفلاتهم من الأسر، فقال تأبط شراً يصف هذا في قصيدته التي نوهت باسمه وهي التي استهلها بقوله:

يا عِيد ما لك من شَوق وإيراق ... ومَرِّ طَيف على الأهوال طَرَّاقِ

العيد ما اعتاد من حزن وشوق، والإيراق: الأرق.

وبعد هذه تذكر له المراجع أبياتاً في غُول لقيها فقتلها، يقول في مستهلها:

تقول سليمى لجاراتها ... أرى ثابتاً يَفناً حَوْقَلاَ

اليفن: الشيخ الفاني، والحوقل: الذي فتر على النكاح.

وبعد هذين لا تذكر المراجع له شيئاً، وإن كان فما إخاله يخرج عن هذا النِّطاق، نِطاق اللصوص وما يجري على أيديهم، في هذا النطاق الضيِّق عاش تأبط شراً، وفي هذا النطاق الضيق كان شعر تأبط شراً[1].

* * *

ومن أصحاب الأبيات والمقطَّعات: **الفِند الزِّمانيّ (٥٣٠م).**

هو شهل بن شيبان، من بكر بن وائل.

والفند: القطعة العظيمة من الجهل، والشيخ الكبير.

وبهذا المعنى أو ذاك، كان تلقيب شَهل.

ولقد كان الفند سيّد بكر في زمانه، وشهد تلك الحرب التي كانت بين بكر و غلب، وكان عندها قد ناهز المائة.

وكان قد اعتزلها أولاً، ثم إذا هو يشهد يوم القِضَّة، وهو يوم التحالُق، ويَبلي فيه بلاء حسناً.

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ المفضليات.

وفي ذلك اليوم يقول الفِند قصيدته التي مطلعها:

لَقِيت تغلبُ كعُصبة عادٍ ... إذ أتاهم هَول العذاب صَباحَا

كما يقول قصيدته التي يستهلها ببيته:

صَفَحنا عن بني ذُهْلٍ ... وقُلنا القومُ إخوانَ

وفي هذه الحرب رأى الفِند فارساً من تغلب يحمل على امرأة بَكر، وبجوارها صبي لها، فيطعن الصبي فيقتله. فيحمل الفِند على هذا الفارس ورَديف له فيقتلهما، ويقول:

أيا طعنةُ ما شيخ ... كَبيرٍ يَفَن بالِي

واليفن: الشيخ الكبير.

وما أشك أن الفند كان له شِعر يسبق هذا الشعر الذي طالعنا به بعد أن ناهز المائة، ولكن الذي لا نستطيع أن نجزم به: هل كان من هذا اللون الحماسي أم من لون آخر؟.

وأكاد أرجح أنه كان من هذا اللون الحماسي، لأن الزمن الذي أظلّه كان زمن حروب[1].

* * *

ومن شعراء الأبيات والمقطعات: **عمرو بن قَميئة البكري (٥٣٨ م)**.

صَحب آمرأ القيس في خروجه إلى بلاد الروم، وستعرف خبر هذا عند الكلام على آمرىء القيس، وإياه عنى آمرؤ القيس بقوله:

بَكى صاحبي لمَّا رأى الدَّرْب دونه ... وأَيقن أنَّا لاحِقانِ بِقَيْصَرَا

ويُقال إنه هلك مع آمرىء القيس، ولهذا قيل له: عمرو الضائع.

وهذه الخَرجة التي خرجها مع آمرىء القيس ليستنصرا بملك الروم تُفيدنا أن

---

(١) شعراء النصرانية.

عمراً كان على خُلق الأوفياء الكرماء، كما كان حكيماً، وشعره الذي ذكرته له المراجع يُؤيِّد هذا.

فقصيدته الحائية التي يقول فيها:

أُقارض أقواماً فأُوفي بقَرضهم ... وعَفٌّ إذا أَبْدَى النُّفوسَ شحيحُهَا

تُنْبئك كم كان عمرو وفيّاً.

وقوله من هذه القصيدة:

فما أَتلفت أيديهمُ من نفُوسنا ... وإن كَرُمت فإنَّنا لا نَنُوحها

ننوحها: نبكي عليها.

وهذه هي، لأخرى تنبئك كم كان عمرو سَمْحاً كريماً.

ثم قوله من قصيدته الميميّة:

رمتني بناتُ الدهر من حيث لا أرى ... فكيف بمن يُرْمَى وليس برامي

بنات الدهر: حوادثه ومصائبه.

ينبئك كم كان عمرو حكيماً.

فهذا شاعر خرج على إملاء البيئة، بما فيها من كرّ وفرّ، وكانت له ذاتيّته، وما نظنّ عمراً لم يَستجب لإملاء البيئة في شَبابه، فهذا الذي بَقي من شعره كان في شيخوخته.

فنحن نعلم أنه عاصر آمرأ القيس، وعَصر آمرىء القيس، كما ستعلم بعد، كان عصر آنغماس في اللهو إلى الأذقان، اللهم إلا إذا كان عمرو في شبابه كما كان في شيخوخته[1].

* * *

ومن شعراء الأبيات والمقطّعات: **زُهير بن جَناب الكَلبيّ (٥٦٠ م)**.

سيد بني كَلب وقائدهم في حروبهم.

---

(١) الأغاني - الشعر والشعراء - طبقات الشعراء لابن سلام.

عُمِّر طويلاً، وتغلو المراجع فتقول: إنه جاوز الأربعمائة.

وشعره يُمثِّل شطري حياته، أعني شبابه وشيخوخته.

فهو في شبابه ذلك الفارس المِغوار، يُخلِّد بلسانه ما كان لسنانه.

فتقرأ له بعد ما أوقع بغطفان:

ولم تصبــر لنا غــطفــانَ لمّــا  تــلاقينــا وأُحــرزت الـنســاءُ

ثم تقرأ له بعد ما أوقع ببكر وتغلب:

تَبًّــا لتغلبَ أن تُســاق نســاؤهم  سَوْقَ الإماء إلى المـواسم عُطَّلاَ

ويعود فيقول في هذه الموقعة:

فــهــمُ بــيــن هــاربٍ لــيس يــألــو  وقــتــيــلٍ مــعــفَّــر فــي الــتــرابِ

ثم إذا هو حين أدركته الشيخوخة يقول:

والــمــوت خــيــرُ لــلفتــى  فــليَهــلكــنْ وبــه بَــقِــيَّــهْ

ويمتد به الكِبر فيقول:

ألا يــا لقَـومي لا أرى النجم طــالعــاً  ولا الـشمسَ إلا حــاجبي بـيَـمِـيـنـي

ويأسى على ما كان له في شبابه فيقول:

إن تَــنــســــي الأيّــام إلا جــلالــة  أَمُت حيـن لا تــأسى عـليّ العــوائِــدُ

ويرى الموت قد بات منه قاب قوسين أو أدنى فيقول:

لـقــد صــرتُ حتى لا أُبــالــي  أحتْفي في صَبــاحي أو مســائِي

وكأني به قد أفاده الكِبَر وضعفه شَفقة على الضعفاء فيقول:

إرْفَع ضعيفَـك لا يَحُــرْ بـك ضَعْفُــه  يــومــاً فتُــدركــه عــواقِب مــا جنى

يَـجــزيــك أو يُثني عـليــك وإنّ من  أَثنى عـليــك بمــا فـعلت لَــه جَــزَى

هــذا هــو زُهير بن جنــاب استجــاب لنَشْـوة الشبــاب، كمــا استكــان لضعف الشيخـوخة، أملى عن الأول فكــان المزهــوّ المُتغـطرس، وأملى عن الثــانيـة فكــان الشاكي الباكي.

فهو شاعر مثَّل نفسه خير تمثيل حِسًّا لا عَقلاً[1].

* * *

ومن شُعراء الأبيات والمقطّعات: **أُحَيحة بن الجُلاح الأَوْسِيّ (٥٦٠ م).**

هذا شاعر ساد في قومه بقوله وفعله، وحَسبك عنه قولُ أحد الشعراء فيه:

إذا ما أردتَ العِزَّ في آل يَثْرِبٍ فنادِ بصوتٍ يا أُحيحةُ تُمْنَعِ

واستمع إلى أُحيحة يحدِّثك عن نفسه:

إني أُقيم على الزَّوراء أَعْمُرها إن الحَبيب إلى الإخوان ذو المالِ

الزوراء: أرض كانت لأحيحة.

كُلّ النداء إذا ناديت يَخْذُلني إلاَّ ندائي إذا ناديتُ يا مالِي

إستَغْنِ أو مُت ولا يَغررك ذو نَشب من آبن عَمٍّ ولا عَمٍّ ولا خالِ

يَلْوون ما لَهمُ عن حقِّ أقربهم وعَن عَشيرتهم والحقّ للوالي

وهذا الشاعر ذو الفلسفة المادّية، كما كان يُؤمن بالمال سَنَداً كذلك كان يؤمن بالإخوان رُكْناً، فالحياة العزيزة لا يُغني فيها عنك المال وحده، بل لا بد لك فيها من إخوان يشدون أزرك.

تُحس هذا المعنى الثاني في رثاء أُحيحة للأزياد الذين قتلهم أبو كَرِب تُبَّع الأخير، في غارته على المدينة، وهم: زيد بن ضَبيعة، وابن عمه زيد بن أمية، وابن عم له آخر، وهو زيد بن عبيد:

ألاَ يا لَهفَ نفسي أيَّ لَهْفِ على أهل القَفارة كلَّ لَهْفِ

مضَوْا قَصد السَّبِيل وخَلَّفوني إلى خَلْفٍ من الأَبرام خَلْفِي

الأَبرام: اللئام.

سُدًى لا يَكْنُفون ولا أراهم يَصونون آمرأً إن كان يَكْفي

وبعد هذا فقد جرت كلمات أُحيحة أمثالاً على ألسنة الناس.

---

(١) الأغاني ـ والشعر والشعراء.

منها ما كان شعراً، وهو قوله في تُبَّع حين أرسل إليه وإلى الأزياد حين ظن الأزياد أنه سيُملِّكهم على أهل يثرب، فقال أُحيحة:

لـيـت حـظِّي مـن أبـي كَـرِبٍ     أن يَـرُدَّ خَـيـرُهُ خَـبَـلَهْ

ومنها ما كان نثراً: إنّ البيع مُرتخص وغال؛ وقوله لتُبَّع: أغدر بقَيْنة أو دَعِ. وكان أُحيحة حين رجع إلى أهله قال لقينته: إذا جاءك رسول الملك يطلُبني، فقولي: هو نائم، فإن أَبَوْا إلا أن يُوقظوني فقولي: قد رجع إلى أهله وأرسلني إلى الملك برسالة، فإن ذهبوا بكِ إليه، فقولي له: يقول لك أحيحة: أغدر بقَينة أو دعِ.

ومن هذا العَرض الذي لا نملك فيه الكثيرَ من شِعر أُحيحة ونَثره تُحس أننا بين يَدي شاعر فيلسوف حكيم، حاول أن يُملي على البيئة لا أن يَجرِيَ في ركابها، يَقنع بتصوير أحداثها[1].

* * *

ومن شعراء الأبيات والمقطَّعات: **عبد الله بن العَجلان النَّهديّ (٥٦٦ م)**.

من بني نَهد، وكان سيِّداً فيهم، وكذا كان أبوه.

ويتزوج عبدَ الله امرأة من قومه هي هِند، وتُيِّم بها عبد الله، وعاش معاً سنين ثمانياً، لم تُرزق فيها ولداً وتثور ثائرة الأب، وكان حريصاً على أن يَرى لابنه خَلفاً، وسُرعان ما اتَّهم هنداً بالعُقر، ثم سُرعان ما حمل ابنَه عبد الله على تطليقها، وإذا هذا الابن عبد الله يستجيب لرغبة أبيه.

دَعْ جانباً ما يَسوقه الرُّواة تَبريراً لاستجابته لأبيه، فما نشك في أن الابن كان مَكْذوباً في هواه لهند، ثم ما نشك في أنّ بكاءه إياها بعد فِراقها كان عن نَدم على إساءة أساءها، لا عن هوى، فالهوى قَلَّ أن يُقْهَر، وقل أن يكون معه التَّسريح الرخيص.

---

(١) الأغاني.

اقرأ معي قول عبد الله بعد أن سرَّح زوجته هِنداً لتُحس معي صِدق مـا ذهبتُ إليه، يقول عبد الله:

فـارقتُ هـنـداً طـائـعـاً فـنَـدِمْـتُ عـنـد فِـراقـهـا

فها هو ذا يُقِرّ أنه فارقها طائعاً لا مقهوراً، وها هو ذا يندم.

ولكي تعرف على أي شيء ندم عبد الله اقرأ معي قولَه:

ولـقـد ألَـذُّ حـديـثـهـا وأُسـرّ عـنـد عِـنـاقـهـا

لا يذكر لهـا تلك المعاني الـروحية التي تغمـر المتحابين، ولكنّـه يذكـر تلك الشهوات الحِسّية التي تجمع بين ضَجيعين.

وتتزوج هند في بني عامر، وتكون حرب بين بني عامر وبني نهد، وهند نهدية قوماً عامريَّة زوجاً، وتغلب عاطفة القومية عاطفة الزوجية، فإذا هند تُنـذر قومهـا بني نَهد بما تُبيِّته لهم بنو عامر.

هنا يصحو قلبُ عبد الله ويرى أنه خَسِر في هنـد مع الجمـال الذي تَيَّمـه وفاء أخذ يبكي لفقده فيقول:

عـاود عيني غَيُّهـا وغُـرورهـا أهمٌّ عَـراهـا أم قـذاهـا يَعُـورهـا

ثم إذا عبـد الله بعد هـذا يُفيق على أنه فقـد بفَقده هنـداً لا جمالاً ولا وفـاء، ولكن هوىً لم يكن قد ذاق طعمه، وهل هذا الوفاء من هِند إلا صورة حقة منه.

ومـا إِن قَرَّ هـذا المعنى فى نفس عبد الله حتى انقلب مُحِبًّا وغـدا ممَّن لفهم الهوى بردائه من الشعراء، وانطلق لسانه يقول:

ألا أَبلغـا هنـداً سـلامِي وإن نـأتْ فقلبي بهـا مُـذْ شـطت الـدار مُـدْنفُ

ثم إذا هـو لا يُطيق البعـد عنها فيخـرج للقائهـا حيث هي من بني عـامـر، لا يخشى ما بينهم وبين قومه من ثارات.

وإذا هو يقع على حَيِّها، وما إن رأتـه حتى خفَّت إليه قـد أُنْسِيت أنها زوجـة، وإذا هما يتعانقان، ثم إذا هما يقعان على الأرض ميتين.

هـذا هوى عـرفته هنـد قبل أن يعـرفه عبـد الله، وعاشت بـه لتُوقـظه في قلب عبد الله، وإذا هذا الهوى حين ينبض به قلب عبد الله تكون الفـرصة قـد ولَّت، وإذا هما لا يـجـدان غيـر أن يُودِّعـا هذه الحيـاة التي ضاقت على أن تجمـع بينهما، إلى حياة أخرى قد تجمع بينهما.

هذه المأساة كنا نـطمع أن يكـون لعبد الله فيهـا ما يصـوِّرها كمـا صوَّر مثلَهـا عُشَّاق قبله وعشَّاق بعده.

ولكن الأمر كما قلت لك: هوى جاء بآخرة.

وعلى الرغم من هذا فآبن عَجلان مَعدود فيمن ماتوا عِشقاً، يدُلك على هـذه قولُ بعض الشعراء فيه:

لئـن مِـتُّ مـن الـحُـبِّ فـقـد مـات آبـن عَـجَـلاَنِ[1]

* * *

ومن أصحـاب الأبيات والمقـطَّعـات: **المُسْتَـوغِـر بن ربيعـة السَّعـديّ** (٥٧٠ م).

وهذا شاعر مُعمَّر، أُربى عمره فيما يقـال، على الثلاثمـائة بعشـرين أو ثلاثين سنة، وكل ما حفـظ له أبيات قالها في أُخريـات حياتـه يَعُدّ فيهـا سني عمره، وهـذا قوله:

ولقـد سَئمتُ من الـحيـاة وطـولـهـا وعَـمِـرْتُ من عَـدد الـسِّنين مِئيـنَـا
مـائـة حَـدَتْهـا بعـدهـا مـائتـان لي وازددتُ مـن بعـد الـشُّهـور سِنِيـنَـا

وأبيات له أخرى يشكو فيها الكِبر يقول:

إذا مـا الـمـرء صُـمَّ فـلا يُـنـاجَـى وأَوْدَى سـمـعُـه إلاّ نِـدَابَـا
فـلا ذاق الـنَّـعـيـم ولا شَـرابـا ولا يُـسقـى من الـمـرض الـرِّغـابـا

وما من شك في أن حياة المستوغر الأولى لم تمض خالية من شعر قاله، يدلنا على هذه بيت له حُفظ يصف فيه فرسه، وهذا في قوله:

---

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء.

يَنِشُّ الماء في الرَّبلات مِنها  نَشِيشَ الرِّضْف في اللَّبن الوغيرِ

يَنِش: يصب. والربلات: بياض الأفخاذ، والرِّضف: الحجارة تُحمى وتُطرح في اللبن ليجمد.

والوغير: الذي يُسخَّن بالحجارة.

ويقال: إنه لُقِّب المُستوغر ببيته هذا.

فهذا البيت مما لا شك فيه يدل على كثير غيره.

وهكذا يمضي المستوغر دون أن نجد له شعراً نَقْدُره به[1].

* * *

ومن شعراء الأبيات والمقطَّعات: **خِدَاشُ بن زُهير العامريّ** (٥٧٠ م).

والعامريّ: نسبةٌ إلى عامر بن صعصعة.

وكان بين بني عامر، قوم خِداش، وبين قريش، حُروب دامت سنين أربعاً وهي حرب الفجار، خاض غمارها من بني عامر، جَدٌّ لخداش، هو عمرو بن عامر، الذي كان يقال له: فارس الضحياء، والضحياء فرسُه. ولم يكن خداش عن هذه الحرب ببعيد. فقد شهد مع قومه يوماً من أيامها الأربعة، وهو يوم شمطة، وكما كان لجده فرسه الضحياء، كان هو الآخر له فرسه درهم، وفيه يقول:

أقول لعبد الله في الشِّرّ بيننا  لك الويلُ عَجِّل لي اللِّجامَ ودِرْهَمَا

هذه الحرب ملأت بأحداثها حياة خِداش، ووقف عليها شعرَه، فلا نكاد نجد له بيتاً من الشعر مما حُفظ له إلا وهو فيها.

تراه يفخر بجَدِّه فارس الضَّحْياء فيقول:

أبى فارس الضَّحياء عمرو بن عامر  أَبَى الذمَّ واختار الوفاء على القَدْرِ

كما نراه يحمل على قريش خُصوم قومه فيقول:

يا شَدَّةً ما شَددنا غيرَ كاذبةٍ  على سَخِينةَ لولا اللَّيل والحَرَمُ

---

(١) الشعر والشعراء ـ معجم الشعراء للمرزباني ـ طبقات الشعراء لابن سلام.

وسخينة: طعام يتخذ من الدقيق، يُؤكل في وقت الشدة، وبه كانت تعير قريش.

ونقرأ له قوله في يوم شمطة الذي شهده:

بأنّا يوم شَمطة قد أقَمْنا ... عَمُودَ المَجد إنّ له عَمُودَا

هذا هو خِداش عاش حياته مُحارباً، وهذا هو شعره يمثل حياته تلك الحربية تُرى: هل كان لخِداش الذي كان أشعر من لَبِيد عند بعضهم شعرٌ في غير الحرب؟

إنها حرب لم تدم غير سنين أربع، وعُمْر خِداش لم يكن هذه السنين الأربع، بل آنفسح للكثير من شؤون البيئة حوله، فأين ظِلُّ هذا الكثير في شِعر خداش؟

ولكن ليس لمن يَقضي أن يخال ويظُن، ولكنه يقضي على ما بَين يديه[1].

* * *

ومن أصحاب الأبيات والمقطَّعات: **المُسيَّب بن عَلَس البَكريّ** (٥٨٠ م).

هو زُهير بن علس بن مالك.

وقيل: إنما سمي المُسيّب ببيت قاله هو:

فإن سركم أن لا تؤوب لِقاحُكم ... غِزَاراً تَقُولوا للمسيّب يَلْحَقِ

وإنما سُمِّي المسيب، حين أوعد بني عامر بن ذهل، فقالت: بنو ضُبَيعة: قد سيَّبناك والقوم. ويقال: إن أشعر المُقلّين في الجاهلية ثلاثة: المسيب والمتلمس، وحُصين بن الحُمام المُرِّيّ. ويتجلى هذا في قوله يمدح ذا الرُّقَيبة مالك بن سلمة الخَير:

ولقد بلوتُ الفاعلين وفِعْلَهم ... فلذي الرُّقَيبة ما له مِثْلُ

ثم في قوله يمدح بني شيبان.

تَبِيتُ المُلوك على عَتْبها ... وشَيبانُ إن غضبت تُعْتَبُ

تعتب، بالبناء للمجهول: تُسأل العتبى فتعطيها.

---

(١) الشعر والشعراء ـ طبقات الشعراء لابن سلام.

ثم يقول في مدح القَعقاع بن معبد:

فلأهدينَّ مع الرياح قصيدةً      منّي مُغَلْغلة إلى القَعقاعِ

والطريف أنه سبق إلى معانٍ أخذها منه مَن جاء بعده من الشُّعراء.

فلقد قال المُسيَّب يصف ثَغر مَحبوبته:

وكأنّ طَعم الزَّنْجبيل به      إذ ذُقْتُه وسُلافَةُ الخَمْرِ

أخذ النابغة الجعدي (٥٠ هـ) فقال:

وكأنّ فاها بات مُغْتَبِقاً      بعد الكُرى من طَيِّب الخَمر

وقال المُسَيَّب في النحل:

سُود الرُّؤوس لصوتها زَجَلُ      محفوفة بمَسارب خُضْرِ

فقال الجُعدي:

قُرْع الرُّؤوس لصوتها زَجَل      في النَّبع والكَحلاء والسِّدْرِ

ويقول المُسيَّب في الناقة:

مرحت يداها للنَّجاء وكأنما      تَكْرُو بكَفَّي ماقِطٍ في قاعِ

النجاء: السرعة. وتكرو: تلعب بالكُرة. والقاع: المنهبط في الأرض، فيقول الشمّاخ (٢٢ هـ):

كأنّ أَوْبَ يديها حين عاودها      أدب البراح وقد هَمُّوا بتَرْحالِ

وهكذا نرى المُسيّب يقول فيُؤخذ عنه، كما نراه مُتعدِّد مناحي القول، فكان المادحَ الواصفَ الغَزِل، وليس بين أيدينا الكثير عن تلك البيئة التي أَظلَّت المُسيَّب، ولكنّا نكاد نَستنبط مما يَبقى لنا من شِعره، أنّها كانت بيئة فارغة فرغ فيها المسيب لِمُتعته[1].

* * *

ومن أصحاب الأبيات والمقطّعات **لَقِيطُ بن زُرارة الدارميّ (٥٨٠ م)** من

---

(١) **الشعر والشعراء ـ المفضليات ـ طبقات** الشعراء لابن سلام.

تميم، وكان من أعلاهم بيتاً.

وكانت في لَقيط خُيلاء، رآها فيه أبوه زُرارة، فقال لـه يومـاً: لقد طـارت بك الخُيلاء حتى كأنك نكحت بنت قيس بن مسعود الشَّيباني، أو أفأت مائة من عصافير كِسرى. وكان قيس عاملاً لكسرى على العراقين.

فإذا لقيط يتزوج بنت قيس، وإذا كِسرى يُهديـه مائـة من عصافيـره، وهي إبل كانت له.

وهذه النزعة في لقيط ما كان أجدرها أن تُطْلِق لسانَه، ولكنّـا لا نجد فيمـا أُثِر لنا من شعره بيتاً يصف هذه النزعة من الخُيلاء.

ولعلّ شعره الذي يُعيِّر فيـه بني مالـك بن حنظلة بمـا فعله عمرو بن هنـد بهم يومَ أُوارة، حين أَقسم ليحرقنّ منهم مائة، ما يفيد شيئاً عن هذا، يقول لقيط:

يُهين سَميـراتكـمُ عـامـداً ويقتلكم مثـلَ قتـل الكِـلاَبِ

ثم لعلّ شعره في آبنته وَختنوس، التي كان مولَّها بها، فيـه هو الآخـر ما يـدل على ذلك، يقول لقيط:

يـا ليتَ شِعْـرِي عَنـك وَخْتنـوسُ إذا أتـاهـا الخبـر المَـرْمـوسُ

المرموس: المدفون في التراب.

أَتـخمش الـخـدَّيـن أم تَـمِـيسُ لا بــل تَـمِيسُ إنـهـا عَـرُوسُ

ثم لعلّ شعره يومَ جَبلة، الذي كان بين قومه بني تميم وبني عامـر، وفيه قُتـل لقيط. يؤكّد هذا، يقول:

إن الشِّـواء والنَّشِيـل والـرُّغف والقَينـة الحسناء والكـأس الأُنُف
للصاربين الخيل والخيلُ قُطُف

النشيـل: لحم يُطبـخ بلا تـوابل، والكـأس الأنف: التي لم يُشرب بهـا قبـل ذلك: والقطف من الخيل: المتقاربة الخطر.

وبعد هذا كله يأتي قولُه الذي هو بمثابة قول جَهيزة فصلاً في القضيّة:

وإنّي من القوم الذين عَرَفْتَهم     إذا مات منهم سيد قام صاحبُهْ

هذا هو لقيطِ بن زُرارة شاعر مُجيد، ولكنك لا تَجد له غير أبيات مُتناثرة لا تكاد تمثّل غرضاً بعينه، وكل ما تَدُلّ عليه هو ذلك الاعتزاز بنفسه[1].

* * *

ومن شعراء الأبيات والمقطّعات: **حاجِز بن عوف الأزديّ (٥٩٠ م).**

من صعاليك العرب، وكان يَسبق الخيل عَدْواً.

وهو من بني سَلامان، من الأزد، وكان حليفاً لبني مَخزوم بن يقظة بن مُرة بن كعب بن لؤيٰ، وفي ذلك يقول:

قومي سَلامان إمّا كُنْتِ سائلةً     وفي قُريش كريمُ الحِلْفِ والحَسَبِ

ولا نرى لحاجز بعد هذا إلاّ شِعْراً في الصعلكة.

يغير أبوه عوف على قوم فيخدعهم بِغنم، فيقول في هذا حاجز مفتخراً:

أبِي رَبع الفوارسَ يوم داجٍ     وعمّي مالكٌ وضع السِّهامَا

ربع الفوارس: أخذ منهم الرباع، وهو ربع الغنيمة.

ويبلغه أنّ قوماً يتوعدونه بعد أن أصاب منهم غِرَّة وغَنِم ما شاء، فيقول:

وإنّي مِن إرْعادكم وبُروقكم     وإيعادكم بالقتل صمٌّ سَامِعِي

ويُغير على ضمرة بن ماعز سيّد بني هلال فيقول:

يا ضَمر هل نِلْناكم بدمائنا     أم هَلْ حَذَونا نَعلكم بمثالِ

ثم على هذا فقد كان حاجز فَرَّاراً، فيُروى أنه لقي نَفَراً من بني عامر فخافهم وفَرَّ منهم وقال:

ألاَ هَل أتى ذاتَ القلائد فَرَّتي     عشيّةَ بين الجُرْف والبَحر من بَعر

فرّتي: فِراري، والجرف، بالضم: موضع باليمن، والبعر: مكان.

وكما فَرَّ حاجز في هذه فَرَّ في أُخرى، فيُرْوى أنه لَقِي فوارس من خشعم

---

(١) الأغاني.

خافهم على نفسه ففرّ منهم، وقال في ذلك:

وكأنّما تَبِع الفوارسُ أَرْنَبًا ... أو ظَبْيَ رابيةٍ خِفافاً أَشعبا

الأشعب: البعيد ما بين القرنين.

هذا هو حاجز وهذا شعره، لم يفعل به غير أن صور نفسه ولم يتورّع، ما أظن فِطرته كانت تَقوى على أن تُملي عليه غير هذا[1].

* * *

ومن أصحاب الأبيات والمقطّعات: **عَدِيّ بن زَيد العِبَادِيّ (٥٩٧ م)** شاعر كاتب قاريء، من سادة قومه بالحِيرة.

كَتب لِكسرَى وخرج بهدية من كسرى إلى ملك الروم، فنزل دمشق فإذا هي تحرك فيه ملكة الشعر، وإذا هو يقول، وكان أول شعر قاله:

رَبُّ دارٍ بأَسْفل الجِزع من دَوْ ... مَةَ أَشهى إليّ من جَيْرُونِ

وجيرون: دمشق.

ثم يقول بعد هذا:

لِمَنِ الدار تَعفَّت بخيَمْ ... أَصبحت غَيَّرها طولُ القِدَمْ

خيم: موضع.

ويثور أهل الحيرة بالمُنذر، ويلي زيد، أبو عدي، أَمر الحيرة دون المنذر، وكان هذا إلى زيد من قبل، فيقول في عدي:

نحن كنّا قد علمتُم قَبلكم ... عُمُدَ البيت وأوتادَ الإصارِ

الإصار: حبل الخباء.

ويُكاد لعدي عند النعمان بن المنذر، وكان قد وَلِي بعد أبيه المنذر، فيأمر النعمانُ بعديّ إلى الحبس، ويقول عدي وهو في الحَبس:

لَيْت شِعري عن الهُمَامِ ويَأْتِيـ ... ـك بخَبرِ الأبناء عَطْفُ السُّؤَالِ

(١) الأغاني.

ثم يقول أيضاً، وهو في الحَبس:

أَرِقْتُ بِمُكْفَهِرّ بات فيه ... بَوارقُ يرتقين رُؤوس شِيبِ

وفي هذا الحبس، يقول:

طال ذا الليلُ علينا وآعتكرْ ... وكأنِّي ناذِرُ الصُّبْحِ سَمَرْ

ثم يقول:

أَبلغِ النُّعمان عنِّي مَأْلُكاً ... أَنَّه قد طال حَبْسي وآنتظارِي

هذا إلى قصائد أُخرى كثيرة قالها في سِجنه بها إلى النعمان، ولكن النعمان لم يَرِقَّ له، وكان لعدي أخٌ عند كسرى هو أُبَيّ، وحين طال بِعَدِيٍّ الحبسُ، كتب إلى هذا الأخ:

أَبْلِغْ أُبَيًّا على نَأْيِهِ ... وهل يَنفع المرءَ ما قد عَلِمْ

بأنَّ أخاك شَقِيقُ الفؤا ... دِ كُنْتُ به واثقاً ما سَلِمْ

ولقد عَشق عديٌّ بِنتاً للنعمان، وهي هند، واحتال حتى آغتصب من النعمان موافقته على أن يتزوّجها، وفيها يقول:

عَلق الأحشاء من هند عَلَقْ ... مُستسرٌّ فيه نَصْب وأَرَقْ

ويبدو أن هذه كانت مما أثارت غضب النعمان عليه.

وكانت هند هي الأُخرى تُحب عديًّا فلقد ترهَّبت بعد أن قتله النعمان.

ويقال: إن عدياً هو الذي هَدَى النُّعمان إلى النَّصرانية، وكان قبلها وثنيًّا، فلقد مرَّا معاً على المقابر بظَهر الحِيرة، ويسأل عديٌّ النعمانَ عمّا تقوله تلك المقابر، وحين يَعيا النعمانُ يقول عديّ: إنّها تقول:

أَيُّها الرَّكْبُ المُخبُّو ... نَ على الأَرض المُجِدُّونْ

فكَما أنتمُ كُنَّا ... وكما نحن تَكونونْ

عندها تنصَّر النعمان ويبدو أن هذه النزعة الدينية التصوّفية قد سادت شِعر عديّ إلا في القليل، وثمة قصائد أربع تُؤْثَر له في هذا، أولاها:

أَرَوَاحٌ مُودِّع أم بُكورُ ... لك فاعمدْ لأيّ حالٍ تَصِيرُ

وثانيها:

أتَعــرفُ رسـمَ الـدار مـن أُم مَـعبـد نَعم فَـرمـاك الشـوقُ قبـلَ الـتجلُّدِ

وثالثتها:

لـم أر مِثْـلَ الـفِتيـان في غَبَـ ـنِ الأَيَّـام ِ يَنْسَـوْن مـا عـواقبُهـا

ورابعتها:

طــال لـيلي أراقـب التنـويـرا أرقب الليـل بـالصبـاح بَصِيـرَا

وقد تكون من هذا قصيدتـه التي وصف فيها حـديث الزبـاء وجذيـرة وقصير، والتي فيها يقول:

دعــا بــالبَقَّــة الأُمــراءَ يــومــاً جَــذِيمـةُ عــام يَنْجــوهم ثُبِينَــا

بقة: موضع كان ينزله جذيمة، وينجوهم: يناجيهم، وثبون، جمع ثبـة، وهي العصبة من الفرسان. وشعر عدي كثير موزّع هنا وهناك. وكله لا يخرج عن آثنتين:

١ ـ دنيويات.

٢ ـ وزهديات.

أما عن الدنيويات فلقد فَرضتها عليه البيئةُ التي احتضنته.

وأما عن الزهديات فقد جَرّته إليها تلك النكبات التي أُودت به إلى السجن.

وهكذا غلبت البيئة عديًّا ولم يغلبها، وعاش أسيرَها ولم يُفلح في أن يَجعلهـا أسيرةً له، على الرغم من أنه عايش حضارات ثلاثاً: في الحيـرة، وفي فارس، وفي الشـام حيث الرومـان. ولكن يبدو أن السجن الـذي ضمه مُبكِّـراً، قـد حبس نفسـه الكثير[1].

* * *

ومن شعراء الأبيات والمقطّعات **المُتنخِّل بن عُويمـر الهُذليّ (٦٠٠ م)** المتنخل، لقبه، واسمه: مالك بن عمرو من شعراء هذيل وله قصيدتان تستجادان.

---

(١) **الأغاني: الشعر والشعراء** ـ شعراء النصرانية.

إحداهما ذاتية، يقول فيها:

يـا ليت شِعـري وهَمُّ المـرء يُنْصِبُـهُ        والمـرءُ ليس لـه في العيس تَحْـريـزُ

هـل أَجْـزينَّكمـا يـومـاً بِقَـرْضِكمـا        والقَـرْضُ بـالقَـرْض مَجْـزِيٌّ ومَجْلُوزُ

يُنصبه: يتعبه. وتحـريز: وقـاية وملجـأ. ومجلوز: يجزى بـه مرة ولا يجـزى أخرى.

والثانية طائية، يقول فيها:

ومـاءٍ قـد وردتُ أُمَيْـمَ طـامٍ        على أرجـائـه زَجَـلُ الغَـطَاطِ

الغطاط: ضَرب من القطا. وزجله: صوته بتطريب وغناء.

كـأنّ مَـزَاحِفَ الحيَّـات فيـه        قُبَيْـلَ الصُّبـح آثـارُ السِّيَـاطِ

ومـا ذُكر في هـاتين القصيدتين لا يكـاد يكشف عن الغرض الـذي قيلت فيـه كلتاهما، وما بين أيدينا منهما يتناول الوفاء في أُولاهما والوصف في ثانيتهما.

وما بعد هاتين فلا تذكر المراجع له غير قصيدتين في الرثاء، يرثي في أولاهما أخاه عُويمر فيقول:

لـعمـرك مـا إن أبـو مـالِـكٍ        بِـوَانٍ ولا بـضَـعِـيـفٍ قُـوَاهْ

والواني: الضعيف العاجز. ويرثي في ثانيتهما آبنه أُثيلة فيقول:

لقـد عَجِبْتُ ومـا بـالـدهـر من عَجبٍ        أنَّـى قُتِـلْتَ وأنـتَ الـحـازم الـبَـطَلُ

وبهذا الذي أُثِر لنا من شِعر المتنخِّل نَستطيع أن نقول: إنه شاعر طـوَّعته لهـا الحياة ولم يُطوِّع هو الحياة له، وليست هذه رسالة الشاعر كلها بل هي جزء منها[1].

* * *

ومن شعراء الأبيات والمقطَّعات: **الحـارث بن ظالم المُـرِّيّ (٦٠٠ م)** فاتك من فُتَّاك العرب، كان على رأس غَطفـان، وكان غَـريمه خـالدُ بن جعفـر على رأس هوازن.

---

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء.

ولعل خالد بن جعفر هو الذي دفع الحارث بن ظالم إلى أن يكون هذا الفاتك، وإلى أن يكون غريمه، وإلى أن يكون على يديه هلاكه، أعني هلاك خالد.

فلقد أغار خالد على رَهط الحارث، والحارث لا يزال حَدَثاً فنَكَّل خالد بقوم الحارث تنكيلاً. جزع له الحارث الجَزع كُلَّه، فكان بعد هذا ذلك الفاتكَ، وكان بعد هذا هو قاتل خالد.

وفي هذا الذي أحاط بالحارث حَدَثاً، ثم أحاط به فاتِكاً، ثم أحاط به مُنتقماً، كان ما قاله الحارثُ من شعر فله وقد عَيَّره خالد بما فعله بقومه:

تَعلَّم أبيتَ اللعنَ أنِّيَ فاتكٌ        من اليوم أو مِن بَعده بابْنِ جَعْفَرِ

وله وقد قتل خالداً:

ألا سائل النُّعمان إن كنتَ سائلاً        وحقٍّ الكلاب هل فتكتُ بخالِدِ

النعمان: هو ابن المنذر، ملك الحيرة وحين قتل الحارث خالداً أبى عليه قومُه غطفان أن يُجيروه مخافة الشرّ قال:

فلو كُنتم كما قُلتم لكنتمْ        لِمقاتل ثأركم جِرْزاً أصِيلاً

ولكنْ قلتمُ جاوِزْ سِوَانا        فقد جَلَّلْتنا حَدَثاً جَليلاَ

وحين أبى قومُه أن يجيروه لجأ إلى الحاجب بن زُرارة، وإذا حاجب بعد أن أجاره يَخشى ما خَشِيته غطفان، قوم الحارث، فيطلب حاجبٌ إلى الحارث أن يتنحى عنه، فيقول الحارث:

فإنْ تَكُ في عُلْيا هوازن شوكة        تُخاف تقيكم حدَّ نابِ ومِخْلَبِ

وإنْ يَمنع المرءَ الزُّراريّ جارُه        فأَعْجِبْ بها من حاجِب ثم أعْجِبِ

الزراري: نسبة إلى زرارة، والد حاجب.

وأتى الحارث سَلمى بنتَ ظالم، وفي حجرها ابنُ النعمان بن المنذر، فقال لها: إنه لن يُجيرني من النعمان إلا تَحرُّس بابنه، فارتعيه إليّ، وإذا النعمان يَسبي جارات للحارث، ويغضب لها الحارث فيقتل ابنه، أي ابن النعمان. ويعدو النعمان

على عم الحارث، ويقول له: لأقتلنك أو لتأتيني بابن أخيك. وكان العم شاعراً، فقال يدعو الحارث لتسليم نفسه إلى النعمان:

فاعلم بنأنك منه غير مُنْفلت      وقد عَدوت على ضرغامة شارِي

الضرغامة: الأسد. والشاري: الذي لج في الغضب.

فيقول الحارث مُهدِّداً النعمان:

حَسِبْتَ أبا قابُوس أنك سابِقِي      ولمّا تَذُقْ فَتْكِي وأنفُك راغِمُ
فَتَكْت به فَتْكاً كفَتْكي بخالدِ      وهَلْ يركبُ المكروهَ إلا الأكارِمُ
بدأتُ بهذِي ثم أُثْنِي بمثلها      وثالثةٍ تَبْيضُّ منها المَقادِمُ

ويفطن النعمان إلى أن هذه الثالثة ليست إلا هو، ويبرأ بين يدي النعمان رأسُ غطفان إذ ذاك سنان المُرّيّ، من دم الحارث، فيقول الحارث ينعى عليه هذا:

تَمنَّيتَ جهداً أن تضيعَ ظُلامتي      كذبتَ وربِّ المُرْقصات الرَّواسِمِ

المرقصات: التي ترقص في سيرها، وكذا تفعل أيديك حين تسير، والرواسم: التي سيرها الرسيم، وهو ضرب من السير السريع.

وإذا النعمان يُؤمِّن الحارث، وبعد حين عَدا مصدقُ للنعمان على إبل لامرأة من قومه، فأتته تستنجد به، فقال لها، إذا أُورد القومُ النَّعم فنادي بأعلى صوتك:

دعوتُ بالله ولم تراعي      ذلك راعيك فنِعم الراعِي

وخرج الحارث في إثرها يقول:

أنا أَبو لَيلى وسيفي المَغْلُوبْ      كم قد أَجَرْنا من حَرِيبٍ مَحْرُوبْ

أبو ليلى: كنية الحارث. والمعلوب: اسم سيفه. ورد الحارث على تلك المرأة إبلها.

وكانت للحارث جولات هنا وهناك لم يَفْتُر فيها عن الإغارة والفتك، وكذا لم يَفْتر لسانه عن أن يقول البيت أو البيتين يذكر شجاعته مرةً. ويَمتدح من يُجيره أخرى.

هذا هو الحارث بن ظالم، عاش حياته يُسخِّر لسانه لسِنانه، فليس ثمة بيت له إلا لهذا[1].

* * *

ومن أصحاب الأبيات والمقطَّعات: **الأسود بن يَعْفُر الدارميّ (٦٠٠ م)** شاعر حكيم جواد، والحِكمة ثَمرة عقل وفِطنة، يَخْلُص منهما رأي يُفلسف ما حوله. والجُود إحساس صادق بالوجود وأنه ليس معه خلود، وأن المرء كما دخل الحياة عارياً سيخرج منها عارياً، ومن هنا كان زُهده فيما بين يديه به ورفقه بمن حواليه، وجُوده بما في يديه على هذا وتلك كان الأسود.

نقرأ له في الأولى، أعني حِكمته، قصيدته الداليّة التي يقول فيها:

نام الخلّي وما أُحس رُقادي ... والهمُّ مُحْتَضِر لديَّ وِسَادِي
من غير ما سَقِمَ ولكنْ شَفَّني ... همٌّ أراه قد أصاب فُؤادِي
ومن الحوادث لا أبَا لكِ أنَّني ... ضُرِبت عليّ الأرضُ بالأَسدادِ
لا أَهتدي فيها لِموْضع تَلْعة ... بين العِراق وبين أرضِ مُراد
ولقد علمتُ سوى الذي نبّأتني ... أنّ السبيل سبيلُ ذي الأعْواد

وحسبك عن هذه القصيدة شُهرةً أن الخليفة الرشيد كان يُجيز من يرويها بعشرة آلاف درهم. كما نقرأ له لما أسنّ وفَقد بصره:

قد كنتُ أَهدي ولا أُهْدى فعَلَّمني ... حسنُ المَقادة أنِّي أَفقد البَصَرَا
أَمشي وأَتبع جُنَّابا لِيَهديني ... إنّ الجَنيبة مما تَجشم الغَدرا

الجُنَّاب: الذي يقوده كما تُقاد الجَنيبة، والجشم: المشي ببطء. والغدر: المكان الصَّعب. ونقرأ له في الثانية، أعني جُوده، قوله لابنته وقد لامته على جُوده:

وقالت لا أراكَ تُليق شيئاً ... أتُهلك ما جَمعتَ ونَسْتفيدُ

تُليق: تمسك.

---

(١) الكامل لابن الأثير ـ خزانة الأدب للبغدادي.

ونقرأ له بعد هذين شعراً في الرثاء، فنُحس فيه هذين المعنيين السابقين، الحِكْمة والجُود. يقول في رثاء مسروق بن المنذر، وكان سيداً جواداً:

أقول لمّا أتى هُلك سيّدنا لا يُبعد الله ربُّ الناس مَسْروقَا
مَن لا يُشبِّه عَجزٌ ولا بَخَلٌ ولا يَبِيتُ لديه اللَّحم مَوشوقا

الموشوق: المقدَّد.

يا لهَف أُمِّيَ إذا أَوْدَى وفارَقني أَوْدَى آبنُ سَلمى نقيُّ العِرْض مَرموقَا

هذا هو الأسود كما يُفصح عنه شعرُه. عاش للرَّأي يَدعو له ويَنْفح عنه، ولعله الوحيد الذي آنفرد بهذا عمن سبقوه[1].

* * *

ومن شُعراء الأبيات والمقطَّعات: **السُّلَيك بن السُّلَكة السَّعديّ (٦٠٥ م)** صُعلوك من صعاليك العرب كان السليك، وماذا تَرجو من صُعلوك غير إغارة هنا وإغارة هناك، وأساليب من السلب والنهب لم تفت هؤلاء الضعاليك.

يَروي له الرُّواة أنه خرج مع رجلَيْن معه على شاكلته لِيظفروا بمَغنم، وسَبقهما السُّليك ليتحسَّس. وكانت إيماءته لهما إذا وجد فُرصة أن يَصِيح بهما.

ويجد السُّليك الفُرصة سانحةً، وما عليه إلا أن يُوهم الرِّعاء بأنه سيغنِّيهما، وما أراد بهذا الغِناء غير أن يدعو إليه صاحبيه ليُغيروا معاً، فيرفع السُّليك صوته مغنِّياً ويقول:

يا صاحبيَّ ألا لا حيَّ بالوادِي سِوَى عَبِيدٍ وآمٍ بين أَذْرَادِ

والآم: الإماء دون العشر. والأذراد: جمع ذرد، وهو الأبعرة.

أَتَنْظران قريباً رَيْث غَفْلَتهم أم تُنْدران فإنَّ الريح للغادِي

الريح: الغلبة.

---

(١) الشعر والشعراء ـ طبقات الشعراء لابن سلام ـ المفضليات.

ونقرأ للسُّليك في طَرده إبلاً ليَحُوزها:

وعــاشيــةٍ راحت بــطانــاً ذعــرنَــهــا بِسَـــوط فتيــل وَسْــطهــا يَـتـسيَّـفُ

يتسيف، أي يلهبها ضرباً.

ونقرأ له، وقد أغار على قوم في نَفر معه، وكان منهم رجل آسمه صُرد، ضَلَّ ناقته فخرج يطلُبها، فأسر، فأنقذه سُليك وقال:

وضــاربتُ عنــه القــوم حتى كــأنّــه يُــصـعِّــد فــي آثــارهـم ويُــصــوِّبُ

ونقرأ له وقد أنذر قومه بإغارة بني بكر عليهم فكذَّبوه، فقال:

يُكــذِّبني العَمْـران عَمــرو بنُ جُنـدب وعمــرو بن مَسعـود المكــذِّب أكـذبُ

ويخرج السُّليك للإغارة فإذا هو يكاد يقع في أيدي القوم، فيخلُص منهم إلى امرأة منهم تُدعى فُكيهة فيَستجير بهـا فتمنعه وينضم إليهـا إخوتهـا في الدفـاع عنه، فيقول السليك:

لَـعَـمْــرُ أبــيــكِ والأنـبــاء تُــنــمــى لَـنِـعْـم الـجــار أُخــت بَـنــي عَــوَارَا

هذا هو السُّليك وهذا شِعره، تُرى أنـعـده به بين الشُّعـراء، أم نقول إن هـذا الرجل مَلك لِسان شاعر ولم يملك وُجدانـه، فقال كمـا يقول مَن يملكـون ألسنة ولا يملكون قلوباً، وما أظن قولاً يُعتَدّ بأقوالهم، فالقول هو ما يُؤثر، وليس قول السُّليك في رَأْيِي مما يؤثر[1].

* * *

ومن شُعراء الأبيات والمقطَّعات **إيـاس بن قُبيصة الـطائيّ (٦١٠ م)** من أشراف طيء وفُرسانهم، هذا إلى أنه كان شاعراً.

وحياة إياس كانت حياة رجلٍ مُظَفَّر مُنَعَّم، ضَمَّته ساحاتُ الحـرب فكان فيهـا الغـالب، وألقت إليه الـدنيا بمقـاليدهـا، أقطعـه كسرى ثـلاثين قَريـةً على شـاطىء

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء.

الفُرات، وولّاه ما بين عين تَمر إلى الحيرة.

ويذهب الدارسون إلى أن هذه الحياة بِشِقَّيها بعيدٌ أن تَمْضِيَ صفحاتُها غيرَ مملوءة بشِعر صاحبها، ومن هنا كان تَقديرهم بأنّ شِعر إياس ضاع جُلُّه ولم يَبق إلا قُلُّه، فما حَفظ له الرواة غيرَ أبيات.

وأقول إن هذه الحياة بشِقَّيها كانت كفيلةً بأن تُمسك لسان القائل عن القول فأيّام حَربه لنصرة كِسرى، لم يكن مجالُ القول فيها يُملي.

وأيّام نَعِيمه كان التَّرف فيها يُلهي، وتَدبير شُؤون ذلك المُلْك الواسع يَشغل، لهذا وذاك، لم يكن إياس ذلك الشاعر المُكثر، كما خال الدارسون.

ويَحفظ له الرُّواة قصيدته التي جَرت على لسانه يوم هَربه من كسرى، وهذا يُزكِّي ما قلتُه قبل عن إياس من أن النعيم ألجمه، حتى إذا ما زال عنه آنطلق يقول:

وما ولدتْني حاصِنٌ رَبَعيَّةٌ لئن أنا مالأتُ الهَوى لاتِّباعها

الحاصن: العَفيفة.

ألم تر أنّ الأرض رَحْبٌ فَسِيحة فهل تُعْجِزنِّي بُقعةٌ من بِقاعها

هذا هو إياس لم نظفر منه بغَير هذا الشعر الباكي[1].

* * *

هؤلاء هم شعراء الجاهلية الذين لم نَقع لهم على دواوين، بل على أبيات ومقطَّعات، وأعني بجاهليتهم أنهم عاشوا قبل ظهور الدعوة الإسلامية، أو أدركوا طرفاً يسيراً منها لا يجاوز السنين الخمس، فلقد كان بدء الدعوة مع بلوغ النبي ﷺ سن الأربعين، وكان هذا مع السنة الثالثة عشرة قبل الهجرة (١٣ ق هـ) أي سنة عشر وستمائة ميلادية (٦١٠ م).

وقد أحسست معي في شعرهم أنه كان يمثِّل بِيئة محدودة، وغرضاً واحداً

---

(١) الأغاني ـ شعراء النصرانية ـ الحماسة.

بعَينه لا يعدوه، وهو الحرب، وهذا أمرٌ طبيعيّ، فهذه الحياة القاسية التي لا يُظلها قانون، ولا يَضبطها نظام، والرِّزْق فيها لمن غَلب، غيرُ مُستغرب عليها أن تكون الحربُ وسيلَتها إلى الوجود، وأن يكون شُعراؤها ناطقين بمنطوقها. لأنهم لم يكونوا قد بَلغوا من الوَعي الفِكريّ، مع بلوغهم الوَعي الكلاميّ، وما يُنطقهم بغير مَنطوق البيئة، ويكونون دُعاةَ نظام وآستقرار؛ على هذا كان كلُّهم. غيرَ واحدٍ أو اثنين، كان لهُما فِكر لَفتهما إلى حكمة وُجوديّة أو أخلاقية.

(٥)

كان هذا هو الشأن مع أصحاب الأبيات والمقطّعات من شُعراء الجاهلية، ولنعرض لغيرهم من أصحاب الدواوين، أو مَن بلغوا أن يكونوا أصحاب دواوين، فمن هؤلاء **المُهَلْهِل عَديّ بن رَبيعة التَّغْلِبيّ (٥٠٠ م).**

إنَّه إنما سُمِّي المُهَلْهِل، لأنه أول من هَلهل الشعر أي أَرَقَّ الشعر، كما يقولون، ولقد فاتهم أنه مَسْبوق بواحد من أصحاب الأبيات، وهو: الممزّق العبديّ (٤٨٠ م).

وهو صاحب البيت الذي تمثل به عثمان رضي الله عنه لما حُوصر، وكتب به إلى علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وهو:

فإنْ كنتُ مأكولاً فكُن خيرَ آكلٍ وإلَّا فأَدْرِكْني ولمَّا أُمَزَّقِ

وما هو دون شعر المُهلهل، الذي سأعرض لك منه شيئاً هنا رِقَّةً. وليس ببعيد أن يكون المهلهل قد سبق الممزَّقِ إرْقاقاً للشِّعر، وإن تأخَّر زمنُ وفاته عشرين عاماً عن زمن وفاة المُمزَّق، فالمُعاصرة بينهما واقعة، هذا إلى أن هذه التواريخ التي تَدُلّ على سني الوفاة، والتي ذكرناها مع آسم كُلّ شاعر، آجتهاديّة وليست يقينيّةً.

ولقد عاش المُهلهل أولَ ما عاش لِهَواه، وآنغمس فيه إلى الأذقان، ولم يُبعد أخوه عن الحق في وصفه له حين قال: إنه زِير نساء، أي يُكثر من مجالستهنّ.

والغريب أنا لا نجد فيما جُمع له من شعر، بيتاً من وصف هذه الحياة اللاهية، وإذا هو بعد أن قُتل أخوه كُليب يُهيج قومَه بني تَغلب على إخوتهم بني

بَكـر، وإذا هو شـاعر هـذه الحرب التي دامت أربعين عـامـاً. لم يَهـدأ فيهـا لسـانُ المُهلهل عن قول الشعر. يُتابع به مـا يجري في تلك الحـرب. التي تُعرف بحَـرب البَسُوس.

والمُهلهل لم يُصْبح رجلَ حرب في يومٍ وليلة، بل كان مع أيّام لهوه مُشـاركاً في الحرب، ولكنها لم تكن حـرباً طـويلة الأَمد، كتلك التي أشعـل هو أُوارهـا بعد مَقتـل أخيه كُليب، وكـانت تلك الحرب التي خـاض غِمـارَهـا المُهلهـل مع أخيه كُليب، وهي حـرب السلاّن، التي يقـول فيها المهلهـل مُخـاطبـاً خَصمـه آبن عُنق الحية:

لــو كــان نــاهٍ لابــن حَــيَّـة زاجِــراً     لَــنَــهــاه ذا عــن وَقــعــة الــسُّــلاَّنِ

وكـان المُهلهلُ قبـل أن تَنْشَب حربُ البَسـوس يَرعى لبني عمـه من بني بكـر حُرمتهم، وكم حاول أن يَـرُدَّ أخاه كُليبـاً عن قَتل جَسّـاس البكري، وكـان مما قـاله لأخيه في هذا:

أخٌ وحَـرِيــمٌ سَـيّــىءٌ إن قــطعــتُــه     فقَــطْعُ سُعُـودٍ هَـدْمُهـا لـكَ هـادِمُ
وقـفتُ عـلى ثِنتَـيـن إحــداهـمـا دَمٌ     وأُخْــرَى بهـا منّـا تُحَـزُّ الغَـلاصِمُ

ولكنّ كُلَيباً أبى إلا أن يبلغ بالشَّر مداه، وكان هو الآخر شاعراً، فقال:

سأَمْضِي له قِـدْماً ولـو شابَ في الَّـذي     أهـمُّ بــه فيمـا صـنـعـت الـمَـقـادِمُ

ويُقتل كليب، ويهيج لقتله المُهلهل، وينسى ما بـدأ به من مُوادعة، وإذا هـو شاعر تلك الحرب، كما قلتُ لك قبل.

وكان المُهلهل حين قُتل أخوه كليب يَضُمُّه مجلسُ شراب، فيدع الكأسَ جانباً ويقول:

دَعِيني فمـا في اليـوم مَصْحًى لشاربِ     ولا في غَـدٍ مـا أقـربَ اليوم مِن غَـدِ
دَعِيني فـإنّي فـي سَمـارِيـرِ سَـكْـرةٍ     بـهـا جَـلَّ هَمِّي وآستبـان تجلُّدِي

ثم يهيج به الحُزن شيئاً فيقول:

كُـنَّـا نغـارُ علـى العَـوَاتِـقِ أنْ تُـرَى     بـالأَمْس خـارجـةً عـن الأوطـانِ

فخــرجْنَ حين ثَــوى كُـليبُ حُسَّـراً ... مُـسـتـيـقـنـات بـعـده بِـهَـوَانِ

ثم إذا هو يثور الحُزن في قلبه على أخيه كليب فيَنطلق قائلاً:

أهــاج قَــذَاءَ عَــيْـنــي الإذّكــارَ ... هُــدُوًّا فــالــدُّمــوع لــهــا آنـحــدارُ

وصــار الـلَّيــلُ مُـشتـمــلاً عــلينــا ... كــأنَّ الــليــلَ لــيس لــه نَــهــارُ

وتوالت الوقعات بين تَغلب وبكر، والمُهلهل من ورائها يقول:

ولأوردنَّ الــخَــيْــلَ بَــطن أَراكــةٍ ... ولأَقْــضــيــنَّ بـفِـعــل ذاك دُيُــونــي

ويرى المهلهل أنه أَسرف في قتل البَكريّين فيقول:

أكـثـرتُ قَتْـلَ بـني بَـكْـرٍ بـربِّـهـم ... حتى بـكـيتُ ومــا يَـبكي لـهم أَحَـدُ

والمُهلهـل على هذا كـان دائم الذِّكـر لأخيه كُليب، يبكيـه كلما فَـرِغ لنفسه، فتراه يقول:

كُلَيْبُ لا خيــرَ في الـدُّنيــا ومَن فيهــا ... إن أنـت خَلَّيتهــا فـي من يُـخلِّيـهَــا

ويقول:

إنّ تحت الأَحجــار حَزْمــاً وعَــزْمــاً ... وقَــتِـيــلاً مِــن الأرائــم كَــهْــلاَ

ويقول:

لـمّــا نَعى النَّــاعِي كُلَيْبــاً أَظلمـت ... شمسُ النَّهــار فمــا تُـريــد طُلوعَــا

ويقول:

إنّ في الصَّــدْر مـن كُلَيـب شُجــونــاً ... هــاجِســاتٍ تَكَــأْن منــه الجِــراحَــا

ويسعى ساعٍ من بني بَكر هـو الحارث بن عبّـاد ليضع لهـذه الحرب الـطاحنة بين الحيين نهـاية، فيـرسل آبنَـه بُجَيْـراً إلى المُهلهـلْ، ويقـول: وقـد أرسلتُ آبني إليك، فإما قتلته بأخيك وأَصلحت بين الحيين، وإمَّا أطلقته.

وكـانت ثورة الغضب لا تـزال تملك المُهلهَل، فيقتـل بُجيراً قيـامـاً، ويقـول قصيدته المشهورة التي عَدّد فيها أيامه في تلك الحرب، والتي قال في مطلعها:

أَلَــيْـلَتَـنــا بــذي حُـسُـمٍ أَنِـيــرِي ... إذا أنـتِ آنـقـضـيـتِ فــلا تَـحُــورِي

ويهيجُ هذا الحـارثَ بن عبّاد فيشمّـر للحرب وكـان عنها بمَعـزِل، فتزداد نـار

الحرب أُواراً. ويقول الحارث، وكان شاعراً، ويقول المهلهلَ، وتمتد الحرب أربعين عاماً، كما قلت قبل.

تُرى لو لم تكن هذه الحرب أعاش المهلهل لِغير هذا الشعر الحربيّ؟ وكان منه شاعراً آخر في أغراض أخرى؟

لقد جَرَّبناه يوم أن فَرغ للهوى فلم نَظفر منه بشيء من الشِّعر[1].

* * *

ومن أشعار الدواوين، **الشَّنْفَرى الأَزْديّ (٥١٠ م)** من الأوس بن حُجر، ثم إذا هو مُسْتَعبد في بني شبابة يمدحهم صغيراً ويعدو بنو سلامان بن مفرج على بني شبابة ويأسرون منهم رجلاً. فيفتدي بنو شبابة رجلهم من بني سلامان بالشَّنفرى. ويتولّى أحدُ بني سلامان الشَّنفرى ويَرعاه ويقع من أهل هذا السُّلامي إلى الشنفرى ما يؤذيه ويُغضبه ويفزع الشنفرى إلى مُستعبده الأول من بني شَبابة بن فهم يسأله عن أَصله، ويعلم الشنفرى عندها أنه من الأوس بن حُجر، وأنه آستَعبد في بني شَبابة، ثم أُسلم إلى بني سَلامان فِدَاءً.

عندها تثور ثائرة الشَّنفرى، وكان قد شَبَّ وقَوِي، ويُقسم ليقتلنّ من بني شبابة مائة، ويقول:

أنا آبنُ خِيار الحُجْر بَيْتاً ومَنْصِباً     وأُمي ابنَة الأَحرار لو تُعْرِفونُهَا

ثم عاد ليثأر لنفسه من بني سَلامان، فقتل منهم ما أمكنه ذلك، وخرج في إثره رجلان منهم فقتلهما، وقال:

قتيلَيْ فَجارٍ أنتُما إن قُتِلْتُما     بجَوْفِ دِحيس أو تَبالة يا آسْمَعَا

ويتحدى مُلاحقيه من بني سلامان ويقول:

لا تقبروني إنّ قَبْري مُحرَّم     عليكم ولكن أَبشري أُمَّ عامِرِ

---

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ شعراء النصرانية.

إذا احتملت رأسي وفي الرَّأْس أكثري وغُودر عند المُلتقى ثَمَّ سائِرِي
هنالك لا أرجو حياةً تسُرُّني سَمِيرَ اللَّيالي مُبْسَلاً بالجَرائِرِ

ويذكر الشنفرى وهو بين قومه من الأَوْس أن غارات الأزد على قومه كانت السبب الأول في خروجه عن أهله، ثم يذكر أن من الأزد كان حَرام قاتلُ أبيه، فيُغير على الأزد ما سَنحت له الإغارة، ويظفر بقاتل أبيه، فيقتله ويقول:

قتلتُ حراماً مُهْدِياً بمُلَبِّدٍ ببطن مِنًى وَسْط الحَجيج المصوِّتِ

هذه هي حياة الشَّنفرى وهذا شعره، وُلد للحرب ومات في الحَرب، ولم تقع عيناه على شيء غيرها، فلم ينطق لسانه إلا بما رأت عيناه.

وَعدَّه لهذا الدارسون من فتاك العرب، كما عدَّوه من عَدَّائيهم، لسُرعة خَطوه، وكانت تلك صفة كل فاتك حتى لا يُلْحق إذا فَرَّ.

ولقد غالَوا فقالوا: إنه أقسم ليقتلن مائة من بني سُلامان، فإذا هو يقتل منهم تسعةً وتسعين، ثم يمُرّ رجلٌ من بني سلامان بقبره بعد ما نُبش، فتَنشب في رجله عَظمة من عِظام الشنفرى، فتكون سبب موته.

ولا أستطيع أنْ أَختم الحديث عن الشنفرى قبل أن أذكر أنه كان له لاميّة، تسمى لاميّة العرب، عُني الدارسون بها قديماً وحديثاً، وهي التي يقول في مطلعها.

أَقيموا بني أُمِّي صُدور مطِيِّكم فإني إلى قَوم سواكم لأَمْيَلُ

ولم تكن هي الأخرى في غرض غير الحرب[1].

* * *

ومن أصحاب الدواوين: **سَلامة بن جَندل التميميّ (٥٢٠ م)** من فُرسان تَميم، غيرَ أنّ شِعره في فُروسيّته يطويه طياً ولا يُفرده، فثمة بائية له تبلغ

---

(١) الأغاني ـ المفضليات ـ شرح الحماسة للتبريزي ـ شرح الحماسة للمرزوقي ـ ديوانه.

أبياتها الخمسين، تراه فيها يبكي الديار، ويأسف على شباب ولى، ويفخر بجُوده وجُود قومه، ثم يعتزّ بهم سَلْماً وحَرباً، وخَطابة وشجاعة، وينعت خيلهم ونفعها، ثم هو بعد هذا التقديم كله يعرض في أبيات قليلة كيف كان هَمُّ الأعداء بقومه، وكيف كان رَدّ قومه لهم، ثم يخرج من هذا إلى وصف السيوف والرماح، وكان وصّافاً، ويعود إلى قومه فيذكر شجاعتهم ونَجدتهم.

هذه القصيدة تمثّل شعر سَلاَمة كُلَّه، وأنت ترى فيها أنّ الوصف أغلبُ على شعره، أمّا عن فروسيّته التي تتمثّل في هذه الأبيات:

هَمَّت مَعدٌّ بنا همًّا فَنَهْنَهَهَا ... عنّا طِعَانٌ وضَرب غيرُ تَذْبِيبِ

غير تذبيب: غير ضعيف.

إنْ واعدتنا مَعَدٌّ وهي كاذبةٌ ... نَصْراً فكان لنا ميعاد عُرْقُوبِ

بالمشرفيّ ومَجْدولٍ أسافلُها ... صَمّ العَوامل صَدْقات الأنَابِيبِ

فلا تُحس زَهوا ولا خيلاء بنفسه بل يرد الفَخر لقومه.

ويؤكد لك هذا قولَه من قصيدة أخرى:

ألا هل أتى أبناءنا أهلَ مَأْرِبِ ... كَما قد أَتَى أَهْلَ النَّقَا فالخَوَرْنَقِ

بأنَّا حَبسنا بالفُرُوقِ نِساءنا ... ونحن قَتلنا من أَتانا بمأزِقِ

ونراه لا ينفر بنفسه إلا حين يذكر شَيبه ويتحسّر على شبابه، فيقول:

يا خَدُّ أمسَى سَوادُ الرأس خالطه ... شَيبُ القَذال اختلاطَ الصَّفْو بالكَدَرِ

يا خَدُّ أَمست لُبَانَاتُ الصِّبَا ذَهَبَتْ ... فلستُ منها على عَيْنٍ ولا أَثَرِ

كان الشَّبابُ لَحاجَاتٍ وكُنَّ لَهُ ... فقد فرغتُ لحاجاتِيَ أنا الأُخَرِ

ولا نكاد نلحظ فُروسيّته المُفردة إلا في أبياته:

تَقول آبْنتي إنَّ آنْ طلاقك واحداً ... إلى الرَّوْع يوماً تاركِي لا أَبَا لِيَا

ذَرِيني من الإشفاق أو قَدِّمي لنا ... من الحَدَثان والمنيَّة واقِيَا

سَتَتْلف نَفسي أو ســأَجـمــع هَجْـمَــةً ... تَــرى ساقِيَيْهــا يَألمــان التَّــرَاقِيَــا[1]

* * *

ومن أصحاب الدواوين: **المُثقَّب العَبْدِيّ (٥٢٠ م)** هو عائد بن مِحْصن.

وقيل: لُقِّب المثقَّب لقوله:

رَدَدْنَ تـحيَّـةً وكَـتَـمْـنَ أُخــرى ... وثَـقَّبْـنَ الــوَصــاوص للعُـيُــونِ

والوصاوص: الثقوب في الستر.

وهذا البيت من قصيدة للمثقب في الغزل، يقول فيها:

أفــاطمَ قَبْــلَ بَـيْنـكَ مـنِّعـينِـي ... ومَنْعــك مـا ســألتُــك أنْ تَبيني

أن تبيني، أي هذا البين والفراق.

ولا تَــعِــدِي مَــواعِــدَ كــاذبــاتِ ... تَـمُــرُّ بـهــا رِيَــاحُ الـصيــف دُونـي

فــإنّـي لــو تُـخــالـفـني شِـمَــالِـي ... عِـنَــادَكِ مــا وصلتُ بـهــا يَـمِـينِـي

أي لا تعاندني شمالي عنادك.

إذَن لقــطعتُهــا ولقُلْتُ بيني ... كـذلك أَحْتَـوِي مَن يَحتوِيني

أحتوي: أكره.

ونقرأ للمثقب أخرى في الغزل، غير أن محبوبته هنا هند، وفيها يقول:

ألاَ إنَّ هِـنْــداً أمِس رَثَّ جَــدِيـدُهــا ... وضَنَّت ومــا كــان الـمَتــاعُ يَـؤُودُهَــا

المتاع: ما تمتعنا به من حديث.

ثم إن المثقِّب بعد هاتين حكيم يَعِظ، فنقرأ له:

لا تَــقــولَــنَّ إذا مــا لــم تُــرِدْ ... أنْ تُتِمَّ الــوَعْــدَ في شَيْءٍ نَعَمْ

حَسَنْ قــولَ نَعم مِن بَعْــد لا ... وقَـبِيــحُ قــولُ لا بَعــد نَـعَـمْ

كما تقرأ له في هذه القصيدة:

أَكْــرم الــجــارَ وارعَ حَــقَّــه ... إنّ عِــرْفــان الفتى الحقّ كَــرَمْ

وكذا تقرأ له فيها:

---

(١) الشعر والشعراء ـ شعراء النصرانية ـ المفضليات ـ ديوانه.

وَلَبعض الصَّفح والإعراض عن ذي الخَنا أبقَى وإن كان ظَلَمْ

وكذا نقرأ له فيها:

أجعل المال لِعِرضي جُنَّةً إنْ خَير المال ما أدَّى الذِّمَمْ

ولعل من هذا قولُه لعمرو بن هند يَمدحه:

غَلَبْتَ مُلوكَ الناس بالحَزْمِ والنُّهَى وأنتَ الفَتى في سُورة المَجد تَرْتَقِي

السورة: المنزلة الرفيعة. وهكذا نرى المثقِّب شاعراً، أَمْلَى على البيئة ولم تُمْلِ عليه البيئة، فعاش يُوجِّه ولا يُوجَّه[1].

* * *

ومن أصحاب الدواوين، **الحارث بن عبّاد البَكْريّ (٥٢٥ م)** فارس، والمراجع تُحدِّثنا أنه أخُو حرب منذ أن كان، يفزع إلى سهامه مع كُل مُلِمَّة تُلِمّ؛ من ذلك قتله مَعمر بن سَوّار. غلام عِمْران السَّدوسي، ثم قتله الفُضيل بن عمران، لا لشيء سِوى آختلاط إبلهما بإبله، وفي ذلك يقول:

قتلتُ ابنَ عِمران الفُضَيل وَعبده بقَتل غُلامِي مَعْمر بن سَوارِ

ثم إذا الحرب تثور لهذه بين سَدوس ومن والاها، وبين ربيعة ومن والاها، وإذا فارس ربيعة هو الحارث بن عبّاد، وإذا هو يقول في يوم من أيام تلك الحرب، وهو يوم حُزَاز:

نحن مَنَعناكم وُرود النَّهْرِ بالمُرْهَفات والرِّماحِ السُّمْرِ

وتَهيج الحربُ بين بكر وتغلب، وهي حرب البسوس التي دامت أربعين سنة، ويعز على الحارث أن يُقتل فيها سيد بني تغلب، وكانوا بني عُمومته، وهو كُليب، في ناقة، فيعتزلها وتَضطرم الحربُ طويلاً، ويتحرّك الحارث للصُّلح، فيرسل ابناً له هو بُجير، للمُهلهل أخي كليب، إن شاء المهلهل قتله فداء لأخيه كليب، وإن شاء رده سالماً وكَفَّ عن الحرب.

فيقتل المُهلهل بُجيراً ويقول: بُؤْ بِشِسْع نَعل كليب، وتثور ثائرة الحارث ويَنهض عن قومه بني بكر ليأخذ بثأره.

---

(١) الشعر والشعراء ـ طبقات الشعراء لابن سلام ـ المفضليات ـ شعراء النصرانية ـ ديوانه.

ويقول قصيدته المشهورة:

قَتلوه بِشِسْع نَعْل كُلَيب ... إنّ قَتل الكَرِيم بالشِّسْع غالِي

يا بَني تَغْلبٍ قتلتُمْ قتيلاً ... ما سَمِعْنا بمثله في الخَوَالِي

قَرِّبا مَرْبِطَ النَّعامة مِنِّي ... لَقِحَت حَرْبُ وائل عن حِيَالِي

والنعامة: فرسه.

وإذا الحارث في تلك الحرب يلقى المهلهل فَيأسره، ويَجُزُّ ناصيته، ويقول الحارث للمُهلهل، وهو لا يعرف أنه المهلهل: دُلَّني على عديّ وأنت حُرّ. فيشير المهلهل إلى امرىء القيس بن أبان، فيُطلق الحارث المهلهل ويُسرع إلى امريء القيس فيقتله، ويقول: لَهْفَ نَفسي على عَدِيّ ولم أعرف عديًّا إذ أمكنتني منه اليَدانِ. وعدي: اسم المهلهل.

وتَضْرَى الحرب، والحارث يؤجِّج ضِرامها بشِعْره، وتَرجح كفّة تَغلب كفّة بَكر، وتَشْكو بَكر كثرة قَتْلاها. وتسأل الحارث في الصُّلح، فيقول: آليتَ ألاّ صُلح حتى تُكلِّمني الأرض.

وتَحتال تغلب فتُواري رجلاً في سِرْب، حتى إذا مر به الحارثُ قال:

أيا مُنْذرٍ أفنيْتَ فاسْتَبق بعضنا ... حنانَيْك بعض الشَّرِّ أهونُ مِن بَعْضِ

فقيل للحارث: بَرَّ قَسَمُك. وكان الصُّلح بين بَكر وتَغلب.

وهكذا رأينا الحارث ضَمَّته الحروبُ إلى ساحتها صَغِيراً فقال، وأثار هو هَيْجها كبيراً فقال، وما أحسب عُمْرَه إلا كان هذا وذاك، وكان شِعره في هذا وذاك[1].

* * *

ومن شعراء الدواوين: **آمرؤ القيس الكندي (٥٣٩ م).**

هذا شاعر فَحْل عاش حياتين غَرق فيهما إلى الذَّقن، حياةَ لَهْوٍ نَعِمَ بها ما

---

(١) شعراء النصرانية ـ الأغاني ـ ديوانه.

شاء له النَّعيمُ صغير وحياةَ حرب عُنِّي بها ما شاء له العَناء كبيراً.

ولقد دخل الأولى آستجابة لذاته الطاغية، ودخل الثانية آستجابة لشهوة الثأر، ولو لم يَستجب للأولى لخالف فِطرته، ولو لم يَستجب للثانية لجرَّ على نفسه عارَ الأبَد.

لقد كان أبوه مَلِكاً، ونشأ هو مُنَعَّماً، فإذا هو ذلك اللاهي المُسترسل في لهوه، ومات أبوه مقتولاً. وكان هو الذي يأخذ بدَمه، فحَمل عِبء الأخذ بثأر، وهو بَين واجبٍ يَدفع، ورغبة تَمنع، فلقد أخرجه هذا الواجبُ عما يُحب إلى ما يكره، وحَسبك كلمته عندما بلغه مقتل أبيه: ضيَّعني أبي صغيراً وحَمَّلني دَمَه كبيراً.

فلقد كان أبوه أَبعده عنه لِمَا رأى من تهتُّكه.

ولقد قال آمرؤ القيس في الأولى فأَوسعها قولاً، وقال في الثانية وأَوسعها قولاً، ومعلقته اللامية خيرُ ما يُفصح عن حياته اللاهية بعُهْرها وفُحشها، يقول في بعض أبياتها:

ويومَ دخلتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنيزة ... فقالت لَكَ الويلاتُ إنّك مُرْجِلِي

تقول وقد مال الغَبِيطُ بنا معاً ... عَقَرْتَ بعَيري يا امرأَ القيس فآنْزِلِ

فقلتُ لها سِيري وأَرْخِي زِمَامَه ... ولا تُبعديني عن جَناكِ المُعَلَّلِ

ولقد كان آمرؤ القيس يُعد من عُشّاق العرب والزُّناة، شَبَّب بالكثيرات منهنّ وفَضَحَهُنّ في شِعره تلك هي حياته اللاهية التي أخرجه منها مقتلُ أبيه، فإذا هو مُستَنْجِدٌ مرةً، ومُحارب أخرى، ومادح ثالثةً، وهاجٍ رابعةً، وشاكٍ خامسةً.

نقرأ له في توجهه إلى قيصر مُستنجداً:

بَكى صاحِبي لمَّا رأى الدَّرْبُ دونه ... وأَيقن أنَّا لاحِقَانِ بقَيْصَرَا

فقلتُ له لا تَبْكِ عيناك إنَّما ... نُحاول مُلْكاً أو نَموت فتُعْذَرَا

ونقرأ له في الحرب:

أيقتلني والمَشْرفيّ فيّ مُضاجِعِي ... ومَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأنياب أغْوَالِ

وليس بذي رُمْح فيطعنني به | وليس بذي سَيْفٍ وليس بِنَبَّالِ
كأنّي لم أركبْ جواداً ولم أقلْ | لخَيْليَ كُرِّي كرةً بعد إجفالِ
ولم أشهد الخيلَ المُغيرةَ بالضحى | على هَيْكل نَهْدِ الجُزارةِ جَوَّالِ

ونقرأ له في مدح بني ثُعل وقد أعانوه:

ألا حَبَّذا قومٌ يَحُلُّون بالجَهَلْ | واثُعَلا وأين منِّي بنو ثُعَلْ

ونقرأ له في هِجاء بني حنظلة، وقد قعدوا عن نُصرته:

أحنظلُ لو كنتم كِراماً صبرتمُ | وحُطْتُم ولا يُلْقى التميميُّ صابِرَا

ونقرأ له شاكياً:

أبعدَ الحارث الملكِ آبنِ عَمْرِو | لـه مَلَكُ العِراق إلى عُمَانِ
مُجَاوَرَةً بني شَبَجَى بن جَرْمٍ | هواناً ما أُتيح مِن الهوانِ

وفي ثنايا هذا كُله وصف آمرؤ القيس رُمْحَه وفَرسه وناقَته ومشاهد الطبيعة، وهذه كلُّها عندي مداخل إلى الأغراض لا أغراضٌ بذاتها، كما يذهب الدارسون.

وهكذا مضى هذا الشاعر الفَحل يتنازعه شيئان: هوى وثأر: فوفّى لهذا كما وفّى لذاك[1].

* * *

ومن شعراء الدواوين: **المُتلمِّس الضَّبيّ (٥٥٠ م).**

هو من بني ضُبيعة، غير أن نشأ بين أخواله بني يشكر. ويقال: إنه وُلد فيهم فلم يَعُدْ يُعرف إلا بهم، وكادوا يَغلبونه على نَسبه، وأصبح بهذه مُشَوَّش النَّسب، وبها كان يُعَيَّر. ولعلَّها هي التي أفسدت ما بينه وبينَ ملك الحيرة عمرو بن هند، وكان المتلمِّس ينادمه هو وابن أُخته طَرَفة.

وكان الحارث بن التوأم اليشكريَ يوماً عند عمرو بن هند، فسأل عمرو الحارثُ عن نَسب المُتلمِّس، والمتلمس حاضر، فأراد أن يَدَّعيه، فثار لها الملتمس وقال:

---

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ شعراء النصرانية ـ ديوانه.

أحـارثُ إنَّـا لـو تُسَـاط دِمــاؤُنـا      تَــزَايلْنَ حتـى لا يَمسّ دمٌ دمَــا

تُساط: تُخلط. يعني أنها لو خلطت لا تلبث أن تتمايز.

أمُنتقيــا عن نَصـــر بُهشَــة خِلْتَني      ألاَ إنّني منهــم وإن كنـت أيئمــا

ومـا مرت هـذه دون أن تتـرك فِعْلَهـا في نفس المتلمّس، فحفـظهـا لاثنتين: الحارث اليَشكريّ، والملك عمرو بن هند.

أما عن الحارث فحَسْبه مع المتلمس ما فارعهُ به في هذا الشعر الذي ذكرتُه، وأما عن عمرو بن هند فلقد كان الأمر بينهما أَشْرى وأكثرَ تفاقُمـاً، إذ لم يلبث عمرو غيـرَ قليـل حتى حَمَّـل المتلمّس صحيفـةً إلى عـامله بـالبحـرين يـأمـره فيهـا بقتـل المتلمس، وكما حمَّل عمرو المتلمس هذه الصحيفة حَمَّل ابن أخته طرفة مثلَها.

وأخذ المتلمّس وطرفة طريقهما إلى البَحرين يَلتمسان هاتين الجـائزتين اللتين وعدهما بهما عمرو عند عامله على البحرين.

وكان المتلمّس غيرَ قـاريء، كما كـان ابنُ أخته طـرفة غيـرٌ قاريء، واستقـرأ المتلمّس قارئاً في الطريق، فأخبره بما فيها، وعندما علم ما فيها رَمى بالصحيفة في البحر، وفَرَّ إلى الشام مُستجيراً بملوك الغساسنة، أمّا ابن أخته طرفة فلم يَفعـل مثل خاله المتلمّس، ومضى إلى حَتفه فإذا هو مقتول.

كانت هذه الأحداث هي التي أَملت على المتلمّس شِعْرَه كلَّه. فهو مرة يهجـو عمرو بن هند فيقول:

قُـولا لعمـرو بن هِنـد غيـرَ مُتَّئِبٍ      يا أَخْنَس الأنفِ والأَضراس كالعدِس

المتئب: المُسْتَحِي.

ويقول في تلك الصحيفة التي ألقاها في الحِيرة:

وألقيتُهـا بـالثِّني من جَنب كـافرٍ      كــذلـك أقْنُــو كــلَّ قِطٍّ مضلَّلِ

الثني: منعطف النهر. وكافر: آسم علم لنهر الحيرة.

رُضِيتُ لهـا بـالمـاء لمّـا رأيتُهــا      يُجَول بها التَّيَّـار في كُل جَـدْوَلِ

ويقول في نجاته ومقتل ابن أخته طَرفة:

مَن مُبلغ الشُّعراء عن أخَوَيْهِم ... خبراً فتصدُقهم بذاك الأنْفُسُ
أوْدى الذي عَلق الصَّحيفة منهما ... ونَجا حِذارَ حَياته المُتلمِّسُ

ويقول حين حرم عليه عمرو بن هند حَب العراق:

آليتُ حَب العِراق الدَّهْرَ آكلُه ... والحَبُّ يأكله في التُّربة السُّوسُ

ويقول حين لَحق بالشام يُحرِّض قوم طرفة على الأخذ بالثأر:

إنّ الخِيانة والمُغَالة والخَنى ... والغَدْرَ نَتركه ببَلْدة مُفْسِدِ

المغالة: الحقد الباطن.

أبني قِلَايةَ لم تكن عاداتُكم ... أَخْذَ الدَّنيّة قبلَ خُطّة مِعْضَدِ
فالعَيْر دُونكم أقْتلوا بأخيكم ... كالعَيْر أبْرَز جَنْبه للمِطْرَدِ

وقلاية: امرأة من يشكر، وهي بَعض جدّات طرفة.

هذا قليل من كثير مما قاله المتلمّس في هذا الذي أُحيط به، ولم يَخل قوله من حِكمة عارضة، أو مثل عابر، ولكن هذا وذاك لم يُقْصَدا لذاتيهما.

فمن حِكمه وهو ما لم يُسبق إليه:

لِذي الحِلْم قَبل اليوم ما تُقرع العَصَا ... وما عُلِّم الإنسان إلا ليعلمَا
وما كنتُ إلاّ مثلَ قاطعِ كفّه ... بكَفٍّ له أُخرى فأصبح أجذما

ومن أمثاله:

وأعلم عِلْمَ حَقٍّ غيرَ ظَنٍّ ... وتَقْوى الله مِن خَير العَتَادِ
لَحِفْظُ المال أيسرَ من بُغاه ... وضَرْب في البلاد بِغَير زادِ
وإصلاحُ القَليل يزيدُ فيه ... ولا يَبقى القليلُ على الفَسَادِ

وكم كُنَّا نتمنّى أن لو فرغ المتلمس لِحكمه وأمثاله، ولم تَلُفّه تلك الأحداث بردائها، واحتوى هو الأحداث، ولم يجعلها تَحتويه[1].

* * *

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ شعراء النصرانية ـ الديوان.

ومن شعراء الدواوين: **عَبيد بن الأبرص الأسديّ (٥٥٠ م).**

هـذا شاعـر نَشأ في بني أسـد قومـه مُعْدِمـاً، ثم إذا هو يبلُغ بـه شعرُه إلى أن يكون نديماً للملك حُجْر بـن الحارث، والد آمريء القيس الشاعر، لمّا تَملَّك على بني أسد، ثم كان أنْ وقع بين عَبيد وبين الملك ما أغضب الملك عليه، فقـال عَبِيد يستعتبه:

أبلغ أبـا كَـرِبٍ عنّي وإخـوتـه ... قـولاً سيذهب غَـوْراً بعد إنْجادِ
لأعـرفنَّك بعـد المـوت تَنْـدبني ... وفي حيـاتي مـا زوَّدتني زادِي
فانظُر إلى ظِـلِّ مُلك أنتَ تارِكُـه ... هَـل تُـرْسِيَنَّ أواخيـه بـأَوتـادِ
الخَيْرَ يبقَى وإن طال الـزمان بـه ... والشـرُّ أخبث مـا أَوْعَيْتَ مِن زادِ

ويَستعصي بنـو أسد على الحـارث، فحَبس الحارثُ منهم نفـراً فيهم عَبيـد، فيقول عُبيد يسترضيه عنه وعن قومه بني أسد:

بَـرِمَـتْ بَـنُـو أَسَـدٍ كـمـا ... بـرمت بِبيضَتها الحمـامَـهْ
جـعلت لـهـا عُـرِدَيـن مِـن ... نَـشـم وآخـر مـن ثُـمـامَـهْ
مهمـا تـركتَ تـركتَ عـفـ ... ـواً أو قـتـلت فـلا مَـلامـهْ
أنـت الـمـليـكُ عـليـهـمُ ... وهم العبيـدُ، إلى القيامـهْ
ذلُّـوا لِسَـوطـك مثـلَ مـا ... ذَلَّ الأُشَيْقِـرُ ذو الـخِـزامـهْ

فَيَلِين الملك ويَعود إليه رضـاه عن بني أسد، ويُـطلق سراح عبيـد ومن معه، غير أنّ صَبر بني أسد بِحُجر كان قد نفد، فإذا هم يَثورون بحُجر ويقتلونه.

وينهض امرؤ القيس للانتقـام من بني أسد لقَتلهم أبـاه، ويحاول بنـو أسد أن يَسترضوه، فأبى آمرؤ القيس إلاّ قتالهم، فيقول عبيد:

يـا ذا المخَـوِّفَنـا بقتـ ... ـل أبيـه إذلالا وَحَيْـنـا
أزعمتَ أنـك قـد قتلـ ... ـت سَـراتنا كَـذِباً ومَيْنَا
إنّـا إذا غص الـشـقـا ... ف برأس صَعْدَتنا لَوَيْنَا

نحمي حقيقتنا وبعـ ـض الناس يسقط بَيْنَ بَيْنَا

ويُعَمَّر عبيد طويلاً، وتسوقه قدماه يوماً إلى المنذر بن ماء السماء لينال من عطائه، وكان اليوم الذي حلَّ فيه عَبِيد بالمنذر يوم بُؤسه، فلا يَفد فيه على المنذر إنسان إلا قتله، وسينشد المنذر عبيداً قوله:

أقفر من أهله مَلْحوبَ فالقطبيات فالذُّنُوبَ

ملحوب: ماء لبني أسد. والقطبيات: جبل لهم. والذنوب: موضع في ديارهم.

وهي أحدى القصائد العشر.

وأحس عَبيد بالموت يطالبه، فقال:

أقفر من أَهله عَبِيدُ فليس يُبْدِي ولا يُعِيدُ
عَنَّت له عَنَّة تَكُودُ وحان منها لها وُرُودُ

ولعبيد غير هذا الذي مرَّ بك شِعر لم يتقيَّد بحادثة ما منه والبينة التي يقول فيها:

إذا كنت لم تَعبأ برأيٍ ولم تُطِع لنُصْحٍ ولها تُصغي لِقَوْلَةِ مُرشِدِ
فلن تَتَّقي ذمَّ العشيرة كُلِّها وتَدفع عنها باللسان وباليَدِ

وفيها يقول:

إذا أنت حَمَّلت الخؤُون أمانةً فإنك قد أَسندتها غيرَ مُسْنَدِ
وجدتُ خُؤون القَوم كالصِّل يُتَّقى وما خِلْت عَمَّ الجار إلا بِمَعهدِ
ولا تُظْهرنَّ وُدَّ آمريء قبل خُبره وبعد بلاء المرء فاذمَمْ أو آحمدِ

ومن هذا الشعر البعيد عن الأحداث بائيته التي تفيض حِكَماً، والتي منها:

فكل ذي نعمة مَخلوب وكُل ذي أَمل مكذوب
وكل ذي غَيبة يَؤوب وغائبُ الموت لا يَؤوب
مَن يسأل الناس يَحرموه وسائلُ الله لا يَخِيبُ

وغير هاتين القصيدتين قوله في الفخر بقومه:

يـا أيهـا الســائلُ عن مَجـدنـا　　　إنــك عن مَسْعــاتنــا جــاهــلُ

ثم قوله يحث على الصبر:

صَـبِّـرِ الـنـفس عـنـد كُـلّ مُـلِمٍّ　　　إن فـي الـصبـر حيـلةَ الـمُـحتـالِ

ونقرأ له قوله: يرثي نفسه:

يـا حـارِ مـا راح من قـوم ولا آبتكـروا　　　إلا ولـلمـوت فـي آثـارهـم حـادِي

يـا حـارِ مـا طلعت شمسٌ ولا غَـرَبت　　　إلا تُـقـرِّب آجـالا الـمـيـعـادِ

هــل نـحـن إلا كـأرواح يُـمَـرُّ بـهـا　　　تحت الـتـراب وأجسـاد كـأجسـادِ

هذا هو عَبيد عاش في الأحداث فلم يُبعد عن المشاركة فيها مشاركة نافعة، وعاش للحياة الطليقة فأسهم فيها بالقول والرأي[٢].

* * *

ومن شعراء الدواوين **طَرفة بن العَبد البكريّ (٥٥٠ م)**.

وهذا شاعر مات عن عشرين عاماً، مكّنه ثراؤه بأن يطلق لنفسه العَنان في هواه، فلها كما شاء، وكان أحب شيء إليه شرب الخمر، فإذا هو نديمٌ لعمرو بن هند، ثم إذا هو مقتول بأمر عمرو بن هند.

هذه هي الحياة القصيرة وصفها طرفة، جامعاً بين طرفيها، مُستوعباً أحداثها، يذكر دقيقها وجليلها. ظلمه قومه، وهو صَغير، حقًّا لأمه وردة فإذا هو أجرأ ما يكون على هجائهم، فيقول:

مـا تَنـظُرون بحَـقِّ وَردة فيـكمُ　　　صَغُـر البنـون ورَهط وردة غُيَّبُ

قـد يَبعث الأمرَ العـظيمَ صغيـرُه　　　حتى تُـظل لـه الـدِّمـاء تَصَبَّبُ

ويقال إنّ هذا الشعر أول ما قال طرفة، ثم نقرأ له يفخر بقومه:

وَرِثـوا السُّؤدد عـن آبـائهـم　　　ثم سـادُوا سُؤدداً غيـرَ زَمِـرْ

الزمر: القليل.

نَحن في المَشْتـاة ندعـو الجَفَلَى　　　لا تـرى الآدب فـينـا يَـنْـتَـقِـرْ

---

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ شعراء النصرانية ـ الديوان.

الجَفَلَى: الدعوة العامة. والآدب: الـذي يدعـو إلى المأدبـة. وينتقر: يـدعو دعوة خاصة.

وتُصيب قومَه سنة فيبذل لهم العَون قتادةُ بن سلمة، فيقول طرفة يمدحه:

أَبـلغ قـتـادةَ غـيْـرَ سـائِله    منـه الثواب وعـاجِـلَ الشَّكْمِ

الشكم: الجزاء على الشيء.

إنِّي حَمِـدْتُـك للعَشيـرة إذ    جـاءت إليـك مُـرِقّـة العَـظْمِ

مرقة: رقيقة، من الهزال.

ويتصل حبل طرفة بحبل عمرو بن هنـد نديمـاً، ثم يَشي الواشي بـطرفة عنـد عمرو ويقول له: إن طرفة يهجرك، فيُسرع طرفة إلى تبرئة نفسه ويقول لعمرو:

إنِّي وجَـدِّك مـا هجـرتُـك    والأَنصـابِ يُسفـح بينهنّ دَمُ

أَخشى عقابك إن قدرتَ ولم    أَغْـدِرْ فيُؤثَـر بينـنـا الكَـلِمُ

ولكن هذا لم يُرض عمرو بن هند، فيحمِّل طرفَة رسالـةً إلى عامله بـالبحرين يأمره بقتل طرفـة، ويَحمل الـرسالـة وهو يخـال أنه سـوف يَعود من البحـرين مملوء الوِطاب بخَير كثير، فإذا الأمر على غير ما خال طرفة، وإذا هو مقتول. ولطرفة معلَّقة تجاوز أبياتها المائة بثلاثة أبيات، أرَّخ فيها طرفـة لنفسه خيـرَ تأريـخ وأشمله، وآعتز فيها بقومه، ويختمها بقوله:

أرى المـوت أَعْـدادَ النُّفـوس ولا أَرَى    بَعِيـداً غـداً مـا أقـربَ اليــوم من غَـدِ

ستُبـدي لـك الأيـامَ مـا كنتَ جـاهـلاً    ويَـأتـيـك بـالأخبـار مـن لم تُـزَوِّدِ

ويبدو أن هذه المعلقة من آخر مـا قال، وكـأنه كـان يُحِسّ أنه على وشَـك أن يودِّع حيَاته.

وطرفة بكل ما قال كان صـدًى لحياتـه، فهو صَفحـة من إملاء الحيـاة وليست حياته صفحة من إملائه[1].

* * *

(١) الشعر والشعراء ـ الديوان.

ومن شعراء الدواوين **السموأل بن غريض الأوسي (٥٦٠ م).**

هذا شاعر صاحب مُثُل ومبادىء، عاش لمُثُله ومبادئه فكان أشبهَ بالواعظين والمُلتزمين قولاً وفِعلاً.

يَنطق عن موروث، إذ هو من ولد هرون بن عمران، أخي موسى بن عمران، نبي الله ورسوله عليه السلام، أودعه آمرؤ القيس الكنديّ أَذرعة، وكان في طريقه إلى الإستنجاد بقيصر، وكان المُنذر بن ماء السماء يطلُب آمرأ القيس، حين علم بما أُودعه امرؤ القيس عند السموأل، بعث برجل من رجاله على رأس خيل يسأله أن يعطيه ما أودعه آمرؤ القيس إياه، فأَباها عليه السموأل، ويقبض رسول المنذر على آبن للسموأل ويُوعده بقتله إن لم يرضخ لقوله، ويُؤثر السمُوأل أن يرى آبنه يُذبح على أن يخون أمانته، ويقول في هذا:

وفيتُ بأَدْرُع الكِنْديّ إني ... إذا ما خان أقوامٌ وَفَيْتُ
وقالوا إنه كَنز رَغِيبُ ... فلا والله أَغْدِرُ ما مَشَيْتُ

ويأتسي السموأل لما يلقى اليتامى من عَوز فيقول:

رأيتُ اليَتامى لا يَسُد فُقورَهم ... قِرَاناً لهم من كُل قَعب مُشَعَّبِ

القعب: القدح. والمشعب: المصلح.

ويقول في جُدود الناس في الحياة:

ولَسنا بأول مَن فاته ... على رِفقه بعضُ ما يُطْلَبُ
وقد يُدرك الأمرَ غيرُ الأَريب ... وقد يُصْرع الحُوَّلُ القُلَّبُ
ولكن لها آمرٌ قادِرٌ ... إذا حاول الأَمْرَ لا يُغلَبَ

ويقول في عاقبة كُلّ حقّ:

إسْلَم سَلِمْتَ ولا سَلِيمَ على البِلَى ... فَنِي الرِّجالُ ذوو القِوَى ففَنِيتُ
كيف السلامةُ إنْ أردتُ سلامةً ... والموت يطلُبني ولست أفُوتُ

ويقول في مِثلها:

إن آمرأً أَمِن الحوادثَ جاهِلٌ ... يَرجو الخُلودَ كضاربٍ بِقِدَاحِ

وله تلك اللامية المشهورة التي يَعُدُّ فيها مناقب قومه، والتي يقول فيها:

إذا سيِّدٌ منّا خلا قام سَيِّدٌ ... قَؤُولٌ لِمَا قال الكِرامُ فَعُولُ
وإنَّا لقومٌ لاَ نرى القتلَ سُبَّةً ... إذا ما رأتْه عامرٌ وسَلُولُ
يُقَرِّبُ حبُّ الموت آجالَنا عنا ... وتَكرهه آجالُهم فتَطُولُ

وهذه العِزّة التي تُحسها في فَخر السموأل بقُوّته، هي العزة التي رفعت به عن الدَّنايا، وجعلته في مصافّ الأوفياء الكُرماء، فكان بهذا شاعراً يَنطق عن إحساس ذاتِيّ يُملي عليه، أفاده من مَوروث، فهو يحاول أن يَنفع به وُجودَه[1].

* * *

ومن شعراء الدواوين، **الحارث بن حِلّزة البكريّ (٥٦٠ م)** شاعر مُقِلّ، يكاد يكون شِعره في اثنتين: الفخر والمدح. نَقرأ له في الفخر:

أُلفيتنا للضَّيف خَيْرَ عَمَارةٍ ... إلاّ يَكُنْ لَبَنٌ فَعَطْفُ المُدْمَجِ

أي إن لم يكن لين أجلنا القِداح على الجَزور فنحرناها للضيف.

وبَعَثْتَ من ولد الأغرِّ مُعَتِّباً ... صَقْراً يلوذ حَمامةُ بالعَوْسَجِ
فإذا طبختَ بناره نَضَّجته ... وإذا طبخت بغيرها لم يَنْضَجِ

ويقول يمدح آبن مارية قيس بن شَراحبيل:

فَهلَّا سَعيت لصُلَح الصَّدِيقِ ... كسَعي آبن مارية الأَقْصَمِ

ويقول بمدحه أيضاً:

وإلى آبن مارية الجوادِ وهَلْ ... شَرْوَى أبي حسّان في الإِنْسِي

مشروق: اعتل. أبو حسان: قيس بن شراحبيل، أي وهل مثله أحد.

ويقول لابنه وهو يُوصيه:

وآصْبُبْ لأضيافك ألبانَها ... فإنَّ شَرَّ اللبن المَوالِجُ

وهذا لم يخرج بحارثة إلى الوجود، وإنما الذي خرج به إلى الوجود، هو مُعلَّقته التي آستهلها بقوله: ـ

---

(١) الأغاني ـ طبقات الشعراء للجمحي ـ الأصمعيات ـ الديوان.

أذَنَتْنا ببينها أسماء   رُبَّ ثاوٍ يُمَلّ منه الثَّوَاءُ

والتي أبياتها تُربي على الثمانين بأربعة. ولندع جانباً ما يقوله الرواة إنّه آرتجلها، لا سيما إنهم يقولون: إنه كان عندها ابن خمس وثلاثين ومائة.

ويعنيك أن تعرف ما دفع الحارثَ إلى قولها، فهي لم تكن من فَيض الخاطر، وإنما كانت لِما رآه الحارث من مَكْرُمة أسداها عمرو بن هند لحيَّين متحاربين، هما بكر وتغلب، وإذا استطاع أن يُصلح بينهما بعد حرب دامت أربعين عاماً.

وهذه المعلّقة صفحة ناطقة بالأحداث التي كانت، وبالجُهود التي بذلت في إنهائها، والأهوال التي كانت، وهو لم يَنْسَ في ثنايا هذا العَرض أن يُشبع ما في طبعه من ميل إلى الفَخر بقومه بني بكر.

وهكذا كان الحارث بن حِلّزة آبن عشيرته لم يخرج عن نطاقها، كما كان ابنَ فِطرته، يُملي عن زَهوها[1].

* * *

ومن شعراء الدواوين: **علقمة بن عَبدة التَّمِيميّ (٥٦٠ م)**.

شاعر عاش الحُروب التي كانت بين قومه بني تميم، وبين جيران لهم، فجرَّته إليها مُنافحاً بلسانه لا بسنانه، يقول في يوم من أيام تلك الحروب:

وَدَّ نُفَيْرُ للمكاور أنَّهم   يَنْجُرَانَ في شاءِ الحِجاز المُوقَّرِ

نفير: تصغير: نفر. والمكاور: حيّ في مداحج، والموقر: الكثير المهمل.

ويقول:

مَن رجلٌ أحبوه رَحلي وناقتي   يُبلِّغ عنّي الشِّعرَ إذ مات قائلُهْ

قائله، يعني نفسه. وقال يمدح الحارث الغساني ويسأله أن يفُك إسار أخيه:

---

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ طبقات الشعراء لابن سلام ـ شعراء النصرانية ـ ديوانه.

طَحا بكَ قَلْبٌ في الحِسان طَرُوبُ بُعَيد الشَّبابِ عصرَ حان مَشِيبُ

وقال بعد أن فك إسار أخيه:

واقعتُه عنه بِشِعْرِيَ إذ كان لِقومي في الفِداء حَجَدْ

الحجد: عزة الشيء وقلته. وقال وقد غزا قومه آخرين:

ونحن جَلَبنا من ضَرِيّة خيلَنا نُكلّفها حَدَّ الإكام قَطَائِطَا

ضرية: مدينة، والإكام، جمع أكمة، وهي الحجارة المتراكمة، والقطائط: الجماعات.

ونقرأ بعد هذه المعلقة بائيته التي عارض بها بائيه آمريء القيس، وكانا نِدَّين، والقاريء لبائية آمريء القيس يجد بائية علقمة صورة منها، كما نَسب آمرؤ القيس نَسب علقمة، وكما وقف آمرؤ القيس بالدِّيار وقف علقمة بالديار، وكما وصف آمرؤ القيس فَرسه وصف علقمة فرسه.

وقد يخالف أُسلوب علقمة أسلوب آمريء القيس قُرْباً، وبعداً، ولكن المَسار واحد. يستهل آمرؤ القيس بائيته فيقول:

خليليّ مُرَّا بي على أُم جُنْدُب لِنَقْضي لُبانات الفُؤاد المُعَذَّبِ

ويستهل علقمة بائيته فيقول:

ذهبتَ في الهِجران في غَيْرَ مَذْهب ولم يَكُ حقًّا كُلّ هذا التجنُّبِ

ويقول آمرؤ القيس بعد هذا:

وقد أَغتدي قبل الشروع بسابحٍ أقبَّ كَيعفور الغَلاة مُحَبَّبِ

سابح: فرس سريع الجري، وأقب: ضامر البطن، واليعفور: حمار الوحش

ويقول علقمة في مثل هذا:

وقد أَغتدي والطيرُ في وُكناتها وماءُ النَّدى يَجري على كل مِذْنَبِ

المِذنب: مسيل الماء إلى الرياض. وعلى هذا النمط تساير قصيدة قصيدة. ثم نقرأ لعلقمة بعد هذا أبياتاً في الفخر حيناً كقوله:

كأنِّي لم أَقُلْ يوماً لعاديَةٍ شدُّوا ولا فِتْية في مَوكِب سِيرُوا

وفي الكَرِم حيناً آخر كقوله:

وأخِي مُحـافـظة طَلِيقٍ وَجهـه ... هَشٍّ جَـررتُ له الشِّـواءَ بمِسْعَـرِ

والمِسعر: العود الذي تحرك به النار وفي الغزل حيناً آخر، كقوله:

كـأنَّ آبنـة الـزَّيـديّ يـومَ لَقِيتُهـا ... هُنَيـدة مَكْحولَ المَـدامعُ مُـرْشِقُ

هنيدة، تصغير هند، وهي آبنة الزيدي. ومُرْشق: مُحِدّة النـظر. وما بعـد هذا العلقمة فهو قليل لا يَعدو تلك الأغراض العابـرة. هذا هـو علقمة، شَغلتـه الحروب مرة، وشُغل هو نفسه بآمريء القيس أخرى، ثم فَرغ لأغراض عابرة ثالثة[1].

* * *

ومن شعراء الدواوين: **حاتم الطائي (٥٦٩ م)** هذا شاعـر فُطر على طَبـع سَمْح جواد، وما إن آنطلق لسانُه بـالشِّعر حتى أخـذ يملأ بـه الأَسماعَ عن سَمـاحته وجُوده.

يقول الرُّواة: كان إذا جُنَّ الليلُ يُوعز حاتم إلى غُلامه أن يُوقد ناراً لينظر إليها مَن أضلَّه الطريقُ فيأوي إلى منزله، وفي هذا يقول حاتم:

أَوْقِـدْ فـإنّ الـليـلَ لـيـلٌ قَـرُّ ... والـرِّيـحُ يـا مُـوقِـدُ ريحٌ صِـرُّ

عَـسى يَـرى نـارَكَ مَـن يَـمُـرُّ ... إنْ جَلبت ضَـيْفـاً فـأنـت حُـرُّ

ويروي الرُّواة عن جُوده:

وعـاذلـةٍ هَبَّت بـلَيْـلٍ تَلومـني ... وقـد غابَ عيُّـوق الثُّـريّـا فعـوَّدَا

تَلوم على إعـطائي المـالَ ضِلَّةً ... إذا ضَن بـالمال البخيـلُ وصَـرَّدَا

يقولون لي أَهلكت مالك فآقتصد ... ومـا كنتُ لولا مـا تقولـون سيِّـدَا

وغير هذا كثير، ولكنه هو هو في جَوهره والجُود بالمال يجُرُّ إلى الجود بغيره، من عَفْو مع القُـدرة، وهكذا كـان حاتم يَعِفّ عن الإيـذاء والمعَيب، تُحس هذا في قوله:

ومـا من شِيمتي شَتْم آبن عَـمِّي ... ومـا أنـا مُخْلِفٌ مَنْ يَـرْتجيني

---

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ شعراء النصرانية ـ ديوانه.

وكما أنجد حاتم بماله مَن هو في حاجة إلى نَجدة، كذا أتجد بفُروسيته كُلَّ مأزوم مُضيق، فلقد كان حاتم فارساً، ولكنّا لم نَره استغل فروسيته في إغارة، بل نراه سخَّرها للغوث وإزاحة الكُرَب عن المكروبين.

وهكذا كان حاتم على هذه الفِطرة السَّمحة السخيّة، كما قلتُ قبلُ، ولم يُصْدِر عن غيرها في كل أفعاله، وكان شِعره صورةً لأفعاله هذه السَّمحة والسَّخِيّة.

أغار الحارثُ بن أبي شمر على قوم من طيء، فأَسَر مَن أَسَر، ويفزع حاتمُ لها، فيُسرع إلى الحارث يَحمل لسانه لا سِنانه، مُستجيباً في هذه لفطرته، فيقول للحارث:

ألَا إنني قد هاجني الليلةَ الذِّكْرُ ... وما ذاك من حُب النِّساء ولا الأَشْرُ
ولكنَّني ممّا أصاب عَشيرتي ... وقَومي بأقرانٍ حوالهم الصُّبَرْ

الأقران: الحبال، والصبر: الحظائر. وما إن سمع الحارثُ قولَه حتى أطلق لحاتم مَن أسر من قومه. ولعلّ هذه الأبيات تُفصح لك عن فِطرة حاتم في الشدِّة خيرَ إفصاح:

تَحَمَّلْ عن الأدنين وٱسْتبق وُدَّهُمْ ... ولن تَستطيع الحِلْمَ حتى تَحلَّمَا
متى تَرْقَ أضغانَ العَشيرة بالأَنَا ... وكَفِّ الأذى يُحْسَمُ لك الداء مَحْسَمَا
وما ٱبتعثَتْني في هَوَايَ لجاجةٌ ... إذا لم أجِدْ فيها أمامِي مُقَدَّمَا
إذا شِئْتَ ناويتَ أمرأ السَّوء ما نَزا ... إليك ولاطمت اللئيم المُلَطَّمَا
وذو اللُّبِّ والتَّقْوَى حَقِيقٌ إذا رأى ... ذَوِي طَبَعِ الأخلاق أن يتكرَّمَا

هذا هو حاتم عاش يملي عن فِطرة حميدة سماحةً وجوداً. صدرت عنها أفعالُه وأقواله، ولا ترى له شعراً في غيرهما(١).

* * *

ومن شعراء الدواوين: **عُروة بن الوَرد العبسيّ (٥٩٦ م)**. وهذا

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ شعراء النصرانية ـ ديوانه.

شاعر، فارس، صُعلوك، يَجمع حوله الصعاليك ويُؤويهم ليكونوا عُدَّته حين يُغير.

ولعل الذي جَرّه إلى الصعلكة فَقْرُه، ولكنْ هذا الفَقر الذي لم يجد عروة وسيلةً لدفعه غيرَ أن يكون صُعلوكاً، أحياً في نفسه الحَدَب على مَن كانوا على شاكلته فقراءً، ومن هنا جاء ضمُّه إليه هؤلاء الصعاليك يرعاهم ما وسعهم زادُه، فإذا نفذ هبَّ بهم يُغير.

وهذا الحَدَبُ الذي اتسع للصعاليك آتسع لغيرهم من المُعوزين، يَخْرُج لهم عمّا في يده، وكم كان بهم كريماً يَعِفُّ عن محارمهم.

وهذه النَّخوة ليست غريبةً على صُعلوك، فقِصص الصعاليك مَلأى بمثلها، لا تنفرد بها أُمة، ولا يخلو منها زمان، حتى نيكاد يُضرب بها المَثل.

ولكنْ فَرق بين جُود وُجود، ونَخوة ونخوة، جُود يُمليه خلق، مثل ما كان من حاتم الذي مرّت بك ترجمتُه، وجود يُمليه الثأر، وهذا هو جُود الصعاليك الذي يَثأرون به لأنفسهم. ثم إن هناك فرقاً بين نَخوة يُمليها الواجب، كما هي الحال في النُّفوس المهذَّبة، ونَخوة يمليها الاعتزاز بالقُوَّة.

أقول هذا لأدحض كلمةً تُعزى لِمُعاوية بن أبي سفيان، وهي: لو كان لعُروة بن الورد وُلْدٌ لأحببت أن أتزوج إليهم.

ثم لأدحض كلمة تُعزى لعبد الملك بن مروان، وهي: من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة.

وإليك شعر عروة يحدثك عن نفسه:

إذا المرءُ لم يَبعث سَوَاماً ولم يَرُحْ ... عليه ولم تَعطف عليه أقاربُهْ
فلَلْموتُ خيرٌ للفتى مِن حياته ... فقيراً ومِن مولًى تَدِبُّ عَقاربُهْ
وسائلةٍ أين الرَّحيلُ وسائلٍ ... ومَن يسأل الصُّعلوكَ أين مذاهبُهْ
مذاهبُه أنّ الفِجاج عريضةٌ ... إذا ضَن عنه بالفَعال أقاربُهْ
فلا أَترك الإخوانَ ما عِشْتُ للرَّدَى ... كما أنه لا يَترك الماءَ شاربُهْ

وأقرأ له هذين البيتين في جوده:

فــإنَّ حَـمِـيـتَـنـا أبــداً حَـرامٌ ... وليس لجــارِ منـزلنـا حَـمِيتُ

الحميت: السقاء.

ورُبَّــةَ شَـبـعَــة آثــرتُ فـيـهـا ... يَــداً جــاءت تُغيـر لهـا هتِيتُ

وأقرأ له يستنهض صعاليكه:

قلت لقـوم من الكنيت تـروحـوا ... عشيـة بنـا عنـدمـا وان رزح

تنـالوا الفتى أو تبلغـوا بنفـوسكم ... إلى ستــراح من همــام مبـرح

وأقرأ له في مثله:

خاطِرْ بنَفسـك كي تُصِيبَ غنيمةً ... إنّ القُعـود مـع العِيَـال قَبِيـحُ

الـمــالُ فيــه مَـهــابــةٌ وتَـجِـلَّةٌ ... والفَقــر فيــه مــذلَّــة وفُضُــوحُ

واقرأ له في الاعتزاز بنفسه:

فــإذا غَنِيتُ فــإنّ جــاري نَيْـلُهُ ... مِن نــائلي ومُـيَسَّــرِي مَـعْهُــودُ

وإذا افتقـرتُ فلن أُرَى مُتخشِّعـاً ... لِأخي غِنًى معــروفُــه مَـكْــدُودُ

ويقول لامرأته وقد نَهته عن الغزو:

ذَرِيـنِي أُطَــوِّف في البِــلاد لـعـلَّني ... أُخلّيـك أو أُغنيك عن سُـوء مَحْضَـرِي

ويقول لها:

دَعيني لِلغـنى أسـعى فــإنِّـي ... رأيتُ النـاسَ شـرُّهمُ الفَقِيــرُ

وفي هــذا أو نحوه يَجـري شعر عُـروة، يَسعى إلى الغِنى جُهده، ويَـذُم الفَقر جَهده، ويذكـر بَأسـه مرة، وبِـرَّه بمن حولـه أخرى، عـاش عيشةَ الصَّعلكـة بأوسـع معانيها، فكان الفارس المغوار، والجواد الأبِيّ، وسَخَّر شعره لهذا كله لم يجاوز بـه غيره[1].

* * *

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ شُعراء النصرانية، ديوانه.

ومن شعراء الدواوين: **النابغة الذبياني (٦٠٤ م)**.

هذا شاعر آنفسحت له الحياة، وامتدت الآفاق، فإذا هو في بلاط أبي قابوس النعمان بن المُنذر، مَلك الحِيرة.

ويُغدق النّعمان على النابغة مِن نِعمه، فيُغدق النابغة على النعمان من مِدَحِه ويبدو أن مُقام النابغة ببلاط النعمان امتدّ زمناً، تدُّلك على هذه كثرةُ مدائح النابغة للنعمان ومن ذلك المديح قولُ النابغة من قصيدة له لامية:

ومَن يَغرف من النعمان سَجْلاً  فليس كمن يُتَيَّه في الضَّلالِ

ويقول في مدحه من قصيدة له ميميّة:

أَبلغ لديك أبا قابوس مألكه  الواهب الخَيل والقَينات والنِّعمَا

ويقول في مدحه من قصيدة له رائية:

لولا الهُمام الذي تُرْجَى نوافلُه  لقال راكبُها في عُصبة سِيرُوا

ويقول في بره برجل من بني عبس:

أبقيتَ في العَبسيّ فضلاً ونِعمةً  ومَحمدة من باقيات المحامِدِ

ويغضب النعمان عليه لوشاية بلغته فيخرُج عنه إلى الحارث الأصغر، وكان يقال له: الحارث الأعرج، ويقول بمدحه من قصيدة له لامية:

والله والله لنِعْمَ الفَتى الـ  أَعرج لا النِّكس ولا الخامِلُ

ويموت الحارث فيستظلّ بِظِل آبنه عمرو بن الحارث ويقول يمدحه قصيدة له بائية:

عليَّ لِعَمْرٍو نعمة بعد نِعمة  لوالده ليستْ بذات عقاربِ

ويقول يمدحه، وكان قد ظفر ببني مُرة بن عوف، من قصيدة له لامية:

وإني عَداني عن لقائك حادثٌ  وهَمٌّ أتي من دون همِّك شاغِلي

نصحتُ بني عَوف فلم يتقبَّلوا  رسولي ولم تَنجح لديهم وَسائِلي

ويقول له أيضاً بمدحه، من قصيدة له رائية:

فجِئْتُ عَمْراً على من كان من أُضَمٍ  وما استجرتُ بغَير الله مِنْ جارِ

أثْـرَى فـأكـرم في المَثْـوى ومتَّعنـي بـجِلَّةٍ مـائـةٍ لـيسـتْ بـأبـكـار

وكان إلى جوار عَمـرو بن الحارث أَخٌ لـه هو النعمـان بن الحارث، وكـان قد خَرج إلى غزوة، فقال النابغة يمدحه، من قصيدة له عَينية:

إن يَرجع النعمـانُ نَفْرَحْ ونَبْتهـجْ ويـأتِ معـدًّا مُلْكُهـا ورَبِيعُهَـا

ويُولِد للنعمان بن الحارث مولود فيقول النابغة من قصيدة له ميمية:

هـذا غـلامٌ حَـسَنٌ وجـهُـهُ مُستقبِلُ الخَير سريعُ التَّمَامْ

ومن قبل أن يصل النابغةُ حَبْلَه بحبـل النعمان بن المنـذر الرابـع، وصل حَبله بحبل عمرو بن المُنذر الثالث وما من شك في أن النابغة كان عندهـا صَغيراً، فلقـد كانت وفاةُ عمـرو بن هند سنـة (٥٧٨ م). ولقد مـرّ بك أن وفـاة النابغـة كانت سنـة (٦٠٤ م).

فثمة قصيدة للنابغة ميميـة يمدح فيهـا عمرو بن هنـد، وكان قـد غزا الشـام، يقول فيها:

ولكنْ مـا أتـاكَ عن آبن هِـنْـدٍ من الحَـزم الـمُيَـمَّن والـتَّمَـامِ

وكما وصل النابغة حَبله بحبل عمرو بن المنذر الثالث ثم بـالنعمان بن المنـذر الـرابع، ثم بـالحارث الأعـرج، ثم بابنـه عمرو بن الحـارث، ثم بأخيـه النعمان بن الحارث، كذا وصـل حبله بحبل هَـوذة بن أبي عمرو العُـذريّ، وكان من الأجـواد، فقال يمدحه من قصيدة لامية:

يَهَبُ الجوادَ بسَرْجـه ولِجامـه والعَنْسَ تَخطِرُ باليمانِي الكامِلِ

وكان آخرَ من نـزل بهم النابغـة غسّان، فقـال النابغـة يمدحهم من قصيـدة له ميميّة، وكان قد هَمَّ بالرحيل عنهم:

لا يُبـعِـد الله جيـرانـاً تـركـتـهـمُ مِثْـلَ المَصـابيـح تَجْلُو ليلةَ الـظُّلَمِ
هُـمُ الـملوكُ وأبـنـاءَ الـملوك لَـهُـمْ فَضـلٌ على النـاس في الآلاء والنِّعَمِ

غيـر أن النابغـة على هذا كـانت للنعمان بن المنـذر الرابـع منزلـةُ في نفسه، فعاوده الحنينُ إليه.

وكـان الذي أَغْضَبَ النعمـان عليه وَصْفـه للمتَجرِّدة، آمـرأة النعمـان، وصفـاً أفحش فيه النابغة، وكأنَّ نَظره قد وقع عليها في البلاط فَجأة.

ومن أبياته التي أفحش فيها قولُه:

زَعــم الـهُــمـام بـأنَّ فـاهـا بـاردٌ　　　عَـذْبٌ إذا مـا ذُقْـتَـه قـلـت ازْدَدِ

زَعــم الــهُــمـام ولـم أُذُقـه أنَّـه　　　يُشْفَى بـريق لِثاتـه العَطِشُ الصَّـدِي

إلى غير هذين من أبيات لا تَصْدُر إلا عمن لامَس وجالَس وإنِّي لأَمِيل إلى أنّ مثل هذا لا يَصْدُر إلا عن خليع متهتِّك، لا صَدًى للنّعمـة في نفسه، وشِعـر النعمان الذي سُقْتُ نماذَج منه يدلُّ على غير هذا وأكاد أذهب إلى أن هذه القصيدة ممّا دُسَّ على النابغة، فما في حياة الناس ما يُشبه هذا، بَلْه مَن كان في قدر النـابغة، وتكـاد تكون اعتذارات النابغة للنعمان فيها ما يكشف لك عن صِدْق ما أقول، يقول النابغة من قصيدة له عَينية:

وقــد حــال هَــمٌّ دون ذلــك داخِــلٌ　　　دُخُــولَ الشَّغــافَ تَبتغيـه الأَصَـابِـعُ

دون ذلـك، أي دون هذا أُشيِّبْ بـه وأبكي عليه. والشغـاف: غلاف القلب. وتبتغيه: تتلمسه.

وَعِيــدُ أبي قــابــوس في غَيــر كُنْهــة　　　أَتــاني ودُوني راكِس فــالـضَّــواجــع

في غيـر كنهه، أي لم أكن بلغت مـا يغضب عليّ فيه، وراكس والضـواجع: مكانان.

وبِــتُّ كــأنِّي ســاوَرَتْــني ضَئِــيــلَةٌ　　　من الــرُّقْش في أنيابهــا السُّمُّ نـاقِــعُ

ساورتني: واثبتني. ويقول النابغة يُفَنِّد ما رُمي به من أبيات له بائية:

لئـن كنـتَ قــد بُلِّغـت عنّي وشـايــةً　　　لَـمُـبـلِـغُــكَ الــواشي أغشُّ وأَكــذبُ

ويُمعن في الإعتذار فيقول من قصيدة له رائية:

ســأربطُ كـلبي إن يَــرِمْ بِــكَ نَـبْـحُــه　　　وإن كنتُ أَرْعى مُسْـحَــلان وحــامِــرَا

مُسحلان وحامر: واديان بالشام، أي وإن كنت بَعيداً عنك فإنه لا يـأتيك مني

إلا ما تحب. وتلك معلقته الدالية كم فيها من بَيت وبَيت تَنطق بما يَنفي عنه أن يزلّ مثل هذه الزلّة.

يقول فيها:

مـا إنْ نَـدِيتُ بشـيءٍ أنت تكـرهـه إذاً فـلا رَفعت سَـوْطي إلـيَّ يَـدِي

أي ما أتيت ولا قارفتُ أمراً تكرهه، وإلا فما أحقّني أن تُشَلَّ يدي.

إذاً فـعـاقَبـنـي رَبِّـي مُـعـاقَـبـةً قـرَّت بهـا عينُ من يَـأتيـك بـالحَسَـدِ

ثم اقرأ له غَزله في المالكيّة حيث يقول:

وإن ضَـحكـت للعُـصْم ظَـلَّت روانِيـاً إليهـا وإنْ تَبْسِـمْ إلى الـمُـزْنِ تَبْـرُقِ

هذا ولم يكن النابغة في قَومه من أدناهم، بل كان من أعـلاهم، يدلُّـك على هذا قولُه من قصيدة له ميمية:

هـلَّا سـألتِ بني ذُبْيـان مـا حَسَبِي إذا الـدُّخَـانُ تَغَشَّى الأَشْمَطَ البَـرَمَـا

الأشمط: الأشيب. والبرم: الذي لا سخاء عنده.

ثم قوله من قصيدة له بائية:

فـإمّـا تُـنكـري نَـسبِي فـإنِّي من الصُّهْب الـسِّبـال بَـني الـضِّبَـابِ

هـذا الحَسب الذي نشـأ في ظِلّه النابغـة، وتلك البلاطـات التي تقلَّب فيها، خَلَقَا منه رجلاً ذا أَنَفة، وذا رأي ناصح مُشير.

تُحس هذا في قوله لعمرو بن هند، وكان ملكاً للحيرة:

مَـن مُـبْـلِغٌ عـمـرو بـنَ هِـنْـدٍ آيـةً ومـن الـنَّـصِـيـحـة كـثـرةُ الإعْـذَارِ

وفي قوله يرد قومَه إلى الصواب:

لـقـد نهيتُ بَـنِي ذُبـيـان عـن أُقُــرٍ وعـن تَـربُّـعـهـم فـي كـل أَصْـفـارِ

وكان أسَرَّ للنعمـان بن الحارث فخـوَّف النابغـة قومـه أن يتربَّعـوه فيُغير عليهم النعمان. وفي قوله يَنصح زَبّان وخُريما، ابني سيار، ألّا يشايعا عليه بَدر بن حَرَار:

أَلَا مَـن مُبـلغ عـنِّـي خُـرَيْـمـاً وزَبّـانَ الـذي لم يَـرْعَ صِهْـرِي
فـإنِّي قـد أتـاني مـا فـعلتُـم ومـا رَشَّـحْتُـمُ من شِعْـر بَـدْرِ

وغير هذا كثير يفيض به ديوانه.

وبعد هذا فلقد هجا النابغة فأوجع ولم يُقْذِعْ كما قد رَثى فوفَّى المرثيَّ حقَّه، كما قد تغزّل فلم يُفحش. وهكذا كان النابغة شاعراً وفَّى الكلمة حقها، ولم تَستعبده الكلمة بل آستعبدها هو[1].

* * *

ومن أصحاب الدواوين: **زُهير بن أبي سُلْمى المُزَنِيّ (٦٠٩ م)**. كان لأبيه أبي سُلمى أخوال من بني مُرَّة بن عوف بن سعد بن ذُبيان، وتَسوقه المقاديرُ إلى أن ينزل بهم، فلا يَبرح دارَهم إلى ديارُ مزينة قَبيلته، وإذا هو يُصهر فيهم، ويُرزق ولدَه زُهير، وسيأتي ما يدلك على هذه بعد قليل.

ونشأ زهير في ظل أخواله ومن هنا كان تعلُّقه بأخواله وكان نِسيانه لأَسلافه من مُزينة، وإنك لتكاد تُحس في شِعر زُهير كله أنه ذُبياني، لا ذِكر لمُزينة فيه تصريحاً، من قُرب أو من بُعد، وإنما ذكرها تَلميحاً في موضعين، أولهما حيث يقول:

هَلاّ سألتِ بني الصَّيداء كُلَّهمُ بأيّ حَبْل جِوارٍ كنتُ أَمْتسكُ

فهو في هذا يُشير إلى الحِلف الذي كان بين مُزينة وغطفان، وصِهره في بني الغدير. وثانيهما حيث يقول:

خُذُوا حظَّكم يا آل عِكْرم واذْكُروا أواصِرَنا والرِّحْم بالغَيب تُذْكَرُ

والرحم التي بين زُهير وبينهم، هي أن زُهير من ولد أُدْين طاتجة من الياس بن مُضر، وهؤلاء من ولد قَيس عيلان بن مُضر.

وثمة قاطعة تَقطع بأنه ذُبياني النَّزعة لا مُزنيّ فيُحكى أنّ بَشامة بن الغَدِير، وكان عمّ أُم زُهير، وكان أشعَر غَطفان في زمانه، وكان زُهير يُعْجَب بشعره، وكان على ثَراء، فلما حَضره الموتُ جعل يُقَسِّم ماله في أهل بيته، فأتاه زُهير فقال: يا خالاه، لو قسمتَ لي من مالك؟ قال: والله يا ابن أُخت، قسمتُ لك أفضلَ ذلك

---

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ شعراء النصرانية ـ ديوانه.

وأجزله، قال: ما هو؟ قال: شِعري وَرِثْتَنيه، فمن أين جئت بهذا الشعر؟ لعلك تُرى أنك جِئت به من مُزينة، قد علمت العربُ أنَّ حَصاتَها وعَين مائها في الشِّعر هذا الحيّ من غَطفان.

وأُحبك أن تعرف أن غَطفان وذَبيان من جدٍّ أَعلى هو قَيس عَيلان، وأن أبا سُلمى كما أَصهر إلى غطفان وأَنجب زُهيراً، كذلك أَصهر زُهير إلى غطفان وأنجب كَعْباً.

ويشاء القَدر أن يعيشَ زهيرٌ حَربَ داحس والغبراء، التي نَشِبت بين عَبس وذُبيان، ودامت أعواماً طوالاً، لم يكن من ذبيان لُحْمةُ وسَدًى فينخرط في صفوفهم، ولم يكن رجلُ حرب فيحمل سِلاَحَهم، فلا أقل من أن يَنفح عنهم بلسانه لاثنتين: خؤولة ونَشأة، وكان السَّلم من طبعه، فانبرى يؤازر من دعا إليه، وكان الراعي رجلين من ذُبيان، هما الحارث بن عوف بن أبي حارثة، وهَرم بن سنان، المُرِّيان، ومُرة من ذُبيان.

ويبدو أنّ نصيب هَرِم من هذا السعي كان أوفى، وحَسبك عن هَرم ما عُرف عنه من جُود.

وكما تَردّد إسمُ هرم وآسم الحارث في شِعر زهير، كذا تردد آسم ذُبيان.

وأول من تذكره لزهير في هذا معلّقته التي عقدها على مدح هذين الساعِيَيْن، والتي أولها:

أمِن أُمّ أَوفى دِمْنَةٌ لم تَكلَّم ... بحومانة الدَّرّاج فالمُتَثلَّمِ

فَنراه بعد أن ذكر الدِّيار، أخذ يُنَدِّدُ بالحرب فيقول:

وما الحربُ إلاّ ما علمتُم وذُقتمُ ... وما هو عنها بالحَديث المُرَجَّمِ
متى تَبعثوها تَبعثوها ذَميمةً ... وتَضْرَ إذا ضَرَّيتموها فتَضْرَمِ
فتَعْرككمْ عَرْكَ الرَّحا بثِقالها ... وتَلْقَحْ كِشَافاً ثم تُنْتَج فتُتْئِمِ
فتُنْتَجْ لكم غِلمانَ أَشأم كُلِّهم ... كأَحْمَرِ عادٍ ثم تُرْضِع فتَفْطِمِ

ثم ينعى على من آثروها فيقول:

لَعمري لَنِعم الحيُّ جَرَّ عليهمُ		بما لا يُوافيهم حُصَيْنُ بنُ ضَمْضَمِ

ثم أخذ يُهوِّن من حِدة المتحاربين فيقول:

ومَن لا يُصانع في أُمور كثيرةٍ		يُضَرَّس بأنياب ويوطأ بمَنْسِمِ

وبعد هذا كُله أخذ زُهير يَمتدح سعيَ هذين الساعيَيْن، وإن لم يصرِّح بآسميهما وهذا حيثُ يقول:

سَعَى ساعِيَا غَيظ بن مُرّة بَعدما		تَبَزَّل ما بَين العَشيرة بالدَّمِ
فأقسمتُ بالبيتِ الذي طافَ حولَه		رجالٌ بَنَوْه من قُرَيش وجُرْهُمِ
يَميناً لِنعم السَّيِّدان وُجِدْتُما		على كُل حال من سَحِيلٍ ومُبْرَمِ
تداركتُما عَبْساً وذُبيان بعدما		تفانَوْا ودقُّوا بينهم عِطْرَ مَنْشِمِ

ولا يفتأ زُهير يذكر هذين الساعِيَيْن، بمَدحهما معاً مرّة فيقول:

تداركتُما الأحلاف قد ثُلَّ عرشُها		وذُبيان قد زلَّت بأقدامها النَّعَلْ

ويفرد هَرِماً بالمديح وحده، فيقول من قصيدة له قافية:

قد جَعل المُبتغون الخير في هَرِمٍ		والسائلون إلى أبوابه طُرُقاً

ويقول في مدحه من قصيدة له رائية:

دَعْ ذا وعدّ القولَ في هَرِمٍ		خَير الكُهول وسيِّد الحَضَرِ

ويقول في مدحه من قصيدة له نونية:

ألم تَرَ ابنَ سِنان كيف فَضَّله		ما يشتري فيه حَمْدَ الناس بالثَّمَنِ

ويقول في مدحه من قصيدة له ميمية:

إن البخيلَ ملومٌ حيث كان ولَـ		ـكنَّ الجَوَاد على عِلاَّته هَرِمُ

ويقول في مدحه في قصيدة له ميمية:

وعَوّد قومَه هَرِمٌ عليه		ومن عاداته الخُلُق الكَرِيمُ

ويقول في مدحه في قصيدة له دالية:

إلى هَرِمٍ تَهْجيرُها ووَسِيجُها		تَروَّح مِن لَيْل التَّمام وتَغتدِي

وحين مات هرم رثاه زُهير بقصيدته الميمية التي مطلعها:

هاجَ الفُؤادَ معارفُ الـرَّسْمِ ... قَفْر بذي الهَضبات كالـوَشْمِ

ولا غرو بعد هذا إن قيل عن هـرم: إنه ممـدوح زُهير. وبعـد هذا فلقـد مدح زهير سنانَ بن أبي حارثة المُرِّي، والد هرم، فأكثر، وكأنّ زهيراً بمدحه الابن والأب كان قد قَطع نفسه لهما، ووَقف شعره عليهما، إذ ما بعـد هذا من شِعـر لزهيـر قليل بـالنسبة لهـذا الكثير، منـه في الهجاء، ومنـه ما هـو في الوصف، ومنـه مـا هـو في الزهد، ومنه ما هو في الإيعاد.

ولقد كان زهير في هذا كله صاحبَ رأي، فلقد شرك في الحرب بشِعره ليُعين الساعِين إلى السَّلم، بعد أن كشف لهم عن مَغبَّـة الحرب، وكـان وهو يمـدح يَحُثّ الممدوح على الخَير، ويستزيده نَفعاً لمن حوله، وكذا كان في كل أغراضه الأخرى حكيماً يؤيد حجته بالمثل[1].

* * *

ومن شُعراء الدواوين **أوس بن حجر التميميّ** (٦١٠ م) لقد كـانت حياة أوس أثلاثاً ثلاثة:

ثُلث عاشه في كَنف قومه بني تَميم، وكان هذا هو الثُلث الأكبر.

وثلث عاشه في كَنف بني أسد.

وثلث عاشه في كَنف عمرو بن المنذر، أو آبن هند، من مُلوك الحيرة، وكـان هو الثُّلث الأخير، فلقد عاش أوس حياته الأُولى بين قومه بني تميم يشاركهم أيامَهم وحُروبهم بسِنانـه ولسانـه، ويَستنجد بهم إن ألم بـه خَطب. ويعتـزّ بهم حيث يكون الإعتزاز.

تثـور الحرب يـوماً بين بكـر بن وائـل وَتميم، وتَنهـزم في هـذه الحـرب تميم ويُؤسر فيها رجال كثيرون من تميم، فيحزن بها أوس ويقول يعزِّي قـومه من قصيـدة له بائية:

---

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ ديوانه.

وصَبَّحنا عارٌ طويلٌ بِناؤه نُسَبّ به ما لاح في الأُفق كوكبُ
فلم أر يوماً كان أكثرَ باكياً ووجهاً تُرى فيه الكآبة تَجْنَبُ

تجنب: تبدو فيه مكفهرّة متغيرة. وتغير بنو عامر بن صعصعة على بني أُسد، فينهض بنو تميم لنُصرة بني أسد، وكان جَمَعهما حِلْف ويهتزّ لها أوس ويقول في قَصيدة له رائية يفخر بوفاء قومه:

لقد علمتْ أسدٌ أنَّنا لهم نُصُرٌ ولَنِعْمَ النُّصُرْ
فكيف وَجدتم وقد ذُقْتُمُ رَغيفتكم بَين حُلْوٍ ومُرّ

الرغيفة: ما يعلو اللبن مثل الرغوة. ويُغير بنو سُليم بن مَنصور بن عِكرمة على قومه، فيردُّونهم مَقْهورين، فيقول أوسُ من قصيدة له عينية، يصف ما كان:

وجاءت سُليم قَضُّها وقَضِيضُها بأكْثر ما كانُوا عديداً وأوكَعُوا

القَضُّ: الحصى الكبار. والقضيض: الحصى الصّغار. وأوكعوا: اشتدوا في القتال.

وجِئْنَا بها شَهْباء ذاتَ أشِلَّةٍ لها عارضٌ فيه المَنيَّة تَلْمَعُ

الشهباء: الكتيبة العظيمة الكثيرة السلاح. والعارض: السحاب يَسُد الأفق، والأشلة: الدروع.

فما جَنَبُوا أنّا نَسُدّ عليهمُ ولكن لقُوا ناراً تَحُسُّ وتَسْفَعُ

تحس وتسفع: لا تبقي شيئاً.

وكان طُفيل بن مالك، وهو من فُرسان بني سُليم، قد فَرَّ في ذلك اليوم، وترك أخاه عامراً الذي يقال له: مُلاعب الأسنّة، فقال أوس يَنعى عليه فِرَارَه ويعيِّره إياه، من قصيدة له عينية:

لَعمرك ما آسَى طُفيلُ بنُ مالك بني عامر إذ ثابت الخيلُ تدَّعِي

إلى أن يقول:

ولو أدركَتْه الخيلُ شالَ برِجْلِه كما شال يومَ الخالِ كعبُ بنُ أصْمَعِ

شال: رفع. والخال: يوم من أيام العرب.

فِـراراً وأَسلمْتَ ابنَ أُمِّكَ عـامراً يُلاعب أطرافَ الوَشيج المُزَعْزَعِ

الوشيج: الرماحُ. والمزعزع: المهتـز. وغزا يـوماً بنـو عامـر بني تميم، وكان بينهم يوم هو يَوم جَبلة، هَزموا فيه بني تميم وتركوهم وهم يقولون: لم يبق منهم إلّا شلو، وانتصف بنو تميم لأنفسهم فغَزوهم، وكان بينهم يوم هو يوم ذي نُجب، فقال أوس في قصيدة له كافية:

وقُـلْتم ذاكَ شِـلْوٌ سـوف نـأكلَه فكيف أَكْلُكُم الشِّلْوَ الذي تَركُـوا
نَفِسي الفِـداء لِمنْ أداكم رَقَصـاً تَدْمَى مراقفكم في مَشْيكم صَكَكُ

يصف إدبارهم وأنهم أدبروا يَخُبُّون خَباً. وكان بنو الأَبرص قد أعانوا بني عامر يوم ذي نُجب، فقال أوسٌ من قصيدة له ميمية ينِدِّد بهم:

كـان بَنُـو الأَبـرَص أَقـرانكُمُ فـأَدْركوا الأَحْـدث والأقْـدَمَـا

ولقد شارك أوس في هذه الأيام بسِنانه ولسانه، كمـا قلتُ لك قبـل، وفي هذا يقول أوس في قصيدة له لامية:

وإنّي آمـرؤ أعـددتُ للحـرب بَعـدمـا رأيتُ لهـا نـابـاً من الشـر أَعْصَـلاَ
أَصَـمُّ رُدَيْـنِـيًّـا كـأنّ كُـعـوبـه نَـوَى القَسْب عَـرَّاصاً مُزَجَّى مُفصَّـلاَ

القَسب: التمر اليابس. والعـراص: الشّديـد الإهتزاز. والمـزجى: الذي لـه زُجْ، وهو حديدة في أسفله.

ويقول في قصيدة لامية له أخرى:

مَعي مـارنٌ لَـدُنٌ يُخَلِّي طَـرِيقَـه سِنَـانٌ كنِبْرَاسِ التِّهـاميّ وُمِنْجَلُ

مارن: رمح لين. ويخلى طريقه: يقدمه. والتهامي: النجار. ومنجـل: واسع الجراح. ثم نقرأ لأوس يَفخر بقومه من قصيدة له لامية:

وقَـوْمي كـرام من أُسَيِّـدَ شِجْعَـةٌ كِرَامٌ إذا ما المـوتُ خَبَّ وهَرْوَلاَ

وأسيـد، هـو ابن عمـرو بن تميم. كمـا نـراه يَستنجـد بقـومـه حين غَبنـه بنـو الحارث بن سَدوس، من قصيدة ميمية:

ولــو كـان حــولي مِنْ تَميم عِصَـابَــةٌ لَـمَـا كـان مــالِي فـيكـمُ مُتَـقَسَّـمَـا

كما نراه يعتزّ بقومه ويُؤثرهم على بني إياد، حين لم يُكرموا وفادته، فيقول من قصيدة له رائية:

يـا لَتَمِيمٍ وذو قـارٍ لـه حَـدَبٌ مِن الـرَّبيع وفي شَعبـان مَسْجُورُ

ذو قار: وادٍ لبني تميم، والحدب: ارتفاع الماء، ومسجور: مملوء.

قـد حَـلَّأتْ نـاقَتي بُـرْدُ وراكِبهـا عَن ماء بَصْرَةَ يـوماً وَهْـوَ مَجْهُورُ

حـلأت نـاقتي: منعتهـا من الـورود، وبُـرد: حي من إيـاد، وبصـرة: مـاء، ومجهور: قد أخرجت حمأته فهو أغزر له.

هذا عن ثلث حياته الأول الذي قضاه في كنف قومه بني تميم.

أما عن ثلث حياته الثاني الذي ترك فيـه قومـه إلى جوار بني أسـد، رغبة منـه في الرّحلة والتَّجوال، التي يشير إليها في قوله:

ولمـا رأيت العـدم قيَّـد نـائلي وأملق مـا عنـدي خـطوب تنبَّـل

تنبل: تأخذ الأنبل فالأنبل.

فَقَرَّبْتُ حُرْجوجاً ومَجَّدْتُ مَعْشَراً تَخيَّـرتهم فيمـا أُطُـوف وأَسـألُ

الحرجوج: الناقة الضخمة.

وكان الذي نزل بهما أوسٌ من بني أسـد، هما: أبـو دُليجة فضـالة بن كـلاة، وعَمرو بن مسعود وإن صح أنه لم يَغب عنّـا شيء من شعر أوس في هـذين الرَّجلين الأسديّين فإنا نجد مما وقع لنا من شعره فيهما أنه لم يَمدحهما أحياءً، لعلّها عن إباء منه من أن يكون مُستجدياً، وإنما كُل شعره فيهما قاله بعد موتهما، فَرثى فضالة في أكثر من قصيدة، ورثى مسعود بقَصيدة واحدة، ولقد أفاض أوسُ في رثاء كـل منهما بذكر أياديهما.

فله في رثاء فضالة قصيدة بائية يقول فيها:

ألـم تُكْسَفِ الشمسُ والبـدر والـ ـكـواكـب للجَبَـل الـواجِـبِ

لِفَقْـدِ فَضـالـةَ لا تسْتـوي الْـ ـفـقـيـدُ ولا خـلّة الـذاهـبِ

ويقول في أخرى دالية:

وَفَــدت أُمِّي ومــا قــد ولــدت خيــرَ مَفْـقُــود فَضَــال بـن كَلَدْ

ويقول في ثالثة لامية:

عَيْنَيّ لا بــد من سَكْبٍ وتَهْمـال على فَضَـالَة جَـلَّ الرُّزْءُ والعـالِي

العالي: الأمر العظيم.

ويقول في رابعة لامية أيضاً:

أيــا دُلَيْــجَ مَنْ لِـحَـيٍّ مُـفْـرَدٍ صَقْـعٍ من الأعـداء في شَــوَّالِ

صقع: بعيد. وأما قصيدته في رثاء عمرو بن مسعود فهي دالية يقول فيها:

يـا عينُ جُودي على عَمْـرو بنِ مَسعـودِ أهـلِ العَفـاف وأهـلِ الحَـزم والجُـودِ

ولا تدري أيًّا مِن الرجلين ودَّع أوس قبلَ الآخر.

وكانت ثالثة الأثلاث من حياته هي انتهـاؤه إلى عمرو بن هنـد، وابن المنذر، وما نرى أوساً مدح عمراً، بل الذي نراه له أبيات ندّد فيها بقاتل للمنذر أبي عمرو، وهو عمرو بن شَمر الحنفي، ويحرض ابن هنـد على قتله في قصيدة لـه رائية يقـول فيها يخاطب عمرو بن شمر:

مَتـع اليمامـةَ حَـزْنَهـا وسُهـولَهـا مِن كُـل ذي تاجٍ كـريمِ المَفْخَرِ

ثم يقول مخاطباً ابن هنداً أو محرِّضاً إياه:

إنّ كــان ظَنِّي في ابن هنــد صــادقــاً لم يَحـقنــوهــا فـي السِّقــاء الأَوْفَـرِ

وفي ظني أن قصيـدة أوس العَينية جـاءت في رِثاء المنـذر، وإن لم تكن ثمـة إشارة إلى ذلك في ديوانه، فهي مرثية لا تليق إلا بالملك، يقول فيها:

أيَّتُهــا الـنفسُ أَجـملي جَـزعــا إنّ الــذي تَحـذرين قــد وَقَعــا

إن الـذي يَجْمعُ السَّمـاحـة والنَّـ ـجْـدة والحَـزم والقِـوى جُمِعـا

وهذا هو أوس قد وَجَّهته حياته بـأثلاثهـا إلى حيث شاءت، ولم يَملك هـو أن يُوجِّه حياته إلى حيث يشاء[1].

* * *

(١) **الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ ديوانه.**

ومن أصحاب الدواوين **قيس بن الخطيم الأوسي (٦١٠ م)**.

لقد كانت بين الأوس والخزرج حُروب وأيّام في جاهليتهم قَبل الإسلام، ومنها ما لم يحضره قيس، لأنها سبقت وجوده، أو كانت وهو صغير، ومنها ما كانت وهو مقاتل من أشد المُقاتلين.

وهذه الحروب والأيام بدأت بحر سُمير، التي كانت للأوس على الخزرج، وعلى الرغم من أنها سَبقت وجودَ قيس إلا أنه لم يَفُتْه بعد أن شَبَّ أن يُشارِكَ من سبقوه من شعراء الأوس، فيخلِّدها كما خلَّدوها، وهذا حِين قال من قصيدة له فائية:

إنّ بني عمِّنا طَغَوا وبَغَوا ولَجَّ منهم في قَومهم سَرَفُ

ثم كانت حَرْبان، هما حَرب كعب وحرب حاطب، وكانتا للخَزرج على الأوس، ثُمَّ إذا عادٍ من الخزرج يقال له مالك، يعدو على الخَطيم، والد قيس، فيَقتله، وقيس عندها صغير، وكان عديّ، جدُّ قيس قد عدا عليه من قتله من الخزرج قبل هذا. وما إنّ شَبَّ قيس حتى خرج يلتمس غِرَّةً من قاتل أبيه، ومن قاتل جدّه، فإذا قيس يَظفر بقاتل أبيه في مَوسم من المواسم فيقتله، ثم إذا هو بعدها يظفر بقاتل جدّه فيقتله، وإذا هو يقول:

ثَأَرْت عَدِيًّا والخَطِيم فلم أضِعْ ولايةَ أشياخ جُعلت إزاءَهَا

ويكون بين الأَوس والخَزرج بسببها يوُم هو يوم بُعَاب، ويُكتب فيه الفَوْق للأوس، وفي ذلك اليوم الذي صال فيه قيس وجال، يقول قيس قصيدتَه البائية التي منها:

وكُنت آمرأ لا أَبعث الحربَ ظالماً فلمَّا أبَوا أشعلتُها كلَّ جانِب

ويصف شجاعته فيقول:

أُجالدهم يومَ الحَديقة حاسِراً كأنَّ يَدِي بالسَّيف مِخْراقُ لاعِبِ

ثم ما لبث قيس أن لقي مصرعه على يد خَزرجي ثَأْراً.

وهكذا كُتب على هذا الشاعر أن يُولد في عِزّ الحرب، ويَرضع لَبانها. ويغدو بعدُ مُشْعِلَها. ثم يموت مُحترقاً بنارها أفرغ فيها قوله كله، فلا نكاد نجد له قولاً في غيرها، غير قصيدةٍ له في عَمرة، امرأة كانت لحسان بن ثابت، وكان حسان قد ذكر أُخْتاً لقيس تدعي لَيلى في شِعره، فجازاه عليها قيس بأن ذكر عَمرة، فقال:

أَجَـدَّ بعَمـرة غنيـانُـهـا فتهجر أم شـأننـا شـأنُهَـا

ولقد كانت الحرب هي التي أملتها عليه أيضاً، إذ كان قيسُ قالها في يوم من أيام الأوس، هو يوم الرُّبَيْع[1].

* * *

ومن شُعراء الدواوين **عَنترة بن شـدَّاد العَبسيّ (٦١٥ م)** هـذا شـاعـر فارس، دخل الوجود بِشِعْره وفُروسيّته معاً، ولو أنه دخله بواحدة منهمـا دون الأُخرى مـا كُتِب له الخُلود وثمـة شيء زَكَّى هذه وتلك، وهـو عُبوديّتـه التي كادت أن تَضـع منه، وإذا هو يُحيلها من مَذَمَّة إلى محمدة، ثم إذا هو يسوِّي بينه وبين السادة بحُبّـه بآبنة عمّه عَبلة، وأين آبن الأَمة من آبنة الحُرَّة.

ومثـل هذا الحُب إنْ وَقـع، يَبـدأ مَكتـومـاً، ويَمضي مَكتـومـاً، أمّـا أنْ يُـذاع ويُشاع، ويُصبح حديثَ البِقاع، فهو هذه التَّسوية التي حَطَّم بها عنتـرةُ قَيْد التفـرقة، وبهـذا صَحَّ أن يُسمَّى عنتـرةُ أَوَّلَ زعيم لثورة العَبِيـد في الجزيـرة العـربيّـة، أَمكنتـه فروسيّته أولاً من أن يُهيِّيء النفـوس لسماعـه، وأمكنته كلمتُـه ثانيـاً من أن تستجيب القلوبُ لإقناعه. وشِعر عَنترة على هذا لا يَخرج عن ثلاثة:

١ ـ الإعتزاز بفروسيّته.
٢ ـ حُبّه عَبلة.
٣ ـ إنكاره على الناس الحَطَّ من شأن العبيد. ولعل معلَّقته هي خير ما دلّل به على فُروسيته، إذ يقول فيها:

---

(١) الأغاني ـ شعر النصرانية ـ ديوانه.

لما رأيتُ القومَ أقبل جَمْعُهم ... يَتذامرون كَرَرْتُ غيرَ مُذَمَّمِ
يَدعون عَنتر والرماحُ كأنها ... أشطانُ بِئْرٍ في لَبان الأَوْهَمِ
ما زِلْتُ أرميهم بثُغْرة نَحره ... ولَبانِه حتى تَسَرْبل بالدَّمِ
ولقد شفَى نفسي وأبرأ سُقْمَها ... قِيلُ الفوارس وَيْكَ عنتر أقْدِمِ

وإليك قوله:

وفي الحَرْب العَوان وُلِدْتُ طِفْلاً ... ومِن لَبن المَعامع قد سُقِيتُ
فما للرُّمْحِ في جِسمي نَصِيبٌ ... ولا للسَّيف في الأعضاء قُوتُ

وأقرأ قوله:

فَتًى يَغُوص غِمَارَ الحَرْبِ مُبتسماً ... ويَنثني وسِنَانُ الرُّمْحِ مُخْتَضِبُ
إنْ سَلَّ صارمَه سالت مَضارِبُهُ ... وأشْرَف الجَوُّ وآنشقَّت له الحُجُبُ

هذا قليل يدُلّ على الكَثير من شِعر الفُروسيّة.

وأما تشبيبه بعَبلة، فهو الآخر كثير، ولكن حسبنا منه قليل يدل على الكثير، يقول:

أيا عَبْلَ مُنِّي بِطَيْفِ الخَيَالْ ... على المُستهام وطِيب الرُّقَادْ
أيا عَبْلُ ما كنتُ لولا هَوَاكِ ... قليلَ الصَّدِيق كثيرَ الأعادي

ويقول لمن يَحُط منه لعبوديته:

أنا العبدُ الذي خُبِّرتِ عنه ... وقد عايَنتني فدَعِ السَّمَاعَا

ويقول:

وإنْ يَعِيبُوا سَوَاداً قد كُسِيتُ به ... فالدُّرُّ يَستره ثوبٌ من الصَّدَفِ

ثم يقول يذكر فضله على قومه:

ولولا صارمي وسِنَانُ رُمْحِي ... لما رَفعتْ بنو عَبس عِمَادَا

ثم يُلقم الزَّارين عليه حُجَّته الأخيرة وأنه لا فَرقَ بين عَبد وحُر إلا بالفعل الطيب، فيقول:

فإن أَكُ أسوداً فالمِسْكُ لَوني ... وما لِسَوَادِ جِلْدِي مِن دَوَاءِ
ولكنْ تَبْعُد الفحشاءُ عَنِّي ... كبُعْدِ الأرض عن جَوِّ السَّمَاءِ

فهذا شاعر فَرَض نفسه على الوجود بشِعره، بعد أن عَبَّد له سيفُه أن يكـون له كلمةٌ مَسموعة[1].

## (٦)

هـذا هو الشعـرُ الجـاهليّ، يتمثـل لـك في تلك النمـاذج التي سُقتهـا أكمـلَ تمثيـل، لأنظُر إلى جَـودة لفظ، ومَتانـة رَصف، لا إلى دِقّـةَ وصف، ولا لشيء ممـا يتصل بمَبنى، فتلك أشياء يجب أن تتوفّر للشاعر ليكون شاعراً، فهي أُشبه ما تكون بالإجازة الدراسيّة تُتيح لصاحبها أن يكون ذا رسالة في الوُجود، فإن فاتـه حَمْلُ تلك الرسالة عاش جِسْماً بِفَقد رُوحه.

وها هم شعراء الجاهلية تتمثل لك حيـاتهم، أو رسالتهم، في تلك الكلمـات التي سُقتها عنهم، أدقَّ تمثيل، فكـانت أحكامـاً استمليتُها من أخبـارهم حِيناً، ومن شِعرهم حيناً آخر، وما إخالني جاوزتُ فيها المَقْصد.

وفي يَقيني أن الشعــر الجـاهلي ـ كمـا قلتُ قبـل ـ يَسبق المُمــزَّق العبـدي (٤٨٠ م)، الذي جَعلناه على رأس السابقين، فالشِّعر نتاج، بناء كغيره من أي نتـاج كان، لا يَبدأ على صورة متكاملة، كما وجدنـا على لسان المُمـزَّق، ولكن لا بد لـه من خطوات يحبوهـا لكي يستوي على قـدميه، ودرجـات يرقى فيهـا لكي تكمل لـه صـورته. ومن ثَمَّ أستـطيع أن أقـول: إنَ الممزق أقـدمُ مَن آنتهى إلينـا شعـرهم لا أولهم.

وهذا المِرَانُ على القول بِناءً، لا شـك يَسبق القُدرة على القـول آستخدامـاً، أعني أن تكون الكلمة ذات إضافة في الحياة إيجاباً أو سلباً، فتنحـو بالـوجود مَنْحًى معه الخير، فتكون ذات إضافة إيجابيـة، أو تَعدل بـه إلى مَنحى معه الشـر، فتكون ذات إضافة سلبية.

ولقد عاش الشعرُ الجاهليّ عهدَه كله، إلا مع فترة قليلة من آخره، على هـذا

---

(١) الأغاني ـ طبقات الشعراء لابن سلام ـ ديوانه.

الشِّقّ الأول، أعني التجديد في البيت، لم يملك الشعر، أو لم يَملك الشعراء، أن يَخرجوا بشعرهم عن هذا النطاق اللّفظيّ.

ولا تَنْسَ أن القُدرة على استخدام الكلمة، أي أن تكون الكلمة ذات رسالة، لابدّ لها من بيئة مُهَيِّئة، تنتعش فيها حضارات وثقافات، أمّا أن تكون بيئة مقفرةً، وحياة بادئة، أشبه ما تكون بحياة الغابة، لا شِرْعة فيها ضابطة، والأمر فيها لمن غَلب، فلن تكون الكلمة فيها إلا من وحي هذه البيئة، لا تملك إلا أن تكون صَدًى لها، تحكي ما يتردّد فيها.

وهكذا كان الشعر الجاهلي صدًى لبيئة، العُدوان فيها قائم على قَدم وساق، والجاه فيها لمن غَلب، والمذلَّة فيها لمن غُلب، يُناصِر الغالب إن كان موصولاً به، ويُدافع عن المغلوب إن كان موصولاً به.

وفي هذا الخِضَمّ لم نجد كلمةً استوت، ووقفت في تلك الحياة الصاخبة، ترد الباغي عن بغيه، وتَهدي وتُرشد. بل كانت كلمة توجِّهها البيئة، ولا تُوجِّه هي البيئة، اللهم إلا في القليل الذي لا يُعدّ.

فالشعر الجاهليّ في مجموعه شعر ذاتيّ، إن صح هذا الوَصف، أعني لذاته لا للمَجموع، يُرضي اللِّسانَ ولا يُرضي الجَنان، لأن الجَنان لم يكن قد آستوى نُضْجاً بعد.

وقد لا تَعْدَم فيه الحِكمَة النافعة، أو الكلمة الرَّادعة، ولكن هذه وتلك وأمثالهما، مما يَحمل النُّصح والوَعي الخُلقي، ممّا كانت البيئة العربية في جاهليتها أعوزَ ما تكون إليه، لم يَملك على الشعراء في الجاهلية خواطرَهم كلها، بل صَحَوا له صَحواتٍ خاطفة، تُجِس صداها في تلك الأبيات القليلة التي جاءت في ثَنايا قصائدهم، تجدها كثيرة شيئاً حين قاربت البيئةُ العربيّة أن تكون بيئة أقربَ إلى الحضارة شيئاً، وتكاد تفقدها حين كانت البيئة العربية أمعن في الجاهلية، وكما كانت المسؤولية قَبلية أو فردية، كذلك كان الشعراء قبليِّين أو فَرْديين، لم يَنشأوا في حياة جامعة، فيكون لهم وَعْيٌ جامع، وعاشوا للحرب، كما عاشت قبائلهم

للحرب، وإذا هم إلى الشاعريّة فرسانٌ مُحاربون، ومنهم من عدا الحَرْب المَشروعة إلى الصُّعْلكة غير المَشروعة، والكلمةُ على ألسنة هؤلاء تُطْري ما يفعلون.

هذا لأن البيئة مَلكت زمامَ هؤلاء الشعراء، فمَضوا على وُجوههم مَغلوبين على أمرهم، ولم يَبلغوا هم أن يَملكوا زمامَ البِيئة فتمضي البيئة بوفق ما يقولون وربما كان من الممكن أن يكون لهم هذا إلا إن كانت البيئة بيئة حضارة وثقافة.

لسنا ننكر على القائل أن يَنطق عمّا يُحس ويعتقد، ولكن الذي نُنكره، أن يُنطق القائل عن إملاء لا عن رأي، يَستسلم لبيئته يَجري في تيّارها مزهُوًّا بالذي آنجر إليه، عندها لا يكون القائل الذي يَرجوه المُجتمع.

ولا أحب أن أنفض يدي من الحديث عن: الشعر الجاهلي دون أن أترك للمنكرين له وُجوداً.

تُرى من الذي عَنَّى نفسه بوضعه؟

وهل يستطيع مثلها فرد أو أفراد؟

وكيف استوى لهذا الفرد أو لهؤلاء الأَفراد، هذا التنسيق بين الشعر والمناسبات التي قيل فيها؟

وما لنا لا ننكر المناسبات هي الأُخرى ما دمنا قد أنكرنا الشعر المقول فيها؟ ثم ما بالُنا لا ننكر تلك الصفحات الأولى من حياة الأمة العربية ما دمنا قد أنكرنا أكبر شطر فيها؟

قولوا: إنه ثمة بَيت أضيف نُصدقكم.

وقولوا: إنه ثمة كلمة جاءت مكان كلمة نصدقكم.

أما أن تقولوا: إن الشعر الجاهلي موضوع، فهذا ما لا نملك معه عقولاً تُصَدِّقكم.



# شعراء الإسلام

لقد كانت هذه حال الشعر الجاهلي في جملته، جاء الشعراء وذهبوا، وكأنهم صِغار الصخور في مجرى التيّار الجارف، ولم يكونوا ككبارها تَقف للتيار تُغيِّر مَسار مجراه. الوجود يستمد تَطوّره من الكَلِمة، وليست ثمة كلمة أَنفذ إلى القلوب من الشعر من أجل هذا كان تقديرنا للشِّعر، لا نَقْدُره كلمةً حلوة، فهذه هي التي يَبلغ بها الشاعر أن يكون شاعراً، ولكنا نَقْدُره حين يكون كلمة موجِّهة تجلب خيراً وتدفع ضُرًّا.

ومن هُنا كان حرصنا على أن تكون البيئة على حَظّ واسع من الحضارة والثقافة، لينشأ القائل على وَعْي، يعرف الفَرق بين أن يكون مُسْتَمِلياً، فما أَغنى البيئات بالقائلين المُمْلين، ثم ما أغناها عن القائلين المُسْتملين.

ومن هنا نستطيع أن نقول: ما كان أغنى البيئة الجاهلية عن تلك الكثرة الكثيرة من هؤلاء الشعراء الذين مرُّوا بك.



## (٧)

ومع السنة العاشرة بعد الستمائة كانت رسالة السمـاء على لسان محمـد ﷺ، فإذا البيئةُ العربيّة تُطالَع بقرآن كريم، يُـوقظ العُقول من غفـوتها، ويـرد النُفوس إلى رِشْدتها، ويُقيل الأُمَّة من عَثرتها، يَحمل الكلمة الهادية، والعِظة الواعية، والزَواجـر الناهية، ممّا لم تَعهده البيئةُ من قبلُ على ألسنة القائلين.

فإذا الألسنة تتمثّله، وإذا القائلون يَنْحون مَنحـاه، وإذا أدب البِيئة نثـراً وشعراً يُصبح أدباً مُوجِّهاً، لا ينحدر بأنحدار البيئة، بل يأخذ في الارتقاء بالبيئة.

وما استوى للبيئة العربية أن تأخـذ بالأسبـاب مع بَـدء البعثة المحمّـدية، بـل آمتدت بها الأحوال أعواماً تقرب من الخمسة عشر عاماً، كانت كفيلة بأن تَلُفَّ البيئة برداء الإسلام، ولكن هذا لم يكتب له الشُّيوع إلا مع انتهاء عصر الخلفاء الراشدين وقيام الدولة الأموية.

وأستطيع بهذا أن أعد الشعراء الذين أظلتهم تلك الفترة شعراء إسلاميين: أي شعراء عايشوا الدعوة الإسلامية في أول عهدها وتأثروا بها.

* * *

## (٨)

ومن هؤلاء الشعراء: **أمية بن أبي الصلت**، الذي كانت وفاته سنـة خمس وعشرين بعد الستمائة (٦٢٥ م).

عاش أمية في ظِـلّ الدعـوة الإسلاميـة، أدرك فيها عن الإسـلام الكثير، حتى

ليُقال إنه رَغب في الإسلام، وهَمَّ أن يَدْخُله، ولكنه قَعد به عن هذا شاغل.

وكما أنكر الإسلامُ الأصنامَ أنكرها أمية، وكما حَرّم الإسلام الخَمر حَرَّمها على نفسه أمية، فلقد كانت لأمية رِحلات ترك فيها الطائف موطنه إلى دمشق، وكان قارئاً للكُتب القديمة، ومن هنا جاءته هذه النَّزعة التعبُّدية، ثم تِلك الرغبةُ في آعتناق الإسلام.

ثم كان أمية في جاهليته الأولى، قبل أن يأخذ في رِحلته إلى دمشق، مُنقطعاً إلى سيّد من سادات قريش عُرف بالصَّلاح والجُود، هو عبد الله بن جُدعان، وكثيراً ما مدحه أمية، وكثيراً ما زاده عبدُ الله بن جُدعان عطاءً على مدحه إياه.

يقول أمية لابن جدعان وقد قَدِم عليه طالباً:

أأذكر حاجتي أم قد كَفاني ... حَياؤُك إنَّ شِيمتك الحَياءُ

وعِلْمُك بالحُقوق وأنت فَرْعٌ ... لك الحَسبُ المُهذَّب والسَّناءُ

ويقول له وقد نال عطاءه:

عَطاؤُك زَيْنٌ لامرىء أن حَبَوْتَه ... بِبَذْلٍ وما كُل العَطاء يَزِينُ

ولَيس بِشَيْنٍ لآمرىءٍ بَذْلُ وَجهه ... إليك كما بَعْضُ السُّؤال يَشِينُ

ويقول يذكر فَضْلَه:

وما لي لا أُحَيِّيه وعِنْدِي ... مواهبُ يَطَّلِعْنَ من النِّجَادِ

لِكُلِّ قَبيلةٍ هادٍ وَرأْسٌ ... وأنت الرَّأْسُ تَقْدُم كُلَّ هادِي

ثم كان أن وصل أُمية حَبله بحَبل سيف بن ذي يزن.

ويقول أُمية لسيف، وقد خرج طالباً للثأر:

لِيَطْلُبِ الوتر أمثالُ ابن ذي يَزَنٍ ... في البَحْر خَيَّم للأعداء أَحْوَالاَ

هذه صفحة أميةُ الجاهلية، لا تخرج كثيراً عن صَفحات أضرابه ولتقرأ له صفحته الثانية حين تَعبَّد:

يقول أمية في إحدى قصائده:

إله العالَمين وكُل أرضٍ ... وربُّ الراميات من الجِبَالِ

ويقول في أخرى:

لــك الحمـدُ والنَّعمــاءُ والمُلْكُ رَبَّنَــا    فــلا شيء أعلى منك مجــداً وأمجـدُ

ويقول في ثالثة:

إنَّ آيــاتِ ربِّــنــا بــاقــيــاتٌ    مــا يُـمَــارِي فــيــهـنّ إلّا الــكَـفُــورُ

ويقول في رابعة:

إلـى الله أهــدي مِــدْحتي وثَنَــائِيَــا    وقَــوْلاً رَصِيناً لاَ يَني الــدَّهْـرَ بــاقِيَــا

ثم يقول في خامسة:

سُبْحَــانَــه ثـم سُبْحَــانــاً يَعــود لَــهُ    وقَبْلُنــا سَبَّــح الجُــودِيُّ والـجُـمُـدُ

الجوديّ: الجبل الذي رَست عليه سفينة نوح عليه السلام. وثمة صفحة ثالثة نقرأ فيها لِأميّة جَزعـه على مقتل آبني خـال له يـوم بدر، وهـمـا: عَتبة، وشيبـة، ابنا ربيعة، وكانا في صُفوف قُريش.

وهـذا الجَزع، كمـا يقول الـرواة، هو الـذي ارتدّ بـه عن أن يؤمن بـالإسـلام عقيدة، فأخذ يرثيهما ما وَسِعه الرثاء.

يقول في رثائهما:

أَلَّا بــكَـيــتَ عــلى الــكِـرَا    م بَني الكِــرَام أُولي المُمَــادِحْ

ثم صفحة له رابعة، وهذا حين مَرض مرضَ الموت، فإذا هو يعود إلى وَعيه، وتأخذه غَشية من النَّدم والحَيرة، وإذا هو يقول:

إن تَغْفِــرْ الـلهمّ تَـغْفِــرْ جَـمَّــا    وأيّ عَــبْــدٍ لَــك لا أَلَــمَّــا

وإذا هو يقول أيضاً:

كُــلُّ عَــيْشٍ وأنْ تَــطاول دَهْــراً    مُــنْــتَــهَــى أمــره إلــى أنْ يَــزُولاَ

لَيتَـني كـنتُ قـبـلَ مــا قَــدْ بَــدَا لي    في رُؤوس الجِبــال أَرْعَى الــوُعــولا

ثم إذا هو يقول وقد أَحسَّ بالموت:

أَلاَ نَــبِيٌّ لَــنَــا مِــنَّــا فَــيَـخْــبــرنــا    مــا بَعـد غــايَتنا مِن رَأْسِ مَحْيَــانَــا

وقَــد عَلِمْنَــا لَــو آنّ الـعِلمَ يَـنفعُنَــا    أنْ سَــوف يَـلحق أولانــا بــأُخــرانــا

وهكذا عاش أُمية على فكرة لم تكتمل له حياتَه، وترك الدنيا وما خَرج من حَيرته، ولكنه كان صاحبَ رأي على أيَّة حال[1].

* * *

ومنهم: **أعشى بن قيس الثعلبي (٦٢٩م).**

وهو أبو بَصير يحيى بن قيس، وكان أعشى.

هذا شاعر ينتمي إلى اثنتين: وطن، وقوم. أما وطنه فعلى أرض اليمامة دبَّت قدماه حتى تَرعرع وشَبّ. وأما قومه، فهم بنو قيس بن ثعلبة، بَطن بن بطون بَكْر، غير أنه كان كثيرَ التَّرحال، ونَزل بالكثيرين، وكان منهم مَن أكرم وفادته، واستحق مدحه، ومنهم من لم يَحمد جِوَارَه، فلم يَنِ عن أنْ هجاه.

ولقد قارب ممدوحوه أن يكونُوا واحداً وعشرين ممدوحاً، منهم من قال فيه قصائد كثيرة قد تبلغ العشر، ومنهم من لم يظفر من مدحه إياه بغير قصيدة.

كما قارب مَن هَجاهم أن يُتِمُّوا العشرين، منهم من هجاه فأكثر، ومنهم مَن هجاه فأَقلّ.

إذا قصائده مَدْحاً وهَجاءً تُرْبِي على الستِّين، أي ما يعادل الثُّلثين من جَمِيع قصائده.

ويَبدو أن ارتباطه بأرضه وقومه كان لِمَاماً، ولعلّ هذه هي التي علَّمته أن يكون إِلْفَ خَمْر ومُجون.

فلقد أفاض فن شِعره في ذِكْر الخمر وصفاً وشُرباً، حتى لتكاد تراها رِيَّه الذي عليه يعيش، كما أفصح عن مجونه إفصاحاً لا يكون مثله إلاّ غيرَ مسؤول بين قَومه.

وحين أظلَّه الإسلام بظِلّه بدأ يَصْحُو شيئاً، ويكاد يرعوي عمّا هو فيه، وكان هذا بعد ما شاب، فإذا هو يقول:

أَلَمْ تَغتمض عيناك ليلَة أَرْمَدَا ... وعادَكَ ما عاد السَّلِيمَ المُسَهَّدَا

السليم: اللديغ.

---

(1) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ طبقات الشعراء لابن سلام ـ شعراء النصرانية.

ومـا ذاكَ مِـن عِشْـق النِّسـاء وإنَّـمـا　　تنـاسَبْتُ قبـل الـيـوم خُلّةُ مُـهْـدَدَا

أي لم يكن سهرك عن عشق النساء، فقد فارقتهن منذ زمن، وتناسيت صداقة مهدد إلى أن يقول:

وما زِلْتُ أَبْغِي المـالَ منـذُ أنـا يـافـعٌ　　وَلِـيـداً وَكَهْـلاً حـيثُ شِبْتُ وأَمْـرَدَا

إلى أن يقول:

ألا أيـهـذا السَّـائِـلي أَيْـنَ يَـمَّـمَـتْ　　فـإنّ لها في أَهـل يَثْـرِبَ مَـوْعِـدَا
فـآليتُ لا أَرثـي لـهـا مِـن كَـلاَلَـةٍ　　ولا مِـنْ حَفًى حتَّى تَـزُورَ مُحَـمَّـدَا
متى مـا تُنَـاخِي عنـد بـاب ابن هـاشم　　تُـرَاحي وتَـلْقَي مِـن فـواضـله يَـدَا
نَـبِـيٌّ يَـرى مـا لا تَـرَوْنَ وذِكْـرُهُ　　أَغَـارَ لَعَمْـرِي في البِـلَادِ وأَنْـجَـدَا
أجِـدَكَ لـم تَسـمـع وَصـاةَ محـمـد　　نَـبِيِّ الإلـه حيـن أوصـى وأَشْـهَـدَا
فـإيّـاك والـمِـيـتَـاتِ لا تَـأْكُـلَنَّـهـا　　ولا تَـأْخُـذَنْ سَهْـمـاً حـدِيـداً لِتُقْصِـدَا

أي فإيّاك أن تأكل الميتة أبداً يوم تقصها بسَهم من حديد.

وذا النُّصُبِ المَنْصُـوب لَا تَـنْسُـكَنَّـهُ　　ولا تَـعـبُـد الأَوثـان واللهَ فـاَعْـبُـدَا

ويقول الرُّواة: إنه كاد أن يُسلم، ولكنـه حين عَلم أن الإسلام يُحـرِّم الخَمر، عاد إلى أرضه لِيَفْرُغَ مِن شُرب ما كان قد آختزنه منها، ثم يعود فيُسلم، ولكنه مـات قبل أن يَتِمّ له ما أراد.

ويبـدو أنها من مُغـالاة الرواة، ولعـلّ الأَعشى أبطأ بـه إسلامـه لمُهْلة أرخاهـا لنفسه ليفكِّر.

ولقـد رأيت كيف عاش الأعشى جُـلَّ حياتـه في الاستجداء بشعـره إيجابـاً أو سَلباً، أي مَدْحاً وهِجَاءً، حتى مُعلّقته التي عُلِّقت له في الكعبة كانت هي الأُخـرى في مـدح واحد مِن مَمـدوحيه، وبَعـد هذا المَـدح وذلك الهجـاء فثَمّة قصـائدُ قِلّة، وأبياتها هي الأخرى قِلّة في الفخر مرة، وفي الغَزل أُخرى، وفي أيام كـانت بين قوم وآخرين، ولم يكن في واحدة من هـذه كُلّها مُضِيفـاً ـ إلى الوجـود جديـداً، إلا في

قَصيدته التي طالعنا فيها برأيه عن الإسلام[1].

* * *

ومنهم: **دريد بن الصِّمَّة (٦٢٩م ـ ٨ هـ).**

وكان فارسَ بني جشم وشاعرهم، يَعُدُّ الرواةُ له غزواته فإذا هي تبلغ المائة، وإذا هذه الغزوات قد استوعبت عُمره المديدَ كُلَّه، فلقد كان من المُعمَّرين، ولم يُعْفِه قومُه من أن يشاركهم الحربَ يوم حُنين. وهو اليوم الذي كان بين المُسلمين والمشركين، أخرجوه معهم تَيَمُّناً به، فلقد كان في حُروبه كلِّها مُظَفَّراً، لا لأن يَكُون بين المحاربين، إذ كان قد بلغ من الكِبَر غايَته.

يقتل بنو يربوع أباه الصِّمّة، فيخرج إليهم دريد مُستظهراً ببني نَصر، ويقول في هذا:

دَعَوْتُ الحيَّ نَصْراً فاَسْتهلُّوا ... بِشُبَّانٍ ذوي كَرَمٍ وشِيبِ

وكان لدُريد إخوة أربعة، هم: عبد الله، وعبد يغوث، وقيس، وخالد، ويشاء القدرُ أن يُقتل هؤلاء الإخوة الواحد بعد الآخر، في تلك الحُروب التي شَنَّها دُريد، ويبدو أن أخاه عبد الله كان أعزَّهم عليه، فلقد رثاه فأكثر، فنقرأ له يقول في رثائه:

تَقولُ ألَا تبكي أخاك وقد أرَى ... مكانَ البُكا لكنْ بُنِيتُ على الصَّبْرِ

فقلتُ، أعَبدَ الله أبكي أم الذي ... على الشَّرف الأعلى قَتيلَ أبي بَكْرِ

وتقرأ له يرثيه:

قَتلنا بعبد الله خَيْرَ لِدَاتِه ... وخَيْرَ شَباب النَّاس لو ضُمَّ أَجْمَعَا

وتُعاتبه زوجته أمُّ معبد على جَزعه هذا الشديد على أخيه عبد الله، فيُطلِّقها ويقول:

أَعاذِلتي كُلُّ آمرىء وآبن آمِّهِ ... مَتاعٌ كَزادِ الراكبِ المتزوِّدِ

ويُقتل أخوه عبد يغوث، فنقرأ له يرثيه:

فَما أخي يأخِي سَوْءٍ فيَنْقصه ... إذا تقاربَ يابن الصَّارِد القَسَمُ

ويقتل أخوه قيس وكان الذي قتله عمرو بن سُفيان، فيقول دريد يرثي أخاه قيساً:

---

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ شعراء النصرانية ـ ديوانه.

يـا خـالـداً خـالـدَ الأيسـار والنّـادِي وخـالـدَ الـرِّيـح إذ هَـبَّت بِصُـرَّادِ

الصراد: العنم الرقيق لا ماءَ فيه.

وهكذا عاش دُريد مُحاربـاً لا رائياً، أعني لِسيفـه لا لرَأيـه، فما رأينـاه يُصِيْخُ لتلك الدعوة الإسلامية، ولا يقول فيها كلمة، لها أو عليها، وكانت نَظرته إليها، وقد خَرج مع قومه لحَرب المسلمين يوم حُنين، نظرةَ محارب، على أنه لم يكن عندهـا في قُوته فيُحارب.

فنقرأ له يقول:

يـا لـيـتـنـي فـيـهـا جَـذَعْ أخُـبُّ فـيـهـا وأضَـعْ

الجُذَع: الشاب الحَدث[1].

* * *

ومنهم **عبـد الله بن رواحـة (٦٢٩م ـ ٨ هـ)**. من شُعـراء الخـزرج، وكان كاتباً في الجاهليّة، أعْني ممّن يَكْتُبون. أَسلم مبكِّـراً، إذ كان أحـدَ النُّقباء من الأنصار الذين حَضروا العَقبة التي بُويع فيهـا النبيّ ﷺ، وهي بين مِنى ومكة، بينهـا وبين مكة نحو ميلين.

ففي سنــة إحــدى عشــرةَ من النبــوة، أي حــوالى سنــة (٦٢٢ م)، لقـي رســولُ الله ﷺ نفراً من الأوس، عـرض عليهم الإسلام فـأسلموا، وهـذه هي العقبة الأولى.

وفي سنة آثنتي عشرة من النبوة، أي حوالي (٦٢٣ م)، وافى النبيَّ ﷺ نَفَـر، من الأوْس ونَفَرٌ من الخزرج، وكان منهم عبدُ الله بن رواحة.

فعبد الله بن رواحة من السابقين إلى الإسلام، مَحـا شعرُه في الإسـلام شِعْرَه في الجاهلية، فلا تُثبت له المراجعُ شيئاً من هذا الشعر الجاهليّ، وما أَظُنه كـان إلا في تلك الحروب التي دارت رَحاها بين الأوس والخزرج، ولقـد كان نِـدًّا لقيس بن

---

(١) الأغاني ـ شعراء النصرانيّة.

الخَطيم الأوسيّ يُناقضه.

وكان عبد الله اللِّسانَ المُنافح عن المسلمين، سلَّطه على المُشركين.

نقرأ له، حين دعاه رسول الله ﷺ، إليه، وهو في المسجد، وقال له: كيف تقول الشِّعر؟ فقال عبد الله: أنظر في ذلك ثم أقول، فقال ﷺ: فعَليك بالمشركين، يعني رسول الله ﷺ أن يكون لِسانُه لسانَ الدَّاعي، فلقد كان الشعر والمرسَال أقربَ إلى القُلوب.

يقول عبدُ الله: ولم أكن هيّأت شيئاً، فنظرتُ ثم أنشدتُه:

فَثَبَّتَ الله ما آتاكَ مِن حَسَنٍ تَثْبيتَ موسى ونصراً كالذي نُصِرُوا

وفي هذه القصيدة يقول عبد الله:

إني تفرَّسْتُ فيك الخيرَ أعْرِفُهُ فراسةً خالفتْهم في الذي نَظَرُوا

وهو في هذا البيت يُفصح عن أنه كان ذا رأيٍ خالف به الرائين من حوله، ولِمثل هذا خُلِق الشاعر، ومثل هذا يجب أن يكون الشعر[1].

* * *

ومنهم: **عامر بن الطُّفيل (٦٣٢م - ١٤ هـ)** فارس قَيس وسيِّدهم وشاعرهم، له وقائع كثيرة، وكان إلى هذا كريماً ذا نَجدة، لا يجد راجلاً إلا حَمَله، أو جائعاً إلا أَطعمه، أو خائفاً إلا أَمَّنه.

ولقد بلغ إعزاز قومه له أنه لمّا مات نُصبت على قبره أنصاب ميلاً في ميل، حمًى لا تدخله ماشية، ولا ترعى فيه راعية، ولا يسلكه راكب ولا ماش.

ولقد أطغاه هذا الإعزازُ حُبًّا فإذا هو لا يؤمن بوُجود مع وجوده، يتمثّل لك هذا في موقفه من الرسالة الإسلامية، وصاحبِ هذه الرسالة محمد ﷺ، فلقد خَفَّ إليه في المدينة يُريد الغَدْرَ به، وحين لم يُفلح أبى أن يُسلم إلا إذا ضَمِن له محمد ﷺ نِصفَ ثمار المدينة، وأن يكون وليَّه مِن بعده، حتى إذا لم يُجَبْ إلى شيء مما

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام - الإصابة - جمهرة أشعار العرب.

سأل رَجع متوعداً وهو يَقول: لأملأنَّها خَيْلاً جُرْداً، ورجالاً مُرْداً، ولأربطنّ بكلّ نَخلة فرساً. ويُدركه الموتُ وهو في قفوله.

ومن قبل هذا كانت له أُخرى مثلها بل أنْكَى.

فلقد وَفَد وافد من قومه على الرسول ﷺ يسأله أن يَبعث رجالاً من أصحابه إلى أهل نجد يدعونهم إلى الإسلام، ومعهم كتاب الرسول ﷺ، إلى عامر بن الطفيل.

فيثور لها عامر، ويعدو على حامل الكتاب فيقتله، ويُثير قومَه فيغدون على هؤلاء الصحابة فيقتلونهم.

وفي ظل هذا كله من غارات وفَتك، وآستعلاء وفخر وتمشدق، جاء شعر عامر بن طفيل.

يقول:

| | |
|---|---|
| إنِّي وإن كنتُ آبن سَيِّد عامرٍ | وفارسَها المَندوب في كُلِّ مَوْكِبِ |
| فما سَوَّدَتْني عامرٌ عن قَرَابةٍ | أَبَى الله أن أَسْمو بأُمٍّ ولا أبِ |
| ولكنّني أَحمي حِمَاها وأَتَّقي | أذاها وأَرْمِي مَن رماها بِمَنْكَبِ |

ويقول في فَتكه:

| | |
|---|---|
| تَركنا مَذْحِجاً كحديث أَمْسٍ | وأَرْحَبَ إذ تكفَّنُهُمْ فِئَامَا |

تكفَّنهم، أي إذ تكفنتهم الخَيل.

| | |
|---|---|
| وقَتَّلْنا حَنِيفَةَ في قُرَاهَا | وأفنى غَزْوُنا حَكَماً وَحامَا |

أراد: حاماً وحكماً ابنتي سعد العشيرة، فزاد (ما) صلة له.

ويقُول في مثله:

| | |
|---|---|
| أَبَدْنا حَيَّ ذِي البَزَرَى وَنَعْباً | رُمالِكَها وأهلكنا بَشِيرَا |

ويقول في مثله:

| | |
|---|---|
| ونَحْنُ نَفَينا مَذْحِجاً عن بلادها | نَقَتَّل حتى عاد فَلَّا شَدِيدُها |

والفل: المنهزمون.

ويقول في مثله:

وتــركتُ جَمْعهــمُ بِــلاَبَــةِ صَــرْغَــدِ       جَــزَرَ السِّبــاع وكُــلِّ نَــسْــرٍ أَهْــدَبِ

ويقول مفتخراً بفروسيَّته:

وأنــا ابــنُ حَــرْبٍ لا أزال أَشُــبُّــهــا       سَــعْــراً وأُوقــدهــا إذا لــم تُــوقَــدِ

وعلى هذا النحو من الغَطرسة والعَنجهيَّة يجيء شعر عامر لإمكـان فيه لـرأي، يُعطي عامر من شعره لنفسه ولا يعطي عامر من شعره للناس، وكـأن الذي قيـل عنه أولاً من إشباع جائع، وتأمين خائف، كان مظهراً آخـرُ من مظاهـر جَبروتـه، لإشياع تُهم نفس بـأن يكون صـاحبها السيّـد المطاع، حَـربـاً وسَلمـاً، ومـا خُلقت الكلمـة لتُطْرِي الشرَّ وفاعلَه، وما خلق الشاعر إلا ليأخذ بيد الوجود إلى جديـد مفيد، أو ردِّه عن ضُرّ يُبيد، وإن لم يكن لهذا أو لذاك، فلا أقل من أن يكون متعة يَحيي النفس، وتُنعش الفؤاد هذا إلى أن عامراً لم يُلقِ بالاً من قُرب أو من بُعد، إلى تلك العقيـدة التي أظلَّت البيئة، وما أظنه كان بعيداً عن الدعوة[1].

* * *

ومنهم: **مالك بن نُوَيْرة (٦٣٤ م - ١٢ هـ)** شاعر فـارس، لا تذكـر عنه المراجع كثيراً، لا أخباراً ولا شِعراً.

وكُل ما انتهى إلينا: أنه كان له فرس يقال له: ذو الخمار، وكان يَعتزّ به، وفيه يقول:

مَتى أَعُــلُ يـومــاً ذا الخِمــار وِشكَّتي       حُــسَــامُ وصَــدْقٌ مــارِنٌ وشَــلِيــلُ

المارن: الرمح. والصدق: المستوي، والشليل: الدرع القصير.

وكذا موقفه من الأقرع بن حابس، والقعقاع بن مَعبـد، وقد لامـاه على تَفريق ما في يديه من إبل الصدقة، وكان النبي ﷺ قد ولّاه صدقات قـومه بني يـربوع بعـد إسلامه، فقال لهما:

---

(١) المفضليات - الأصمعيّات - ديوانه.

أرانــي الله ذا الـنَّـعَــمِ الـمُـنَـدَّى ... بِـبُـرْقَـة رَحـرحـان وقـد أرانِـي
تَـمَشّـى يـا بْـنَ عَـوذة فـي تَـمِـيـمٍ ... وصـاحِـبُـك الأقـيـرع تَـلْحَـيَـانِـي

ويقول في هذا:

وقلتُ خُـذُوا أمـوالكم غيـرَ خـائفٍ ... ولا نـاظـرٍ فيمـا يَـجِيءُ مـن الغَـدِ
فـإن قـام بـالأمـر المُخـوَّف قـائمٌ ... مَـنَعْـنَـا وقُلنـا الـديـنُ دينُ مُـحَمَّـدِ

المخوف: الذي خوفتموني إياه. والدين: الطاعة.

وما بعد هذه من حياة مالك، من إسلامه أولاً ثم آرتداده ثانياً، لا تجد ما يمثله من شعر، وبُعيد أن يمضي هذا دون أن يُنطق لسانَ مالك، بمشاركته في الوُجود مشاركة إيجابية[1].

* * *

ومنهم: **العبّاس بن مرداس (٦٣٧ م - ١٦ هـ)** شاعر فارس، جاهلي إسلامي، عاش جاهليته كما تُمليه عليه محارباً غازياً، لا يَترك حرباً خاضها إلا خَصَّها بشعر. وحسبك في فروسيته بيتُه:

أَكُـرّ عـلى الكَـتِيـبـة لا أُبـالـي ... أَحَـتْـفِـي كـان فـيـهـا أو سِـوَاهَـا

وهذا الشاعر الفارس، الذي نوه بشجاعته وإقدامه، لم نره يُنَوِّه بما هو أجلّ من ذلك، وهو رأيه في الخَمر، فإنه يُقال إنه حرمها على نفسه في الجاهلية، وما أظنه فعل ذلك متعفِّفاً، ولكن عن رأي بدا له، وما أحقَّ مثلِ هذه الآراء أن يُنوِّه بها لتلُفّ الناسَ حولها، ولكني أجنح إلى أن العبّاس نوّه، ولكن التدوين هو الذي لم يدوِّن.

سيتبيَّن على هذا أن العباس حين بدا له في الإسلام، رأي، سُرعان ما أفصح عنه، وهو الذي كان يعكف على صنم له خاص بأبيه، وإذا هو يقول:

لَعَمْريَ إنّي يومَ أُجعل جاهداً ... ضِحاراً لِرَبِّ العالَمين مُشارِكا

---

(١) الأغاني - الشعر والشعراء - طبقات ابن سلام.

| | |
|---|---|
| وتـركي رسول الله والأوس حـوله | أولئــك أنصــارٌ لــه لا أولئكــا |
| كتارك سَهل الأرض والحَزن يبتغي | لِيَسْلُك في غَيب الأُمور المسالِكا |
| فـآمنت بـالله الــذي أنـا عبــدُه | وخالفتُ مَن أَمْسَى يُريد المَمالكا |
| ووجهتُ وَجهي نحو مكَّة قاصداً | وتـابعت بين الأَخشبين المُبَارَكَـا |

الأخشبان: جبلان بمكة. ولا يعَنينا بعدَ هذا أن العباس كان حَـريصاً على ألّا يَفـوت قومَـه، ممن أسلموا معـه، نَصيبُهم من المَغانم، فهـو يعرفهم بَـدْواً لم تَسلم نفوسُهم السلامـة كلها، فيُقـال إن المسلمين أصابُـوا مغانم من هـوازن، وحين أخذ الرسول ﷺ في تَقسيمها أعطى الأَقرَع بن حابس، وعُيينة بن حِصن، فوق مـا أعطى العباس، فإذا العباس يقول:

فأَصبح نَهْبي ونَهب العبيد بَين عُيينة والأَقْرَعِ.

وما أرادها العبـاس لنفسه، ولكن أرادهـا لقومـه معه، وأَحَسَّهـا رسولُ الله ﷺ فأعطى العباس ما أرضاه.

وهـذه إن دَلَّتنا على شيء فـإنما تـدلنا على أن العبـاس لم يَنس أنه المُنـاضل الأول عن قَومه، ولقد كان من أسلموا معه هم قومه الجـدد، وهكذا يكـون ما نُبغيـه من الشاعر[1].

* * *

ومنهم: **النَّمِـر بن تَـوْلَب** (٦٤٠ م ـ ٢٠ هـ) هـذا شـاعــر أُملت عليـه جاهليته ثلاثاً.

١ ـ فلقد كان كريماً، وكاد أن يَرفعه كرمُه إلى مَرتبة حاتم الـطائيّ فهو يُشـرك الناسَ في كُل ما يملك، يدلك على هذا قولُه:

| | |
|---|---|
| لعمــر أبيـك مــا لَحمي بِــرُبٍّ | ولا لَـبَـنِـي عـليَّ ولا سِــلَائِــي |
| ولا رَحْـلِي بـمَــخْــزُونٍ عـليــه | إذا جــارِي آستعــارَ ولا رِدَائِـي |

ثم قولُه:

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ الإصابة.

أعـاذِلَ إن يُـصْبِـحُ صَـدَايَ بِقَفْـرةٍ     بـعيـداً نـآنِي صـاحِبِي وقَـرِيـبِي
تَـرَيْ أنَّ مـا أبـقـيـتُ لـم أكُ رَبَّـهُ     وأنَّ الـذي أمضيتُ كـان نَـصِيـبِي

ثم قولُه يعاتب زوجته على لومها إياه في كرمه:

لا تَـجْـزَعِي إن مُـنْـفِسـاً أَهـلكتُـه     وإذا هلكتُ فعِنْـد ذلـك فـآجْـزَعِي

ثم قولُه:

يَـلوم أخـي عـلى إهـلاك مـالِـي     ومـا أن غـالـه ظَـهـري وبَـطْنِـي

أي لم أُقنه عليّ في الملبس والمأكل.

رأيتُ المـانِعين المـالَ يـومـاً     مَـصيـرُهـمُ لإلقـاء فَـدَفْـنِ

٢ ـ كما كان مُحبًّا لزوجته جمرة بنت نـوفل، وكـانت قد وَقعت سبيـة، لأخيه الحارث، فوهبها لأخيه النَّمِر، فتزوجها، وكان له منها أولاد، ولكنّها على هذا كانت تَحِنُّ لزوجها الأول في قومها، فانتهزت غِرَّةً من النمر ولَحقت بقومها ولم تَعُـد إليه، فإذا هو يعيش محزوناً حياتَه، وإذا ما قاله فيها يَستـوعب جملةً كبيرة من شعـره. من هذا قوله:

جَـزى الله عنَّـا جَمْـرةَ ابنة نَـوْفَـلٍ     جـزاء مُـغِـلٍّ بـالأمـانـة كـاذبِ

ثم قوله:

صَـرَمتُـك جَمـرةُ واستبـدَّ بـدارِهـا     وعَـدت عَـوَادِي الحَـرب دونَ مَزارِهَا

ثم يذكر جمالَها فيقول:

كـأنّ مُـدَامـةً مـن أَذْرِعـاتٍ     ومـاءَ المُـزْن والعِـنَبَ القَـطِيـفَـا
عـلى أَنيـاب جَـمـرةَ بعـد وَهْـنٍ     إذا مـا خـالَطَ النَّسَـمُ الـرَّشِيـفَـا

ثم يقول في خِيانتها إياه:

وكُـلَّ خَـلِيـلٍ عليـه الـرِّعَـا     ثُ والحُـبَـلاتِ كـذوبٌ مَـلِقْ

والـرعـاث: مـا يعلّق في الأذن. والحُبُلات: ضَـرب من الحَلي. ثم يـذكـر وحشته فيقول:

تَـأَيَّـد مِن أَطـلال جَمْـرَةَ مَـأْسَـلُ     وقـد أَقفرت منهـا شَـرَاءٌ فَيَـذْبُـلُ

ثم يقول في رثائها وقد بلغه موتها:

فلا تَبْق وقد بَعُدتْ وأَجْدَى ... على قَبْرٍ تَضمَّنها الغَمامُ

ويقول أيضاً في رثائها:

إذا يَجِفُّ ثَراها بلَّه دِيَمٌ ... مِن كَوكب نَزلٍ بالماء سَجَّامِ

نزل: كثير المطر.

٣ ـ كما كان ناصحاً لعشيرته ضارباً الأمثال بنَفسه وبصَحبه وفي هذا يقول:

لا تغضبنَّ على آمريءٍ في ماله ... وعلى كَرائم صُلْب مالك فاغْضَبِ

وإذا تُصِبْك خَصاصَةٌ فارْجُ الغِنَى ... وإلى الذي يُعْطى الرَّغائبَ فارْغَبِ

ويقول:

خاطِرْ بنَفسك كي تُصِيبَ غَنيمةً ... إنَّ الجُلوس مع العِيَالِ قَبِيحُ

فالمالُ فيه تَجِلَّة ومَهابةٌ ... والفَقْرُ فيه مذلَّةٌ وقُبُوحُ

ويضرب المثل بنفسه.

ولا أَخُونُ آبن عَمِّي في حليلته ... ولا البَعِيدُ نَوَى عَنِّي ولا جارِي

ويضرب المثل بصَحبه فيقول:

وفِتيةٍ كالسُّيوف أحضُرُهُمْ ... لا عاجزُ فيهم ولا بَخِلُ

وما بعد هذا فلا نَرى النَّمِر هجّاء إلا في كلمة عابرة قالها في أخواله، من بنِي سعد، وهي:

إذا كُنْتَ في سَعْدٍ وأُمُّك مِنْهُمُ ... غَريباً فلا يَغْرُرْكَ خالُك مِنْ سَعْدِ

فإنّ آبن أُخت القَوم مُهْفًى إناؤه ... إذا لم يُزاحم خالَه بأبٍ جَلْدِ

وتَثُور الحربُ بين قومه وبين خُصوم قومه، فيعرض لها في يُسر في مواضعَ قليلة من شِعره، ويلجأ إلى الوصف، فيصف الجَمل مرة في بيتين، والسيف في نحوهما، والنَّخل في أبيات ثلاثة ثم يقول:

وإنِّي كما قد تعلمين لأتقِّي ... تُقَاي وأُعْطِي من تِلَادِيَ للحَسْدِ

ويقول:

وهـــازئــة منّي تــودُّ لــو ابنُهــا　　على شيمتي أو أن قَيِّمهـا مِثْلِي

وتبلغ الدعوةُ الإسلامية النَّمِر، فإذا هـو من المُستجيبين، وإذا هو يَخِفُّ لِيَلْقى رسولَ الله ﷺ، ويُنشده:

إنّـا أتينـاك وقــد طــال السَّفَــرْ

إلى أن يقول:

الله مـن آيــاتــه هــذا الـقَـمَـرْ
والشَّمْس والشِّعـرى وآياتُ أُخَـرْ

وأكاد أجزم أن شعر النّمر في الإلهيات كان في ظِلِّ الإسلام من ذلك قوله:

أعِــذْنـي ربِّ مِنْ حَـصْــرٍ وعِيٍّ　　ومِن نَفْسٍ أعــالِجُهَـا عِــلاجَـا
ومِن حـاجاتِ نَفْسي فـاَعْصِمَنّي　　فـإنّ لِمُضْمـرَاتِ النَّفْسِ حـاجَـا

وقوله:

كــانت قَنــاتِي لا تَلين لغــامـزٍ　　فــألانهــا الإصبــاحُ والإمسَــاءُ
ودعــوتُ ربِّي بالسَّـلامة جـاهـداً　　لِيُصِحـنِّي فــإذا الســلامــةُ داءُ

كما أكاد أجزم أن شعره في شَكـوى الكِبَر كـانْ هو الآخـر في ظل الإسـلام، فلقد تلقاه الإسلام شيخاً ـ فمن ذلك قوله:

أُودي الشبـابُ وحُبَّ الخَـالــة الخُلَبـهْ　　وقــد بَـرِئتُ فمــا بـالصَّــدر مِن قَلَبَـةْ

الخـالة: المختـالون. والخلبـة: الـذين يخلبـون النسـاء. والقليـة: الـوجـع المكروه وقوله:

أصبحتُ لا يَحمـلُ بَعضي بعضَا　　أَشْكُـو العُروقَ النَّـابِضَاتِ نَبْضَـا

وقوله:

لَعَمْــرِي لقــد أنكــرتُ نَفْسي وَرابَنِي　　خــلائقُ منهــا لم تَكُنْ مِن شَمَــائِلِي

هذا هو شاعرنا النَّمِر أَمْلَى عمّا يُحس ويَجِد، جاهليَّة وإسلاماً[1].

* * *

---

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ الإصابة ـ ديوانه.

ومنهم: **خِفَاف بن نُدْبة (٦٤٠ م - ٢٠ هـ)** شاعر فارس، وكان من أغْرِبة العرب، يعني سُودانهم، وكانوا ثلاثة: خفاف هذا، وكانت أُمه نُدبة، أَمَةً سوداء، ثم عنترة، وأُمه زبيبة، وكانت أَمَةً سوداء، والسُّليك بن عمر السَّعديّ، وأُمه سُلَكَة، وكانت أَمَةً سوداء.

ومن هنا كانت حميّته في تسويد نفسه، أي أن تكون لها السيادة، وفي هذا يقول:

كِلاَنَا يُسَوِّدُهُ قَوْمُهُ على ذلك النَّسَبِ المُظْلِمِ

أما عن فروسيته فحسبُك شِعره الذي يفخر فيه بقتله فارس بني فزارة وسيدهم مالك بن حمار، وكان قد أغار عليهم ومعه معاوية بن عمرو بن الحارث، فإذا هم يقتلون صاحبه عَمْراً، فيثأر خِفاف منهم بقتله سيّدهم، وفي هذا يقول:

فإنّ تَكُ خَيْلِي قد أُصِيبَ صَمِيمُها فعَمْداً على عَيني تَيَمَّمْتُ مالِكَا
وقَفْتُ له عَلْوَى وقد خام صُحْبَتِي لأَبْنِيَ مَجْداً أو لأَثْأَرَ هالِكَا

علوى: فرس خفان.

أقول له والرُّمْح يأطِر مَتْنُهُ تأمَّل خِفافاً إنّني أنا ذَلِكَا

ولم يبعد خِفافُ كثيراً ولا قليلاً عن حياة الفُرسان قبله، ولا عن الثأر لِسَواده، شأنَ عنترة قَبْله، وقضى خِفاف جاهليته يُنازع العبّاسَ بن مرداس مَكانته، يقول خِفافٌ، ويقول العبّاس، وكأن الحياة ليست إلا أن يَقهر أحدهما الآخر فَخْراً.

ويُسلم خِفاف، ويَشهد فتح مكة، ويكون معه لواء بَنِي سُليم قومه، وآمتدّ به العمرُ إلى أيام عُمر، ولا نقرأ له شيئاً في موقف ما، وكل الذي نقرؤه كلمة في مدح أبي بكر وكما تقول بعض المراجع.

ولكن الذي نخاله أن خِفافاً قال في عهده الثاني مثلَ ما قال في عهده الأول، غير أنه لأمرٍ ما ثبت شيء وضاع شيء.

ولكن ثمة ما يدفع هذا الذي نخاله، وهو كيف لم يَبق من هذا الذي ضاع

بيتٌ واحدة، يكون لنا السَّنَدُ في الحُكم عليه[1].

* * *

ومنهم: **عمرو بن مَعدي كَرِب (٦٤١ م - ٢١ هـ)** شاعر فارس، له في جاهليته ما للفُرسان من كَرّ وفرّ، أفنى في الحُروب شبابه، أو إن شئت فقُل: أفنت الحروب شبابَه، ولقد قالها عمرو من قبلُ في بيته:

أَعاذل إنما أفنى شَبابي  وأَقْرَحَ عاتِقي ثِقَلُ النِّجادِ

وينبئك عمرو عن فُتوته فيقول:

تَمنَّت مازنٌ جهلاً خِلاَطي  فذاقت مازنٌ طَعم الخِلاَطِ

وكَم فيما بقي لنا من شعره، وما أقلَّه، ما يدل على هذه وتلك، وعلى غيرها من إقدام. وبلغ عَمْراً خبرُ الإسلام، وهو باليمن، فحادث فيه آبن أُخت له، هو قيس بن مكشوح المرادي، وكان سيِّد قومه، على أن يَمضيا معاً إلى رسول الله ﷺ، ليعلما عِلْمَه، فيأبى قيس، ويَخرج عمرٌو إلى الحجاز وحده، وفي هذا يقول يخاطب قَيْساً:

أمرتك يومَ ذي صَنعا  ءَ أَمْراً بَيِّناً رَشَدُهْ
أمرتك باتِّقاء اللـ  ـه تَأتيه وتَتَّعِدُهْ
فكنت كذِي الحُمَيِّرِ غَرّ  هُ مِن عَيرِه وَتِدُهْ

ويَصحب عَمْراً رجلٌ آخر من مُراد، هو فَروة بن مُسيك، فيُسلمان، ويَرى رسولُ الله ﷺ في فروة ما يُؤهله لأن يَستعمله على مُراد وزَبيد ومذحج كلها، وزَبيد هم رهطُ عَمرو الأدنون، ومُذحج هم قَبيلة عندها لم يَلبث عمرو أن آرتدّ حِقْداً، وإذا هو يقول:

وجدنا ملك فروة شر ملك  حمار ساف منخره بقذر

ساف: شم.

---

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ الإصابة ـ ديوانه.

وإنّــك لــو رأيـتَ أبــا عُـمَـيْــرٍ        مـلأتَ يَـدَيْـكَ من غَـدْرٍ وخَتْــرِ

ولكنّ عَمْراً ما لبث أن رَجع عن حِقده، فـإذا هو يخـرج إلى الرسـول ﷺ في نَفر من رَهطه بني زَبيـد، فيلقاه مُنصَـرفه من غـزوة تَبوك، في رجب من سنـة تسع، فيُسلم ويسلم معه هؤلاء النفر.

ويَبقى عمـرو إلى أيام أبي بكـر، ثم إلى أيام عمـر بن الخطاب، فيشهـد يوم القادسيّة سنة تسع عشرة من الهجرة، وهـو يوم كـان بين المسلمين والفُرس، ويُبلي فيه عمرو بلاءً عظيماً، على الرغم من أنه كان قـد طعن في السنِّ، وعلى الرغم من أن الأشعار في هذا اليـومِ كانت كثيـرة، لأنه من أعـظم أيام المسلمين، غيـر أننا لم نَظفر لعمرو بشيء من الشِّعر فيه. وما أظنه فات عمـراً، ولكنه في أكبـر الظن فـات الرواة.

هذا هو عمرو بن معدي كَرِب، لا يعنينا ما غاب عنّـا من شِعره في جـاهليته، فلن يكون غيرَ ما عهدناه على ألسنة الفُـرسان في الجـاهلية، الـذين عاشـوا للحرب يُلَبُّونها حين تَدعوهم، ولكن الـذي كان يَعنينـا شِعْرُه الـذي غاب عنـا في إسلامـه، لنسمع إلى إملاء فكره بعدما سمعنا إلى إملاء سيفه[1].

* * *

ومنهم: **أُميــة بن الأسكر (٦٤١ م ـ ٢١ هـ)** شـاعر فـارس، قَضى جُلّ عمره في الجاهلية وأقلَّه في الإسلام ويقول الرواة: إنه كانت له أيام في الجـاهلية، وهذا طبيعيّ، إذ لو لـم تكن له هذه الأيام ما لُقِّب فارساً ولكنّا لا نظفر في المراجـع القليلة التي ترجمت له على شِعر له في هـذه الأيام، كعـادة من سبقوه من الفُـرسان من الشعـراء، اللهم إلا ما كـان له في حَـرب الفِجار، التي كـانت بين قـريش ومن معهم منْ كنـانة، قـوم أُمية، وبين قيس عَيـلان، وكـان رسـول الله ﷺ عنـدهـا آبنَ خمسة عشر عاماً.

فـالرواة يـروون أن آبن أبي أسماء بن الضـريبة، وكـان من قَيس عيـلان قـال يفخر:

---

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ الإصابة.

نَحن كُنَّا المُلُوك من أهل نَجْدٍ وحُمَاةَ الدِّيار عند الذِّمَارِ
وضَربنا به كِنَانَةَ ضَرْباً خالقُوا بَعده سَوَامَ العِشَارِ

فقال ابنُ الأسكر يُجيبه:

أَبْلِغَا حمة الضَّرِيبةِ أَنَّا قد قَتلنا سَرَاتكم في الفِجَارِ
وسَقيناكُم المَنِيَّة صِرَفاً وذَهبنا بالنَّهب والأَبْكَارِ

ولأمية أيضاً في هذه الحرب يُخاطب وهب بن مُعتِّب الثقفيّ:

المرء وَهب وَهب آل مُعَتِّبِ مَلَّ القراة وأنت لمّا تُمْلَلِ
يسعى توقدها بِحَرَّ وقودها وإذا تَهيَّأ صُلح قومك تَأْتَلِي

ويبدو أن إسلام أمية كان بعد سنة خمس من الهجرة، أو بعدها بقليل، ففي هذه السنة كانت غزوة المُرَيْسيع وفي هذه الغزوة نَرى لأُمية شعراً يَنعى على طارق الخُزاعي تذليله السبيل أمام أصحاب النبي ﷺ، للنَّيل من رهطه، وهذا حيثُ يقول:

لَعمرك إنِّي والخُزاعيَّ طارقاً كنَعجة عادٍ حَتْفَها تَتحفَّرُ
شَمِتَّ بقَوْمٍ هم صَدِيقُك أُهْلِكوا أَصابهمُ يوم من الدَّهر أَعْسَرُ

وبقي أميةُ في قومه، إلى أن أوهنه الكبر، ولم يَقْو على النهوض، يدلك على هذه شعره يخاطب ابنيه، وقد حاول أن ينهض فوقع:

يا آبْنَيْ أُميةَ إنّي عنكما غانِي وما غنائيَ إلاَّ أَنَّني فانِي

وفي هذه السن أُدرك أمية أن يُسلم، ومن هنا لم نر له شِعر الفتوة بل شِعر الضعف والشكوى، وكان ابنه كِلاب قد خرج إلى الجهاد، فغاب عنه طويلاً، فلم يُطق أمية عنه صبراً، فتقرأ له يقول:

تركتَ أَباك مُرْعَشَةً يَدَاهُ وأُمَّك ما تُسِيغ لها شَرَابَا

ثم ينفد صبره فيدخل على عُمر بن الخطاب يستصرخه بأن يَرُدَّ إليه آبنَه ويقول:

سأَستعدي على الفارُوق رَبًّا له دَفْع الحَجِيج إلى بُسَاقِ

بساق: جبل بعرفات.

وأدعــو الله مُـجتـهــداً عـليــه ببَـطْن الأخشَـبَيين إلـى دُقـاقِ
إنِ الفـاروق لم يَـرْدُدْ كِـلَابـاً إلى شيَـخَيـن هـامُهـمـا زواقِي

الهام: جمع هامة، وهي طائر. وزواقي: صوائح.

ولأُمية غير هذا في فِراق ابنـه، وما كـان له شُغـل في الإسلام غيـره. من هنا نرى أنّ أُمية عاشَ عهدَيْه: الجاهليّ والإسلاميّ لِنفسه، يُحارب فيقول، ويَغيب عنه ابنُه فيقول، وكأن الحياةَ من حول أُمية لم تكن غير هذا وذاك[1].

* * *

ومنهم: **الشمَّاخ بن ضِرَار (٦٤٤ م - ٢٤ هـ)** شاعر أجمع الدارسـون للشعر على أنه أوصف الشعراء جميعاً للخمر وللقوس.

وهـذا مبلغ تقديـرهم، وليست القدرة على الـوصف إلا من مكملات الصِّفـة الشِّعرية، ومَثل الشاعر منها مَثل المتحاكي الذي يبلغ الغايـة في المُحاكـاة، فإنـه لا يدل بها إلا على اكتماله في فَنّه، وإذا ما هو حَمَّل فَنَّه هذا الكامل تعبيـراً عن معنى من المعـاني، وما أكثـرهـا، كـالحـريـة مثـلاً، آستحق أن يكـون ممن يُؤَدُّون بفنهم رسالة، وإلا كان فناً جامداً لا يحمل غير متعة الإتقان.

والقارىء لشعر الشمّـاخ يجد جُلَّه إن لم يكن كُلّه، في شؤون ذاتيـة كلها من لهو الحياة، ومرةً يصف خرجات له، وما أكثرها، وقد تكـون كلها من وحي الخيـال لِيُتيح لنفسه وصف مطيته، ومرة يُشبِّب، وأخرى يذكر ما كان بينه وبين نسائـه، على الرغم مِمّا يُروى عن أن الخطيئة، قال في وصيته: أبلغوا الشماخ أنه أشعر غطفان.

والطريف أن أبا الفرج الأصبهاني قال عنه: وهو أحد من هجا عشيرته، وهجا أضيافه، ومنَّ عليهم بالقِرى.

لا نـرى للشمّـاخ في جـاهليتـه غيــر هـذا، ونقــرأ لـه في إسـلامـه قــولـه في رسول الله ﷺ:

---

(١) الأغاني - طبقات الشعراء لابن سلام - الإصابة.

تَعلَّم رسولَ الله أَنَّا كأَنَّنا أَفَأْنا بأَنْمار ثعالِبَ ذي غِسْلِ

تعلم: إعلم.

تعلَّم رسول الله لم أَرَ مثلَهم أَجَرَّ على الأَدنى وأَحْرَمَ للفَضْلِ

يعني أنمار بني بغيض، وهم رهطه، وهو هنا يهجوهم. وهذان البيتان يَنسبهما بعض المراجع لأخيه مزرد، وتقرأ للشماخ أيضاً إسلامه شِعْراً في غزوة موقان أيام عثمان بن عفان سنة أربع وعشرين (٢٤ هـ):

وذكَّرني أهلُ القَوَادِسِ أنَّني رأيتُ رِجالاً واجِمين بأَجْمَالِ
وغُيِّب عن خَيلِ بِمُوقان أَسلمتْ بُكَيْرُ بني الشُّدَّاخ فارسُ أَطْلَالِ
لقد كان يُرْوِي سيفَه وسِنَانَه من العنق الداني إلى الحجُر البالي
وقد علمتْ خيلُ بِمُوقَان أنَّه هو الفارسُ الحامِي، إذا قيل تنزالي

ولا نقرأ للشماخ بعدها شيئاً، إذ كان قد قضى في هذه الغزوة نحبه[1].

* * *

ومنهم: **الخنساء تُماضر بنت عمرو (٦٤٥ م - ٢٤ هـ)** هذه شاعرة عاشت جاهليَّتها باكية، وإسلامَها باكية.

كان لها في جاهليتها أخوان: هما صخر ومعاوية، وكان معاوية أخاها لأبيها وأُمها، وكان صخر أخاها لأبيها، ولكنه كان بالخنساء أَبَرَّ وأكرم.

وإذا الخنساء تَفقد هذين الأَخوين واحداً بعد الآخر، فعاشت جاهليَّتها تبكي هذا ثم تبكي ذاك. ولكن بكاءها على صخر كان أحرَّ وأكثر، وتكاد تكون كل قصائد ديوانها في رثائه، وكانت لا تقول قبل مقتلها إلا البيت والبيتين وإذا هي بعده تقول فتطيل.

تقول في رثاء أخيها صخر:

قَذًى بعينيك أم بالعين عُوَّارُ أم أَقفرت إذ خلت مِن أهلها الدَّارُ

(١) الأغاني - الشعر والشعراء - معجم البلدان - ديوانه.

إلى أن تقول:

فـإنّ صَخْراً لَـوَالينـا وسيِّـدنـا ... وإنّ صخـرا إذا تَشْتـو لنحَّـارُ
وإنَّ صخـرَ لتـأتمُّ الهُـدَاةُ بـه ... كـأنَّـه عَـلَمٌ فـي رَأْسـه نـارُ

وتقول في رثائه:

بَكت عَيني وعـاودهـا قَـذَاهَـا ... بِعُـوَّارٍ فمـا نَـقضي كَـرَاهَـا
على صَخْـرٍ وأيُّ فتًى كـصَخْـرٍ ... إذا مـا النَّـابُ لم تَـرأم طَـلاَهَـا

طلاها: ولدها، أي إذا لم تعطف عليه. وتقول في رثائه:

أعـينـيَّ جُـودَا ولا تَـجْـمُـدَا ... ألاَ تَـبْكيـان لِصَـخْـرِ الـنَّـدَى

وتقول في رثائه:

ألاَ يـا صَخْـرُ إن أبكيتَ عَيْني ... فقـد أضْحكتني دهـراً طَـويـلاً

وتقول في رثائه:

يُـذكِّـرني طُلوعُ الشَّمس صَخْـراً ... وأبكيـه لكُـلِّ غُـروب شَمْس
ولـولا كثـرةُ البـاكين حَـوْلِـي ... على إخـوانهـم لقـتلتُ نَـفْسِـي

ويموت ابن لصخر أخيها، هو كوز، فتهلع لفقده هَلَعها لِفقد صخر، وتقول:

ومـن لامـنـي فـي حُـب كـوز وذِكْـرِه ... فـلاقَى الـذي لاقيتُ إذ حَفَـز الـرَّجِمْ

وتقول في رثاء أخيها معاوية:

أمَـا لِـعـيـنـك أم مـا لَـهـا ... لقـد أخْضـل الـدمعُ سِرْبـالَهـا
أبعـد آبن عَمْـرٍو منِ آل الشَّـر ... يـد حَلَّت بـه الأَرْضَ أثقـالَهـا

وتقول في رثائه:

ألا لا أرَى في النـاس مثلُ مُعـاوِيـهْ ... إذا طـرقت إحـدى الليـالي بـداهيـهْ

وتفقد زَوجها الثاني مِرْدَاساً فتبكيه وتقول:

لقـد خـارَ مِـرْدَاسـاً على النـاس قـاتلُهْ ... ولـو عـاده كَـنَّـانـه وحَـلائِـلُهْ

ثم إذا هي تفقـد في الإسلام أبنـاءً لها أربعـة في وقعة القـادسيّة، سنـة ست

عشرة، فإذا هي تقول: الحمد لله الذي شَرَّفني بقتلكم، وأرجو أن يجمعني الله بهم في مُستقرّ رحمته.

وينعقد لسانُ الخنساء فلا يتحرك ببيتٍ من الشعر في رِثائهم وهي التي لم تترك فقيداً فقدتُه من أهلها إلا رثته، وما نَرى أبناءها إلا كانوا أعز عليها ممن فقدتهم.

ظاهرة غريبة تلك التي عَرت الخنساء في عهدها الإسلامي، فلقد مضى الرسول ﷺ تحت سمعها وبصرها، وما أجلّه من حادث، فلم نَقع لها على رثاء، ومات أبو بكر بعده، وهو الصدِّيق، ثم عُمر الذي أعز الله به الإسلام، فلا تقع لها فيهما على رثاء.

ويلقاها عمر بن الخطاب في حجّها فيسألها: ما الذي قَرّح عينيها؟ فتقول: البكاء على سادات مضر، فيقول لها عمر: إنهم هلكوا على الجاهليّة فهم حَشو جهنّم، فتقول: فذاك الذي زادني وَجعاً.

ويسألها عمر أن تُنشده مما قالت، فتقول: أما إني أُنشدك مما قلت اليوم، ولكن أُنشدك مما قالت الساعة، فتقول:

سَقَى جَدَثاً أكنافُ غَمْرة دونه    من الغَيث دِيماتُ الرَّبيع ووابلُهْ

تعني قبر أخيها صَخر.

وهكذا عاشت الخنساء شاعرةً جاهليّة، ولم تعش شاعرةُ إسلام، وكأنّ حزنها على الماضي لم يترك في قلبها فراغاً لحزن غيره، كما لم يُتح لها أن تقول في غير هذا الحزن الجاهلي[1].

* * *

ومنهم: **أبو ذُؤيب الهُذليّ خُويلد بن خالد (٦٤٦ م ـ ٢٦ هـ).**

هذا شاعر عاش مَفتوناً في جاهليّته بالنساء، وفيهن كان أكثرُ شعره. أحب أسماء،

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ الإصابة ـ الديوان.

وليلى، وأم وهب، وأم عمرو، هذا غير واحدة لم يصرح باسمها، وكان أكثر شغفاً بأم عمرو، فقد أفردها وحدها بست قصائد على حين كان له في الأخريات خمس.

ويكاد يُملي هذا التعدُّد أن الأمر لم يكن حُبًّا، بل كان لوناً من ألوان المُجون والتهتُّك. يدلك على هذا ما يقول الرواة: إن أبا ذؤيب كان يختلف إلى امرأة يقال لها: أم عمرو، فبعث إليها ابن عم له: يقال له: خالد ابن زُهير يسترضيها، فإذا أم عمرو تريد خالداً على نفسه، فيأبى أولاً ثم يستجيب لها آخراً، وتبلغ هذه أبا ذؤيب فيقول:

تُريدين كيما تَجمعيني وخالداً      وهل يُجمع السيفان وَيْحك في غِمْدِ
أخالدُ ما راعيتَ منّي قرابةً      فتحفظني بالغيب أو بعض ما تُبدِي

والطَّريف أن أبا ذؤيب نفسَه كان قد خان فيها آبن عَمٍّ له، يقال له: مالك بن عُويمر، وحين بلغت مالكاً هذه، وكان هو الآخر شاعراً، قال شامتاً بأبي ذؤيب:

فلا تجزعاً من سُنَّة أنتَ سِرْتَها      وأولُ راضٍ سُنَّةً مَن يَسيرُهَا

ويكاد يَعْدِل شعرَ أبي ذؤيب في مُجونه هذا شِعرُه في الرثاء، فلقد رَثى فأكثر وأجاد رثي أبناءه الأربعة، وكان قد اجتاحهم فيما اجتاح طاعون، فقال قصيدته العَينية التي تُحفظ له:

أمِنَ المَنون ورَيْبها تتوجَّعُ      والدَّهر ليس بمُعْتِب من يجْزَعُ

ثم رثى آخرين من قومه بثماني قصائد. وبعد هذا وذاك فليس ثمة لأبي ذؤيب في جاهليته غيرُ القليل من القصائد في الوصف وذِكْر الديار.

ويُسلم أبو ذؤيب، تَبلغه الدعوةُ حيث هو في مَوطنه فيُؤْمِن، وما رأى رسولَ الله ﷺ، ثم إذا هو يرثي رؤيا تفزعه، فقد رأى أن رسول الله ﷺ قد قبض، فينهض راحلاً إلى المدينة، فيدركها والرسول ﷺ مُسَجًّى، والناس في هَلَعٍ، فيقول:

كُسِفتْ لِمَصْرعه النُّجوم وبَدْرُها      وتَزعزعت آطام بَطْن الأَبْطَحِ

ويُشَمِّر بعدها أبو ذؤيب للغَزو، مع عبد الله بن الزّبير، أيام عثمان بن عفان، ويُعجبه منه ما يُحرِّك لسانه بمدحه، فيقول:

لقد أَبقى لك الغزوُ من جِسْمه نَواشِرَ سِيدٍ ووجهاً صَبِيحاً

النواشر: عصب باطن الذراع. والسيد: الذئب. ويموت أبو ذؤيب في تلك الغزاة، فيدفنه هناك ابنُه أبو عبيد، وكان عندها أبو ذؤيب قد أَحسَّ الموت، فالتفت إلى ابنه أبي عبيد يقول:

أبا عُبيد رُفِع الكِتَابُ واقْترب الموعدُ والحِسَابُ

وهكذا نَرى أن أبا ذؤيب عاش لِنفسه كثيراً، ولم يعش للوجود مِن حوله إلا قليلاً، يعنيني أنّه كان من المُجيدين قولاً، فهذا كما قلت قبلُ المرتبة التي يبلغ بها الشاعر أن يكون شاعراً، ونحن لا نَزِنه بها شاعراً، ولكنا نزنه بما أَسدى للوجود من حوله[1].

* * *

ومنهم: رَبيعة بن مَقْروم (٦٤٨ م ـ ٢٨ هـ) شاعر مُعمَّر، عاش في الجاهلية جُلَّ عُمره وفي الإسلام أقلَّه، فلقد عاش في الجاهلية نحواً من مائة، وعاش في الإسلام ما هو دون هذا بكثير.

يدلك على الأُولى قولُه في قصيدة يَفخر فيها بنفسه:

ولقد أَتت مائةٌ عليَّ أَعُدُّهَا حَوْلاً فَحَوْلاً لا بَلاها مُبْتَلِي

ويدلُّك على الثانية ما يُقال من أنه توفي سنة ثمان وعشرين (٢٨ هـ)، أي إنه أدرك شَطْراً من أيام عثمان رضي الله عنه. شَهِد فيها القادسية وجَلولاء وغَيْرَهما من الفُتوح بعدهما.

وكانت هاتان الوقعتان للمُسلمين على الفرس سنة ست عشرة (١٦ هـ).

والذي تركه لنا رَبيعة من الشِّعر تُحِسّ فيه كله سِمةَ الجاهلية، ويكاد يكون

---

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ طبقات الشعراء لابن سلام ـ الإصابة ـ الاستيعاب ـ أشعار الهذليين.

جُلُّه في الفخر بنفسه وبقومه وبلائهم في أيامهم الكثيرة.

يقول في قصيدة ميمية يفخر بقومه:

وقَومي فإن أنت كذَّبتني ... بقوليَ فاسأل بقولي عَلِيماً

أليسوا الذين إذا أزمةٌ ... ألحَّت على الناس تُنسي الحُلُومَا

يُهينون في الحقّ أموالَهم ... وإذا اللَّزَباتُ التَحَيْن المُسِيمَا

التحين: قشرن. والمسيم: صاحب السائمة.

ويقول في قصيدة له عينية يفخر بنفسه:

شَهِدتُ طِرادها فصبرتُ منها ... إذا ما هلَّل النِّكْس اليَرَاعُ

هلل: جبن ورجع، والنكس: الوغد من الرجال. واليراع: الذي لا جرأة له.

ويقول في قصيدة له بائية يفخر بنفسه:

فيا رُبَّ خَصْمٍ قد كُفِيت دِفَاعَهُ ... وقوّمت منه دراه فتنكَّبَا

الدرء: المَيل. وتنكب: اعتدل. ويقول في قصيدة له لامية يفخر بنفسه:

ولقد شهدت الخَيْلَ يوم طِرَادِهَا ... بسَلِيم أُوظفة القوائم هَيْكَلِ

ولقد جمعتُ المالَ من جمع آمْرِيءٍ ... ورفعتُ نَفسي عن لئيم المَأْكَلِ

وما بعد هذا نجد له قصيدتين يمدح فيهما مسعود بن سالم، وكان تخلصه من أسر كسرى، يقول في أولاهما:

وقد سمعتُ بقوم يُحْمدون فلم ... أَسمع بمثلك لا حِلْماً ولا جُودا

ولا عَفافاً ولا صَبْراً لنائبةٍ ... وما أُنبِّيء عنك الباطل السِّيدَا

السيد: الجد الأعلى له وللممدوح، يقول: لا أخبر عنك قومنا باطلاً. ويقول في مدحه:

كَفانِي أبو الأَشرس المُنْكَرات ... كفاه الإله الذي يُحْذَرُ

أعزّ من السَّيد في مَنصب ... إليه العزازة والمَفْخَرُ

وهذا كله لا شك قاله ربيعةُ في جاهليته، أما عمّا قاله في إسلامه، فلم نقع له على شيء، ولقد كانت له في الإسلام كما كانت له في الجاهلية، أيامٌ شَهدها،

ثم أحداث كثيرة كانت كفيلةً بتحريك شاعريته.

هل أستطيع أن أقول: إنه عاش في الإسلام مَغموراً على حين كان في الجاهلية واحد قومه، من أجل هذا قال في الجاهلية ولم يَقل في الإسلام، وإنه لم يجد ما يُعَبِّر به عن نفسه في الإسلام، كما وجد ما عَبَّر به عن نفسه في الجاهلية فخراً وزهواً، اللهمَّ هذا رأيٌ، وقد يرى غيري غيرَه[1].

* * *

ومنهم: **المُخَبَّل السَّعدي ربيعة بن مالك (نحو ٦٤٨ م - ٢٨ هـ)**. شاعر معمَّر مُخضرم، أي جاهلي إسلامي، لا ندري كم عاش في الجاهلية، وإن كنا ندري أنه لم يكن له آبن في الجاهلية، كما يقول أبو الفرج، وأنه إنما أعقب في الإسلام، وعاش إلى أن رأى ابنه شيبان يَخرج إلى غزو فارس مع سعد بن أبي وقاص.

ثم نرى آبن سلام يجعله في طَبقة تَمِيم بن أُبَيِّ بن مقبل، وتميم هذا مات سنة سبع وثلاثين (٣٧ هـ). كما تذكر المراجع أنه هاجى الزِّبرقان بن بدر، والزِّبرقان، مات سنة خمس وأربعين (٤٥ هـ). كما تذكر المراجع أنه كان يَهوى خُليدة، أخت الزبرقان، فأبى الزبرقان أن يزوجه إياها، وعاش المخبَّل، إلى أن أسنَّ وضَعف بصره، ومر بخُليدة فأكرمته، وما عرفها.

وهذه كلها هي التي حَدَت بي إلى أن أجعل وفاته حوالى تلك السنة التي ذكرتها، ويكاد شِعر المخبَّل في إسلامه يطغى على شعره في جاهليته.

فنقرأ له من شعره الإسلامي شَكواه لفِراق آبنه شيبان له، وخروجه إلى الغزو مع سعد بن أبي وقاص، وهذا حيث يقول:

أَيُهلكني شَيبانُ في كُلِّ ليلة ... لِقَلْبي من خَوف الفِراق وَجِيبُ
أَشيبان ما أَدراك أَنْ كلِّ ليلةٍ ... غَبَقْتُك فيها والغَبُوق حَبيبُ

الغبوق: شرب العشيّ.

(١) الأغاني - الشعر والشعراء - المفضليات - الإصابة.

ونقرأ له يهجو الزِّبرقان، وقد رَفض زواجَه من أُخته:

لعمــرك إنّ الـزِّبــرقــان لــدائمٌ على الناس تَعْدُو نُوكُه ومَجاهِلُه

النوك: الحمق.

ونقرأ له يمدح بَغيض بن عامر، وقد تحمـل عنه الـدِّية التي وَجبت على آبنـه زُرارة، لِقَتله رجلاً من بني علياء، يقول:

لَعمــر أبيــك لا ألقــي آبْنَ عَــمٍّ على الحَـدَثان خيـراً مِن بَغِيض

ونقـرأ له وهـو يعتذر لخُليـدة أخت الزبـرقان عمّـا هجاهـا به بعـد أن أكرمت وفادته:

لقد ضَلَّ حِلمي في خُليـدة أَنّني سـأُعتب نَفسي بعـدهــا وأَتُــوبُ

ونقرأ له في شيخوخته:

إذا قــال أصحابي ربيـعُ ألا تَرى أَرَى الشَّخص كالشَّخْصين وهو قَرِيبُ

ونقرأ له في تَقواه:

إنــي وجــدتُ الأَمــر أَرْشَــدَهُ تَــقــوى الإلــه وشَــرُّه الإِثْــمُ

ويكاد يكون قول المخبَّل في مَدح علقمة بن هُوذة هو ما بَقِي له من شعره في جاهليّته، هذا إذا لم يكن في مستهل حياته الإسلامية، يقول:

فَجـزى الإله سَـرَاةَ قومي نَضْـرَةً وسَـقــاهـمُ بِـمَـشــارب الأَبْــرارِ

وهي التي يقول في أولها:

أَعـرفَت من سَلْمى رُسُـومَ دِيَــارِ بــالشَّطِّ بيـن مخفّق وصُـحَــارِ

والشطّ موضع باليمامة، والمخفق: موضع في ديار بني سعد، قَوم المخبَّل.

وهكـذا ترى شعـر المُخبل إسـلاماً وجـاهلية لا يُعَبِّـر. إلا عن حيـاة المخبَّـل وحده، ليس للوجود حوله مِن نَصيب[1].

* * *

ومنهم: **مُتَمِّم بن نُويرة (٦٥٠ م ـ ٣٠ هـ)** شاعر عاش عهدَيْن: جاهليًا

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ طبقات الشعراء لابن سلام ـ الإصابة.

وإسلامياً، ويكاد يكون ما عاشه في جاهليته يُعدل ما عاشه في إسلامه، إن لم يكن من المُعمَّرين.

ولا تكاد تقرأ له في جاهليّته غير قصيدته العينيـة التي يبدؤهـا بعتاب خليلتـه، ثم يمضي فيها يصف ناقته، وفَرسـه، وسَيفه، ثم يحـدّثنا فيهـا عن شجاعتـه، وهذه القصيدة يستهلها بقوله:

صَـرمت زُنيبة حبـلَ من لا يُقْطَعُ      حَبـل الخَليل ولـلأمـانـة تَفجـعُ

إلى أن يقول بيته الذي نَستشف منه أنها قِيلت في جاهليته، وهو:

لا بُـدَّ مِن تَلف مُصيب فـانتــظر      أَبِأَرض قومـك أم بأُخْـرى تُصْرَعُ

ولقد جَمد لسـانُ مُتمِّم بعد إسـلامه فلم يقـل شيئاً، ثم إذا الـدَّهر يُصيبـه في أخيه مالك، وكان مالك قطعةً منه، فإذا لسانُ مُتمم ينطلق من جُمـوده فلا يهـدأ إلى أن واراه التراب.

فنقرأ له في رثاء مالك عينيَّته التي يستهلها بقوله:

لَعمـري ما دَهـري بتَأبين مـالِك      ولا جَـزع ممـا أصـاب فـأوجعَـا
لقـد كَفَّن المِنهـال تحت رِدَائِــهِ      فتًى غَيـرَ مِبْطان العشيّـات أَرْوَعَا

المنهال: هو ابن عصمة الريـاجي، وكان قـد كَفّن مالكـاً في ثوبـه. وتقرأ لـه عينيّة أخرى في رثاء مالك يَستهلها بقوله:

أرقتُ ونــام الأَخْليـاء وهــاجَنِي      مـع اللَّيـل هَمٌّ في الفُؤاد وَجِيـعُ
وهَيَّـج لي حُـزنـاً تـذكُّـر مـالِـكٍ      فـمــا نِمْـتُ إلا والفُـؤَادُ مَــروعُ

ونقرأ له في رثاء أخيه مالك:

نِعم القَتِيـلُ إذا الرِّيَـاحُ تنـاوحَت      تَحت الإزار قُتِلت يــابـن الأَزْوَرِ

وابن الأزور، هو عبيد بن الأزور، وهـوَ الذي قتـل مالكـاً. وتقرأ لـه قولـه في رثاء مالك:

وكُل فتًى في الناس بعد ابن أُمِّهِ      كساقطة إحـدى يديـه من الخَبَلْ

ويتزوج مُتمِّم امرأة بالمدينة، ولم يكن قد تزوج قبل، فإذا هي لا تُطيق البقاء معة لكثرة ما أحسته فيه من حُزنه على مالك، حزناً شَغل عليـه وُجوده كله، فـطلّقها وقال:

أقــولُ لِهِنْــدٍ حين لـم أَرْضَ فِعْـلَهــا  أهــذا دَلاَلُ الـحُـبِّ أم فِـعْــل فــارِكِ
أم الصَــرْم مــا تَبْـقى وكُــلّ مـفــارقٍ  يسيــرٌ عـلينــا فَـقْـدُه بعــد مــالِــك

وزوَّجه أصحابـه أخرى علَّة يكُفّ عن بكـائه، ولكنـه يجد منهـا ما وجـده في الأولى، من بَرَمٍ به لاتصال بكائه، فيقول لها:

أقــولُ لهــا لمّــا نَـهَتْني عـن البُـكَــا  أفِـي مــالــكٍ تَلْحَـيْـنـنـي أُم خــالــدِ

ومـا أظن مُتمِّماً هـدأت نفسُه، ولا سكت لسـانه، إلا بعـد أن ألحقه المـوتُ بأخيه.

وهكـذا عاش مُتمِّم يفخـر بنفسه جـاهلياً ويبكي أخـاه، إسـلامياً، ولا ثـالث لهما[1].

* * *

ومنهم: **تَميم بن أُبيّ بن مقبــل (٦٥٧ م ـ ٣٦ هـ)** شـاعـرُ معمـر مُخضرم، يقال: إنه مات عن عشرين ومائة عام، وإذا صح هذا فيكون ما عـاشه في الجـاهلية يُـرْبِي على ما عـاشه في الإسـلام كثيراً، ولعـل هـذا مـا جعله يَعيش في إسلامه مشغول القَلب بجاهليته، ويُسْأَلُ تَمِيمٌ يوماً: كيف تبكي أهل الجاهلية وأنت مُسلم؟ فيقول:

ومــا لِـيَ لا أبكـي الــدِّيــار وأهـلُهــا  وقــد زارهــا زُوَّارِ عَــكٍّ وحِــمْـيَــرَا

يعني ملوك عك وملوك حمير باليمن.

وجـاء قَـطَا الأحبـاب من كُـلِّ جــانبٍ  فــوقّــع فــي أعــطانـنــا ثُــم طُـيِّــرَا

ثم إنّا بعد هذا لا نقرأ له إلا شعراً جاهلياً.

يَصف نفسه فيقول:

إذا مِتُّ عن ذِكــر القــوافي فلن تَــرى  لهــا تــاليــاً بــعــدي أَطَبَّ وأَشْـعَــرَا

ويقول في فرسه:

يُــرخي العِــذار ولــو طــالت قبــائلُه  عن حَشرة مِثْل سِنْفِ المَرْخـة الصَّقِـرِ

---

(١) الشعر والشعراء ـ طبقات الشعراء لابن سلام ـ معجم الشعراء للمرزباني ـ الإصابة.

العذار: ما سال من اللجام على خد الفرس، وقبائله: سيوره. والحشرة: الأذن. والمرخة: شجرة. ويتغزل فيقول:

يَمشين هَيْلَ النَّقا مالت جوانبُه يَنهال حيناً ومنهاه الثَّرى حِينَا

هذا عن جاهليته، أما عن إسلامياته، فثمة قصيدتان له: إحداهما يندب فيها شبابه فيقول:

يا حُرَّ أَمست تَلِيَّات الصِّبَا ذهبت فلستُ منها على عَيْنٍ ولا أَثَرِ

إلى أن يقول:

وآستهزأت تِرْبُها مني فقلتُ لها ماذا تَعِيبانِ مِنِّي يابْنَتَيْ عَصَرِ

لولا الحَياء وباقِي الدِّين عِبْتُكُما ببعضِما فيكما، إذ ماعِبْتُما عَوَرِي

ثم نقرأ له رثاءً لعثمان رضي الله عنه:

لِيَبْكِ بنو عُثمان ما دام جِذْمُهُمْ عليه بأسيافٍ تُعرَّى وتُخْشَبُ

تخشب: تطبع وتصقل.

فتميم عاش في جاهليته كما عاش كثير غيره من شعراء الجاهلية، يفخر ويتغزل، وعاش في إسلامه غير موصول بحياته الأولى فيه، لأنه كان لا يزال على صِلَةٍ بجاهليته، ثم إذا هو في حياته الثانية موصول به، يدلك على هذه سُكوته عن رثائه عمر، ثم إذا هو يرثي عثمان وعمر هو الذي انتصف له من النجاشي الشاعر وحبسه وضربه.

وقد يكون في انصراف تميم لهجاء النجاشي، انصرافاً دام طويلاً، هو الذي صرفه عن الحياة من حوله في الإسلام[1].

* * *

ومنهم: **كعب بن زهير (٦٥٩ م - ٣٩ هـ)** شاعر له وُجوده في الإسلام، فلقد كان حين خُرج هو وأخوه بُجير يَتَنسَّمان خبر تلك الدعوة، له قدمه

(١) الشعر والشعراء - طبقات الشعراء لابن سلام - الإصابة.

الراسخة في قول الشعر، وحين يبلغه إسلام بُجيرِ دون أن يرجع إليه في ذلك، قال يؤنبه:

ألَا أَبْلِغَا عنّي بُجَيْراً رسالةً ... فهل لكَ فيما قلت بالخَيفِ هَلْ لَكا

شَربت مع المأمون كأساً رَوِيَّةً ... فأنهلك المأمون منها وَعلَّكَا

المأمون، يعني رسول الله ﷺ، وكذا كانت قريش تسمِّيه.

وخالفتَ أسباب الهُدَى وتَبِعْتَه ... على أيِّ شيء وَيْبَ غيرك دلَّكا

على خُلُق لم تُلْفِ أمًّا ولا أباً ... عليه ولم تدرك عليه أخاً لَكَا

هذا عن وجود كعب في الجاهلية، أعني أنه كان عند بعث محمد ﷺ رجلاً يُحب ألا يَصدر أحدٌ عن أمر إلا عن رأيه. أما عن وُجوده في الإسلام فيبدو أنّه آمتد إلى أيام عثمان بن عفان، رضي الله عنه، يدلّك على هذا قوله:

أتَرْجُو آعتذاري يآبْن أرْوَى ورجعتي ... عن الحَقّ قدماً غال حِلْمَك غُولَ

وابن أروى هو عثمان بن عفان، وأُمه أروى.

ولقد ولي عثمان الخلافة بعد مقتل عمر بن الخطاب سنة ثلاث وعشرين (٢٣ هـ)، وبقي خليفة إلى أن قُتل سنة خمس وثلاثين (٣٥ هـ).

وكذا امتدّ وجود كعب إلى أيام عليّ رضي الله عنه، ومدحه بقصيدة له رائية، منها:

إنّ عليًّا لمَيْمُونٌ نَقيبتُه ... بالصَّالحات من الأفعال مَشْهُورُ

وعليّ ولي الخلافة بعد مقتل عثمان، وظلّ خليفة إلى أن قُتل في السنة المتممة الأربعين، وفي ظل هذا كله كان تَقْدِيري لِعُمر كعب، وأنه عاش إلى تلك السنة التي ذكرتُها أو قريباً منها، ولم أذهب إلى ما ذهب إليه بعضهم من أنه عاش إلى أيام معاوية، مستدلِّين على هذا بأن معاوية آشترى منه البردة التي خلَعها عليه رسول الله ﷺ، مُعتمدين في هذا على ما جاء على لسان ابن قُتيبة في كتابه الشعر والشعراء، وهو يُترجم لكعب، وهذا حين يقول: فكساه النبي ﷺ بُردة، فاشتراها معاوية بعد ذلك.

وهذا النص لا يُفيد أن معاوية اشتراها من كعب، ولكن من ولده، كما صَرّح

بذلك ابن حجر في كتابه الإصابة، حين يقول: فكساه النبي ﷺ بردة فاشتراها معاوية من ولده.

ثم إنّ كعباً لو كان آمتد به الأجلُ إلى أيام معاوية ما أُظُنه كان يسكت عن رثاء عليّ.

وبعد، فإليك حياة كعب شاعراً جاهليّاً وإسلامياً.

شِعر كعب في جاهليته يُربي على شعره في إسلامه، ويكاد ينحصر ما قاله في جاهليّته على أغراض أربعة:

١ ـ فخره بنفسه وبقومه، وهو أكثر ما له في جاهليته.

٢ ـ حنينه إلى أرضه ودياره.

٣ ـ ملاحاته لزوجته.

٤ ـ تَشبيبه، ويبدو أن هذا كان قبل أن يبني بزوجته.

أما عن فخره فَتراه مرة يُفاخر مُزرد بن ضرار، فيقول:

ألاَ أَبْلِغا هذا المُعرِّض أنّه ... أيقظانَ قال القولَ إذ قال أم حَلَمْ

فإنْ تَسأل الأقوام عنّي فإنّني ... أنا ابنُ أبي سُلْمى على رَغْم مَن رَغمْ

ويقول يفخر بفُتوته:

وهاجرةٍ لا تَسْتزيدُ ظِباؤُها ... لأَعْلامها من السَّرَابِ عَمائِمُ

لا تستزيد، لا تتردد وتذهب وتجيء من شدة الحر.

نَصَبْتُ لها وَجهي على ظَهْرِ لاحبٍ ... طَحِينِ الحَصَى قد سَهَّلته المَناسِمُ

ويقول في موقفه يوم بُعاث، وهو يوم كان بين الأوس والخزرج:

هلاَّ سألتِ وأنتِ غيرُ عَييَّةٍ ... وشِفاء ذي العيِّ السؤالُ عن العَمَى

عَن مشهدي ببُعاثَ إذ دَلَفَتْ له ... غسَّان بالبِيضِ القَواطع والقَنَا

ويقول يَفخر بقومه في يومٍ لهم:

صَبَحْنَا الحيَّ حيَّ بني جِجَاشٍ ... بِمَكْرُوثاءَ داهيةً نآدَا

مكروثاء: أرض في ديار بني جحاش رهط الشمَاخ، ونآد: شديدة. وأما عن حَنينه إلى أرضه ودياره:

فتقرأ له قولَه:

أَمِنْ دِمْنَــة الـدار أَقْــوَتْ سِنِينَــا ... بكيتَ فـظَلْت كئيبـاً حَــزِينَــا

وتقرأ له قوله:

أَلِمَّـا على رَبْعٍ بـذاتِ المَـزَاهِـرِ ... يُقِيمُ كـأَخــلاق العَبــاءة داثِــرِ

كما تقرأ له قوله:

أَمِن دِمْنَــةٍ قَفْـرِ تَعــاورهـا البِلَى ... لِعَينيك أسـرابٌ تَفِيضُ غُـروماَ

وأما عن مُلاحاته زوجته، فهي ملاحاة نشأت جاهليّة وآمتدت إلى الإسلام.
فما كان في جاهليته قولُه لها، وقد لامته على نَحْر بَكر لها لإطعام أضياف نزلوا به:

ألَا بَكَــرتْ عِــرْسِي تُــوائم مَنْ لَـحَى ... وأَقْــرِبْ بـأَحْــلَامِ النِّسـاءِ مِن الــرَّدَى

أفي جَنْبِ بَكْــر قــطعتني مــلامــة ... لَعَمْــرِي لقــد كــانت مَـلَامتُهــا ثِنَى

ثنى : مرة بعد مرة.

ويقول لها وقد عاتبته على إسرافه:

إنّ عِــرْسِــي قــد آذَنـتْـنِـي أخــيــراً ... لــم تُــعَــرِّجْ ولــم تُــؤَامــر أَمِــيــرَا

أجـهــاراً جــاهــرتِ لا عَــتْـبَ فـيــه ... أم أرادتْ خِـيــانــةً وفُــجــورا

ويقول لها وقد عابت عليه فَقره:

بَكَــرت عليَّ بسُخــرَةٍ تَلْحَــانِي ... وكَفَى بهـا جَهْـلاً وطَيْشَ لِسَــانِ

وأما عن تَشبيبه:

فنراه مرةً يُشبِّب بأُم شدَّاد فيقول:

أَمِنْ أُمّ شــدَّادٍ رسـومُ المَنــازلِ ... تَــوهَّمْتها مِن بعدِ سافٍ ووابِـلِ

ومرة يشُبِّب بخَولة فيقول:

أنَّى ألَمَّ بــك الخيــالُ يُـطِيـفُ ... ومَــطَافُـه لــك ذِكْـرَةٌ وشُعُــوفُ

يَسْـرِي بحـاجــاتٍ إليَّ فـرُعْتَنِي ... مِن آلِ خَــوْلَـةَ كُلُّهــا مَعــروفُ

ومرة يُشبِّب بلَيلى فيقول:

أَبَـتْ ذِكْــرَةً من حُــبِّ لَيْلَى تَعُــودُنِـي ... عِيَــادَ أخِي الحُمَّــى إذا قلتُ أَقْـصَــرَا

ومرة يُشبّب بَنوَّار فيقول:

أمِنْ نَــوارَ عَــرَفْتَ الـمَـنـزلَ الـخَلَقَــا ... إذ لَا تفــارِقُ بَطْنَ الجَــدِّ فــالبُــرَقَــا

وأمـا عن شعر كعب في إسـلامه فقـد بدأه بقَصيـدته التي أَنشـدهـا بين يـدي الرسول ﷺ، مُعتذراً عما فَرط منه، سائلاً العَفو.

فلقد حدثتُك قبلُ أنّ كعباً كان قد أَرسل أخاه بُجَيْراً يَستعرف له خبر الإسلام، ثم يعود إليه ليُنبئـه، وحين عرف كعب أن أخـاه أسلم قال قصيـدته التي ذكـرت لك شيئاً منها يُعرِّض فيها ببُجير، ويعرض فيها بالإسـلام والمسلمين، الأمر الـذي جعل رسول الله ﷺ يُهْدِرُ دَمَه.

ويَثوب كعب إلى عقله ويرغب في الإسلام، ويخاف إيعاد رسول الله ﷺ إيّـاه فـاحتال في المثـول بين يديـه، فأسلم، فعفـا عنه ﷺ، ودفـع عنه مَن هَمَّ بقَتله من الأنصار، لأنّ كعباً كان قد عَرّض بهم.

واستهل كعب قصيدته بقوله:

بـانَت سُعَاد فقَلبي اليومَ مَتبُـولُ ... مُـتَـيَّـمٌ إثْـرَهـا لـم يُـفْـدَ مَـكْـبُـولُ

إلى أن قال يسترضي الرسول ﷺ:

أُنْبِئْتُ أنّ رســولَ الله أَوْعَــدَنِـي ... والعَفْـوُ عِنـد رسـول الله مَـأْمُـولُ

ثم مضى يمدح رسول الله ﷺ فيقول:

إنَّ الـرَّسُــول لَسَيْفٌ يُستضـاء بـهِ ... مُهَنَّــدُ مِـن سُيــوف الله مَـسْلُولُ

ولمّـا أتمها خلع عليـه رسولُ الله ﷺ بُـرْدَته التي تَـوارث الخلفـاءُ لُبْسَهـا بعـد ذلك. ثم ثَنَّى كعبُ في قصيدة له أخرى بالإعتذار إلى الأنصار ومدحهم في قَصيـدة آستهلها بقوله:

مَـنْ سَــرَّه كـرمُ الحَيــاة فــلا يَــزَلْ ... فـي مِقْـنَبٍ مـن صــالِحي الأَنْـصَــارِ

ولما امتدّ العمرُ بكَعب إلى أيّام علي بن أبي طالب مَدحه بقصيدتـه التي يقول فيها:

إنّ عـليًّـا لَميمـونٌ نَـبِيـهَـتُـه ... بالصَّالحات من الأَعمال مَشْهُورُ

ثم يَحْضر كعبٌ فتحَ مكة فيقول:

فَجُـزْنَـا بَـطن مكـة وآمْتنعـنـا ... بِتَقْـوى الله والـبِيض الـخِفَـافِ

ويحضر غزوة حُنين فيقول:

صَبَحْـنـاهم بـأَلْـف من سُـلَيْمٍ ... وأَلْـفٍ من بـنـي عُـثمـان وافِ

عثمان: من مزينة.

وبعد هذا يعود كعبٌ إلى ملاحاة زوجته، وقد عابت عليه شيبه فيقول:

ألَا بـكـرتْ عِـرْسِي تَـلوم وتَـعْـذِلُ ... وغـيـرُ الـذي قـالت أَعَـفُّ وأَجمـلُ

ولـمـا رأتْ رَأْسِـي تـبـدَّل لـونُـه ... بيـاضـاً عن اللون الـذي كـان أَوَّلُ

أَرَنَّتْ من الشَّيب العَجِيبِ الـذي رأتْ ... وهـل أنتِ مِنِّي وَيْبَ غيـرِك أمثـلُ

وهذا الشيب الذي عم رأس كعب جعله يندُب شبابَه.

فيقول:

بـان الشبـابُ وأمسى الشَّيْبُ قـد أَزِفَا ... ولا أَرى لِـشَـبـابٍ ذاهـبٍ خَـلَفَـا

ويقول:

تفى شَعَـرَ الـرأس القَـدِيمَ حَـوالِقُـهْ ... ولاحَ بِشَيْبٍ في الـسَّـوادَ مُـفـارِقُـهْ

وأَفْـنَى شبـابِي صُبْـحُ يـومٍ ولـيـلةٌ ... ومـا الـدَّهـر إلا مُسْيَـةٌ ومشـارقُـهْ

وهنا تَنساب الحِكمة على لسان كعب فيقول:

أَعـلم أنِّي مـتى مـا يَـأْتـني قَـدَرِي ... فـليس يَـحْـبِـسـه شَـحٌّ ولا شَـفَـقُ

بَينـا الفَتَى مُعْجَبٌ بـالـعَيش مُغْتَبِطُ ... إذا الـفَتـى لـلمَـنـايـا مُـسْـلَمٌ غَلِقُ

ويقول:

يَسعى الفَتى لأُمورٍ ليس يُدْرِكها ... والنَّفس واحـدةٌ والهمُّ مُنْتَشِـرُ

ويقول:

فـإنْ يُـدْرِكْـكَ موتٌ أو مَشِيبُ ... فَقبلك مـات أقـوامٌ وشـابُـوا

ويقول:

إذا أنت لم تَصْبِرْ عن الجَهل والخَنَا ... أُصبت حَلِيمـاً أو أصـابـك جـاهِـلُ

ويقول:

لا تُفْشِ سَـرّك إلَّا عِـنْـد ذي ثِـقَـةٍ أو لا فـأَفْضَـلَ مـا استودعت أَسْـرَارَا

ويقول:

إذا المـرءُ لم يَنْفَعُـك حَيًّـا فَـنَفْعُـهُ قَلِيـلٌ إذا رُصَّت عـليـه الصَّفَـائِـحُ

هـذا هو كعب، عـاش جاهليًّـا جافيـاً شعراً ورأيـاً، وعاش إسـلامياً وشِعْـراً ورأياً[1].

* * *

ومنهم: **لَبِيـد بنُ رَبيعـة (٦٦١ م ـ ٤١ هـ)** شـاعـر مُخضـرم مـن المُعمَّرين، يُقال: إنه عاش خمسين ومائة عام، قضى جُلَّها في الجاهلية وأقلَّهـا في الإسلام، فثمة إجماع على أنه مات حوالي سنـة إحدى وأربعين من الهجـرة، وهذا القول، يعني أن هذه السنين الإحـدى والأربعين كانت هي مـا عاشـه في الإسلام، وقد تزيد عليها قليلاً، إذا صح أنه أَسلم قبل الهجرة.

ولَبيد وإن كان قد أدرك الإسلام، وعُدَّ من الشُّعراء المُخضـرمين، فهو عنـدي مُخضرم سِنًا لا شِعراً، أي أن شعره كلَّه قاله في جاهليته، ولم يَقُـل في الإسلام إلا بيتاً واحداً، واختُلف فيه أهو بيته:

الحمـدُ لله إذ لم يَـأْتِني أَجَلي حتَّى كسانِي من الإسلام سِرْبالاَ

أم بيتُه:

مـا عاتَب المـرءَ الكَـرِيمَ كَنَفْسِـه والمَرْءُ يُصلحه الجليسُ الصـالحُ

وأُريد أنا أن أقول:

إنّه ثمةَ أبيـاتٌ قالهـا هو على فـراش الموت لابنتيـه، وهي لا شك إسـلامية، وهي:

تَـمَنَّـى آبْنَـتَـايَ أن يعـيش أبـوهـمـا وهَـل أنـا إلا مِـن رَبيعَـةَ أو مُـضَـرْ

---

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ الإصابة ـ الديوان.

وفي آبْنَي نِزار أُسوةٌ إن جزعتُما وإن تسألاهم تُخْبَرا فيهمُ الخَبَرْ
وفيمن سِواهم مِن مُلوكٍ وسُوقةٍ دعائمُ عَرش خانه الدهرُ فآنْقَعَرْ
فقُوما فقُولاَ بالَّذي قد عَلِمْتُمَا ولا تَخْمِشَا وجهاً ولا تَحلقا شَعَرْ
وقُولاَ هو المرءُ الذي لا خَلِيلَه أَضاع ولا خان الصَّدِيقَ ولا غَدَرْ
إلى الحَوْلِ ثم آسمُ السَّلام عليكما ومن يَبْكِ حولاً كاملاً فقد آعْتذرْ

كلمة مُحْتَضَر، على الإسلام يُسلم الرُّوح، وليس منها ما يدل على إسلامه، وإنما ما يجري على أيّ لسان، هذا إلى أنه لم يَنْسَ أن يعدِّد مفاخره.

وغريب أن ترى هذا الشاعر الذي ملأ جاهليّته صياحاً بمفاخر قومه وأيّامهم، ووقائعهم وفرسانهم، جَمد لسانُه في حياته الثانية فلم يَجد فيها ما يحرك لسانه بالشِّعر.

والطَّريفُ أنّ عمرَ بن الخطّاب كان يَنظر إلى هذه نظَرتنا نحن إليها اليومَ، فقد كتب عمرُ إلى عامله أَنْ يسأل لبيداً والأَغلب ما أَحدثا من شِعر في الإسلام؟

فيُجيب الأغلبُ إجابةَ شاعر لا يزال قلبُه يَنْبِض بأكثر ممّا نَبض به بالأمس، فيقول:

أَرجْزا سألتَ أم قَصِيدَا فقد سألتَ هَيِّناً مَوجُودَا

ويُجيب لَبيدٌ إجابةً فَهمها عمرُ على وَجه، وفهمها معاوية بعدُ على وَجه.

فلقد كانت إجابة لَبيدٍ: قد أبدلني الله بالشعر سورتي البقرة وآل عمران. فَسَرَّت هذه عُمَرَ وزاد في عطائه فبلغ به ألفَيْن.

ولمّا ولي معاوية قال للبيد: يا أبا عَقيل: عطائي وعطاؤك سواء، لا أراني ألا سأُحُطّك. فقال له لبيد: أو تَدعني قليلاً ثم تَضُم عطائي إلى عطائك فتأخُذه أجمع.

يعني لبيد: أن يترك له معاوية عطاءه كما هو إلى أن يقضي البقيةَ القليلةَ من عُمره.

لا ندري لِمَ كان هذا الجُمود من لبيد، ولقد كانت جاهليته تُشير إلى غيرها، فهو القائل في جاهليته:

ألاَ كُـلُّ شيءٍ مـا خـلا الله بـاطـلُ       وكُـلُّ نـعـيـمٍ لا مـحـالـةَ زائـلُ

فلَبيد عندي مَعدود من شعراء الجاهلية، نَسج على منوالهم بُوقاً لقومه يُشِيد بما يفعلون، وبُوقاً لنفسه يُشيد بما يفعل، ولم تكن حياته الشعريّة في غير هـذين، وكُنّا نَأْمُل أن يكون في الإسلام شاعراً أيضاً، لنرى ما كان سيقول، حتى نَستطيع أن نعرفه شاعراً مخضرماً بمعناها الحق(1).

* * *

ومنهم: **حسّان بن ثابت (٦٧٣ م ـ ٥٤ هـ)** شاعر مُعمَّر، عُمِّر في الجاهليّة ستِّين عاماً، وهذا ما يُصرِّح به ابنُ إسحاق حيثُ يقول: إنّ النبيّ ﷺ قَدِم المدينَة ولحَسَّان ستُّون سنةً.

والمراجع كلّها تكاد تكون مُجْمِعَةً على أنه مات سنة أربع وخمسين (٥٤ هـ) لا تزيد عليها، بل قد تَنقص منها.

وهذا يعني أنّ حسّان عاش في الإسلام أربعاً وخمسين سنة، لا يزيد عليها، بل قد ينقص عنها، وأنه أدرك معاوية في خلافته، التي بدأت منذ سنة إحدى وأربعين (٤١ هـ) وانتهت مع السنة المُتمّة الستّين (٦٠ هـ)، وأن الموت أدرك حسّان وهو في الرابعة عشرة بعد المائة (١١٤ هـ).

وثمّة من المؤرخين من يقول: إنه عاش عشرين ومائة سنة، نِصْفُها في الجاهليّة ونِصفُها في الإسلام، أي أن عمره آمتدّ إلى السنة التي مات فيها معاوية.

ولقد عايش حسَّانُ في جاهليّته ذكرى تلك الحُروب التي كانت مضطربةً بين قومه الخزرج وبين بني عُمومتهم الأوس. يسمع حسانُ قولُ شاعر الأوس قيس بن الخَطِيم يذكر ما كان لقومه الأوس وما كان للخزرج قوم حسّان:

إن بَـني عَـمِّنـا طَـغَـوْا وبَغَـوْا       ولَـجَّ منهم في قَـومهمُ سَـرَفُ

فيُجيبه حسّانُ ويقول:

---

(1) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ طبقات ابن سلام ـ الديوان.

إنْ تَـدَعُ قـومِي للمجـد تُلْفِهِمُ أهـلَ فَعال يَبْـدُو إذا وُصِفُـوا

ولقد كَفى الله حسان القِتال فلم يَشهد حرباً من تلك الحُروب، ولو شَهدها ما أَقحم نفسَه فيها، لأنه لم يكن ابنَ حرب، وحسبُ قومه منه أنه لم يَبخل بإطرائهم يتجلّى لك هذا في قوله بعد أن أسلم:

وكُنّـا ملوكَ النـاس قبـلَ محـمَّـدٍ فلمّا أتى الإسلام كـان لنا الفَضْـلُ

ويُخيَّل إليّ أن حسان لو أُدرك تلك الحروب لَجعل منها مادةَ شِعره، وهـذا ما رأيناه له في إسلامه، إذ لم يتركْ وقعة إلا قال فيها، وكأنه بَطل من أبطالها.

ومن هنا جاء شِعر حسّان في جاهليته في هـوى فاتـر، من هذا قـولُه وقـد بلغ الأربعين:

وكيف ولا يَنسى التَّصابيَ بعدما تَجـاوز رأس الأربعين وجَـرَّبَـا

ونقرأ له في امرأة كان قد خطبها فأَعرضت عنه، فأخذ يُغريها بِحَسَبه:

أمّـا الـوسـامـةُ والمـروءة أو رأيُ الـرِّجـال فقـد بـدا حَسَبِي

ثم نقرأ له بعد أن تزوّجها، وبعد أن غاضبته فطلّقها، ثم نَدِم على ما فعل:

أَجمعتْ عَمرةُ صَرْماً فـآبتكِـرْ إنمـا يُـدْهَن لـلقلب الـحَصِـرْ

ونقرأ له قوله في مَعشوقة له آسمها سُعدى:

لـم تكـن سُعـدى لِتُنْصِـفنـي قـلَّ مـا يُنصفنـي الصـاحِبُ

أما عن حسان في إسلامه فلقد وَجد مجـال القول ذا سَعـة فآنـطلق لسانـه من عِقاله، ولم يَعُد حسان قادراً على إمساكه.

مدح رسول الله ﷺ بما أشبع به نفسه فقال:

أغـرٌّ، عـليـه للنُّبـوة خـاتَـمٌ من الله مَشْهُـودٌ يلوح ويُشْهَـدُ

وقال:

والله رَبِّـي لا تُـفـارقُ مـاجـداً عفّ الخَلِيقـة مـاجـدَ الأمجـادِ

وحين قبض رسول الله ﷺ لم يكفَّ عن رثائه فقال:

بِـطِيبَـةَ رَسْمٌ للرَّسُـول ومَعْهَـدٌ مُنِيرٌ وقد تَعْفُـو الـرُّسـومُ وتَهْمَـدَ

وقال:

مـا بـال عَينـك لا تنام كـأنَّما ... كُحِلت مـآقيهـا بكُحـل الأرْقَـدِ

وقال:

آليتُ مـا في جميـع النـاس مُجتهـداً ... منِّـي ألِيَّـةُ بِـرٍّ غـيـر إقْـتـادِ

تـالله مـا حَملت أُنثى ولا وَضعت ... مِثْـلَ الـرَّسـول نبيّ الأُمـة الهـادِي

وقال:

تَبَّ المَسـاكينُ إنّ الخيرَ فـارقَهم ... مـع النبيّ تـولَّى عنهمُ سَحَـرَا

هذا إلى أن حسان لم يَتْرك وقعةً إلا كان حاضرَها بلسانه لا يستاته، كما قلت قبل، لأنه لم يكن ابنَ حرب.

يقول في يوم بدر:

فَدَع عنك التذكُّر كـلَّ يـومٍ ... ورُدَّ حَـزازة الـصـدر الكَئِيـبِ

وخَبِّـر بـالـذي لا عَيْـبَ فيـه ... بِصِـدْقٍ غير أخبـار الكَـذُوبِ

بما صَنـع المليكُ غداةَ بَـدْرٍ ... منـافي المُشـركين من النَّصِيب

ويقول في يوم أُحُد:

ولـولا لِـوَاءُ الحـارِثيَّـةِ أصبحـوا ... يُباعون في الأسواق بَيْعَ الجَلاَئِبِ

يعني عَمْرة بنت عَلقمة الحارثية التي أَخذت لواء المشركين بعد أن صُرع دونه صَواب، ورفعته لقريش. وصواب: علها حبش، وكان أصحاب اللواء من المشركين، وكانوا أحد عشر، قد قتلوا جميعاً، رفعه صواب، فقاتل حتى قطعت يداه، برك عليه بصدره وعنقه حتى قتل عليه. فأخذته عَمْرَة. ويقول في الخندق يخاطب عمرو بن عبد وَدّ، وكان من صناديد قريش:

أَصبحت لا تـدعى لـيـومِ عَـظِيمَـةٍ ... يـا عَـمـرو أو لِجَسيم أمْـرٍ مُنْكَـرِ

وهكذا لم يَسْكت حسانُ عن وقعة إلا قال فيها.

ويَموت عُمر فيرثيه ويقول:

وفَـجَّـعـنـا فَـيْـروزُ لا دَرَّ دَرُّهُ ... بـأَبْيَضَ يتلو المُحكمـاتِ مُنِيبِ

ويموت عثمان فيرثيه:

إنْ تُمْسِ دارُ آبن أروى منه خاليةً     بابٌ صَريعٌ وبابٌ مُحْرَقٌ خَرِبُ
فقد يُصادِفُ باغِي الخَير حاجَته     فيها وَمَأوى إليها الذِّكْر والحَسَبُ

ويبدو أنّ فَقد عثمان على تلك الصورة التي مَضى بها كان له أثرُه العميق في نَفس حسّان، إذ بَلغت مراتبه فيه سَبْعاً.

وما رأينا حسانَ جزع لفقد عليٍّ ولا رثاه، كما لم نَره جزع لوفاة أبي بكر ورَثاه، وقد تُعلِّل الثانيةَ بأن الحزن لفقد الرسول ﷺ كان لا يزال غالياً عليه، أما عن الأولى فلا أُحِبّ أن أخوض فيها.

ولم يكن هذا كُل ما أعطاه حسّان في إسلامه، فغيره كثير مما عَرَّض فيه المشركين ونَدَّد بهم.

وهكذا نرى حسان عاش لحياة كان يُفتقد مثلها في الجاهلية، فقال ثانياً ما لم يقل مثله أو قريباً منه أولاً[1].

* * *

ومنهم: **عمرو بن الأهتم (٦٧٦ م - ٥٧ هـ)**. شاعر مُخَضْرم، له حياتُه في الجاهلية كما له حياتُه في الإسلام ويبدو أن الحياتين كانتا مُتساويتين سِنين، إن لم تكن حياته الثانية تزيد شيئاً، فلقد كان إسلامه سنة تسع. كما يقول ابن عبد البَرّ في كتابه الإستيعاب، وكان عمرو عندها حَدَثاً، كما سيجيء بعد قليل، وهذه تَعني أن حياته الثانية آستوعبت نحواً من ثمانية وأربعين عاماً، هذا إذا أخذنا بقول مَن أرَّخوا لوفاته، وأنها كانت دون هذا بكثير.

والذي بقي لنا من شِعره يكاد يكون كلُّه جاهليًّا، ولا نقع على شيء منه في الإسلام إلا قوله يُعرِّض بقَيس بن عاصم.

فيروى الرُّواة أنَّ وفد تميم، وكانو سبعين رجلاً، لمّا قدموا على رسول الله ﷺ، ليُسْلموا أعطاهم رسولُ الله ﷺ وكساهم، ثم سألهم حين أرادوا

---

(١) الأغاني - الشعر والشعراء - طبقات آبن سلام - الإصابة - الديوان.

الخروج إلى قومهم: أمَا بقي منكم أحد؟ فقال قيس بن عاصم: لم يَبْقَ منّا إلا غلام حَدَث في ركابنا، وأزرى به، وبلغت هذه عَمْراً فقال:

ظَلِلْت مفترس العلياء تَشْتُمني عند النبي فلم تَصْدُق ولم تُصِبِ

وأما ما بعد هذا، مما وقع لنا من شعر عمرو فهو جاهلي يهجوه مرة فيقول:

ألم تَرَ ما بيني وبين آبن عامرٍ من الوُدِّ قد بالت عليه الثَّعَالِبُ
فأصبح باقي الوُدِّ بَيني وبينه كأنْ لم يَكُن والدَّهر فيه العَجَائِبُ
إذا المرء لم يُحْبِبْك إلّا تكرُّماً بَدا لك من أخلاقه ما يُغالِبُ

ويُشَبِّب بمَحبوبته أسماء، وكانت تُكْنى أُم هيثم، فيقول:

ألَا طَرقت أسماءُ وهي طَرُوقُ وبانت على أنّ الخَيال يَشُوقُ

ويأسف لفراق مَحبوبته فيقول:

أجِدَّكَ لا تُلِمُّ ولا تَزُورُ وقد بانَت بِرُهْنِكُمُ الخُدُورُ

غير أنك لا تعدم في تشبيه البيتَ أو البيتين بِعظة أو بحكمة، وهذا كقوله في قصيدته القافية:

ذَرِيني فإنّ البُخلَ يا أُمَّ هَيثم لصالِح أخلاق الرِّجال سَرُوقُ
لَعَمْرك ما ضاقت بلادٌ بأهلها ولكنّ أخلاقَ الرِّجال تُضِيقُ

هذا هو نِتاج هذا الشاعر الذي كان يُوصف شِعره بأنه حُلَلٌ مُنَشَّرة لا تظفر جاهليته القصيرة منه إلا بهذا اللّون الذاتي، الذي سُقت لك منه مثلاً، ولا تَظفر منه حياتُه الإسلامية، التي امتدت إلى خلافة معاوية وقاربت نهايتها، إلا بتلك الأبيات التي قالها في أوّل إسلامه، والتي تكاد تُحسب جاهلية(1).

* * *

ومنهم: **الحُطيئة جرول بن أوس (٦٧٩ م ـ ٥٩ هـ)** شاعر مُخَضْرم، عاش في الجاهلية دهراً، كما يقول ابن سلام، والدهر: الزمان قلّ أو كثُر، وابن

---

(١) الشعر والشعراء ـ معجم الشعراء ـ المفضليات ـ الإصابة ـ الاستيعاب.

قتيبة وابن حجر يقولان: إنه عاش إلى خلافة معاوية، وله أخبار مع سعيد بن العاص.

ولقد ولي معاوية الخلافة في السنة الواحدة والأربعين (٤١ هـ). ومات في السنة المتممة الستين (٦٠ هـ).

وأما سعيد بن العاص، فقد ولّاه معاوية المدينة حين آستُخلف، وعاش سعيدٌ والياً على المدينة إلى أن مات سنة تسع وخمسين (٥٩ هـ).

ويقول أبو الفرج: إن الحُطيئة آخْتَلف إلى مجلس ابن عبّاس بعد ما كُفّ بَصَرُه ونحن نعرف أن ابن عباس عاش إلى سنة ثمان وستين (٦٨ هـ)، وأن بصره كُفَّ وهو في آخر عمره.

ويقول بعض من ترجموا للحُطيئة: إنه كان من المُعمَّرين، ولا يكون الإنسان مُعَمَّراً، إلا إذا جاوز عُمره المائة.

والمؤرِّخون لوفاة الحطيئة مختلفون آختلافاً واسعاً.

فمنهم من يقول: إنه مات سنة خمس وأربعين (٤٥ هـ) وهذا القول لا يتعارض مع قول مَن قال: إنه عاش إلى خلافة معاوية، وإنه كانت له مع سعيد بن العاص لِقَاءات، ولكنه يتعارض مع قَول أبي الفرج.

ومنهم من يقول: إنه مات سنة تسع وخمسين (٥٩ هـ) وهذا القول يكاد لا يتعارض مع الأقوال الثلاثة، قول ابن قتيبة، وقول ابن حجر، وقول أبي الفرج، ثمّ يؤيّد القولُ الرابع الذي يقول إنه من المعمَّرين.

ولهذه الأسباب كلها رجّحته وأخذت به، أعني أن الحُطيئة مات سنة تسع وخمسين (٥٩ هـ).

وكما كان الإختلاف في السنة التي توفي فيها الحطيئة، كذلك كان الإختلاف في الزمن الذي أسلم فيه. فمن المُترجمين له من يقول: إنه أسلم بعد وفاة النبي ﷺ، لأنه لم يكن له ذِكْرٌ فيمن وَفد مِن وُفود العرب، ومنهم من يقول: إنه أسلم في عهد رسول الله ﷺ.

ومن هنا نستطيع أن نقول: إن ما عاشه الحُطيئة في جاهليته يكاد يَعْدِلُ ما عاشه في إسلامه، إذ كان من المعمَّرين، كما قلت قبل.

في جاهليته يكاد يتفق أغراضاً مع شعره في إسلامه، ولقد وُلد الحطيئة مغموزاً في نسبه، وليس له من يقوته.

فخلقته الأولى على البَرم بما حوله، وخلقته الثانية على أن يكون مكتسباً بشعره، يمدح ويهجو.

هجا أولَ ما هجا أباه وأُمه، وهذا حيث يقول:

ولقد رأيتُك في النِّساء فسُؤْتِني وأبَا بَنِيكِ فساءَني في المَجْلِسِ

وقال يهجو أباه وعمّه وخاله:

لحاكَ الله ثُمَّ لحاكَ حَقًّا أباً ولحاكَ مِن عَمٍّ وخالِ

ويَسأل الحطيئةُ أُمَّه: من أبوه؟ فتَخلِّط عليه فيقول:

تَقول ليَ الضَّرَّاءُ لستَ لواحدِ ولا آثنينِ فانْظُر كيف شِرْك أُولئكا

ويُنبري لأُمه يهجوها فيقول:

تَنَحَّيْ فاجلِسي منَّا بَعِيداً أَراح الله مِنْكِ العالَمِينَا

ويَمضي في هجائه لها فيقول:

جَزاك الله شرًّا مِن عَجُوزٍ ولقَّاكِ العُقوقَ من البَنِينا

ثم ينفرد لأَخوين له عِلقَتْهما أُمُّه من أوس بن مالك فيقول:

عبدان خَيْرُهما يُشَلُّ بِضَبْعِهِ شَلَّ الأَجِير قَلائص الوَرَّاقِ

يشل: يطرد. والوراق: صاحب الورق. أي المال.

ثم لا يجد أمامه غير آمرأته فيهجوها ويقول:

أُطَوِّفُ ما أُطَوّفُ ثم آوِي إلى بَيْتٍ قَعِيدَتُه لَكَاعِ

ثم يَعِزّ عليه أن يرى الحُصين بن لقمان العبسيّ ينال من عِرض ممدوحٍ للحطيئة فيهجوه ويقول:

أَتَانِي وأَهْلِي بذات الدِّمَاخِ فَمَا مِن مآبٍ وما مِنْ قَرَبْ

مَسَبُّ ابنِ لُقمان عِرْضَ آمريءِ      شَـديـد الأنـاة بَعيـد الغَضَبْ

ثم يعدو الحصين إلى عبسيّ آخر، من بني بِجَاد، فيهجو بني بجاد، ويقول:

قَبـح الإلـهُ بني بِجَـادٍ إنـهم      لا يُصلحون وما آستطاعوا أفْسَدُوا

ويقول أيضاً يهجوهم:

فـأمّا بِجَـادٌ رَهْطُ جَحْشٍ فـإنهم      على النّـائبات لا كِـرَامٌ ولا صُبُرْ

ثم يأخذ في هجاء عبسيّ ثالث، هو قُدامة، فيقول:

قُـدَامَـةُ أمْسَى يَعْـرُكَ الجهـلُ أنْفَـه      بِجَـدَّاءَ لم يُعْـرَكْ بهـا أنفُ فـاخِـرِ

ويتنكّر لعُيَيْنَة وخارجة، ابني حصين بن حُذيفة بن بدر، وكانا قد قبضا يَديهما بعد أن كانتا مبسوطتين فقال يهجوهما بعد أن أكثر من مدحهما:

حَـمِـدْت إلهـي أنّني لم أجِـدْكـمـا      من الجُوع مَأْوَى أو من الخَـوف مَهْرَبـا

وقال يمدح قُريع بن عوف، وما أكثر ما مدحهم:

فـلا وأبيـك مـا ظَلمت قُـرَيـع      بـأن يبنوا المكـارم حيثُ شاءُوا

وقال يمدح بَغيض بن ريث، وما أكثر ما مدحهم به:

أولئـك قـومٌ إن بَنَـوْا أحسنـوا البِنَى      وإن عـاهـدوا أوفَـوا وأن عقـدوا شَـدُّوا

وكما هجا الحطيئة من هجا في الجاهلية انتقاماً لنسبه المغموز، ممن قبضوا أيديهم عنه، كذلك مدح كل من أسدى إليه يداً.

فمدح عَلقمة بن علانة فقال:

هو الواهبُ الكومَ الصَّفايـا لجاره      وكُـلَّ عَتيق الحـرَّتين أسِيـلِ

وقال يمدح بِشْر بن قُرط:

ابُـوك ربيعـة الخيـرين قُـرْطٍ      وأنت المـرءُ تَفعـل مـا تقـولُ

وقال يمدح عُيينة بن حِصن:

فِـدًى لابن حِصْنٍ مـا أُرِيـحَ فـإنّـه      ثِمـالُ اليتامى عِصْمَـةٌ في المَهـالِـكِ

وقال يمدح أخاه خارجة بن حِصن:

فِـدًى لابنِ حِصـن يـوم أقـدَمَ خَيْـلَه      وقـد خـام أقْـوَامٌ طَرِيقي وتـالِـدِي

وقال يمدح شبث بن حوط:

رأيتُ آمـرأً يَسْقِي سِجَـالاً كَثِيـرةً ... من العُـرْفِ فـاسْتَسْقيتُـه فَسَقَـانِي

وقال يمدح عُروة العبسيّ:

لَـمْ تَـرَ عَيْـنِـي مـثـلَ عُـرْوة خُـلَّةً ... ومَـوْلًى إذا مـا النَّعْـلُ زَلَّ قِبَـالُـهَـا

وقال يمدح بني كُليب بن يربوع:

لَـنِعْـمَ الـحَـيُّ حَيُّ بـنـي كُـلَيب ... إذا مـا أوقـدوا فَـوْقَ الـيَـفَـاعِ

وقال يمدح بني مُقَلَّد:

جـاورتُ آل مُـقَـلَّدٍ فـحَـمِـدْتُـهـم ... إذ لا يـكـاد أخُـو جِـوَارٍ يُـحْـمَـدُ

وقال يمدح بني نَهْشل:

لَـعَمْـرك مـا ذَمَّـتْ لَبُـوئِـي ولاَ قَلَتْ ... مَـسـاكِنَـهـا مِن نَـهْشَـلٍ إذْ تـولَّـتِ

وقال يمدح وقَّاص بن قُرْط:

وأعـطى ابنُ قُـرْطٍ غـداةَ السُّلَيْـ ... ـمِ يـومَ الْتقينـا عَـطَاءً جَزِيــلاَ

وقال يمدح طَريف بن دَفَّاع:

ذاك فَـتًـى يَـبْـذُلُ ذا قَـدْرِهِ ... لا يُفْسِدُ اللَّحْمَ لـديـه الصُّلُولْ

ثم نـراه يمدح بَكـر بن وائل حين صَـرف نسبه إليهم، وكـان يقال لهم: أهـل القُرَيَّة:

لأمْـدَحَنّ بمـدحـةِ مـذكـورة ... أهـلَ القُـرَيَّـة مِن بَنِي ذُهْـلِ

وينتقل الحُطيئة من جاهليـة إلى إسلام، ويبـدو أن هذا الإنتقـال كان بعـد أن قُبِض رسول الله ﷺ، وأكاد أَذهب إلى أنه كان في خِلافة عُمر، وسَندي في هـذا هو أنّي لم أجِد في شِعر الحُطيئة إشارة إلى تلك الحِقبة، وتجلَّت في آستئذانه عُمر في أن يمدح علقمة، وكان عُمر قد كَفَّه عن أن يتكسَّب بِشعره.

ولم يكن شِعر الحطيئة إلا صورة من شِعره في الجاهلية مدحاً وهجاءً.

مَدح علقمةَ بعد أن تَرك له عُمَرُ الحُرِّية في أن يمدح علقمة، بعد أن عزله من ولايته، فلم يكن ثَمّة بأس من أن يمدحـه الحُطيئـة يرجـو نوالـه، وأعد لـه قصيدتـه

اللامية التي يقول فيها:

إلى القائل الفعَّال علقمة النَّـدَى      وحلَّت قَلُوصي تَجْتويها المَنَـاهِلُ

وذَهب حيث علقمة، فإذا علقمة قد مات، وينوب عنه ابنه في بِرِّه إياه. وكـان هذا أول ما طالعنا به الحُطيئة من شِعر في إسلامه.

وبعد هذا نقرأ له يعذر الوليد بن عقبة في شُربه الخمر، فيقول:

شَهِـد الحُـطيئـةُ يـومَ يَلْقَى رَبَّـه      أن الـولـيـد أحـقُّ بـالـعُـذْرِ

ثم نقرأ له يمدح سَعِيدَ بن العاص:

سَعِيدٌ ومـا يَفْعَـلْ سَعِيـدٌ فـإنّـه      نَجِيبٌ فَـلاَهُ في الـرِّبَـاطِ نَجِيبُ

وقبـل هذا المـديح كـان للحُطيئـة هجاؤه للزِّبـرقان بَـدر، الـذي حبس عُمـر الحطيئة من أجله، وهذا قوله للزِّبرقان:

دَعْ المكـارم لا تَـرْحَــل لبُغْيَتِهـا      واقْعُدْ فإنّك أنت الطاعم الكاسي

أي إنك ترضي بأن تَشبع وتلبس. وهكـذا غلبت الحياةُ الخـطيئة على أمـره، فعاش يدفع عن نفسه مرةً بهجائه، ويستجدي أُخـرى بمديحـه، ولا شيء غير هـذا وذاك[1].

* * *

ومنهم: **مَعْن بن أَوْس (٦٨٣ م ـ ٦٤ هـ)** شـاعـر مُخَضْـرم. يقـول أبـو الفرج، وهو يترجم لِمَعن: وله مدائحُ في جَماعة من أصحـاب النبي ﷺ ورحمهم، منهم: عبد الله بن جَحش.

وعبد الله بن جحش من السابقين إلى الإسلام، وكان من مُهاجرة الحبشة، ثم إذا هو من شُهداء أُحُد سنة ثلاث من الهجرة (٣ هـ).

وهـذه تدلُّـك على أن مَعْن بن أوس أَدرك النبيَّ ﷺ، ولكنّا لا نَـدري كم كان عُمْـر مَعْن عنـدهـا. ثم يقـول أبـو الفـرج: وعُمِّـر بعـد ذلـك إلى أيـام الفتنـة بين عبد الله بن الزُّبير ومَروان بن الحكم.

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ الإصابة ـ الديوان.

يعني أبو الفرج ما كان من إخراج عبد الله بن الزُّبير لِمَرْوان من المدينة سنة تسع وأربعين (٤٩ هـ)، وكان معاوية قد ولّاه عليها سنة اثنتين وأربعين (٤٢ هـ).

ويُحدِّثنا أبو الفرج أنّ عبد الله بن جعفر كان من مَمْدوحي مَعْن بن أوس.

وعبد الله بن جعفر كانت وفاته في السنة المُتِمّة الثمانين (٨٠ هـ).

ويقول أبو الفرج: مَرَّ عبد الله بن العبّاس بن عبد المطلب بِمَعْن بن أوس المُزنيّ وقد كُفَّ بصرُه.

وعبد الله بن العبّاس كان من مواليد السنة الأولى للهجرة، وعُمِّر إلى سنة سبع وثمانين (٨٧ هـ). ومعن، كما يُروى، كُفَّ بصره في آخر عُمره وما ندري كم كان عُمر آبن عبّاس عندها.

ثم يحدثنا أبو الفرج أنه كان ثَمة لِقاءٌ بين الفَرزدق ومَعن في سِرْبد البَصرة.

ولا نعرف متى وُلد الفرزدق ولكنّا نعرف أنه مات سنة عشر ومائة (١١٠ هـ) وفي ضوء هذا كُلّه نكاد نَجزم أنّ معن بن أوس كان من المُعمَّرين، أو أَقرب إلى أن يكون منهم.

والذين قالوا: إن وفاته كانت في السنة الرابعة والستين (٦٤ هـ) لم يُبْعِدوا كثيراً عن الحقيقة. فهذا العُمر الإسلامي يتَّسع لمُعاصرة مَن ذكر أبو الفرج أنه عاصرهم.

أمّا عن عُمره الجاهليّ فما أَظُنّه كان قصيراً.

وشِعر مَعن في جاهليته يكاد يتمثّل في قوله يُنكر على الرجال البَرَم بناتهم:

رأيتُ رِجَالًا يَكرهون بناتِهم ... وفيهنّ لا تُكْذَبْ نِساءٌ صَوَالِحُ

وفي قوله يفخر بالآباء ويتأذى بالأبناء:

وَرِثْنا المَجد عن آباءِ صِدْقٍ ... أَسأنا في ديارهم الصَّنِيعَا

وفي قوله يصف طبعه:

وذي رَحم قَلَّمْتُ أظفار ضِغْنِه ... بِحِلْمي عنه وهو ليس له حِلْمُ

وفي قوله يترضّى صاحباً له، غَضِب منه لتطليقه أخْتاً له، كان معن زوجاً لها:

لَعمرك ما أدري وإني لأوجل ... عليّ أيّنا تَعْدُو المَنِيَّةُ أوّلُ...

وأما شِعر مَعن في الإسلام فيكاد يتمثّل في قوله لعمر بن الخطاب يستعين به على بعض حوائجه:

تَأَوَّبه طَيْفٌ بذات الجَرائِمِ ... فنام رَقِيقاه وليس بنائِمِ

وفي قوله يشكو إلى عبد الله بن عباس عن حالَه:

أخذت بعَيْن المال حتى نَهَكْتُه ... وبالدَّين حتى ما أكاد أُدَانُ

وفي قوله يمدحه على جوده:

إنّك فَرْعٌ من قُريش وإنما ... تَمُجُّ النَّدى منها البحورُ الفَوارِغُ

وفي قوله يهجو ابنَ الزبير، وكان قد نزل به فلم يُكرمه، ويَمْدح ابن جعفر وابن عباس لإكرامهما وفادته:

ظَلِلْنا بمُسْتَنِّ الرِّياح غُدَيَّةً ... إلى أن تَعالى الليلُ في شَرِّ مَحْضَرِ

لدى آبن الزُّبير جالسين بمَنزل ... مِن الخير والمعروف والرِّند مُقْفِرِ

رمانا أبو بكر وقد طال يومُنا ... بتيس من الشاء الحجازيّ أعْفَرِ

أبو بكر: كنية ابن الزبير، وأعفر: أغبر.

وقال آطْعَموا منه ونحن ثلاثةٌ ... وسَبعون إنساناً فيا لُؤْمَ مُخْبرِ

فقلنا له لا تَقْرِنَا فأمامنا ... جفان ابن عبّاس العُلا وابن جَعفرِ

وفي قوله يمدح جِوار عُمر بن أبي سلمة، وعاصم بن عمر بن الخطاب، وكان قد ترك عندهما ابنته ليلى:

لعمرك يا ليلى بدار مضيعة ... وما شَيْخُها إن غاب عنها بخائِفِ

وإنّ لها جارَين لن يَغْدِرَا بها ... رَبِيبَ النبيّ وابن خَير الخلائف

وكانت أُم سلمة أم المؤمنين، أُم عمر بن أبي سلمة.

وفي قوله يندم على طلاقه لزوجته ليلى:

فقُولا لليلى هل تُعَوِّض نادماً ... له رَجعة قال الطلاق مُمَازِحَا

وفي قوله حين طلبت زوجته أم حِقَّة أن يطلقها:

أعاذِلُ أَقْصِرِي ودَعِي بَيَاتِي ... فإنّك ذاتُ لَوْمَاتٍ حماتِ

بياتي، أي لومي في المبيت: وحمات جمع حمة، وهي السم.

وفي قوله لها أيضاً:

كأنْ لم يكُنْ يا أُم حِقَّة قَبْلَ ذا ... بِمَيْطان مُصطافٌ لنا ومَرَابِعُ

ولا نعرف الأحداث التي عايشها مَعن وعايَشَتْه في جاهليته فنقول كيف سكت عنها وشُغِل بنفسه، ولكنا نعرف الأحداث التي عايشها معنٌ وعايشته في إسلامه، ولم نره شُغل بشيء منها، بل عاش مرتزقاً بِشعره، صارفاً إياه إلى ما كان من خلاف بينه وبين زوجاته[1].

* * *

ومنهم: **النابغة الجعدي (٦٨٥ م - ٦٥ هـ)** شاعر مُخضرم مُعمَّر يَغلو بعضُ من أرّخوا له فيقول: إنه عاش ثلاثين ومائتي سنة، وينزل بعضهم عن هذا العُمر شيئاً فيقول: إنه مات عن عشرين ومائة سنة. ويذهب بعضهم إلى أنه عاش مائتي سنة. ويقول البعض: إنه عاش ثمانين ومائة سنة، ويستدلون على صحة هذا بقول النابغة:

لَبِسْتُ أُنَاساً فأَفْنَيْتُهُم ... وأفنيتُ بعد أُناس أُنَاسَا

ثلاثة أَهْلِين أفنيتُهم ... وكان الإله هو المُستآسَا

المستآس: المستعاض. وحين سُئل النابغة: كم لبثتَ مع كُل أهل؟ قال: ستين سنة. وأما عن سِني النابغة في الجاهليّة فيكاد هو - أي النابغة - يدلُّنا عليها حين يقول:

فَمَنْ يَكُ سائلاً عنّي فإنِّي ... مِن الفِتيان أيامَ الخُنَانِ

---

(١) الأغاني - الشعر والشعراء - شرح الحماسة للمرزوقي - ديوانه.

أي أنه كان فتًى أيام الخُنان، والفتى: الشاب أولَ شبابه بين المراهقة والرجولة، وأيام الخنان: أيام كانت في عهد المُنذر بن ماء السماء، والخنان: داء يأخذ الإبل في مناخرها، ويبدو أن هذا الداء فشا في الإبل أياماً، أرخ بها المؤرِّخون.

وقد وَلِي المُنذر مُلْك الحِيرة بعد أبيه سنة (٥١٤ م)، ثم عُزل عنه سنة (٥٢٩ م)، وعاد إليه سنة (٥٣١ م)، وبقي مُلِكاً على الحيرة إلى أن مات سنة (٥٦٤ م - ٦٠ ق. هـ).

ولا ندري أكانت أيام الخُنان هذه في عهد مُلكه الأول من سنة (٥١٤ م) إلى سنة (٥٢٩ م)، أم في العهد الثاني للمنذر، من سنة (٥٣١ م) إلى سنة (٥٦٤ م).

فثمّة خمسون عاماً عاشها المُنذر ملكاً، ومن هنا كان الخِلاف حول سِني النابغة في الجاهليّة، فإذا صح أن الخُتان كان في عهد المنذر الأول، وكان النابغة عندها في الخامسة عشرة أو فوقها بقليل، ويكون ميلاده سبق السنة التي وَلي فيها المنذر ملك الحيرة، أي سنة (٥٠٠ م)، أو قبلها بقليل.

وإذا كان الخُنان في العهد الثاني للمنذر، يكون مولد النابغة حوالي سنة (٥١٥ م) وعلى التقدير الأول تكون سنو النابغة في الجاهليّة نحواً من عشرين ومائة عام أو دون هذا بقليل.

فلا ندري أأدرك النابغة الإسلام قبل الهجرة أو بعدها. وعلى التقدير الثاني تكون نحواً من مائة عام.

ويكاد يكون الرأي الأول من هذين الرأيين هو الأرجح، فالنابغة يقول:

مَضت مائةٌ لعامِ وُلِدْتُ فيه ... وعَشْرٌ بعد ذاك وحِجّتانِ

والحِجة: السنة.

ولم يكن النابغة عندها يحسَّ بِكِبَر، يدلُّك على هذا قولُه:

وقد أَبقت صَروف الدَّهر مِنِّي ... كما أَبقت من السَّيف اليَماني

أَلاَ زعمت بنو كَعب بأنِّي ... ألا كذبوا كَبيرُ السنِّ فانِي

هذا عن سِني جاهليته، أم عن سني إسلامـه، فلقد كـان آبنُ الزبيـر آخرَ من لقي النابغة، وكان هٰذا بعدما ولي آبنُ الزبير الخلافة سنة (٦٤ هـ).

ويبدو أن النابغة لم يمتدّ به العمرُ طويلاً بعد هذا اللقاء، الذي نُرجِّح أنه كان قبـل أن يـدخـل ابنُ الـزبيـر تلك الحـروب، التي نشبت بينـه وبين عبـد الملك بن مروان، حوالى سنة (٦٥ هـ)، والتي آنتهت بمقتل ابن الـزبير سنـة (٧٣ هـ). إذ لا نجد لهذه الحروب، ولا لموت ابن الزبير، صدًى في شعر النابغة ومن هنـا كان مـا ذهب إليه بعضهم عن أن النابغة مات حوالى سنة (٦٥ هـ) كمـا ذكرت قبـل لا يعدو الحقيقة. ويكون قول من قال إن النابغة عُمِّر نحواً من ثمانين ومائة عام، وهو القول الراجح، وتكاد سنوه في الجاهلية تبلغ ضِعْف سنيه في الإسلام.

وأما عن النابغة الجعدي شاعراً، فالقاريء لديوانه يكاد يُحس أنّ فَخره بنفسه وبقـومه، واعتـزازه بهم، وتَمشدقـه بأيـامهم، يكاد يَـطغى على شعره كله، جـاهليًّا وإسلاميًّا، كما نكاد نحس أنه في ثنايا هذا يُعرِّج على وَصف فرسه أو ناقته فيُطيل.

يقول في جاهليّته يفخر بأسلاف له أُتى عليهم الدَّهر:

لِـمَـن الـدَّار كـأنـضـاء الـخِـلَل ... عَـهْـدهـا مِن حِقَبِ الـدَّهـر الأُوَلْ

دارُ قَـوْمـي قـبـل أن يُـدْرِكَـهـم ... عَـنَـتُ الـدَّهْـر وعـيش ذو خَـبَـلْ

إذ هُـمُ مـن خَـيـر حـيٍّ سـوقـه ... وَطِـىء الأرض بسَـهـلٍ أو جَـبَـلْ

السوقة: الرعية.

ويقـول يعدد منـاقب قـومـه وأيـامهم في هجـائـه لسوّار بن أوفى، زوج ليلى الأخيلية:

جَهِلْتَ عليَّ ابنَ الحَيـا وظَلَمتَني ... وجَمَّعت قـولاً جـاء بَيْتـاً مُضَلِّلا

والحيا: أم سوار.

إلى أن يقول فيما فعله قومه يوم شِعب جبلة:

لَقِينـا شَـرَاحِيـلَ الـرَّئيسَ وَجُنْـدَهُ ... من السَّيْر قد أَحفى المَطِيَّ وأَثْعَلا

وحين يهجـو ليلى الأخيلية لتقـديمها زوجهـا سـوّار بن أوفى عليـه، ولا يكـاد يعرّض بها في بيت أو بيتين حتى يعود إلى قومه يذكر أيامهم:

فيستهل النابغة هجاءه ليلى بقوله:

أَلاَ حَيِّيَـا لَيْلَى وقُـولا لهـا هَـلاَ فقـد رَكِبَتْ أَمْـراً أغـرَّ مُحَجَّـلاَ

إلى أن يقول:

وكيف أُهاجي شاعراً رمحه أو سِنانه خَضِيبَ البَنـان لا يـزال مُكَحَّـلاَ

ثم يمضي يُسترسل في ذكر أيام قومه مع قومها فيقول:

وبـاتَ فَـرِيقٌ يَنْضَجـون كـأنَّمـا سُقوا ناطِفـاً مِن أَذْرعاتِ مُفَلْفَـلاَ

وحين أجـار عِقال بن خـويلد بني وائل، بعـد أن قتلوا رجلاً من قـومـه، قـال يهدّده ويذكّره قومه، فيقول:

وبَـلِّغ عِقَـالاً أنّ خُـطَّة داحِس بكَفَّيـك فأستـأخر لهـا أو تَقَـدَّمِ

وحين يُشَبِّب لا يكـاد يَمضي في تشبيبه قليـلاً حتى يُعَرِّج على وصف نـاقته، فيقول:

وحـائـل بـازلٍ تَـربَّعت الصَّيْـ ـف طـويـلَ العِفـاء كـالأُطُمِ

أي تربَّعت سناماً طويل العفاء، وهو الوبر.

ثم ما يلبث أن يعود إلى نفسه مفتخراً فيقول:

وغـارةٍ تَسْعـر المَقـانـب قَـدْ سـارعْتُ فيهـا بِصَلْدَمٍ صَمَمِ

المقانب: جماعات الخيل.

وتَهيج في نفسه رُؤيته ديار قومه فيقول:

ألم تَسْـأل الـدَّارَ الـغـداة متى هِيَـا عَـدَدْتُ لـهـا من الـسِّنِينَ ثـمـانِيَـا

ثم سُرعان ما يلتفت إلى مآثر قومه فيقول:

عَهِدْتُ بها الحَيَّ الجَمِيعَ كأنهم عِـظَامُ المُلوك عِـزَّةً وتبـاهِيَـا

ثم ما يلبث أن يذكر أخوين له وأراهما تُراب تلك الأرض فيقول:

ألـم تَـعلمي أنّـي رُزِئـتُ مُـحـارِبـاً فمـا لَـكِ منـه اليـومَ شيءٌ ولا لِيَـا

ومِنْ قَبله مـا قـد رُزِئتُ بِـوَحْـوَحٍ وكـانَ آبنَ أُمي والخَلِيـلَ المصـافِيَـا

ثم إذا هو يعود إلى أيام قومه فيقول:

ويَـوْمَ النُّخَيْـلِ إذ أتينـا نِسـاءَكُمْ حَـوَاسِـرَ يَـرْكُضْنَ الجِمَـالَ المَـذاكِيَـا

ويأخذه الإشفاق على قومه من ويلات الحَرب فيقول:

أَلَمْ تَعلمــوا مـا تَــرزأ الحــربُ أهلَهــا ... وعِنــد ذوي الأحــلام منهــا التَّجـارِبُ

ويذكر عَوْن بني قُرَّة لقومه فيُسارع إلى شكرهم فيقول:

جَــزَى الله عَــنَّــا رَهْطَ قُــرَّة نُــصْــرَةً ... وقُــرَّةَ إذ بــعضُ الــفِــعَــال مُــزَلَّــجُ

المزلج: الدون من كل شيء.

هُــم اليــومَ إذ بــاد الــمُلُوكُ مُــلُوكُــنَــا ... فَعَــالاً ومَجْـداً غيــرَ أنْ لم يُتَــوَّجُــوا

وتَخشى عليـه الموت ابنـةُ عمّه، وكـانت زوجتـه، وقـد خـرج يُشـارك قـومـه حربهم، فيقول:

يــا ابْنَــةَ عَمِّي كتــابُ الله أَخــرجـني ... كُــرْهــاً وهــل أَمنعــنَّ الله مــا فَعَــلَا

فــإن رجعتُ فـربُّ النــاس يُــرْجِعُني ... وإنْ لَـحِقْـتُ بــرَبِّي فــابْـتَـغِي بَــدَلَا

ويذكر لقومه يوماً لهم فيهزه هذا ويقول:

إنّ قَــومــي عَــزَّ نَــصْــرُهُــمُ ... قــد شَفَــوْني مِـن بَنِـي عَثَـمَــهْ

ونكاد نقول: إن الـذي هيَّأ نَفس النـابغة الجعـدي للإسـلام أنها كـانت تَدين بدين إبراهيم، وكثيراً ما ردّد النابغة هذا في شِعره الجاهلي، ثم نراه أفرد قصيدة لـه بالدينونة لله تعالى، وهي قصيدته التي استهلها بقوله:

الــحَــمْــدُ لله لا شَــرِيــكَ لَــهُ ... مَن لم يَــقُلْهــا فَــنَفْــسَــه ظَلَمَــا

ويُسلم النابغة، لا ندري أكان هذا قبل الهجـرة أم بعدهـا، فلقد لَقِي النـابغة النبي ﷺ وأنشده، واستمع له النبيُّ ﷺ، ولكنّا لا ندري متى كان هذا اللقاء؟ أسبق الهجرة أم تأخر عنها؟ وهذه القصيدة استهلها النابغة بقوله:

خَــليــليّ غُــضَّــا ســاعــةً وتَــهَــجَّــرَا ... ولُــومَـا على مـا أَحْــدَث الــدَّهْــرُ أو ذَرَا

ولم يَنْس النابغةُ في موقفه هذا بين يَدي النبيّ ﷺ أن يلتفت إلى قـومه يَفخـر بهم، وما كان أولاه أن يُخلع عنه هذا إلى ما جَدّ من عهد جديد، يَطغي على عهـد قديم، فإذا هو يقول:

بَلَغنـا السماء مجدَنـا وجُـدودَنـا ... وإنـا لنرجـو فـوق ذلـك مَـظْهَـرَا

وقـد تَنسى له هـذه إذا كان قـد أراد بهذا المَـظهر الـذي يُبغيه آعتـزاز قـومـه بالإسلام.

ونقرأ للنابغة قصيدة إسـلامية أُخـرى تدور أبيـاتها الكثيـرةُ حول وصف فـرسه مرة، ثم حول أيام قومه أخرى، ولا يخص الإسلام منها إلا ببيت يتيم، وهو:

أتيتُ رسـول الله إذ جـاء بـالـهُـدَى ويـتـلو كـتـابـاً كـالـمـجـرَّة نَـيِّـرَا

كما نقرأ له إسلامية ثانية على نَمط الأولى، لفرسه فيها نصيب كبيـر، ولقومـه فيها نصيب مثله، ولا يحظى الإسلام منها إلا ببيت.

ثم نقرأ له ثالثة لا تخرج عن نمط الأُوليَيْن، ويلتفت فيها إلى عهده الإسلامي لفتة استشهاد، يعرض فيها لمقتل عليّ ثم عثمان، وهذا حيث يقول:

مـا يُـظَنَّـن بـنـاسٍ قُـتِـلُوا أهـلَ صِفِّين وأصحـابَ الجَمَـلْ
وآبْنَ عَفَّـانَ حَـنِيفـاً مُسْلِمـاً ولُـحـوم البُـدْنِ لـمّـا تُنْتَقَـلْ

ثم نقـرأ له رابعـة يهجو فيهـا سَوَّار بن أوفى يَنسب فيهـا مرةً فُـطيل، ويُشبِّب أخـرى فُيطيـل، ويُعرِّج على نفسـه فُيطيـل، ويذكـر قومـه فُيطيـل، ثم يُملي عليـه الإستطراد أن يذكر ما كان من إسلامه في بيتين اثنين هما:

حتى أَتَـى أحمـدَ الـفـرقـانُ يَقـرؤه فِينـا وكُـنّـا بِـغَـيب الأَمـر جُـهَّـالاَ
فـالـحمـدُ لله إذ لـم يَـأْتِـنِي أَجَـلِي حتّى لبسـتُ من الإسـلام سِـرْبَـالاَ

ويقول ابن سلام عن النابغة: إنه كان علويّ الرأي، وتؤيده في هذه آثنتان:

أولاهما: آستنجاده بمعـاوية على والي المـدينة مـروان بن الحكم، وكان قـد عَدا على مال له فأخذه لِعَلوِّيته.

وهُنا جن يقول:

فَمَنْ راكبٌ يـأتِي آبْنَ هِنْدٍ بحـاجَتِي على النَّـأي والأنبـاء تُنمى وتُـجْلَبُ
فـإن تَـأْخُـذوا أَهلي ومـالِي بِمِـظَنَّـةٍ فـإنّـي لجـرّاب الـرِّجـال مُـجَـرِّبُ

ثم يُشيـر إلى ما كـان من آنضمامـه إلى عليّ وخروجـه معـه في وقعـة صِفين فيقول:

أُصيب ابنُ عفّان الإمامُ فلم يَكُنْ ... لَدَى حَسَبٍ بعد ابنِ عَفّان مُغْضَبُ
مَقامَ زيادٍ عِند بابِ آبنِ هاشِمٍ ... يُريد صلاحاً بينكم ويُقَرِّبُ

زياد، هو ابن الأشهب، وكان قد سَعى للتوفيق بين عليّ ومعاوية فلم يُفلح.

ولمّا رأينا أنكم قد كَثُرْتُمُ ... وخَبَّ إليكم كلُّ حيٍّ وأَجْلَبُوا
عمَرنَا حِفَاظاً والحِفَاظُ مَهالِكٌ ... إذا لم يكن مِن وِرْدِهِ مُتَنَكَّبُ

وثانيتهما: رجزه الذي رَجز به في وقعة صِفّين وهو يسوق بعليّ:

قد عَلِمَ المِصْرَانِ والعِرَاقُ ... أنّ عَلِيًّا فَحْلُها العِتَاقُ
أكرم مَن شُدَّ به نِطَاقُ ... إنّ الأُلى جارَوْك لا أَفَاقُوا

وأكاد أُضم إليهما ثالثةً، وأنا أسوق إليك مدحه لابن الزبير، وأنت تعرف ما كان لابن الزبير مع معاوية ثم آبنه يزيد.

يقول النابغة يمدح ابن الزبير، وكان خليفة:

حَكَيْتَ لنا الصِّدِّيق لمّا وَلِيتَنا ... وعُثْمان والفاروقَ فَآرتاح مُعْدِمُ

وكانت مادة القول، قليلة فلَم يزد على أبيات أربعة، ولو أنه هنا ذكر نفسه وقومه لأشبعنا أبياتاً، فلقد عاش النابغة لقومه أولاً وثانياً.

نعم عاش النابغة لقومه أولاً وثانياً، وكانت لَفتاته إلى غير هذا لا تكاد تُحسب، فلقد عاش عهداً حافلاً بالأحداث، فما نَظر إلى هذه كلها إلا نظرات عابرة، وحسبك أن ترى له نَزعته حين آستصرخ بقومه مُسْتَصْرِخ أيام أبي موسى الأشعري، أيام ولايته الكوفة، فإذا النابغة يخرج إلى المستصرخ ومعه عُصبة له. وحين يسأله أبو موسى: ما أخرجك؟ يقول له النابغة: سمعتُ داعيَة قومي، فيضربه أسواطاً، فينطلق لسان الجعدي بما يدلّك على مبلغ هذا الحُب لقومه في نفسه، فيقول:

رأيتُ البَكْرَ بَكْرَ بَني ثَمُودٍ ... وأنت أراك بَكْر الأَشْعَرِينَا
فإن يَكُنْ ابنُ عفّانٍ أمِيناً ... فلم يَبعث بكَ البَرَّ الأَمِينَا
فيا قَبْرَ النبيِّ وصاحِبَيْه ... ألا يا غَوْثَنا لو تَسْمَعونا

ألا صَـلَّى إلَـهُـكُـمْ عـليكـم ولا صَلَّى على الأُمَـراء فِـينـا[1]

* * *

ومنهم: **عمـرو بن أحمد (٦٨٦ م ـ ٦٦ هـ)** شـاعـر مُخَضْـرم، أظلتـه الجاهليّة كما أظله الإسلام.

لا ندري كم من السنين كانت له في جاهليتـه، فليست ثمة أخبـار له جـاهليّة تُعِين شيئاً على تعرُّف من اتصل بهم، كما أنـه ليس ثمة حَـدَثٌ يقودنـا إلى زمانـه، وشعره في الجاهلية، الذي يقول عنه أبو الفرج إنه كثير، لم يقع لنا منـه إلا القليل، مما يتناول أغراضاً عامة، وهو مع ذلك مشكوك في جاهليته.

أما عن سِنيه في الإسلام، فليس ثمة ما يدلّ على أنـه أدرك النبي ﷺ، ولكن الثـابت أن إسلامـه كان في عهـد أبي بكر، وإن كـان لم يَلْقَ أبا بكـر، فأبـو الفرج يقول: وكان في خَيل خالد بن الوليد، حين وجه أبو بكر خالداً إلى الشام، ولم يأت أبا بكر.

ونحن نعلم أن تَوجيه أبي بكر لخالد إلى الشام كـان مع أوائـل القرن الثـالث عشر الهجري، وأن عُمَرَ عَزَله من قيادة جيش الشام حين ولي، بعد مُضِيّ أشهر من هذا العام.

وقد يصح أن إسلام عمرو كان في هذا العام، وهو ما نميل إليه، إذ ليس ثمة في شعـر عمرو الإسـلامي الكثير، كمـا يقول أبـو الفـرج، مـا يـدل على أن صلتـه بالإسلام سبقت هذا العام.

وعلى حين يقول المرزباني: إن عَمْراً تُوفي على عهد عثمان رضي الله عنه، بعد أن بلغ سناً عالية. وهذا يعني أن عَمْراً حين أسلم سنة ثلاث عشـرة، كما قلت قبل، كان عُمْرُه عندها ليس بالقليل، فخِلافة عثمان آمتدَّت من سنة ثـلاث وعشرين

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ طبقات ابن سلام ـ معجم الشعراء ـ الإصابة ـ الديوان.

(٢٣ هـ) إلى سنة خمس وثلاثين (٣٥ هـ).

والـذي يقـولـه أبـو الفـرج عن سِني عمـرٍو في الإسـلام لا يتفق ومـا قـالـه المَرزبانيّ، فأبو الفـرج يقول: وقـال في الخلفاء الـذين أُدركهم: عمر بن الخـطاب فمن دونه، إلى عبد الملك بن مروان.

وعبد الملك بن مروان وَلِيَ الخلافة سنة خمس وستين، وانتهت خلافته بموته سنة ست وثمانين (٨٦ هـ).

ويبـدو أن عَمْراً لم يُعـايش عبدَ الملك، وإنمـا أدرك أيامـه الأُولى، وهذا مـا تُفيده عبارة أبي الفرج.

فعُمْرُ عَمْرٍو تكاد الآن تُحدِّده اثنتان:

أولاهما: أنه كان كبيراً حين أسلم سنة ثلاث عشرة (١٣ هـ).

وثانيتهما: أن وفاته كانت حوالي سنة ست وستين (٦٦ هـ)، أو بعدها بقليل.

وإذا كـان عمرو ذا سِنٍّ عـالية، عنـد وفـاتـه في خـلافـة عثمـان، كمـا يقـول المـرزبـاني، فمـا أولاه أن يكـون ذا سن عُلْيَـا إذا كـانت وفـاتـه مـع سني خـلافـة عبد الملك الأولى.

ومن هنا نستطيع القول بـأن عَمْراً، الـذي قضى في الإسلام نحـواً من ثلاثـة وخمسين عاماً، قضى نحوها أو قريباً منها في جاهليته.

وقول آبن قتيبة: أنه عُمِّرَ تسعين عاماً يكاد يتفق وما ذهبنا إليه.

ويكاد يكون شِعره في الجاهليّة هو ما قالـه في ذهاب إحـدى عينيه في حَـرْب شارك فيها، وكان الذي رماه في عينيه فتًى يقال له: مخشي، يقول عمرو:

شَلَّت أنـاملُ مَخْشِيّ فـلا حَبَرَتْ ... ولا آستعـان بضـاحِي كَفِّـه أبـدَا

أَهْوَى لها مِشْقَصاً حَشْراً فَشَبْرقها ... وكنتُ أدعو قَذاهـا الإثمِدَ القَـرِدَا

المشقص: فصل السهم. والحشر: الدقيق، وشبرقها: أزالها.

وأما شِعره في الإسلام فقد مَدح خالدَ بن الوليـد، ومدح عُمـرَ بن الخطّاب، ومدح عثمانَ بن عفان، ومدح عليّ بن أبي طالب، مَدْحاً بريئاً يُطْرِي فيه فَعالهم.

ثم إن المراجع لا تُثْبت له شيئاً فيمن بعد عليّ بن أبي طالب.

وله بعد هذا شِعره النفسيّ الذي يشكو فيه حاله:

إليك إلهَ الحقّ أرفع رَغْبتي عِياناً وخوفاً أن تُطِيل ضمانا

الضمان: الزمانة.

وهكذا كان عمرٌو شاعرَ عصره الإسلامي، وربما كان كذلك في عصره الجاهليّ، غير أنّا لم نقع له في جاهليته إلا على هذا القليل الذي ذكرته[1].

هذه الطاقة الشِّعرية الجبّارة في هذين العَصرين: العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام، لم تجد لها مُتَنفَّسا حضاريًا واسعاً، كما لم يكن لأصحابها غيرُ حظٍّ قليل من ثَقافة، لهذا عاشت على تلك الأغراض الذاتيّة المَحدودة، وصَهرتهم تلك البيئةُ المَحدودة في كُل شيء في بَوْتقَتِها، ولم يَصهروا هم تلك البيئة في بَوْتقتهم، لأنهم لم تكن لهم هذه البَوتقة التي هي من صُنع الثقافة والحضارة، ولم تكن العقيدة الإسلامية بثقافتها وحضارتها، عهدَها الأول، قد طبعت البيئةُ بطابعها بعدُ، الثقافيّ والحضاريّ، وعاش الشعراء، وعلى ألسنتهم تجري أُسمى كلمة أرضيّة، ليس في جُعبتهم ما يُملونه، وإنما عاشوا صدًى للبيئة يتحرَّكون بحركتها. ويَجْمُدون بجُمودها، لا يَملكون تلك الكلمةَ الواعية التي يُقَوِّمون بها المَسار إن أعوجَّ تحت أرجلهم، وما امتازوا عمن حولهم في بيئتهم بثقافة لتكون لهم القدرةُ على التوجيه، وما كان لهم غيرُ تلك الثقافة اللُّغوية والموهبة الشعرية، اللتان خَلَقتا منهم أفراداً يُستمع إليهم، وما كان أطوَع البيئةَ لهم بما بَلغوا من تلك الثقافة اللُّغوية، وهذه المَوهبة الشعرية، لو أنهم ملكوا أن يُطَوِّعوها بجديد قَرَّ في نفوسهم من ثقافة وحضارة.

ولكن أنَّى لهؤلاء الشعراء بمثلها، وما حَظيت البيئة بثقافة وحضارة فيَحْظوا هم منها بنصيب يُميِّزهم عمن حولهم، فيملون عنه كما أملوا عن ثقافتهم اللُّغوية.

فالمُشاركة وحدَها في شيء ما لا تَجعل لواحدٍ من المشاركين أن يَفضل غيره

(١) الشعر والشعراء ـ معجم الشعراء للمرزباني ـ الإصابة.

من مشاركيه، فيكون بينهم موجِّهاً، ولكن لا بد من إضافة تُضاف يَبْرز بها هذا المُملي فيجد الآذان له صاغية، وهذا ما يُرْزقه الرائدون في أية بيئة، وهم لا ينطلقون من فراغ، بل من وجود ثقافي حضاري أولاً، يُنْعِش فيهم الرأي ليكونوا أصحابَ رأي.

وشعراؤنا الذين نتحدّث عنهم، أغنى شعراء العصرَين: العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام، برزوا في بيئتهم بثقافتهم اللُّغوية المتميزة، فهم فيها مُشارَكُون ولكنهم متميِّزون، ومن هنا مَلَكوا أن يُسْتَمع إليهم.

وما نُجرِّدُهم من رأي، فمَا خَلت بيئتُهم من رأي، ولكنه كان هذا الرأي المحدود، ببيئة محدودة. وكما تميّزوا فيما شاركوا فيه البيئة من لُغة، كذلك تميزوا فيما شاركوا فيها البيئة من رأي، ولكنه كان الرأي المحدود بمنطق البيئة.

ولقد رأينا على ألسنة هؤلاء الشعراء الحِكمة والموعظة، وكان هذا ومثلُه مما مازَهُمْ عن غيرهم رأياً، وما خلت البيئة من مِثل ما جَرى على ألسنتهم، ولكنهم مَلكوا أن يصوغوا هذا صياغةً أُخرى لا تَقْوى عليها ألسنة الآخرين، ممن لم يُرْزقوا موهبةَ الشِّعر، ومن هنا كانت ميزتهم في الرأي إلى جانب ميزتهم في اللُّغة.

وهكذا حَفظ لنا الشِّعر العربيّ في عصرَيْه هذين اللُّغَةَ على أسمى ما تكون، وكانت تلك رسالته التي تكاد تكون هي الوحيدة، ولكنه لم يتفسح للحياة، لأنه لم يكن يملك أسباب الحياة، وعاش تقذف به البيئةُ أنَّى شاءت، وحين كانت تلك البيئة تَظفر بشاعرٍ قارىء، الأمر يختلف، فإذا نحن نقرأ شِعراً يُملي على البيئة ولا يستملي من البيئة.

وما نَلُوم الشعراء عليها، فكما نَشَّأتهم البيئةُ نَشَأوا، ولكنّا نحكُم على الشِّعر في هذين العصرين، بأنه كان شعراً تُمليه ثقافة لغوية لا ثقافةٌ حضاريّة.

ولو وَجدت هذه الطاقات الشِّعرية مُنْفَسحاً حضاريًّا لحلّقت فيه كما حلّقت في ذلك المجال البِدائيّ الضيِّق، فلقد عَكف الشُّعراء على ما بين أيديهم، فشَغلوا

أنفسهم بـه الشُّغَل كُلَّه، لأنهم لم يَجـدوا مُتَنَفَّساً غيـره، فوصفـوا الإبل وأسـرفـوا، ووصفوا الخيلَ فأمعنوا، ووصفوا الصِّراع فأكثروا، إلى غير هذا من شؤون تلك البيئة الفَقيـرة، وإذا ما سَمِعْتَ لهم رأيـاً، وجدتـه رأياً مُعـاداً تَجـري بـه الألسنـةُ في كُـلِّ مكان، وإذ كانوا لا يملكون الرأيَ المُوجِّه، لأنهم لم يَقَعوا على منابعه، لهذا مالُـوا مع الحياة كيف تَمِيل، وقَلَّ منهم من وقف للحياة يَرُدّها عن مَيْلِها فاندفعـوا يَهِيجون الحُروب، لأن البيئة بِيئةُ حُروب، ولم يُحـاول واحد منهم أن يُخْمِـد لتلك الحُروب جَذْوة، إلا في القليل.

والشيء الذي لم يُخلق الشِّعر له، وهو أسمى كلمة أرضية كما قلتُ قبل، أن يكـون شِعْرَ صَعلكـة، يمتدح الشـاعـر، الصُّعلوك مـا يـأتي من سَلب ونَهب، ولكن البيئة هي التي أملت هذا، لأنها لم تكن آستوت ثقافةً وحضارة.

وإذ لم تكن بيئة جماعيّة بل بيئة فَرْدية، عاش الشعـر ذاتيًّا أو شِبْـهَ ذاتيّ، وهو أن يخصَّ الشاعر شِعـره نفسه، أو أن يضم الشـاعر إليـه قومـه الذين بهم يُغيـر وفي كنفهم يأمن.

وحين خـطا هذا الشعـرُ نحو الثقـافة والحضـارة شيئـاً، حين أطـلَّ الإسـلام، أخـذت تَدِبّ فيـه حياةٌ جـديدة، وخـرج من مَـنطوق إلى منـطوق، غيـر أنّ هـذا لم ينـأصَّل إلا بعـد أن تأصّلت هـذه النَّفحة السمـاوية، مـع ظهـور الـدولـة المـروانيـة واستتباب الأمر لها.

وقِوام الشعر مَلَكتان: ملكة تَعبيرية، وملكة فِكْرِيّة.

ومَعين الملكة التَّعبيرية تلك الحَصيلةُ اللُّغوية التي تجتمع للشاعر يُشَكِّـل منها بملكتـه تلك البِنية الشِّعـرية من صـورهـا المختلفـة، وعلى قَـدر قـوة هـذه المَلكـة وضَعفها يكون الفَرْق بين شاعر وشاعر، في جَمال هذه البِنية وقُبحها.

ومُعين المَلكة الفِكْرية تلك الحَصِيلةُ الثقافيـة التي تَجتمع للشـاعر فتَعْمُـر بها البنيـة، وتكون بمثـابة القُـطّان يُشِيعون الحيـاة في البُنْيان، حيـاةً تختلف بـآختـلاف

نَصِيبهم الحضاري في الحياة، منهـا ما يكـون مَرمـوقاً يُحْتَـذَى به، ومنهـا ما يكـون مُهملاً لا يُلْتَفت إليه.

وهكذا الشاعـر إن ملك فِكْراً فقيـراً لا تسانـده ثقافـات،عاش على ذاتيـات لا تَضُم إلى الوجود جديداً، فإذا هو يفخر بنفسه مرة، وبقَومه أُخرى، وبفَـرسه ثـالثة، وبناقته رابعة، وبالبينة خامسـة، ليس غيرَ وصَّـاف لهذا كله، تُسْعفـه ملكته الفكـريّة الفقيـرة حيناً فيجيـد، وتخذلـه حيناً فـلا يُجيد وإذا مـا أُعينت تلك الملكة الفكـرية بثقافات مختلفة، ملك الشاعـر أن يكون لشعـره الصفة التـوجهية وغـدا بملكته تلك الفكرية الفنية يستصفي ما بين يديه من ثقافات، ويخرج منها برأي يكون به شاعراً ذا رسالة، وتلك غاية الشعر.

ولقد عاش الشعرُ الجاهليّ، وتَبعه إلى حدٍّ ما شعرُ صدر الإسلام، على تلك الملكة التعبيريـة وحدَهـا، إلا في القليل الـذي لا يُذكـر، فلقد تـوفّر لتلك الملكـة التعبيريّة مَعينها اللغوي، ولم يتوفر للملكة الفِكْريّة مَعينها الثقافي.

ومن هنا جاء شعر هذين العصرَيْن على تلك الصورة التي ذكرتها، لأنه كـان يَملك مَعِيناً ويَفقد مَعِيناً، يملك ذلك المعين اللُّغوي، ويَفقد ذلك المَعِين الثقافيّ.

وهـا نحن إزاء نتاج هـذين العصرين الشعـريّ نحظى بـالمُتعة التَّعبيـرية، ولا نحظى بالمُتعة الفكريّـة، إذ ليس ثمة فيـه رأي مُنهض، ولا كلمة مُـوجِّهة، ولا تعُـدَّ عليَّ تلك الحِكم المُتداولة الشائعة، التي تجري على ألسنة العـامة قبـل الخاصـة، من مـدح الصِّدْق، وذم الكـذب، إلى غيرهمـا مما يُمـاثلهمـا، فهـذا لا يُحسب من الرأي، وإنما الرأي هو الذي يأخذ بيد الناس من حولك من شَرٍّ تَرَدَّوا فيه إلى خير لهم تَرتجيه.

# العصر الأموي

## (٩)

وهـا نحن أولاء بعـد أن طَـوينـا صفحتين آثنتين، لعصــرين اثنين: العصـر الجـاهليّ، وعصر المخضـرمين، نفتح صفحـة جـديـدة لِعَصْـرٍ ثـالث، وهـو عصـر الأمـويين الخاصّ، أعني من لم تكن لهم حيـاةٌ أولى في الجـاهليـة، وإنما وُلدوا إسـلاميين، وما إن شَبُّـوا وأدركوا حتى أظلَّهم العصـرُ الأموي، أو مَن وُلِـدُوا أمويين ومـاتُوا أمـويين، أو مَن وُلدوا أمـويين وامتد بهم العُمـر شيئـاً إلى أن أظلهم العصـرُ العباسيّ.

ومن هؤلاء: **تَوبة بن الحُمَيِّر (٦٦٩م - ٤٩هـ).**

لقد آضطربت المراجع في السنة التي خرج فيها توبة من دُنياه آضطراباً بَيِّناً، فلقد ذهب صاحب فوات الوَفيات إلى أن تَوبة قتلَتْه بنو عوف بن عامر بن عَقيل في حُدود الثمانين من الهجرة (٨٠ هـ).

ويُحدِّثنا أبو الفرج أن هذا كان ومروان بن الحكم والٍ علٰى المدينة لمُعاوية. ونحن نعرف أن تَوْلية مروان المدينة لمعاوية كانت منذ سنة آثنتين وأربعين (٤٢ هـ) إلى سنة تسع وأربعين (٤٩ هـ).

ويقول أبو الفرج بعد أن ذكر مَقتل توبة: ثم إن بني عوف بن عامـر صاروا في أمرهم إلى مروان بن الحكم، وهـو والي المدينـة لمُعاويـة بن أبي سفيان، فقـالوا: نَنشدك الله أن تفرق جماعتنا، فعقل توبـة، وعقل الآخـرين معاقـل العرب مـائة من

الإبل، فأدتها بنو عامر.

ويذكر أبو الفرج في موضع آخر من كتابه الأغاني، وهو يُترجم لتوبة لقاء ليلى لمعاوية وسؤال معاوية لها عن توبة، يقول معاوية لِلَيلى: ويحك يا ليلى، أكما يقول الناس كان توبة؟ وكان هذا بعد مقتل توبة لا شك.

ونحن نعرف أن وفاة معاوية كانت في السنة المتممة الستين (٦٠ هـ).

وهذا الذي ذكره أبو الفرج في موضعين، هو الذي جعلنا نذهب إلى أن مقتل توبة كان في هذه السنة التي ذكرناها مع أول الترجمة، لا على التحديد بل على التقريب.

والقارىء لما كُتب عن توبة يرى أنه دخل الحياة مُغَامِراً:

غامر حين وقع في هَوى ليلى الأخيلية، وغامر حين أخذ يُغير هنا وهناك.

ويشاء القدر أن يَخرج توبةُ من مغامرته الأولى مخذولاً، بعد أن أبى أهلُ ليلى عليه أن يزوجوها إياه وزوجوها من غيره، إذ كان توبة عاهراً خارباً، وأن يخرج من مغامرته الثانية مقتولاً.

ويبدو أن توبة جُوبه بهذا الإباء وهو في يُفوعته، وأكاد أقول إنه ما قُرِف به توبة لم يكن من طَبعه الأول، وإنما دُفع إلى هذا دَفعاً بعد أن كان هذا الإباء، فإذا هو يَخرج عما طُبع عليه إلى غير ما طبع عليه، من عُهْرٍ وخَرب، أي لصوصية، لينتقم من الوجود الذي ظَلَمه.

أقول هذا مستأنساً بحُكْم ليلى عليه، وما أُظنها إلا صادقة، فلقد كانت أَوْلَى من غيرها بأن تخْلَع عنها حُبّ توبة، وهي آمرأة واعية نابهة، وما أُظُن هواها غَلبها على أمرها فقالت غير الحق عن تَوبة، وما أظن هذا الإباء من أهل ليلى كان إلا لهذا السَّبب العام الذي التزمت به البِيئة العربية، وهو ألَّا تُزَوِّج بناتِها من شاعر شَهّر بابنتهم قبل أن يتقدَّم خاطباً، ولقد كان توبةُ من هؤلاء.

واقرأ معي حُكْمَ ليلى على توبة، تقول:

إذا حُـلَّ رَكْـبٌ فـي ذَراه وظِـلّه لِيَمْـنـعـهـم مـمّـا تُـخـاف نَـوَازِلُـهْ
حَمـاهُمْ بِنَصْل السَّيف من كُـلّ فـادحٍ يخـافُـونـه حتّى تمـوت خَصَـائِلُهْ

وتقول بعد أن قال لها معاوية: وَيحك، يزعم الناس أنه كان عاهراً خارباً:

مَـعـاذَ إلـهـي كـان والله سـيِّـداً جـواداً على العِـلاَّتِ جَـمًّـا نـوافلُه
يَبِيت قـريـرَ العَين مـن بـات جـارَه ويُـضْحِي بخَيـر ضيـفـه ومُنـازِلُـه

ثم حسبك عن توبة ما أجابت به ليلى الحجاج حين قال لها الحجاج: فأقسم عليك إلا صَدَقْتني، هل كان بينكما رِيبةٌ قطّ، أو خاطَبك في ذلـك قط؟ فقالت: لا والله أيها الأمير، إلا أنـه قال لي ليلة، وقـد خَلَونا، كلمـة ظَننت أنه قـد خَضع فيهـا لبعض الأمر، فقلت له:

وذي حـاجـةٍ قُلْنـا لـه لا تَبُـحْ بهـا فـليس إلـيـهـا مـا حَـيِـيتَ سَـبِـيـلُ
لنـا صـاحبٌ لَا ينبـغي أن تَـخـونَـه وأنـت لأُخـرى فـارغ وخَـلِـيـلُ

فلا والله ما سمعت منه ريبة بعدها حتى فَرّق بيننا الموت.

وإذا عُـدنا إلى تـوبة نَستقصي شِعـره لا نجد منـه بَيتاً إلا في التَّشبيب بليلى، وأما عن حياته الأخرى فليس ثمة شعر له فيها، اللهم غيرُ بيت واحد آرتجزه بعد أن حَذَّره رجلٌ من قومه من الإغارة على بني عوف بن عقيل، فما كـان من توبـة إلا أن ضرب بَطن فرسه، فاستمر به يُحضر وهو يَرتجز ويقول:

تَـنْجُـو إذا قـيـل لهـا يـعَـاطِ تَنْجُـو بهم من خَلل الأمـشـاطِ

يعاط: كلمة زجر للدواب.

وهذا الشعر الذي قاله توبةُ في ليلى سَبق لا شك منه شيءٌ قبل أن يَضُم ليلى إليه زوج، ولكن المراجع لم تحفِظ لنا منه كثيراً ولا قليلاً، وكُلّ ما حفظته المراجـع له هو ما كان بعد زواج لَيلى، وفي هذه كنّا نُحب أن يُمسك توبةُ لسـانَه فـلا يُصرِّح بمـا يسيء إلى ليلى زوجةً، كمـا كنا نُحب ألا ترضى ليلى مِثْلَ هـذا بعد أن غَـدت زوجة، وكم كنا نحب ألا يرضى زوج ليلى بأن يقنـع من آمرأتـه بجسمها لا قلبهـا،

وهل لزوج يَبْلُغ بـه ما بلغ بـزوج ليلى من التجاوز الـذي تُحِسّه في الخبـر، وهو أن ليلى الأخيلية أقبلت من سفر، فمرت بقَبر تَوبة، ومعها زوجها، وهي في هَودج لها، فقالت: والله لا أبرح حتى أُسلِّم على تـوبة، فجعـل زوجها يَمنعهـا من ذلك وتأبـى ليلى إلا أن تُلِمّ به.

فلما كثر ذلك منها تَـركها، فصَعِـدت أكمةً عليهـا قبر تـوبة، فقـالت: السلامُ عليك يا توبة، ثم حولت وجهها إلى القوم فقالت: ما عرفت له كذبةً قط قبل هـذا، قالوا: كيف؟ قالت: أليس القائل:

ولـو أنَّ لَـيلى الأخـيـليّـة سَـلَّمت ... عـليَّ ودُونـي تُـربـة وصـفـائـحَ
لـسلّمـت تَسْلِيم الـبَشـاشـة أو زَقَـا ... إليهـا صَـدًى من جـانب القَبْـرِ صـائـحُ
وأُغبـط مـن لـيـلى بـمـا لا أنـالـه ... ألا كـل مـا قَـرَّت بـه العين صـالـحُ

وتزيد المراجع فتقول: وكان إلى جانب القبر بُـومة كـامنة، فلمـا رأت الهودج واضطرابه فزعت وطارت في وجه الجمل، فنَفر فرَمَى بليلى على رأسها، فماتت في وقتها، فدُفنت إلى جَنبه.

صُورة مُكرّرة آمتلأت بها الصفحات عن العاشقين والعاشقات، وكُلُّها لا تخلو من تَرديد العاشق لاسم معشوقته بعد أن تُصبـح في كَنَف زَوج، يُشْبع بهـذا غرائـزَه الذاتيّة غيرَ مُلْقٍ بالاً لما في قوله من إهدار لحُـرْمة مَعْشـوقته، كمـا لا تَخلو من رضا الأزواج بأن يَبْنُوْا بمن قلوبهن لِغَيرهم.

وكذا لا تخلو من عاشق يَقضي قبل معشوقته، ثم تقضي الزوجـة في إثره، أو معشوقة تقضي ثم يقضي الزوج في إثرها.

وإنِّي أكاد أنزه البيئة العربية عن مثل هذه الصور.

وإذا كان هناك ما نعرف به مزيداً عن توبة فحَسبنا في هـذا تلك المَراثي التي لا تُعَدّ التي رثت بها ليلى تَوْبَة.

وهكـذا مضت حياة شـاعر وشـاعرة لا تعـدو غيرَ كلمـة منـه في هـواه بليلى،

وأخرى من ليلى في رثائه والتنويه بأخلاقه وشجاعته، وتكاد ليلى لا تجاوز هذا إلى غيره إلا في رثائها للخليفة عثمان بن عفان بعد مَقتله، وهذا حين تقول:

أبعد عثمان تَرجو الخيرَ أُمَّتُه ... وكان آمَنَ من يَمشي على ساقِ

ويبدو أن هذا كان وليلى في حياته الأولى لا عِشْق ولا زَوْج، فلقد كان مقتل عثمان سنة خمس وثلاثين (٣٥ هـ) وآمتد العُمر بليلى إلى أن أسنَّت وشاخت وأدركها الموت حَوالي سنة ٨٠ هـ)[1].

* * *

ومنهم: **مالك بن الريب (٦٨٠ مـ - ٦٠ هـ).**

ويُحدثنا ابنُ قُتيبة فيقول: كان فاتكاً لِصًّا يُصيب الطريق.

ثم يقول ابن قتيبة: وحبس بمكة في سرقة.

ويُحدثنا المرزبانيّ عن مالك فيقول: كان ظريفاً أديباً فاتكاً، هرب من الحجاج لهجائه إياه، فأمَّنه بِشْرُ بن مروان.

ويقول البغداديّ في خزانته: إن الذي أمنه واستصلحه سعيدُ بن عثمان بن عفان، وآصطحبه معه إلى خراسان وكان معاوية قد ولّاه إياها، وإن مالكاً أقام بمرو إلى أن مات.

أسوق هذا كلَّه لأستنبط منه: متى مات مالك؟

فالذي يبدو أن الذي حَبس مالكاً بمكة هو الحجّاج، ولا يملك الحجاج هذه إلا إذا كان صاحب كلمة في مكة، ولم يكن الحجاج صاحبَ كلمة في مكة إلا بعد أن ولّاه عبد الملك بن مروان مكةَ والمدينةَ والطائفَ، وهذا لم يكن إلا بعد أن آستُخلف عبد الملك سنة خمس وستين (٦٥ هـ).

وبِشْر بن مروان، الذي يُقال: إنه أمن مالكاً بعد أن هرب من مكة خوفاً من

(١) الأغاني - الشعر والشعراء - فوات الوفيات - الكامل للمبرد.

الحجـاج، وَلِي إمْـرَةَ العـراقين لأخيـه عبـد الملك بـن مـروان سنـة أربـع وسبعين (٥٤ هـ).

وسعيـد بن عثمان بن عفـان، الذي ذكـر البغدادي أنّـه هو الـذي أمن مـالكـاً واستصلحه، كانت وفاته سنة اثنتين وستين (٦٢ هـ)، وأنه ولى خراسان لمعاوية سنة ست وخمسين (٥٦ هـ)، وعُزل عنها سنـة سبع وخمسين (٥٧ هـ)، وأنـه بعد عـزله وقُفوله من خراسان مَرَّ بمالك بن الرَّيب، وكان عندها مالك في مَرض الموت.

ولعلّ هذا القول عن سعيد بن عفان هو الذي أُملى على البعض أن وفاة مالك كانت في السنة المُتمة الستين (٦٠ هـ) أو تنقص عنها قليلاً.

ولكن الأقـوال الأُخرى تكـاد تُملي غير ذلـك، اللهم إلا إذا كان حَبْس مـالك بمكـة لم يكن على يدي الحجّـاج، وأن هجاء مـالك للحجـاج لم يكن لهـذا، وأنّ تأمين بِشْر له كان قبل أن يَلِي بِشْرٌ العراقين.

وهذا ما نُرجِّحه، لأنه بعيد أن يكون المرضُ قد آمتد بمالك أعواماً طويلة.

وأبو الفرج يحدِّثنا، بعد أن ذكر مرور سعيد بن ممالك قفوله من خراسان، فيقول: فلما أشرف مالك على الموت تخلَّف معه رجلان من قومه، وهما اللذان يقول فيهما مالك:

أيَـا صاحِبَيْ رَحْلِي دنـا الموتُ فـآنْـزِلاَ  ***  بـرابـيـةٍ إنِّـي مُـقِـيـمٌ لـيـالـيَـا

وعلى هذا تكون وفاة مالك حوالى السنة التي ذكرناها أولاً مع ذكر آسمه.

وحياة مالك هذه هي التي أملت عليه شعره، وكان صَدًى لها.

يَصف لك مالك حياةَ الفَتك وقَطع الطَّريق فيقول:

سيُغْنِيني المَلِيـكُ ونَصْـلُ سَيْفِي  ***  وكَـرَّاتُ الكُمَيْتِ على التِّـجَـارِ

وكان مالك يقطع الـطريق مع أصحـابٍ له مِثله، فـطَلبهم مروانُ بنُ الحكم، وكان عامـلَ معاويـة على المدينـة، فهربـوا، فكتب مروانُ إلى الحـارث بن حاطِب الجُمحيّ أن يطلبهم، ويبلغ مالكاً أنّ الحارث يتوعده، فيقول:

تــألَّى حَلْفَــةً فــي غيــر جُــرْمٍ     أميــري حــارثٌ شِبْــهُ الصِّــرَارِ
عــليَّ لأُجْلدْن فــي غيــر جُــرْمٍ     ولا أُدْنَــى فيـنفـعني آعتــذارِي

وتقع يدُ الحارث عليه وعلى صاحبٍ له، وأقام عليهما حـارساً، فيُفلت مـالك ويقتل الحارس ويقتل معه آخرين، وينجو ومعه صاحبُه ويقول:

فـشَـأنَكم يـا آلَ مـروان فـاطْلُبُـوا     سِقــاطي فما فيـه لباغيـه مَـطْمَـعُ

وتَجمع الصُّدفةَ بين مالك وقاطع طريق، لم يكن مالكٌ يعرفه، فيثور مالـك به فيقتله ويقول:

خُــذهــا فــإني لضــرَّاب إذا آختلفت     أيـدي الـرِّجـال بضَـرْبٍ يَخْتِـلَ البـطلا

ويلقى مالك ذِئْباً فيزجره فلم ينزجر، فيستلّ سيفَه ليقتله ويقول:

فــأنتَ وإن كنـتَ الجَـريءَ جَـنَـانُــه     مُنِيتَ بِضــرْغــام مـن الأُسُــد الغُـلْبِ

وحين أمَّنه سعيدُ بن عثمان بن عفان، وخرج به معه إلى خراسان، بكت آبنته لِفراقه، وبكى هو الآخر لفِراقها وأخذ يقول:

ولقــد قلتُ لابنتِي وهي تَـبْكِـي     بــدَخِيـلِ الهُمــوم قلبــاً كَئِيبَــا
أَسْكُتي قد حَزَزْتِ بالدَّمـع قلبي     طــالمــا حَــزّ دَمعُكُنَّ الـقُلوبَــا

وهكـذا حدّد لنا مالـك حياة الصعلكـة التي ألِفْناهـا في الجاهليـة، فـإذا هـو صُعلوك من الصعاليك، غير أن صعاليك الجاهلية عاشُوا في حياة ليس فيهـا قانـون يَرْدَع، ومالك عاش في حياة يُظلها قانون رادع، ولهذا آختلف المَسلكان[1].

* * *

### ومنهم: النُّعمان بن بَشير الأنصاري (٦٨٤م ـ ٦٥ هـ).

أول مَولود لـلأنصار في الإسـلام بعد الهجـرة، وكان مـولده بعـد أربعة عشـر شهراً، أعني في السنة الثانية من الهجرة.

---

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ معجم الشعراء للمرزباني ـ خزانة الأدب ـ ديوانه.

أمّا عن وفاته فقد كانت سنة خمس وستين، كما ذكر آبنُ حجر، ويؤكِّد هذه ما قاله آبن حزم في جمهرته حين قال: آفتتح مروان دولته بقَتله، ولقد دعا مروان بن الحكم إلى نفسه بعد موت معاوية بن يزيد بن معاوية سنة أربع وستين (٦٤ هـ)، وإذا المنيّة تُعاجله سنة خمس وستين، بعد أن حكم تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً.

ولقد قُبض رسول الله ﷺ والنعمان لمّا يبلغ الحُلُم، وعايش الخلفاءَ الأربعة: أبا بكر، ثم عمر، ثم عثمان. ثم علياً، حتى إذا ما كانت حرب صِفين بين عليّ ومعاوية كان النعمان الأنصاريَّ الوحيد الذي انضم إلى صفوف معاوية فلقد كان عثمانيَّ النَّزعة، وحين ولي مروانُ بن الحكم إذا النعمان يُخالف عليه ويدعو إلى ابن الزبير، ولكن مروان لم يُمهله حتى قتله، كما قلتُ قبل.

والطريفُ أن هذا الشاعر لم يَنطلق لسانه بقول الشعر إلا بعد أن حَظِي عند معاوية في خلافته، واستعمله معاوية على إمرة الكوفة ثم إمرة حمص.

وإن صَدق قولُ أبي الفرج من أن النّعمان قال الشعر حَدَثاً، لم يكن ثمة ما يبرر جموده، غير أنّ الشعر لم يكن يواتيه عندها، وأن ملكة الشعر لديه كانت فاترة.

فلقد سُئل النعمان وهو حَدث: ألم تقل شعراً قط؟ فيقول النعمان: لا.

ويُقال إن سائله أَقسم ليربطنَّه إلى سرجه حتى يقول شعراً، فإذا النعمان يقول:

يا خليليَّ ودِّعَا دارَ لَيْلَى ... ليس مِثلي يَحُلُّ دارَ الهَوَانِ
إنّ لَيْلى ولو كَلِفْتَ بلَيْلَى ... عاقَها عنك عائِقٌ غير وَانِي

والطريف أن ليلى القينيّة هذه التي شبب بها النعمان حَدَثاً تَقْدُم عليه حمص، وهو أمير عليها، وما إن وقع بصره عليها حتى تحرّك لسانه بالشعر فقال:

ألا آستأذنت ليلى فَقُلْنا لها لِجِي ... وما لكِ أن لاَ تَدْخُلِي بسَلاَمِ

وما أعني أن النّعمان لم يقل شعراً قبل لقائه هذا لليلى.

فنراه حين هجا الأَخطل الأنصار بقصيدته التي يقول فيها:

ذَهبت قـريش بـالمكـارم كُلِّهـا        واللؤم تحت عمـائم الأَنْصَـارِ

وكان يزيدُ بن معاوية هو الـذي حَرَّض الأخـطل على هذا الهجـاء آنتقامـاً من عبد الرحمن بن حسَّان، حين شَبَّب عبد الرحمن برَمْلة أخت يزيد.

وما إن انتهى إلى النعمان هجاء الأخطل المدبّر حتى خَفّ إلى معـاوية، وهـو خليفة، يحتج ويُنشده قصيدته التي يقول فيها:

مُعَـاوِيَ إلاّ تُعْـطنـا الـحقَّ تَـعْتَـرِفْ        لِحيِ الأَزد مَشْـدُوداً عليهـا العمـائِمُ

ونـرى النعمـان مَـرَّةً أخـرى حين ضَـرب مـروان، وكـان والي المـدينـة، عبـدَ الرحمن بن حسـان الحدَّ، ولم يضـرب أخـاه عبـد الـرحمن بن الحكم بن أبي العاص، على تهاجيهما، يفزع إلى معاوية مُحتجًّا ويقول:

يـا بن أبي سفيـان مـا مثلنـا        جـار عـليـه مَـلِكٌ أو أَمِـيـرْ

وهكذا رأينا كيف كان النُّعمان ينتصف لقومه شاعراً.

وغير هذا الانتصاف نرى النعمانُ يُشبِّب بأُم الحويرث فيقول:

إذا ذُكـرت أم الـحـويـرث أَخضـلت        دُمـوعي على السِّـربـال أربعـةً سَكْبَـا

ثم نراه يذكر أيامه بين قومه فيقول:

أَهـيَّـج دمـعَـك رسـمُ الـطَّلَلْ        عَـفـا غـيـرَ مُـطَّرِد كـالـخَـلَلْ

إلى أن يقول:

أَقـمـت بـه ولأصـحـابِـه        عَـمُـودَ السُّـرَى بـذَمُـولِ الـرَّمَـلْ

الذمول: صفة للناقة السريعة، والرمل: ضرب من السير.

تُرى أكانت هذه هي مظاهر الحياة بين يدي النعمان؟ أَوَلـم يكن لمـا امتلأت به هذه الحياة من صراعات أثرٌ نفسه يُنطق لسانَه بشيء.

في الحق لقـد شَعر النعمـان بما لا يـدل على وجـوده، وأنّـه في تلك الحيـاة الصاخبة عاش، ولكنها إمْرة ألهته عن أن يكون شاعِرَ زَمنه(١).

* * *

(١) الأغاني ـ الإصابة ـ الديوان.

ومنهم: **مجنون ليلى قيس بن المُلوَّح (٦٨٨ م ـ ٦٨ هـ).**

هـذا شاعـر يُنكر البعضُ وُجـودَه، ويذهب البعضُ أنّ جُـلَّ ما نُسب إليـه من شعـرٍ ليس له، وأنّ الجـامِعين للشعر لم يتـركـوا بيتـاً فيـه اسمُ ليلى إلا ضمُّـوه إلى شعره، ويَغلو بعضُهم فيقول: إن هذا الشعر وضعه فَتًى من بني أمية كان يَهوى ابنة عمٍّ له.

وسواء أكانت هذه أم تلك، فالشعر في جُملته يُمثِّل قصة فَرْديَّة لعاشق وَله في حُبِّه، وظُلم فيه، وأَنْهى أمره بتلك المأساة التي يَعرفها الجميع.

وحديث العِشق والعاشقين حديثُ كلّ زمن، وحديثُ كلِّ بيئة، يختلف أُسلوباً مع كل حال، يوَفْق العادات والتقاليد، وللناس منه عِظة ومُتعـة ليس غير، وقـد تُفيد تلك القصّة اللاحقين، إذ هي تجربة، تُعَدّ لَبِنَةً في بِناء الحياة الاجتماعية.

وهكذا كان آنتفاعنا بشعر المَجنون، حقًّا كان أو مـوضوعـاً، فهو في الحـالين أملاه ناطق ليس غريباً عن البيئة. يحس إحساسها، وينطق بشُعورها.

ومثل هذا النِّتاج الذاتيّ البَحت يُفيد منه الـدارسون للنُّفـوس وعِلَلها، وسـوف يَجدون فيه مادَّتهم[١].

* * *

ومنهم: **قيسُ بن ذَريح (٦٨٨ م ـ ٦٨ هـ).**

وهذا لا يَبعد كثيـراً عن قيس بن المُلَوَّح مَجنون لَيلى، سِـوى أنه جُنَّ بِلُبْنَى، ولم يُفْرِط به العشقُ إفراطَه بالمجنون، فلم يُدَلَّه مِثْلَه.

وكما حِيكت حولَ المجنون قِصّة حِيكت حول ابن ذَريح قِصّـة، غير أنهـا لم تَنل شُهرة قِصّة المجنون، ولم تكن فيها شَطَحاتٍ كشَطَحات المجنون، فهـذا عِشْق مُتَّزِن وذلك عِشْق أَهْوج.

---

(١) الأغاني ـ الديوان.

ولْيَكُنْ شِعْرُ قَيس بن ذَرِيح هذا هو الآخر مادَّة لعلماء النفس، إذ ليس لنا منه ما نُضيف به إلى الحياة شيئاً[1].

* * *

## ومنهم: **يزيد بن مُفَرِّغ (٦٨٩ م - ٦٩ هـ).**

هذا شاعر لم يكن مَيْسُورَ الحال، فسَعى يَطْلُب اليُسْرَ عند المُوسِرين، يمدح إنْ نال من يُسْرهم، ويَهْجُو إن حُرِم يُسْرُهم.

ولقد تجاذبه أولَ حياته ثلاثةٌ طَمِع ابنُ مفرِّغ فيما عندهم، هم: آبنا زياد: عُبيد الله، وعَبّاد، ثم سعيد بن عثمان بن عفان، وشاء الحظُّ النَّكِد لابن مُفَرِّغ أن يُؤْثِر من بينهم عبَّاداً، ويَرى ابنُ مفرغ من عبّاد ما لا يُرضيه فيأخذ في هِجائه ويُقْذِع ويشتطّ، فيُلْحِق بعبَّاد أخاه عُبيد الله، ثم يُمْعِن في شَطَطه فيُلحق بهما، أباهما زِياداً، وإذا ابنُ مُفَرِّغ يَلقى العذاب ألواناً على يَدي عبّاد وعبيد الله، يَحبسه هذا، وحين يُطلقه يحبسه ذاك، هذا إلى ما ناله ابن مفرغ من تشهير به وتنكيل، وما آنتفع ابنُ مُفرِّغ بعد هذا بحياته، إلا في فُسحات قليلة أصابها بعد أن بلغ به السِّنُّ مَبْلَغه، ونال فيها من جُود الجائدين، وكانت لابن مُفَرِّغ مدائحُ فيهم، لكنّها لا تُقاس كثرةً بهجائه إلى زياد، وكذا كانت له لفتات غراميّة.

حَبسه عبّاد، وباع فَرسه وسلاحه وأَثاثه وقسم ثمنها بين غُرمائه، كما باع غلاماً له هو بُرد، وجارية له اسمها أراكة، فقال ابنُ مُفَرِّغ:

يا بُرْدُ ما مَسَّنَا دَهْرٌ أضرَّ بَنا ... من قبلِ هذا ولا بِعْنا لنا وَلَدَا
أمَا الأَراك فكانت مِن مَحارمنا ... عَيْشاً لذيذاً وكانت جَنَّة رَغَدَا

ثم يأخذ في لوم نفسه على تَركه سعيد بن عثمان ومُصاحبته عبّاداً:

لَهْفِي على الأمر الذي ... كانت عواقبُه ندامَهْ

---

(١) الأغاني - الديوان.

وتـبـعــتُ عَـبْـدَ بـنـي عِـلَا ... جٍ تـلـك أشـراطُ الـقِـيَـامَـهْ

علاج: بطن من ثقيف.

إلى أن يقول:

والـعَـبْـدُ يُـقْـرَعُ بـالـعَـصَـا ... والـحُـرُّ تَـكْـفـيـه الـمَـلَامَـهْ

ويقول:

إنَّ تَـرْكِـي سـعـيـدَ بـن عـثـمـا ... نِ بـن عفّـان نـاصـرِي وَعَـدِيـدِي

واتِّـبـاعـي أخـا الـضَّـراعـة والـلُّؤْ ... مِ لَـنَـقْـصٌ وفَـوْت شَـأْوِ بَـعِـيـدِ

ويمتد لسانه بالهجاء إلى زياد فيقول:

فـأشـهـد أنّ أُمّـك لـم تُـبـاشِـرْ ... أبـا سُـفـيـان واضـعـةَ الـقِـنَـاعِ

ولـكـنْ كـان أمْـراً فـيـه لَـبْـسٌ ... عـلى رَجُـلٍ شـديـد وارتـيـاعِ

وحين يَخلص من مِحنته إلى جوار المُنذربن الجارود، ويُحِسّ إكرامه له، يقول:

تـركـتُ قُـرَيْشـاً أن أُجـاوِرَ فـيـهـمُ ... وجـاورتُ عبدَ القيس أهـلَ المُشقَّرِ

وعَلق قلبُه ببنات للأعتق هن أناهيد وأسماء والجمانة.

يقول في أناهيد:

سِيـري أنـاهـيـدُ بـالعِتْـريْـن آمنـةً ... قـد سلَّم الله من قـومٍ لـهـم طَبَـعُ

ويقول في أسماء أختها:

تَـعلَّق مـن أسـمـاءَ مـا قـد تـعـلَّقَـا ... ومثـلُ الـذي لاقَى مـن الحُـبِّ أَرَّقَـا

ويقول في الجُمَانة:

سَمَـا بَـرْقُ الجُـمَـانَـةِ فـاسـتـطارَا ... لَـعـلَّ الـبَـرْقَ ذاك يَـحُـورُ نـارَا

أتُرى معي بعد هذا فيما شَعر ابنُ مُفرَغ، وأين وَضع كلماته، وكأن الحياة لم تكن عنده غير أن يأخذ فيمدح. أو يَهْجُو إنْ مُنِع[1].

* * *

(١) الأغاني ـ ابن خلكان.

ومنهم: **أبو الأسود الدُّؤَليّ (٦٨٨ م ـ ٦٩ هـ).**

وُلد قبل البعث المُحمَّديّ بسنين قليلة، وعاصر الدعوة الإسلامية في عَهدها صبيًّا، ويبدو أنه أسلم متأخِّراً. قد يكون هذا في أواخر حياة الرسول ﷺ، وقد يكون في أوائل حُكم أبي بكر، فليس له ذِكْرٌ في هذه الحياة الأولى، جاهليّة وإسلاماً، وتكاد حياته الملحوظة تبدأ بسُكناه البصرة أيّام عُمر، ثم بتَولية عليّ بن أبي طالب إيّاه إمارتها، وتمتدّ هذه إلى أيام معاوية، ثم إلى أيام يزيدُ ابنه، وكذا إلى أيّام مروان بن الحكم، ثم إلى سني عبد الملك بن مروان الأُولى من خلافته، فقد ولي عبدُ الملك سنة خمس وستين (٥٦ هـ). وكانت وفاة أبي الأسود سنة تسع وستين، عن خمس وثمانين عاماً.

وهذا كلُّه يعني أن أبا الأسود عايَش ناضجاً عهوداً حافلة بالأحداث، شهدت الحرب بين عليّ ومعاوية. ثم الخِلاف على تولية آبنه يزيد ولاية العهد، ثم تلك الحُروب التي نَشِبت بين ابن الزبير والمروانيِّين.

ولكنا قبل أن نُناقش أبا الأسود شاعراً علينا أن نَذكر أنه كان ذا مَلكة أُخرى تُناهض ملكته الشعريّة وتكاد تَبزُّها، وهي ملكَته النَّحويّة، فليس بغائبٍ عنّا أن أبا الأسود هو واضعُ الأُسس الأُولى لعِلْم النَّحو، وليس التَّفْكِير في عِلْم النحو يَحدُث بغتةً ومن فَراغ، بل كان شيئاً شغل حياة أبي الأسود الأُولى أكثر مما شَغل الشِّعْرُ تلك الحياة الأولى، لذا جاء الأول أصلاً والثاني عرضاً.

وكان أبو الأسود إلى جانب هذين فقيهاً محدِّثاً، هذا إلى ما يُرْوَى عنه أنه كان مُتَشَيِّعاً لعليّ بن أبي طالب ـ

والقارىء لِشعر أبي الأسود، وهو من القِلّة بمكان، يُحس فيه مَسحة من تَقوى الفُقهاء وعَدْلهم ووفائهم وتَسامُحهم. وإيمانهم بالقدر، ثم ترفّقه في العتاب.

أمّا عن تشيّعه الذي أُوذي بسببه فلا نكاد نَجد له إلّا صدى قليلاً.

فحين قُتل عليّ قام أبو الأسود بين الناس بالبصرة خطيباً يَنعاه بكلمات قليلة،

ولما أرسل لـه معاويـةُ يُخبره أن الحسن بن علي صـالَحه، ويَـدعوه إلى أخـذ البيعة بالبصرة، تحرَّك لها أبو الأسود وقال أبياتاً مَعدودة يقول فيها:

ألَا أَبْـلِغْ مُـعـاوِيـةَ بـنَ حَـرْبٍ فـلا قَـرَّتْ عيـونُ الشَّـامِـتِيـنَـا
أفـي شَهـر الـصيـام فَـجَـعْـتُـمـونـا بـخَيْـر الـنـاس طُـهْـراً أَجْـمَـعِـيـنَـا

ثم إذا هذا الشاعر المُتشيّع حين تـدفعه الحـاجةُ إلى سؤال زيـاد، وكان يعلم عن زياد أنه يَنْقِم عليـه هواه في عليّ بن أبي طـالب، إذا هو يتـرضَّى زياداً ومُعـاوية فيقول:

رأيـتُ زيـاداً صـدَّ عـنِّي بِـوَجْـهِـهِ ولم يَـكُ مَـرْدُوداً عن الخيـر سـائلُهْ

أمّا عن شِعره الذي يمثل تلك الصِّفات التي ذكرتُها له:

فتقرأ له في التَّقوى:

وإذا طَـلَبْتَ مـن الحـوائـج حـاجـةً فـادْعُ الإلَـه وأَحْـسِـنْ الأَعْـمَـالَا

وتقرأ له في الصَّفح عن رجل طالَما آذاه:

وذي إحْنَـةٍ لم يُـبْـدِهَـا غـيـرَ أنَّـه كـذِي الخَبْل تـأبَى نفسُه غيـرَ وَسْوَاسِ
صَفحتُ لـه صَفْحـاً جميـلاً كصَفْحِـه وعَيْني ومـا يَـدْرِي عليـه وأَحْـرَاسِي

وتقرأ له في الوَفاء:

فمـا كُـلُّ ذِي نُصْـحٍ بمُؤْتِيك نُصْحَـه ومـا كُـلُّ مُؤْتٍ نُـصْـحَـه بِـلَبِـيـبِ
ولكنْ إذا مـا استجمعـا عنـد واحـدٍ فـحَـقَّ لـه مِـن طـاعـةٍ بِـنَـصِـيـبِ

وتقرأ له في الانتصاف:

إذا كنتَ مـظلومـاً فـلا تُلْفَ راضيـاً عن القوم حتّى تَأْخُـذَ النِّصْفَ واغْضَبِ

النصف: الانتصاف.

وإن كُنت أنتَ الـظالمَ القـوم فـاطَّرِحْ مَقـالتهم واشْغَب بـهم كُـلَّ مَـشْغَـبِ

وتقرأ له في التوكّل على الله:

إذا كُـنـت مَـعْـنـيًّـا لأمـرٍ تُـريـده فمـا للمَضـاء والتـوكُّـل مِـن مِثْـلِ
تَـوكَّـل وحَـمِّـل أمـرك الله إنّ مـا تُـراد بـه آتيك فـاقْنع بـذي الفَضْـلِ

وبعد هذا فكان أبو الأسود يُسارع فيمدح من يُعينه على نكبات الدهور.

تضيق به الحال يوماً فيمد إليه يَد العَوْن عبد الرحمن بن أبي بكرة فيَمدحه ويقول:

أبو بَحْر أمنَّ الناس طُرًّا     علينا بعد حيّ أبي المُغِيرَةْ

كما كان يُعاتب من يُمسك يده عنه، مِن هذا ما فعله عُبيد الله بن زياد معه حين وَعده ثم أخلفه. فقال يُعاتبه:

دَعَانِي أَميرِي كَيْ أقرَّ بحاجتي     فقلتُ فما رَدَّ الجوابَ ولا آسْتَمَعْ

وهذه الحياة الضيّقة التي ضَمَّت أبا الأسود كم أثارت بَينه وبين مَن حوله خلافاتٌ تحرّك لها لسانُ أبي الأسود بالشِّعر، يعاتب ولا يهجو، يتمثّل لك هذا في نُصحه لابنه:

أحِبَّ إذا أَحببت حُبًّا مُقارِباً     فإنَّك لا تدري متى أنتَ نازِعُ
وأَبْغِضْ إذا أبغضت بُغْضاً مقارِباً     فإنك لا تَدْرِي متى أنت راجِعُ

وهذان البيتان يكادان يُمَثّلان أيضاً طبع أبي الأسود، ويُفَسِّران لك ما عرضتُ قبلُ من تَشيُّعه، وكذا شأن حياة الرجل الذي يَقْعد به عَوَزُه عن أن يتبيَّن طريقَه في الحياة، إمّا يميناً وإما يساراً، ويكون أعجزَ ما يكون عن أن يبدو صاحبَ رَأْيٍ وكلمة[1].

* * *

ومنهم: **عبد الله بن الزُّبِير الأسديّ (٦٩٥ م - ٧٥ هـ).**

هذا شاعر مَدح فأكثر، وهجا فأكثر، ولا نكاد نَرى له شِعراً في غير هذين.

غَضِب من عبد الرحمن ابن أُم الحكم، وكان يَلِي الكوفة، ولّاه إياها خالُه معاوية، فجَنح إلى يزيدَ بن معاوية، ويَبرُّه يزيد ويُحرِّكه لهجاء عبد الرحمن، لأنه

---

(١) الأغاني.

كـان يُبغضه، فيستجيب لهـا عبدُ الله، ويقـول يهجو عبـد الرحمن، ومن قبلهـا كان يَعيش في كَنَفه:

فـإن قُلْتُ خـالي من قُـرَيْشٍ فلم أجِـدْ　　من النـاس شـرًّا مـن أبيـك والامَـا

وكان أبو عبد الرحمن هو عبد الله بن عُثمان بن عبد الله بن ربيعـة بن الحارث الثقفيّ. ولم يَنْسَ عبدُ الله بن الزبيـر كراهيتَـه لعبد الرحمن ابن أم الحكم، فإذا هـو يَشمت به لمّا يُعْزَل عن الكوفة ويُولّاها عبيد الله بن زياد فيقول:

أَبْـلِغْ عُـبَـيْـد الله عـنِّـي فـإنــنـي　　رَميتُ ابـن عَـوذ إذ بَـدت مـقـاتِـلُهْ

ويَقْدُم ابن الزبير على عمرو بن عثمـان، ويراه عمـرو في حال رثَّـة، فيستدين ليبره فيقول ابن الزبير يمدحه:

سـأشْكُـر عمـراً إن تـراخت مَنِيَّتي　　أيـادِيَ لـم تُـمْـنَـنَ وإنْ هِـيَ جَلَّتِ

وكم نال ابنُ الزُّبير من أسماء بن خارجة، وكم مَدحه ابنُ الزُّبير على هذا البرّ وأسرف، يمدحه مرةً فيقول:

تَـراه إذا مـا جِئْـتَـه مُـتـهـلِّلاً　　كـأنـك تُعـطيـه الـذي أنتَ نـائِلُهْ

ولـو لم يكـن في كَـفِّـه غيـرُ رُوحـه　　لـجـاد بـهـا فَـلْيَـتَّـق الله سـائِـلُهْ

ويُثيبه أسماء ثواباً لم يَرْضَه ابنُ الـزُّبير، فـإذا هو يَنقلب هـاجياً مُفْحِشـاً غايـة الإفحاش، ويقول له:

بَـنت لـكمُ هِـنـدٌ بـتـلذيـع بَـظْرِهَـا　　دكـاكينَ من جصٍّ عليهـا المجـالسِ

فـوالله لَـولا رَهـز هِـنـد بـبَـظْرِهـا　　لعُـدَّ أبـوهـا في الـلّئـام العـوابِسِ

وما أَظُن الرجال الذين أحسنوا إلى آبن الزبيـر أحسنوا إليـه عن إيمان بـل عن خَوف من أن ينالهم مثلُ ما نال أسماء.

وما أعناني بعد هذا أن أذكرَ من مدح ولا من هجا، فهذا نَهج ابنِ الزُّبيـر إن مدح وإن هجا، لا يبغي من وراء هذه أو تلك إلا أن يكون كاسِباً، وحسبك في هذا مـا كـان بينـه وبين مُصعب بن الـزُّبيـر، فـابن الـزُّبيـر أُمـويّ وهـواه مـع بني أُمية، ومُصعب بن الزبير هو وأخوه عبد الله حَزبـا على بني مروان، وحين وَقـع ابنُ الزُّبيـر

أسيراً في يد مُصعب، حين غلب مصعب على الكوفة، ما لبث أن انصرف ابن الزُّبير عن هواه الأموي وعاش في كنف مُصعب يَمدحه، ويُبقي على هذا إلى أن مات مصعب، وإذا ابن الزُّبير يرى مكانَ مُصعب على الكوفة مروانيًّا هو بشر بن مروان، فخَفّ إليه يمدحه ويقول:

ألم تَرَني والحمد لله أنَّني  بَرِئْتُ وداواني بمعروفه بِشْرُ

هكذا كانت الحياة بين يَدي ابن الزُّبير يراها مَغنماً، وهو حريص على ألا يفوته منه شيء، وإن خَسِر في سبيل هذا ضميره[1].

* * *

ومنهم: **ابنُ قيس الرَّقيَّات (٦٩٥ م - ٧٥ هـ).**

هذا شاعر جُلَّ شِعره في الغزل والنَّسِيب، وشيء منه قليلٌ في الفَخر، وما بعد هذا وذاك فهو للمدح، وهذا ما يعنيني هنا.

لقد عُرف ابن قيس بصُدوفه عن بني مروان وجُنوحه إلى مناوئهم، عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب، وحين نقرأ لابن قيس الرقيّات قدْحاً في هذا أو ذاك، وكان ما قاله ابن قَيس الرقيّات في مَدح مصعب يُرْبِي على ما قاله في مدح أخيه عبد الله، لأنّ صُحبته لمصعب كانت صُحبةً ملازمة، فلقد شاركه في مواقفه ضدَّ عبد الملك ابن مروان، وعلى حين مدح عبد الله بن الزبير بقصيدتين مدح أخاه مصعباً بسِتّ، يقول في إحدى قصيدتيه في عبد الله:

أنتَ ابنُ مُعْتَلِجِ البِطَا  ح كُدَيِّها فكَدَائِها

المعتلج: المتراكب، وكديّ وكداء: موضعان.

ويقول في الأخرى:

أنا مِن أجْلِكُمْ هَجَرْتُ بَنِي زَيْـ  ـدٍ ومِنْ أجلكم أُحِبُّ أبَانَا

أبان: جبل.

* * *

(١) الأغاني - طبقات ابن سلام.

ويقول في مَدح مُصعب:

لَمُصْعَبُ عِنـد جِـدِّ القَـوْ ... لِ أكثرُها وأَطْيَبُها

ويقول:

نَفَيْتَ بِنَصْـر الله عَنهم عَـدوَّهُـمْ ... فأَصْبَحْتَ تَحْمِي حَوْضَهُمْ بِرِمَاحِكَا

ويقول:

يَلْبِس الجيش بالجُيوش ويَسْقِي ... لَبَن البُخْتِ في عِسَاسِ الخَلَنْجِ

البخت: الإبل الخراسانية، والعِساس: القداح الضخمة، والخلنج: شجر تتخذ منه القداح. وحين قُتل مُصعب لم يَكُفّ آبنُ قيس عن رثائه:

يقول:

أتـاك بِيَاسِرَ النَّبأُ الجَلِيلُ ... فَلَيْلُك إذ أتاك به طَوِيلُ

ويقول:

إنّ الرَّزِيَّةَ يوم مَسْـ ... ـكَنَ والمُصيبة والفَجِيعَهْ

يابْنَ الحَوارِيّ الَّذي ... لم يَعْدُهُ أهلُ الوَقِيعَهْ

ابن الحواري: كُنية مصعب.

ويقول:

لَقد أورث المِصْرَيْنِ خِزْياً وذِلَّةً ... قَتِيلٌ بدَيْرِ الجَاثِلِين مُقِيمُ

الجاثلين: الموضع الذي عنده قُتل مصعب.

وما إن قُتل مصعب، وكان آبن قَيس يرجو الأمن والرّغد في جواره، آنهار آبن قَيس وأسرع يَرجو الأمان من عبد الملك، وما كان ابن قَيس بمستطيع أن يحصل على هذا وحدَه فأخذ يَستعين بمن لهم عِند عبد الملك جاهٌ. فقصد قَصْدَ عبد الله بن جعفر لهذه، وأخذ يمدحه، وكان ممّا مدحه به:

أَتيناك نُثْنِي بالذي أنتَ أهلهُ ... عَليك كما أَثْنى على الرَّوض جارُهَا

ولم يُخَيِّب ابنُ جعفر رجاء ابن قيس فيه، فسعى إلى عبد الملك وآسترضاه، فرضي. وهنا يَبْدُو الشطر الثاني من مَديح ابن قيس الرقيات.

فَمدح عبد الملك فقال:

إنَّ الفَنِيقَ الذي أَبُوه أَبُو الْـ ... ـعَاصِي عليه الوَقَارُ والحُجُبُ

ويمدح عبد العزيز بن مروان فيقول:

خَلِيفَةٌ يُقْتَدى بِسُنَّتِه ... في إرْثِ مَجْدِ الثَّرَاءِ والكَرَمِ

ويمدح بشر بن مروان فيقول:

أَلحِقِينِي بِلَادَ بِشْرٍ خَلَاكِ الذمُّ إذ خُلِّيَتْ إليه السَّبِيلُ

ويَمدحه مرة أُخرى فيقول:

يا بِشْرُ يابْنَ الجَعْفَرِيّة ما ... خَلَقَ الإلهُ يَدَيْكَ للبُخْلِ

ولم يمدح ابن قيس بني مروان وحدَهم، بل عداهم إلى مُشايعيهم، وكان من هؤلاء المُشايعين طلحة الطلحات، فقال ابن قيس يمدحه:

إنَّما كان طَلحة الخَيْرِ بَجْراً ... شُقَّ للمُعْتَفين منه بُحُورَ

وحين يموت طلحة يرثيه ابن قيس فيقول:

نَضَّر الله أَعْظُماً دَفَنُوها ... بِسِجِسْتان طَلْحةِ الطَّلَحَاتِ

ولم يَجتزىء ابنُ قيس بهذا الذي قال في رجال بني مروان وأنصارهم، بل التفت إلى بني مروان جُمْلَةً. فأخذ يمدحهم، ومن هذا قوله:

لو كان حَوْلِي بنو أُمية لم ... يَنْطِقْ رجالٌ أراهُمُ نَطَقُوا

إنْ جلسوا لم تَضِقْ مجالِسُهم ... أو رَكِبُوا ضاق عنهمُ الأُفقُ

تُرى هل مدح ابن قيس في الأولى عن آختيار، وفي الثانية عن آضطرار، أم كان في الحالَيْن يطلُب الحياةَ ويَفْزَع إن حُرِمها؟

أكاد أرجِّح الثانية، فلقد كان يَكفي بني مروان أن يُمْسِك عنهم لِسَانَه.

وسواء أكانت هذه أم تلك، فليس لِمثل هذا يَعيش الشاعر، لا أرى له فيما حوله، الرّجاء مرة والحَذَر أخرى، وما كان صاحبُ الرأي لِيَرْجُوا أو يَحْذر[1].

* * *

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ طبقات ابن سلام ـ الموشح ـ ديوانه.

ومنهم: **أبو صخر الهذلي (٧٠٠ م ـ ٨٠ هـ).**

هذا شاعر كان أُمويّ الهوَى منذ وُجد، ومن أجلها منعه ابنُ الزبير عطاءَه حين غَلب على الحجاز، وزاد ابنُ الزُّبير فسجنه، وبقي في سجنه سنةً إلى أن استوهبته بَنو هُذيل، وتمضي الأيام فإذا آبنُ الزُّبير مقتول في الحرب التي كانت بينه وبين الحجاج، أيامَ عبد الملك بنِ مروان، وكان هذا سنة ثلاث وسبعين (٧٣ هـ)، أي قبل وفاة أبي صخر بأعوام سبعة، وكما كان أبو صخر أُمويّ الهوى غدا مَروانيّ الهوى، وليست الثانية إلا آمتداداً للأُولى.

تلك كانت الحياة التي أظلت أبا صخر يَخُطُّ سُطورَها هوى للأمويين، والمروانيين من بعدهم، وكُرْهٌ لخصومهم وعلى رأسهم ابنُ الزُّبير، الذي منعه عطاءه عهدَه كُلّه ثم سجنه.

فتعالوا: نستعرض شعر أبي صخر لنعرف صَدَى هذا كله فيه:

لا أدري هل هذا الذي جمعه السُّكريّ لأبي صخر من شعر في شرحه لأشعار الهذليين يَستوعب شعرَ أبي صخر كلَّه أم لا، وأكاد أقول لا، إذ ثمة أبيات حائية في شرح الحماسة يشملها ما جمع السُّكَّريّ، هذا إلى أن أبا الفرج الأصبهاني يقول في كتابه الأغاني: وله ـ أي لأبي صخر ـ في عبد الملك بن مروان مدائح، وفي أخيه عبد العزيز، والذي ذكره السُّكريّ من تلك المدائح قصيدة يتيمة واحدة أنشدها أبو صخر بين يدي عبد الملك في حَجّة عام الجماعة، بعد أن فرغ من حَرب آبن الزُّبير، ووصف فيها أبو صخر ما فعلته جيوشُ عبد الملك بجيوش آبن الزبير، ثم إنه ليس فيما جمع السُّكريّ شيءُ في مدح عبد العزيز، أخي عبد الملك، والذي ذكره السُّكريّ قصيدة يتيمة في مدح سعيد بن عبد الملك، صرح فيها أبو صخر بآسم سعيد على حين لم يصرِّح في قصيدته لعبد الملك بآسمه بل ذكره بلقبه، فقال:

وقَدْ أبرَ المُؤمنين الذي رَمَى ... بِجَأْوَاءَ جُمْهور تَمُور إكامُها

وحين مدح سعيداً صرَّح باسمه فقال:

سعيد الخَير إنّا قد ضَحِنّا    له نُصْحاً ووُدًّا لن يَبِيدَا

والذي مدحه أبو صخر فأكثر وأطال هو أبو خالد، عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أَسِيد، فيقول مرة:

إلى سِرَاجٍ وبَدْرٍ يُستضاء به    بالحِلم والمال والمَعروف عَوَّادِ

ويقول له أخرى:

لعبد العزيز المَضْرَحِيّ الذي له    من الخَالديِّين الذُّرَى والذَّوَائِبُ

ويُحب عبد العزيز أن يَرى ما سوف يرثيه به أبو صخر ويطلب هذا إليه، ويستجيب أبو صخر ويقول:

فإن تُمْسِ رَمْساً بالرَّصافة ثاوياً    فما مات يابنَ العِيصِ أيّامُك الزُّهْرُ

ألا ترى معي هنا قَبل أن أُكمِّل الحديثَ عن أبي صخر أنّ مثل هذه لا تكون إلّا من مأجور، وفرق بين هذه وبين رثائه ابنه حين يقول:

تَعَزَّيْتُ عن ذِكْرِ الصِّبَى والحَبَائِبِ    وأَصبحت عِزْهَى للصِّبَى كالمُجَانِبِ

وبعد هذا فما أكثر من شبّب بهن أبو صخر، شبّب بهند وعُلَيّة وسُليمى ولَيلى وأُم حكيم.

هذا هو شِعر أبي صخر يكاد ما جُمع منه يَدُلّ على ما فُقِد، والذي فُقد ليس غيرَ مدح فيَ عبد الملك، ثم مدح في أخيه عبد العزيز، وما أظن أنه ثَمّة شِعر في غير هذه الأغراض لأبي صخر.

شبّب فأكثر، وما أظن مَن شَبّب بهن لهن وجود.

ومدح ويكاد يكون مدحه يدل على أنه لم يكن عن هَوًى حقًّا بل كان لكسب، وهذا الرِّثاء لممدوحه عبد العزيز الذي ذكرته له يؤكد لك هذا.

وعرَّض أبو صخر بابن الزبير في قصيدته بين يدي عبد الملك، ولكنه تعريض الخائف من أن تكون للأيام رَجعة.

وبعد فأين صَدَى تلك الحياة الصاخبة التي سَبقت سِنيه الأخيرة؟

وإذا كان أبو صخر أَلجمه الخوفُ أَوّلاً عن أن يقول، فما باله سكت عن هذا

حين ملك الاطمئنان، ولم يشر إلى هذا بقليل أو كثير.

وشيء أخير أحب أن أذكره لأبي صخر قبل أن أُنهي الحديث عنه، فلقد رَجع إلى الوراء أيام الجاهليّة حين كان الإسراف في وصف الفرس الذي حمله، أو الناقة التي أَعملها، وما تكاد قصيدة له تخلو من تقديم مُسْهَب مُمِلّ[1].

* * *

ومنهم: **الأُقَيْشِر الأسديّ** (٧٠٠ م - ٨٠ هـ).

شاعر لمثله تُطْوَى الصفحاتُ ولا تُنْشَر، فلقد عاش لمُجونه وآستهتاره وتهتُّكه من شُبِّه إلى دُبِّه، ولقد كنت على أن أَمُرَّ عليه مرًّا، أُعقله ولا أذكره، لكنّا في حاجة إلى أن نعرف أصحاب تلك المواهب المُعَطَّلة بقدر ما نحن في حاجة إلى معرفة أصحاب المواهب المُسْتَثمرة، نَعرف الأولِين لِنَرْثي لتلك المَلكات التي أَهدرها أصحابها في مَلاَذّهم ولم يُفيدوا الوجود حولَهم غير أنَّني على ما فقده فيهم، ونعرف الثانين لنشكر لهم يداً أَسلفوها.

وما أُحِب بعد هذا أن أَعْرِض لشعر الأُقيشر في قَلِيل أو كثير، فليس فيه ما يستحقّ منّا لَفتة أو وَقفة[2].

* * *

ومنهم: **أَيْمَن بن خُرَيم** (٧٠٠م - ٨٠ هـ).

أسلم يوم الفتح، وكان عندها غلام يَفَعَة.

وتَمُرُّ الأَحداث مُنذ أن أسلم يومَ الفتح، وكان في السنة الثامنة (٨ هـ)، إلى أن كان مَقْتَلُ عثمان، رضي الله عنه. سنة خمس وثلاثين (٣٥ هـ)، وليس لأيمن فيها مشاركة، وإذا هو مع مقتل عثمان يَثُور غاضباً وتقرأ له قوله:

---

(١) الأغاني - شرح أشعار الهذليين.

(٢) الأغاني - الشعر والشعراء - معجم الشعراء للمرزباني.

إنَّ الــذيـن تَـوَلَّــوا قَـتْـلَه سَـفَـهــاً ... لَقُــوا أَثَـامــاً وخُـسْـرانــاً ومـا رَبِحُــوا

وقد تدلُّك هذه على أنه كان عُثمانيّ الهَوَى، وقد يكون غيـرُها، وأنـه كان لا يُسيغ أن يُقتل رجلٌ له ماضيه في الإسلام مثل عثمان.

وأكاد أُرجّح هذه الثانية، لأنه كان قبلُ موصولاً ببني هاشم، وله فيهم مدائح، فنقرأ له فيهم:

نَهَـارُكُم مكـابَــدةٌ وصَـوْمٌ ... ولَيْلُكُـمُ صَــلاةٌ وآقْتِــداءُ

إلى أن يقول:

أأجعلكم وأقـوامـاً سَــوَاءً ... وبَيْنَكُمُ وبَـيْـنـهـمُ الـهَــوَاءُ

وهُمْ أرضٌ لأَرْجلكم وأنتم ... لأَرؤُسُـهم وأَعْيُنهم سمــاءُ

وثَمّة ثانية تؤيّدها، وتؤيد أنه كان لا يُسيغ أن يَقتل مسلمٌ مُسلماً، فلقد قـال له عبدُ الملك يوماً:

إن أباك كان له صُحبة ولعمّك، فخُذ هـذا المال وآنـطلق فقاتـل آبن الزبيـر، فأَباها أيمن وإذا هو يقول لعبد الملك:

ولستُ بـقــاتــل رجــلاً يُصَـلِّي ... على سُلْطان آخَــرَ مِن قُــرَيْشِ

لــه سُــلطانــه وعــليَّ وِزْرِي ... مـعــاذَ الله مِـن سَفَــهٍ وطَـيْشِ

أأقـتُــل مُسـلِمــاً وأعيشُ حَـيًّــا ... فَليس بنـافِعي مـا عِشْتُ عَيْشِي

وإليـك ثالثـة تُزكّي مـا قلت وتدُلّـك على أن أيمن كان يُنكـر القتـل على أيّـة صــورة كــان، وأنـــه كــان يجنـــح إلى السّلم دَوْمــاً. تَثُــور بين عمـــرو بن سعيــد وعبد العزيز بن مروان مُنازعة جرَت إلى تقاتل بين أخوال هذا وأخوال ذاك، وكا كان أيمن موصولاً بعمـرو كذلـك كان مـوصولاً بعبـد العزيـز، فلم يَنْحَزْ إلى واحد منهما وآعتزلهما معاً، وإذا هو يقول:

أأقْتُــل في حِجــاجِ بين عَمْــرٍو ... وبين خَصيمــه عبـدِ الـعَـزِيــزِ

لَعَمْـر أبيـك مــا أُوتيتُ رُشْـدِي ... ولا وُفِّـقْتَ لـلحِــرْزِ الـحَــرِيــزِ

ولكن تُرى هل كان أيمن يُحب السّلم للسّلم، أم كان يَخشى المكروه على نفسه، وأنه كان رجل مغنم، يحرص على أن يناله سائغاً لا أذًى معه.

يكاد شعره يَنطق بهذه فأقرأ له:

إن لـلفِتـنـة ميـطا بـيِّـنـاً     فـرُوَيْـدَ المَيط منهـا يَـعْتَـدِلْ

الميط: الجور والميل.

فـإذا كـان عـطاء فَـأْتِـهِـمْ     وإذا كـان قِـتـال فـاعْـتَـزِلْ
إنـمـا يَسعـرهـا جُـهَّـالُـهـا     حَـطَب النار فَـدَعْها تَشْتَعِلْ

ترى إذا صح هذا أَبلغ أن يكون أيمن شاعراً ذا رِسالة؟

أكاد أقول إن أيمن لم يبلغ أن يكون صاحب رسالة فلقد عاش يَختلف إلى بني مروان يتخيّر منهم مَنْ رِفْده أكثر فيُؤْنسه ويُمتعه بمَدْحه إياه حتى إذا ما أحسّ منه انقباضاً عنه هجره إلى أخٍ له.

نزل بعبد العزيز بن مروان بمصر فآنسه وأمتعه.

ثم أحسّ أن عبد العزيز لم يعد له فهجره إلى أخيه بشر بن مروان بمصر، وأخذ يهجو عبد العزيز ويمدح بشراً فيقول:

رَكِبت من المُقَطَّم في جُمادى     إلى بِشر بن مروان البَرِيدَا

إلى أن يقول:

كأنَّ التاجَ تاجُ بني هِرَقْلٍ     جَلَوْه لأعظم الأيام عِيدَا
يُخالف لونُه ديباجَ بِشْرٍ     إذا الألوان خالفت الخُدُودَا

وهو في هذا البيت الأخير يُعَرِّض بوجه عبد العزيز، لأنه كان به نَمش.

وينفرد بعبد الملك، وكان عبد الملك عندها قد فترت فيه قُوته شيئاً وغدا أشْوق ما يكون إلى من يحدِّثه حديثَ النساء ليحرِّك فيه حيويّته، وكان أيمن آبنَ بَجْدتها فملأ أذني عبد الملك بفُتوته وفُحولته ووصف حاله مع النساء.

وأكاد أقول أن أيمن لم يمدح بني هاشم عن هاشميّة، ولا عثمان عن

عثمانية، ولا بني مروان عن مروانية، وإنما عن أَمْن يَنْشده، ورِزْقَ يَطلبه، ولهذين كان شِعْرُه[1].

* * *

ومنهم: **جَمِيل بن مَعْمر (٧٠١م - ٨٢ هـ).**

تكاد تكون صور العُشّاق من الشُّعراء عند العرب قديماً واحدة، فثَمّة عاشِق عَشق، وثَمّة مَعشوقة حَبسها أهلُها عن عاشقها، ثم غالَوْا فزوّجوها من غيره، وتَقضي الزوجةُ المَعشوقة أولاً فَيبْكيها العاشق، أو يقضي العاشق أولاً فتَبكيه المعشوقة، وفيما بين هذه وتلك شَقَاءٌ مُتَّصل للعاشقَيْن معاً.

وإنْ كُنَّا نُحلُّ للعاشق أن يُفْصِح عن عِشقه، ومَعشوقتُه لم يَضُمَّهما بيتُ الزَّوجية، فما أَحرصنا على أن نُحرِّم هذا الإفصاح عليه بعد أن تُصبح معشوقتُه زوجةً، هذا شَرع الحياة وقانُونها المُلْزِم والخروج عليه آنتهاك للحُرُمات. وإشاعةٌ للبَلْبلة، وتَقْويض لأَركان الحياة الزوجية، وإهدار للروابط، وطَمْسٌ للقِيَم.

وشِعْرٌ هذا نَهجه ومرماه يَجِب أن تُغَيَّب صفحاته، وتُطْوَى كلماته، حتى لا تكون منه أُسوةٌ لِمُؤْنَسٍ.

وجَميلٌ واحد من هؤلاء، أَحَبَّ بُثَينة صغيراً وهي صغيرة، فآستهوته بجمالها وآستهواها بكلماته المَعْسولة، فقُلنا هوًى مُباح شابه الإفْصاح، ويَضُم المَعْشوقَة إليه زَوْجُ، فتَثور ثائرةُ جميل، ويحسب أنّ بُثينة الزوجةَ هي بُثينة العَذراء، وإذا إفصاحه آفتضاح.

ولقد جازت الأولى لأنه كان ثمة أَمل لجميل أن يَمْلِك، ولم تَجُز الثانية لأن هذا الأمل في المِلْك لم يَعُدْ له وُجود، حين غَدت بُثينةُ في مِلْكِ غيره، وفي هذا آعتداء لا نُبِيحه لصاحب كلمة عابرة، فكيف بشاعر له القولُ السَّائر.

وأكاد أقول: إن شِعر جميل، ومِثل جَميل، ممن لهم مِثل حاله من الشُّعراء

---

(١) الأغاني - الشعر والشعراء - الكامل للمبرد - الإصابة - الاستيعاب.

خَليق به أن يُحجب حتى لا نغرس في النفوس الجُرْأة على ما لا يَحِلّ.

ولا يَعتذر مُعتذر بأنّ مثلَ هذه الصفحات تَقِفُنا على مَدى الوله في نُفوس العاشقين، وفي هذا مُتعة ما.

وأقول: ما أولانا بأن تكون المُتَع بريئة لا يشوبها آخْتِيان.

ومن أجل هذا ذكرتُ لك حياةَ جميل، ورأيي فيها، دون أن أَعرض عليك شيئاً من شعره، الذي جاء كُلّه في هذا الهَوى الباطل، وما فرغ جميلُ لشيء مِن حوله، وكأنّ الحياة هو وبُثينة ولا ثالثَ لهما[1].

* * *

ومنهم: **الحارثُ بن خالد المَخْزوميّ** (٧٠٥ م - ٨٥ هـ).

يصفه الرُّواة فيقولون: شاعر غَزِل، ويَزيدون فيقولون: إنه كان مُتَيَّماً بعائشة بنتِ طَلْحة.

وأُحِبُّك أنْ تعرف شيئاً عن عائشةَ بنتِ طلحة.
فأُمُّها أُم كُلْثُوم بنت أبي بكر الصِّديق.
وخالتها عائشةُ أُم المُؤمنين.

عاقبها يوماً زوجُها مُصعب بن الزُّبير على أنها لا تَسْتُر وَجهها، فقالت له: إن الله قد وَسَمني بِميسَم جَمَالٍ أحببتُ أن يراه الناس، فما كُنت لأَسْتُرَه.

وقُتِل مُصعب عنها فتزوّجها عُمر بن عبيد الله التَّيْميّ، ومات عنها سنة اثنتين وثمانين (٨٢ هـ). فتأَيَّمت بعده.

ولمّا مات عُمر بن عبيد الله التيميّ عن عائشة قِيل للحارث بن خالد: ما يَمنعك الآن منها؟

---

(١) الأغاني - الشعر والشعراء - الديوان.

قــال: لا، فيتحـدّث والله رجــالٌ من قُـريش أنَّ نَسِيبي بهــا كــان لشيءٍ من الباطل.

وكما كان للحـارث بن خالـد فيها غَـزَل كذلـك كان لِعُمـر بن أبي ربيعة فيهـا غَزَل.

ويبدو أن هذا كان دَأْبَ شُعراء الغزل الخَمسة القرشيِّين: الحارث، وعمـر بن أبي ربيعة، والعَرْجيّ، وأبو دُهْبل، وعبيد الله بن قيس الرُّقيّات.

فلقد رأينا الحارث، وهو واحد منهم، يشبّب بعائشة وهي زوجة، وكما شَبّب بعائشة شَبَّب بأُم بكر، وبليلى بنت أبي مُرة، ولم تكن كُلُّ واحدة منهما غيرَ زوجة لِزَوْج.

وعلمنا أنَّ الشاعر الغَزِل يُفْتَن بواحدة فِتنة حقّة، ويخْلص لها غَزله، أمّا أن تكون هذه هي حالُ الشِّعر الغزليّ فهذا ما لا نعلمه، وأولى به أن يُسَمَّى آسماً آخر غير هذا.

ومن هنا كان شِعر الحارث شِعْراً صِناعياً، شِعْرَ رجـل آستهواه جمـالُ آمرأة لا تَحِلّ له، فشهَّر بها، وظَنَّ هذا التشهير تَشْبِيباً يُذْكَرُ له.

وأُحِبّك أن تعلم أن الحارث هذا ولّاه يزيد بن معاويـة إمارة مكـة، وحين ظهر عبدُ الله بن الزُّبير يُعلنها حرباً على يزيد، آستتر الحارثُ خـوفاً، وحين قـرَّت الأُمور ومَلك عبد الملك بن مروان الزِّمام قَصده خالد طَمَعاً في رِفْده، فلمْ يُلْقَ منه تَرحيباً، فعاد إلى مكة وعاش أيّامه قابِعاً قانعاً إلى أن مات.

وما رأيناه خرج عن أَسْرِ هذا الغَزل البـاطل إلى غـزل حقٍّ، أو إلى شيء آخر غير الغَزل لا يَثور حوله الشبهات، وما أولاه لهذه بأن ينضمّ إلى ما ذُكر قبله، وهو جميل، فما قُلته هناك عن جميـل أقولـه هنا، عن الحـارث، فالعِشق الحقُّ أقـلُّ ما يُوصف به أن تُصان به المعشـوقة عن أن تَلُوكهـا الأَلْسُن، أمّا مِثـل هذا الـذي نَقرأه للحارث وجَميل وأَضْرابهما، فهو من عِشق الشاعـر لِنَفسه، يُـريد أن يَـدُلَّنا بـه على

الوَلَه كما يَراه ويُصوِّره له خيالُه، ثم على قُدرته على تصوير هذا شِعْراً، وما قَصد للعِشق الحق، ولكنه عِشْق الذات أمْلى، وما كانت تِلك المعشوقة التي وقعت له إلا المِسَعار الذي حَرَّك فيه عِشْقَه لذاته[1].

* * *

## ومنهم: عِمْران بن حِطَّان (٧٠٣م - ٨٤ هـ).

أراني لا أجد كلمةً أبدأ بها الحديث عن عِمران غير كلمة الأَخطل فيه، حين جمعه والشُّعَراء عبدُ الملك بنُ مروان يوماً، ثم بَدأ عبدُ الملك فسألهم: أَبَقِيَ أحدٌ أشعرُ منكم؟ قالوا: لا، فقال الأخطل: كَذبوا يا أمير المؤمنين، قد بقي مَن هو أشعرُ منهم، قال: ومن هو؟ قال: عِمْران بن حِطّان، قال: وكيف عمران أشعر منهم؟ قال: لأنه قال وهو صادقٌ ففاقهم. فكيف لو كَذب كما يَكْذِبون.

لا يَعنيني هنا أنّ عمران كان يَذهب إلى غير ما ذهب إليه الجماعة رأياً ومُعتقداً، ولكن يعنيني صِدْقُه في رأيه ومُعتقده، فأَدْنَى ما للرائي أجرٌ إن لم يُصب، أمّا إن أصاب فله أجران.

وتكاد تلمس التزام هذا الشاعر بالصِّدق التزاماً لا حَيدة عنه في قولِه للفرزدق وقد مَرّ به، وهو ينشد والناس حوله:

أيُّها المادِحُ العِبَادَ لِيُعْطَى ... إنّ لله ما بأَيْدِي العِبَادِ
فاْسأل الله ما طَلَبْتَ إليهم ... وآرْجُ فَضْلَ المُقَسِّم العَوَّادِ
لا تَقُلْ في الجَواد ما ليس فيه ... وتُسَمِّي البَخِيلَ بآسم الجَوَادِ

وانظر معي ماذا كان جواب الفرزدق لِتعرف فزع الشعراء من قول الصدق: فلقد كان جواب الفرزدق: لولا أن الله عزّ وجلّ شَغل هذا برأيه لَلَقِينا منه شَرًّا.

والفَرزدق يَلْفِتنا هنا إلى شيء آخر عن عِمران بن حطّان أُحب أن أُحيطك به

---

(١) الأغاني.

عِلْماً: فعِمران كان من الخوارج الذين خرجوا على علي بن أبي طالب حين قَبِل التَّحكيم، وكان مِن قبلها مُحَدِّثاً يُؤخذ عنه الحديث.

ولقد كلفه هذا الخُروج كثيراً من تَشْريد وآضطهاد، وعاشَ يتنقَّل في أحياء العرب مُتَنَكِّراً، فإذا ما انكشف أمره عند قوم تَركهم إلى غيرهم.

وقد طلبه الحجّاجُ فلم يَقْدِر عليه، وكذا طَلبه عبدُ الملك فلم يَقدر، وعاش لَا يفتأ داعياً لمُعتقده، لا يَكِلُّ ولا يَفتر، يرى رَأْيَه الحق، وما عداه باطلاً، تُحس هذا في قوله من قصيدة له:

حتَّى مَتى لا نَرى عَدْلاً نَعِيشُ به     ولا نرى لِدُعاة الحق أعوانا

ولقد مَدح مَن آووه لا يَبخل عليهم بهذا المدح الصادق، من ذلك قولُه في قوم من الأزد نزل بهم:

نَزلتُ بحمد الله في خَير أُسْوَةٍ     أُسَرّ بما فيهم من الإنْس والخَفَرْ
فنحن بنو الإسلام والله ربُّنا     وأَولى عباد الله بالله مَن شَكَرْ

كما لم يَسكت عن المُلاحقين له، مِن هذا قوله للحجّاج، وكان يُلِحّ في طلبه:

أَسَدٌ عليّ وفي الحُروب نَعامَة     وَيْداه تَجْفُل مِن صَفير الصافِرِ
هلّا بَرزْت إلى غَزالة في الوَغى     بَلْ كان قَلْبك في جَنَاحَيْ طائِرِ

وغزالة، هي آمرأة شَبيب بن يزيد الحَرُوريّ، ويضرب بها المثل في الشجاعة، وكانت قد خرجت مع زوجها على عبد الملك سنة ست وسبعين (٧٦ هـ)، أيام ولاية الحجاج للعراق، ولم تَصْمُد جُيوش الحجاج لجُيوشها، وآثر الحجاج الفِرار أمامها.

وعاش عِمران عُمْرَهُ مُنافِحاً بِلسانه عما يَعتقد لا تُنَهْنِهه الأحداثُ وإن جَلّت، ولا يعرف الكذبُ إلى لسانه طريقاً، ومن الطريف أن آمرأته قالت له يوماً ما: ألم تَزْعم أنك لا تكذب في شِعرك؟ قال: بلى. قالت: أفرأيت قولك:

وكـذاك مـجـزأة بـن ثَـو رٍ كـان أشْجَـعَ مـن أُسـامـهْ

أيكـون رجلٌ أشجـعَ من الأسد؟ قـال: نعم، إن مجزأة بن ثـور فَتح مـدينـة، والأسد لا يَقدر عَلى فتح مدينة.

يعني مـدينَة تُسْتـر، وكان مجـزأة قد احتـال لتمكين قائـد الجيش أبي موسى الأشعري من آقتحام أسوارها بعد أن ضَحّى مَجزأة بنفسه.

هذا هو عمران بن حِطّان عاش لرسالة نافح عنها بلسانه، لأنه كان أضعفَ من أن يَشْرع سِنَانَه، وما أظنُّه ذاق الراحة يوماً، وكان بِوُسعه أن يَذُوقها رَغدة، لو كـذب مع الكاذبين، ونافَق مع المنافقين.

ولا يعني هذا أنِّي أمتدح الخُـروج والخوارج، ولكني أَمتـدح الصُّمود للرأي، ما دام هذا الرأي هو ما يؤمن به صاحبُه إيماناً لا يشوبه غَرض[1].

* * *

ومنهم: **الحَزِين الدِّيلي (٧٠٩ م - ٩٠ هـ).**

هذا شاعر مَلك لساناً مُفصحاً، ولم يملك ضميراً صالحاً.

وُلِدَ مُعْدِماً فجعل لسـانه وسيلَتـه لكَسب قُوتـه، وإذا هو بهـذا اللسان الـلاذع يَفْـرِض على كل قُـرشيّ دِرهمين مع مَـطلع كل شهـر، ثم إذا هو يمـدح على النَّزْر يُعطاه، ويهجو على النَّزْر يُمنعه، وكان إلى هذا السَّفه لا يُرَى إلا مَخموراً، ما يـأخذه بيمينه يعطيه للخمَّار بشماله، وإذا كساه كاسٍ كُسوة خرج منها ليشرب بِثَمنها.

يَستعير الحزينُ يوماً حماراً من شَيخ من شُيوخ المدينـة، فيركبـه إلى حانـوت فيشـرب حتى يَغيب عن وَعْيه، ثم يمتـطي الحمار وهـو لا يملك مَقاده، فمضى بـه الحمـار يقوده، وإذا هـو يقف به على بـاب المسجـد كمـا اعتـاد، ويمسـك الـوالي بالحزين والحمار معَه إلى أن يظهر صاحبه، وهنا نَستمع للحزين يقول:

---

(١) الأغاني - الكامل للمبرد - شعر الخوارج.

أيَا أهْلَ المدينة خَبِّروني ... بأيّ جَريرةٍ حُبِسَ الحِمَارُ
فما للعَيْر من جُرْمٍ إليكم ... وما بالعَيْر إن ظُلِم آنتصارُ

ويُضرب الحَزِينُ الحَدَّ، فينطلق لسانُه يهجو القائمَ بأعمال المدينة صفوان ويُفحش، يقول:

نَشَدْتُك بالرُّكن الذي طِيف حولَه ... وزَمزم والبَيت الحَرام المُحَجَّبِ
لِزَانِيَةٍ صَفْوانُ أم لِعَفِيفَةٍ ... لأعْلَم ما آتِي وما أتَجَنَّبُ

ويَمُرُّ الحزين على نَفر من بني كعب بن خُزاعة، وهو يتخبَّط سُكراً، فيُثِير ضَحكهم، فيلتفت إليهم يقول:

لا بارك الله في كَعْب ومَجلسهم ... ماذا يُجَمِّع من لؤمٍ ومن ضَرَعِ
لا يدرسون كتابَ الله بَينهم ... ولا يَصومون من حِرْصٍ على الشِّبَعِ

ويخرج الحزينُ مع آبنٍ لسُهيل بن عبد الرحمن إلى مُتنزَّه لهم، ويُسرف الحزين في الشراب، ويَمضي عنه رفيقُه، ويبيت الحزين في الطريق، فيَسلُبه سالبُ ثِيَابَه، ويُرسل الحزينُ إلى رفيقه بالأمس أن يُعوِّضه عما سُلِب، فلا يفعل. ويبلغ الخبرُ سفيان بن عاصم فيُسعفه بما أراد، فيقول الحزين:

هلاَّ سُهَيلاً أشبهت أو بَعض أعْـ ... ـمامِكَ يا ذا الخلائق الشَّكِسَهْ
ضَيَّعْتَ نَدْمَانَك الكَرِيمَ ولم ... تُشْفِقْ عليه من ليلةٍ نَحِسَهْ
لكنَّ سُفيان لم يَكُنْ وَكِلاً ... لمّا أتَتْنَا صِلاَتُه سَلِسَهْ

ويَصحب الحزينُ رجلاً فلا يجد عنده ما يُرضيه فيقول يهجوه:

صَحِبْتُك عاماً بعد سَعْدِ بنِ نَوْفَلٍ ... وعَمْرٍو فما أشبهت سَعْداً ولا عَمْراً

ويدخل الحزينُ على عَمرو بن عمرو بن الزُّبير فيمدحه طامعاً في عطاء، فلا يجده عمرو أهلاً للعطاء لشتمه أعراض الناس وهتكه حريمهم، فينقلب الحزين هاجياً في ساعتها ويقول:

ولو أنِّي عرفتُ بأنَّ عَمْراً ... حَلِيفُ اللُّؤم ما ضَيَّعْت شِعْرِي

ولم يَكُفَّ عن هجائه فقال:

لعمرك ما عَمْرو بنُ عمرو بماجِدٍ ولكنَّه كَزُّ اليدَيْن بَخِيلُ

ويَنزل الحزينُ بعاصم بن عمرو فلا يجد منه ما يُرضيه من ثريّ، فيقول يهجوه:

سِيرُوا فقد جَنَّ الظلامُ عليكمُ فأنت الذي يَرجو القِرَى عند عاصِمِ
وما لِيَ من ذَنْب إليه علمتُه سِوى أنني قد جِئتُه غيرَ صائمِ

والحزين لم يَمدح عَبد الله بن عبد الملك بن مروان إلا لأنه لم تُقبض له يَدٌ عن عطاء، فكان للحزين فيه هذا المدح السائر:

في كَفّه خَيْزران رِيحُها عَبِق مِنْ كَفِّ أَرْوَع في عِرْنينه شَمَمُ
يُغْضِي حيَاءً ويُغْضَى من مَهابته فما يُكَلَّم إلا حين يَبْتَسِمُ

هذا هو الحزين كما قلت لك قبل، اتخذ لسانه وسيلَته لكَسب حياته، وليتها كانت حياة يُرْجَى فيها خير، بل كانت حياة كُلّها شر، هجاء لإخافة الناس حتى يُعْطُوا، ومَدْح لحثّ الناس على أن يُعطوا، ولا ثالثَ لهما[1].

* * *

ومنهم: مِسْكين الدَّاميّ (٧٠٩ م - ٩٠ هـ).

أكاد أذكر، وأنا أبدأ الحديث عن مسكين، الكلمة، المأثورة: لَعن الله الحاجة كم أَذَلَّت، ولقد أيقظ هذا في نفسي قول مسكين، وما كان هذا آسمه قبل هذا القول:

أنا مِسكينٌ لِمَنْ أَنْكرني ولمن يَعْرِفُني، جِدُّ نُطُقْ
لا أَبيع الناسَ عِرْضي إنّني لو أَبيع الناسَ عِرْضي لَنَفَقْ

ولقد باع مسكين عِرْضه للناس غير مُريد، لأن الحاجة أَجبرته، والحاجة

(١) الأغاني.

آبتلاء، من الناس مَن يَنحني أمامها، ومنهم من يظلُّ مُنْتَصِبَ القامة.

والعِرْض هو كل ما يَحرص الإنسان عليه من أن يُبتذل ويُمتهن، فإن تَفعل غيرَ ما يَرضاه ضميرُك فهو من التفريط في العرض، وكذا أن تقول غير ما تعتقد، هو أيضاً من إهدار العرض، ويبدو أن شاعرنا كان يَذهب بعيداً في حُرِّية الفَرد قولاً ورأياً وفِعْلاً.

أما قولاً فهو من لم يجد حَرَجاً في أن يَحيا مُنافحاً عن معاوية وابنه يزيد، ومن قبلهما عن زياد، لأن رِزقه كان على أيديهم.

فلقد أرعاه زياد حِمًى له بناحية العُذيب في عامِ قَحط، فشَكرها له إلى ما بعد مماته، وحين مات زياد قال مِسكين يرثيه:

رأيتُ زيادة الإسلام ولَّت جِهاراً حين وَدَّعنا زِيادُ

ولم يَرض هذه منه الفرزدق وكان منحرفاً عن زياد، فقال يُعارضه:

أمِسْكين أَبْكَى الله عَيْنَك إنّما جَرَى في ضَلال دَمْعها فتحدَّرَا
بكيتَ على عِلْجٍ يمَيْسان كافِرٍ ككسرى على عُدَّائِه أو كَقَيْصَرَا

عدائه: عهده وزمانه.

وحين أبى معاوية أن يَقْرض لمسكين خرج عنه وهو يقول:

أخاك أخاك إنّ من لا أخا له كساع إلى الهَيْجا بِغَيْر سِلَاحِ

ويعود معاوية فيقرض له، وتأتي البيعة لابنه يزيد، فيَمْثل مسكين بين يديه ويُنشده:

إليك أميرَ المُؤمنين رَحَلْتُها تُثِير القَطا ليلاً وهُنَّ هُجُودُ
إذا المِنبر الغَربي خَلَّى مكانه فإن أمير المؤمنين يَزِيدُ

هذا عن مَذهبه في الحرية قَوْلاً، وأما عن مذهبه فيها رأياً. فهاك قوله:

ألا أيّها الغائر المُسْتَشِطّ فيمَ تُغار إذا لم تغرْ
فما خيرُ عِرس إذا خِفتها وما خَير عِرس إذا لم تُزَرْ
تَغار على الناس أن يَنْظُروا وهل يَفتن الصالِحاتِ النَّظَرْ

وإني سأُخلي لها بيتَها ... فَتَحفظ لي نَفْسها أو تَذَرْ
إذا الله لم يُعطني حُبَّها ... فلن يُعْطِيَ الحُبَّ سَوْطٌ مُمِر

ممر: مفتول.

وأما عن فِعله ومآثره فَهاكَ قوله:

نارِي ونارُ الجار واحدةٌ ... وإليه قَبلي تُنْزَلُ القِدَرْ

فهو لا يَشك في أنه يفعلها، ولكن استمع معي لامرأته وقد مرَّت به وهو بين قوم يُنشدهم هذا، فلم تملك أن صاحت به تقول:

صدقت والله، يجلس جارك فيَطبخ قِدره فتَصطلي نارَه، ثم يُنزلها فيجلس يأكل وأنت بحذائه كالكلب، فإذا شَبع أطعمك.

وترى مِسكيناً يكاد يُبَرِّر الهنات وهذا حين يقول:

وإذا الفاحش لاقَى فاحِشاً ... فهُناكُمْ وافَق الشِّنُّ الطَّبَقْ
إنما الفُحش ومَن يَعتاده ... كغُراب السُّوء ما شاء نَعَقْ
أو كغَيْرَى رَقَعتْ من ذَيْلها ... ثم أَرْخَتْه ضِراراً فامَّزَقْ
أيها السائلُ عمّا قد مَضى ... هَلْ جَدِيدٌ مثْل مَلْبوس خَلَقْ

تُرى بعد هذا قال مِسكين ما كان يَجب أن يقوله، أم أن الحاجة هَصَرَتْه فطوَّعته كما تشاء[1].

* * *

ومنهم: **الرَّاعي عُبَيد بن حُصَيْن (٧٠٩ م - ٩٠ هـ).**

هذا شاعر تُجمع المراجع على أنه كان بَذِيًّا، أي مُفْحِشاً في منطقه، هجَّاء لعشيرته، وأنه ما لُقِّب بالراعي إلا لجُوْدة وَصْفه للإبل.

والمراجعُ التي تذكر لنا هذا لم تَذكر له شيئاً من وَصفه للإبل، ولا شيئاً له من هجائه لِقومه.

(١) الأغاني - الشعر والشعراء - معجم الأدباء - خزانة الأدب للبغدادي.

وما أغنانا عن الأولى، فهذه قُدرة ذاتية تؤهِّل الشاعر لأن يكون فَحْلاً، وما نُناقش هنا الراعي على فُحولته، ولكنّنا نُناقشه على رِسالته، لذا كان حِرْصُنا على أن نَقع على الثانية لنعرف للراعي رَأْيَه في أقرب الناس إليه وحُكْمَه عليهم.

ولقد جَرَّ الراعي هذا البَرمُ الأول بقومه إلى بَرَمٍ ثانٍ بالشُّعراء مِن حوله، وكان أعْرَفَهم إليه ثلاثة، هم: جرير، والفرزدق، والأخطل، الذين شَغلهم التنافسُ بينهم على نَيْل بعضهم من بعض، فعاشُوا حياتهم لهذا الصِّراع الرَّخِيص.

وإذا الراعي يُقحم نفسه في هذه الحرب الدائرة، فيُفَضِّل الفرزدقَ على جرير، فيتحوَّل جريرٌ إلى هجائه وعبثاً حاول الراعي أن يَصْمُد لجرير، فلم يَلْبث أن كَنَع.

ويَنزل الراعي بِبَني سَعد بن زَيد مناة بن تَميم، فَتَقع عيناه على آمرأة كان بينه وبينها وُدٌّ قَدِيم، فلا يذكر للجِوار حَقَّه، وإذا هو يقول فيها:

تذكَّر هذا القلبُ هِنْدَ بَنِي سَعْدِ سَفَاهاً وَجَهْلاً ما تذكَّر من هِنْدِ

وبلغ بني سعد هذا القولُ من الراعي الذي أُهدر به حُرمه، فيُزْعِجونه، فيخرج عنهم هاجياً ويقول:

فأُمِّي دارَ قومك إنّ سَعْداً تحمَّلت المَخازِيَ عن تَمِيمِ

هذا بَرَمٌ جَرَّه بَرَمٌ وبَرَم، لا يستطيعَ من وقع في أَسْره أن يملك لسانَه.

وكأنّ بَرَمَ الراعي الأول بقومه أُذكاه بَرَمُه بالحياة من حوله، وهو لا يزال في شبابه الأول، حين رأى خليفة من خلفاء المسلمين، له قَدْرَه وشأنه، يُقْتَحم عليه بَيْتُه، ويُقْتل شَرَّ قتْلِه، وما فَعل ما يستحقّ عليه اللَّوم فما بال القتل، ولقد أَلِمت لهذا النفوسُ الحُرَّة التي لا هوى لها هنا أو هناك، وكان الراعي الفَتى من هؤلاء، تُحِسّ هذا في قوله:

قَتَلُوا ابنَ عَفّان الخَلِيفَةَ محرماً ودعا فلم أَرَ مِثْلَهُ مَغْلُولاَ
فتفرَّقت من بعد ذاك عَصَاهُمْ شُقَقاً وأَصبح سَيفهم مَفْلُولا

وفي قوله:

ألا قُلْ لِقَوْمٍ شارِبي كَأس عَلْقَمٍ ... بِقَتْل إمَام بالمدينة مُحْرِمِ

قَتلتُمْ أمينَ الله في غَيْرِ ردَّةٍ ... ولا حَدٍّ إحصان ولا قَتْل مُسْلِمِ

وما إن تَعْلُو بالرَّاعي السنُّ حتى يَهدأ فيه ذلك البَرَم، وتَسْكُن تلك الثورة، فيَنتجع الأمراء والملوك يَمدحهم ويرجو نَدَاهم.

فقصد أولَ ما قصد بِشْرَ بن مَروان، وكان أميراً لأخيه عبد الملك سنةَ أربع وسبعين (٧٤ هـ)، فيمدحه ويقول:

فلو كنتُ من أصحاب مَروان إذ دَعَا ... بِعَذْرَاءَ يَمَّمْتُ الهُدى إذ بدا لِيا

ولكنني غُيِّبتْ عنهم فلم يُطَعْ ... رَشِيدٌ ولم تَعْص العشيرةُ غاوِيَا

عذراء: قرية بغوطة دمشق.

يُشير إلى موقعة مَرْج راهط التي كانت بين مروان بن الحكم والضحاك بن قيس النهري، وكان الضحاك يدعو لعبد الله بن الزُّبير.

ثم إذا الراعي يتحوّل إلى عبد الملك يَخُصّه بمدحه بعد موت بِشر سنة خمس وسبعين (٧٥ هـ)، فيمدحه ويقول:

إنِّي حَلَفْتُ على يَمينٍ بَرَّةٍ ... لا أكْذِبُ اليومَ الخليفةَ قِيلاَ

هذا هو الراعي بدأ ضائقاً بالوجود من حوله، فخَلق منه هذا الضيق شاعراً هجَّاءً حيناً، وناعِياً حيناً آخر، ثم إذا هو يُرَاح مع الكِبَر فيكون هذا الشاعر المدّاح المُجتدي الذي قال عنه جابر، ابنُ ابنه جندل: ما زال يخطب الدراهم حتى أتت قومَه.

تُرى هل كانت الحياة ترجو من الراعي أبعدَ من هذا؟

اللهم نعم، وكان هذا الضيق كفيلاً بأن يخلُق منه هادياً لا هجاء، كما فعل في مَوقفه من مَقتل عثمان، ولكنها كانت بادرةً ما أهلَّت حتى غابت[1].

* * *

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ طبقات ابن سلام ـ الكامل للمبرد.

### ومنهم: عُمر بن أبي ربيعة (٧١٢ م - ٩٣ هـ).

هـذا شاعـر حَسبك عنـه ما يقـول ابن قُتَيبة فيـه: وكان عُمـر فاسقـاً، يتعرض للنساء الحواجّ في الطوف وغيره، ويُشَبِّب بهن، فسيَّره عمرُ بن عبد العزيز حين كان أميـراً على المدينـة. إلى دَهْلك، وهي جزيـرة في بحـر اليمن، كـان بنـو أميـة إذا سَخِطوا على أحد نَفَوْه إليها.

وما أَشبه عمر عندي بمن رَزقه الله ثراءً واسعاً فأَنفقه في ملاذّه ومُتَعه، وإذا ما ولّى قال الناس عنه: كان بيننا أغنى القوم وأرذلهم.

لقد آستهوى الجمالُ عُمَرَ أنّى كـان، فخرج بـه عن وَعْيه، فـإذا هو ذو لِسـان ناطق، ليس من ورائه عقـل ضابط، فهـو بين يَدي وجْـدَانه كـالصخرة الصغيـرة في مسيل ماء متدفق، لا تملك من أمرها شيئاً.

ساير عُمَرُ مرةً عـروةَ بن الزبيـر، وإذا هو يسـأله عن آبنـه محمد، ويقـول له: وأين زَيْن الكواكب؟ وكان يُسَمَّى بذلك لجماله، فيقول له عروة: هو أمامك.

وما إن سَمع هذه من عروة حتى آستيقظ فيه وجدانه وغاب عنه عقلُه، وإذا هو يترك عُروة ويركُض يطلُب آبنَه محمداً.

ويُحس عـروة ما أصـاب عُمَـرَ من خَبَـل جـرَّه إلى استخفـاف بمن يُحـادثـه، فيقول: يا أبا الخطّاب، أولسنـا أكفاء كِرَاماً لِمُحادثتك ومُسايرتك.

عندها يستخذي عمر، ولكنّه ما أفاق من غَمرتـه، حتى أخذ يكشف عن ذات نفسه، فيقول: بلى بـأبي أنت وأمي، ولكني مُغْرًى بهـذا الجمال أَتبعـه حيث كان، ثم آلتفت إلى عروة وقال:

إنِّـي آمـرؤٌ بـالـحُـسْـن أَتـبـعــه    لا حَظَّ لـي فـيـه إلا لـذَّة الـنَّـظَرِ

ولم يَغضب عروةُ لِما كان من عمر، ولمثلها يَخْرُج الحليمُ عن حِلمـه، ولكن عُروة وغير عروة كانوا يَعْرفون عن عُمر ما أفصح عمر عنه، وهو أنه لا مَطمع لـه غير النظر.

وقد تكفي النظرةُ عُمَرَ فَيَقنع ويُفْرِغ فيها مكنون وجدانه، وقد تمتدّ النظرةُ إلى نظرات، وقد تدوم، ويفسر هذا لنا غرامَه المتجدِّد بِتجدُّد مَن يقع عليها نَظَرُه، فما كان أسرعه عاشقاً، ثم ما كان أسرعه ناسياً، ولا تجد له عِشْقاً امتدّ إلا عِشْقه للثريّا، فلقد عاش عُمَرُ يعشقها إلى أن خرجت من دُنياه.

حجّ أبو الأسود الدُّؤلي ومعه آمرأته، وكانت جميلةً، ويراها عمر وهي تَطوف، فثارت فيه عاطفتُه، وأُنْسِيَ أنه في مَقام لا تَحِلُّ فيه النظرةُ المُرِيبة، فإذا هو يعرض لها، وتَعرف آمرأة أبي الأسود أنه عُمَر، فتُخبر زوجها بما كان، فيأتيه أبو الأسود فيُعاتبه، ويُنكر عُمَرُ ما فَعل، وحين تعود امرأة أبي الأسود إلى المسجد يعود عُمر فيكلِّمها، فتُخبر بها زَوْجَها، ويَسعى أبو الأسود إلى عمر يعاتبه، ويَعِدُه عُمر ألّا يفعل، ولكنَّه لم يَرْعوِ، إلى أن خرجت وخرج معها زوجُها أبو الأسود مُشتملاً سيفه، عندها ثاب عُمَرُ إلى عقله، ولم يَعرض لها بعدُ.

ويَخرج عُمر إلى العقيق ومعه الغَريض المغنِّي، وإذا هما يجتمعان بِنِسْوة من قريش، ويكون حديثٌ ثم آنصراف. فيقول عمر:

وقُمْنَ وقُلْن لو انّ النَّها ... رَ مُدَّ له الليلُ فآستأخرا
قَضينا به بعضَ أشجاننا ... وكان الحديثُ به أجْدَرَا

ويُبصر عُمَرُ مُنْصَرفه من المُزدلفة إلى مِنى آمرأةً آستهوتْه بجَمالها، وحاول أن يُجاذبها الحديثَ فلم يُفْلِح، وكان اسمها النَّوَّار، فيَنطلق لسانُه مُنَفِّثاً:

عَلِقَ النَّوَارَ فؤاده جهلاَ ... وصَبَا فلم تَتْرُك له عَقْلاَ

ويقع نظر عمر على آمرأة في الحج يُقال لها: أم الحَكَم، فإذا هو صبٌّ بها ويقول:

تأوَّب لَيْلِي بنَصْبٍ وهَمْ ... وعاودَتُ ذِكْرِي لأمّ الحَكَمْ

ويَجتمع نساءٌ من أهل المدينة من أهل الشرف فيتشوَّقن إليه يُحدثهن، وتَكْفُل لهن ذلك سُكينة بنت الحُسين عليها السلام، ويجلس إليهن عُمر يحدِّثهن وقتاً من الليل ثم ينصرف، وفي قلبه ما فيه لسُكينة فيقول:

أَسُكَيْنَ ما ماءُ الفُراتِ وطِيبُه ... مِنِّي على ظَمَإٍ وَفَقْدِ شَرَابِ
بأَلَذَّ منكِ وإن نَأَيْتِ وقَلَّما ... تَرعى النِّساءَ أمانةَ الغُيَّابِ

وتَحُجُّ أُم محمد بنت مروان بن الحكم، ويكون بينها وبين عُمر لقاء وحديث بريء، أرادت بهما أُمُّ محمد أن تَستمتع بأدبه، ولكن عمر يَراه هَوًى فيقول:

لَيْت ذا الدهر كان حَتْماً علينا ... كُلَّ يومين حَجةً واعتمارا

ويَمُرّ عمرُ بعد أن أسنّ وضَعُف بعَجوز جالسةٍ، فيلتفت إلى مولاه ويقول له: هذه فلانة وكانت إلفاً، ومال إليها وجعل يُحادثها ثم قال: هذه التي أقول فيها:

أبصرتُها ليلةً ونِسْوَتَها ... يَمْشِين بين المَقام والحَجَرِ
قالت لِترْبٍ لها تُلاطفها ... لنُفْسِدَنّ الطواف في عُمَرِ
قُومِي تصدَّي له لِيَعْرِفَنا ... ثم آغْمِزيه يا أُخْتَ في خَفَرِ

ويَحتال نسوةٌ أربعُ، بينهن هِند بنت الحارث المُرِّية في دعوته إلى مجلس لهن، فإذا عمر يخفُّ إليهن ويأنس بالحديث إليهن ساعة، ثم يَودعهن منصرفاً وهو يقول:

ألم تَسأل الأَطْلال والمُتَربَّعا ... بِبطن حليّات دَوارس بَلْقَعَا
لِهِنْدٍ وأَتْراب لِهِند إذا الهَوى ... جميعٌ وإذ لم نَخْشَ أن يتصدَّعا

وتقع عينُ عمر على عائشة بنت طلحة بن عُبيد الله، وكانت من أجمل أهل دَهرها، وهي تُريد الرُّكن أن تَستلمه، فإذا هو تَثور فيه ثائرةُ المُتعة، ولا يملك أمره، وتحس هذا منه عائشة، وتدرك أنه لا بد قائل ومفحش، فترسل إليه جاريتها تنشده الله وإن كان ولا بد قائلاً فلا يقل هجراً، ولكن هيْهات، فهذا رجل مغلوب على أمره، مسترسل في أوهامه، ويقول ما يشبع غريزته، ويمليه خياله، فإذا هو يبدو قد فعل، وهو لم يفعل شيئاً وهذه أبياته عن عائشة تفصح لك عن هذا:

لعائشة ابنةِ التَّيْميّ عِندي ... حِمًى في القَلب لا يُرعى حِمَاهَا

أَظَلُّ إذا أُكلمها كأنِّي أكلِّم حَيَّةً غلبت رُقَاهَا
تَبيت إليّ بَعد النَّوم تَسْرِي وقد أمسيتُ لا أخشى سُرَاهَا

ويَهوى عُمر كَلثم بنت سعد المَخزومية، ويُرسل إليها المرة بعد المرة، فلا تَستجيب له، ثم يفلح في أن يَدُسْ عليها مَن يحمل لها كتاباً منه، فيه:

مِن عاشقٍ صَبّ يُسِرُّ الهَوى قد شَفَّه الوجدُ إلى كَلْثَمِ

وتُخدع كلثم بمَعسول كلماته، وإذا هما تجمعهما خَلوة، وإذا هو بعد أن قَضى لبانته يُحاول أن يتركها، غير أنها تشبَّثت به فتزوّجها، وغَدت أُمَّ آبنيه.

وثمّة قِصّة له مع فاطمة بنت عبد الملك، فيها أن فاطمة احتالت لتأتي به إلى مضربها، لا لشيء إلا لتُؤَنِّبه على فَضح الحرائر، وهذا حين يقول:

قالت وعَيشِ أخي ونِعْمة والدِي لأُنَبِّهن الحيَّ إن لم تَخْرُجِ
فخرجتُ خوفَ يَمِينها فتبسَّمت فعَلِمْتُ أن يمينَها لم تُحْرِجِ
فَلَثَمْتُ فاهاً آخذاً بقُرونها شُرْبَ النَّزِيف بِبَرْدِ ماء الحَشْرِجِ

وحين يقول:

وناهدة الثَّديَّين قُلْتُ لها اتَّكِي على الرَّمْل من جبَّانة لم تُوَسَّدِ
فلما دنا الإصباح قالت فَضَحتني فقُم غير مَطرود وإن شئت فازْدَدِ

وما كان يَعرفها ثم إذا ما عرفها، وكانت قد استهوته، قال:

وذكرتُ فاطمةَ التي عُلِّقتها عَرَضاً فيا لحوادث الدَّهْرِ

ويَرى عمر، وهو يطوف، لُبابة بنت عبد الله بن العباس، آمرأة الوليد بن عُتبة بن أبي سفيان، فيُجَنَّ بجمالها، وما هو حين يُجن بمُستطيع أن يُمسك لسانه، فإذا هو يقول:

ودِّع لُبابة قبل أن تترحَّلا وآسأل فإنّ قلالَه أن تَسألاَ

ويَلقى عُمَرُ في الحجّ رَملة بنت عبد الله بن خلف الخُزاعيّة، وما أن تقع العينُ على العين حتى يقول فيها:

أصبـح القـلبُ في الـحِبـال رَهـينـا     مُـقْـصَـداً يـوم فـارق الـظاعـنِـيـنـا

ولعـلّ أكثر من آستهـوت عُمَـرَ من النسـاء: الثـريّـا بنت علي بن عبـد الله بن الحارث بن أمية الأصغر، عابَ على قومها تزويجَهم إياها من نهل، فقال:

أيّهـا المُـنْـكِـح الـثـريّـا سُـهَـيْـلاً     عـمـرك الله كـيـف يَـلْـتـقـيـانِ

هـي شـاميّـة إذا مـا اسـتـقـلّت     وسُـهَـيْـلٌ إذا اسـتـقـلّ يـمـانـي

ثم يَبلغـه أن زوجها خَـرج بها ليـرحلا، فيقف ينـظُر إليهمـا وهمـا يـرحـلان، ويقول:

يـا صـاحبيّ قِفَـا نستنـجـد الـطَّلَلا     عن حـالِ من حلّه بـالأمس مـا فَعـلا

ثم يتشوّق إليها فيكتب لها:

كـتـبـتُ إلـيـك مـن بَـلَـدِي     كـتـابَ مُـوَلَّـه كَـمِـدِ

ولا يهدأ فيكتب إليها:

مَـن رَسُـولـي إلـى الـثـريّـا فـإنّـي     ضِـقْـتُ ذَرْعـاً بـهَـجـرهـا والـكِتَـابِ

هذا هو عُمر بن أبي ربيعة، مـا مِن امرأة على حظٍّ من جمـال رآها أو حـدِّثها إلا غدا بها مُتيَّماً مولَّها، وأرسل فيها لسانه يقول كما شاء له القولُ.

ولقد أَسرفت المراجع فحـاكت حولـه قِصَصاً صـورت لنا البيئةَ العربيّـة على صور لا تتَّفق وما نعرفه عنها من حِفاظٍ.

ثم أَنستطيع أن نَعُدّ هذا عِشقاً؟ أكاد أعُدّه فِسْقاً زيَّفه هذا اللسانُ.

نَحن أجـذب ما نكـون إلى حديث العِشق الحق البـريء، فهو لَون من ألوان الوفاء، وما أحبَّ الوفاء إلى نفوسنا.

وبعـد فقـد جـاء عُمـر إلى الحيـاة، وخَـرج من تلك الحيـاة، وهـو الشـاعـر المَوْهوب، وما تَرك لنا غيرَ مُجُونٍ وعَبث وفُحش، ما أولانا، إلاّ نُلِمَّ به، فمـا إخالـه صَدر عن يقظة عقل، بل عن غفلة عَقل(١).

* * *

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ وفيات الأعيان ـ ديوانه.

### ومنهم: الأخطل غِيَاث بن غَوْث (٧١٣م - ٩٥ هـ).

هذا شاعر عاش لثلاثة، قال فيها فأكثر، وما جاء من قول في غيرها فهو ناقلة لا يكاد يُؤْبَه لَه.

وقف نفسه على أبواب الأُمويين خُلفاءَ وأُمراء وأتباعاً يمدحهم لِيَضْمن له حياة طيبة، وجاءت مدائحه فيهم تُمَثِّل الثلث الأكبر من ديوانه.

ولم ينسَ قومه من تغلب فلم يَغْفَل عن ذكر مآثرهم، يعتزّ بهم وينال ممّن عاداهم.

وشاعت الأيام أن تجمعه بشاعرين لهما شأنهما، هما جرير، والفرزدق، وكلهم يتزاحمون على مَورد واحد مُزاحمة أطلقت ألسنتهم في هِجاء بعضهم البعض.

وكان ما فَخر به الأخطل يعدل ما هجا به كَمًّا، وجاء كل منهما يمثِّل ثُلُثاً أصغر.

يمدح خالد بن عبد الله بن أَسِيد بن أبي العِيص بن أُمية، وكان جواداً:

إلى آبن أَسِيدٍ خالد أَرْقلتْ بنا ... مَسانِيفُ تَعْرَوْرِي فلاةً تَقَوَّلُ

الإرقال: ضرب من العدو. والمسانيف: التي آسترخت حبالها من الإعياء. وتعروري فلاة: تركبها. ويَمدح عبد الملك بن مَروان فيقول:

إليك أميرَ المؤمنين رَحَلْتُها ... على الطائر المَيمون والمَنزل الرَّحْبِ

ويمدح بِشْر بن مروان فيقول:

إذا أتيتَ أبا مَروان تَسألُه ... وجدتَه حاضِراً لِلجُود والحسبِ

ويقول فيه:

جَزى الله بِشْراً عن قَذُوف بِنَفسه ... على الهول ما تَنْفكّ تُرْمَى مَقاتِلُهْ

ويقول فيه:

إنّي دعاني إلى بِشْرٍ فواضلُهُ ... والخيرُ قد عَلِم الأقوامُ مُتَّبعُ

ويقول فيه:

إليكم أبا مروان يَمَّمَ أرْكُبٌ ... أَتَوْكَ بأنضاء خِفَافٍ لُحومُهَا

ويمدح الحجاج بن يوسف فيقول:

فَعليك بالحجّاج لا تَعْدِلْ به ... أحداً إذا نزلتْ عليك أُمُورُ

ويمدح عبد الله بن معاوية:

لأحبِّرَنْ لابن الخليفة مِدْحةً ... ولأَقْذفنّ بها إلى الأمصارِ

ويمدح يزيد بن معاوية فيقول:

أبا خالد دافعتَ عنّي عظيمةً ... وأدركت لَحمي قبلَ أن يتبدَّدَا

ويقول فيه:

أمّا يَزيدُ فإنّي لستُ ناسِيه ... حتّى يُغَيِّبني في الرَّمْسِ مَلْحُودُ

وقال يمدح عبد الملك بن مروان ويهجو قيساً وبني كليب:

بَنِي أُمَيَّة إنِّي ناصحٌ لكُمُ ... فلا يَبيتَنّ فيكم آمناً زُفَرُ

زفر، هو ابن الحارث بن كلاب.

وقد نُصِرْتَ أميرَ المؤمنين بنا ... لمّا أتاك بِبَطْنِ الغُوطَةِ الخَبَرُ

ويمدح مَصقلة بن هُبيرة الشيباني فيقول:

دَعِ المُغمَّرَ لا تسأل بمَصْرَعِهِ ... واسأل بمَصْقلةَ البَكْرِيّ ما فَعَلاَ

المُغمَّر، هو القَعقاع الهذليّ.

وقال يمدح عِكرمة بن رِبْعيّ الفياض:

إنّ ابن رِبْعِيٍّ كَفاني سَيْبُه ... ضِغْنَ العَدُوّ ونَبْوة البُخَّالِ

ويقول فيه:

وهَلْ مِن فَتًى من وائلٍ قد علمتُمُ ... كَعِكْرِمة الفيَّاض عِنْدَ عُرَى الأَمْرِ

وقال يمدح عبدَ الله ويزيد، ابني معاوية:

أنتم تداركتُمونِي بعد ما زَلِقَتْ ... نَعْلِي وأخرج عن أنيابه الأَسدُ

وقال يمدح عبّاد بن زياد:

وما أرض عبَّاد إذا ما هَبَطْتها ... بحَزْنٍ ولا أعطانُها بجَدُوبِ

الأعطان: المنازل.

وقال يمدح الوليد بن عبد الملك:

إن الــولــيــد أمـيَــن الله أنـقــذنــي وكــان حِصْنــاً إلى منجــاتــه هَــرَبِي

ويقول فيه:

فَــمــن يَــكُ مــن أوائــله مُــخِــتًّــا فــإنّــك يــا ولــيــد بــهــم فَــخُــورُ

المخت: الساكت الحيي.

ويقول فيه:

إنَّ آبنَ مــروان أَسْقــانِي على ظَمــإٍ بِسَجْــلٍ لا عــاتِمٍ رَيْثــاً ولا خَــذِمِ

السجل: الدلو الكبير. والعاتم: البطيء بالعشاء. والخذم: القاطع.

وقال يمدح سِماك بن مَخرمة الأسديّ:

إنّ سِــمــاكــاً بَنى مَجْــداً لأُسْــرتــه حتّى الممــات وفِعْــلُ الخيــر مُبْتَــدَرُ

وقال يمدح سَلْمَ بن زياد:

وأنــت يــا بن زيــادٍ عــنــدنــا حَــسَــنٌ منــك البــلاءُ وأنت النــاصــحُ الشَّفِقُ

وقال يمدح عُمر، وأبا بكر، آبني عبد العزيز بن مروان:

إلــيــك سِــرْنَــا أبــا بَكْــرٍ رواحلَنَــا نَــروح ثُــمَّــتَ نَــسْــرِي ثــم نَــبْــتَــكِــرُ

فَــرْعــان مــا منهــمــا إلا أَخُــو ثِقَــةٍ مــا دام في النّــاس حيٌّ والفَتَى عُمَــرُ

وقال يمدح عُبيد الله بن زياد:

أَبْلِغْ أمــيــرَ الــمؤمــنــيــن رِســالــةً جَــزَاءً بِــنُــعْــمَــى قــبــلهــا ووَسِــيــلِ

بــأنّ عُــبَــيــد الله سيــفُــك فَلْيَكُــنْ أخــاً وَخَــلِيــلاً دون كُــلّ خَــلِــيــلِ

وقال يمدح خالد بن عبد الله بن خالد بن أُسِيد:

لــم يَــبْــقَ مــمَّــن يَــتَّــقِــي الله خــالــيــاً ويُــطْــعِــمُ إلاَّ خــالــدُ بــن أَسِــيــدِ

هذا قليل من كثير من مدائح الأخطل في بني أمية مُلُوكاً وأُمراءَ وأتباعاً.

وكما مدح الأخطل بني أُمية فأكثر فَخر بقَومه فأكثر، وحسبك من هــذا الفخر بقومه قولُه:

إنّ الــسُّــيُــوفَ غُــدُوُّهــا ورَواحَــهــا تَــركت هــوازنَ مِثْــلَ قَــرْنِ الأَعضَبِ

ثم إليك الثُّلث الثالث من حياة الأخطل، وهو هذا الصِّراع الذي آحتدم بينه وبين فَحلَيْن من شُعراء عَصره، وهما جرير والفرزدق، والذي كانت ثمرته ذلك الهجاء الذي فاضَ به شِعْرُه، والذي شغل الناس أكثر مما شَغلهم مدحُه وفَخره، فالناس أكثر ما يكونون شُغُلاً بالشاعر هاجياً لا مادحاً ولا فاخراً، لأن الهجاء فيه كَشْفٌ عن مساوىء ومعايب، وما أشْغَف الناس بهما.

ويقول في هجاء جرير:

أبَنِي كُلَيْبٍ إنَّ عَمَّي اللَّذا  قَتَلاَ المُلوك وفَكَّكَا الأَغْلاَلاَ

كليب بن يربوع، رهط جرير.

ويقول له:

لقد جاريت يا بن أَبِي جَرير  عَزُوماً ليس يُنظرك المِطَالاَ

ويقول له:

بِمُعْرِضٍ أو مُعِيدٍ أو بَنِي الخَطَفَى  تَرْجُو جريرُ مُسَامَاتِي وأَخْطَارِي

ويقول له:

أَلْهَى جَرِيراً عن أبيه وأُمِّه  مكانٌ لشُبَّان الرِّجَالِ أَنِيقُ

ويقول له:

بَنِي الخَطَفى عُدُّوا أباً مِثْلَ دَارِمٍ  وإلاّ فهاتُوا مِنكُم مِثْلَ غالبِ

دارم: من أجداد الفرزدق. وغالب: أبوه.

وكما هجا الأخطل جريراً هجا غيره.

هذه هي حياة شاعر فحل، أرأيت معي كيف أهدرها في أمور كانت تكفي فيها القصيدةُ الواحدة، ولن أَغلو فأقول: البيت، ولكنه شاعر رَجَا الحياة الطَّيبة لنفسه فَسعى لها سَعْيَه لا يرجو غيرها، ولتكن تلك الموهبة الشِّعرية وسيلته إليها، وكان المدح هو همّه الأول في التمكين لنفسه، وما عداه من فَخر وهجاء هما لغرضين مُتَّصلين بهذا الغرض الأول، أولهما الفخر ليرفع من قدر نفسه شيئاً حتى لا يَبْدُو ذليلاً مع الطلب، والثاني وهو الهجاء، كان ليدفع عن طَرِيقه من زاحمه، فيقلبه

على ما يَنْشُد ويَبْغِي[1].

* * *

## ومنهم: عَدِيُّ بن الرِّقَاع (٧١٣ م - ٩٥ هـ).

وهـذا الشـاعـر وَقف حيـاتـه على بني أُميـة يَمـدحهم، وخـاصّـة الـوليـد بن عبـد الملك، وهو وإن زاحمـه غيرُه من شعـراء عصره، في هـذا الميدان، مـزاحمةً جَرَّت إلى التنافس، ثم إلى الهجـاء، غيرَ أنـه لم يَهبط إلى المسافهـة في المُهاجـاة كما هبط غيره، اللهم إلا ما كان بينـه وبين جريـر، حين جمعهما مجلسٌ للوليـد بن عبد الملك.

وكادت تثور بينهما مُلاحاة، وأَحسَّ عديٌّ أنه لا يقوى لهـا، فٱستجـار بالـوليد ليُجيره من جرير، فكفَّ الوليدُ جريراً عنه بعد أن أُوعده.

وعلى الرغم من خُصوصيّة عديّ بالوليد، فلا تذكر له المراجعُ غيرَ قصيدة في مدحه مطلعها:

عَــرف الـدِّيَــارَ تـوهُّمــاً فـٱعتــادهــا مِن بعــد مــا شَمِــلَ البِلَى أبــلادَهــا

الأبلاد: الآثار.

وما أظُن عديًّا لم يَقُل غيـرها، فلقـد كانت لـه دالّة على الـوليد، نَلْمسهـا في شَفاعته لعُبَيدة بن عبد الرحمن حين عَزلـه الوليـدُ عن الأُردن وآذاه، وأبى أن يستمع فيه لشفاعة شافع، أو أن يذكـره أحدٌ بخبـر، وكان عُبيـدةُ مُحْسِناً إلى عـديّ، وحين أتى عديًّا متوجِّهاً، رثَى عديٌّ له وقال:

فَمَــا عـزلــوك مَسْبُــوقــاً ولكن إلى الخيــرات سبَّــاقــاً جــوادَا

وتبلغ هذه الوليدَ، وكاد أن يُؤاخذ عديًّا عليها، ولكنه ما لَبِث أن لان وعَفا عن عُبيدة.

وما لِعَدِيٍّ لا يُدِلُّ على الوليد، وهو القائل في ابنه عمر:

---

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ الديوان.

وإذا نـظرتُ إلـى أمـيـري زادنـي ضَـنًّـا بـه نَـظري إلـى الأُمَـرَاءِ

وثمة واحدة تكاد تُسيء إلى عديّ، إذ تَـدُلّك على أن عَـدِيًّا يُمْلِي في مـدحه عن هَوًى لا عن رأي.

فلقد وقف يوماً رَوْحُ بنُ زِنْباع الجُذَامِيّ ليزيد بن معاوية، وهو أميـر المؤمنين، يحتج عليه ويقول:

يا أمير المؤمنين، ألْحِقْنا بإخـواننا من مَعـدّ، فإنـا معدّيُّـون، والله ما نحن من قَصَب الشام ولا من زَعانف اليمن.

فقال له يزيد: إن أجمع قومك على ذلك جعلناك حيث شئت.

وتبلغ هذه عَدِيًّا فيقول:

إنّـا رَضِينَـا وإنْ غـابت جَمـاعَـتُنـا مـا قـال سيّـدُنـا رَوْحُ بْنُ زِنْبـاعِ

وينتهي هذا إلى نائل بن قيس الجُذَاميّ فيَنهض إلى يزيد محتجاً على رَوح. مهدِّداً إياه، وإذا رَوْحٌ يرجع عن رأيه، وإذا عديٌّ هو الآخر يرجع عن مَـدحه ويُسَفِّـه رَوْحاً ويقول:

أَضَـلَالُ لَـيْـلٍ سـاقط أكـنـافُـه في النـاس أَعـذر أم ضـلالُ نَـهَـارِ
قَحـطان والـدُنـا الـذي نُـدْعَى لـه وأبـو خُـزيـمـة خِنْـدِفُ بـنُ نِـزَارِ
أَنَبِيـعُ والـدَنـا الـذي نُـدْعَى لَـهُ بـأَبِي مَعـاشـر غـائِـبٍ مُتَـوارِي
تـلك التِّـجـارة لا زكـاة مِـثْـلها ذَهَـبٌ يُـبـاع بـآنُـكٍ وإبَـارِ

الآنك: الرصاص. والإبار، جمع إبرة، وهي ما يخاط به.

ويُحِسّها يزيدُ قبلَ أن نُحِسَّها نحن، فيقول لعديّ دَهِشاً، غَيَّرت يا بن الرِّقاع. ألا ترى معي أن عديًّا كان ابنَ ساعته، يَميل مع كُلّ هَبّة رِيح.

يَثُور رَوْحٌ مُناضـلاً عن حَقٍّ يراه لـه ولقومـه، ومنهم عَدِيّ، فيَميـل له عـديّ، ويثور نائل ليَكُفَّ رَوْحاً عمّا نادى به، فيميل معه عديّ.

ومن قبل هذا فيما ذُكر قيل:

يغضب الوليد على عُبيدة أمير اليمن، فيغضب معه عديّ.

ويَفزع عُبيدة إلى عديّ، وكان إليه مُحسناً، بعد أن عزله الوليد عن اليمن، فينسى بإحسان عُبيدة إليه غضب الوليد عليه.

لهذا الإحسان وحده ناصرَ عديٌّ عُبيدة، ولقد كان الذي فعله الوليدُ بعُبيدة بعد عزله، من ضَرب وحَلْق وإقامته للناس، ما يُثِير أُمَّةً لا شاعراً، وما مثل الذي فعله الوليدُ بعُبيدة يُجيزه عُرف أو شرع أو قانون، فيرضاه له قومه ويرضاه معهم المناضلون عن الشعوب، أعني الشعراء، وما أُهين عُبيدة وحدَه وإنما أُهين معه شَعب بأسْره، ولو أن عَدِيًا فهم هذا لكان نضالُه عن عُبيدة وحدَه وإنما أُهين معه شَعب بأسْره، ولو أن عَدِيًّا فهم هذا لكان نضالُه عن عُبيدة لهذا لا لإحسان ناله منه.

على هذا الحال عَرف خلفاءُ بني أُمية عديًّا، وأنه شاعر يُشْتَرى، فأَجْزَلوا له العطاء، وأَغْضَوْا عن زلّاته حتى يَبْقى لهم، وبهذه ومثلها ضَمِن خلفاءُ بني أُمية الشُّعراءَ لهم[1].

* * *

**ومنهم: عبدُ الله بن الحجّاج (٧١٣ م ـ ٩٥ هـ).**

هذا شاعر تقول عنه المراجع إنه كان فاتكاً.

والمراجع تَعني أنه كان قاطعَ طريق.

ولا أَدري كيف اجتمع الاِثنان لرجل، ولكنّا مَرّ بنا مثلُها في العَصر الجاهليّ.

ولَسنا نُنكر أنّ الشِّعر كما يَجري على لسان الصَّالح يجري على لسان الطالح، فالشعر مَلَكة لفظيّة كما يَملكها هذا يَملكها ذاك، ولكنّه إن لم يَعْدُ اللّفظَ إلى الغرض الحق كان نَظْماً لا شِعراً.

فمَعنى كلمة الشعر، كما يُملي: الشعور بما حولك وآستجابتك لندائه،

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ معجم الشعراء للمرزباني.

تُعطي الوجود ليعطيك الوجود، وإذا أنت تَستمدّ سعادتك من سعادته وما أهنأها سعادة، ما لا أن يكون شعورُك لنفسك، تَسْلبه الوُجُودَ، فيشقى الوجود لِتَسعد أنت، وما أتْعسها سعادة.

والشِّعر، كما قلت، أسمى كلمةً أرضيّة، ومن الظُّلْم لتلك الكلمة، التي هي أسمى ما تكون أن نُضَمِّنها أدنى ما يكون.

من أجل هذا فإني أُقدِّم هنا عبد الله بن الحجاج ناظماً لا شاعراً، وإليك حياته لتُشاركني الحُكْم عليه. خرج عَمرو بنُ سعيد بن العاص على عبد الملك بن مروان، وكان لهذا الخُروج سببه، فلقد كان سعيد يَلِي مَكَّة والمدينة لمعاوية ثم لابنه يزيد، وحين طَلب مروانُ بنُ الحكم الخلافة وقف عمرٌو إلى جانبه يُناصره، وشكرها له مروانُ، فجَعل له ولايةَ العهد بعد آبنه عبد الملك، وحين آستُخلف عبد الملك رأى أن يَخلع عمراً من ولاية العهد، فكان هذا الخُروج، وإذا عبد الله يَنْضَمُّ إليه لا عن رأي، بل على أنه مُرتزق من الجنود المُرتزقة، ويَقتل عبدُ الملك عَمْراً في سنة (٧٠ هـ).

ويبدو في الأُفق خارج آخر، هو نَجدة بن عامر الحَرُورِيّ، وكان أن دعا نجدةُ لنفسه وتَسَمَّى باسم أمير المؤمنين، وكانت بينه وبين مُصعب بن الزبير حروب آنتهت بقتله.

ولقد آنطوى عبد الله بن الحجاج تحت لواء هذا الحروريّ، وما كان حَرُورياً، ولكنه خرج سنة (٦٩ هـ) يبغي الرِّزق حيث يرى.

ويبدو في الأُفق خارج على عبد الملك بن مروان، وهو عبد الله بن الزبير، فينضمّ إليه عبدُ الله بن الحجاج، وقد أُنْسِيَ ما كان منه من قبل: أنه كان محارباً لآل الزبير، ولكنّه الرزق حيث يكون يكون عبدُ الله بن الحجاج. ويُقتل عبدُ الله بن الزُّبير سنة (٧٣ هـ) ويُصبح الأمر لعبد الملك، وتَضِيق في وجه عبد الله بن الحجّاج السُّبُلُ ويَمضي يبحث عن خارجٍ آخر.

وأرْجِع بك إلى الوراء قليلاً لأعرض عليك جانباً من حياة عبد الله بن الحجّاج الأولى، كان كثير بن شهاب على ثغر الريّ ولّاه إياه المغيرة بن شعبة، إذ كان خليفة معاوية على الكوفة، وكان عبد الله بن الحجاج من رجال كثير بن شِهاب، ويُغير نفر على الديلم فينضم إليهم عبد الله بن الحجاج، وإذا هو يأخذ سَلَب رجُلٍ من الدَّيْلم ويَنتهي هذا إلى كثير بن شهاب فيَنتزع سَلَب الدَّيلمي من عبد الله بن الحجاج ليردَّه إلى صاحبه، ويأمر بضَرْب عبد الله بن الحجاج وحَبسه، فيقول في حبسه.

تُسائل سَلْمى عن أبيها صِحابَه ... وقد عَلِقَتْه من كَثِيرٍ حَبَائِلُ

ثم يَعفو عنه كَثِير. فإذا عبد الله يَهجوه ويقول:

سأترك ثَغْرَ الرَّيّ ما كُنْتَ والياً ... عليه لأَمْرٍ غالَني وشَجَاني

ولم يَنته الأمرُ بعبد الله إلى هذه بل تراه يَكْمُن لكثير بعد عزله عن الريّ وقُدومه الكوفة، وإذا هو يضربه بعَمُود حديد فيهتم أسنانَه، ويفخر بها ويقول:

مَنْ مُبْلِغٌ قَيْساً وخِنْدِفَ أَنَّني ... ضَرَبْتُ كَثِيراً مَضرب الظَّرِبَانِ

الظربان: دويبة منتنة.

ويقول:

مَنْ مُبْلِغٌ قَيْساً وخِنْدِفَ أنّني ... أدركتُ مَظلمتي من آبن شِهَابِ

ويثور لها قومُ كَثِير ويَرفعون الأمر إلى معاوية، فيَقْبِض على عبد الله بن الحجاج ويحبسه، وتَمضي الأيامُ وليس ثَمّة خارج، ولم يَبق أمام عبد الله بن الحجاج إلا أن يَقْصِد بابَ عبد الملك، وكان الأمرُ جِدَّ عَسِير، ولكن هذا المُرْتَزِق لم يعدم وسيلةً يَمْثُل بها بين يدي عبد الملك، وإذا هو ينشده:

أَبْلِغْ أميرَ المُؤمنين فإنني ... ممّا لقيتُ من الحوادث مُوجَعُ

ويكون بينه وبين عبد الملك حِوارٌ ينتهي بعَفْو عبد الملك عنه.

ويَألم الحجّاج لهذا العفو، ويَسأل عبد الملك أن يُوفده إليه ليقتله هو، ويَفزع عبدُ الله إلى عبد الملك يَستعيذ به ويقول:

فـإن كُنْتُ مـأكـولاً فكُن أنـت آكِلي وإن كنت مَذْبُوحـاً فكُن أنت ذابِحِي

ويَسمع هذا عبد الملك فلا يُجيب الحجاج إلى طلبه.

ألا تَرى معي بعد هذا أن عبد الله بن الحجاج لم يكن غيرَ شاعِر عـاش لنفسه لا للوُجود من حوله، ولكنه على هذا لم يُحَقِّق لنفسه مـا أراد، ولم يَجِد الـوُجودَ من حوله يَمُدّ له يداً، لأنه لم يَمْدُدْ للوجود يَداً تُعطي، بل مَدَّ إليه يداً تسْلب، وما أولاه لهذا كله بأن نسميه ناظماً لا شاعراً[1].

* * *

ومنهم: **أبو دَهبل الجُمَحيّ وَهب بنُ رَبيعة (٧١٤ م ـ ٩٦ هـ).**

هذا شاعرٌ رأيناه يفخر بقَوْمه فقُلنا: هـذا دَيْدَن الشعـراء، ومَن لم يَعْتَزّ بقـومه فلا عِزَّةَ له بنفسه، على أن لا يكون هذا الفخر عنْجِهِيَّة واستعلاء، وإنما يكون إذكاءً لما فيهم من خَير، بِتَعداد مآثرهم، ولقد جَمع فخر أبي دهبل بين هذا وذاك.

ففي الأول، أعني العنجهية والاستعلاء، يقول أبو دَهْبل:

أنـا ابـنُ الفُـروع الـكِـرام الـتـي هُـذَيـل لأبـيـاتِـهـا سـائـلَهْ

هُـمُ وَلَـدُونـي وأَشْـبَـهْـتـهـم كـمـا تُـشـبـه الـلـيـلةُ الـقـابِـلَهْ

وهُذيل: قوم أُمه، وأبوه من بني جُمح.

وفي الثاني يقول أبو دَهبل:

قـومي بنـو جُمَـح قـوم إذا آنحـدرت شَهبـاء تُبصـر في حـافـاتهـا الزَّغَفَـا

الشهباء: الكتيبة العظيمة، والزَّغف: الدُّروع.

ثم رأينـاه يمـدح، فتَسـاءلنـا: أعن إيمـان بفضـائـل المَمـدوح يمـدح، أم للاستجداء؟

فإذا نحن نَجده مع المُستجدين، يَجمع بين الشيء ونَقِيضه، يَحْدُوه النفعُ لا الرَّأْيُ، مَدح معاوية، ومـدح عبدَ الله بن الـزُّبير، وأنت تعلم مـا كان بين الاثنين من

---

(١) الأغاني ـ المحبر.

خِلاف، وكان مع الهاشميِّين حرباً على الأُمويين، ثم إذا هو أُمويّ يَنْشُد عطاء الأُمويِّين.

يُقتل الحسينُ بن عليّ، رضي الله عنه، فيَرْثيه، ويُعَرِّض بيزيد بن معاوية، فيقول:

نَبِيتُ سُكَارَى من أُميّة نُوَّماً     وبالطَّفْ قَتْلَى ما يَنام حَمِيمُها
وما أَفسد الإسلامَ إلاّ عِصابةٌ     تأمَّر فَرْكاها ودام نَعِيمُها
فصارت قَنَاةُ الدِّين في كَفِّ ظالمٍ     إذا آعْوَجَّ منها جانبٌ لا يُقِيمُها

ويَفِد بعدها على سُليمان بن عبد الملك يَطْلُب ما عنده، فيُجيبه سليمان ويقول له: ألستَ القائلَ:

فِتْنَة يُشعلها ورَّادُها     حَطَب النار فَدَعْها تَشْتَعِلْ
فإذا ما كان أَمْنٌ فَأْتِهم     وإذا ما كان خَوْفٌ فآعْتَزِلْ

ويُعَقِّب سليمان فيقول: أنت القائل هذا، ثم تَطلب ما عندنا.

ويَلْقَى ابن الأَزرق مُستجدياً، وكان ابن الأزرق بَرًّا به، فيجده قد شُغل عنه، وكان عندها والياً على اليمن، فيمضي إلى عمارة بن عَمرو، وكان والياً على حَضرموت، فيلقى عنده ما يُحب، فيقول أبو دَهبل يمدح عمارة ويهجو ابن الأزرق:

يا رُبَّ حَيٍّ بخَيْر ما حييت     حَيَّيت إنساناً عمارَهْ
أَعطى فأَسْنانا ولَمْ     يَكُ مِن عَطِيّته الصَّغارهْ

الصَّغارة: الصِّغر.

ومن العَطِيّة ما تُرى     جَذْماء ليس لها نَزارَهْ

الجذماء: المقطوعة والنزارة: القلة.

حَجَراً تقلّبه وهل     تُعْطِي على المدح الحِجَارَهْ

ومن قبل هذه مَدح أبو دَهبل ابنَ الأزرق فأغرق. يقول:

بأَمِي وأُمي غَيْرَ قول الباطل     الكاملُ ابنُ الكامل ابنُ الكامِلِ

جَمعُ الرِّياسة والسَّماح كليهما     جَمْعَ الحَفير قِداح نَبْل النابل

الحفير: جعبة السهام.

ثم لا يلبث أبو دَهبل أن يَرى من آبن الأزرق ما يسره، فيقول فيه، وكان قد لَقِيه بعد ما عُزل:

أُعطى أميراً ومَنْزوعاً وما نزعت     عنه المكارمُ تَغشاه وما نَزعَا

ويَقْدَم أبو دَهبل على رجل، وهو الوَقّاصِيّ، آبتغى عنده خَيْراً، فخاب ظنُّه فيه، فقال يهجوه:

لما رأيتُ مقامي عند بابهمُ     وَدِدْتُ أنِّي بذاك الباب لم أُقِمِ

وما هذا كُلُّه بغريب على من يَطوف بشعره على الأبواب يَستجدي ويمدح ثم يهجو، ويهجو ثم يمدح، فهو يَملك ملكة النَّظم ولن تَخونه أو تَسْتَعصيَ عليه، ما دام لم يُمسك زِمامَها رَأْيٌ، فالرأي وحدَه هو الذي يَصون القولَ عن أن يُبْتَذَل.

وبعد هذا وذاك، أي بعد الفخر والمدح، نرى أبا دَهبل عاشقاً، وإذا هو صورةٌ من عاشِقين سَلَفُوا، يَخلع شِعره لأول وَهلة على من تُطالعه بجمالها.

والرُّواة هنا عن حديث العاشقين يُمْلُون ولا يَسْتملون، وتكاد تكون أخبارهم كلُّها من وحي خَيَالهم، فلقد اقتحموا على العاشِقين خَلَواتهم، وأَحْصَوْا عليهم كَلماتهم، وعَدُّوا لهم أنفاسَهم.

ولقد ذكروا أنّ أبا دَهبل هَوى آمرأة من قومه، يقال لها: عَمرة، وكان يَجتمع إليها الرجالُ للمحادثة وإنشاد الشعر، ويَدخل أبو دَهبل بيتها مع الداخلين، وتَرى عمرةُ من أبي دَهبل ما يَريب فَتَحجبه، فيقول أبو دهبل:

لقد قَطع الواشون ما كان بَيننا     ونحن إلى أنْ يُوصَل الحَبْلُ أَحْوَجُ

ويَشوقه مجلسُها فيقول:

يا عَمْرَ حُمّ نَواكُمُ عُمْرَا     وعزمتِ منّا النَّأْيَ والهَجْرَا

ويقول:

يَلُومونني في غَير ذَنْبٍ جَنَيْتُه وغَيْرِيَ في الذَّنب الذي كان أَلْوَمُ

هذه واحدة من مجالس الأدب (صالونات) حَفلت بها البيئة العربية حين حَفلت البيئاتُ الغربيّة بمثلها.

وكذا يُحدِّثنا الرواة أن آمرأة من ذوات الثراء في الشام، وكان أبو دَهبل خرج غازياً، وما إنّ وَقع بصرُها على أبي دَهبل، وكان جميلاً كما يقولون، فاحتالت عليه وأَدخلته قَصْرها، وإذا هي تُقيمه معها طويلاً، ثم أَذِنت له بعدها أن يخرج لِيَرى أهلَه، فيراهم قد آستطالوا غيبته وظنوه قد مات، فتقاسموا ميراثه، وإذا هو عندها يقول:

صاحِ حَيَّا الإلهُ حَيًّا ودُوراً عند أَصْل القَناة من جَيْرُونِ

وهذه ثانية لا ترى لها مثيلاً من أحاديث الهوى، اللهم إلا إذا كنت من قُرَّاء: ألف ليلة وليلة.

وثّمّة ثالثة، وهي حُبُّه لعاتكة بنت مُعاوية الخليفة.

يقول الرواة: إن عاتكة بينَا هي جالسة في خِبائها يوماً بذي طُوًى، مكانٍ من مكة، وكان اليومُ شديدَ الحرّ، فأمرت جَواريها برَفع السِّتر، وما إن فعلت هذا حتى كان مُرورَ أبي دَهبل بها، فيراها، فتَقع في قلبه، وإذا هو يقول:

إنِّي دَعاني الحَيْنُ فاقْتادني حتَّى رأيتُ الظَّبْيَ بالباب

ويَشيع هذا الشعر فيها على ألسنة أهل مكة.

قد يَقع مثل هذا، ولا ضَير، ما دام الشاعر لم يَرْع حُرْمة بَيت كَرِيم، ولكنَّ الجديد على ألسنة الرُّواة ما يزيدونه من أن هذا الشعر آنتهى إلى عاتكة فأُعجبت به وأَرسلت إلى أبي دهبل بكُسْوة، وأنَّ الرُّسل جَرَتْ بينهما، حتى إذا ما خرجت من مكّة إلى الشام، لَحِق بها، وكان غير بعيد منها، وبقيت هي تبرُّه وتَلْقاه، وحتى إذا ما نَزلت دِمَشْقَ، وكان هو في إثْرها، آنقطعت عن لقائه وبرّه، فقال أبياته التي منها:

لَيت شِعري أمِن هَوًى طارَ نَومِي أم بَراني الباري قَصِيرَ الجُفُونِ

أترى معي كيف هَوَت الفتاة العربية إلى هذه الهُـوّة، وأية فتـاة هي، آبنة بيت من أرفع البيوت، ثم هي ابنة خليفة وأُخت خليفة.

أُصَـدِّق أن أبا دَهبـل قال مـا شاء، لا يَـرعى حُـرمـةً، وأصدِّق أنّ هـذا القـول شاع، ومَلأ الأسماع، لكنِّي لا أُصَدِّق أن معاوية حين يَنتهي إليه هذا الشعر الفاضح يَجتزىء بعتاب أبي دَهبل، وكان الدِّين يُبيح له أن يفعل غيرها.

يُجيز معاوية لأبي دهبل أن يقول:

وهي زَهــراء مِثْــلُ لُؤلؤة الغَــوَّا ... ص ِ ميـزَتْ من جَـوهـر مَكْنُـونِ

وما يَصِحّ أن يقولها أبو دهبل، وما يصح أن يُجيزها معاوية.

ويَجتزيَ معاوية بأن يقول لأبي دهبل: أسأت، على قوله:

ثم خـــاصَـــرْتُهـــا إلى القُبَّـــة الخَـضْـ ... ـرَاء تَـمـشـي فـي مَـرْمَــر مَـسْـنُــون

ولا يُقيم عليه الحدّ لِتشهيره بربّات الخُدور.

اللهمَّ هكذا يَقول الرُّواة، وهكذا نقـرأ صفحات من عِشْق مُحَـرَّم، وصفحاتٍ من تفريط في الحُقوق، وصفحات من امتهان للعرف والتقاليد، التي عَهِدْناها للبيئـة العربية.

والـطَّريف أن معاويـة بعد هـذا يقع في يَـده كتاب أُرسـل بـه أبـو دَهْبـل إلى عاتكة، وفيه:

رأيـتُــك تَــزدادِيـنَ لــلصَّــبِّ غِــلْظَةً ... ويَــزداد قلبي كُــلَّ يــوم ٍ لكم عِشْقَــا

فلا يكون من معاوية شيء غير أن يَدعو إليه ابنه يزيد يُشاوره في الأمر، ويُشير يزيد بقَتله غِيلةً، ويـأباهـا معاويـة، وينتهي به الأمـر إلى أن يفرض على نَفسـه لأبي دَهبل إتاوة سَخِيَّةً يدفعها له كل شهر، على أن يَرحل ويَكُفَّ عن عـاتكة، فـلا يقول شيئاً.

وكان هذا هو ما يرجوه أبو دَهبل من إثارة هذه الضجة، فرضي وتَـرك دمشق، ولم يَعُدْ يذكر عاتكة.

ولـو أنّ هذا الهـوى كان هـوًى صادقـاً ما قَبِـل أبو دَهبـل أن يتنازل عنـه، ولو أُعطي مالَ الأرض.

وبعـد فهذا هـو أبو دهبـل، لـم نجده أقـرب إلى ما يَجب عليـه إلا حين فخر بقومه، فذكر مآثرهم، وأما ما بعد هذا فلقد كان مُستجدياً حين مـدح وهَجا، مـاجناً المُجون كُلَّه حين أباح لنفسه أن يُشَهِّر بربّات الخـدور، وكانت هـذه أيضاً وسيلة من وسائل الاستجداء، أو فرض الإتاوات[1].

* * *

ومنهم: **أعشى ربيعة عبد الله بن خارجة (٧١٨ م ـ ١٠٠ هـ).**

هـذا شاعـرٌ مروانيّ لحمـاً ودماً، ومـا له لا يكـون مروانيـاً قُحًّا، وقـد أثابـه عبدُ الملك على أبيات مَدحه بهـا عشرةَ آلاف دِرهم، وعشـرة تُخوت ثيـاب، وعشر فَرائض من الإبل، وأَقـطعه ألف جَـرِيب، والجَرِيب عشـرة آلاف ذراع، وأجرى لـه على ثلاثين عَيِّلاً.

هذا عن واحدة، ولا تدري كم نال على غيرها.

ولعلك تُحب أن تعـرف تلك الأبيـات التي رفعت قـائلهـا إلـى مستـوى المُوسرين.

دخل أعشى ربيعة على عبد الملك يوماً، فقال له عبد الملك: مـا الذي بقي عندك؟

فقال له الأعشى: أنا الذي أقول:

فـأصبحتُ إذ فَضَّـلْتُ مـروانَ وآبْنَـه    على النـاس قـد فَضَّلْتُ خيـرَ أبٍ وابنِ

مَلِكٌ يَرتقب المديحَ ويطلُبه، وشاعـر يبيت ليلَه يُهيِّيء ما سيلقى بـه الخليفة. أسلوب لا نرضاه للممدوح ولا للمادح.

عَهْدُنا بالمُلوك أن يفعل كُلٌّ ما وَسِعه الفِعْل، لا يَنْشُد من وراء ما فَعـل إلا أن

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ ديوانه.

يكون قد حَقَّق ما لشَعبه في رقبته حَقّ.

وعَهْدُنا بالشعراء أن يُصْدِروا حين يُصْدِرُون عن فِعْل بَهرهم، لا يسبقون الأفعالَ، بل تسبقهم الأفعالُ وأُحب أن أزيدك شيئاً عن هذا الشاعر الكاسِب بِشِعْره.

فالرُّواة يَروون أن الأعشى حين كتب له عبدُ الملك بما مَرَّ بك، ذهب بهذا المكتوب إلى زيد الكاتب، كما أَمره عبدُ الملك.

ويراها زيدٌ كبيرة حين يُخرج من مال المسلمين هذا كلَّه على أبيات من الشعر يعرف كيف صَدرت، فيُماطل الأعشى، والأعشى يَختلف إليه المرةَ بعد المرة، وزيدٌ يَعِده.

وهنا يَفطن الأعشى إلى إغراء زيد بما أَغرى به عبد الملك، فيقول له مادحاً:

يا زَيْدُ يا فِدَاكَ كُلُّ كاتِبِ ... في الناس بين حاضرٍ وغائبِ

وما أظُن الأعشى قالها مخْلِصاً، كما أظنه لم يَقُل غيرَها من قبل مُخْلِصاً.

ويَستنجد الأعشى برجل مُقَرَّبٍ إلى زيد هو سُفيان بن الأبرد الكلبيّ، ويكلِّم سفيانُ زيداً، فيعد زيدٌ ويُخْلِف ولقد حاول الأعشى أن يُغْرِيَ زيداً فما أفلح، إذن فَلْيَعُدْ إلى سفيان يُغريه ليستنهضه، فيقول لسفيان ضارعاً:

عُدْتَ إذ بدأت أَبَا يحيى فأَنْتَ لها ... ولا تَكُنْ حين هاب الناسُ هَيَّابَا

واشفع شفاعَة أَنْفٍ لم يَكُنْ ذَنَباً ... فإن مِن شُفعاء الناس أَذْنَابَا

ويُغْرَى سفيانُ بما قال فيه الأعشى، فلم يُفارق زيداً حتى أخرج الأعشى ما كَتب به عبدُ الملك.

ولعلّك تسأل: لِمَ لَمْ يَعُد الأعشى إلى عبد الملك يُنْهِي إليه ما كان من زيد الكاتب؟

وما أُحب أن يغيب عنك: أنَّ الشعراء أَدْرى بما عليه الملوك، فقد يَقْضُون في ساعة نشوة ما لا يرْضَوْنه بعد أن يُفِيقوا.

وهذه هي التي حَذِرَها الأعشى فلم يَعُد إلى عبد الملك يستنجزه ما كتب به.

والشعراء الكاسبون أدرى بما تَرَاحُ له نفوسُ الملوك وما لا تَرَاح، فهم يحتبطون بحَبْلهم، إذ ما أغناهم عن أن يُخْلصوا النصيحة فيثيرون على أنفسهم ما لا يَحمدون.

رأى الأعشى عبدَ الملك يُعِدّ العُدَّة لحرب آبن الزُّبير، فما له لا يُـذْكِي تلك العَداوة لابن الزبير في نفس عبد الملك فيقف بين يديه بكلماتٍ هيّأها نَثْراً وشِعْراً.

فمما قاله فيه نَثْراً: توجّه إلى عدوّك، ولا يُثَبِّطنَّك عنه ناصح. ثم يُتبع قوله هذا بشعر هيَّأه، منه:

قُوموا إليهم لا تَناموا عَنْهُمُ — كم لِلغُواةِ أطلتُمُ إمهالِها
إنّ الخِلافَة فيكمُ لا فيهمُ — ما زلْتُمُ أركانَها وثِمالَهَا

وما أُحب أن أُدْخُل في الحديث عن فتنة لم أكن حاضِرَها، ولكن الذي أُحب أن أقولَه: إن هذه الفتن التي توالت على الدولة الإسلامية لم تُرزق ألسنةً ناصحة، أعني ألسنَة الشُّعراء، ليقولُوا كلمة لله، وللأُمّة التي مَزَّقتها تلك الفِتَن، ولا عليهم أن يأخُذ بها هذا الطَّرَفُ أو ذاك، ولكن حَسبهم إن قالوها أنّهم أدَّوْا واجباً في أعناقهم.

ولقد كان الأعشى حريصاً على أن يُمسك بأسباب الحياة كُلِّها في يديه، فلقد مدح عبدَ الملك، ثم آبنه سُليمان، وكان هذا حسبه، ولكنه عداهما إلى مدح أسماء ابن خارجة، وكان سيِّدَ قومه، جَواداً، مُقدَّماً عند الخلفاء. وكما كانت حال الأعشى مع عبد الملك يَمدح ليُعْطَى، كذلك كانت حاله مع أسماء، قَصده فمدحه فأعطاه وكساه، وكان ممَّا مدحه به:

لأَسْمَاءُ بنُ خارجَةَ بنِ حِصْنٍ — على عِبْءِ الثَّوائب والغَرَامَهْ

ثم ما بالنا نَستكثرها على الأعشى، وهو الذي كان يَطْرُق باب عبد الملك مُستجدياً، ثم لا يَجد غَضاضةً إن تركه إلى باب ابنه سليمان، وهو أمير، يستنجد به ويقول:

أتينا سُليمانَ الأميرَ نَزُوره — وكان امرأً يُحيي ويُكرم زائرَهْ

وما لنا نـذهب بعيداً وقـد كَفانـا الأعشى مَؤُونة الحُكم عليـه، فسبقنا هـو إلى الحُكم على نفسه. وهذا حيث يقول:

فَسَاومني الـدهـرُ حتى آشترى شـبـابي وكـنـتُ لـه مـانِعَـا

وهَلَّا نَفعت الشاعرُ ملحمته التي تناول فيها الخَلق منذ بدأ، وهلا نفعه قولُه فيها:

الله رَبِّي ولم أُشْرِكْ به أحداً وكُلُّ شيءٍ سواه باطلٌ غَرَرُ[1]

الغرر: الباطل.

* * *

ومنهم: **زيادُ بن سليمان الأَعجم (٧١٨ م ـ ١٠٠ هـ).**

ما أُحب أن أُحدِّثك عن زياد، ولكن الذي أُحبه أن يحدِّثك زيـادُ عن نفسه، وما أُصدقك حاكماً حين يضع المَحكوم عليه أسبابَ الحكم بين يديك.

يدخل زياد على المُهلَّب بن أبي صُفرة ويقول له: أصلح الله الأمير، إني قد مَدحتك بِبَيْت صَفَدُه أي عطاؤه ـ مائة ألف درهم.

ويَسكت المهلَّب، ويُعيد زيادٌ القولَ، فيقول المهلَّبُ: أَنْشِدْه. فيُنشده زياد:

فَتًى زاده السلطانُ في الخَير رغبةً إذا غَيَّر السلطانُ كُلَّ خَليلِ

فيقول له المهلَّب: يا أبا أُمامة، أما مائة ألف فوالله ما عِندنا، ولكنْ ثلاثون ألفاً فيها عِوض. وأمر له بها.

ويموت المهلَّبُ، ويَليه على خراسان آبنُه المُغيرة، فيُمْطره زيادٌ مَديحاً، ويُمطره المغيرةُ عطاءً، ويختطف الموتُ المغيرة، فيَهلع لها زياد، إذ فَقد مَعِيناً كان يظنه لا يَنْضب، وما موت المُغيرة فَزَّعه، ولكن الذي فَزَّعه هذا المعِين الذي غاض في طَرْفة عَين، وكان لا بُدَّ لزياد أن يَصِلَ حبله بحبل أخٍ للمُغيرة، هو يزيد، ولكي يضمن هذه أخذ يَبكي المُغيرَة بما يُثير حَمِيَّة أخيه يزيد، ولكن يزيد كان يَعِي ما

---

(١) الأغاني ـ الديوان.

يجري على ألسنة المادحين من الشعراء، كلامٌ ظاهره غير باطنه.

يقول زياد في رثاء المغيرة:

إنّ الشَّجاعةَ والسَّماحَةَ ضمّنا ... قَبْراً بِمَرْوَ على الطَّرِيق الواضحِ
فإذا مررت بقَبره فاعْقِرْ به ... كُوَم الهِجَانِ وكُلَّ طِرْفٍ سابِحِ

ويَستيقظ لها وَعْي يَزِيد ويقول لزياد: يا أبا أُمامة، أَفعقرت أنت عنده؟ ويعرف زياد ما أراد زيد، فيقول: كنت على متن الحمار، أي أنه لم يكن معه ما يعقر، لا إبل ولا أفراس.

ويَخِفّ زيادٌ إلى يزيد يمدحه لِيَضمن غطاءَه، بعدما فاته عطاءُ أبيه المهلب، وأخيه المغيرة، فيقول له، وهو به غير واثق، فما غاب عنه تعقيب يزيد على قوله، الذي ذكرته لك قبل:

هَلْ لك في حاجتي حاجةٌ ... أم أنت لها تاركٌ طارِحُ
أمِتْها لك الخيرُ أم أَحْيِهَا ... كما يَفعل الرجلُ الصالحُ

ويستبطىء زيادٌ عطاء يزيد فيقول له:

أنت الفتَى كُلّ الفَتى ... لو كُنْتَ تَفعل ما تَقُول
لا خَيْرَ في كَذِب الجَوَا ... دِ وَحَبَّذا صِدْقُ البَخِيل
يا بنُ المُهَلَّب حاجتي ... عَجِّلْ فقد حَضَر الرَّحِيل

ويَخلع زياد يَده من يد بَني المهلب، ويُيَمِّمُ شَطر مَمدوح آخر عُرِف بالجُود، هو عُمر بن عبيد الله بن مَعْمَر، فيمدحه ويقول:

سألناه الجَزِيْل فما تَأَبَّى ... فأَعطى فوق بُنْيَتنا وزادَا
وأَحسن ثم أَحسن ثم عُدْنَا ... فأَحسن ثم عُدْت له فعادَا
مِرَاراً ما دنوت إليه إلا ... تَبَسَّم ضاحكاً وثَنى الوِسَادَا

والشاعر الذي يَمدح ليُعطَى ويهجو إذا لم يُعْط فالمديح والهجاء وسيلتاه للحُصول على ما يبغي، فمن الناس من يُعْطِي عن رِضاً، ومنهم من يعطي عن

خَوف، ومن هذا الصنف الثاني كان عيّاد بن الحصين، وكان على شُرطة البصرة، مدحه زياد فلم يُعطه فشمّر يهجوه ويقول:

سألتُ أبا جَهْضم حاجةً ... وكنتُ أراه قَريباً يَسِيراً
فلو أنَّني خِفْتُ منه الخِلاَ ... فَ والمَنْعَ لي لم أَسَلْه نَقِيرَا
وكَيف الرَّجَاءُ لِما عِنْدَهُ ... وقد خالط البُخْلُ منه الضَّمِيرَا
أَقِلْني أبا جَهْضَمٍ مِدْحَتِي ... فإنِّي آمرؤ كان ظَنِّي غُرُورَا

وإذا أَحببت أن تعرف عن زياد، إفحاشه في الهجاء إفحاشاً حَذِرَ منه معاصروه من الشعراء فاستمع إلى ما كان بينه وبين الفرزدق من حديث:

يقول الفرزدق لزياد: يا زياد، لقد هَممت أن أهجو عبد القيس وأَصِف مِن فَسْوهم شيئاً.

فقال له زياد: كما أنت، حتى أُسمعك شيئاً ثم قُل إن شئت أو أَمْسك.

قال الفرزدق: هات.

فقال زياد:

وما تَرك الهاجُون لي إنْ هجوتُه ... مَصَحًّا أراه في أَدِيمِ الفَرَزْدَقِ
فإنّا وما تُهْدِي لنا إن هَجوتَنا ... لكالَبحْرِ مهما يُلْقَ في البَحر يَغْرَقِ

فقال له الفرزدق: ذاك إليك.

فما عاوده الفرزدق بعدها.

هذا هو زياد، وهذا هو شِعره.

شاعر عاش في حِقْبة كانت الفتنة فيها تُخَيِّم على رُبوع البلاد، فالزُّبيريُّون في ناحية، والمروانيّون في ناحية، والأَزارقة يغتنمونها فرصة فيُثيرونها حَرْباً.

وما شَغلت واحدةٌ من هذه كلِّها بالَ زياد، ولا حَرَّكت منه شيئاً، فلقد عاش لِبَطْنه، وما تلك الأحداث إن أَقحم نفسه فيها بضامنةٍ له سَدَّ جُوعه[1].

* * *

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء.

### ومنهم: كُثَيِّر بن عبد الرحمن (٧٢٣ م ـ ١٠٥ هـ).

هذا شاعر عَرف الهوى صغيراً وهو في كَنفَ عَمِّه، الذي كَفله بعد وفاة أبيه، وكان كُثَيِّر يرعى له غنمه، وفي مَرَّة له وقعت عيناه على عَزَّة، وكانت صغيرةً مثله فأحبها.

ويقول ابن خلكان عنها، إنها كانت على حظّ من الأدب الجَمّ، حلوة الحديث، وحين تركت المدينة إلى مصر، جرى كُثَيِّر في إثرها إلى مصر، وفي مصر توثّقت صلتُه بأميرها عبد العزيز بن مروان، وعاش كُثَيِّر للاثنين، يشبِّب بعزة، ويَمدح عبد العزيز.

وما كان بين كُثَيِّر وعَزَّة غيرُ لقاءات عفيفة أولَ ما تَعارفا، ولم تَدُم هذه اللقاءاتُ كثيراً، بل سُرْعان ما تَزَوَّجت عَزَّةُ، وسُرعان ما هجرت المدينةَ إلى مصر.

وتسأل أُمُّ البَنِين يوماً عَزَّةَ عن هذا الدَّيْن الذي لم تُوَفِّه لكُثَيِّر، وهذا حين يقول:

قَضَى كُلُّ ذي دَيْنٍ فَوَفَّى غَرِيمَه وعَزَّةُ مَمْطُولٌ مُعَنًّى غَرِيمُهَا

فتقول عَزَّة: كنت قد وعدتُه قُبْلَةً وخرجتُ منها.

ونحن نعرف أنّ عبد العزيز بن مَروان وَلِيَ مِصْرَ سنةَ خمس وستين هجرية (٦٥ هـ)، وبَقِي فيها والياً إلى أن مات سنة خمس وثمانين (٨٥ هـ).

كما نعرف عَزَّةَ معشوقة كُثَيِّر عاشت في مصر حياتَها، منذ أن انتقلت إليها إلى أن ماتت، وقد سَبق موتُها موت عبد العزيز بقليل، فلقد كانت وفاتها في العام الذي تُوفِّي فيه عبدُ العزيز سنة خمس وثمانين (٨٥ هـ).

وما نَظُنُّ كُثَيِّراً فارق مِصْرَ هذه الأعوامَ التي تَقْرُب من عشرين عاماً، عاش في مِصر في ظِلِّ والٍ أكرمَ وِفادَته وأَغْدَق عليه، وإذا وَجد كُثَيِّر الرِّزْقَ مكفولاً أَرْخَى لنفسِه يُشبع قلبه كما أَشبع جِسْمه.

وإذا مدائحه في عبد العزيز كثيرةٌ.

يقول في مدحه:

فلولا الله ثُمَّ نَدَى آبنِ لَيْلَى وأنِّي في نَوالك ذو آرْتِغَابِ
وباقِي الوُدِّ ما قَطَعَتْ قَلُوصِي مَهَامِهَ بين مِصْرَ إلى غُرَابِ

لَيلى: أُم عبد العزيز، وغُراب: جبلٌ بناحية المدينة.

ويقول في مَدحه:

إليك آبْنَ مَرْوَانَ الأَغَرَّ تكلَّفتْ مَسافةَ ما بين البُضَيع فَيَلْيَلِ

تكلَّفت، يعني ناقته. والبُضيع: من أرض مصر. ويَلْيل: موضع بالحجاز.

ويقول:

إليك ابنَ لَيلى تَمْتَطِي العِيسُ صُحْبتي تَرَامَى بنا مِن مَبْرَكَيْنِ المَثَاقِلُ

المبركان: موضع قريب من المدينة. والمثاقل: المنازل.

وما أُريد أن أثقل عليك فأضَع بين يديك كُلَّ ما مدح به كُثَيِّرٌ والي مصر عبدَ العزيز، فما قِيل في واحدة يكاد يكون هو ما قيل في أُخرى، مع اختلاف في العَرْض، والغاية واحدة، وهي أن يَبْقى له عبدُ العزيز مُحْسِناً.

ولم يَمدح كُثَيِّرٌ واليَ مِصر عبدَ العزيز وحدَه، بل أَفرد آبنه أبا بكر هو الآخر بمدائح، ومما قاله في هذا الابن:

إليكَ أبا بكر تَروح وتغتدي بِرَحْلِيَ مِردَاةُ الرَّواح ذَمِيلُ

ويموت عبد العزيز، وكُثَيِّر لا يزال مُقِيماً بمصر، فتبلغ الحسرةُ من قلبه قمتها، فيتحرك لسانُه برثائه، وما رثاه مرة بل رثاه مَرّات.

ومن قوله في رثائه:

فإنْ تَكُ أيّامُ آبن لَيْلَى سَبَقْنَني وطالت سِنِيَّ بعدها وشُهورُهَا
فإنّي لآتٍ قَبره فمُسَلِّمٌ وإنْ لم تُكَلِّمْ حُفرةٌ مَن يَزورُهَا

وكما كان مَدِيح كُثَيِّر لعبد العزيز يُكَرِّر بعضُه بَعضاً، كذلك كان رثاؤه، وإن لم يبلغ المديحَ كثرةً، يكرر بعضُه بعضاً.

وأكبر ظَنِّي أن جُلَّ شِعر كُثَيِّر في عَزّة كان في تلك المُدة التي سَبقته فيها عَزَّةُ إلى مصر، فإذا هو تَهِيج ثائرَته بفراقها، وإذا هو يُشبعنا قصائدَ في هَوًى لا طائل تحته. ولمُتْعة من مُتع الشاعر قد سُبِق إلى مثلها.

وكما قال كثير في أيّامه في مصر، قال قبلَ هذا في أيامه قيل أن ينزل مصر، ومن هذا قوله:

خَلِيليّ هذا رَبْعُ عَزَّةَ فاعْقِلاَ    قلوصَيْكما ثم آبكِيَا حيثُ حَلَّتِ

ويقول:

هِيَ الدَّارُ وَحْشاً غَيْرَ أنْ قد يَحُلُّها    ويَغْنَى بها شَخْصُ عليَّ كَرِيمُ

ويقول:

ولِي منكِ أيَّامٌ إذا شَحَط النَّوَى    طِوَالٌ ولَيْلاتٌ تَزُولُ نُجُوبُهَا

ويقول:

على أنَّ بالأقواز أَطْلاَل دِمْنَةٍ    تجِدُّ بها هُوجُ الرِّياح وتَلْعَبُ
لِعَزَّة إذ حَبْلُ المَودّة دائِمٌ    وإذ أنتَ مَتبولٌ بعَزَّة مُعْجَبُ

ويقول:

وهاجَ الهوى أظعانُ عَزَّةَ غُدْوَةً    وقد جَعلت أقرانُهنّ تُبِينُ

ومثل هذا كَثِير جَرى به لسانُ كُثَيِّر، مما يدلّك عليه أنه لم يُطِق صَبْراً على رَحيلها إلى مصر.

ونكاد نُحس من شِعر كُثَيِّر، جُلّه أو كُلِّه، الذي خَص به عَزَّة، هذا الأَسى على فِراق، وليس فيه بعد من رقّة هذا الأسى على الفراق شيء يصور لك أيّامه بجوارها بمصر. ولعل شُغله بمدح عبد العزيز غَشَّى على قلبه، أو لعل شيئاً آخر كان أَرْدَع له عن أن ينطق باسمها مُشَبِّباً، هو خوفه من ممدوحه أن يؤاخذه على التعرض لِمُخَدَّرة.

وأكاد أُضيف أن هوى كُثَيِّر كانت عَزَّة لا تُحِسْ بمثله، لقد كان كُثَيِّر زريّ

المنظر، غايةً في القصر، وما أَضَرَّت قلوب العذارى على من كان على مِثل كُثَيِّر خَلْقاً.

وأكاد أُعلِّل أن تلك اللقاءات، إن صَحَّت، كانت وعزَّة في مُستهلٍّ حياتها، لم يَبْنِ بها زَوج، وإنها كانت لقاءات لا تُشير إلى هَوًى متبادل، وحَسبك ما مرّ بك من حديث القُبْلة التي طلبها كُثَيِّر ومَطَلَتْه بها عَزَّةُ.

ثم ان الشاعر العاشق يكاد يكون شِعره كلُّه خالصاً لمن يعشق، ونحن نجد شِعْر كُثَيِّر لا يُؤيد لنا هذا. فقصائده عن عَزّة دون قصائده في مَدْح مَنْ مَدَح.

مدح محمد بن الحنفيّة عن عقيدة بأنه الإمام فقال:

أنت إمامُ الحقّ لَسْنا نَمْتَرِي ‏ ‏ ‏ ‏ أنت الذي نَرْضَى به ونَرْتَجِي

ولم يَمْضِ في ركاب ابن الحنفيّة طويلاً، إذ لم يكن عنده ما يُشبع بطنَه، فربط حبلَه بحَبْل بِشر بن مروان، وكان أمير العراقين، وأُخذ يمدحه، ومما قاله في بشر:

أبا مَروان أَنْتَ فتَى قُرَيْشٍ ‏ ‏ ‏ ‏ وكَهلُهمُ إذا عُدَّ الكُهُولُ

ثم مَدح عبد الملك بن مروان فأكثر، ومما قاله كثير في مدحه:

وإنّ أميرَ المُؤمنين هو الذي ‏ ‏ ‏ ‏ غَزَا كامناتِ النُّصحِ منّي فَنالَها

ولقد آغتنمها كُثَيِّر فرصة، حين كان الخلافَ بين عبد الملك وعبد الله بن الزبير، فأخذ يُذكيها ناراً في قلب عبد الملك، يدفعه إلى هذا أمران:

أولهما: بُغضه لابن الزبير، لأنه كان قد سَجنه.

وثانيهما: أن الملوك أرضى ما يكونون على من يُؤَجِّج فيهم غَضبتهم على من يَغضبون عليه وكذا مَدح عمرَ بن عبد العزيز بعد أن غدا خليفةً، فقال:

وما الناسُ أَعْطَوْكَ الخِلافةَ والتُّقى ‏ ‏ ‏ ‏ ولا أَنْتَ فاشكرْه يُثِبْكَ مُثِيبُ

ولكنّما أعطاك ذلك عالِمٌ ‏ ‏ ‏ ‏ بما فيك مُعْطٍ للجَزيلِ وَهُوبُ

ويَلِي من بعد عمر الخلافةَ يزيد بن عبد الملك فيمدحه ويقول:

إلى الأبيض الجَعْد آبن عاتكة الذي ... له فَضْلُ مُلْك في البَرِيَّة غالبِ

هذه هي حال الشاعر المعدود في العاشِقين، شُغِل أكثر ما شُغل بالسَّعي وراء رزقه، ولم يكن فيما مدح غير مُسْتَجْدٍ يُمْلِي عما يُملي عنه أضرابُه، وعلى نحو ما كان في مَدحه كان في هواه، ائتسى في هذا بمَن قبله ممن جعلوا شِعْر العشق تعبيراً عن مُتعة ذاتيّة يُلهون بما يقولون، وإن بعدوْا وكأنَّ الحُبَّ قد طَحنهم.

لقد كانت رُقْعة الحياة بين يَدي كُثَيِّر فسيحة، وكانت الأحداث مُتشابكة، وما رأينا كُثَيِّراً شُغِل في هذا الوجود إلا بما يَعنيه: لُقمة، يمدح من أجل أن يملأ بها فمه، ومُتعة يُفرِّج بها هَمّه، فخال من نفسه فاتِناً، ومن النساء مَفتونة به، وهي عَزّة، فآسترسل يقول يُفَرِّج من همِّه المكبوت، لما خَلفه الله عليه من قِصَر، لم يجاوز طوله معه ثلاثة أشبارُ، حتى ليقال:

إن عبد العزيز بن مروان كان إذا دخل عليه كُثَيِّر، يقول له هازئاً بِقِصَره: طأطىء رأسك لا يُصِبْه السَّقف.

ولقد بدأ كُثَيِّر عَلَوِيًّا، وما أظنه إلا عاش عَلَوِيًّا، يدلُّك على هذه ما كان بينه وبين عبد الملك بن مروان حين أراد أن يَستوثق منه، فقال له: لا أسألك إلا بِحَقِّ أبي تُراب، يعني علي بن أبي طالب.

ولكن هذه العَلَوِيّة ما لبثت أن دفنها في قلبه جُودُ بني مروان[1].

* * *

ومنهم: **الأحوص عبد الملك بن محمد (٧٢٣ م ـ ١٠٥ هـ).**

هذا شاعر أكبرُ الظن أنه دَخل الحياة ضائقاً بها، فلقد ولد ذا عاهة، إذ كان بِعينيه الاثنتين معاً حوص، وهو ضيق، ومن هنا كان تلقيبه بالأحوص، هذا اللقب الذي واجه به الحياة وعاش به إلى أن فارق الحياة.

---

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ الديوان.

ضاق بنفسه أول ما ضاق فأزرى بها، ولم يكتم هذا الإزراء للناس، فقال:

أَقْبِحْ بـه من وَلَـدٍ وأَشْـقَـحِ  مثـل جُـرَيّ الكَلْب لم يُفَقِّـحِ

أقبح وأشقح، بمعنى، ولم يُفقح: لم يفتح عينيه.

إنْ يَـرَ سُـوءاً لم يَقُـم فيَنْبَـحِ  بـالبـاب عنـد خلقـه المُسْتقبـحِ

وكأنه بهذا البيت الثاني لم يَعد يعْنيه من حـوله شيء يسـوء، ما دام قـد وَقع فيما يسوء ولعل هذا الشعور هو الذي جَرّه بعدُ إلى أن يُوسع في هجاء قـومه، وهـو لا يقنع أن يكون هو المُصاب من بين قومه وحده، ومن رضي نفساً إلا إذا كـان بهم مثل ما به.

وهذه وتلك هما اللتـان جرّتـاه إلى أن يكون هـذا الشاعـر المُستهتر، فـإذا هو ينسب بنساء ذوات أخطار من أهل المدينـة، ويتغنّى في شعره هـذا مغنيان يغنيـان، هما معبد، ومالك بن أبي السمح، ويشيع ذلك في الناس.

ويُنْهَى الأحوصُ عن هذا فـلا ينتهي، ومَضى يَسترسـل في غَيّه، وحين عَجـز الناسُ عن رَدْعه، رَفعـوا أمره إلى عـامل المـدينة حينـذاك محمد بن عُمـر بن حَزم، ورفع ابنُ حَزْم أمره إلى الخليفة سُليمان بن عبد الملك.

فكتب سليمـان إلى ابن حَزم يَـأمره بـأن يضْرِبـه مائـةَ سوط، وأن يُقيمـه على المَيلَس للناس، ثم يُصَيِّره إلى دَهْلك، وهي جزيرة ببحر اليمن كان ملوك بني أميـة ينفون إليها كُلَّ من يَسخطون عليه.

ويلي عمر بن عبد العزيز، فيكتب إليه الأحوص يَمدحه علّه أن يعفو عنه، فلا يقبل عُمر، ثم يلي يزيدُ بنُ عبد الملك فيدُسّ داسٌّ إلى جارية يزيد، شعراً تُغَنّي به يزيد، فيعفو عنه ويُجيزه.

ومن هنا كان هِجاء الأحوص لابن حزم، عامل المدينة لسُليمان، فلقـد هجاه فأكثر، ومن هنا كان مَدْح الأحوص لعُمر بن عبد العزيز، فلقـد مَدحه فـأكثر، ولكنـه لم يَلْق عنده ما يرجو، ثم إذ يمدح يَزيد ليبلغ منه ما يريد، وقد بلغ بقوله فيه:

كريم قُريش حين يُنسب والـذي أَقَـرَّت له بـالمُلك كَهْـلاً وأَمْـردا

هذا هَو الأحـوص من شُبّه إلى دُبِّـه، خرج بـه ضيقه بـالحياة إلى غيـر ما كُنّـا نرجوه منه، وهو الشاعر الفحل، فعاش لهذا اللَّغو الذي لا يخلد شاعراً[1].

* * *

ومنهم: **ثابِتُ قُطْنَة (٧٢٨ م ـ ١١٠ هـ).**

هذا شاعرٌ ملك آثنتين: سِنَاناً ولِسَاناً.

عـاش في تلك الهائجـة التي كـانت بين آل المُهَلَّب وبني مَـروان، فـإذا هـو مُشَايعٌ لبني المُهلَّب ويكون في صُفوفهم فارساً ملحوظاً، يُمَهّد قولـه لِسَيفه، ويُؤيِّـد سيفُه قولَه، حتى كاد بالاثنين معاً أن يكون ذا كلمةٍ مُجابة. يُحِسّ ثـابتٌ أنّ يزيـدَ بن المُهَلَّب بين الإحجام والإقدام، فيكتب له يَستنهضه للحرب:

أيـزيـدُ كُنْ في الحَـرب إذْ هَيَّجتهـا كـأَبـيـك لا رَعِشـاً ولا رِعْـدِيـدَا

ومـا كان بيـزيدَ إحجـام، ولكنه كـان يَعلم من أمر تلك الحرب مـا لم يَعلمـه ثابتٌ، من أجل هذا تلبَّث، غيرَ أنه حين انتهى إليه قولُ ثابت قال: إنّ ثابتـاً لغافـلٌ عمّا نحن فيه، ولَعمري لأضيعنَّه، وسيَرى ما يكون.

ويَنهض يزيدُ للحرب فإذا هو مقتول، وإذا مُسلمةُ بن عبد الملك يتمثَّل ببيت لثابت قال في قصيدته، وهو:

يـا لـيتَ أُسـرتـك الـذيـن تَغَـيَّبـوا كـانـوا ليـومـك في العِـراق شُهـودَا

ويقول مُسلمة: وأنا والله لَوَدِدْتُ أنهم كانوا شُهوداً يومئذٍ فسقيتُهم بكأسه.

ومن قبـل أن يُقتل يـزيد كـان ثابت تَحت رايتـه يجمع حـولَه المُتقـاعدين عن نُصرته، وكانت رَبيعة منهم، فقال ثابتٌ يهجوهم:

فـأنتم على الأَدْنَى أُسُـودُ خَفِيَّـةٍ وأنتم على الأَعـداء خِزَّانُ سَمْلَقِ

والخِزّان: الأرانب، واحدها: خُزز، والسملق: الأرض الجرداء.

---

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ طبقات الشعراء لابن سلام ـ خزانة الأدب للبغدادي.

وحين مَضى يزيدُ مقتولاً آجتمع بنو المهلَّب على المفضَّل بن المهلَّب فأمَّروه عليهم، ويُمْنَى المُفَضّل بما مُنِي به يزيد، وإذا هو مقتول، وإذا آبنتُه هِند تجلس لتقبل العَزاء، فيدخل عليها ثابتُ مع الرَّاثين ويقول لها:

كان المُفَضَّل عِزًّا في ذَوِي يَمَنٍ ... وعِصْمَةً وثِمَالاً للمَساكِينِ

ثم يقول:

لا خَيرَ في العَيش إن لم أَجْنِ بعدهمُ ... حَرْباً تُبِيءُ بهم قَتْلي فَيَشْفُوني

ومن قبل هذين الابنين: يزيد والمُفضل، كان ثابتٌ لسان أبيهما المُهَلَّب. شهد ثابتٌ مع المهلَّب حربه للشُّراة، وكان الكَوَّاء اليشكري يساند هؤلاء فأغرى أحد بني أخيه، وكان شاعراً، بهجاء المهلَّب والأزد، ولم يكن المهلَّب شاعراً ولكن كان مُحارباً فحَسْب، وكان ثابتٌ يملك الاثنين.

فقال المهلب ثابت: أجبه. فانْبرى له ثابتٌ يهجوه ويقول:

نُبِّئْتُ أنَّ بَني الكَوَّاء قد نبحوا ... فِعْلَ الكِلَابِ تَتَلَّى الليث في الأَشَبِ

الأشب: الشجر الكثيف الملتف.

وهكذا عاش ثابت في ركاب المهلَّبيين لم يتخلَّف عنهم قائلاً ومُحارباً.

تُرَى أكان هذا عن إيمان من ثابت أنه يُناصر حقًّا؟ أم كان لجاهٍ يبغيه عند المهلَّبيين؟

أكاد أُرجِّح الثانية على الأولى، فعهدنا بالإيمان الحق لا يزعزعه مزعزع، ولكنَّا رأينا ثابتاً حين يَلِي سعيدُ بن عبد العزيز الأُمويّ خُراسانَ، واقفاً ببابه، وكاد سعيدُ يُقِرُّه على ثَغر من الثُّغور، ويَهُبُّ إليه بعضُ جُلسائه فيذكِّره بقوله في قصيدته التي حَرَّض فيها يزيدَ:

إنّا لضرَّابون في حَمس الوَغَى ... رَأْسَ المتوَّجِ إنْ أراد صُدُودَا

وما ذُكِّر سعيدُ بقول ثابت هذا حتى قال: رُدُّوه، وهو يريد قَتله، ويقول له سعيد: أنت القائل:

إنا لضرَّابون في حَمس الوغى

فيقول ثابت: نعم، أنا القائل:

إنـا لـضـرَّابـون في حَـمس الـوَغَى رأسَ الـمُـتَـوَّج إن أراد صُـدُودَا
عـن طـاعـة الـرَّحمـن أو خُلفـائـه إنْ رام إفـسـاداً وكَـرَّ عَـنُـودَا

فيقول له سعيد: أَوْلَى لك، لولا أنّك خرجتَ منها لضربتُ عُنْقَك.

هذا هو ثابت الفارسُ الشاعر، مالَ إلى المهلَّبيين حين رجاه النفع، ثم إذا هو يميل إلى المَرْوانيّين حين غدا النفع في أيديهم، كما باع سِنانه ولسانه هناك، ها هو ذا يبيعهما هنا.

وما بعد هذا من شِعر لثابت فأكثره في الهجاء، وكما هجا غيرَ واحد هجا قومه، وكان كُلّ هذا الهجاء لنفع استبطأه.

وبعد هذا نراه يجلس للمُرْجئة فيُعجبه منهم رأيُهم في الإرجاء، وإذا هو يقول:

يـا هِـنـد فـاْستمِعي لي إنَّ سِيـرَتنـا أن نَـعْبُـدَ الله لـم نُشْـرِكْ بـهِ أحـدَا
نُـرْجِي الأُمـورَ إذا كـانت مُـشَبَّـهـةً ونَصـدق القـولَ فيمن جـار أو عَنَـدَا

وما أظن هذا الإرجاء إلا كان كبعض حاله مَيْلَةً هنا ومَيلة هناك تساندها كلمةٌ هنا وكلمة هناك.

أليس هذا إصداراً للكلمة وَوَضْعها في غير مَوضعها.

كثيراً ما أطمعت الكلمةُ صاحبَها في أن يَنال بها غيرَ الحق، فإذا هي تَفقد رسالتها، وتكون كلمة ضالَّةً مُضِلَّة[1].

* * *

ومنهم: **الفرزدقُ همّام بن غالب (٧٢٨ م ـ ١١٠ هـ).**

هذا شاعر عبَر يقول الشعر نحواً من ثلاثة أرباع قَرن، فقد أتى به أبوه عليًّا، وهو خليفة سنة ست وثلاثين (٣٦ هـ) يُقَدِّمه له شاعراً.

---

(١) الأغاني ـ خزانة الأدب للبغدادي.

ويحدِّثنا الفرزدقُ عن نفسه فيقول: خُضْت في الهجاء في أيام عثمان، وعثمان كان مقتله سنة خمس وثلاثين (٣٥ هـ) وقد ولي الخلافة بعد مقتل عُمر سنة ثلاث وعشرين، هذا والرواة يقولون: إن الفرزدق مات في أول خلافة هشام، وهشام استخلف بعد وفاة أخيه يزيد سنة خمس ومائة (١٠٥ هـ).

ومن هنا كان الاختلاف في السنة التي مات فيها الفرزدق، فيقدِّرها بعضُهم أنها كانت سنة عشر ومائة (١١٠ هـ) ويقدرها بعضٌ آخر فوق هذا بأعوام أربعة.

وتكاد تكون الكَثرة على أنه مات سنة عشر ومائة، وبهذا التقدير أخذتُ وعلى هذا كان حقًّا قولُ مَن قال: إن الفرزدق عاش نحواً من خَمسة وسبعين عاماً يقول الشعر، وكان حقًّا قولُ من قال: لولا الفرزدق لذهب ثُلث لغة العرب، ولولا شِعره لذهب نِصف أخبار الناس.

يعنون بهذه وتلك أن شعر الفرزدق جَمع كثرةً من الألفاظ وحَفِظها لنا حَيَّةً، وأن شعره آستوعب أحداث خمسة وسبعين عاماً من حياة المسلمين الأولى.

وهذه النَّزعة الهجائيّة التي شَبَّ بها الفرزدق لم تُفارقه حياتَه كلَّها، وكانت سِلاَحه في هذا الوجود الذي ضَمَّ معه شُعَرَاء فُحولاً، على رأسهم جرير والأخطل، عاشُوا في صِراع أيهم أَسبق، وكان هذا الهجاءَ الذي امتلأت به صَفحاتهم، وكم هَجَوْا من مَدحوا، ومَدحوا من هَجَوْا ناهيك عمّا وهجَوا به بعضُهم بعضاً.

أما عن هجاء بعضهم بعضاً فَعِلَّتُه هذه المنافسةُ بينهم على أعتاب الخلفاء، وأما هجاؤهم غيرَهم فكانت عِلَّته الحصولُ على تلك الإتاوات التي كانوا يَفرضونها أو تُفْرَضُ لهم.

ولقد سُقتُ مَثَلاً من هذا فيما عرضت قبلُ، وأُحِبّ أن أسوق لك هنا مثلاً لصاحبنا الفرزدق.

فيُقال أن يزيد بن المهلَّب كتب وهو بجُرْجَانَ إلى أخيه مُدْرِكهْ أن يُعْطِيَ الفرزدقَ أربعة آلاف درهم يتجهّز بها، ويخبره أنه إذا قَدم عليه أعطاه مائة ألف

درهم، وأن هذا كان قبل أن يَمدحهم بعدما هجاهم، وأخذ الفرزدق ما قُدِّم إليه وشدّ رحالَه إلى جُرجان وأخذ يقول:

دَعاني إلى جُرْجَانَ والريُّ دونَه ... أَبو خالدٍ إنّي إذاً لزَمُورُ
لآتِيَ مِن آل المهلَّب ثائِراً ... بأَعْراضِها والدائراتُ تَدُورُ

وحين عزل الحجّاجُ يزيد بن المهلَّب، وولى مكانَه قُتيبة بن مُسلم الباهليّ قال الفرزدق:

بَكَتْ جَزَعاً مَرْواً خراسان إذ رأتْ ... بِهَا باهِليًّا بعد آل المُهَلَّبِ

ويقول في يزيد:

أمّا يزيدُ فإنَّه تَأْبَى به ... نَفْسُ موطَّنةٌ على المِقْدَارِ

وصَدر هذه القصيدة:

لأمدحنّ بني المُهلَّب مدْحَةً ... غَرَّاءَ ظاهرةً على الأشعارِ

وحين خَرج بنو المهلَّب من السّجن، وكان الحجاج قد حَبسهم، يقول الفرزدق:

وفِتْيَان هَيْجَا خاطَرُوا بنُفوسهم ... إلى الموت في سِرْبَالِ أسودَ حالِكِ

أرأيت معي كيف تُشترى الكلمة.

ومن قبل هذا المَديح يقول الفرزدقُ لمسْلمة حين خَرج لقتال آل المهلَّب:

نَصبتُمْ لهم قِدْراً فلما غَلَتْ لكم ... تَحَسَّيْتُموها حينَ شَبَّ وقُودُهَا

ويقول الفرزدق يهجو المهلَّب بن أبي مَعْدة فيُفْزِع حين يقول:

إلى أُمّ المُهلَّب حيثُ أَعطت ... بِشَدْي اللُّؤْم فاهَ مع الصِّغَارِ

ويقول الفرزدق في مَقتل يزيد وصَلْبه:

حتى رآه عِبَادُ الله في دَقَلٍ ... مُنَكَّساً وهو مَقْرُونٌ بِخنْزِيرِ

وما فعل الفرزدقُ هذه بآل المهلَّب وحدهم، بل فعلها مع غيرهم، فعلها مع عمر بن هُبيرة حين جرَت يداه بالعطاء فقال:

أغرُّ يَسْتَمطر الهُلَّاكُ نائلَه ... في راحتَيْه الدَّمُ المَعْبوطُ والمَطَرُ

ثم إذا هو يَهجوه حين حَبس نائله فيقول:

لـو لم تَكُنْ غَـطَفـانٌ لا ذُنُـوبَ لهـا إلـيَّ لامَ ذَوو أَحـلامـهـا عُـمَـرَا

ويَذُمّ بِشْرَ بن مروان فيقول:

مـا إنْ أَبُـو بِـشْـرٍ ولا أَبـواهـمـا مِـثـل الـذين إلى البِنـاء الأَطْـوَلِ

وحين يموت بشر يرثيه فيقول:

بـأنّ أبَـا مـروان بِشْـراً أخـاكـمـا ثَـوَى غَيْـرَ مَتْبُـوعٍ بعَجْـزٍ ولا غَـدْرِ

ويمدح الحجّاج فيقول:

إنّ ابن يـوسف مَـحْمُـودٌ خـلائـقُـهُ سِيّـانِ معروفُـه في النـاسِ والمَـطَرُ

ثم إذا هو يهجوه بعدها فيقول:

لئـن نَـفَـرُ الـحـجّـاجِ آلُ مُـعَـتِّـبِ لَـقُـوا دولـةً كـان العـدوُّ يُـدَالُـهـا

لـقـد أَصْبـح الأحـيـاءُ منهـم أذِلَّـةً وفي النَّـار مَثْواهُمْ كُلُوحًـا سِيَـالُهـا

وحين يموت الحجّاج يرثيه فيقول:

إبْـكِ على الحجَّـاج عَـوْلَـك مـا دَجا لَـيـلٌ بـظُلمـتـه ولاحَ نَـهَـارُ

وما خلا الخليفةُ هشامٌ منها، فلقد مَدحه وقال:

لَعَمْـرِي لئن لاقتْ هِشَـامـاً لـطالَ مَـا تَمَنَّتْ هِشَـامـاً أن يكـون اسْتِقـامَهَـا

ثم لا يلبث أن يَعود فيهجوه ويقول:

لَـبِئْسَ أميـرُ الـمـؤمـنـين أمـيـرُكُـمْ وبِئْسَ أمـيـرُ الـمـؤمـنـيـن هِـشَـامُ

ثم يُنكـر على هشـام تجـاهُله عليَّ بن الحُسين، وقـد وقعت عينـاه عليـه في الحجّ، ورأى الناس يُفسحون له، فيقول:

ولَـيس قـولُـك مَنْ هـذا بـضـائِـرِهِ العُـرْبُ تَعْـرِفُ من أَنْكَـرْتَ والعَجَمُ

على هذا النَّحو عـاش الفرزدق بين مَـدح وهجاء، ومـا أظنه مَـدح لخَير عـامّ ولكن لِخَير نفسه، وما أظنه هجا لدفع ضَر عام بل هَجا لدفع الحَيْن عن نفسه، ومـا كان هاشميًّـا في ظنّي حين استنكر على هشـام تجاهُله لِعَلِيّ بن الحُسين، بـل لأنه كـان عندهـا حاقـداً على هشام فـوَجدهـا فُرصـة لشفاء غليله منـه، مُتَّخِذاً من هـذا المديح مَطِيَّته.

هذه المنفعة الذاتية هي التي أملت على الفَرزدق شِعْرَه، وكما كانت حالُه مع الناس كانت حاله مع قومه، ولقد نال قومُه من لسانه ما ناله النـاس، أوسعهم مَدْحـاً حين وجـد الراحـة في ساحتهم، وآنقلب عليهم إذا مـا ضاق شيئـاً، نُحس هذا في آعتذار له عمَّا قال في هجائهم، وهذا حين يقول:

يـا قَـوم إنّـي لـم أَكُـنْ لأَسُبَّـكـم وذو البُـرء مَحْقُـوقٌ بـأن يَتَعَـذَّرا

البُرء: البراءة.

بَيْـد أن من مَيَـادِين الحيـاة مـا كـان جـديـراً بـأن تمتلىء سـاحتُـه بغَيـر تلك المُهاترات، وكان جديراً بالفرزدق أن نسمعها منه كلمات واعيةً بنّاءة.

تُرى هل كان شُعراء هذا الميـدان، والفرزدق منهم، لا يملكـون مع الألسنـة عُقولاً واعية، أم أن المـطامع الـذاتية التي كـانت أسلوب ذلك العصر غَلبتهم على أمرهم، أعني الشعراء، فـإذا هم مع النـاس سواء بسـواء. إن الشاعـر إذا فقد هـذه القُدرة فقد شاعريته، وكان ناظماً فحَسْب، وكـأنّ الذين قـالوا عن الفـرزدق ما قلتـه قبل: لولا شِعر الفرزدق لذهب ثلث اللغة، ولولا شعره لذهب نصف أخبار النـاس، لعل هؤلاء كانوا أعرفَ منّا بأهداف الشعر، حينذاك، فإنه لم يكن غير معجم لغـوي إخباريّ(٤).

* * *

## ومنهم: جَريرُ بن عَطِيّة (٧٢٩ م ـ ١١١ هـ).

في خِضَمٍّ تزاحُم الشُّعراء على بلاط ملوك بني أُمية وُلِد جريـرٌ وعاش، وكـان عليه أن يَشُقَّ طريقَه الوَعْر ليبلُغ وإلا عاش هَمَلاً.

ولم تكن ثَمَّةَ وسيلةٌ إلى الوصول غير أن يَهْجُوَ أولاً ليُرْهِبَ، ثم أن يَمدح ثانياً ليُرْغَب. وما هو يبالغ بالهجاء إلا إذا أَقذع وأَفحش، ولا يبالغ بـالمدح إلا إذا أَغـرق وأَفسح.

---

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ معجم الشعراء للمرزباني ـ طبقات الشعراء لابن سلام.

وهاتان صِفتان إن غَلبتا على المرء باعدتا بينه وبين كَلمة حقّ يقولُها، وجَرَّتاه إلى التَّنقيب عمّا يُسيء إن هجا، ويُزْهِي إنْ مدح، وإذا هو قد عاش لنفسه ولنفسه في الحالَيْن، لا يَعنيه إلا أن يكون الغالبَ والمُقَرَّب.

لقد نظم جريرٌ ما يبلغ الخمسين ومائتي قصيدة تزيد أربعاً، قصائدُ المدح منها ستٌّ وسبعون، وقصائد الهجاء منها عِشرون ومائة، ولو ضَممت إلى قصائد المدح قصائدَه في المراثي، التي لم تكن في الحقِّ غير مدح هي الأُخرى، أصبحت قصائدُه في المدح ثمانياً وتسعين، وغدَا ما قاله جرير مَدْحاً وهجاءً، هو ديوانه كُلُّه. إذ ليس ثَمَّة بعد هذا غيرَ أبيات متفرّقات في الفَخر بغَير ما هو له، كقوله:

أَلَيْسَ فوارسُ الحَصَبَاتِ مِنَّا إذا ما الحَرْبُ هاج لها عُكُوبُ

العُكوب: الغُبار.

وكقوله مُدَّعِياً ما ليس فيه:

إنِّي آمرؤٌ يَذُبّ عن حَرِيمِي حِلْمِي وتَرْكُ الجَهل للَّئيمِ

ومثله قوله:

فإنِّي لذو حِلْمٍ وإنِّي لَلَيِّنٌ وإنِّي لأَحْمِي بالشَّكَاسَةِ لِيني

وغير أبيات أُخرى قِلَّة في النَّسِيب، وما هُو من رجاله، وهكذا كقوله:

هانَ على ذاتِ الحَشَا الخَفَّاقِ ما لَقِيَتْ نَفْسِي من الإشْفَاقِ

ثم غير أبيات له أُخرى في العِتاب، وما أَشبهه منها أن يكون هاجياً، وهذا مثلُ قوله:

لو كنتُ في غُمْدَانَ أو في عَمَايَةٍ إذَنْ لأَتَانِي مِن رَبِيعَةَ راكِبُ

هذه هي أغراضه التي خرج فيها عن المَدح والهجاء فيما يَبْدُو، وما أقلَّها كما قلتُ قبلُ. وأما عن مدحه، فهو لم يترك مَلِكاً من مُلوك بني أُمية إلا مَدحه:

مدح عبد الملك بن مروان بقصائد هانَ فيها ما شاء له الهوانُ فقال:

تَعَزَّت أُمُّ حَزْرَةَ ثمَّ قالت رأيتُ المُوردِينَ ذوي لقاحِ

تُعَلِّلُ وهي ساغِبَةٌ بَنِيها     بأَنْفاسٍ من الشِّيمِ القَراحِ

ومدح سُلَيْمانَ بن عبد الملك فأغرق ما وسعه الإغراق فقال:

سُلَيمان المُباركُ قد عَلِمْتُمْ     هو المَهْدِيُّ قد وَضَحَ السَّبِيلُ
أَجَزتَ من المظالمِ كُلَّ نَفْسٍ     وأَدَّيْتَ الذي عَهِدَ الرَّسُولُ

ومدح الوليدَ بن عبد الملك مُتطلِّعاً إلى الغنى فقال:

فَوَثِقْتُ ما سَلِمَ الخليفةُ بالغِنَى     ليس البُحور إلى الثِّمادِ البُرَّضِ

الثماد: الماء يتكاثر عليه الوراد، والبرض: الماء أقليل.

ويَمدح هشامَ بن عبد الملك فيقول متذلِّلاً:

تَعَرَّضت الهُمُومُ لنا فقالتْ     جُعَادَةُ أيَ مُرْتَحِل تُرِيدُ
فقلتُ لها الخليفةُ غيرَ شَكٍّ     هو المَهْدِيّ والحَكَمُ الرَّشِيدُ

ويَمدح مُسلمةَ بن عبد الملك مُتَمَسْكِناً فيقول:

لما نزلتُ بكم عرفتُمْ حاجَتِي     فجَبَرْت عَظمي وآسْتَجَدَّ جَدِيدِي

ويَمدح يَزيدَ بن عبد الملك فيذكِّره بحاجة المُحتاجين، وهو منهم، فيقول:

إنّ الخَليفَةَ لليَتَامَى عِصْمَةٌ     وأبو العِيَال يَشُقُّه الإقْتَارُ

ويَمدح عبد العزيز بن مروان فَيَمضي في المديح إلى غايته فيقول:

مَدَحْنَاكَ يا عبد العزيز وطالَمَا     مُدِحْتَ فلم يَبْلُغْ فَعَالَك مادِحُ

ويَمدح العبّاس بن الوليد فيسأله في صَراحة ويقول:

تُعْطِي المِئِينَ فلا مَنٌّ ولا سَرَفٌ     والحَرْبَ تَكْفِي إذا ما حَمْيُها وَقَدَا

ويَمدح عبدَ العزيز بن الوليد مُفْصِحاً عن عَوَزه، فيقول:

إذا قُلْتَ لي عبدُ العزيز كَفَيْتَنِي     زَمَاناً فَشَتْ عِلاَّتُه ومَباخِلُهْ

ويَمدح عُمَرَ بن عبد العزيز فيُغْرِيه بالجُود ويقول:

فَمَا كَعْبُ بنُ مامَةَ وآبنُ سُعْدَى     بأَجْوَدَ منكَ يا عُمَرَ الجَوَادَا

ويَمدح مُعاويةَ بن هشام طامعاً مُستزيداً فيقول:

ما البَحْرُ مُغْلَوْلِباً تَسْمُو غَوارِبُهُ     يَعْلُو السَّفِينَ بآذِيٍّ وإزْبادِ
يَوْماً بأَوْسَعَ سَيْباً مِنْ سِجَالِكُمُ     عِند العُنَاة وعِند المُعْتَفِي الجادِي

ويَجد الحجّاج موصولاً ببني مَروان يَقضي في الأُمور وكأنه واحدٌ منهم فيمدحه ويقول:

دَعَا الحَجَّاجُ مِثْلَ دُعاء نُوحٍ فأَسْمع ذا المَعارِجِ فاَسْتَجابَا

وكما مَدح جريرٌ الحجَّاج مدح صِهره الحكم، وهو يعلم ما عنده، فيقول:

حتَّى تناهَيْنَ إلى باب الحَكَمْ خَلِيفةِ الحجَّاج غَيْرِ المُتَّهَمْ

في ضِئْضِيء المَجْدِ وبُؤْبُؤ الكَرَمْ

وما أظُنّ جريراً ترك مطموعاً فيه لم يَمدحه.

وأما عن هِجائه، فجَرير في هذا الباب لم يزِلّ زَلّة غيره فَيَهجو مَن مَدَح، ولقد فَرغ في هِجائه لأربعة من شعراء عصره، هم:

الفرزدق، والأخطل، والبَعيث، وعمر بن لَجأ. خَصَّ الفرزدق من قصائد هجائه، التي بلغت عشرين ومائة، كما قلت قبل، بِتِسْع وستّين قصيدة، وخص الأخطل بخَمس وعشرين، وخصَّ آبن لجأ بواحدة.

وأكاد أعُدُّ القصائد التي هَجا بها جريرٌ بني تَمِيْم بن عبد مناة، من هجائه للفرزدق، وابن لجأ. فآبن لجأ تميميّ، وكان جرير يَعُدُّ الفرزدق من أدعياء تميم، وفي هذا يقول:

فلن تَسْطيعَ يا بْنَ دَعِيِّ تَيْمٍ على دَحْضٍ مُزاحَمة القُيُولِ

وهذا يَعني أن الفرزدق خَصَّ بجُلِّ قَصائده الهجائية جَرِيراً وإن شئت أن تعرف شيئاً عن أُسلوب الهجاء فحَسْبك أن تقرأ لجَرِيرٍ بيتَه هذا في هجاء الفرزدق:

إنَّ الفرزدقَ أَخْزَتْهُ مَثالِبُه عَبْدُ النَّهارِ وزانِي اللَّيْلِ دَبَّابُ

واقرأ معي هذا البيت في هجائه للأخطل:

فإنَّكَ يا خِنْزِيرُ تَغْلِبَ إنْ تَقُلْ رَبِيعَهُ وَزْنٌ من تَمِيمٍ تُكَذَّبُ

واقرأ معي في هجائه للبَعيث:

أَنْتَ ابنُ هاتِيكَ وتِيكَ تِيكَا أَشْبَهْتَ منها شَبَهاً يُخْزِيكَا

يـا بْنَ التي كـانَت تُمَشّى حِيكـا كـأنّ بـين إسْكَتَيْهـا دِيكـا

واقرأ معي هجاءه لابن لَجأ:

يـا قَبَّح الله عَبْـداً من بَني لَجَإٍ يـأوي إلى نِسْوةٍ رُصْـعٍ مَدَاريمِ

رصع: ضامـرات لحم الأعجاز والأفخـاذ. والمداريم: اللاتي يخرجن ليـلاً للفجور.

ثم اقرأ معي هِجاءَه لِتميم:

ألا إنـمـا تَيْـمٌ لـعـمـرٍو ومـالـكٍ عَبيـدُ العَصَـا لم يَـرْجُ عِتْقـاً قـطِينُهـا

هذا هو جرير مادحاً وهاجِياً، مدح يَرْجُو الكسب، وهجا يـرجو الحِرْص على هذا الكسب، ولا شيء بعدهما رَجا الحياةَ بشعره، لنفسه، ولم يَرْجُ منهـا للناس لا قليـلاً ولا كثيراً، ولكي يضمنهـا حياةً رَغـدةً، أوسع في مـدحه طلبـاً لعـطاء أكثـر، وأَسفَّ في هجائه ليُرْهِبَ خُصومه من الشعراء فتَخلو السبيلُ أمامه[1].

* * *

ومنهم: **الطِّرِمَّاح بن حَكِيم (٧٣٠ م - ١١٢ هـ).**

هـذا شاعـر ما أكثـر ما فَخـر، وما أكثـر ما هَجـا، وما هجـا إلا ليؤكّـد فَخـره ويُدعِّمه، ولم يَهجُ لغير هذه لإزاحة مُنافس له على الكَسب، فما رأيناه عَرف أبوابَ بني أُميـة، ولا زاحم غيرَه من الشُّعـراء على بَلاطهم، بـل نَفض يديـه من أيـديهم، وخَصَّ نفسه برجُلَيْن قَنِـع برِفْـدهما، وهمـا: يَزيـد بن المُهَلَّب، وخالـدُ بن عبد الله القَسْرِيّ. ولقد كانت صِلته بالأول أَوثق، يُؤكّد لك هذه أنّ قصـائده في مـدحه تبلغ الخَمس، لـو ضُمت إليها قصيـدته في رثـائه كـانت سِتًّا، على حين أن مـا مدح بـه خالداً لم يُجاوز القصيدتَيْن.

والطرمّاح حين هَجا بني أمية فقال:

إنّي لأَرْجُـو إن لَقِيتُ الـعـامَـا
جَمْـعَ بنـي أُميّـة الـطَّغَـامَـا

---

(١) الأغاني - الشعر والشعراء - الديوان.

أن نَقْتُلَ الصافِيَ والهُمَامَا
وأن نُزِيلَ من رجالٍ هامَا

كان لا يحب أنْ يَهْبِطَ إلى ما هَبط إليه نُظراؤه من شُعراء عصره وهو حين يمدح يزيدَ بن المهلَّب مَدحه لاثنتين: مَدحه لِقَحْطانِيَّته، وما أَقربها لقوم الطِّرماح، ومدحه لفُتوته وشجاعته، وما أقربهما صِفَةً للطِّرمَّاح، تتجلَّى لك هذه وتلك في قوله يمدحه:

وَجَدْناكَ أولاهُمُ بالفَعَا ... لِ قِدْماً وبالقُحَمِ الفاسِحَهْ

الفَعَال: الفعل الحسن من الجود والكرم، والقُحم: الأمور العظيمة الشاقَّة، والفاسحة: الشديدة.

فَبَيْتُ ابنِ قَحْطان خَيْرُ البُيُوت ... على حَسَدِ الأَنْفُس الكاشِحَهْ

الكاشحة: المبغضة.

ثم هو حين مَدح خالداً، مدحه أيضاً لهاتين الاثنتين، فهو يَمانيّ الأَصل، ثم هو من أهل بَيت لهم أنعامهم، تحس هذه وتلك في قول الطِّرمَّاح وهو يَمدح خالداً:

يا خالِ ما وُجْدُ آمرىءٍ من عُصْبَةٍ ... يَتَضَيَّفون قَوادِمَ الأَكْوَارِ
يَعْتَدُّ مثلَ أُبوةٍ لكَ تِسْعَة ... بِيض الوُجُوه أعِزَّةٍ أَخْيَارِ
شِقٌّ وغَمْغَمَةُ الأَغَرُّ وعامرٌ ... عُمدَاءُ أهلُ لُهاً وأهلُ مَغَارِ

شق، وغمغمة، وعامر من أجداد خالد. واللها: العطايا. والمغار: الإغارة.

ولم يَكُن ترفُّع الطرمَاح عمّا هوى إليه نُظراؤه بالعَجيب عليه، فهو من بَيْتٍ مَعدود، وهذا الشاعر الذي فَخر فأكثر كان غريباً عليه أن يَزِلَّ فيَمُدّ يدَه مادحاً.

اقرأ معي قولَه يَفخر بقَومه:

إنَّ العَرَارَة والنُّبُوح لِطَيِّىءٍ ... والعِزُّ عند تكاملُ الأَحْسَابِ

وأقرأ معي قوله:

لَنَا الجَبَلانِ من أَزمانِ عادٍ ومُجْتَمَعُ الأَلاءَةِ والفَضَاةِ

الجبلان، هما جبلا طيِّىء وسلمى. والألاءة والفضاة: من الأشجار الدائمة الخضرة.

وغيرُ هذا كثير تقرؤه في قصائِد فَخره التي آستوعبت جُلَّ ديوانه، كما قلت قَبْلُ.

وهو حين هَجا هَجا مُفاخراً بقَومه ومُزْرِياً بمن يُنافس قومه، وحتى في هجائه للفرزدق لم يَنَلْ منه ولكن نال من قَومه.

إقرأ له في هجاء تميم:

لَوْ حانَ وِرْدُ تَميمٍ ثُمَّ قِيلَ لها حَوْضُ الرَّسُول عليه الأَزْدُ لم تَرِدِ

واقرأ معي هِجاءَه للفرزدق:

قَيْسٌ أعزُّ لدين الله مَنْصُرَةً منكم وأكرمُ خُبْراً حين تُخْتَبَرُ

فهو كما ترى فَخر أكثر ممّا هجا.

ولم يكن على هذا الفَخر بقومه داعية حرب، بل كان إلى السلم أقرب، ألم تقرأ قوله:

وقد يُوسَى كَبِيرُ الشرِّ حتَّى يُبِيخُ دُخانَه رَأْبُ الأُسَاةِ

يُوسَى: يداوى، ويُبيخ: يسكِّن ويُخمد، والرأب: العلاج، والأُساة: المُعالجون، وليست هذه النَّزعة السّلمية بغَريبة على شاعر نَظر إلى غَدِهِ قبل أن ينظر إلى يومه، وآمن أنَّ الحياة إلى فَنَاء، وأن أمر الناس إلى جَزاء، تُحِسّ له هذا حين تقرأ قوله:

إنّما الناسُ مثلُ نابِتَةِ الزَّرْ عِ مَتَى يَأْنِ يَأْتِ مُعْتَصِدُهْ

وتُحِسّه أبْيَنَ في قوله:

لَقد شَقِيتُ شَقَاءً لا آنقطاعَ له إنْ لم أَفُزْ فَوْزَةً تُنْجِي من النارِ

والنارُ لم يَنْجُ مِن رَوْعاتِهَا أَحَدُ إلا المُثِيبُ بقَلْبِ المُخْلِص الشَّارِي

وهـذا البيت الأخير هـو الذي عَـرف منه المؤرِّخـون له أنـه من الشُّـرَاة، وهم الخوارج.

وما بنا أن نُناقش الطِّرمَّاح في آعتناقه رَأْيِ الخوارج، ولكن الذي لنا أن نَعُـدَّه من أصحاب النَّزعة الاستقلالية، وهي الخُطوة الأولى لخَلْق شاعر.

فمـا عَفّ الطِّرمَّـاح عن أن يترامَى على بـلاط الأمـويين إلا لهـذه، ومـا فَخـر الطِّرمَّاح بقومه فـأكثر إلا ليؤكـد وجوده. وماأظنه هجـا إلا لهذه أيضـاً ولكي يُؤكد أن وُجوده الذي يعتزّ به وجودٌ غيرُ مَغمـوز ولا مَغْمور ـ ولـو أن الطرمـاح افتكّ نفسـه من أسـر المـاضي، فلم يَعش لمـا عـاش لـه السلفُ من وصف للديـار والبيـد والنُّـؤي والخَيـل، إلى غير هـذا مما فـاضت جُعبته بـه، ومضى فيمـا بَـدر لـه من إحسـاس بالوجود من حوله، لرأينـا له الكثيـر، ولقد كـان يملك أسبابـه من إحساس بكيـانه، وشجاعة جَنانه، وذَلاقة لِسانه، ووُضوح بيانه.

وعلى الرغم من هذا فهو شاعر أحسَّ بأن يكـون صاحبَ رسـالة، ولكنّ قُيُـود الماضي التي غَرِق فيها إلى الأذقان، عوَّقَتْه وقَعدت عن أن يأخذ بالأسباب[1].

* * *

ومنهم: **حَمزةُ بنُ بِيض (٧٣٤ م ـ ١١٦ هـ).**

إليك حياةَ آبنِ بِيضٌ تُمثِّلها لك أخبـارُه، أو في عبارة أصـحّ: أخبار آبن بيض تصوِّر لك حياتَه، ولـم تكن أخبار آبن بيض كثيرةً فتصوِّر لنا حياةً زاخرة.

فلقد دخل آبن بيض الحيـاةَ وليس له بَيْت ملحـوظ يُعْزَى لـه، أو قوم نـابهون يَنتمي إليهم، فيملأ الحياةَ ضَجِيجاً بمآثـرهم، وكان كـل ما يُعـرف به: أنـه كُوفيّ، وأنه لم يكن له بعدَ أبيه بيض أبٌ.

وأَحَسَّها مَن حوله من الشعراءُ فنالوا منه.

---

(١) الأغاني ـ الديوان.

يُفصح لك عن حِقْده ما كان يَثور في نفسه عن الذين كانوا في مِثل حاله فأنصفهم الدهرُ، من هذا ما كان من آبن عَنْبسة حين تبنَّى يتيماً ورفع من شأنه، فإذا ابنُ بِيض حين تَقع عَيناه، على هذا اليَتيم بعد أن تبنّاه ابن عَنْبسة ورفع من شأنه، يسأل عنه، فيقولون له: صدقة ابن عَنبسة، فيقول بعد أن نَظَر إلى عياله من حوله، هم شعث غُبْرٌ عُرَاة في يوم شاتٍ:

بَشَّمْتَ صِبيانُنا وما بَشِمُوا وأَنت صافِي الأدِيم والحَدَقَهْ

يَشِموا: شبعوا.

فَلَيت صِبيانَنا إذا بَشِمُوا يَلْقَون ما قد لَقِيتَ يا صَدَقَهْ

هذا عن حِقده على الناس، وأمّا عن تَهْوين الناس له، فيُصوِّره لك قول شاعر من مُعاصريه له:

أَنْت ابنُ بِيضٍ لَعَمْرِي لستُ أُنكره حقًّا يَقِيناً ولكنْ مَن أَبُو بِيض

ولقد نشأ ابن بيض ماجناً مُمْعِناً في المُجون مُسِفًّا في عباراته يأبى عليَّ حيائي أن أذكر شيئاً منها. ولكن حَسْب القارىء أن يعرف أنه له مع بلال بن أبي بُردة ممازحات لا تكون إلا على ألسنة السُّوقة، وأنه كان له مع عبد الله بن بشر بن مروان ما هو أدنى منها.

ولكنه بهذا المُجون السّافر آستطاع أن يجد السَّبِيل إلى قلوب من آتَّصل بهم فأوسعوه عَطَاءً. وصل ابنُ بِيض حبله بحبل يَزيد بن المهلَّب فأكرمه، وما أَنْسِيه حين ضَمَّه السّجنُ، فلقد دَخل عليه آبنُ بيض وهو في السجن فمدحه وقال:

أُغْلِق دون السَّماح والجُود والنَّجْـ ـدَةِ بابُ حَديدُه أَشِبُ

فرمى إليه يزيد بخِرقة مَصْرُورة، فإذا فيها فَصّ ياقوت أحمر، ما لبث ابن بيض أن باعه بمال وفير.

ثم دخل ابنُ بيض على يزيد السّجن مرة أُخرى فمدحه، فقال له يزيد: أتمدحني على هذه الحال؟ فيقول له آبن بيض: نعم، لئن كنت هكذا لطالما أَثْبَتَ، ثم يُعقِّب ويقول: فلا بأس أن نُسْلِفَك الآن.

وتَحُزُّ هذه في نَفس يزيدَ فيأمر غُلامه بأن يدفع له أربعة آلاف درهم.
ويَموت يزيدُ، ويَخلفه آبنُه مُخلد، فيَقْصِد إليه ابنُ بيض ويمدحه، ويقول:

أتيناك في حاجةٍ فآقْضِها وقُلْ مَرْحَباً يَجِبُ المَرْحَبُ

فيأمر له بمائة ألف دِرهم، ثم يأتيه أُخرى فيمدحه، ويقول:

أغْضَيْتُ قبلَ الصُّبْح نومَ مُسَهَّدِ في ساعةٍ ما كنت قبلُ أنامُهَا
فرأيتُ أنّك جُدْتَ لي بوَصِيفَةٍ مَوْسُومَةٍ حَسَنٍ عليَّ قِيَامُهَا
وبِبَدْرَةٍ حُمِلَتْ إليَّ وبَغْلَةٍ شَقْرَاءَ ناجيةٍ يَصِلُّ لِجَامُهَا

فيأمر له مَخْلد بهذا كله ثم يأتيه ثالثةً فيمدحه، ويقول:

وأبْيَضَ بُهْلولٍ إذا جِئْتُ دارَه كفانِي وأَعطاني الذي أنا سَائِلُهْ

فيأمر له مخلد بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب. ولا يقنع بهذا العطاء ابن بيض فيقول:

أمخْلَد لم تَتْرُكْ لِنَفْسِي بَقِيَّةً وزِدْت على ما كُنْتُ أرْجو وآمُله

فيزيدُه مَخْلَدُ ويُعطيه ألفي دينار وجاريةً وغلاماً وبِرْذَوْناً.

وأما عن صلة آبنِ بيض ببلال بن أبي بُردةَ فَصِلَةٌ قديمة تَعود إلى أيّام الصِّبا، وكان ابن بيض يَختلف إليه في الحين بعد الحين، يَنال من بِرِّه، ويلي ابن أبي بُردة البصرَة، فيرحل إليه آبن بيض من الكوفة، وينزل به ضيفاً وأيّ ضيف، ويَطول المُقام بابن بيض، فإذا هو يَحِنّ إلى أهله بالكوفة، وما هو بمفارق بلالاً دون أن يزوِّده بلالٌ بما يَطمع فيه، ولكن ثَمّة شِعر يقال عَوَّدنا إياه ابنُ بيض حين يَفِدُ وحين يُغادر، وها هو ذا مُغادر.

فما له لا يسأل ويقول:

وأَنْتَ لي دائِمٌ باقٍ بَشاشَتُهُ يَهتزّ لا عُودَه عَسّ ولا عاسِ

عس: ضامر نَحيل. والعاسي: الجافي.
فيتنبّه بلال لما يُريد ابن بيض ويُجزل صلته ويُسَرِّحه إلى الكوفة.

وكان ابن بيض قد عَرف الطريق إلى سُليمان بن عبد الملك، عندما كان

يزيد بن المهلب عنده، وحين قدم على سليمان أخذ يمدحه، ويسأله العفو عن يزيد، وما كان ابن بيض يَرْجُو بهذه غيرَ عطاء من يزيد، فإذا هو يُصيب مع عطاء يزيد عطاء سليمان، وإذا سُليمان يأمر له بخمسين ألف درهم، وإليك قولَه:

سَاسَ الخِلَافَةَ والداكَ كلاهما ... مِن بين سَخْطة ساخِط أو طامِعِ
سَرَّيْتَ خوفَ بني المُهلَّب بعدما ... نَظروا إليك بِسَمّ موتٍ ناقعِ
ليس الذي ولَّاك ربُّك منهمُ ... عند الإله وعندهم بالضَّائِعِ

ويُقدِّر المُقَدِّرون ما اكتسبه ابن بيض بألف ألف درهم، من مالٍ وحُمْلان وثِياب ورَقيق وغير ذلك.

ألَا ما أدَرَّها صناعةً، صناعةَ الشِّعر، فهكذا كان حظُّها مع المُتكَسِّبين بها، وهكذا كان حظُّها عند سلاطين وأُمراء ذلك العصر، الذين كانوا أفقرَ ما يكونون إلى ألسنة تَشيد بهم وتُناصرهم، وهل ثَمَّة أبلغُ من كلمة الشعر وأَشيع؟

ولكن هل خُلِق الشاعر ليكون داعياً، وهل خُلِقت هذه الكلمة السامية لتكون بمثابة الإعلان؟ لا بل على الشاعر أن يُناصر ما يعتقد، ويُناهض ما لَا يعتقد، يَحْدُوه إلى هذه وتلك رأيٌ يُؤْمِن به، لا أَجْرٌ يحصُل عليه.

بعدها أرأيت معي أيها القارىء كيف كان ابن بيضَ بَعدما سُقْت إليك أخباره؟ وهل أنت معي بعدها في الحُكْم عليه بما حَكَمْتُ أنا عليه به[1].

* * *

ومنهم: **ذو الرُّمَّة غَيْلَانُ بن عُقْبَة (٧٣٥ م ـ ١١٧ هـ).**

هذا شاعر مَلَك مَلَكةَ القَوْل، لا شَكَّ في ذلك، ولهذه لم يكن كثيراً على أبي عَمرو بن العَلاء، أن يقول: فُتِح الشِّعر بآمرىء القيس وخُتِم بذي الرُّمَّة.

وهذه المَلكة الفيّاضة هي التي أَجرت لسانَه بالكثير ممَّا لا خير فيه، وحَسبنا

(١) الأغاني ـ فوات الوفيات ـ معجم الأدباء.

سَنَداً على هذه قولُ الأصمعيّ: لو أدركت الرُّمَّة لأشرتُ عليه أن يَدَع كثيراً من شعره، فكان ذلك خيراً له.

لقد كان ذو الرُّمَّة جاهليَّ الدِّيباجة، وهو الذي لم يُدْرِكْ الجاهليَّةَ من قُرب أو بُعد، فلقد كان مولده في العام السابع والسبعين من الهجرة (٧٧ هـ).

وما أظُنُّ إقامته بالبادية هي التي حرَّكت فيه هذه النَّزعة، فلقد كان كثيرَ الاختلاف إلى الحَضَر، فلقد كان يُكْثِر النزولَ باليَمَامة والبَصرة، ولكنِّي أكاد أعزو هذه النَّزعة إلى عُكوفه على الشِّعر الجاهليّ، وإن لم تذكر هذه المراجع له، فما تُخْلَق هذه النَّزعات من فَراغ، فلا بُدَّ لها من إحدى آثنتين: بيئة تملأ على الشاعر نفسه، أو مقروء يَسُدُّ مَسَدَّ هذه البيئة بكُل ما تملك.

لقد وقف ذو الرُّمَّة على الأطلال، وليس ثمة أطلال، ولقد وصف ذو الرُّمة مظاهرَ البادية أرضاً وسماءً، على نحو ما كانت عليه في الجاهليّة، وما كانت باديته التي أقام بها وقتاً تَحْكِي شيئاً من هذا، ولقد قال ما قال عن العِيس وضَربها في البيداء، وما إخاله رَكِبَ منها شيئاً، ولقد كان حَسبه، إن كان ولا بُدَّ لافِتَنا إلى قُدرته على هذه، أن يجتزىء بقصيدة أو اثنتين، ولكنّا نجده لا تكاد تَخلو قصيدةٌ من قصائده، من الجُنوح إلى هذا. لقد بَكى ذو الرُّمَّة الدِّيار فِعْلَ الجاهليِّين في قصائدَ كثيرة، فقال بأسلوبه الجاهليّ:

قِفَا نُحَيِّي العَرَصات الهُمَّدَا  والنُّؤْيَ والرَّمِيمَ والمُسْتَوْقَدَا

وقال في قصيدة أخرى:

أَلَا أَيُّهَا الرَّبْعُ الذي غَيَّرَ البِلَى  كأنَّك لم يَعْهَدْ بك الحيَّ عاهِدُ

وقال في قصيدة ثالثة:

هَلْ تَعْرِفُ المَنْزِلَ بالوحيدِ  قَفْراً محاه أَبَدَ الأَبيدِ

وغير هذا كثير كما قلتُ قبل.

وأطرفُ ما وقع فيه ذو الرُّمّة، والذي أملته عليه تلك النَّزعةُ الجاهلية، أن

يكون عاشقاً، وإن لم تَكُنْ ثَمَّة مَعشوقة، مما أفسح المجالَ هنا لإشباع تلك المَلكةُ مَلكة القَوْل.

لقد أَحَبّ ذو الرُّمة مَيَّةَ وما رأته مَيَّةُ إلا بآخرة، وكما أَحبَّ مَيَّةَ أَحب خَرْقاء.

والقارىء لديوان ذي الرُّمَّة يَجد ما يَقْرُب من نِصف شِعره أو يزيد قليلاً في هذه المَعشوقة المَزْعومةُ. ألا تُعجب معي من مثل هذا العِشق، ثم ألا تعجب معي كيف يسترسل الشاعر في حُبٍّ تخيَّله ولا وُجودَ له؟

ولكنّي أكاد أُرُدّ هذا إلى شيء، فذو الرُّمة خُلِق دَمِيماً قَصِيراً لا يَطمع في أن تُحِبُّه آمرأة، وفي جُعْبته أن يقول، وخير ما يُقال فيه هو العِشْق، أمّا وقد حَرَمَتْه منه خِلْقَتُه فما بالُه هو لا يُصَوِّر، لنفسه، فيَخْلُق له معشوقة تَتمنَّى أن لو رأته، بعد أن مَلأ هو الدنيا بآسمها، بَدَنَةً وتنذر إن هي رأته أن تخر بَدَنَةً، فإذا هي حين تَقع عيناها عليه، ترى رجلاً دميماً أسود، وكانت هي من أَجمل النساء، وإذا هي تصرخ قائلة: واسوأتاه، وابؤساه، واضيعة بدنتاه.

هذا هو قولُ المعشوقة، فانظر ما كان قول العاشق:

دِيارُ مـيَّـة إذ شَقٌّ تُـسـاعِـفُـنَـا ... ولا يَـرَى مثـلَهـا عُـجْمٌ ولا عَـرَبُ

ويقول:

نَـظَرْتُ إلى أَظْعَـانِ ميّ كـأنها ... مُـوَلِّـيَـةٌ مَيْسٌ تَـمِيـل ذوائِبُـهْ

ويقول:

ولـو كـلَّمـت ميٌّ عـواقـلَ شـاهـقٍ ... رِغـاثـاً من الأَرْوَى سَهَـوْنَ عن القَفْـرِ

وأطرف ما في هذا العِشق أنّ ذا الرُّمَّة يعرف أن مَيّة ذات زَوْج، وأنّه لن يرقي إلى أن يكـون على خِلْقَة الـزَّوج، ولكنه يُضفي على هـذا العشق صُورتـه الكـاملة فيقول:

بَـكَى زَوْجُ مَـيٍّ أنْ أُنِيـخَتْ قـلائِـصيُ ... إلـى بـيـت ميّ آخـرَ الـليـل طُـلَّحُ
فمُتْ كَـمَـداً يـا بَعْـلَ مَيٍّ فـإنمـا ... قـلوبُ لَمِـيٍّ آمِنُـو العَـيْب نُـصَّـحُ

أتَرى شيئاً أدعى إلى العجب من هذا؟ شاعر يُفني عُمره، ويَهدر كلماتِه في مثل هذا العَبَث؟

وما جَدَّ ذو الرُّمة، ولا قال كلمةً تُغْنِي، إلا حين مدح بلال بن أبي بُردة، على الرغم من أن هذا المدح كان الدَّافع إليه الكسب، إلا أنه كان قولاً له دافع، ومما قاله في مدحه:

إلى آبن أبِي موسى بِلَالٍ طَوَتْ بنا قِلَاصٌ أبو هُنَّ الجَدِيلُ وداعِرُ

وعلى هذا النحو ذي النَّزعة الجاهليّة كان مَدح ذي الرمة لبِلَال، يسأله ولا يملك إلا أن يُصَرِّحَ فيقول:

أخاً وَصْلُهُ زَيْنُ الكَرِيمِ وفَضْلُهُ يُجِيرُك بعد الله مِنْ تَلَف الدَّهْرِ

هذا هو ذو الرُّمة، لم يلبس للبيئة رداءها، ولَبِس رداءً كان لِسَلفِه، وأقْحم نفسه في حياة العاشقين وما أظنه كان فيها إلاّ مُحاكياً، ومَدح فَزَلَّ، وما هذه بصِفة الشاعر، وأغرق في القول فملأ الكثير من الصَّفحات حتى استحق أن يقول فيه الأصمعي ما قال، وهو ما ذكرتُه قبل، وحتى قال ابنُ خِلّكان: وأخبار ذي الرُّمّة كثيرة، والاختصار أولى.

أتَرى معي بعد هذا أنَّا فقدنا شاعراً مَلك أن يقول، ولكنه لم يَقُل شيئاً عن تلك الحياة الصاخبة من حوله، وخَلَّف لنا شيئاً عَهِدْناه على ألسنةَ مَن سَبقوه[1].

* * *

ومنهم: **العَرْجيّ عبدُ الله بن عُمر (٧٣٨ م - ١٢٠ هـ).**

تَذكر المراجعُ التي تحدَّثت عنه أنه كان ذا يَسار، وأنه كانت له ضِياع بالعَرج، قريب من الطائف، وأنه كان مِعْطاءً.

فأما عن ثَرائه فيقال: إنه كان يستقي على إبله في شَملتين، والشملة: كساء

---

(١) الأغاني - وفيات الأعيان - الشعر والشعراء - الديوان.

مُخْمَل ثم إذا ما عاد إلى بيته آغتسل ولبس حُلَّتين، تُقدِّر المراجع ثمنهما بخمسمائة دينار.

وأما عن عطائه: فلقد عـاد من غزاة لـه فإذا النـاس في مجاعـة، فما فتىء أن قال للتُّجّار: أعطوا الناس وعليَّ مـا تُعطون، وإذا ثمن مـا قد أَعـطى التُّجّارُ للنـاس عشرون ألف دينار، فيُلزمها العرجيُّ نَفْسَه.

وكذا تذكر المراجع أنه كـان فارسـاً معدوداً، وأنـه أَبلى في حَرب مسلمـة بن عبد الملك للروم بلاءً حسناً.

وكذا تذكر المراجع أنه كان شاعراً غَزِلاً، وأنّ البيئة العربية كانت في ظمأ إلى مثله، بعد أن فَقدت غَزِلَها الأول عُمر بن أبي ربيعة سنة ثلاث وتسعين (٩٣ هـ).

والطريف أن شاهـد المراجـع على هذا تلك القِصَّـةُ التي ساقَتْهـا على لسانـه حَبشيَّة من مولَّدات مكة، وأتاها نَعْيُ عُمَرَ بن أبي ربيعة، فـإذا هي تجزع عليـه أشدّ الجـزع وتقول: مَن مكـة وشِعابُهـا وأَبَاطِحهـا ونُزَههـا بعده، ومَن لـوصف ما فيهـا، وَوَصْف نسائها وحُسنهن وجمالهن وملاحتهن.

فقيل لها: خفِّضي عليك، فقد نشأ فتًى من ولد عثمان، رضي الله عنه، يأخُذ مَأْخَذه، ويَسْلُك مَسْلَكه. فقالت: أنشدوني من شعره، فـأنشدوهـا، فَمسحت عينيها وضحكت، وقالت: الحمد لله الذي لم يُضَيِّع حَرَمه، سَرَّيتم والله عني.

ولا ندري كم كانت سِنُّ العَرْجي عندها؟ وما إخاله إلا كان فتًى في الخامسـة عشرة أو نحوها، إذ كان لا يزال على دَرْبِ ابن أبي ربيعة ولم يعْدُه بعد.

وكذا تذكر المراجـع أنه كـان فتى لهو وَصيـد لا يبالي فيهمـا وأحسب أن هذه كـانت الخُطوة الأولى إلى مُجـونه الـذي غـرق فيـه إلى الأذقـان، وأَفحش فيـه كـل الإفحاش، حتى أُغلقت البيوتاتُ المرموقة أبوابَها في وجهه، وناله من جراء هـذا ما ناله.

فلقد حاول العَرْجِيّ أن يزور جَمِيلَة المُغنِّية في بيتها، وكان قد نَزل المدينـة،

فأبت عليه هذه، لِمَا شاع عنه من سَفَه.

ويقال: إن مولاة لثقيف، تُدْعَى كِلاَبَة، كانت تَحْقِد على العَرْجِيّ اَجْتراءه، على ذكر نساء قريش في شِعره، وتقول: لعمري: ما لَقِي أحدٌ فيه خيراً، ولئن لقيتُه لأسوِّدنَّ وجهه.

ويشاء القدر أن يَنتهي هذا إلى العرجي، وأن يُسافر مولى كِلاَبَة لبعض شأنه، ويترك في قصره كلابة، فيأتي العَرْجي القصَر يطوف به، وتراه كلابة فتَرميه بالحجارة، ويَستسقيها فتأبى أن تسقيه، فينصرف عنها ويقول:

قالت كِلاَبَةُ مَن هذا فقلتُ لها ... أنا الذي أَنْتِ من أعدائه زَعَمُوا
إنِّي آمرُؤٌ لجَّ بي حُبٌّ فأحْرضَني ... حتّى بَلِيتُ وحتى شَفَّني السَّقَمُ

ويَمتدُّ بالعَرْجِيّ الشَّطَطُ فيتعرّض لأُم الأَوقص محمد بن عبد الرحمن المخزوميّ القاضي، ويَنْفُذ إليها وهي في جَمع من صواحبها في زِيّ حامل لَبَن، وتَتَبيَّنه أُمُّ الأوقص بِزُرْقَته فتصرفه، فينصرف وهو يقول:

لِحَيْنِي والبلاء لَقِيتُ ظُهْراً ... بأَعْلَى النَّقْعِ أُخْتَ بني تَمِيمِ

والنَّقع: موضع قرب مكة في جَنبات الطائف، وتبلغ هذه القاضي فَيضْرِبه عليها سَبعين سوطاً.

ويَخْطُو العرجيَّ إلى السَّفَه خطوات أوسع، فإذا هو يُشَبِّب بجيداء، أم محمد بن هشام، خال هشام بن عبد الملك، وكان محمد عندها والي مكة، فيقول:

إلى جَيْدَاءَ قد بَعَثُوا رَسُولاً ... لِيُخْبِرَها فلا صُحِبَ الرَّسُولُ

ثم يترك جَيْدَاءَ أُمَّ محمد بن هشام إلى زوجته جَبْرة، فيقول:

عُوجِي عليَّ وسَلِّمي جَبْرُ ... فِيمَ الصُّدودُ وأنتُم سَفْرُ

وهنا يبلغ السَّيْلُ الزُّبَى، ويُجاوز الحزام الطُّبْيَين، كما يقولون، فيَلتمس محمد بن هشام للعرجي الأسبابَ لينالَ منه، وإذا هو يجد سَبباً فيُمسك به، فلقد

كـان العَرْجِيُّ لاحَى مـولًى كان لأبيـه، فأَمَضَّـه العَرْجِيَّ، أي آلمـه وأوجعه، فقـابله المـولَى بالمثـل فيَحْنَق العرجي عليـه ويُنَكِّل بـه تنكيلاً فـاضحاً، ثم يـأمر بـه ليقتل وتُحْرق جُثّته.

عنـدها أمسـك محمد بن هـاشم بالعـرجيّ وأودعه السجن حتى مـات، وكان قَضى فيه تسعَ سنين.

وكان العرجيّ يخال أن قَومه سيهبُّون لنُصرته وإطلاقه، ولكن الـذي يَبدو أنهم كانوا به هم الآخرون بَرِمين. ويُحِسّها العرجيُّ فيقول:

أَضَـاعُـوني وأيَّ فَتًى أضـاعُـوا     ليـومِ كـريهـةٍ وسـدَادِ ثَغْـرِ

ويَذهب بعضُهم إلى أن العرجيّ حين شَبَّب بجَيـداء وجبرة شبَّب بهمـا تنفيساً عن نفسه، إذ كان يَحقد على محمد بن هشام حين ولي مكة، وكان هو يطمع فيها، من هنا كان هجاؤه له، ولهذه كان تشهيره بأَهل بيته.

ولقـد كان للعَـرْجيّ أن يهجو محمـد بن هشـام، ولكن لم يكن لـه أن يُشَهِّـر بالحُرُمات، فهذه فَعلة شَنعـاء. وأكاد أذهب إلى أن هـذا التشبيب بجيداء وَجبـرة لم يكن للذي ذكره البعض، فالذي أُثر عن العـرجيّ أنه مـا سمع بـاسم امرأة إلا شبَّب بهـا، ولا وقعت عينه على امـرأة عابـرة إلا شبّب بها، وحين لم يجـد هؤلاء وهؤلاء أطلق لخياله العِنان يُشبِّب بنساء مَجهولات لم تُسعفه ذاكرته بأن يَضع لهن أسماء.

ما نُنكر أن العرجيّ كان فَحْلاً في فن الغَزل، ولكن ليس الغزل أن نقول فيمـا لا حقيقَة له، فما تعرف أن تلك العاطفةُ تُمْلِي من فـراغ، وإلا كان الشـاعرُ كصـانع الدُّمى، مهارتُه في يده، وهكذا كان العَرْجيّ مهارتُـه في لِسانـه، ولا نصيب لها في قلبه.

وما أَحللنا شِعْر الغزل إلا للثـانية، أعني القلب لا اللسـان، وإن قدَّرنـاه على الأولى فتقديرنا له على أنه صناعة فحسب.

. شَبَّب العَرْجيُّ بعَمْرَةَ فقال:

مـن آلِ عَـمْـرَةَ والـمُـحِـبُّ مَـشَـوَّقٌ      سَـرِبُ الـدُّمـوع إذا نَـأَى أحبـابُـهُ

وقال:

وطَـرْفٍ أبَى يـا عَمْـرُ إلا آتِّبـاعكـم      وقـلـبٍ أبَـى إلاّ عَـلَيْـكِ يَـجُـولُ

وقال:

يـا عَمْرَ إنِّي فـاْصْرِميني أو صِلي      لَـجَّتْ بـحُبِّكُم بـنـاتُ فـؤادِي

وشَبَّب بنُعْم. فقال:

أَصْبـح الخَيْفُ بـعـد نُـعْمٍ خَـوَاءُ      فَـثَـبِـيـرٌ فَـبَـلْدَحٌ فَـجـزاءُ

وشَبَّب بقُرَيْبة فقال:

قَـرَّبـتْـنـي إلـى قُـرَيْـبَـة عَـيـنـي      يـومَ ذي الشَّرْي، والهَـوَى المُسْتَعَـارُ

وشَبّب بأسماء ومُجْمل معاً، فقال:

غَـيْـرَ أسـمـاء وجُـمْـلِ      ثـم لا نَـخْـشى رَقِـيـبـاَ

ثم شبّب بأسماء وحدها، فقال:

لأَسْمَـاءَ إذ قلبـي بـأسمـاءَ مُـغْـرَمٌ      وفي ذِكْـرِ أسمـاءَ المَلِيحَـةِ مُهْـجَـرُ

وشّبب بعَبْدَة، فقال:

وزَعَـمْـنَ أنَّ وصـالَ عَـبْـدَةَ عـائِـدٌ      عـاراً عـليَّ ولـيس ذلـك عـارَا

وشبِّب بزَينب فقال:

طـال عـن أبـي زَيـنـب الإعْـراضُ      بـي حِـذَاراً ومـا بـنـا إبْـغَـاضُ

وشبّب بأُمّ الغُلام فقال:

جُـنَّ قـلـبـي بـذِكْـرِ أُمِّ الـغُـلامِ      يـومَ قـالـت لـنـا لِـجُـوا بِسَـلامِ

وشَبّب بحُمَيدة فقال:

حَـمَـل القَـلْبُ من حُـمَـيْـدةَ ثِـقْـلا      إنّ فـي ذاك لـلـفُـؤاد لـشُـغْـلاَ

هذه عمَّن ذكر العَرْجِيُّ أسماءَهُنَّ، أما عن غزله المُطْلق فقد أحصيتُ له نحو خمس وعشرين قصيدة.

فهـذا ديوان شِعـر في الغـزل لا في غيـره، لمن شـاء أن يختـار منـه مـا يتَّفق

وحالَه، ممّن لا يملكون مَلكة القول. أما عمّن يريدون أن يقفوا على الغزل الحق، الذي يشارك فيه القلبُ اللسانَ، فليبحثوا عن ديوان غير ديوان العَرْجِيّ، وشاعر أَحَبَّ لا شاعر جَعل من الحُبّ مَلهاته[1].

* * *

ومنهم: **يزيد بن الطَّثْرِية (٧٤٤ م ـ ١٢٦ هـ).**

أُحِبّ قبل أن أسوق أخبار يزيد أن أصلَ القارىء بما تناقلته المراجعُ عنه، وهي مُجْمِعة على أنه كان كامل الأَدب، وافر المروءة، لا يُعاب ولا يُطْعَن عليه.

وهي مُجمعة أيضاً على أنه كان سَخِيًّا، شُجاعاً، له أَصْلٌ وَمَحَلٌّ من قومه وهي مُجمعة كذلك على أنه كان من أحسن من مَضى وجهاً، وأَطيبه حديثاً. وكذلك هي مُجمعة على أنه كان إذا جلس إلى النساء وَدَقَهُنْ، أي أمالهنّ إليه. وتُكلِّل المراجع هذا الإجماع بأنه كان عِنِّيناً، مؤيِّدةً إجماعها هذا بأنه لم يكن له عَقِبُ.

وما نملك أن نقول شيئاً يَخدش هذا الإجماع، ولكنا نملك أن نَسْرُدَ لك أخباره. وليست إلا عن ألسنة هؤلاء المُجمعين على ما سَبق لك عنه.

تقول المراجع: إن جَرْماً أَجدبوا فنزلوا ببَنِي قُشَيْر يلتمسون الإيواء، ويشكو بنو قُشير إلى جرم ما كان من رجل منهم، هو ميَّاد الجرميّ الذي ظلّ يَجُرّ أذياله بين بُيوتهم، وتَعدُّها عليهم جَرْمُ قِلَّة ثقةٍ بنسائهم، ويكاد يَثور بين الحَيَّيْن خلاف حول عِفَّة نساء هؤلاء وهؤلاء، ويتّفقون على أن يَبعث الجرميّون منهم رجلاً إلى القُشَيريّين، بعد أن يَنصرفوا إلى مائهم، وكذلك يفعل القُشيريون فيبعثون إلى بيوت الجرميِّين رجلاً من رجالهم، بعد أن ينصرفوا هم الآخرون إلى الماء، وتشارطوا جميعاً أن لا يُخبروا نساءهم بما انتهوا إليه حتى لا يَحْتَطْنَ.

وكان ما كان، فحين أصبح الصبحُ ذهب رجالُ هؤلاء وهؤلاء إلى الماء،

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ الديوان.

وتركوا بيوتهم لا تَضُمُّ غيرَ نسائهم. ويطوف فتى جَرم، وهو مَيَّاد الجرميّ، ببيوت القُشيريّات فلا يَلقى إلا صدوداً وإعراضاً، بعد أن رَجَمْنه بالجَندل. ورَفَعْن في وجهه العَمَد.

وكان لا بد للجرميّ أن يعود بشيء يُدَلِّل به على رأي الجرميين في القُشيريّات، فيحتال على راعية قُشيريّة فينزع عنها بُرْقُعَها، وإذا هو يُسرع الخُطى إلى حيث جُموع القشيريّين والجرميّين. ويَرمي بالبرقع بين أيديهم.

وقد فات الجرميَّ أن الراعية القُشيريّة كانت في إثره تلاحقه، وما إن ألقى ميَّاد ببُرقعها حتى آرتمت عليه تُمسك به تشكو للقوم ما كان من أمر الجَرْميّ معها ويُخْزَى الجَرْمِيُّ، ويكاد القوم يتفرّقون. وإذا يَزِيدُ يُطالعهم وفي كُمِّه براقع وذيل رنخاء، ويَنْثُر هذا كلَّه بين أيديهم، ويَحلف على الجرميّين أن يُمسك كلُّ رجلٍ منهم بما يعرف أنه لأهله.

وأُحبُّك أن تعرف ما فعل يَزِيدُ بالجرميّات بعد ما عرفت ما فعل القُشيريّات بميّاد.

والمراجع صاحبة ذلك الإجماع الذي مرّ بك تقول: لقد ظل يَزِيدُ عند الجرميّات بأكرم مظلّ، لا يصير إلى واحدة منهنّ إلا افتُتِنت به، وتابعته إلى المودَّة والإخاء، وقبض منها رَهناً، سألته ألّا يدخل من بُيوت جَرْم إلّا بيتها.

وانصرف يزيدُ بفتخ كثير وذَيْل وبَراقع، وانصرف مكحولاً مدهوناً شَبعان ريّان مرجَّل اللِّمَّة.

ويقول يزيد يصف ما كان:

فإن شِئْتَ يا ميّاد زُرْنَا وزُرْتُمُ ولم نَنْفَس الدُّنيا على من يُصِيبُها

أيذهب مَيَّادٌ بألباب نسوتي ونِسْوَةُ ميّاد صَحِيحٌ قُلُوبُها

هذه واحدة عن هذا الرجل الذي أجمعت المراجع على أنه كان كامل الأَدب، وافرَ المروءة، لا يُعاب ولا يُطْعن.

ولكن قبل أن أَنْفُضَ يدي من هـذا الخبر. وآخـذ في غيره، أسـألك وأسـائل نفسي: أيّ بيئةٍ تلك التي يُصوِّرها لنا هذا الخبر، وأية نساءُ مسلمـات هؤلاء اللاتي يحدِّثنا عنهن هذا الخبر؟

وتمضي المراجع التي أُجمعت على وصف يَزيدَ بما وَصفْته به فتقول:

ويخرج يزيد من هذه المُغامرة وقد عَلِق قلبُه بجَرْمِيّة، آسمها وَحْشِيّة، ويرحل الجرْميُّون إلى اليمن حيث أرضهم، ويَهُدُّ العِشْقُ يزيدَ فيمرض، ويشكو إلى ابن عمّ له، هو ابن بَـوْزل ما يـلاقي، فيحمله ابن بَوْزل إلى حيث وحشيـة، وهناك يعلمـان أنهـا هي الأُخرى مُعتلَّة، ويحتـال يزيـدُ إلى أن يدخـل إلى وحشيّة، وتَهَشُّ وحشيّـةُ لِلُقْياه، وتُدْخِله سِتْراً لها، ثم إذا هي تَجمع عليه من تَثِق به من صواحباتها وأتْرابها. ويُقيم يزيدُ ليالِيَ ثلاثاً، وإذا هو قـد صَحَّ وتمـالك، فيعـود إلى ابن عمّه، وكـان قد تركه غيرَ بعيد، وإذا هو يقول لابن عمه:

| | |
|---|---|
| لـو أنّك شـاهـدْتَ الصَّبَـايـا بْنَ بَـوْزَلٍ | بِفَـرْعِ الغَضَـا إذ راجعتْنِـي غَيَـاطِـلُهْ |
| لشـاهدْتَ لَهْـواً بعـد شَحْطٍ من النَّـوَى | عـلى سَخَطِ الأعـداء حُـلْواً شمـائِـلُهْ |

هكذا تقول المراجع مُجمعة، وما عليك إلا أن تصدِّق، وما يَعنيك أن تسأل: أين كان الناس؟ وأين كان الأهل؟ والطَّريفُ بعد هـذا أن المراجـع تقول: إن يـزيدَ كان يكتب إلى وحشيّة، وأن وحشيّة كانت تكتب إليه، وكانت هي الأُخرى شاعرةً.

فممَّا كتب به يزيدُ إليها:

| | |
|---|---|
| أُحِبُّـك أطـرافَ النـهــار بَشَـاشَـةً | وبـاللَّيْـل يَـدْعُـونِي الهـوى فـأُجِيبُ |
| لئـن أصبـحتْ ريـحُ الـمـودَّة بيـنـنـا | شَمَـالاً لِقَـدْمـا كُـنْت وهـي جَنُـوبُ |

فتكتب إليه وحشيّة:

| | |
|---|---|
| أُحِبُّـك حُبَّ اليـأس إنْ تَقَـعِ الحَيَـا | وإن لـم يكـن لي مـن هـواك طَبِـيبُ |

ما من شكّ أن هذا كان وهُما مُتنائيـان، فشِعْرُ يـزيدَ يؤكِّـد لنا هـذا، تُرى من كان الرسول بينهما، يحمل شِعْر يزيد إلى وحشيّـة، ثم يَعود إلى يـزيد حـاملاً شِعْـر وحشية إليه؟

وثَمّة حَلْقَةٌ وُسطى بين هاتين الحَلْقَتَيْن، كانت والجرميّون لا يزالـون في كَنَف القُشَيْرِيّين فتقول المراجع: إن يزيد لم يَنقطع بعد مُغـامرتـه التي مرت بـك أولاً مع الجَرْميّات، عن الاختـلاف إليهن، وكانت نسـاء فُدَيْـك الجـرمـيّ من هؤلاء الـلاتي يختلف إليهن يزيد، وينتهي أمر هذا إلى فُدَيْك، فيتوعَّدُ نساءه جميعاً أن يفعـل بهن الأفـاعيل إن سَمَحْنَ ليـزيـد بـالاختـلاف إليهن، ولكي يُمْعِن في تخـويفهن يَضـرب أمامهن عُنُقَ غلام مولَّد اسمه عصام، فيقتله، وكان هو الآخر شاعراً، فيقول:

جعلتُ عِـصَـامـاً عبـرةً حينَ رابَـنِي ... أنـاسِـيُّ من أهـلي مِـرَاضٌ قُـلُوبُـهـا

وما لبث فُدَيْك بعدها أن رأى يزيدَ قائماً عند باب أهله، فراوده الشكّ، وأخذ يترقّب، فإذا هو يَرى وحشيَّة. وكانت بنت عمّه، خارجـة تتهادى للقـاء يزيـد، وكان فُديك قد أعد زُبْيَةً أوقد فيها حَطباً لِيَقَعَ فيهـا يزيـد، فإذا وحشيّـة تقع فيهـا ويَحْترق بعضُها.

وبلغ هذا يزيدَ فيقول:

تُـذيقـونهـا شيئـاً من الـنـار كلَّمـا ... رأت من بَني كعب غـلامـاً يـروقُهـا

وأسـائلك وأُسائـل نفسي فِيـمَ هـذا العنـاء كلُّه لـرجـل عِنِّين لا مـأربَ لـه في النساء، وما نعرف مثلَ هذا العناء يتجشّمه إلا من كان من الرجال فَحْلاً.

تُرى هل كـان يزيـدُ يعلم أن الناس عَـرفوا عنـه أنه عِنِّين، ثم تُـرى هل هـذا العَناء من يَزِيد في سبيل وحشيّة، وغيرهـا ممن سأحـدّثك حـدبهنّ، لذَرِّ الـرّماد في العيون كما يقولون؟

وغَير وحشية هوى يزيدُ أسماء الجعفرية، ويقـول يزيـدُ فيها وقـد مَنعها قـومُها عن أن تَبْرُز إليه:

فـإن تَمْنعـوا أسمـاء أو يَـكُ نَفْعهـا ... لكم أو تَـدِبُّـوا بيننـا بـالغَـوَائِـلِ
فـإنْ تَـمْنـعـوني أن أُعَـلِّل صُحْبَتِـي ... على كُـلِّ شيء مِن مَدَى العَيْنِ قـابِـلِ

ثم إليك هوًى جديداً تستطيع به أن تَعرف كيف كان يزيدُ يَضَع هواه.

تقول المراجع: كان يزيد يتحدَّث إلى آمرأة ويُعْجَب بها، ثم وإذا هو عندها يوماً يختلف إليها واحدٌ ثم واحدٌ إلى أن يلتقوا سَبعة، كان هو ثامنَهم، فيتحرَّك لسانُه ويقول:

أرى سَبْعَةً يسعَوْن للوصل كُلُّهم ... له عِند لَيلى دِينة يَسْتَدِينُها

فألقيتُ سَهْمي وَسْطَهم حين أَوْخَشُوا ... فما صار لي مِن ذاك إلا يَمِينُها

أوخشوا: أرذلوا.

ثم يراها معركةً وهو فارس فيها فيقول:

وإنِّي وإنْ أَحْمَوْا عليَّ كلامَها ... وحالتْ أعادٍ دُونها وحُرُوبُ

لَمُثْنٍ على لَيلى ثَناءً يزيدُها ... قَوَانٍ بأفْواه الرُّواة تَطِيبُ

وهكذا يهون الشعر حين يهون الشاعر. وآقرأ معي هذا الخبر الثالث، وما أُحب أن أزيدك عليه:

تقول المراجع: قال قطريّ بن بَوْزل، لابن عمِّه يَزيد: انطلق معي إلى فُلانة، وفلانة، وفلانة، فإنّهن يَبْرُزْن لك ويَسْتَتِرْنَ عَنِّي، عسى أن أُراهنَّ اليوم على وَجهك، فذهب يزيدُ معه، فخرج عليهما النِّسوةُ، وظلا يتحدثان عندهنّ ما شاءا.

وكان هذا الشاعر يُرِيدُ أن يقول، وما له لا يقول والشعر عنده كلامٌ يُقال، فقال:

على قَطَريٍّ نِعْمَةٌ إنْ جَزَى بها ... يزيدَ وإلا يَجْزِه الله لي أَجْرا

وفوتُ به حتى رَمَى الوَحْشَ بعدما ... رأى قَطَرِيٌّ من أوائلها نَفْرَا

وبهذا وغيره، مما هو على ضَربه، عُدَّ يزيدُ من شُعراء الغَزل.

أكاد أذهب إلى أن هذه الأخبار ملفَّقة، فهي تُصوِّر لنا ما لا نَتصوَّره عن بيئة عَرفناها على غير هذا، غير أنها لا تمرُّ دون أن يكون لها شبْه ظِلّ من الحقيقة عن شاعرنا الغَزِل يَزِيدُ، كيف كان؟ وأين كان هواه؟ وكيف رَخُص الشِّعر على لسانه[1].

* * *

(١) الأغاني.

ومنهم: **الكُمَيت بن زَيْد الأَسديّ (٧٤٤ م - ١٢٦ هـ).**

قرأتُ فيما قرأتُ عن الكُميت أنه كان عالماً بلُغات العرب وآدابها وأيامها، وأنه جَمعه وحمَّاداً الراويةَ مسجدُ الكوفة، فتذاكرا أشعار العرب وأيّامها، وإن حماداً نازعه في شيء، فإذا حمّاد يُفْحَم، وإذا هو لا يعود لمثلها.

وقرأتُ فيما قرأت عنه أنّه كان يجلس في مَسجد الكوفة مجلس المُعَلِّم.

فقلتُ: هذا شاعر دَخل إلى ساحة الشعر مُزَوَّداً لا أَعزل، ضَمَّ إلى مَلَكة الفِكْر بزِمَامَ القَوْل، وما أحوج الشاعرَ لهما معاً، ليصوغ خير صياغة رأيه، حين كون له في الوُجود رَأْي.

وقلت: لقد جَلس إلى الصِّبيان مجلساً هو للهُداة المُرشدين الذين نعرف لهم الثبات على الرأي فلا يُرَوْنَ غداً على خلاف ما هم عليه اليوم، وما نُطالبهم بغير ما يعتقدون.

وقلت: لقد ضَمن لنفسه سبيل الرزق مُعَبَّداً، وما أغناه بها عن أن يَزِلَّ قولاً أو فعلاً.

ثم قرأت له فيما قرأت قوله:

وإن لم يَكُنْ إلاّ الأَسِنَّةَ مَرْكَبٌ ... فلا رَأْيَ للمُضْطَرّ إلاّ رُكوبُهَا

ثم قرأتُ قولَه في الإمَامة بعد الرسول ﷺ:

يَقُولُون لم يُورَثْ ولولا تُرَاثُهُ ... لقد شَرِكَتْ فيه بَكِيلٌ وأَرْحَبُ
فإنْ هِيَ لم تَصْلُحْ لِحَيٍّ سِواهُمُ ... إذن فذوو القُرْبى أحقُّ وأَقْربُ
فيا لَكَ أمراً قد أُشِتَّتْ وُجوهُه ... ودارًا ترى أسبابَها تَتَقَضَّبُ
تَبَدَّلَت الأشرارَ خِيَارِهَا ... وجُدَّ بها من أُمَّةٍ وهي تَلْعَبُ

فقلت: هذا هو ما يَعتقده الكُميت قد كَشف عنه، وما علينا إلا أن نَرى جَهْدَه في آستمساكه بمُعْتَقده، وما سوف يحمله في الحِفَاظ عليه، لا سيّما والسلطان لخُصُوم مُعتقده وهم بنو أُمية.

لقد كان الكُميت كوفيًّا، وكان أهلُه من الذين شَهِدُوا مـقْتَلَ الحُسين بن عليّ في العام المُتِمّ الستِّين (٦٠ هـ) وفي هذا العـام كان مـولد الكميت، فشبَّ على مـا كان يحسُّه الكوفيون من أسًى على خذلانهم للحسين فأُشْرِب التشيُّع رضيعاً وصَبِيًّا.

ولم يكن من رجال العلويِّين المَلحوظين عندها غيرُ رجلَيْن، هما أبـو عبد الله جعفـر بن محمـد بن عليّ بن زين العـابـدين بن الحُسين، وزَيـد بـن عليّ بـن الحُسين بن عليّ، فكان الكُميت إليهما يفزع.

دخل على جَعفر يوماً فمَدحه بقصيدته التي أولها:

مَنْ لِقَلْبٍ مُتَيَّمٍ مُسْتَهامِ

فأعطاه جعفرٌ ألف دينار وكُسْوة.

وهنا تتجلّى لك عقيدةُ الكُميت حين قال لجعفر، والله ما أَحْبَبْتُكم للدنيا، ولو أردت الدُّنيا لقصدتُ مَن هي في يَدَيْـه، ولكني أحببتُكم للآخـرة، فأمّـا الثِّياب التي أصابت أجسامكم فأنا أقبلها لبركاتها، وأما المال فلا أقبله، فردَّه وقبل الثياب.

وثَمَّـة قِصّة مثلُهـا تؤكد لـك هذا المعنى، فلقـد دَخل يـوماً على فـاطمةَ بنت الحُسين بن عليّ، فقـالت: هذا شـاعرُنـا، أهلَ البيت، وجـاءت بِقَـدح فيـه سَـوِيقٌ فحَرَّكته بيدها، وسَقت الكُميت فشَـرِبَه، ثم أمـرت له بثـلاثين ديناراً. فَهملت عينـاه وقال: والله لا أقبلها، وإني لم أُحبكم للدُّنيا.

ويقـع بين الكميت وبين خـالـد القَسْـريّ، حين ولي العـراقين لهشـام بن عبـد الملك، ما يسوء، وإذا خالـدٌ ينـال من الكُميت، وإذا الكُميت لا يجـد صِلَتـه بجَعفر تُغنيه شيئاً، ولكي يستطيع خالدٌ أن يَحمل هشاماً على أن يُطْلِقَ يده في النَّيل من الكُميت كمـا يشـاء، دَسَّ على هشـام مَن يُسمعـه شعـر الكميت في مَـدح بني هاشم وهِجاء بني أُمية.

وتثور ثَوْرَةُ هشام، ويُبِيح لخالد ما أراده خالد من النَّيل من الكُميت.

هنا يطلب الكُميت دُنْياه في ظِلِّ الأُمويين، وينزل عن آخرته التي كان يرجوها

في ظِلِّ الهاشميِّين، ولكنه كان ولا يزال بَيْنَ بَيْنَ، فيُرسل أخاه وَرْداً إلى جعفر يستأذنه لأخيه الكُميت في أن يُحِلَّه جعفرٌ من حُبّه للهاشميين ليستقبل حُبّاً آخر معه الدنيا، هو حُبُّه للأُمويّين، فَلْيَقُلْ وَرْدٌ لجعفر: إن الكُميت أرسلني إليك، وقد صنع بنفسه ما صنع، فتأذن له أن يَمْدَحَ بني أمية؟ وما كان جواب جعفر إلا أن قال: نعم، وهو في حِلٍّ فَلْيَقُلْ ما شاء.

وكأنّ الكُميت كان في حاجةٍ إلى هذا الإذن، ولكنه الحياء أولاً، وكان لا تزال فيه بقية منه، فالهاشميّات كان لا يزال صداها يَرِنّ في أُذنيه وآذان الوجود من حوله، ولكنها الدنيا التي أُنست الكُمَيْتَ شجاعَتَه، وخَلعت الكميت من عقيدته، التي ظَن الهاشميّون أنها خالصة قوية، لا تنال منها مُغْرِيات الدنيا، والتي جعلت فاطمة بنت عليّ تقول فيه: هذا شاعر أهل البيت. والتي جعلت جعفر من قبلُ يَرفع يديه إلى السماء ويقول بعد أن أنشده الكُمَيْتُ يوماً بيته:

يُصِيبُ به الرَّامُون عن قَوم غَيرهم ... فيا آخِراً سَدَّى له الغَيَّ أوَّل

اللهم اغفر للكميت ما قَدَّم وما أَخَّر، وما أَسَرَّ وما أَعْلن، وأَعطه حتى يَرْضَى.

وكأنّ جَعْفراً حين دعا للكميت كان يعلم ما سَيؤُول إليه أَمْرُه.

لقد نزع الكميت عن نفسه رِدَاءَ الهاشميّة نَزْعاً، وأَسْبَغ على نفسه الأُموية إسباغاً وهذا حين يقول:

فالآن صِرْتُ إلى أُميَّـ ... ـة والأمورُ إلى المَصَايْر

وإذا هو يرى أن هاشميَّته كانت ضلالاً من الضلال، يتجلّى لك هذا في كلماته التي قالها لهشام، وهي:

أما بعد، فإنّي كنت أَتَدَهْدَى في غَمرة، وأعوم في بَحْر غَوَاية، أَخْنَى عليَّ خَطَلُها، واستَفَزَّني رَهَلُها، فتحيَّرْتُ في الضلالة، وتسكّعت في الجَهالة، مُهْرِعاً عن الحق، جائراً عن القَصْد، أقول الباطلَ ضلالاً، وأَفُوه بالبُهتان وَبالاً، وهذا مَقام العائِذ، مُبْصِر الهُدَى، ورافض العَماية، فاغْسِل عنّي يا أمير المؤمنين الحَوْبَة بالتَّوْبة، وآصْفَح عن الزَّلَّة، وآعْفُ عن الجُرْمة.

ورُبَّ قائلٍ يقـول: إن اعتذار الكُميت هـذا لا ينال من هـاشميّته، فهو اعتذار عمّا كان مِن هجاء الكُميت لبني أمية.

وأقول: وهل هَجا الكُميت بني أُمية لِـذَواتهم، أو هَجاهم لجَـوْرهم على بني هاشم، واغتصابهم حقَّهم في الإمامة؟
فاعتذار الكُميت عن هِجائه لبني أُمية آعتذارٌ عن هاشميّته.

ثم أليس مَدح الكميت للأُمويين هو إقرار منه لهم بـأنهم هم أصحاب الحق، سواء أَصرَّح بهذه أم لم يُصَرِّح؟ ألا يكفيك في هذا قوله:
فـالآن صِـرْتُ إلـى أُمـيَّـ ـة والأُمُـورُ إلى الـمَـصَـايِـرْ

* * *

قـد يكون من الحق أن نقـول: إن مدحـه لبني أمية لم تكن بـه تلك العاطفـة المُلتهبة التي شـاعت في هـاشميّاتـه. ولكن حَسْب الكُميت أنـه أدبـر للهـاشميّين بأُخْراهم، وأقبل على الأُمويين بدُنْياهم، وأصبح هذا حـديثَ الناس، بعـد أن كان حديثُهم غَيْرَه.

ثم أَتـرى ثَمَّـة حُجّـة على تَنَكُّـر الكُميت للهـاشميين أَقـوى من دخـولـه على يوسفَ بن عُمَر يمدحه، وكـان قد وَلِيَ العـراق بعد عَـزْل خالـدٍ القَسْريّ، وإذا ذُكِـرَ يوسفُ بنُ عُمر ذُكر أنه هو الذي أمر الحَكم بن الصَّلْت في الكوفة بمحاربـة زيد بن علي، وكان أن قُتل زيد وحُمل رأسه إلى الشام، فنُصِب على باب دمشق.

ولقد أُنْسِي الكميتُ مقتلَ زيد وذكرَ عزل خالد، وكان له خَصْماً، فحرَّكت فيه هذه الثانيةُ لسانَه ولم تُلْجِم الأولى هذا اللسان عن أن يقول.

وما أُحب أن أَسْترسل فأَذْكُـر لك شيئاً مما مـدح به الكُمَيْتُ الأُمـويين، فلقد مدحهم ما شاء له المديحُ، وقد أُنْسِي آخرةً وذكر دُنْيا.

ومـا كُنَّا نُحِب أن يُعـرِّض الكميت نفسـه للهـلاك، ولكن مـا كـان أولاه، لـو صَحَّت له عقيدته، إن أَحَبَّ الأَمْنَ والأمان لنفسه أن يَرُدَّ لسانَه إلى فيه فلا يقـول في

مَدْحٍ للهاشميّين ولا هِجاء للأمويين، وما كان الهاشميّون فيما إخال يَرْجون منه غيرها.

وإن كان لا بُدَّ مادحاً وهاجياً فما باله لم يذكر قوله:

ولو لم يكن إلّا الأَسِنَّة موكب ... فلا رأي للمُضْطر إلا رُكُوبُها

ويَمُوت هاشميًّا كما بدأ حياته هاشميًّا، وكان في رأسه ما يُغْنِيه عن التلوُّن وعلى الرغم مما كان للكُميت من تنكُّر لهاشميّته فلا تزال تلك الصِّفَةُ تلاحقه، ولا يزال الناسُ يعرفونها له.

تُرى بعد هذا هل نَعُدُّ الكيتَ وَفَى لما آعتقد، وأنه حَفِظ كلمته الشعريّة عن أن يُقال عنها: إنها لم تكن لوجه الحق[1].

* * *

ومنهم: **نابغة بني شَيبان عبد الله بن المُخارق (٧٤٣ م - ١٢٥ هـ).**

هذا شاعر تقاسمته حياتان: حياته الخاصة، وحياته العامة، ولقد طغت أولاهما على ثانيتهما، فإذا هو يُعرف بحياته الخاصة ولا يكاد تُذْكَر له حياته العامة إلا في القليل.

في البادية نشأ نابغةُ بني شَيبان وعاش ومات، ما كاد يُحِسّ بقومه ويَشِيد بهم حتى آشرأبّ بعُنقِه إلى بلاط المُلْك بدمشق، وما يُرَفْرِف عليه من نَعيم.

وهو مهما تَغَنَّى بمدح قومه فليس له مِنهم غير الفُتَات، وليس فيهم من كان على يَسَارٍ واسع يُجْزِل العَطاء لشاعر مهما قال، وكان حَسب النابغة منهم أن يشيِّعوه إلى قبره بعد موته ويذكروا له محاسنه، وفي هذا يقول:

فَسَلُوا شَيْبَانَ إن فارقتُهم ... يومَ يَمْشُون إلى قَبْرِي بِنَعْشِ
هَلْ غَشِينَا مَحْرَماً في قومنا ... أو جَزَيْنَا مُفْحِشاً فُحْشاً بفُحْشِ

تلك حياة نابغة بني شيبان العامّة، لم يشارك فيها إلا بهذا أو مثله، وكان لا

---

(١) الأغاني - الشعر والشعراء - معجم الشعر للمرزباني.

بُدَّ له من آنطلاقه إلى محيط أوسع، علَّه يجد فيه مجالَ القول أفْسح، والمشاركة فيه أنفع.

ولكنه لم يكن يَملك ما يَحْمِي به نفسَه فيُمْلِي ولا يُمْلَى عليه، وكانت مُغْرِيات الحياة أقوى من أن يَمْلِكَ زِمَامَ نفسه معها، وما بالهُ والمالُ يُغْدَقُ على الشعراء المادحين إغداقاً ألاّ يكون واحداً من هؤلاء المادحين، عليه أن يُرْضِيَ الممدوح كُلَّ الرِّضَا، ولا عليه إن لم يُرْضِ نَفْسَه.

اختلف إلى عبد الملك بن مروان أوَّلَ ما اختلف، مَدحه فأثابه، وحين ذاق طَعْم المَثُوبة، وما فعل شيئاً في نَيلها غيرَ كلمات قالها، خرج إليه من البادية طَمَعاً في أُخْرى، فإذا هو يلقى عبدَ الملك وقد هَمَّ بخَلْع أخيه عبد العزيز من ولاية العهد لابنه الوليد، فآنتهزها فُرصة، ووجد أنّ مَيْل الأب إلى الابن يَفُوق مَيْلَ الأخ إلى أخيه، لا يَعني نابغةَ بني شيبان أنه ثَمَّة عهد سابق، وأن للعهود قُدْسِيَّتَها، وإلا آضطربت بنا الحياة، ولكن يعنيه أن يَمِيلَ مع عبد الملك علَّه يظفر بعَطائه، ولسوف يكون عَطَاءً جزيلاً إن فعل، فيقول لعبد الملك:

آلَيْتُ جُهْداً وصادقُ قَسَمي بربِّ عَبْدٍ تُجِنُّه الكُرُحُ

الكرح، بيوت صغار.

لابْنُكَ أولى بِمُلْكِ والدِه ونَجْمُ مَنْ قد عصاك مُطَّرَحُ

وتبلغ هذه عبدَ العزيز فيتوعَّده ويقول: ما له قد أدخل نفسه مَدْخَلاً ضَيِّقاً، فأوردها مَوْرِداً خطراً، والله إن عِشْتُ لأخضبنَّ قَدمه بدَمِه.

ولكنَّ المغامرين لا يعنيهم غدهم بقدر ما يَعنيهم يومُهم، ونابغةُ بني شيبان واحدٌ منهم. فلقد وَليَ عبدُ الملك، ووَلي من بعده الوليدُ بن عبد الملك، ووَلي من بعدهما سُليمان بن عبد الملك، وآلَ الأمرُ إلى عمر بن عبد العزيز، وقد يذكر لنابغة بني شيبان كلمة في أبيه، غير أنه لم تَطُلْ مدةُ حُكمه، فلقد آستخلف سنة تسع وتسعين (٩٩ هـ) وترك الخلافة مسموماً سنة إحدى ومائة (١٠١ هـ)، هذا وما

نعرفه عن عُمَرَ أنه كان الخليفة الصالح، والملك العادل، وما أظنه ذكر للنابغة ما كان منه.

ويَخْلُف عُمَرَ يزيدُ بن عبد الملك، ثم هشامُ بن عبد الملك، ثم الوليدُ بن يزيد، وما كَفَّ نابغة بني شيبان عن الوقوف بباب كُلٍّ منهم مادحاً.

وما فعله نابغةُ بني شيبان مع عبد الملك حين أردا أن يُؤْثِر ابنه الوليد بالعهد ويَخْلع أخاه عبد العزيز، فعله مع يزيد بن عبد الملك حين أراد يزيد أن يُقْصِي أخاه هشاماً ويجعل الأمر لابنه الوليد، فرأى الفُرصةَ هي الفرصة، لا يَعنيه أن يُحْتَرَم عَهد، ولكن يعنيه ما سَيهبط في كَفِّه، فقال له يمدحه ويُغْرِيه بأن يفعل:

نُرَجِّي أن تَدوم لنا إمَاماً ... وفي مُلْكِ الوليد لنا رَجَاءُ
هِشَامٌ فاَسْمَعَنَّ وكُلُّ نَفْسٍ ... تُريد لك الفَنَاءَ لك الفِدَاءُ

وكان ما رجا نابغةُ بني شيبان، فلقد أُمر له يزيدُ بمائة ناقة من نَعَم كلب، هذا إلى بُرٍّ وزَبيب وكساء، ثم صِلَةٌ جزيلة.

وما أَسْرَعُ ما نسي نابغة بني شيبان هذه، فما إن ولي هشام حتى دَخل عليه يَمدحه، ولم يكن هشام كَعُمَرَ بنِ عبد العزيز الذي سَكت عمَّا نال به أباه، فلقد طال بالأُولى الزَّمن، ولكن هذه لم يَطُلْ بها الزمن، فلقد ولي يزيدُ أربعَ سِنينٍ، أربعَ، ثم ترك الخلافة ليليها هشام، وإذا هو حين يدخل عليه نابغةُ بني شيبان يذكّره بها قال، ثم يقول: أَخرجوه عني، والله لا يَرْزَؤُني شيئاً أبداً، وحَرَمه.

ولم يزل نابغةُ بني شيبان طريداً حتى ولي الوليدُ بن يَزيد، فيُقْبِل عليه، ويمدحه فيُكْثِر، والوليد يُعطي فيُجْزل.

ولم يَعِشْ بعدها نابغةُ بني شيبان طويلاً، فلم يلبث أن ترك الحياة وما قال فيها كلمة تُعَدُّ له لِبنةً في كيانها بل ترك هذا الهُراء الذي لا نكاد نسمعه حتى ننساه[1].

---

(١) الأغاني ـ ديوانه.

ومنهم: **القُطَامِيُّ عُمَيْرُ بنُ شُيَيْم (٧٤٧ م - ١٣٠ هـ).**

أُحِبُّ أن أبدأك الحديثَ عن القُطَامِيِّ بذكر شيءٍ عن نشأته شاعراً كما يقولون:

يقول أبو الفَرج الأصبهانيّ: أول ما حَرَّك مِن القُطَامِيِّ ورَفع مِن ذِكره أنه قَدِم دمشق في خِلافة عُمَرَ بنِ عبد العزيز، فقِيل له: إنّ الشعر لا ينفق عند هذا ولا يُعْطِي شيئاً، وهذا عبدُ الواحدِ بنُ سُليمان، فامدحه، فمدحه بقصيدته التي أولها:

إنّا مُحَيُّوكَ فاَسْلَمْ أيها الطَّلَلُ ... وإنْ بَلِيتَ وإن طالت بك الطِّيَلُ

والتي مَضى فيها يذكر رِحْلته إليه على عادة السَّلف، ثم خلص منها القطامي، فقال يخاطب ناقته التي أكثر من وصفها:

إن تَرْجِعِي من أبي عُثمان مُنْجِحَةً ... فقد يَهُون على المُسْتَنْجِح العَمَلُ

ويمضي أبو الفرج في حديثه فيقول: فقال له - يعني عبد الواحد: كم أَمَّلت من أمير المؤمنين؟

قال: أمَّلْتُ أن يُعطيني ثلاثين ناقة، فقال: أمرت لك بخمسين ناقة مُوقَرَةً بُرًّا وتَمراً وثِياباً.

هذه هي صورة لا تُصَوِّر لك شاعراً، بل تصوِّر لك الحياة الشِّعريّة كلها في ذلك العصر، شاعر يَمدح، ومَمدوح يُعْطِي.

وما أَفْدَح ما خَسِر الشاعر، وما أجلَّ ما كَسبه الممدوح، فلقد كَسب الممدوح بُوقاً لا يَنقطع عن تَرْديد مآثره، والإشادة بذِكره، فما أَسْيَرُ الشِّعْرَ على الألسنة، ولقد خَسِر الشعر صِفته الأولى التي خُلق لها ويعيش بها، وهي أنّه كلمة الحَقّ على الأرض، وما أجَلَّها عن أن تُرْتَخص فتعود سِلْعَةً تُشْتَرى.

وما إن آنزلق القُطَامِيّ إلى هذه حتى آنزلق إلى غيرها، وإذا هو قد أرخص شِعْرَه وأَرْخَص نَفْسَه.

يُطلق زُفَرُ بن الحارث سَراحه، بعد أن أسره، ويردُّ عليه مائة ناقة، فإذا زُفر

هو ممدوح القُطامِيّ، يمدحه مرة، ثم يعود إلى مدحه أخرى، وكأن دَنيا الشاعر مائة ناقة وفكاك من أسر، فيقولِ القُطَامِيّ:

أكُفراً بعد ردِّ الموت عني وبعد عطائك المائة الرِّتَاعَا

ثم يقول:

يا زَيفَرَ بن الحارث آبن الأكدم قد كنت في الحَرب قديمَ المَقْدَمِ

ثم يقول:

سَيِّدَ قَيس زُفَرَ الأبرَّا ذاك الذي بايع ثم بَرَّا

ويقول فيه فيسرف ما شاء له الإسراف، وما عليه فما هو إلاّ قول يُشْتَرَى:

كأنّ في المركب حين لاحا بَدْراً يزيد البَصَرَ انْفِسَاحَا

ويقول متناسياً ما بين زفر وبين قومه:

مَنْ مُبْلِغٌ زُفَرَ القَيْسيّ مِدْحَتَهُ من القُطَامِيّ قولاً غير إفْنَادِ

إنّي وإن كان قَوْمِي ليس بينهمُ وبَين قومك إلاّ ضَرْبَة الهادِي

الهادي: العنق.

مُنٍ عليك بِما آسْتَبْقَيْتَ مَعْرفتي وقد تَعَرَّضَ منّي مَقْتَلٌ بادِي

ألا ما أَرخص ما مَنَّ به لزُفَر على القُطاميّ، وما أكثر ما كَسب زُفَرُ من القطاميّ.

وما أُحب أن أزيدك عن القطامي أكثر من هذا، فهذا القليلُ صورةٌ من شِعره القليل، إذ لم يكن من المُكْثرين.

ولكن الذي أحب أن أزيدك عنه أنه كان شاعراً مجيداً: أعني أنه يجيد رَصْف الشعر، وما كان أحبَّ إلينا أن يكون أقل إجادة، وأكثر التزاماً للجادَّة، فهذه هي حسنة الشاعر التي بها يتميَّز عن غيره[1].

* * *

---

(١) الأغاني ـ الديوان.

ومنهم: **إسماعيل بن يَسَار (٧٤٨ م - ١٣٠ هـ).**

هذا شاعر فارسيُّ الهَوى والنَّزْعة، فإلى فارس مَرَدُّه، ثم هو لم يَخْلُص دمُه من دمهم، فما أصهر آباؤه إلى العرب ليُخَالِطَ دمٌ دمًا، فهو لم يفتأ فارسيَّ القلب عربيَّ اللسان، وما غلب لسانُه قلبَه أبداً أعني ما آثرَ العرَب على العجم، ولكنه كان دَوْماً يقلب قلبُه لسانَه، أي يُؤثر العجم على العرب، على هذه عاش، وعلى هذه مات، وما إخالك لم تقرأ قوله:

رُبَّ خالٍ مُتَوَّجٍ لي وعَمٍّ ماجدٍ مُجْتَدًى كريمِ اللِّصَابِ
فاتْرُكِي الفخرَ يا أُمامَ علينا واتْرُكِي الجَوْرَ وانطِقي بالصَّوابِ
واسألِي إنْ جَهِلْتِ عَنّا وعَنْكم كَيف كُنّا في سالِفِ الأَحْقابِ

ثم ما إخالك لم تقرأ قولَه حين دخل على هِشام بن عبد الملك، وظنّ هشام أنه جاء لِيَمْدَحه فإذا هو يفخر بقومه بين يديه فيقول:

مَن مِثْلُ كِسْرَى وسابُورِ الجُنُودِ مَعاً والهُرْمُزان لِفَخْرٍ أو لِتَعْظِيمِ

ويَفطن لها هشام ويقول له غاضباً: أعليَّ تفخر وإيّاي تنشد قصيدة تمدح بها نفسك؟

وما طَمِع ابنُ يسار في كَسب الزُّبَيْرِيّين، ولكنه طمع في ابتزاز أموالهم، ولقد كان الزبيريون في حاجة إلى لسانٍ يدعو لهم، فسارع ابنُ يسار ليكون هذا اللِّسانَ المأجور، ورَأَوْا من الخير أن يكون هذا اللسانُ لهم لا عليهم. تُحِسّ هذا في قول هشام بن عُروة بن الزبير لزبيريٍّ كان في مَجلسه، وابنُ يَسَارٍ يُنشده قصيدة له في رثاء أخيه محمد بن عروة، وتَمَنّى عليه أن لو كان هذا الإطراء لقرشيّ، فإذا هشام ينبري لهذا الزُّبيريّ، بعد أن انصرف إسماعيل ويقول له: ما زِدْتَ على أن أَغْريته بعِرْضك وأعراضنا لولا أني تلافَيْتُه.

وهذا الوفاء الكاذب من إسماعيل بن يسار للزبيريّين يتجلّى لك في دخول ابن يسار على عبد الملك بن مروان، بعد أن قَتل عبدَ الله بن الزُّبير، يمدحه ويقول:

إليــك إمـامَ النــاس من بَـطْنِ يثْـرِبٍ ونِعْمَ أخــو ذي الحــاجــة المُتعـمِّـدِ

ويُحسُّ عبد الملك بما يفيض على لسان ابنِ يسار من رياء، فيقول لـه: الآن يابنَ يسار، إنما أنت امرؤ زُبيريّ، فبأيّ لسان تُنشد؟

فيقول له ابنُ يَسَار: أنا أصغـرُ شأنـاً من ذلك، وقـد صفحت عَمَّن هو أعـظم جُرْماً وأكثر غناءً لأعدائك منِّي، وأنا شاعر مُضْحك.

وبهذا الأسلوب الماجن آستطاع ابن يسار أن يُبَرِّر نفاقه كلَّه.

يـركب آبنُ يسـار مـع عُـروة بن الـزبيـر، وهــو في طـريقــه إلى الـوليــد بن عبد الملك، ويكون آبن يسار لعُروة مُعَادِلاً، أي يركب معه في المَحْمِلُ مقابلاً له.

ويقول عروة لبعض غِلمانه: انظر كيف ترى المحْمِل؟

فيقول الغلام: أراه مُعتدلاً.

فيقول إسماعيلُ بنُ يَسار: الله أكبر، ما آعتدل الحقُّ والباطلُ قبلَ الليلة قطُّ.

ويعني ابن يسار بالحق نَفْسَه وبالباطل عُروة. فيضحك عروةُ ويعدُّهـا عليه من مجُونه.

وإليك صريحةً مِن نفاقه:

فلقـد آستأذن يـوماً ابنُ يسـار على الغَمْر بن يـزيد بن عبـد الملك، فيَحْجُبـه ساعةً، وما اعتاد ابنُ يَسار مثلَها من الزُّبيريّين ولا المروانيّين.

ودخـل ابنُ يسار على الغمـر بعد أن أذن لـه وهو يَبكي، ويسـأله الغمـر عمّـا أبكـاه، فيقول ابنُ يسـار: وكيف لا أبكي وأنا على مـروانيّتي ومـروانيّـة أبي أُحْجَب عنك؟

وجعـل الغمر يعتـذر إليه وهـو يبكي، وما سكت آبن يسـار إلا بعـد أن وصله الغَمْرُ بالكثيـر. ويخرج ابنُ يسـار ويلحق به رجـلٌ فيقول لـه: أخبرني، ويلك، يـا إسماعيل، أيّ مَروانية كانت لك أو لأبيك؟.

واقرأ معي كيف كانت إجابة إسمـاعيل لـه، قال إسمـاعيل، وهـو يَكشف عن مـروانيّته: بُغْضنـا إيّاهم، امـرأته طـالق إن لم يكن يَلعن مروان وآلـه كلَّ يـوم مكان

التسبيح، وإن لم يكن أُبوه حَضره الموت، فقيل له: قـل هو الله أحـد، فقال: لعن الله مَروان، تقرُّباً بذلك إلى الله تعالى.

أتُحِبّ منّي بعد هذا أن أَسترسل معـك في الحديث عن إسمـاعيل بن يسـار، وأن أُقْرِئَك شِعْر صُورة من هذا النِّفاق.

أَعجميٌّ دخـل على العرب فـآنتهز هـذا الخلاف بين الـزبيـريّين والمـروانيّين فآستغلّه خَيْرَ آستغـلال. أرضى هؤلاء فاستـدرّ عطفهم وأخـذ مالَهم، وأرضى هؤلاء فآستدرّ عطفهم وأخذ أموالهم، وجَعل من مُجـونه سِتَـاراً، إذا ما أخـذ أحدُهم عليـه شيئاً سرعان ما يَرُدُّه إلى هذا المُجون[1].

* * *

ومنهم: **يزيد بن مِقْسَم الثَّقفيّ (٧٤٧ م - ١٣٠ هـ).**

ثمة أشياء علينا أن نُناقشها قبل أن نأخذ في الحديث عن يزيد:

فصـاحب الأغاني يـذكر، ويكـاد يكون هـو المتحدِّث الـوحيد عن يـزيد، أن يـزيد بن ضَبّـة قال ألف قصيـدة، وأن الشُّعـراء اقتسمـوهـا وانتحلوهـا فـدَخلت في أشعارهم. وأن يزيد بن ضَبَّة كان مولًى لثقيـف. وأنّ أبـاه مِقْسَم مات وخلَّفـه صغيراً في رعاية أُمّه ضَبَّة. وأن أُمـه كانت تحضن أولاد المُغيـرة بن شُعبة الثقفيّ، ثم أولاد آبنـه عُروة. وأن اسم أمـه غلب على اسم أَبيه. وأن يـزيد آنقـطع إلى الوليـد بن يزيـد. وكان لا يزال في رعاية أبيه يزيد بن عبد الملك. ومن هنا نرى: أننا بين يَدَي شـاعر مَغْمُورٍ نَسَباً، ليس له ما يَفخر به.

وأنّ الوليد بن يزيد يكاد يكون هو الذي تولّاه ناشئاً.

وأن هذه القصائد التي بلغت الألف ليس بين أيدينا منها غيرُ ثلاث، هي التي وَقعت لصاحب الأغاني، فيما يبدو.

ونترك هذا إلى غيره:

---

(١) الأغاني.

فصاحب الأغاني يذكر أنّ هِشامَ بن عبد الملك، عمَّ الوليد بن يزيد، حين آسْتُخلِف، بعد أن حِيل بين الوليد بن يزيد وبين الخلافة، قصد إليه شاعرُنا يزيدُ بن ضَبّة ليمدحه مع المادحين، فإذا هشام لا يأذن له، ويقول له: عليك بالوليد فآمدحه وأنشده، وأمر بإخراجه وهنا نَقف وَقفة قصيرةً لنسأل:

كيف فَعلها يزيدُ بن ضَبَّة؟

ثم هل كان يزيدُ بن ضبة يريد أن يَتحوّل من ساحة إلى ساحةٍ، بعدما وَجد أنّ الأمر خرج من يد الوليد إلى يد هشام؟ ثم أكان يزيد يتوقع من هشام غير هذا الذي فعل به؟

وقد يكون ليزيد عُذْرُه، فلقد كانت تِلْك سُنَّة الحياة حينذاك، يستبدل الشُّعراء بالممدوحين غيرهم ما ضمنوا الرِّزق في ساحة هذا الجديد.

ويرتدّ يزيدُ إلى الوليد يشكو إليه ما كان، ونرى الوليدَ يَعُدُّها من هَنات هشام لا من هَنات آبن ضبّة.

وهذه تَرُدُّني إلى ما سبق أن قلته قبل، وهو أن الملوك والسلاطين كانوا يَعرفون هذا التقلُّب للشعراء، ومنهم من كان يَقضي فيه بالحزم، كما فعل هشام، ومنهم من كان يُداورهم لِيُبْقِيَ عليهم ألسنةً له، كما فعل الوليد.

فصاحب الأغاني يقول: إنّ الوليد عَوَّضه عن هذا بأن أرسل له خمسمائة دينار، وقال له: لو أَمِنْتُ عليك هشاماً ما فارقْتني، ولكن اخرج إلى الطائف، وعليك بما لي هُناك، فقد سَوَّغْتُك جميعَ غَلَّته، وإن احتجت إلى شيء بعد هذا فالتمسه منّي.

ويذكر صاحب الأغاني بعد هذا قصيدةً لابن ضبة في التَّعْرِيض بهشام.

والقارىء لهذه القصيدة يكاد لا يُؤمن أنها لابن ضَبّة الضعيف المَغمور، وإنما هي لشاعر آخر له قَوْمٌ يعتزي إليهم، وله بهم طَوْلَه وقُوَّته.

اقرأ معي قوله:

ألم تَرَ أنّنا لمّا وَلينا ... أُموراً خُرِّقَتْ فوَهَتْ سَدَدْنَا

واقرأ معي قوله:

إذا هاب الكريهةَ مَنْ يَلِيهَا ... وأعظمها الهَبُوبُ لها عَمَدْنَا

وجَبَّارٍ تركناه كَليلاً ... وقائِدِ فِتْنَةٍ طاغٍ أَزَلْنَا

واقرأ معي قوله:

أعِدْ مَن مُبْلِغٌ عنّي هشاماً ... فمَا مِنَّا البَلاءُ ولا بَعُدْنَا

وما كُنَّا إلى الخُلفاء نُفْضِي ... ولا كُنَّا نُؤَخَّر إنْ شَهِدْنَا

واقرأ معي قوله:

كذلك أوَّلُ الخُلفاء كانوا ... بنا جَدُّوا كما بهمُ جَدَدْنَا

همُ آباؤنا وهمُ بَنُونَا ... لنا جُبِلُوا كما لهمُ جُبِلْنَا

أتصدِّق أنّ مثل هذه الأبيات تَجري على لسان شاعر مَغمور لا حَسَب له ولا فَعال؟ أكاد أقول: لا. وتؤول الخلافة إلى الوليد، ويكون آبن ضَبَّة أولَ الداخلين عليه المادحين له ترى شِعْراً غيرَ الشعر، ورُوحاً غير تلك الرُّوح.

فلقد كان ممّا قال ابنُ ضبَّة في قصيدته تلك، التي وفد بها على مَمدوحه الأوّل، بعد تَمْهيد طويل عن وصف ما عاناه في الوصول إليه، وما أظنه عانَى شيئاً، ولكن هكذا يقول الشُّعراء فما له لا يقول مثلهم، يقول آبنُ ضبَّة:

لِنَعْتَامَ الوليدَ القَوْ ... مِ أهلِ الجُودِ والخَيرِ

ويقول:

كَريم العُود والعُنْصُـ ... ـرِ غَمْرٌ غيرُ مَنْزُورِ

ويقول:

مَقالٌ من أخي وُدٍّ ... بِحِفْظِ الصِّدْقِ مَأْثُورِ

ويأمر الوليد بعَدِّ أبيات القصيدة، فتُعَدُّ أبياتُها، فإذا هي خمسون بيتاً، فيُعطيه الوليد عن كل بيت خمسين ألفاً.

أرأيت معي لِمَ باع الشُّعراء أنْفُسَهم، ولِمَ جعلوا شِعْرَهم بِضَاعَةً؟

ثم آسمع كيف كان يُصاغ الشعر؟ هل عن إملاء الشاعر أم عن إملاء غيره عليه، والفَرْقُ بين الاثنتين أن الأول شِعْرٌ والثاني ليس شعراً.

فلقد طلب الوليدُ، إلى آبن ضَبَّة أن يَصِفَ له فرسه، وكان قد خرج يتصيَّد عليه، وقال ابنُ ضَبّة شِعْراً يصف فيه ما أراد الوليد، ويقرأ الوليدُ هذا الشعر ويقول: هلّا قَدَّمْت ما يزيدُ لهذا الشِّعر الوَصْفِيّ بأبيات في التَّشْبيب يُغَنّى فيها؟

وكما فعل يزيدُ الأُولى فعل الثانية ولِمَ لا؟ والجائزة في آنتظاره.

هذا هو يزيدُ بن ضَبّة، وهذه هي قصائده الثلاث التي حُفِظت لنا، وكانت عُدَّتَنا في الحُكْم عليه[1].

* * *

## ومنهم: أبو العَبَّاس الأعمى السَّائِبُ بن فَرُّوخ (٧٥٧ م - ١٤٠ هـ).

هذا شاعر أَقْحم نفسه فيما بين الهاشميِّين والأُمويِّين عن هوًى ومَيْل إلى الأُمويين وصُدوفاً عن الهاشميِّين، وما بنا أن نُحاسبه على أن يكون مَيْله وهواه هُنا أو هُناك، ما دام هذا المَيْل وذاك الهَوى عن رَأْيٍ وآعتقاد.

والذي نَعلمه أنَّ الهاشميّين لم يَكن في جُيُوبهم ما يَشترون به الآراء، وأنّ معاوية يكاد يكون أولَ من فَتح هذا الباب باب الاشتراء.

وأنت تعلم أن هذا الخلاف بين الهاشميين والأمويين أول ما بدأ يجري على الألسنة بعد أن كان نُكتة القلوب، بَعد مَقْتل عثمان رضي الله عنه. وبدا للأُمويين حَشْد، وللهاشميّين حَشد، والفرق بين الحَشْدَيْن أن حَشد الهاشميين جَمَعهم الرأيُ، وحَشد الأُمويين جمعهم المال والمَأْرب.

وبَدا أبو العبّاس الأعمى في حَشد الأُمويّين فكان أُمَويَّ الرأي في مَقتل

---

(١) الأغاني.

عثمان، يتجلّى لك هذا في رَدّه على أبي الطُّفيل عامر بن وائلة، وكان هـاشميًّا رأيـاً وعقيدة:

لَـعَمْـرك إنّـي وأبـا الـطُّفَيْـل ... لـمُـخـتـلفـان والله الشَّـهِـيـدُ
أرى عثمـانَ مُهْتـدِيـاً ويَـأْبَى ... مُـتـابعـتـي وآبـى مـا يُـرِيـدُ

وأكاد أرى أنّ أبا العباس حين أَقحم نفسه على هذا الخلاف أَقحم نفسـه عن رأي، وما كان بنو أُمية يُحِسُّونه فيه حتى جَذبـوه إليهم بمالهم: فـإذا هو ظِـلٌّ لهم، يَسْتَوِي حين يَسْتَوُون، ويَمِيل حين يَمِيلُون.

إذ مـا لَبِث الأُمـويّـون بعـد أن نَفضـوا أيـديهم من المِحْنَـة الأولى، مِحْنـة الهاشميين، حتى ٱمتُحِنُوا بمِحْنة أُخرى هي مِحنة الزُّبيـريِّين، التي كان على رأسهـا عبدُ الله بن الزُّبير.

ولم يكن بُدٌّ من أن يَشهرها أبو العباس حرباً على الزبيـريين بلسانـه، بعد أن شَهـرها عليهم الأُمويُّون بأسنَّتهم، وممـا قـالـه في هـذا قـولُـه لهم يُحـرِّضهم على عبد الله بن الزُّبير:

أطـمـعـتُـمُ فـيـكـم عَـدُوَّكُـمُ ... فَسَمَـا بهم فـي ذاكمُ الـطَّمَـعُ

وأبو العباس هذا الذي يُثير الأُمويين على القضاء على عبد الله بن الزبير، هـو الـذي وقف يسانـد مُصعب بن الزبيـر، أخا عبـد الله، ويقول في رثـائه بعـد أن قتله عبد الملك:

يَـرحـم الله مُـصْـعَـبـاً فـلقـد مـا ... تَ كـريـمـاً ورام أَمْـراً جَـسِـيـمَـا

وحين يسـأله عبدُ الله عن هذا المَيْـل المُرِيب، يقـول أبو العبـاس: إنه كـان صديقي، وأضيف أنا: إنّه كان سَخِيًّا عليه.

وهذا السَّخاء الذي ذاق طَعمه أبـو العبّاس من مُصعب لم يَـذُقْ مِثْلَه من أخيه عبد الله، وكان هذا هو الذي أثاره على عبد الله.

فلقد قِيل: إن عبد الملك لما حَجَّ بعد مقتل عبد الله بن الـزبير، قـام الشُّعراء بين يديه، وكـان فيهم أبو العبّـاس، وأراد عبد الملك بـدهائـه أن يزيـدَ أبا العبـاس

آرتباطاً بالأمويين، إذ ما كان أحوجَهم إلى مثل لسانه، فذكَّر عبدُ الملك أبا العباس بما فعله معه عبدُ الله بن الـزبير، ثم يُقْسِم عبـدُ الملك على كُل من حَضـر من بني أُمية والأحلاف والموالي أن يَكْسُوا أبا العبّاس، وإذا أبو العباس يرى بين يدَيْه أكداساً من الثياب، ويَضُمُّ عبدُ الملك إلى هذه أَمْرَه لأبي العباس بمائة ألف درهم.

وإن أحببت أن تعرف مَزيداً عن إغراق الأُمـويين في بِرِّ أبي العبّـاس فاستمـع إلى ما يقوله المَنصور العبّاسيّ. يقول المنصور: خرجتُ أُريد الشام أيّام مَروان بن محمد، فصَحِبَني في الطريق رجلٌ ضَرِير، ولما سألتُه عن مَقصده أخبرني أنـه يريـد الشام بِشِعْرٍ آمتدح به مروان، وآستمع المنصور، فإذا هو ينشده هذا المديـح. وكان مما قاله:

خُـطَبَـاءُ على المَنـابـر فُـرْسَـا نٌ عليهـا وقـالـةٌ غيـرُ خُـرْسِ

وتُفْضِي الخِـلافةُ إلى المنصـور، وإذا هـو يلقي أبـا العبّـاس، فيـذكّـره بهـذا اللقاء، وما كان أبو العباس يعرف أنّ من لقيـه أولاً وثانيـاً هو المنصـور، الذي غـدا خليفةً، ويَستنشده المنصورُ شيئاً من شعره، فيُنْشِده، وكان مما قاله:

خَلَت الـمـنـابِـرُ والأَسِـرَّةُ مـنـهـمُ فـعـليـهـمُ حتّـى الـمَـمـات سَـلاَمُ

وهنا تدفع الرغبة بالمنصـور أن يسأل أبـا العبّاس عمّـا كان ينـاله من مـروان، فيقول أبو العباس: أغناني أن أسأل أحداً بعده.

ومـا سأل عبـد الملك عن رَأْي وعَقيدة، ومَيْـل وهَـوًى، ولكن سـأل عن مـال يُشْتَرى به هذا كله.

أرأيت كيف عـرف السلاطين الشُّعـراء، وكيف وَزَنـوهم، لم يَعْـرِفـوهم أَهْـلَ رأي، فيكون لهم معهم موقف الخائف الهيّاب الحَـذِر، ولكن عرفـوهم أهل مـآرب ومطامع فاشتروهم بأَبخس الأثمان، ولم يَحذروا لهم غَضْبَةً، فما أيسر أن يُخمـدوها ببَذْرة[1].

(١) الأغاني ـ نكت الهميان.

## ومنهم: ابن ميادة الرماح بن أبرد (٧٦٦ م - ١٤٩ هـ).

هذا شاعر فَرض عليه الوجودُ شيئاً، وفَرض هو على نفسه شَيئاً، فعاش للاثنين معاً، لا يلتفت إلى غيرهما إلا التفاتة عابرة.

أمّا عمّا فرضه الوجود عليه، فقد دخل الحياة مَغْموزاً في آثنتين:

فلقد كانت أُمُّه، وهي ميّادة التي غَلب اسمها على آسم أبيه أَبرد بن ثوبان، صِقِلِّية، أعني مولاةً مُشتراة، إذ كانت أولاً أَمَةً لرجل من كَلْب، وزوجةً لِعَبْدٍ له، يقال له: نهبل، ثم آشتراها بنو ثَوبان، أجداد الرمّاح.

وتَعيش ميّادة في بني ثَوبان، وتخرج يوماً لترعى مع أَبرد، والد الرمّاح، ويَقع عليها أَبردُ فتحمل بالرمّاح. ويُنكر أبردُ أولاً ثم يعود فيُقِرّ.

ولقد أَقَضَّت هاتان الاثنتان مَضْجَع الرمَّاح حياتَه كُلَّها، وما أظنه خَلص من أذاهما هو وأمه.

ولكي يَدفع الأولى ادَّعى أنَّ أُمه فارسيّة، ليُمْسِكَ بسَبَبٍ يفخر به، وأيّ سَبب، فيقول:

أنا ابنُ أبي سَلْمَى وجدِّي ظالمُ      وأُمِّي حَصَانٌ أَخْلَصَتْها الأعاجِمُ
أليس غلامٌ بين كِسْرَى وظالِمٍ      بأَكْرَم مَن نِيطَتْ عليه التَّمَائِمُ

ولكيلا تكون بعيداً عن أُبُوّة الرمّاح، فهو: الرمّاح بن أبرد بن ثوبان بن سُراقة بن سَلْمى بن ظالم، وينتهي نَسَبُ ظالمٍ إلى غَطَفان.

ولقد أثارها الشعراء من حول الرمَّاح عليه حرباً هَوْجاء، ما سكنت ثائرتُها حياةَ الرماح كلَّها، وَصمد لهم جميعاً الرمّاح يَدفع هجوماً بهُجوم، وكان هذا هو ما فَرضه عليه الوجود، فخَلَق منه هذا الشاعرَ الهجّاء، ولولا حالُ هذه الأُمم التي مرَّت بك، ما وَجد الهجاءُ على لسان الرمَّاح سَبِيلَه.

أتَرى الرمَّاحَ يسمع قولَ الحَكم الخُضْريّ في أُمِّه ويسكت. وهذا حيث يقول

الحَكَم الخُضْريّ ردًّا على شِعر الرماح الذي مر بك في الفَخر بأُمِّه وأبيـه، ويسكت وهو:

أميَّـادُ قـد أفْسَـدْتِ سَيْفَ ابنِ ظـالمٍ ... ببَـظْرك حتّـى عـاد أثْـلَمَ بـالـيَـا

ثم أتـراه يَسمع قـول عبد الـرحمن بن جُهيم الأسديّ في أُمـه ويسكت، وهـو قوله:

لَعَمْـرِي لقـد شـابَت حَلِيلَةُ نَـهْبَـلٍ ... لَبِئْسَ شَبَـابُ المَـرْءِ كـان شبـابُهَـا

ولـم تَـدْرِ حَمـراءُ الـعِجَـانِ أَنَـهْبَـلٌ ... أبـوه أم الـمُـرِّيّ تَـبَّ تَـبَـابُـهَـا

ثم أتراه يسمع قول المازنيّ في أُمّه ويَسْكت، وهو قوله:

يـابْنَ الخَـبِيثـة يـابْنَ طَـلَّةِ نَهْـبَـلٍ ... هـلاّ جـمعـتَ كمـا زَعـمـت رِجَـالاَ

وغير هؤلاء كثيرين ممّن هجَوْا ابن ميّادة في أُمّه، وآنْبرى لهم ابنُ ميّادة برَدِّهِ وما كان الهجـاء من طبعه. وكما صَبر ابنُ ميّـادة لهجاء هؤلاء جَعـل أُمَّه تَصبـر معه، فكان يَشُدُّ من أزرها ويقول:

إعْـرَنْـزِمِي ميّـاد للقـوافي ... واسْـتَمِعِيـهنّ ولا تـخـافِـي

سـتـجـديـن ابـنـك ذا قـذاف

هذه هي الحياة التي فَرضها الوجودُ على الرمَّاح، أمّـا الحياة التي فـرضها هـو على نفسه، فهي تعلُّقه بفتاة من قومه، هي أُمّ جحدر، رآهـا فأحبّهـا للنظرة الأولى، وأحسَّ أبـو الفتاة فقَضى على هـذا الهوى في مَهـده، وزوَّج آبنتـه من رَجُـل شـاميّ ليخرج بها بعيداً عن نجد، فـإذا الرّمـاح مَجنون بهـا، هائم بمـا حاكـه في ذِهنه من خيال.

وهذا هو ما فَرضه الرمّاح على نفسه، وكأنه قـد وَجد فيـه مُتَنفَّساً لمـا يُعاني، فإذا هو يُضيف إلى عَنائه عَنَاءً، تُحِسّ هذا في قوله:

ألا ليتَ شِعْـرِي هـل إلى أُمّ جَحْـدَرِ ... سبيـلٌ فـأمّـا الصَّبْـرُ عنهـا فـلا صَبْـرُ

ولقد كان لابن ميّادة هوًى آخر بآمـرأة من بني جُشَم، هي أُمّ الوليـد، وكانت هي الأُخرى متزوِّجة، وما إن رآها حتى قال:

أَلَا حَبَّذا أُمُّ الوليد ومَرْبَعٌ    لنا ولها نَشْتو به ونَصِيفُ

وينتهي شعرُه إلى الزوج فيرحل بها، وإذا ابن ميادة يقول:

أتانا عامَ سار بنو كِلَابٍ    حَرَاميُّون ليس لهم حَرَامُ

وما لبث ابنُ ميّادة أن أحَبَّ غير أُمّ الوليد ومن قومها، يقال لها: أُم البَخْتَرِيّ، ثم إذا قومها يَرحلون بها. فيقول:

أرِقْتُ لبَرْقٍ لا يُفتِّر لامِعُهْ    بشُهْب الرُّبى واللَّيْلُ قد نام هاجِعُهْ

ولقد فعل ابنُ ميّادة أُخْرى وأُخْرى على هذا النحو، وما أظنّه كان جادًّا، كما لا أظن أنه كان ثَمّة هوًى صادق، ولكنها محاولة حاولها ابن ميّادة لِيُنفِّس عن ضيقه بهُجْنَته التي كانت وَصْمَةً في جَبِينه، والتي حالت بعد بَيْنَه وبين امرأة من بني سَلمى أراد أن يتزوّجها، فأباها عليه قومها وردُّوه، فقال:

فلو طاوَعَتْني آلُ سَلْمى بنِ مالك    لأعطيت مَهْراً من مسرَّة غاليَا

ولقد عاصر ابن ميّادة من خلفاء بني أمية الوليد بن يزيد وحَظِي عنده، وعاصر من خُلفاء بني العبّاس المنصورَ، وكما مدح الوليدَ بقوله:

لمّا أتيتُك من نَجْدٍ وساكنه    نَفَحْتَ لي نَفْحَةً طارتْ لها العَرَبُ

كذلك مدح المنصور بقوله:

ولأجلسنَّ إلى الخليفة إنّه    رَحْبُ القِناءِ وواسعٌ بَحْبَاحُ

فما كان الرمّاح أُمويًا ولا هاشِمِيًا، ولكنه كان شاعراً لا بأس عليه أن يُرَوِّح عن نفسه بمَدِيح هذا أو ذاك، ويخَيَّلُ إليَّ أن مَدْحه كان مثل هواه، تنفيساً عن نفس مضنيّة، وما أظن أن الثواب كان مُبتغاه حين مدح هذا أو ذاك، فما قاله هنا وهناك شيء لا يُذْكَر، ثم لو كانت هذه غايته لَحَبَس نفسه على أبواب السلاطين لا يرحل عنها.

لقد عاش ابنُ ميّادة لما فرضه عليه الوجود يُنافح عنه، ثم عاش لما فَرضه هو على نفسه من هوًى مرة ومدح أخرى، فيُسَرِّيَ عن نفسه، وكانت ثمة حياةٌ أخرى

ترجوه، ولكنه لم يلتفت إليها من قليل أو كثير[1].

* * *

## ومنهم: الحُسَين بن مُطَير (٧٨٦ م - ١٧٠ هـ)

كانت لابن مُطَيْر حياتان، أولاهما قصيرة والأخرى طويلة، وحياته تلك القصيرة هي الحياة التي قَضاها في ظِلّ الأُمويين، وأكبر الظن أنه كان عندها حَدَثاً يستقبل وُجودَه شاعراً.

فالمراجع تحدِّثنا أنه كانت له دَخْلَة على الوليد بن يزيد بين جملة من الشعراء، ولقد وَلي الوليدُ الخلافة سنة خمس وعشرين ومائة (١٢٥ هـ) ولم تَطُلْ مدته خليفةً فإذا هو يَخْرُج منها مقتولاً سنة ست وعشرين ومائة (١٢٦ هـ) وما قضى خليفة غيرَ سنةٍ وثلاثة أشهر.

وإذا أخذنا بما يقوله ابنُ شاكر الكُتْبِيّ في كتابه عُيون التواريخ، عن وفاة ابن مُطَير، وأنها كانت سنة سبعين ومائة (١٧٠ هـ) أدركنا حقًّا أن ابن مُطير لم يكن غير حَدَثٍ عندما دَخل على الوليد بن يزيد، وما أُظُنه مَدحه بالكثير، كما لا أظنّه وَصل حَبْلَه بحَبْل مَن بَعد الوليد من الخُلفاء الأمويين، في تلك الحِقْبة القصيرة التي لم تَتجاوز سِنُوها السِّتّ، والتي كانت، كلها فِتَن وقلاقل.

وهكذا تكون حياة ابن مُطير في ظل الأُمويين حياةً قصيرة كما قلت، غير أننا نُفِيد منها أنه لم يكن ثمة ما يحول بينه وبين أن يكون أموياً بحتاً غيرُ قِصَرِ الأيَّام.

واستقبل ابنُ مُطَيْر حياتَه الطويلة في ظِلِّ العبّاسيّين، ولكي تعرف أنه كان مَعْدُوداً من شُعراء الأُمويّين فاعرف أن المنصور لم يسمع منه وصرفه عنه لأمويّته. ويَصِل ابنُ مُطَيْر حَبْلَه بحَبْل مَعْن بنِ زائدة، وكان عندها والياً على اليَمن، ولّاه إياه المنصور، وكان مَعْن جواداً سَمْحاً، كما كان ذَوَّاقة للشِّعر يَعرف عاليَه من دانِيه.

---

(١) الأغاني ـ الشعراء ـ معجم الأدباء.

ولعلَّك تُحِب أن تعرف له ذلك، فإليك ما يَدُلُّك عليه:

دخل عليه ابنُ مُطَير بمدْحةٍ له هيّأها يقول فيها:

أَتيتُك لمّا يَبْقَ غيرُك جابِرٌ ولا واهبٌ يُعْطي اللُّهَا والرَّغائِبَا

فقال له مَعن: يا أخا بني أَسد، ليس هذا بِمَدْح، إنما المَدْح قولُ نَهار بن تَوْسِعة في مِسْمَع بن مالك:

قَلَّدْته عُرَي الأُمور نِزَارٌ قَبل أن يَهْلِكَ السُّراةُ البُحُورُ

وإذا آبنُ مُطَير يَخرج عن مَعن لِيُعِدَّ أُخرى في مَدحه، ويَدخل عليه بأُرجوزته التي يقول فيها:

سَلَّ سُيُوفاً مُحْدَثاً صِقَالُها صابَ على أَعدائه وَبالُهَا
وعند مَعْنٍ ذي النَّدَى أمثالُها

فَيستحسنها معنٌ ويُجزل صِلَته. ولكني ما أُحب أن يَفوتك من هذا الخبر معنًى آخرُ أكبرُ خَطَراً، وهو أن تعرف كيف كان يُحاك المَدح، وكيف كان يُصاغ، إملاءً من الممدوح لا إملاءً من المادح.

ويَموت معنٌ فيَعِزُّ على ابن مُطير رحيلُه، فيقول يرثيه:

أيا قَبْرَ مَعْنٍ أنت أولُ حُفْرَةٍ من الأرض خُطَّتْ للسَّماحة والنَّدَى

ويولِّي ابنُ مُطَير وجهه شَطر المَهْدِيّ ويمدحه فيقول:

إِلَيْكَ، أميرَ المُؤمنين تَعَسَّفت بنا البِيدَ هَوْجاءُ النَّجاءِ خَبُوبُ

فيأمر له المهديُّ بسَبعين ألفَ دِرْهم، وتُشجِّعه هذه إلى أخرى، فيدخل عليه ويمدحه فيقول:

لو يَعْبَد الناسُ يا مهديُّ أفضلَهم ما كان في الناس إلا أنتَ مَعْبُودُ

فيأمر له المَهديُّ لكل بيت بألف دِرْهم وتُغريه هذه الثانية بثالثة، فإذا هو يَلقى المهديَّ خارجاً يوماً فيطالعه مادحاً ويقول:

أَضْحَتْ يَمِينُك من جُود مُصوَّرَةً لا بَلْ يمينُك منها صُوِّر الجُودُ

ويُحس المهديُّ شيئاً جديداً، فيقول له: كذبت يا فاسِق، وهل تركت من

شِعرك موضعاً لأحد بعد قولك في مَعن بن زائدة حيث يقول:

أَلِـمَّـا بـمَـعْـنٍ ثـم قُـولاَ لِقَـبْـرِهِ      سُقِيتَ الغَـوادي مَـرْبَعـاً ثم مَـرْبَعَـا

وهكـذا أَغنانـا المهديُّ عن أن نُعَقِّب، ومـا لنا لا نعَقِّب فنُضيف، وهـل كـان مَدح الشُّعراء للخُلفاء ومَنْ إليهم إلا كلاماً يُثيره العطاء، ولا تُثيره العاطفة الصادقة.

وما نعرف أنّ آبن مُطَير وصـل حَبله بغير حَبـل المهديّ، فلقـد ترك المهـدي الحياة سنة تسع وستين ومائة (١٦٩ هـ) أي قبل وفاة ابن مُطيـر بسنة، ومـا رأينا آبنَ مُطير رثاه، وهو الذي ظَلَّ يمدحه حياته، ونال من عطائـه، على الرغم ممّـا بَدر من المهديّ له.

وهذا الشاعر الذي لَفَتَتْه نوائب الدَّهر إلى الدنيا، فقال:

وقـد تَغْـدُرُ الـدُّنيـا فيُضْحِي فقيـرُهـا      غَنِيًّـا ويَفْنَـى بعـد بُؤْسٍ فَقِيـرُهَـا

فـلا تَـقـرب الأمـر الحَـرامَ فـإنّـه      حـلاوتُـه تَـفْنَـى ويَبـقـى مَـرِيـرُهَـا

أما كان له أن يَثُوب إلى دُنياه فيوفِّيها حَقَّها، فيُؤَدِّي للمُجتمع من حوله حقوقَـه عليه، وما كان أكثر ما للمجتمع حوله من حقوق، يُعوزها لسانٌ ناطِق كلسانه[1].

* * *

ومنهم: **أبو حَيَّة النُّمَيرِيّ الهَيْثم بن الرَّبيع (٨٠٠ م - ١٧٠ هـ).**

أَتُحِبُّ أن تَسمع رأي مَن سلف فيه مِن قبلِ أن تَسمع رأيي؟

يقـولون عنـه: إنه كـان أَهْوَج، جَبـاناً، بَخِيـلاً، كَذّابـاً، مَعْروفـاً بـذلـك كلِّه وأزيدك: أنه كان سِكِّيراً، يَشرب بالنسيئة، أي إلى أجل.

فيقال: إنه نزل بخَمَّارة، وبَخِل بأن يدفع، وطلب إليهـا أن تَسْقِيَه إلى أجـل، على أن تَخُطَّ على الجدار خَطًّا كلَّما سقته، وفي هذا يقول:

إذا أَسْـقَـيْـتِـنـي كُـوزاً بـخَـطٍّ      فخُـطِّي ما بـدا لـك في الجِدَارِ

(١) الأغاني - فوات الوفيات - ديوانه.

هذا عن خُلقه، أما عن مكانته الشِّعريّة، فهم يقولون: إنه مُجيد، مُقَدَّم، من مُخَضرمي الدولتين: الأُمويّة والعبّاسيّة، وقد مدح الخلفاء فيهما جميعهم.

ويَشتطّ البغدادي فيجعل وفاته سنة بضع وثمانين ومائة. أي إن حياته آمتدت إلى أيام الرشيد، فقد وَلِي الرَّشيدُ الخلافة بعد السبعين ومائة (١٧٠ هـ) وكانت وفاته سنة ثلاث وتسعين ومائة (١٩٣ هـ).

وليس بين أيدينا شيء من شِعر النُّميريّ في مدح الأُمويين، وما أظنه أدرك من خلفائهم غير الوليد بن يزيد، كما أنه ليس بين أيدينا من شعره شيء في مدح بني العبّاس إلا ما مدح به المنصور وهجا به بني حسن، وهو قوله:

أحِينَ شِيَم فلم يَتْرُكْ لهم ثِرَةً ... سَيف تقلَّده الرِّئْبال ذو اللِّبَدِ
سَألَتُموه عليكم يا بَنِي حَسَنٍ ... ما إنْ لكم من فَلاح آخرَ الأَبَدِ
قد أُصبحت لبني العبَّاس صافيةً ... بِجَدْعِ آنان أهل البَغْيِ والحَسَدِ

يعني ببني حسن: محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب، وكان قد ظَهر بالمدينة وبايعه خَلْقٌ كثير، وتَسَمَّى بالمهديّ، فوجَّه إليه المنصور جَيْشاً على رأسه عيسى بنُ موسى، وانتهى الأمر بمَقتل محمد في شهر رمضان من سنة خمس وأربعين ومائة (١٤٥ هـ).

ولقد استخْلف بعد المنصور المهديّ سنة ثمان وخمسين ومائة (١٥٨ هـ)، وفي سنة تسع وستين ومائة (١٦٩ هـ) تُوفِّي المهديّ وولي الهادي، فلم يُعَمَّر طويلاً ووافته مَنِيَّتُه سنة سبعين ومائة (١٧٠ هـ) وهي السنة التي قَدَّرْنَا أنّ النُّميريّ انتهت حياته بآنتهائها.

فثمة عُمْرٌ للنميريّ ممتدٌّ، عاش أقلَّه في ظِلّ الأُمويين وأكثَره في ظِلّ العباسيّين، وتقول المراجع إنه مدح خُلفاء من هناك ومن هنا، ولكنها لم تَحفظ لنا إلا ما ذكرتُه لك مِن مَدْحٍ للمنصور وهجاء لبني حَسن، وبعد هذا تذكر له المراجعُ شِعْراً في النسيب لا أظن، إلا أنه من قَبِيل المحاكاة، فلقد كان زَوْجاً وكان ذا

أولاد، وكان حريصاً على أن يَجمع لهم ما يضمن لهم به حياة كريمة، فمن نسيبه:

ألا رُبَّ يَوْمٍ لو رَمَتْنِي رميتُها ... ولكنَّ عَهْدِي بالنِّضال قَدِيمُ

يَرى الناسُ أنِّي قد سَلَوْتُ وإنَّني ... لَرَمِيٌّ أحناء الضُّلوع سَقِيمُ

ويقول:

وإنَّ دَماً لو تَعلمين جَنَيْتُه ... على الحيِّ جاني مِثله غير سالمِ

هذه حياةُ النُّمَيْرِيّ لا نَملك فيها غيرَ هذا من شِعر، وغير ما قَدّمتُ من وصف له، وأظن الوصف لو صَدَق يُغنينا عن أن نقول عنه شيئاً بعد هذا، كما يُغنينا عن أن نقرأ له أكثر من هذا الذي كان[1].

## (١٠)

وهكذا مَرَّ العصرُ الأُمويّ بشُعرائه المُتناحِرين على السَّبْق في كَسْب رِضَا المُلوك، وكم كلَّفهم هذا الرِّضا الكثيرَ.

وكان أوَّل ما كلَّفهم أنْ خَسِرُوا ضمائرَهم، وأن خَسِرُوا إخْواناً لهم في الحَلْبة، وكان خسرانهم للأُولى هو الذي هَوَّن عليهم خُسْرَاتَهم للثانية، وصوَّر لهم الدُّنيا نُهبة تُنْهَب، الفائز فيها مَن غلب، لا وَزْنَ لحُرْمة، ولا قِيمَة لِعَهْد.

وما أَرْضَوْا المُلوكَ إلّا بقَدْر ما باعُوا من ضمائرهم، ولا رَضِي عنهم المُلوك إلا بقَدْر ما كَسبوا من مدائحهم، وإذا كَسْب الملوك هو الأَرجح، لأنهم ضَمِنُوا الدنيا بأَلْسِنة هؤلاء، فما أَرْخَص ما أَعْطَوْا وما أَغْلَى ما أَخذوا.

وخرج هؤلاء الشعراء من دُنياهم بمَتاع قليل، وعَرَضٍ ضَئِيل، زال قَبْل زوالهم، وبَقِي عليهم وِزْرُ ما فَعلوا.

فلا هم مكَّنُوا لمَمْلكتهم الشِّعريّة التي تقوم على القِيم والمبادىء، ولا همِ مكَّنُوا لدنياهم فناصروها وآزروها بكَلِمتهم لتَحْيا حياةً سَوِيَّة، ولا هم أَحسنوا فيما

---

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ خزانة الأدب ـ رغبة الامل.

بينهم وكَفُّوا ألسنتهم عن النَّيل من أعراضهم، وتَدْنيس صَفحاتهم، فكانوا هم الخاسرين والكاسبَ هم الملوك.

دَعْكَ ممّا بَنَوْا من بيت من الشِّعر مَكِين. وضَمَّنوا شِعْرَهم من مَعْنًى رَصِين، وأجادوا في وَصْف، ونَطقوا مِن عِبْرة، فهذا أدنى ما نرجوه من شاعر، فهو إجازته التي آستحقّ بها أن يكون ناطقاً بالشِّعر، أمّا أن يكون شاعراً حقّاً، فلن يَرْقى إلى هذه إلا إذا عاشَ سُلْطَانَ الوُجود لا عَبْداً من عَبِيد الوُجود، يَقود الوُجودَ ولا يَقوده الوُجود، يقول ليُرْضِيَ نَفْسَه لا ليُرْضِيَ غَيْرَه، لا يَمدح إلا للحقّ، ولا يُخاصم إلا على الحقّ. يَعرف للسانه طُهْرَه فلا يلوِّثه بخُبث، فإن لم يتوفَّر لشاعر هذا أو جُلّ هذا، كان ناظِماً يُجيد الرَّصْف، وعلى هذه نُحاسبه ونزنه، وحسب الوُجود من أمثال هؤلاء أنهم لا يَزْحمون حياته أو لا يشغلون بالَه، إلا بقَدْر ما لهم ممّا ذكرت.

وما كان أَحوجنا عن هذا العصر الأمويّ إلى صفحات شِعْريّة نقرأ فيها جهود الشعراء في الأَخذ بِيَد المُجتمع حينذاك للنُّهوض به ممّا تردَّى فيه من فِتن، ولاسْتِلَال ما في الصُّدور من ضغائن.

ولعلَّ مُعقِّباً يُعَقِّب ويقول: هذا لن يكون إلا إذا كان الشاعر على وَعْيٍ كامل.

ونحن لا نَرْضى الشاعر إلا إذا كان هذا الواعِي، فإن لم يملك هذا الوَعْيَ عُدَّ ناظماً، ولم يَرْقَ إلى أن يكون مَن نُحاسبه ونزنه شاعراً.

والشاعر لن يكون سُلطانَ وُجوده إلا إذا مَلَكَ الوَعْيَ أولاً. والقَوْلَ ثانياً، فما هو بمُستطيع أن يكون هذا السُّلطان إلا إذا أحسَّ فيه الوجودُ هذا الوَعْيَ الكامل، ويكون اللَّفْظُ له بمَثابة الثَّوب أو الوِعاء، إذ كُلّما كان هذا الثوب بَرَّاقاً، وكُلما كان هذا الوِعاء جَمِيلًا، كان تَقَبُّلَ الوَعْيِ أَيْسَرَ وأَسْهل.

ولعلَّ هذا الانحدارَ الذي آنحدر إليه الشُّعراء كان مردُّه إلى غَيبة هذا الوَعْي الثَّقافي، وغَلبة اللَّفْظِيّ، فكان الشِّعر صُورةً من هذا النَّهج اللَّفظي لا الوَعْي الثقافي.

فالمرء يُملي مما عِنده. ولو أنه ثَمّة وَعْي ثقافيّ إلى جانب هذا القول اللفظيّ لأمْلَى الشاعر عنهما معاً، هذا إذا تساويا قَدْراً، إما إذا غلب أحدهما الآخر كان الإملاء عن الغالب منهما.

وما من شك في أن الوَعْي الثقافيّ في هذا العصر الأموي كان هو المَغلوب لا الغالب. ومن هنا جاء الشِّعر الأمويّ صورةً لهذا القول اللفظي. نَبحث فيه عن مُفردات وتَراكيبَ، لا عن رأيٍ يُمليه وَعْيٌ ثقافيّ، فكان مَظْهَراً من مظاهر البُطُولات اللفظيّة.

وهذا الوَعي الثقافيّ حَلِيفُ كل سَبْقٍ في كُلِّ ميادين الحياة، المادّية منها والمعنويّة فاليدَ الصَّناع تَفقد الإبداع إن فَقد صاحبُها وَعْياً ثقافيًّا، وتَبْقَى يداً مُتْقِنَةً فحسب. ولو بَقِيت كذلك ما مضى العالَم إلى هذا السَّبَق الملحوظ. إن فقد المزيد من الوَعْي الثَّقافيّ عاش على أَمْسِه ولم يُساير غده، وظلّ أَمْسُه مثالَه الذي يَحتذيه إلى نهاية الوجود.

مَلَكة القَول هِبة، وما أَحوج الهِبات إلى ما يُذَكِّيها ويُنعشها، وإلا عاشت على ما خَلَقها الله عليه قابعةً حيث هي، وغدت مُتْعةً رخيصة يَبْذُلها صاحبُها لكُلِّ عارض، وهو الذي يَملك أن يَصُونَها عن كل عارض بهذا الوَعْي الثَّقافيّ. الذي هو ضريبة على كل ذي هِبَة.

وما فَعله الأقدمون بشُعرائهم كان من هذا الذي نَنْشُده لشُعرائنا. فما أَحَسُّوا بِمَوْهبة شِعْرِيّة ظَهرت في بِيئتهم إلا بَذَلوا جَهْدهم في أن يَرْعَوْها لتَشُبّ واعيةً، وما أظن هذه الرّعاية قصد بها إلا أن يَحيا صاحب هذه الموهبة لنفسه، لا يشغله شاغلُ الحياة عما يزوِّد به هذه الموهبة من وَعْي، وما كانوا يُريدون غير هذا الوعي الثقافي الذي نُنادي به اليوم، وما كانوا يَملكون من أسبابه غيرَ تلك التي جادت بها البيئة، وهي التي أرادُوا أن يزوِّدوا الشاعر بها.

الكلمةُ سِلاَحُ مَسلول إن شحذناها بالوَعي الثقافيّ، وإلا غدت كالسيف المَغْلُول لا غناء عنده إلا في حيازته.

فهل لنا من رَجعة إلى ما كان عليه الأقدمون نحو شُعرائهم، توفِّر لهم الرِّعايـة الكَـريمة، التي تُمكِّنهم من التـزوّد بالـوَعي الثقافيّ في أجلى صـوره، لتَجْعل منهم قادة المُستقبل في مُناصرة الحق، ومُناهضة الباطل، ولا نَدعهم لا وَعْي ثقافيّ لهم، فَتَرْخُص كلمتُهم، ويَرْخصون هم مع رخص كلمتهم، وقد يكونـون أداة هدم لا أداةَ بِناء.

وما أظنّنا نملك اليوم أن تكون لنا هذه الرِّعاية للمواهب الشِّعريّة، فلقد غَدت الأحوال غَيْر الأحوال، وما كانت تملِّكه البيئة للشاعر من رعاية له، أصبح في مقدور ذي الموهبة الشعرية أن يَكْفله لنفسـه، وهذا إذا أحسّ أنـه بمكانتـه ومنزلتـه إن غدا الشاعر الذي يُمْلي لا المأجـورَ الذي يُمْلَى عليـه. وإن غدا يعـرف لكلمته قَـدْرَها، وأنها له إن صدقت خير من كنوز الأرض أجمع.

# العصر العباسي

## (١١)

وهـا نحن أُولاء قد طـوينا صفحـاتٍ ثلاثـاً للشِّعر العـربيّ : صفحةً جـاهليّة، وصفحةً إسلاميّة، وصفحةً أُمويّة، وها نحن أولاء نَنشر للشعر العربيّ صفحةً رابعة. صفحةً عباسيّة بدأت بأبي العبّاس السفّاح، الذي بُويع بالخلافة سنة اثنتين وثـلاثين ومائة (١٣٢ هـ)، وآنْتَهت بالخليفة العبّاسيّ القادر بالله أحمد بن إسحاق بن المُنذر، الذي كانت وفاته سنـة اثنتين وعشرين وأربعمـائة (٤٢٢ هـ)، وكـان آخرَ خليفـةٍ من بني العبّاس زِمَامُ الحُكْم في يَدَيْه. وما إن وَلِي الخلافة من بعده آبنُه القائم بأمر الله حتى غلب الـولاةُ الخلفاء وعلى أمـرهم كلّه، ولم يَبْقَ لهؤلاء الخلفـاء إلا الكُـرسيّ الذي يجلسون عليه، ففي عهده، وفي سنة سبع وأربعين وأربعمائة (٤٤٧ هـ) دخل السَّلاجقةُ بغدادَ، ثم إذا بغداد تُصبح خالصـةً للمُغول سنـة ست وخمسين وستمائـة (٦٥٦ هـ)، وإذا مِصْر تُصبح مَقَرَّ الخلافة العبّاسية الاسميّة.

وهكـذا نرى أنّ هـذا العصر العَبّـاسيّ بدأ بـأبي العبّـاس السفّـاح سنـة اثنتين وثـلاثين ومائـة (١٣٢ هـ)، كما قلت قبـل، وآنتهى انتهاءَيْن: آنتهـاءه للحق بـوفـاة القـادر بالله أحمـد بن إسحاق سنـة اثنتين وعشرين وأربعمـائـة (٤٢٢ هـ)، وانتهـاءَه الاسميّ بدخول هولاكو المَغوليّ بَغداد سنة ست وخمسين وستمائة (٦٥٦ هـ).

وهذا يعني أنّ الدولة العبّاسيّة آمتدّت نهايتها الفِعْليّة والاسمية نحـواً من قُرون خمسة تزيد رُبْعَ قَرْنٍ، وأنها لا شَكَّ أظلّت كثرةً من الشعراء، كان منهم النَّابِهُ الـذي لـه شِعْـرٌ يُنَـاقَش، ومنهم الخـامـلُ الـذي لا يُمَثِّـل شِعْـرُه شيئـاً، ومـا مِن ضَيْـرٍ إن اطَّرَحْناهم، وليسوا غيرَ قِلَّة.

وهأنذا هنا أطالعك بأخبار من آخترت. وهم كَثْرة، الواحد بعد الآخر، لِوَفْقِ سِني وفاتهم، على النحو الذي مَرَّ بك في عُهود ثلاثة.

## (١٢)

ومن هؤلاء الذين اخترت: **أبو دُلَامة زَنْدُ بن الجَوْن (٧٧٨ ـ ١٦١ هـ).**

ولا أُحِبُّ أن أَسْبِقَ فأسوق إليك الأحكام التي حكم بها السابقون على أبي دُلامة، وسوف أَدع لك هذا بعد أن تَقرأ معي أخبارَه، فقد تَحذف أو تُضيف.

ففي الكوفة نشأ أبو دُلامة، وما ندري عن مولده شيئاً، ولكننا نعلم أنه حَضَر الأُمويين في أعوامهم الأخيرة، وما كان عندها بالصَّغِير. بل كان فَتًى يُشارف الثلاثين أو دونها بقليل، ووفاته في تلك السنة التي ذكرناها، والتي عليها الإجماع، تؤكِّد هذا.

غير أنه لم يَنْبهُ له شأن في ظِلِّ الأُمويّين، وأن هذه النَّباهة لم تَظهر له إلا مع ظهور الدولة العبّاسيّة، لهذا لم يُعَدَّ مُخَضْرَماً بل عُدَّ عبَّاسيًّا.

وكان أبوه الجَون عَبْداً لرجُل من بني أسد، ثم مَنَّ عليه فأعتقه، ومن هنا كان وَلَاءُ أبي دُلَامة لبني أَسَد.

ولم تكن هذه الكُنْية التي أَضْفَاها زَنْدٌ على نَفْسه غَيْرَ آسْمِ جَبلٍ بأعلى مكة. كانت قُريش تَئِد عنده البنات في الجاهليّة.

ولا أدري لِمَ آختار زَنْدٌ هذه الكُنية، وكأني به أراد أن يُثِيرَ دَفِيناً، ويُحْيِي قديماً، فَيَسُوء مَن حوله بماضيهم كما ساؤوه هم باستعبادهم أباه، وأقربُ إلى الظنّ أنه شاء لنفسه أن تكون لها تلك الإنطلاقة التي تَئد ما يعوقها وما تخاف، وما وَأَدَ العربُ بناتهم إلا مخافة شَرٍّ يُرْتَقَب. ليمضوا في حياتهم مُطمئنِّين، وكذا وأد أبو دلامة في نفسه كُلَّ ما يعوِّقها قولاً أو فعلاً، فإذا هو يمضي في الحياة وقد خَلع عنه كل قَيْد، وفَرَّق بين وأد ووأد، ولكنه وَأْدٌ على كُل حال.

لقد عايش زَنْدٌ ثلاثةً من الخلفاء العباسيِّين، هم: السفّاح، والمنصور، والمَهديّ.

وما نعرف الكثير عن صلة أبي دُلامة بالسفّاح، ولكنا نعرف أنه هو الذي أتى به من البَدْو. وأنه هو الذي أغدق عليه.

وما نظن السفَّاح فعلها عَفْواً، وكأنِّي به قد أَحَسّ في أبي دلامة بادرة الشِّعْر فأحبَّ أن يشتري لساناً قائلاً، وما كان أحوجه عندها إلى مثل هذا اللسان القائل.

ويبدو لي أن السفّاح أحس فيه أُخْرَى، وهي كراهيته للمروانيِّين، وأكاد أَعْزُو سُكوتَه، أعني سُكوتَ أبي دُلامة عن أن يقول شيئاً، إلى تلك الكراهية. لا إلى عَدَم نباهته. يُؤيِّدني على هذه بَيْتاه اللذان أنشدهما في حَضرة المَهديّ، وكان المَهديُّ قد أَمر مَرْوانيًّا في حَضرته بقتَل عِلْجٍ أُتِيَ به، فَنَبَا السيفُ في يَد المروانيّ، وآعتذر عنها فقال: لو كان هذا السيف من سيوفنا ما نَبا، فغاظت هذه المَهْدِيَّ، ثم كان أن قام واحدٌ من رجال المهديّ فقتل العلِجَ وما نَبا السَّيْفُ، فقال أبو دلامة:

أيّها الإمام سيفك ماضٍ وبكَفِّ الوليِّ غير كَهَامِ
فإذا ما نَبَا بكَفٍّ عَلِمْنَا أنها كَفُّ مُبْغِضٍ للإمامِ

وقد لا تكون هذه فيها ما يؤيِّد، فالأمر كان عندها لبني العبّاس، ولكني أقول: فِيمَ كان إغداق السفّاح على أبي دلامة إن لم يكن لمثلها؟

فلقد دخل أبو دلامة على المنصور يُعزِّيه عن وفاة السفّاح فيقول:

أمسيتَ بالأنباء يا بن محمد لم تَسْتَطع عن ثغرها تَحْوِيلاَ
مات النَّدَى إذا مِتَّ يا بْنَ مُحمَّد فجعلته لك في الثَّراء عَدِيلاَ

ويَغضب المنصورُ ويتوعّد أبا دلامة إن أنشدها أُخْرَى، فينطلق أبو دلامة يُذكِّر المنصورَ بما كان من بِر السفّاح به.

وما كان أبو دلامة يريد إلا أن يذكّر المنصورَ بِعِدَةٍ وَعَدَها السفَّاحُ أبا دلامة،

ثم آختطفه الموتُ قبل أن يَفِيَ بها، وهي عَشرة آلاف دِرهم وخمسون ثوباً. فيأمر له بها المنصور.

وهكذا تَرى أبو دُلَامة أعطى ليأخذ، ولقد وَجد الأُمويِّين مُودِّعين والعبَّاسيِّين مُقْبِلين، فآثر المُقْبِلين على المودِّعين، فاستقبل دنياه طامعاً لا رائياً، أي صاحب رأي.

إقرأ معي قولَه للمَنْصور على لِسان آمرأته وهي تَحُثُّه على طَرق باب المنصور:

أخْرُجْ لِتَبْغي لنا مالاً ومَزْرعةً ... كما لجِيرانِنا مالٌ ومُزْدَرَعُ
وآخْدَعْ خليفَتنا عنها بمسألةٍ ... إنّ الخليفة للسُّؤالِ يَنْخَدِعُ

ثم اقرأ معي ما دار بينه وبين المنصور وقد دخل عليه يَسْتمنحه، فقال له المنصور: ألستَ القائلَ لأبي العبّاس السفّاح:

ولقد سألتُ الناسَ بعدك كلَّهم ... فوجدتُ أكرمَ من سألتُ بَخِيلاَ

ثم اقرأ معي جوابَ أبي دلامة، فلقد قال: إنّي أرغب في الثَّمن، فإنْ أعطيت ما أُعطى أخذتَ ما أخذ.

فأمر به المنصور فحُبِس، ثم ما لَبِث أن خلَّى سبيله. ودعاه إليه ووصله.

وما فعله أبو دُلامة مع المنصور فَعل مثله مع المهديّ، فلقد دخل عليه يوماً وهو يبكي، فسأله المهديُّ عمّا به، فقال: ماتت أُمُّ دَلَامة، وأنشده لنفسه فيها:

وكُنَّا كَزَوْجٍ من قَطًا في مَفَازَةٍ ... لَدَى خَفْضِ عَيْشٍ ناعمٍ مُونقٍ رَغْدِ
فأَفْردني رَيْبُ الزمان بصَرْفه ... ولم أرَ شيئاً قطّ أوحشَ مِن فَرْدِ

فأمر له المهديُّ بثياب وطِيب ودنانير.

وتدخل أُمُّ دُلَامة على الخَيزران زوجة المهديّ باكيةً هي الأُخرى، وتعلمها أن أبا دلامة قد مات. فتُعطيها مثلَ ما أعطى المهديّ.

ويَخْلو المهديُّ بالخَيْزرانة، ويعرف كلٌّ منهما ما كان، فيضحكان لها

ويَعُدَّانها من مُزاحات أبي دلامة، وما كان أكثرها، ثم ما أكثر ما نال بها.

فلقد عرف المنصورُ عن أبي دُلامة عُكوفَه على الخَمر وآنقطاعه عن الصلاة، فألزمه المسجد، فإذا أبو دُلامة يكتب قِصته ويدفعها إلى المهديّ، ويوصلها المهديُّ إلى أبيه المنصور، وفيها يقول:

ألم تَعلما أنَّ الخليفة لَزَّني بمَسجده والقصر، ما لي وللقَصْرِ
وكلَّفني الأولى جميعاً وعَصرها فويلي من الأُولى وويلي من العَصْرِ
وما ضَرَّهُ والله يغفر ذَنْبَه لو انَّ ذُنُوبَ العالمين على ظَهْرِي

وما كان أبو دُلامة يَغِيب عنه ما كان لأبي مُسلم من يَدٍ على العبّاسيّين، فلقد عاصره وعاصر أيّامه مع السفّاح، وكما كان رِضا السفّاح عنه كان رِضا أبي دلامة عنه، حتى إذا ما غَضب المنصورُ عليه فقتله كان أولَ الشامِتين أبو دُلامة، وإذا أبو دُلامة يدخل على المنصور ويُنشده مُعرِّضاً بأبي مُسلم:

أَبا مُسْلِمٍ خوَّفتني القَتْلَ فآنْتَحى عليك بما خَوَّفتني الأسدُ الوَرْدُ
أبا مُسْلِمٍ ما غيَّر الله نِعْمَةً على عَبْدِهِ حتى يُغَيِّرها العَبْدُ

هذا هو أبو دلامة، وَأَد قُيود الحِشْمة فانطلق كما شاء، وكان صاحبَ نكتة مُستطابة فأضحك السلطان، وكان صاحب حيلة في الاستجداء خَدعت السلطان، وكان العَوَزُ إليه شاعراً ممّا أرضى السلطان عنه، وبهذه كلِّها ضَمِن أبو دلامة أن يَعيش مُقَرَّباً من خلفاء ثلاثة، وما كان له من شِعْرٍ فهو لإرضاء هؤلاء الثلاثة، لكي يكون أكثر قُرْباً منهم، ليس ثمة من حياء يَحول بينه وبين أن يُرَى رديء المذهب، مرتكباً للمَحارم، مُضيِّعاً للفروض يَفْحُش، فلقد وأد كُلَّ قَيد ما شاء، وفعل ما شاء.

وهكذا امضى أبو دلامة، وما أسعد غير نفسه، إن صَحَّ أن الذي فعله كان إسعاداً[1]..

---

(١) الأغاني ـ وفيات الأعيان ـ الشعر والشعراء.

ومنهم: **حمّاد عَجْرَد (٧٧٨ م ـ ١٦١ هـ).**

عَـرف حمَّادٌ الأُمـويين كما عـرف العبّاسيّين، غيـرَ أنَّ معرفتـه لهؤلاء ولهؤلاء كـانت معرفـةً عابـرةً، لم يَدِنْ لهؤلاء ولا لهؤلاء، وإنمـا دان لحياتـه هو الخـاصّـة، يَكْسِبُ عَيْشَه من تأديب أولاد العِلْيَة، ولم نَقرأ له أنه مدح واحداً من خُلفاء الأُمويّين ولا خُلفاء العباسيين.

ولقد كانت صِلَتُه بالأُمويين لا تَعْدُو تلك الصِّلَةَ القصيرةَ التي كانت بينـه وبين الوليد بن يزيد، فلقد أُنْهِيَ إلى الوليد بن يزيد أن ثمة ثلاثةً عُرِفوا بـالظَّرْف من أهـل الكوفة، وتشوَّف الوليد مُنادمتهم فبَعث في إشخاصهم، وكان عندها خليفـةً، وهم: حمّاد عَجرد، ومطيع بن إيـاس، والمُطيعيّ المُغنِّي. ومـا إن استجاب هؤلاء للوليـد ونزلوا عليه دمشق حتى رحلوا عنها إلى الكوفة حيث كانوا، إذ لم تَدُمْ خلافةُ الوليـد طويلاً، فلقـد وليها سنـة خمس وعشرين ومـائة (١٢٥ هـ) وخـرج عنها مقتـولاً سنة ست وعشرين ومائة (١٢٦ هـ).

ثم عاش حمّاد سائرَ عُمره في ظلّ العبّاسيين أفراداً لا مُلوكاً:

فكان مُؤدِّباً لولد الرَّبيع بن يونس، وزير المنصور، غيرَ أنه لم يلبث أن أخرجه الربيعُ عنه حين آنتهى إليه قول بشار في حمّاد:

يـا أبـا الـفَـضـل لا تَـنَـمْ  وَقـع الـذِّئْـبُ فـي الـغَـنَـمْ

ثم آتصـل حمّاد بـالعبّاس بن محمـد الهاشميّ يؤدِّب ولـده، ولم يسكت عنـه بشّار، وكما فعل أولاً فعل ثـانياً، فـإذا العباس يُخـرجه، وينقـطع عن حمّاد مـا كان يصله به. فيُبَادِلُ بشّاراً هجاءً بهجاء مقذع يعف القلم عن ذكره.

وكم كان يَوَدّ حمّـاد أن يكون مؤدِّبـاً لولـد المَهديّ بـدلاً من قُطْرُب، غيـرَ أن تَهَتُّكه حال دونها.

أَسوق هذا لأَدُلَّك على السَّبِيل التي كان يرتزق منها حمّـاد، وأُحِبُّ أن أُضِيف إليها غَيرها، فلقد وصل حمّاد حَبْلَه بحَبْل بعض من لهم الجاه. وأكبر الظنّ أنه كان

يؤدِّب أولادهم، ويعيش على ما ينال منهم، وما عرف حماد أبداً الملوك مادحاً مُستجدياً كما لم يمدح واحداً من هؤلاء الذين عرفهم، على ما كانوا يُعطونه. فلقد كان هو المُعْطِي.

وما تركه بشار لشأنه بل تابَعه في كُل خُطوة يخطوها، يهجوه فَيُسِفّ، وحمّاد يَهجوه فيُسِفّ وكانت معارك هجائيّة شَغلت حياة هذين الشاعرين، وكانت أكثر ما شغلت حياة حمّاد، ثم إذا هذا الهجاء تَتَّسع رُقْعَتُه ويَنضمّ إليه شاعر آخر هو مُطيع بن إيَاس.

لهذا ومِثله عاش حمّاد لا يكاد يعدوه.

وأكاد أقول: إنّ اتِّهام حمّاد بالزَّنْدقة، لم يأتِ من فَراغ، كما أكاد أقول: إنه لا شك قال في هذه قليلاً أو كثيراً، وإن هذا القليل أو ذاك الكثير لم يُحْفَظْ له. ولكنّنا نكاد نعلمه من قول أبي هشام الجاهليّ حين مرَّ بقبره، وكان بشار بن برد الذي مات بعده، ولم يجدوا قبراً يَضُمُّه غيرَ قبر زنديق فدفنوه معه فقال أبو هشام:

قد تَبِعَ الأَعْسَى قَفا عَجْرَدٍ    فأَصبحا جارَيْن في دَارِ
قالت بِقَاعُ الأرض لا مرحَباً    بقُرْبِ حماد وبشَّارِ

ويُرْوَى لحمّاد أنه قال: وهو في السِّيَاق، وقد بلغه هجاءُ بشار له حين قال:

لو عاش حمَّاد لَهَوْنا به    لكنّه صار إلى النار

فقال حمّاد:

نُبِّئتُ بشَّاراً نعاني وَلِلْـ    ـمَوْت بَراني الخالقُ البارِي
يا ليتني مِتُّ ولم أَهْجُه    نَعم ولو صِرْتُ إلى النَّارِ

كما يُرْوى لحمّاد قوله:

إنّ الكريم لَيُخْفِي عنك عُسْرَتَه    حتى تراه غَنِيًّا وهو مَجْهُودُ
بُثَّ النّوالَ ولا تَمْنَعْك قِلَّتُه    فكل ما سَدَّ فَقْراً فهو مَحمودُ

والذي يُحدِّثنا عن زَندقة حمّاد هو أبو نُوَاس، يقول: كنت أتوهّم أن حمّاد عَجْرد إنّما رُمِي بالزندقة لمجونه في شِعره، حتى حُبِست في حَبس الزنادقة، فإذا

حمّـاد عجرد إمـامٌ من أئِمّتهم، وإذا لـه شِعـر مُـزاوج. بَيتين بَيتين، يقـرأون بـه في صلاتهم.

ولعلّ شِعر بشّار، حين مات حمّاد يُعَزّي صـاحباً لحمـاد فيه حُـرَيت، يَكشف لنا شيئاً عن زندقة حمّاد، يقول بشار:

بَـكَـى حُـرَيْـتُ فـوَقَّـره بتَـعْـزِيَـةٍ      مـات آبن نِهْيَا وقـد كـانـا شـريكَيْنِ
تَفـاوضـا حين شـابَا في نِسـائهمـا      وحَـلَّلا كـلَّ شيء بـيـن رِجْـلَيْـنِ

يعني بَشّار أنّ حماداً كان يقول بقول الثَّنويِّة، وهم فِرقـة تقول بـاثْنَيْنِية الإلـه، أي إنه ثمة إله للخير وإله للشر.

وما بين أيدينـا من شِعر لحمّـاد لا نستطيـع أن ننفي به أو نثبت، ولكن شِعـره الذي سُقْتُه له قبل وهو في السّياق ينفي، فلا ندري أكان هذا عن تَوبة، أم كان هذا هو رأي حماد.

وهكذا ولّى حمّاد وما بأيدينا غيرَ هذا الحُكم الذي حُكِم به عليه[1].

* * *

## ومنهم: بَشَّار بن بُرْد (٧٨٥ م ـ ١٦٨ هـ).

يقول الرُّواةُ مُجْمِعين: إن بشَّـاراً من الأعاجم، وإن أبـاه بُرْداً وقـع في سَبْي المُهَلَّب بن أبي صُفْرة حوالى السنـة المُتِمّة الثمـانين (٨٠ هـ)، وإن آسم هذا الأب لم يكن بُرْداً، وإنما كان آسمه يَرْجوخ، وكـان من عادة العـرب أن يسمُّوا العَبْـد من عَبيدهم بُرْداً، فلم يكن جديداً أن يُسَمَّى والد بشّار بُرْداً.

وغدا بُرْدُ عَبْداً لزوجة المُهلَّب القُشَيْرِيّة، ووَهبته هذه لامرأةٍ من بني عُقَيْل.

وكان بُرْدُ طَيَّاناً، أي يضرب من الطِّين لَبِناً، وإذا آمرأتُه التي كان قد بَنَى بها، وهـو في بيت المهلَّب، تلد له ولـداً. وكان هـذا الولـد هـو بشّـار، ويمـوت الأبُ،

(١) الأغاني ـ وفيات الأعيان ـ الشعر والشعراء.

وتُعْتِق العُقَيْلِيّة الابن، ومن هنا جاء ولاء بشّار لبني عُقَيل. وفي هذا يقول بشّار:

إنَّني من بني عُقَيْلِ بنِ كَعْبٍ مَوْضِعَ السَّيف من طُلَى الأعناقِ

ويقول:

وقامتْ عُقَيْلُ مِن وَرائيَ بالقَنَا حِفَاظاً وعاقدتُ الهُمَامَ المُحَجَّبَا

ويقول الرُّواةُ مُجْمِعين: إنّ أمَّ بشّار كانت رُوميّة، وكانت أَمَةً لِرَجُلٍ من الأَزْد، وإن هذه الأُمْ بَنى بها رجلان، بعد وفاة رَجُلها الأول، أحدهما حنفيّ، والآخر سَدوسيّ، والحنفي منهما هو بِشْر، والسدوسي هو بَشِير، وكلّهم بالولاء. فبشّار عُقَيْلِيّ ولاءً، وبِشْر حنفيٌّ ولاء، وبَشِير سدوسيّ ولاءً.

ومما يُؤْسَى له أن هذين الأخوين كانا هما الآخران مَأفونين، أي لكل منهما آفنةٌ، فأحدهما أَعرج، والآخر أكتع، يُفصح لك عن هذا بيت حمّادُ عَجرد في هِجاء بشّار:

لقد وَلدت أم الأُكَيْمِه أَعْرجًا وآخر مَقْطوع القفا ناقِصُ العَضُدْ

وما إن شَبّ بشّار حتى تزوج آمرأة آسمها أُمامة، وأولدها بشّار آبناً سمَّاه محمداً، غير أن هذا الابن ما لبث أن مات صغيراً، وكان حُزْن بشّار عليه شديداً، تُحِسّ هذا في رثائه له، حيث يقول:

أجارَتنا لا تَجْزَعِي وأَثِيبِي أتاني من الموت المُطِلّ نَصِيبِي

إلى أن يقول:

وما خَيْرُ عَيش لا يَزال مُفجِّعاً بموت نَعِيم أو فِراق حَبِيبِ

ويَروي الرُّواةُ مُجمعين: أنه كان من أنصار الأُمويين، وأنّ له مدائح في مَروان بن محمد، آخر الخلفاء الأمويين، ومن هذا قوله:

إذا ركِبُوا بالمشرَفيّةِ والقَنا وأصبح مَرْوانٌ تُعَدُّ مَواكِبُهْ

ويَروي الرُّوَاةُ مُجمعين: أن بشاراً كان مُتضلّعاً في علم الكلام، معدوداً من مُتْقنيه، وأنه كان بالبصرة ستّة من أصحاب الكلام: عمرو بن عُبيد، وواصل بن

عـطاء الغزال، وبشـار بن بـرد، وصـالـح بن عبـد القُـدوس، وعبـد الكـريم بن أبي العوجاء، وجرير بن حازم الأزديّ، وكانوا يَجتمعون في منزل هذا الأزديّ.

فأمَّا عَمْرٌو وواصلٌ فصارا إلى الاعتدال، وأمـا عبد الكـريم وصالـح فمالا إلى الثنويّة، وأمـا الأزديّ فمال إلى قـول السَّمْنيّة، وهـم القـائلون بالتَّنـاسُخ، وأمـا بشّار فبقي مُختلطاً متحيِّزاً.

أسوق هذا كلَّه لتـرى معي كيف آستوى لِولدٍ من أبوين أعجميّين، وأن الأب اعتنق الإسلام بعد أن جيء به في سَبي المهلّب، كيف استوى لهذا الولـد أن يكون من أَفصح العرب لساناً، وأن يكون هذا الشاعرَ الفَحْـل، وأن يكون شـاعر الخليفة الأُمويّ: مروان بن محمد، وهو في الثلاثين من عمره، أو دون هـذا بقليل، فلقـد وُلِدَ بشّار، فيما يقال، سنة ست وتسعين (٩٦ هـ)،٠وكان جلوس مَـروان على عرش الخـلافـة سنـة ست وعشـرين (٢٦ هـ)، ثم كيف آستـوى لـه أن يعـرف الثنـويـة والمجوسيّة والبرهمية والسمنية؟ ثم كيف استوى له أن يُنسب مرة إلى الرفض، ومرة إلى الشُّعوبيّة، ومرة إلى الرجعيّـة، وأصحابهـا هم القائلون بـأن علي بن أبي طالب سينزل مرّة ثانية، كما سينزل عيسى بن مـريم عليه السـلام، وأن جميع الأمـة كفروا حين عـدلوا عن بيعـة علي بعد رسـول الله ﷺ، كما استـوى لـه بعـدُ أن ينسب إلى الإلحاد والتَّعْطيل؟

لا أكاد أُدْلِي في الأُولى برأي، أعني عن حـذق بشَّار للعـربيّة حتى عُـدَّ ممن يُحْتَجّ بقولهم عليهـا، ولكني أكاد أُدْلِي في الثـانية بـرأي، أعني عن عقيدتـه، وأكاد أعـزو هذا إلى كيـد الكائـدين له، وعلى رأسهم يعقـوب بن داود، وزيـر المهـديّ، وكان هذا لهجـاء بشّار أخـاً ليعقوب، هـو صالـح، وكان المهـديّ ولّاه ولاية، ورآه بشار غيرَ أهلٍ لها، فقال يهجو يعقوب:

هم جَعَلُوا فـوق المنابـر صالحـاً ... أخاك فضَجَّتْ من أخيك المنـابِرُ

فـدخل يعقـوبُ على المهديّ، ووشى على بشّـار شعراً في هجـاء المهديّ،

وسُرعان ما هاج المهديّ، ثم سرعان ما نكَّل ببشّار وأمر به مَن يَقتله، وإذا المهـديّ بـآخِـرة يَقـع على كتـاب لبشّـار وفيـه: وإني أردت هجـاء آل سُليمـان بن عليّ بن عبد الله بن العبّاس، رضي الله عنهم، فذكرتُ قـرابتَهم من رسول الله ﷺ فـأمسكت عنهم.

عندها نَدِم المهديّ على ما فَعل ببشّار، ولات ساعةَ مَنْدم.

ويبدو أنّ بشَّاراً كان هاشميًّا، وكانت الهاشميّة تغلبة عليه، وما أظنُّه جَنـح إلى الأُمويين، إلّا ليكسب حياتَـه، كما أظن أنـه ما جنـح إلى العباسيين إلا ليصـل هذه الحَيـاة، يدلّـل على هذا وذاك أنـه لما ظهـر محمدُ بن عبـد الله بن الحسن في عهد المنصور، إذا هو يمدحه ويهجو المنصور، فيقول:

أبـا جعفر مـا طولُ عيشٍ بـدائم ... ولا ســالمٌ عمّـا قليـلٍ يسـالِمِ
فَـرُمْ وَزَراً يُنجيك يـا بن سلامـة ... فلست بنـاج من مُضِيم وضـائِمِ

وسلامة: أمّ المنصور.

ويقول فيها:

من الهـاشميّين الـدعـاة إلى الهُـدَى ... جِهَـاراً ومَن يهديـك مثـلُ آبن هـاشمِ

وإذا المنصور يُكتب له النَّصـر على محمد، وإذا بشّـار يخاف، وإذا هـو يُغَيِّر في تلك القصيـدة ويجعلها في هجـاء أبي مُسلم، ويستبدل بـأبي جعفر أبـا مُسلم، ويستبدل بآبن سلامة: ابن وشيكة، وهي أُم أبي مُسلم.

وبعد فهذا الخوف الذي لَمَسْتَ معي مـظاهره، هـو الذي صَـرف بَشَّاراً عمـا يجب أن يقـول: فـإذا هـــو نـاسب ومُشَبِّب، وإذا من نَسب بهن وشَبّب يــزدن على العِشرين، وإذا قصائده فيهن تكاد تكون نِصف شعره الذي آنتهى إلينا..

ولقـد مدح غيـر واحد، وإذا ممـدوحوه يكـادون يبلغون العشـرين، وما مـدح المهديّ، إلا بقصائد مَعدودة.

وكما مَدح بشّار غيرَ واحد هَجَا غير واحد، وكان على رَأْس مَن هجاهم حمّاد

عَجرد، فلقد كانت لِبَشّار في هجائه قصائدُ عِدّة.

تُرى هل هـذا كل مـا قالـه بشّار، وهـو القائـل: لي آثنا عشـر ألف قصيدة، وقصائده التي بين أيدينا لا تَرقى إلى ثلاثمائة قصيدة.

وهذا النَّسيب والتَّشبيب الذي هـو جُلَّ شعـره لا نكاد نلتفت إليـه إلا على أنه صَنعة، والذين يأخذون عليه أفحاشه فيه، وقد أُنْسوا أنه كان في هذا الإفحاش يَسْتُر عماه، وما أظن إفحاشه في هجائه إلا كان لهذا العَمَى أيضاً الذي عيَّره به خصومه، ثم لشيء آخر هو أَصْلُه.

فنحن بين يدي شاعر ذي رأي ووَعي ثقافيّ، ولكنا لا نرى له في هذا شيئاً، ونحن بين يدي شاعر هاشميّ النزعة، ولكن لا نرى له إلا هذا الشعر الذي سرعـان ما عَدَّل فيه لخوفه.

وأين قصائده التي بلغت آثني عشر ألف قصيدة؟

إن مـا بقي من شِعر بشّـار لا يمثل لنـا إلا فحولتـه في الوصف، والاستيعـاب اللغوي، وما لهذه أو تلك خلق الشاعر، بل هما وسيلتاه لأن يكون شاعراً[1].

* * *

## ومنهم: صالحُ بنُ عَبد القُدُّوس (٧٨٥ م ـ ١٦٨ هـ).

عَرفه المهديُّ قبل أن يَلِيَ الخِلافةَ، أو قُـلْ: سَمِع بـه المهديُّ قبـل أن يَلِيَ الخلافة، فأَمَر بأن يُحْمَل إليه من دِمَشْق، فإذا هو بِحَضْرة أديب، عـالم، حَكيم، له براعتُه وحُسن بَيَانه.

وكان الذي بلغ المهديَّ عنه أن زِنْدِيق، وكان يَنْوِي به شَرًّا، غير أن المهـديَّ رآه على غير ما بلغه عنه فخلَّى سَبِيلَه.

والذين تحدَّثوا عن صالح وَصفوه بأنه كـان مُتكلِّماً، مُقـدَّماً في الجَـدَل، وأنه

(١) الأغاني ـ وفيات الأعيان ـ الديوان.

حين ترك دِمَشْق كان يجلس في مسجد البصرة للوعظ، وليقُصَّ على الجالسين إليه قَصص الأَوَّلين.

ويكاد شِعْرُ صالح يُفْصِح عن تلك الصِّفات التي أَسْبغها عليه واصفُوه.

فمن شِعره في الحكمة قولُه:

المرءُ يَجمع والزمانُ يُفَرِّقُ ... ويظلُّ يَرْقَعُ والخُطوب تُمَزِّقُ

ومن شِعره في العِفَّة:

صَرَمت حِبالك بعد وَصْلِك زينبُ ... والدَّهْرُ فيه تصرُّمٌ وتقلُّبُ
وكذاك ذِكْرُ الغانيات فإنّه ... آلٌ ببلْقَعة وبَرْقٌ خُلَّبُ
فَدَعْ الصِّبا فلقد عَداك زمانُه ... وآجْهَدْ فعُمرك مَرَّ منه الأَطْيَبُ

ومن شعره في آستنهاض الهمم:

ليس مَن مات فآستراح بمَيْتٍ ... إنما المَيْتُ مَيِّتُ الأحياءِ

ومن شعره في ضَبط اللسان:

إذا قُلْتَ قَدِّرْ أنَّ قَولَك عُرْضَةٌ ... لِبَادِرَةٍ أو حُجَّةٌ لمُخاصِم

ومن شعره في الوفاء:

لا أخُون الخَليلَ في السِّرِّ حتّى ... يُنْقَل البَحْرُ في الغَرابِيلِ نَقْلَا

ومن شِعره في التَّسْليم بالقَدَر:

إنْ يَكُنْ ما به أُصِبْتَ جليلَا ... فذَهَابُ العَزاء فيه أَجَلُّ
كُلُّ آتٍ لا شكَّ آتٍ وذو الجَهْـ ... ـلِ مُعَنًّى والغَمُّ والحُزْنُ فَضْلُ

هذه هي نماذجُ ممّا حُفِظ لنا من شعر صالح، وما نُحِسّ فيها غير ما يُحَبّ. ولكن قد يكون لصالح غيرُ هذا الذي لا يؤاخذ عليه، أو قل: قد يكون لصالح ما دُسَّ عليه ولم يَقُلْه، وتلك كانت سُنَّة الحياة عَصْرَ المهديّ، الذي كان ظَمِئاً لتتبُّع الزنادقة، يَقتلهم على الشائعات، وقد مَرّ بك شيءً من هذا عند الحديث على حمّاد عَجرد، وبشّار.

فمـا تَركَ الحـاسدون لصـالح المَهْـدِيَّ بعدمـا أَخْلى سَبِيلَ صـالح، بـل ظَلُّوا يُلاحقونه بالشائعات، وإذا المهـديّ يدعـو صالحـاً بعد أن وَلِي المهـديُّ الخلافـة، وكان المهديّ عندها بين يَدَيْه رُقْعة فيها أبيات مليئةً بالتعريض بالنبيّ ﷺ، نَسبها مَن قدَّمها للمهـديّ إلى صالـح، ويَقول المهـديُّ لصالـح: أنت القائـل هذه الأبيـات؟ ويقول صالح: لا والله يا أمير المؤمنين، ووالله ما أشركت بالله طَرْفَةَ عين، فـآتَّق الله ولا تَسفك دَمِي على الشُّبهة، وقد قال النبيُّ ﷺ: إدْرَؤا الحُدودَ بالشُّبهات.

وأخذ صالحٌ يتلو على المهديّ آيات من القرآن الكريم.

عندها لا يَملك المهديُّ على صالح حُجَّة، فيُخلِّي سَبِيلَه.

ولكنَّ صـالحـاً من أصحـاب الـرأي، وهـذه هي التي نَقِمَهـا المهـديُّ على صالح، كما نَقِمها عليه مَن قَبله ومن بَعده، وجَعل الزَّندقة حُجَّتـه في قَتْل من قتَـل من أصحاب الرأي.

لهذا لم يَلبث المهديُّ أن دعا صالحاً ثالثةً، وقال له، ألست القائل:

والـشيـخُ لَا يـتـرك أخـلاقـه حتى يُـوَارَى فـي ثَـرَى رَمْسِـهِ

ولا يُنكر صالح أنه قائل هذا.

ويجعل المهديُّ من إقرار صالح هذا حُجَّته على صالح في أنه لم يَنْتَهِ ممّا هو عليه، وما كان صالح غيرَ صاحب رأي، وربما كـان هذا الـرأيُ هاشميًّـا، وهذا مـا كان يُقِضُّ العبّاسيين، فـأمر بقتله، ولم يـدع قَتْله لأحد، بـل تولّاه المهـديُّ بنفسه، فأمسك بـالسَّيف فَضَرب صـالحاً بـه فقدَّه نِصْفَيْن، ولم يَكْتَفِ بهـذا بل أمـر بجثّته فَعُلِّقت ببغداد.

تُرى لو كان صالحٌ ممّن مدحوا المهديَّ أكان خَلّاه ولم يقتله؟

أكاد أقول: بلى: فما كان صالح مِن هذا الرَّعيـل، ممّن يَجري على ألسنتهم مـا لا يُؤمنون بـه، وحَسبي هنـا أن أَسـوق لـك مـا كـان بين المهـديّ وبين عليّ بن الخليل، فقد كان علي بن الخليل هو الآخر ممن ألصق بهم المهدي تهمة الزندقة، وكان عليّ بن الخَليل صديقاً لصالح.

ومَثَل الاثنان ـ أعني عليَّ بن الخليل، وصالحَ بن عبد القدوس ـ بين يَدي المهديّ، وهو يَنْظُر في المَظالم، ويَعرف عليُّ بنُ الخليل ما لم يَعرفه صالحٌ من أخلاق السَّلاطين، كما لم يكن عِنده ما يَحول دون أن يَهبط قليلاً لِيَنْجُوَ، وحين اتَّهمه المهديُّ بعبارات قالها في الزَّندقة، آنبرى علي بن الخليل يقول: بلى أنا القائل:

يا خَيْرَ من وَخَدَت بأَرْحُله نُجُب الرِّكَاب بمَهْمَهٍ جَلْسِ

فيُسَرّ بقوله المهديّ ويُجزل صِلته ويخلّي عنه، ثم يكون أَمره مع صالح على نحو ما مرَّ بك، لأنّ صالحاً لم ينْفتح فُوه بمدحه، فعُدَّت عليه هذه نَقِيصة، وأُيِّدت لَدَى المهديّ ما يُقال عنه من أنه هاشميّ، ورأى المهديُّ الهاشميّة لا تَقوم دليلاً على القتل، فجعلها زَنْدَقة.

ولا بُدَّ لي قبل أن أَخْتم الحديثَ عن صالح أن أسوق تلك الرُّؤيَا التي رآها في منامه رجلٌ زاهد، يقول: رأيتُ صالحَ بن عبد القُدُّوس في المَنام ضاحكاً مُستبشراً. فقلت له: ما فَعل بك ربُّك؟ وكيف نَجوت ممّا كنت تُرْمَى به؟

فيقول صالح: إني وَرَدْت على ربٍّ لا تَخفي عليه خافية، فآستقبلني برَحمته ويعقب هذا الزاهد فيقول: قد علمت براءتك مما كنتَ تُقذف به[1].

* * *

## ومنهم: مُطِيعُ بن إيَاس (٧٨٣ م ـ ٢٦٩ هـ).

بالكُوفة وُلِدَ مُطيع وبها نَشأ، ولم تَكُن الكُوفة مَهْدَ آبائه، فلقد كان أبوه إيَاس من أهل فِلَسْطين. وحين كانت الحربُ بين الحجّاج وابن الزُّبَيْر كان إيَاسٌ من الجُنْد الذين أَمَدَّ بهم عبدُ الملك بنُ مروان الحجَّاجَ، ويَحلو لإيَاسٍ بعد تلك الحرب المُقَامُ في الكوفة فيُقِيم. وإذا هو بعدها زَوْج، وإذا هو بعدها أب، وإذا هذا الابن مُطِيع.

(١) تاريخ بغداد ـ رغبة الآمل ـ معجم الأدباء ـ فوات الوفيات ـ وفيات الأعيان.

ففي ظِلِّ الدولة الأمويّة نشأ مُطِيع، ونشأ معه شاعران آخران، هما: حمّاد عَجْرد، ويَحيى بن زياد الحارثيّ، وكما عاصر هؤلاء الثلاثةُ الأمويّين عاصروا العبّاسيّين، ولقد عاشوها أيّاماً رَغدة في ظِلّ الأمويين، وأيّاماً جَدْبة في ظِلّ العبّاسيّين، فكانوا بالعبّاسيّين أبْرم، وللأمويِّين أذْكَر.

فلقد جمعهم يوماً مجلسٌ فذكروا ما هم فيه وما كانوا فيه، وإذا مُطيع يُنشدهم:

حَبَّذَا عَيْشُنا الذي زال عنَّا ... حَبَّذا ذاك حينَ لا حَبَّذا ذا

ومن قبل هذه قرأنا لمُطيع مَدْحَه للقَمْر بن يزيد بن عبد الملك، وهو:

وآذْكر فَتَى بِيَمِينِه ... حَتْفُ الزمان لدى التوائهْ

وإذا أميّة حُصِّلت ... كان المُهذَّب في آنتمائهْ

ثم تُحدِّثنا المراجعُ عن مُطيع أنَّه كان مُقرَّباً عند الوليد بن يزيد، وأنّ الوليد لم يَبخل عليه شيء سأله وتمنّاه.

وبعد هذا لا ترى المُطيع شعراً في مدح المنصور، وكان مُنقطعاً إليه.

ولكن الشيء الذي لا نشك فيه أنّ مُطِيعاً كان عَلَوِيَّ النَّزْعة. تدلُّك على هذه أبياته:

أمسيتُ جمَّ بلابل الصَّدْرِ ... دَهْراً أُزَجِّيه إلى دَهْرِ

إنْ فُهتُ طُلَّ دَمِي وإنْ كُتِمت ... وَقَدَتْ عليَّ توقُّدَ الجَمْرِ

ممّا جَناه على أبي حَسَنٍ ... عُمَرٌ وصاحبُه أبو بَكْرِ

ولا أدري كيف وَفَّق مطيع بَعْدُ بين علويّته وأمويته؟

ما أظُن شيئاً حمله عليها إلا سَعْيُه للرزق، ولو أن العباسيين أَغدقوا عليه لأنْسِي بهم الاثنتين معاً: علويّته وأُمويته.

لقد كان مُطِيعُ ماجناً كما شاء له المُجون، عكف على الشراب أُنْسِي به فُرُوضَه أو كاد، وأَفْسح لنفسه في أن يَعشق ما آنفسح له مَجال العِشق.

فعَشق جَوْهَر فقال فيها وأكثر، ومما قاله فيها:

قــتـلَتْــنـي بــمَـنْــعـهــا   لــي من وَصْــل جَــوْهَــر

وعَشق رِيم وقال فيها:

يــا رِيـمُ قــد أتـلفـتِ رُوحـي فــمــا   منهــا مَعِي إلاّ الـقَـلِيـل الـحَـقِـيـرْ

وعشق مَكنونة فقال فيها:

يــا ربّ إنــك تــعــلمْ   أنِّـــي بـمَــكْــنُــون مُــغْــرَمْ

وعشق جودانة جاريته، فقال فيها، وكان قد باعها مُضطرًّا:

فــعَـلَيْــكِ الــسَّــلامُ مـنِّــي مــاسَــا   غَ ســلامــاً عــقلي وفــاض لِسَــانِــي

وهذا الشاعر الذي أُفسح لنفسه في العِشق، يَعشق كلَّ من وقع عليهـا بَصره، أفسح لنفسه في المُجون تأخذ منه ما شاءت، ولا يتورّع أن يقول:

قــد شَــرِبْـنَــا ليلةَ الأَضْحَــ   ـى وســاقِــيــنــا يَــزِيــدُ

وأن يقول:

نَــعَــمْ لــنــا نَـبِــيــذٌ   وعِــنْــدَنَــا حَــمَّــادُ
وكُــلُّنــا مِــن طَــرَبٍ   يَــطِيــرُ أو يَــكَــادُ

وكـانت ثَمّة واحـدة آتخذهـا المهديُّ ذَرِيعَتـه لاتهامـه بالـزَّنـدقـة، وهي هـذا المُجون السافر، وما أَظُنُّ المهدي غاظَه مِن مُطيع هذا المُجونُ، ولكنّ الَّذي غـاظه منـه أُمورٌ ثـلاثة، هي: علويّتـه، ثم أُمـويتـه، ثم ـ وهي الأَهَمّ ـ أنـه لم يَقِف ببـابـه مادِحاً.

وما أظن مُطِيعاً آنتهى به مُجونُه إلى الزندقـة، قد يكـون أخَلَّ بفَـرْضٍ حِيناً، وقد يكون صَرَّح بما لا يَفعل، وأكاد أميل إلى الثانية، فلقد سأله صديقٌ له عمّا يُقال عنه من زَندقة، فقال له مُطيع: وهل سَمِعْتَ مني، أو رأيت، شيئاً يدلُّك على ذلك؟ أو هل وَجدتني أُخِلّ بالفرائض في صَلاة أو صوم.

ألا ما أَولانا بأن لا نُصَدِّق الناسَ فيما يقولون، وأن لا نُهَوِّن فيما يقـوله أنـاسٌ عنهم.

وبعد هذا كلّه فهل تركـ لنا مُطيع ما يدلّنا على أنه عاش للوجود من حوله ولم يعش لنفسه؟

ما أرى المراجع ذكرت إلا الذي أوردتُ طُرَفاً منه، مما يدلّنا على أن مطيعاً عاش لنفسه ولم يعش لوجوده[1].

* * *

## ومنهم: السيّد الحِمْيَرِيّ إسماعيل بن محمد (٧٨٩ م ـ ١٧٣ هـ).

دَخل السيّد الحِمْيَرِيُّ الحياةَ على يدي أَبَوَيْن إباضيّين، أي من غُلاة الخوارج.

وما إنْ شَبَّ السيِّد ودَرج على أرض البصرة، حيث كان يُقيم أهلُه، وجالس الناسَ هنا وهناك، ولَقِن عنهم، حتى غدا كَيْسَانِيًّا، وهم فِرقة من الشِّيعة تؤمن بأنّ محمدَ بن الحنفيّة، الذي آنتهت إليه الإمامة، حيٌّ لم يَمُتْ، وأنه في جبل، بين أَسَدٍ ونَمِرٍ يُحيطانه، وعنده عَينان نَضّاحتان بماء وعَسل، وأنه سوف يعود بعد هذه الغَيبة فيملأ الدنيا عَدْلاً كما ملئت جَوْراً.

وكم حاول أبواه أن يصرفاه عمّا أعتقد، فإذا هو على عقيدته لا يَتزعزع عنها، على الرَّغم مما لقِيَهُ منهما من إيذاء كاد يَنتهي به إلى القتل.

وهَجر السّيدُ بيتَ أبويه إلى عُقبة بن سَلْم، وكان والي البصرة حينذاك، فأجاره وبَوَّأه منزلاً وَهبه له، فكان فيه حتى مات أبواه.

وما أَسِي السيدُ بَفَقد والديه. ولا سأل الله لهما الرحمة، بل ودَّعهما بقوله:

لَعن الله والديَّ جميعاً ... ثم أَصلاهما عذابَ الجَحِيمِ

وتسألني: من أين للسيد بهذا الحُب العَميق، وعلى يد مَن لَقِن وتعلّم،

---

(١) الأغاني ـ تاريخ بغداد ـ رغبة الآمل.

وكيف غلب رأيٌ رأياً، أعني كيف غلب هذا الرأيُ الطارىء على الرأي المُقيم، أي رأي أبويه.

لقد كان هذا المعلِّم الأول للسيّد هو الإمام الأعمش سُليمان بن مِهْران، فلقد كان السيّدُ يَختلف إلى مجلسه في صِباه فيَلْقَن عنه فضائلَ عليّ، رضي الله عنه، ويخرج السيّدُ من عنده مُشبع الروح والنفس. فإذا هو يَصوغ ما قَرّ في نفسه شِعراً كلُّه رُوحانية، وإذا السيد لا يجتزىء بما سمع من الأعمش، وينادي في الناس ألاَّ يَبْخلوا عليه مما في جُعبتهم من فضائلَ لعليّ، ويُسرع إليه أحدُهم ويُخبره بما كان من وقوع أَسْوَدَ في خُفّ عليّ، رضي الله عنه، وحين هَمَّ عليه أن يَلبس هذا الخُفّ آنساب الأسود منه ودخل جُحراً، عندها ينطلق لسانُ السيّد ويقول:

ألا يا قومُ للعَجَبِ العُجابِ ... لخُفِّ أبي الحُسين وللحُبَابِ

الحباب: الحية.

ودُوفِعَ عن أبي حَسَنٍ عليّ ... نَقِيعُ سِمامه بعد انسيابِ

هذا هو الحُبُّ الذي غَرس الأعمشُ في قلب السيّد جُذورَه، وإذا السيِّدُ يتنكّر لرأي الآباء في عليّ ليتقبَّل رأي الأعمش فيه.

ولقد قِيل عن السيّد إنه عدل عن الكَيسانية إلى الجعفريّة، وهم فرقة من المعتزلة.

وهؤلاء الذين يقولون هذا يَعْزُون إلى السيّد أنه قال:

تَجَعْفَرْتُ بآسم الله والله أكبر

تَجَعْفَرْتُ باسم الله فيمن تجعفرا

وفي عِلْمِي أنّ الجعفريّة يُنسبون إلى كُلّ من: جَعفر بن حرب، وكانت وفاته سنة (٢٣٤ هـ)، وجَعفر بن مبشر، وكانت وفاته سنة (٢٣٦ هـ)، وأن هذا وذاك كانا يَقولان بإمامة جَعفر بن محمد بن إسماعيل الحُسينيّ الطالبيّ الهاشمي، الذي ولي الإمامة بعد أبيه محمد، المَكْتوم الأول: وكان أتباعه يكنون عنه بالمُصَدَّق، ولقد كانت وفاة جَعفر هذا سنة (٢٤٠ هـ).

والطريف أنّ السيّد بَنى بآمرأة إباضيّة، آلتقيا معاً وهما على ظَهر طريق، فأعجبها وكَشفت له عن رَغبتها في أن يتزوّجها، وتسأله عن نفسه فيقول:

إن تسأليني بقَوْمِي تسألي رجلاً    في ذِرْوَةِ العِزِّ من أحياء ذي يَمَنِ

وتَزَوَّجا، ولكنهما ما لبثا قليلاً حتى افترقا لتهديد أهلها لها.

ويُحْكَى عن السيّد أنه كان لا يُحب أن يجالس قوماً إلّا على ذِكْر الهاشميّين، فإذا خاضُوا في غير هذا تَركهم، ولقد فَعلها مرةً فقام من مَجلس رأى جالسيه يَخُوضون في شأن من شُؤون الدنيا، وحين سألوه: فِيمَ كان قِيَامُه عنهم، قال:

إنِّي لأكره أن أُطِيلَ بمجلس    لا ذِكْرَ فيه لِفَضْلِ آل مُحَمَّدِ

وقَلَّ أن تَجِد شِعْراً للسيّد لا يُضَمِّنه حُبَّه لآل محمّد، فلقد كتب لأبي بُجَير ابن سِمَاك الأسديّ، وكان على الأهواز، وكان يتشيَّع، وهذا حين أمسك به العَسَسُ وأودعوه السّجن، لأنهم وجدوه ثَمِلاً ليلةً:

هَبْ لِي الذي أَحْببته في أَحمد    وبنيه إنّك حاصدٌ ما تزْرَعُ

يَختصّ آلَ مُحمد بمَحَبَّةٍ    في الصَّدْرِ قد طُوِيت عليها الأضْلُعُ

وكأني بالسيّد كان لا يؤمن إلا أن يكون الشاعر أَسْمَى من أن يَتدنَّى بسُؤال غير الله، فلقد وقف على بشَّار يوماً وهو يُنشد مادحاً سائلاً، فقال له:

أيها المادحُ العِباد لِيُعْطَى    إنْ لله ما بأيدي العِبَادِ

فآسأل الله ما طلبتَ إليهم    وآرْجُ نَفْعُ المُنزِّل العَوّادِ

لَا تَقُلْ في الجَواد ما ليس فيه    وتُسَمِّي البَخِيلَ باسم الجَوَادِ

ثم اقرأ معي ما يزيدك إيماناً بصُمُود السيّد إزاءَ عقيدته، لا يُبالي ما سَوف يَجُرُّ عليه هذا الصُّمود، فحين وَلِي أبو العبّاس السفّاح قام إليه السيّد، بعد أن نَزل أبو العبّاس من على المِنبر، وقال:

دونكموه يا بَنِي هاشمٍ    فجدِّدُوا من عهدها الدَّارِسا

وما مدح السيّد أبا العبّاس إلا وهو يعلم أن أمرَ آل هاشم مَصُون.

والسيد يعلم كم أُوذي بنو هاشم على أيْدي الأُمويين، فلم يَنْسَها لهم حين وَلِيَ العبّاسيّون، وجَلس المهديُّ يوماً يُوزِّع صِلاته، وكان ممّن وَصلهم المَهْديُّ نَفَرٌ من القُرشيِّين، فقام إليه السيِّد وقال:

قُل لابن عبَّاس سَمِيّ محمَّدٍ لا تُعْطِيَنّ بَني عَدِيٍّ دِرْهَما

هذا قليلٌ عن السيّد الحِمْيريّ، وإخال أن ما غاب عنا أكثر، فشِعْرُ السيّد الحِمْيريّ لم يُجْمَع كلُّه، والذي غاب عنا من شِعره أكثرُ ممّا وقع لَنا، وإخال أن الذي وَقع لنا لا يبلغ عُشْر معشار ما لم يَقَع لنا.

وعلى الرغم من هذا فإن هذا القليل يُمَثِّل لنا السيّد الحِمْيريّ شاعراً صاحبَ رأي، وصاحبَ عَقيدة، وأنه لم يَهبط إلى مستوى المادحين المُرتزقين، وما كان أحبَّ إلينا أن يَنتهي إلينا من شعر السيّد الكثير لتَزيدَك عنه الكثيرَ، ولكنّه على أية حال شاعرٌ مَقْدور، لأنه كان شاعرَ رأي لا شاعر كَسْب[1].

* * *

## ومنهم: مَرْوان بنُ أبي حَفْصة (٧٩٨ م - ١٨٢ هـ).

أُحِبُّك أن تعرف معِي أنّ أبا حفصة هذا ليس بأَبٍ لِمَرْوان، كما يبدو، بل هو جدٌّ أعلى لِمَرْوان، فمَرْوان هو آبن سُليمان بن يحيى بن أبي حَفصة.

وأُحِبُّك أنْ تعرف معي أنَّ أبا حفصة هذا كان من سَبْي إصْطَخْر، وأن آسمه كان يزيد، آشتراه عُثمان بن عفان ثم وهبه لِمَرْوان بن الحَكَم.

وحين كان يومُ الدَّار، أي يوم حُوصر عثمانُ بنُ عفّان في داره، كان مروان بن الحكم، ومؤلاه أبو حفصة، من الذين وَقَفُوا للدفاع عن عثمان.

وكان أن جُرِحَ مروانُ، فآحتمله مولاه أبو حفصة إلى داره، وسَهر عليه حتى بَرِىء.

---

(١) الأغاني - فوات الوفيات.

وعندها أعتقه مروانُ ونَزل له عن أُمٍّ ولدٍ له، يُقال لها: سُكْر، كانت لـه بِنْتٌ، يُقال لها: حَفصة، فحَضنها يزيدُ، ومن هنا كُنِّي: أبَا حَفْصة.

والطريف أنّ أبا حفصة هذا كان شاعراً، والذين يقولون هذا يَنْسُبون لـه شِعْراً قاله يومَ الدار، وهو:

وما قلتُ يوم الدار للقوم صالحوا أجل لا ولا آخترتُ الحياةَ على القَتْلِ
ولكنَّني قد قلتُ للقوم جالِدُوا بأسيافكم لا يُخْلَصَنَّ إلى الكَهْلِ

ويُولَد لأبي حَفصة ولدٌ، هو يحيى، ويقولون عنه: إنّه كان جواداً، وهو الذي قال فيه جرير:

أزاداً سوى يحيى تُريد وصاحباً ألا إنّ يحيى نِعْمَ زادُ المُسَافِرِ

ويتزوّج يحيى بِنْتاً لزياد بن هَوْذة، ويَفزع أهلُها إلى عبد الملك بن مروان يستنكرون هذا، فردَّهم عبدُ الملك وأنصف يحيى منهم.

ويقولون: إن يحيى هذا كان هو الآخر شاعراً، وهو القائل للوليد بن عبد الملك، لمّا ولي الخلافة، يمدحه ويُعزِّيه:

إنّ المَنايا لا تُغادِرُ واحداً يَمْشِي بِبِزَّته ولا ذا جُنَّهْ

وهكذا تَرى أنَّ مروانَ عريقٌ في الشِّعر، رُزِقَ جَدًّا ثُم جَدًّا شاعِرَيْن. والجُود الذي عرفناه لِجَدِّه يحيى عرفنا ما يَنْقُضه لمروان، فلقد كان مَضْرِبَ المَثَل في البُخل، وما أُريد أن أُثْقِل عليك فأَسُوق لك قِصَّةً وقِصَّةً ذُكرت عن بُخله وشرِّه.

ولكنّ الذي أُحبّ أن أذكره لك أنّ بني العباس كان رَسْمُهم أن يُعطوه بكُلِّ بَيْتٍ يَمدحهم به ألفَ دِرهم، وأنَّ مُحْصِياً أحصى ما آنتهى إليه منهم، في وقت من الأوقات، فإذا هو مائةُ ألفٍ وخمسون ألف دِرْهم.

ويذكرون له من حِرْصه على الجَمع قولَه: ما فَرِحْت بشيء قطُّ فرحي بمائة ألف وَهبها لي أميرُ المؤمنين المهديّ.

وكانت أوّل صلة وصلت مَرْوانَ أيامَ بني هاشم من المهديّ، في أَوَّل سنةٍ

له، وكان قد دخل عليه وأنشده:

أمرٌ وأحْلَى ما بلا الناسُ طَعْمَه عذابُ أمير المؤمنين ونائِلُهْ

وتوالت صِلاتُ العبّاسيّين له، فنراه يمدح الهاديَ ويقول:

تَشَابَه يوماً بَأْسِه ونَوَالِه فما أَحَدٌ يَدْرِي لأيّهما الفَضْلُ

فيُجزل الهادي صِلَته..

ثم يَلِي الرشيدُ فيدخل عليه مروانُ ويَمدحه، ويقول له الرشيد: مَن أنت؟ ويُعَرِّفه مروانُ بنفسه، فيقول له الرشيدُ: ألست القائلَ في مَعْنٍ:

أَقَمْنَا باليَمامة بعد مَعْنٍ مُقَاماً لا نُريد به زَوَالاَ

وقُلنا أين نَرحل بَعد مَعْنٍ وقد ذَهب النَّوَالُ فلا نَوالاَ

ويأمر الرشيد بإخراجه، وما يَئِس مروانُ فعاد أُخرَى إلى الرشيد، ومَدحه وقال:

لَعَمْرُكَ ما أنسى غداةَ المُحَصَّبِ إشارة سَلْمَى بالبَنان المُخَضَّبِ

ويقول له الرشيد: كم قصيدتك من بَيت؟ فيقول مروان: سَبعون، فيأمر له الرشيدُ بعدد أبياتها أُلوفاً.

هذا هو مَروان، عاش مدّاحاً للعبّاسيين، ومن قَبله جدّان له عاشا مدّاحَيْنِ للأمويّين.

لقد كان مولد مروان سنة خمس ومائة (١٠٥ هـ)، أي في أواخر أيّام بني أُمية، وأسأل: لِمَ لَمْ نجده وَصَل حَبْله بحَبْل من عايَشهم من الأمويين، وكان شبابُه يُتيحُ له هذا، ثم هو يكاد يكون من مواليهم.

وأسأل: كيف أُنْسِيَ مروانُ هذا الماضي، ولم يَعُدْ في ذاكرته منه شيء.

وأكاد أجد الجواب على لساني فأقول: إن حُبَّ المال يُعْمِي ويُصِمّ. لقد مدح مروان مَعْناً لِمَالِه، وكما مَدح مَعْناً لماله مَدح المَهْدِيَّ، والهادي، والرشيد، وما أنا بمُستطيع أن أقول: هذا الشِّبْلُ من ذاك الأَسد، فلقد أُنْسِي هذا الشِّبْلُ أنه من ذاك الأسد.

ولقد كنتُ على أن أتخفَّف من الحديث عن مروان هذا، إذ هو في رأيي لا يُمَثِّل شيئاً، ولكني ذكرتُه، لأني سأذكر له حَفِيداً بعدَ قليل، هو مروان بن أبي الجَنُوب.

وتسأل: كيف سَخا العبّاسيّون عليه هذا السَّخاء، ومازُوه على غيره من الشُّعراء؟

وأقول: حَسْبهم بهذا السخاء أنهم آنتزعوا من أحضان الأُمويين من خالوه أنه سوف يكون على سنن الآباء[1].

* * *

ومنهم: **سَلْمٌ الخاسِر** (٨٠٢ م - ١٨٦ هـ).

تعالَ معي أوَّلاً نُحصي كم نال سَلْمٌ بشِعره من مَمْدوحيه:

حَمَّله بشَّارٌ يوماً قصيدةً له في مدح عُمَر بن العَلاَء، وكان عاملاً للمَهديّ على طَبَرِسْتان، كما كان جواداً، ومن هذه القصيدة يقول بشار:

إذا نَبَّهَتْكَ صِعَابُ الأُمورِ ... فَنَبِّهْ لها عُمَراً ثُمَّ نَمْ

فيأمر عُمَرُ بنُ العلاء لبشّار بمائة ألف درهم.

فيُثير هذا العَطاء الجَزْلُ سَلْماً ويُحرِّكه إلى أن يقول لعُمَر: إنّ خادِمَكَ - يعني نفسه - قد قال في طَريقه إليك قصيدةً فيك. فيقول له عُمر: هاتِ. فيُنشده سَلْمٌ:

كم كُرْبَةٍ قد مسَّنِي ضُرُّها ... ناديتُ فيها عُمَرَ بنَ العَلاَءْ

فيأمر له بعَشرة آلاف دِرْهم.

سادةٌ عِطَاشٌ إلى المَديح، وشُعراء عِطَاشٌ إلى المال. وعلى هذا مضت الحال.

وعفواً إذا أنا خرجتُ بك قليلاً عن المَسَار لأقعد على ما كان يَفعله هؤلاء من

---

(١) الأغاني - تاريخ بغداد - الشعر والشعراء.

سَبْق للحوادث، وإعداد شِعْر لكُلّ ما يخالـون أنه سيقـع، لا يُمْلِي عليهم الحَدَثُ، ولكنهم يُملون هم على الحَدَث.

دخل يوماً على سَلْمٍ صديقٌ له، فوجد بين يديه قَرَاطِيسَ فيهـا أشعار، يَـرْثِي بها نَفَراً توقَّع أن سيموتون قبله، فَيُفْجأ بموتهم، وقد يُعْجَل برثائهم فلا يُجِيد.

وما فعله سَلْمٌ مع عُمَرَ بن العلاء في هذا الخبر الذي ذكرته لك. لا يَبْعُـد عن هذا كثيراً.

ثم نَعُود إلى ما بدأنا به الحديثَ عن سَلْم:

يَبني صالحُ بن المنصور قَصْراً بدِجْلة، ويَجدها سلمٌ فُرصة لأن ينال من عطاء صالح، فيقول:

يـا صالـح الجود الـذي مَجْـدُه ... أَفسـد مَجدَ النـاسِ بـالجُـودِ

بَنَيْتَ قصـراً مُـشْـرِفـاً عـاليـاً ... بِـطَائِـرَيْ سَـعْـدٍ ومَـسْـعُـودِ

وكان ما توقّعه سلم، فإذا صالح يُعطيه ألف درهم.

ويَقع على مَمدوح جواد، هو عاصم بن عُتْبَة الغساني، يمدحه ويقول:

الجـود في قـحـطَانْ ... مـا بَـقِـيَـتْ غَـسَّـانْ

وكانت سَبعين بيتاً، فيُعطيه عاصمٌ سبعين ألف دِرْهم.

وتوالت مدائحُ سَلْمٍ لعاصم، وتَوَالَى عطاءُ عـاصمٍ لسَلْم، فإذا مـا نالـه سَلْمٌ من عاصم خَمْسمائة ألف درهم.

ويَصِلُ سَلْمٌ حَبْلَه بحَبل البـرامكـة، وكـان أكثـر صلةً، الفَضـل بن يحيى، فيمدحه ويقول:

ومَـهْـمَـا تَـرْجُ مـن خَـيْـرٍ ... فـإنَّ الـفَـضـل فـاعِـلُهُ

فيُعطيه الفضلُ عِشرين ألف دينار.

ويمدح سَلْمُ الفَضْلَ بن الربيع فيقول:

وابْنُ الـذي جَبَـر الإسـلامَ يـومَ وَهَى ... واستنقـذ النـاس من عَمْيَـاءَ صَيْخُـود

صيخود: شديدة.

فيهب له الفضلُ خمسةَ آلاف دينار.

ويَمدح سَلْمٌ المَهْدِيّ فيقول:

لــه شِـيـمَـةٌ عـنـد بَـذْلِ الـعَـطَا ... ءِ لا يَـعـرف الـنـاسُ مِـقْـدَارَهَـا

فيأمر له المهديّ بخمسمائة ألف درهم.

ويمدح سَلْمٌ الرشيدَ بقصيدته التي يقول فيها:

حَضَـر الـرَّحِيـلُ وشُـدَّت الأَحْـدَاجُ ... وشَـدَا بِـهِـنّ مُـشَـمِّـرٌ مِـزْعَـاجُ

فيأمر له الرشيد بمائة ألف درهم.

ويَعقد الرشيدُ البَيعة لابنه محمد الأمين، فيدخل عليه سَلْمٌ قائلاً:

قـد بـايـع الثَّقَـلَانِ مَهْـدِيَّ الهُـدَى ... لِـمُـحـمـد بنِ زُبَـيـدة ابنـةِ جَعْـفَـرِ

فَتَحْشُو زُبيدةُ فاه دُرًّا يَبيعه بعشرين ألف دينار.

وكان ثَمّة بابٌ للرِّزق آخر ما فات سَلْماً أن يَطْرُقَه، وهو باب مَعن بن زائدة الشَّيبانيّ، وكان ممّا مَدحه به سَلْمٌ، أو أفضله، قوله:

إن قَـدْمـاً مـن بـنـي مَـطرٍ ... أتـلفـت كـفَّـاه مـا جَـمَـعَـا

كـلَّمـا عُـدْنـا لِـنـائـله ... عـاد في مَـعـروفـه جَـذَعَـا

جذع: جديداً كما بدأ.

وإخال أن ما ناله سَلْمٌ من مَعْنٍ أربى على ما ناله من هؤلاء جميعاً.

ويجد سَلْـمٌ البابَ مفتوحاً أمامه لمدح آخرين، قد يُغْضب ممدوحيه الذين انقطع لهم مادحاً إياهم، ولكن ما باله لا يَطرقه، وفي جُعبته من الإعتذار ما يُرْضِي.

فإذا سَلْمٌ يقصد عَلَوِيًّا، لا عن حُبّ، ولكن عن طَمع فيما بين يديه، وتبلغ هذا المهديَّ فيغضب.

وما فَزِع سَلْمٌ لغضب المَهديّ، ففي جُعبته من الإعتذار ما يرضي، كما قلت لك، فيقول سَلْم للمهدي مُعتذراً:

لقد حلفتُ يميناً غير كاذبةٍ يومَ المَغِيبة لم يُقْطَعْ لها سَبَبُ
ألاّ يُخَالِف مدحي غيركم أبداً ولو تلاقَى عليَّ الغَرْضُ والحَقَبُ

الغرض: الحزام. والحقب: ما يشد به الوسط.

وكان ما قَدَّر سَلْم، فلقد رَضِي المهديَّ وعفا عنه، وعاد إلى ما كان عليه معه.

بَسطتُ لك هذا كله لِتعلم كم أَفسد المالُ نُفوس الشعراء، وكم أفسد الظامئون إلى المدح نفوس الشعراء، فلا الشُّعراء كَسبوا، ولا الممدوحون غَنِمُوا، فهذا المال لم يُخلِّد شاعراً، وهذا العطاء لم يخلِّد مَمدوحاً، فالزَّيْف لا يُخلِّف إلا زيفاً، وهكذا مضت حياة هؤلاء وهؤلاء زيفاً في زَيْف[1].

* * *

## ومنهم: مَنْصور النَّمْرِيّ (٨٠٥ م ـ ١٩٠ هـ).

قبل أن أُحَدِّثك عن النَّمرِيّ أُحِبّ أن أُحدثك عن مَمْدوحه من الخُلفاء، ولم يكن هذ المَمدوح غيرَ الرَّشيد، فلم يَنقطع منصورٌ إلاّ له، وهكذا كُفِي النَّمرِيُّ أن يَستملي من أَهْواء مُختلفة وبات يَستملي من هَوًى واحد، من أجل هذا جاء حُبِّي في أن أبدأ فأُحدثك عن الرشيد وهَوَاه، فهذا الهَوَى هو الذي يَخُطّ للشعراء مَسَارهم فلا يَدْرُجون إلا عليه.

وما كان الرشيد يعرف النَّمرِيَّ ولا سَمِع به، فلقد كان النَّمريُّ يَسْكُن الشَّامَ، وما أَبعد ما بين الشام ومَقَرِّ الخِلافة.

ولكنَّ النَّمرِيّ كان راغباً في الوقوف بباب الرَّشيد، وعلى الراغب أن يتلمَّس حِيلةً، وسرعان ما وجدها النَّمرِيّ، فلقد كان مَوْصولاً بالبَرَامكة، وكان البرامكة عندها مَوْصولين بالرَّشيد، فما على النَّمرِيّ إلا أن يجعل من البرامكة وسيلتَه إلى الوصول إلى الرشيد.

---

(١) الأغاني ـ تاريخ بغداد ـ وفيات الأعيان.

ويَذكر البرامكةُ للرشيد مَنْصُور النَّمـرِيّ ويَصِفونـه له، ويَـروق للرشيد بعـدما سَمِع من البرامكة عن النَّمرِيّ أن يَأْمُر بإقدامه.

تلك أُولى تدلُّك على كَثِير:

تدلُّك على أنّ الـرَّشيد لم يكن يُتِيـح لشاعـرٍ أن يَمْثُـلَ بين يـديه إلا بعـد أن يَخْبُر حالَه.

وتدلُّك على أنّ الرشيد لم يكن يَستمع في هذه إلا لكلمـةٍ صادقـةٍ على لسان صَدُوق.

وتدلُّك على أنّ الشِّعر كان سِلْعَةً وعلى الرشيد أن يختار أَجودَها.

بَقِيَ على مَنصـور بعـدهـا، وقَبـل أن يُقْبِـل على الـرَّشيـد، ويَقِفَ مـوقف المُمْتَحَن، أن يعرف شيئاً عن الرشيد، بعد أن عرف الرشيدُ كلَّ شيء عنه:

لقـد عَرف النَّمـرِيُّ عن الرشيـد أنه لا ضَيْـرَ على الشاعـر ولا عليـه، إن رَقِيَ المديحُ إلى مثل ما يُمْدَحُ به الأنبياء، لكن على شريـطة ألّا يتجاوز المـادحون هـذه المَرْتبةَ إلى الرِّسالة.

آنتهت هذه إلى النَّمرِيّ فيما آنتهى إليه من حـال الرَّشيـد، وعرف كيف كـان غَضب الرشيد على شاعر من ولد زُهير بن أبي سُلمى تجاوز هذه في مَدحه للرشيـد حين قال:

فـكـأنّـه بـعـد الـرَّسُـول رسـولُ

وآنتهى إلى النَّمرِيّ أيضاً ما يلقاه مَروانُ بن أبي حَفصة من حُظْوة عند الرشيد لتنكُّره لآل عليّ.

وكـان النمري مَيْلُه مع آل عليّ، ولكن ما عليـه أن يَنْسى ميلاً قـديماً بمَيْـلٍ جديد، ما دام يُريد الحياة.

بهذا كُلِّه قَدِمَ النَّمرِيُّ على الرشيد، ويدخل عليه مـادحاً، وإذا هـو يخرج من مديحه إلى هجاء آل عليّ ويَسْلبهم كل فَضْل، فيقول:

يـا بنَ الأَئِمّـة من بَعـد النبيّ ويـا آبْـ ـنَ الأَوْصيـاء أقَـرَّ النـاسُ أو دَفعُـوا
إنْ الخِـلافَـةَ كـانت إرْثَ والـدكُـمْ مِـن دُون تَـيْـمٍ وعَـفْـوُ الله مُـتَّسِـعُ
ومـا لآلِ عــليٍّ فـي إمَـارَتِـكُـمْ ومـا لَـهم أبَـداً في إرْثِـكـم طَـمَـعُ
يـا أيُّهـا النـاسُ لا تَعْـزُبْ حُلُومُكُمُ ولا تُـضِفْـكُمْ إلى أكْنـافـهـا البِـدَعُ
العَمُّ أولَى من آبن العَمِّ فـآسْتَمِعُـوا قـولَ النَّصِيحـة إنّ الحقَّ مُسْتَمَـعُ

ويَمدحه أُخْرَى فَيَعْدُو النَّيْلَ من آل عليّ إلى الثَّلْب فيقول:

ألآ للهِ دَرُّ بَـنـي عــليٍّ ودَرٌّ مِـن مَـقـالـتـهـم كَـثِـيـرُ
يُـسَـمُّـونَ الـنَّـبِـيَّ أبـاً ويَـأبَـى مـن الأَحْـزاب سَـطْرٌ بـل سُـطُورُ

ويَرى أنه قد جاوز الحدَّ كثيراً فيُنَهْنِهُ من شَطَطه ويقول:

بَنِي حَسَنٍ ورَهْطَ بـنـي حُـسَيْـنٍ عـليكـم بـالـسَّـدَادِ مـن الأُمُـورِ
فـقـد ذُقْتُـمْ قِـرَاعَ بـنـي أبـيـكـم غـداةَ الـرَّوع بـالـبِيض الـذُّكُـورِ

ثم يَنتقل إلى مدح الرشيد فيقول:

وإنّـك حـيـن تَـبْـلُغـهـم أذاةٌ وإن ظَـلَـمُـوا لَـمَحْـزُونُ الـضَّـمِـيـر

وأنت وقد سَمِعْتَ ما يقوله النَّمرِيّ في آل عليّ ثَلْباً فاستمع إلى مـا يقولـه في آل عليّ مَدْحاً:

نَـفْسِـي نِـدَاءُ الحُسَيْنِ حيـنَ غَـدَا إلـى الـمَـنَـايَـا غُـدُوَّ لا قـافِـلِ
وعـاذِلـي أنَّـنـي أُحِـبُّ بَـنِـي أَحْـمَـدَ فـالتُّـرْبُ في فَمِ العَـاذِلِ
قـد ذُقْـتُ مـا دِينُكُـمْ عليـه فَمَـا وصَلْتُ من دينكـم إلى طـائِـلِ
دِيـنُـكُـمُ جَـفْـوَةُ الـنَّـبِـيّ ومـا الْـ ـمجَـافي لآل الـنبيّ كـالـواصِـلِ

وآسمع إلى ما يقوله أيضاً في آل عليٍّ مَدْحاً:

آلُ الـنَّـبِـيّ ومَـن يُـحِـبُّـهُـمُ يَتَـطامَنُـونَ مخـافَـةَ القَـتْـلِ

وما يَعْدِمُ النَّمرِيّ من يَنْقُلَ شِعْرَه في آل عليٍّ مَدْحاً إلى الرشيد، فإذا الـرشيدُ عليه غاضب أشدَّ الغَضب، وإذا هو يـأمرُ بـه لِيَحْضُرَ بين يـديه، وإذا الـرسول يعـود

فيُنْهِي إلى الرَّشيد أنه مات، فيَأْمُر الرَّشِيدُ بِنَبْشِ قَبْره لِيَحْرِقَ جُثَّته، ثم يُكَلَّم في هذا فيَعْدِل.

ما كان أَغْنى النَّمرِيَّ عن هذا، ولقد كان حَسْبُه أن يَعِيشَ على مَدْح من كان يَمدح، ممّن لم يكلِّفوه شَطَطاً وأيّ شَطط، فلقد نَزَل عمّا يَدِينُ به من حُبٍّ لِقَاءَ دُرَيهمات معدودات، وكان بين يديه ما يغنى به.

تُرَى من نَلوم؟
أَنلوم الرشيدَ على أنه أَراد أن يَصْنَع شُعَرَاءَ، وما أَعظمها جَرِيرَةً على الشِّعْر؟

أم نلوم النَّمِرِيّ على أنه نَزل عن رأيه يقول غيرَ ما يرى لا لشيء إلا ليكون على باب خَليفة.

ألَا ما أَرْخَصه من ثَمن.

وظَنيّ بالشاعر أن يُسْعَى إليه لا أن يَسْعَى هو إلى الناس، وإن عَلَتْ مراتبُهم، وألّا تُغْرِيه الدنيا بمَتاعها، وإن بدا هذا المتاع بَرَّاقاً، وهؤلاء الشُّعراء حين يفعلون، ويُغريهم هذا المتاع يكونون قد باعُوا آجلاً بعاجل. فَهانُوا وهان سهم شِعرهم[1].

* * *

ومنهم: **العبّاس بن الأَحْنَف** (٨٠٨ م ـ ١٩٢ هـ).

لا أَجِد ما أبدأَ به الحديثَ عن العبّاس خيراً من هذا الذي كان منه حين ضَمَّه في دار أُمّ جَعفر مجلس للشُّعراء والمُغنِّين، فخرجت إليهم جاريةٌ لها وكُمُّها مَملوءٌ دراهم، وقالت لهم: أيكم القائل:

مَن ذا يُعِيِّرُكَ عينَه تَبكي بها　　　أرأيتَ عَيْناً للبُكاء تُعَارُ

فأشاروا كلُّهم إلى العبّاس بن الأحنف. فَنَثرت الجاريةُ الدارهمَ في حِجره،

---

(١) الأغاني ـ تاريخ بغداد ـ الشعر والشعراء.

فما كان من العبّاس، إلا أن نَفَضَها، فيَقَعُ الفرَّاشون على الدراهم يَلْتَقِطونها.

ويَنتهي هذا إلى أُمِّ جعفر، فإذا هي تُرسل إلى منزل العبّاس ثلاث بِدَرٍ مملوءة دراهم.

ولا خَيْراً ممّا كان بين العبّاس وبين خالد بن يحيى البَرْمكيّ، حين أَنْهى خالدُ إلى العبّاس أن ثَمَّةَ جاريةً للرَّشيد تُدْعَى ماردة، قد غاضبته، وكانت لها منزلتُها في قَلب الرَّشيد، وما هي تُريد أن تَنزل عن دلَّتها، وما الرَّشيد يُريد أن ينزل عن كبريائه، وكلاهما مَشُوقٌ إلى صاحبه.

وأراد خالدُ أن يَجِدَ لهذه الضائقة حَلاًّ على لِسان العبّاس، فطلب إليه أن يَصنع شِعْراً يَجمع بين هذين المُتحابَّيْن المُتخاصمَيْن، فما لَبِث أن آستجاب العبّاس لما أراده منه خالد، ونَظم هذه الأبيات:

العاشقان كلاهما مُتَغَضِّبُ وكلاهما مُتَشَوِّقٌ مُتَطَرِّبُ
صَدَّتْ مُراغِمَةً وصَدَّ مُراغِماً وكلاهما ممّا يُعالج مُتْعَبُ
راجعْ أَحِبَّتك الذين هجرتَهم إنّ المُتَيَّم قلّ ما يُتَجَنَّبُ
إنَّ التجنُّبَ إنْ تمكَّن منكما دَبَّ السُّلُوُّ له فعَزَّ المَطْلَبُ

ويَبعث العبَّاسُ رسولاً له إلى خالد، ويقول لهذا الرسول: أَبْلِغْ الوزيرَ أنِّي قلتُ أبياتاً أربعة، فإن كلف فيها وقَنِعَ وجَّهْتُ بها إليه.

ويَعود الرَّسولُ إلى العبّاس ويقول له ما قاله الوزيرُ له: هاتِها ففي أقلَّ منها مَقنع.

فكتب العبّاس هذه الأبيات الأربعة وكتب تحتها:

لا بُدَّ للعاشِق مِن وَقْفةٍ تكون بين الوَصْلِ والصَّرْمِ
حتى إذا الهَجرُ تمادى به راجَع مَن يَهْوى على رَغْمِ

ويَحمل خالدُ هذا كُلَّه إلى الرشيد، ويُعْجَب الرشيدُ بها الإعجابَ كُلَّه، ويَنزل عن كِبريائه، ويَسْعى إلى ماردة.

وتَعلم ماردةُ ما كان. وتسأل الرشيدَ: أأجاز هذا الشاعرَ أم لم يُجِزْهُ، ويُخبرها الرشيد أنه كان عَجِلاً لَهِفاً للقائهما، فأُنْسي أن يُجيزهُ وتقول له ماردة: والله لا أجلس حتى يُكافأ.

فيأمر له الرشيدُ بمالٍ كثير، وتأمرُ له ماردة بما هو دون هذا، ويأمُر له خالدٌ بدون ما أُمرت به ماردة.

ويَدفع خالدُ هذا كُلَّه، إلى العبّاس، غيرَ أنّه رأى أن يَشْتَرِيَ له ببعضه ضِيَاعاً، ففعل.

لقد عاش العبّاس في ظِلِّ خليفتين عباسيَّين، هما المهديّ والرشيد، وعاش على صِلَة بالبرامكة، وما سَعى إلى واحد من هؤلاء مادحاً و سائلاً، بل عاش للون واحد من الشِّعر نَظمه وأجاد فيه، وهو شِعر الغَزل، وكما لَم يَمدح لم يَهْجُ، لأن أولهما يَجُرُّ إلى ثانيهما، وحَسبك في هذا بيته:

لَحَوْني في القَريض فقلتُ أَلْهُو  وما مِنِّي الهِجَاءُ ولا المَدِيحُ

وهذا الشّعر الغَزل الذي فَرغ له العبّاس، ولم يلتفت لغيره، يدور حول محبوبات سِتّ، هن: ظلوم، وفوز، وذَلفاء، ونَرجس، ونِسرين، وسحر وضِياء.

وما أظُن أن واحدةً منهنّ كان لها وُجودها الحق في قَلبه، وقد تكون هذه الأسماء كلها، أو بعضها، ليس لها وجودها في الحَياة، وإن كانت ثمّة تلميحات للعبّاس تُشير إلى غير هذا، وذلك حيث يقول:

طال لَيْلِي بجانِب البُسْتَانِ  مع جواري المَهْدِيّ والخَيْزُرَانِ

وما أظن هذه حقيقةً. فهذا الشاعر العَفُّ اللسان لا نُجيز عليه أن يَزِلّ هذه الزَّلَّة.

وبعد، فما أشدَّ إكبارَنا للعبّاس حين وَجدناه صادقاً عما تورَّط فيه الشُّعراء قَبله وفي عصره، من مَدح تَدفع إليه الرغبةُ في الكَسب، وهِجاء يُرَاد به دَفْعُ المزاحمين في ميدان الكَسب، أو تَخويف القاعدين عن البَذْل والعطاء.

ولكنا نسأل: ألم يكن في الحياة مَيدان آخر للقول غيرُ الغَزل، وقد نُبيح هـذا الشاعر، إذا مـا كان ثمـة غرام حق مـلأ على الشاعـر حياتَـه، كما كـان للمَجنون، ولكن أن يكون الغزل صنعةً فهذا مـا نأخـذه على العبّاس، حتى غـدا ديوانـه وكأنـه مَجموعة مختارات ينتقي كلٌّ منها ما يشاء، وليس أدلّ على هذا مما فعله لاسترضـاء ماردة جارية الرشيد، وهـذا ما يَحملنـا على أن نُشَبِّه شِعْـرَه بما يكتبـه الكاتبـون من نَماذج في الإنشاء، في موضوعـات شَتّى يَعيش عليها النـاشؤون في ميدان الكتـابة، كمـا سيعيش الناشؤون في الحُبّ، الـذين لا يَملكـون قُـدرة العبّـاس، على ديـوان العبّاس[1].

* * *

## ومنهم: أَشْجَعُ السُّلَمِي (٨١١ م ـ ١٩٥ هـ).

كانت أبواب الملوك والأجـداد هي غايـة الشعراء، لهـا يُعِدُّ الشـاعرُ نَفْسَـه، ويُهيِّىء شِعْرَه، من أجل هـذا كانت رِحلة أشجـع من البصـرة، التي بهـا نشـأ، إلى الرَّقَّة، حيث ينزل الرشيدُ، ومن حوله آلُ بَرْمك، وكانت الخُطوة الأولى التي خطاها أشجع في طريقه إلى باب الرشيد، أن وصـل حَبْله بالبـرامكة، وكـان ممن رحَّب به منهم جعفرُ بن يحيى، ثم كان ما طَمِع فيه أشجع، إذ وصله جعفرٌ بالرشيد.

ويذكر لنا أشجع وَقْفته الأولى بباب الرشيد، فيقول: بَكَّرْتُ إلى دار الـرشيد، وإذا صائحٌ ببابه يَصِيح: مَن كان ها هنا من الشُّعراء لِيَحْضُرْ يـومَ الجمعة، فحَضَـرنا سبعةً وأنا ثامنهُم، وأُدْخِلْنا. وقُدِّم واحد واحد منّا يُنشد على الأَسْنَان، وكنتُ أَحْدَثَ القـوم سِنّاً، فمـا بَلغ إليَّ حتى كادت الصـلاةُ أن تَجِب. فخِفْت أن أبتدىء من أوّل قصيدتي بالتَّشْبيب فتَجِبُ الصـلاة ويَفوتني مـا أردتُ، فتركتُ التَّشبيب وأنشـدتُه من موضع المديح في قصيدتي، التي أولها:

تَـذكَّـر عهـدَ البِيض وهـو لهـا تِـرْبُ     وأيّـامَ يَصْبِي الغـانيـاتِ ولا يَصْبُـو

---

(١) الأغاني ـ تاريخ بغداد ـ الشعر والشعراء ـ وفيات الأعيان ـ الديوان.

وقلت:

إلى مَلِكٍ يَسْتَغْرِقُ المالَ جُودُه ... مَكارِمُهُ نَثْرٌ ومَعروفه سَكْبُ

وخرج أشجعُ من بين يدي الرشيد بِضِعْف ما قاله كلُّ شاعر، أعني بعشرين أَلْفَ دِرْهم.

ويقول بعضُهم: إن الذي وَصل أشجعَ بالرشيد، هو الفَضل بن الربيع، بعد أن وقف نفسه على البرامكة يَمدحهم، وكان ممّا قاله الفضلُ للرشيد عن أشجع: هذا أشعرُ شعراء أهل زمانه، وقد اقتَطعته عنك البرامكةُ، فأمر الرشيدُ بإحضاره وقَرَّبه إليه.

وإن دلّتك الأولى على شيء فَأَوَّلُ ما تدلّك عليه مكانة الشُّعراء حينذاك وأنهم كانوا مُرتزقين، وإن دلّتك الثانيةُ على شيء فأول ما تدُلّك عليه مكانة الشِّعْر حينذاك، وأنه كان كلمةً تُشْتَرَى.

وسواء أكانت الأولى أم الثانية، فلقد عاش أشجع للاثنين معاً: الرشيد والبرامكة، يمدح الرشيدَ بما يُرضيه، حتى يَظُن الرشيدُ أنه لا مَدْحَ بعده، فحِين مدح أشجعُ الرشيدَ وقال:

وعلى عَدُوِّك يا بنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ ... رَصَدان ضوء الصُّبح والإظْلامُ

آستوى الرشيدُ، وكان مُتَّكئاً، وقال: هكذا تُمدح الملوك.

وحين وَلَّى الرشيدُ خراسانَ جعفرَ بنَ يحيى، دخل أشجعُ على جعفر يُهنِّئه ويقول:

غدا في ظِلالِ نَدَى جَعْفَرٍ ... يَجُرُّ ثِيابَ الغِنَى أَشْجَعُ

فقُل لخُراسانَ تَحْيَا فقد ... أتاها ابنُ يَحْيى الفتى الأَرْوَعُ

ويعزل الرشيدُ جعفراً عن خراسان، فيدخل عليه يُعَزِّيه، ولكن تَعزية الحذر يخاف أن يَزِلّ فيُغضب الرشيدَ، فيقول:

أَمست خراسانُ تُعَزَّى بما ... أَخطأها من جَعْفَرَ المُرْتَجى

كـان الـرشيـدُ المُعْتَلِي أمْـرُهُ     ولّى عليهـا المُشْـرِقَ الأبْلَجَـا
ثـم أراه رَأْيُـه أنّـه     أمْسَى إليـه منهـمُ أحْـوَجَـا

وأشجعُ على الحالَيْن كاسِب، فلقد أرضى جعفراً وأرضى الرشيدَ، ولكنه قبل هذه وتلك أرضى نفسه، لأنه يُريد المالَ، وهذا هو الطريقُ إليه.

وما أُحِبُّ أن أُثْقِلَ عليك فأذكر لك شيئاً مما مدح به أشجـعُ الرشيـدَ، ولا مما مَدح به أشجعُ جعفراً، فهذا شيء يَسْتَسيغُه الـظامئون إلى بـلاغة الكلمـة، ولكن لا يَسْتسيغه المُتَعَطّشون لرسالة الكلمة[1].

* * *

ومنهم: **أبو الشِّيص محمد بن رَزِين (٨٤٤ م - ١٩٦ هـ).**

يَحْكِي عبدُ الله بن المُعتَزّ أن أبا خالد العامـريّ قال لـه: مَن أخبرك أنـه كان في الدنيا أشعرُ من أبي الشِّيص فكذِّبه، والله لكان الشعر أهونَ عليه من شُرب الماء على العطشان، وكان من أوصف الناس للشّراب، وأمدحهم للملوك.

ويُعقِّب أبو الفرج الأصبهـانيّ على ما حكـاه ابنُ المعتزّ فيقـول: وليس تُوجـد هذه الصفات - كما ذكر - في ديوان شعره، ولا هو بساقط، ولكن هذا سَرَفٌ شديد.
آثرتُ أن أُقدِّم بهذا، وأنا أُحدثك عن أبي الشِّيص لِتَعْرِفَ:

كيف كـان تقديـر السابقين للشـاعر وشِعـره، فحَسْبُهم منه أن يكـون وصّـافـاً مدَّاحاً، ومـا يراه قـوم قد لا يـراه غيرهم ولا عَجَبَ، فلقـد كان الحُكْم على الشعـر يَحكمه ذَوْقٌ ولا تَحكمه قاعدة تقوم على أُسُسٍ واعية جامعة.

ويبدو لي من تَعقيب أبي الفرج أنه كان لأبي الشِّيص ديوان، ولكن الذي بَقِيَ لنا من شِعر أبي الشِّيص يكاد - فيما أرى - يمثّل شِعْرَ أبي الشِّيص كلَّه.

فأبو الشيص مَدَح الرَّشِيدَ فأكثر، غير أنه لم يَبْـقَ لنا من هـذا المديـح شيء،

---

(١) الأغاني - الشعر والشعراء.

وليس لنا من شِعره مع الرشيد غيرُ تلك الأبيات التي آستقبل بها الأمينَ ورَثى فيها الرَّشِيدَ، وهذا حيث يقول:

جَرتْ جَوَارٍ بالسَّعْدِ والنَّحْسِ … فنحنُ في وَحْشة وفي أُنْسِ
العَيْنُ تبكي والسِّنُّ ضاحكةٌ … فنحنُ في مَأْتم وفي عُرْسِ
يُضْحِكنا القائمُ الأمينُ ويُبْـ … ـكِينا وفاةُ الرَّشيد بالأَمْسِ
بَدْرَانِ بَدْرٌ أضْحَى ببغدادَ في الْـ … ـخُلْدِ وبَدْرٌ بطُوسَ في الرَّمْسِ

وله أيضاً في رثاء الرَّشيد:

غَرَبَتْ بالمَشْرِقِ الشَّمْـ … ـسُ فقُلْ للعَيْنِ تَدْمَعُ
ما رأينا قَطُّ شَمْساً … غَرَبَتْ من حيثُ تَطْلُعُ

وكان ثَمّة ممدوح آخرُ لأبي الشّيص، هو عُقْبة بن جَعفر بن الأَشعث، وكاد أبو الشِّيص أَنْ يكون مُنقطعاً إليه، وما من شك في أن أبا الشِّيص كانت له في عُقبة مدائح، ولكن ما بَقِي لنا من شعر أبي الشِّيص قصيدة له في مدح عُقبة كل ما ذكر فيها كان في وصف الطريق إليه، وقد آستوعب هذا الوصف ما يقرب من الخمسين بيتاً، آستهلّها بقوله:

مَرَتْ عَيْنُه للشَّوْقِ فالدَّمْعُ مُنْسَكِبُ … طُلُولُ ديار الحَيّ والحيُّ مُقْتَرِبُ

وبعد هذا وذاك فرغ أبو الشيص لِخَمره، ولِلهوه، فأشبعنا عنهما شعراً. يقول مرة:

نَهى عن خُلَّةِ الخَمْرِ … بَيَاضٌ لاحَ في الشَّعْرِ

ويقول أُخْرَى:

خلع الصِّبا عن مَنْكِبَيْه مَشيبُ … فطَوَى الذوائب رَأْسه المَخْضُوبُ

ويقول في هَواه:

وَقَفَ الهوى بي حيثُ أنْتِ فليس لِي … مُتَأَخَّرٌ عنه ولا مُتَقَدَّمُ

ويقول:

أشاقك والليلُ مُلْقِي الجِرَانِ … غُرَابٌ يَنُوح على غُصْنِ بانِ

ويقول في ذكرى أيام عَبَثه:

يـا دارُ مـا لـكِ ليس فيـك أَنِيسُ ... إلّا مَـعَـالِـمُ آيُـهُـنّ دُرُوسُ
ولَـرُبَّـمـا جَـرَّ الـصِّـبَـا لِـيَ ذَيْـلَهُ ... فـيـه وفـيـه مَـأْلَـفٌ وأنـيسُ
مِنْ كُـلِّ ضـامـرة الحَشَا مَهْضُـومـةٍ ... لِحِبَـالِـهـا بِحِـبَـالـنـا تَـلْبِيسُ
وسَـبِيئـةٍ مِـن كَـرْمِهـا حِـيـريَّـة ... عَـذْرَاءَ مِنْ لَمْسِ الـرِّجَـالِ شَمُوسُ

إلى غير هذا مما هو شاكلته:

وما أظن ديوانه في جُملته كان لِغير هذا وأَضْرابه.

أَتُـرانا بعـدما قَـدَّمت لأبي الشيص وقِسْت ما غـاب على مـا وُجـد نَجُـور في الحُكم على أبي الشيص إذا قُلنا: إنه لم يَبْعـد عن غيره ممّن سبقـوه، ممن عاشُـوا لأنفسهم، ولم تَعْنهم الحياةُ من حولهم في قَلِيلٍ أو كثير[1].

* * *

ومنهم: **أبو نُوَاس الحسن بن هانيء (٨١٤ م ـ ١٩٨ هـ).**

وما أكثر ما قيل عن أبي نواس مما هو له، ومما هو عَليـه، ولكن تعالَ مَعِي نَدَعْ هذا جانباً ونَتَصفَّحْ ديوانه، ولنا بعد هذا أن نقول معاً كلمتنا.

تناول شِعر أبي نواس أغراضاً ثمانيةً، على رأسها خَمْـريّاتـه وغزليّـاته، فـإنك تجد له في الخَمر ما يُرْبِي على ثلاثمائة قصيدة، وله مثلُها أو تزيد قليلاً في الغزل.

ثم هو بعد هذا وذاك قد مَدح، ويكاد يكـون مَدْحُـه مَقْصوراً على نَفَرٍ بعَيْنهم لم يجاوزوا السِّتة عَدًّا، وكان أكثر المَمدوحين نصيباً هو الأمين، فتكاد تكون قصائد المدح كُلُّها له، ويلي الأمينَ في هذا آل الرَّبيع، ومَن بعد الأمين وآل الرَّبيـع فليس لهم من مدحه إلا القليل، كالرشيد، والخَصيب، وعُثمان بن نَهيك، وآل برمك.

ثم هجا أبو نواس، وعاتب، ورَثا، وقال في الـزهد والـطَّرد، ولكنّ ما عُـدَّ له

---

(١) الأغاني ـ تاريخ بغداد ـ الشعر والشعراء ـ طبقات الشعراء لابن المعتز.

في هذه كلها قصائدُ مَعدودة، لا تَرْقَى عَدًّا إلى ما قيل في خَمْريّاته وغزلياته، ثم في مَدْحه.

وتعالَ معي بعد هذا لنقرأ طُرَفاً مما قيل في كُل غرض من هذه الأغراض.

لقد جُنّ أبو نُوَاس بالخَمر جُنُوناً لا أعرف مأتاه: أعَـنْ إباحيّة كان؟ ولقد قرأنا الكثير عَمّن أباحوا الخمر فلم نجد لهم مثلَ هذا الإسراف في القول.

أم عن تَحَدٍّ لتلك النَّواهي الشرعيّة، ومِن هنا كان بحـاجة إلى هـذا الإسراف في القول.

وأكاد أقول: إن هـذا كان لـوناً من ألـوان العَبث، فما الخَمْـرُ بمُسْتَحِقّة هـذا كلّه، وكان حَسبها من أبي نواس قصيدة أو آثنتان، كما أَلِفْنا على ألسنة من سَبقـوه، ولكنّ أبا نواس أراد أن يكون بَطَلاً من أبطال الخَمر، حين لم يَجِـدْ له مَيْـدَاناً آخـرَ للبُطولة.

وأكاد أعْزُو هذا إلى التَّنْشئة التي نُشِّئها أبو نـواس، فلقد أَسْلَمَتْـه أُمُّه جُلَبَّـان، وكان لا يزال طِفْلاً، إلى عطَّار يبري له أعواد البَخُور، وعاش الطفـل لا يرعـاه أبٌ، ولا تَحْتَضِنه أُم، وكانت الحياة الحُرة هي أُمه وأبوه، يعَبَثَ بـه ما شـاءت أن تَعْبث، وكما عَبثت به هذه الحياة، أراد هو أن يَعبث بها، فـإذا هو هـذا اللاَّهي المُسْتَهْتَـر، الذي لم يَمْلِك زمامَ توجيهه أبٌ ولا أُمّ.

ويرى أبو نواس: وهو هذا الناشِىء الفقير، أن أعواد البخور لن تُحقّق له تلك الانـطلاقة في عَبَثِـه، وأنَ الشِّعر وقـولَه، هـو البضاعـة الرائجـة لمن لا بِضَاعـةَ له، ويُسعفه الحظ بلقاء أبان بن عبد الحميد اللاحقيّ، وكان شاعراً، وإذا هو يَأنس بأَبي نُواس، وإذا أبو نواس يأنس به، وإذا بعدها أبو نُـوَاس شاعـر، هذا إلى مـا يقال من أنّ أبا نواس كان يَختلف إلى حلقات الدرس، لا لدرس ثقافةٍ فِقْهيَّة، بل لـدرس ما يُقَوِّي به لسانَه على القول، وخَيَاله على الإنطلاق، فما أَحْوَجَه شاعراً إلى مثلهما.

والآن آنَ لنا أن نَقْرأ نماذجَ لأبي نُوَاس في أَغراضه الثمانية.

يقول أبو نواس في خَمرِيّاته:

وجدتُ أقلَّ الناس عقلاً إذا انْتَشَى		أقلَّهم عقلاً إذا كان صاحِيَا

صدِّق أو لا تُصدِّق فهذا ما يقوله أبو نواس.

ويقول:

مَن ذاقها مَرَّةً لم يَنْسَها أبداً		حتى يُغيَّب في الأَكفانِ والتُّرُب

وهذا فِعْل المُدمن.

ولننتقل إلى غزلياته:

يقول أبو نواس:

قال آتَّقِ الله ودَعْ قولَ الهَوَى		فقلتُ إنْ طاوعني قَلْبِي

ويقول:

ألا إنّ مَن أهواه ضَنَّ بوُدِّه		وأعقبني مِن بعد ذاك بِصَدِّهِ

ويقول في معشوقته جنان:

لولا حِذَارِي من جنَانِي		لَخَلَعْتُ عن رَأْسِي عِنَانِي
ورَكِبْتُ ما أَهْوَى وكَمْ		أَجْفُو مقالةَ من نَهَانِي

ولا نَدري هل كانت قصائده الغزليّة، التي أربت على الثلاثمائة بكثير، كلّها في جنان، أم إنه هَوًى كالهواء، يتنفّسه الشعراء.

وتعال معي بعد هذا وذاك إلى مدحه.

فلقد كان أكثر مَن مَدح الأَمِين، كما قلت لك، وممّا قاله فيه:

تَشَبَّبت الخَضْرَاء بَعد مَشِيبِها		ولم تَكُ إلا بالأمين تُشَبِّبُ

ويَحبسه الأمين لشُربه الخَمر فيهجوه ويقول:

أمّا الأمينُ فلستُ أَرْجُو عنده		نَفْعاً فمَنْ لي اليومَ بالمَأْمُونِ

ويمدح الخصيب، وكان يلي مصر، فيقول:

فإن يكُ فيكم إفْكُ فِرْعَوْنَ باقياً		فإنْ عصا مُوسَى بكَفِّ خَصِيبِ

ثم ما يلبث أن يهجوه فيقول:

خُبْزُ الخَصِيبِ مُعلَّق بالكَوْكَبِ يُحْمَى بكُلِّ مُثَقَّفٍ ومُشَطَّبِ

المثقف: الرمح، والمشطب: السيف.

ورثى لآل بَرْمك فيقول:

ما رَعى الدهرُ آل بَرْمَكَ إذ رَمَى مُلْكهم بأمْرٍ فَظِيعِ
إنَّ دَهْراً لم يَرْعَ حقًّا لِيَحْيَى غيرُ راعٍ زمامَ آلِ الرَّبِيعِ

آل الرَّبيع بن يونس، هم وزراء الرشيد بعد البرامكة.

ثم ما يلبثَ أن يهجوهم فيقول:

كُلّ بَنِي بَرْمكٍ كَرِيمٌ أستغفر الله غيرَ واحدْ
خُولِفَ في خِلْعَةٍ فوافى يَمزج مِن صالحٍ بفاسدْ

وما كُنّا نرجو من أبي نواس غير هذا، فالحياة بين يديه عَبث، يأخذ منه بما يشاء ويدع ما يشاء، فليس ثَمّة وازع من خُلق أو من دِين، أليس هو الذي يقول:

ألم تَرَنِي أَبَحْتُ اللهوَ نَفْسِي ودِيني وانكببتُ على المَعَاصِي
كأنِّي لا أعود إلى مَعَادٍ ولا أخشى هُنالك مِن قِصَاصِ

ويُدركُ الكِبَرُ أبا نُواس فإذا هو لا يقوى في يَومه على ما كان يقوى عليه في أَمسه، وهنا لا بُدَّ للمُنْتشي من صَحوة، وقد أدركت تلك الصحوةُ أبا نواس، هو يقول:

ألا تأتي القُبُورَ صباحَ يومٍ فَتسمع ما تُخَبِّرك القُبُورُ

ويقول:

الموتُ منّا قريبُ وليس عنّا بِنَازِحْ

ويقول قولة المودِّع الباكي:

يا ربّ إنْ عَظُمَتْ ذُنوبي كثرةً فلقد علمتُ بأنّ عَفْوك أعظمُ

يقول أبو نواس هذا بعد أن شَبع من الحياة وشَبِعت الحياةُ منه، يدلُّك على هذا قوله:

فإني قد شَبِعْتُ من المَعاصي ومن لَذّاتها وشَبِعْنَ منِّي

وما أحببت في كل ما عرضت أن أَدُسَّ لك شيئاً من إفحاشه الصريح، فما ذكرتك له يدل عليه، وما بَقِي بعد هذا لأبي نواس غيرُ أَغراض لا يؤبه لها، وشعر لا يؤبه له.

وبعد أهذا ما كُنّا نرجو من شاعر فَحل يُعَدّ على رأس المُحْدَثين، كما عُدّ آمرؤ القَيس على رأس الجاهليّين.

خَمْرٌ أصبح عليها وبات، وغَزل أُطلق لِنفسه العِنان فيه يقول ما يشاء، ومَدْح لم يَثْبُت عليه فإذا هو بعد قليل يَنْقضه.

تُرى هل لِمثل هذا خُلقت الكلمة؟

ولكنا لا ننسى أن الكلمة لكي تكون كلمة لا بدَّ لها من أن تُحاط بما لم يُهيّأ لأبي نواس أن يُحاط به، فإذا هو يُرْزَق القدرة على الكلمة، ولم يُرْزق ما يصون به هذه الكلمة، وأعني بهذا تلك التَّنْشئة التي نَشَأها[1].

* * *

ومنهم: **ابنُ مُنَاذِر محمد (٨١٣ م ـ ١٩٨ هـ).**

دعك من مُجون آبن مُناذر الذي آنحدر فيه إلى الهاوية، فتلك لَوْثَة مُنِيَ بها ابنُ مُناذر بعد أن فقد عبد المجيد بن عبد الوهاب الثَّقَفِيّ، وكان آبنُ مُناذر مُدَلَّهاً بهواه، مَفْتُوناً به، وما أُريد أن أخوض بك في حديث هذا، ولكن حَسْبُك أن تعرف أنهما ما آجتمعا إلا ما أحَبَّا ألاّ يَفْتَرِقَا، وما آفترقا إلا وأحَبَّا أن يَجْتَمِعا، وما أَعْرِفُ ما وراء هذا، فلقد كان عبدُ المجيد مُحَدِّثاً جليلاً، يُرْوِي عنه وُجُوهُ المُحدِّثين وكِبَارُ الرُّواة، وكان آبن مُناذر هو الآخر ذلك الناسك، المُلاَزِمَ للمَسجد، المُتأَلِّه، يفْرغ من فَرض إلى نافلة، هذا إلى ما كان عليه من عِلْم باللغة وكلام العرب.

فإذا هو بعد موت عبد المجيد المُتَهَتِّكَ من شِعره، الفاتك بعد نُسكه، يعظه

(١) أخبار أبي نواس ـ تاريخ بغداد ـ الشعر والشعراء ـ وفيات الأعيان ـ الديوان.

الواعظون فلا يرتدع، ويَنهونه فلا يزدجر، وحين يُحَرِّمون عليه دخول المسجد يهجوهم، ويلوِّث بالمداد مَطَاهِرَهم.

وإنك لتُحِسّ هذه اللَّوْثة التي خَرجت بآبن مناذر عن وعيه، وأفقدته عقلَه، في شعره الذي يقول فيه:

لأُقِيمَنَّ مأتماً كنُجوم اللَّيْـ ... ـلِ زُهْراً يَلْطِمْنَ حُرَّ الخُدُودِ

مُوجَعَاتٍ يبْكين للكَبِدِ الْـ ... ـحَرَّى عليه وللفُؤاد العَميدِ

كما تُحسها في قوله له وهو حيّ يَمدحه:

نَفسي فداءٌ له وأهلي ... وكُلُّ ما تملك اليَدَانِ

وتكاد تسأل: ما الذي غرس في قلب آبن مناذر هذا الهوى القائل؟ وأقول لك: جوابك على هذا يتضمّنه بيتُه:

كأنَّ شَمْسَ الضُّحى وبَدْرَ الدُّ ... جى عليه مُعَلَّقَانِ

وما أُنكر عليك أنْ آبن مناذر كان شاذًّا في هواه، وله في هذا أخبارٌ وأشعار، سَنَضْرِب عنها صَفْحاً، لأنها من لَغْوِ الحديث، كما سَنَضْرِب صَفْحاً عن تَهَتُّكه ومُجونه، وما له في هذا من أخبار وأشعار، لأن هذا كان عن تلك اللَّوثة التي آلتاثها.

وشيء واحد أحِبّ أن أقِفَ بك عنده لتعرف به: كم أفسد مالُ الخلفاء مُيُولَ الشعراء.

فلقد كان آبن مناذر في صَحوته بَرْمكِيًّا، أَحَبّ البرامكةَ. لا كحُبّه لعبد المجيد، بل أَحبَّهم لمالهم وأُعطياتهم، تدلك على هذا أبياته:

أتانا بَنُو الأملاك من آل بَرْمكٍ ... فيا طِيبَ أخبارٍ ويا حُسْنَ مَنْظَرِ

إذا وَرَدُوا بَطْحاءَ مكةَ أشرقت ... بِيَحْيى وبالفَضْل بن يَحْيى وجَعْفَرِ

فما صَلَحت إلّا لجُودٍ أكُفُّهُمْ ... وأَرجلُهم إلا لأَعْوَادِ مِنْبَرِ

إذا راضَ يحيى الأمْرَ ذلَّت صِعَابُه ... وحَسْبُك من راعٍ له ومُدَبِّرِ

تَرى الناسَ إجلالاً له وكأنَّهم ... غرانيقُ ماءٍ تحت بازٍ مُصَرْصِرِ

قال ابنُ مُناذر هذا الشِّعر وغيرَه في البرامكة، والرَّشِيدُ راضٍ عنهم. وكما قال ابنُ مناذر فيهم قال في غيرهم، والحياة أمن.

ويَغضب الرشيد على البرامكة ويُنكِّل بهم، فيخف إليه ابن مناذر بعدما خلص منهم ليُنشده، لا حُبًّا فيه ولكن حُباً في عطائه، فهو يقول: وكنت مُضيقاً مُمْلِقاً فهيَّأتُ قولاً أجدت تهيئته. وما كاد آبن مناذر يقف بين يدي الرشيد، حتى يبادر الفضلُ بن الربيع ويقول للرشيد: هذا شاعر البرامكة ومادحهم، ويزيد الفضل فيقول للرشيد: مُرْهُ يا أميرَ المؤمنين أن يَنشدك قوله فيهم:

أتانا بنو الأملاك من آل بَرْمكٍ فيا طِيبَ أخبار ويا حُسْن مَنْظَرِ

ولا تَسل بعد هذه عمّا فعله الرشيدُ بابن مناذر، على الرغم مما آعتذر به ابن مناذر من أن هذا قول سَبق والرشيدُ راضٍ عنهم.

وسُحِب ابنُ مناذر على وجهه بعد أن أُشْبع لَطْماً.

وآسمع لابن مناذر يقل لك بعدها ما كان: وآنصرفت وأنا أسوأ الناسِ حالاً، ولا والله ما عِندي ما يُقيم يومئذ قوت عيالي لعيدهم. فإذا شاب قد وقف عليّ وقال: أَعْزِزْ عليّ والله يا كَبِيرُنا بما جَرى عليك، ودَفع إليّ صُرَّة.

وكان هذا الذي وقف على آبن مناذر هو أبو نواس، وكان في الصُّرّة ثلاثمائة دينار.

هذه حال آرتضاها الشعراء لأنفسهم حين جَعلوا شِعرهم بضاعةً تُشْتَرى، ولقد رأى فيهم الخُلفاء أُجَرَاءَ لا شُعَراء، ومن مَلك أن يأجر مَلَك أن يَأْمر.

تُرى هل لنا أنْ نَعُدَّ شِعْراً قيل في مثل هذا شَيْئاً يُعْتَدُّ به؟

ما أَظُنُّنا نَراه إلا قولاً مُجَوَّداً مُنَمَّقاً، نَتَلَمّس فيه مُتعةً لفظيّة لا مُتعة معنويّة[1].

* * *

(١) الأغاني ـ الشعر والشعراء ـ معجم الأدباء.

ومنهم: **رَبِيعَةُ الرَّقِّيّ (٨١٣ م - ١٩٨ هـ).**

إنْ كُنْتَ تُحب أن تعرف معي رَبيعة الـرَّقِّيّ، **على صُورتَيْـه اللَّتين خُصّ بهما** فاقرأ له أولاً ما كان منه مع العبّاس بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العبّـاس، فلقد مدحه مرةً، وما أظنه زاد عليها، فقال:

| | |
|---|---|
| لـو قِيـل للعبّـاس يـابْنَ مُـحَـمَّـدٍ | قـل: لا، وأنـت مُخـلَّدٌ مـا قـالَهَـا |
| مـا إنْ أعُـدُّ مـن المكـارم خَـصلةً | إلّا وجـدتُـك عَـمَّـهـا أو خَـالَـهـا |
| وإذا الـمُـلوكُ تـسـايـروا فـي بَـلْدة | كـانُـوا كـواكبَهـا وكـنتَ هِـلاَلَـهـا |
| إنّ الـمكـارمَ لـم تَـزَلْ مَـعـقـولـةً | حتى حَلَلْتَ بـراحَتَـيْـك عِقَـالَـهـا |

فبعث إليه العبّاس بدينارين آثنَيْن..

عندها ينقلب هذا المادح هاجيًا، ويبعث إلى العبّاس بهذه الأبيات:

| | |
|---|---|
| مـدحتُـك مِـدْحَـةَ السَّيْفِ المُحَـلَّى | لِتَجْـرِيَ فـي الكِـرام كـمـا جـريتُ |
| فـهَبْـهـا مِـدْحَـةً ذهبـت ضَـيَـاعـاً | كـذبـتُ عـليـك فـيـهـا وآفـتـريـتُ |

وينتهي أمرُ هذا إلى الرَّشيد، فيلوم العبّاس على ما فعل، وكان العبّاس من أعمام الرَّشيد، فأمر لربيعةَ بثلاثين ألف درهم.

ثم اقرأ له ثانياً ما كان منه مع مَعْن بن زائدة، حين لم يجد منه بعدما مدحه ما كان يطمع فيه، فإذا هو يهجوه ويُفْحِش ويقول:

| | |
|---|---|
| مَـعْنُ يـا مَـعْنُ يـا بْـن زائـدةَ الـكَـلْـ | ـب الـذي في الـذِّرَاع لا في البَنَـانِ |
| قِـيـل مَعْـنٌ لـنـا فـلمّـا آخـتـبـرنـا | كـان مَـرْعًـى ولـيس كـالـسَّـعْـدَانِ |

ثم آقرأ له ثالثاً ما كان منه مع اليزيدَيْن: يـزيد بن هشـام المُهلَّبي، ويزيـد بن أُسَيْد السُّلَمِيّ.

فلقد قَصد ربيعةُ قَصْدَ يـزيد بن أُسَيـد ليستعين به على قضـاء دَين عليه، فلم يجد عنده ما أحب، وبلغت هذه يزيدَ بنَ حـاتم فقضى عنه دَيْنَـه وبَرَّه، فقـال يمدح ثانيهما ويهجو أولَهما:

لشَتَّان مـا بين اليَـزيـدَيْن في الشَّـدَى  يــزيــدَ سُـليـم والأغَـرّ آبـن حـاتِـمِ

وقال فيهما:

لشتّان ما بين اليـزيـدَيْن في الشَّـدَى  إذا عُـدَّ في النـاس المَكـارِمُ والمَجْـدُ
يَـزِيـدُ بني شَـيْبَـانَ أكـرمُ منهـمـا  وإن غَـضِبـت قيسُ بـن عَيْـلاَنَ والأزْدُ

وقال في يزيد بن حاتم:

يَـزِيـدَ الأزد إن يـزيـدَ قَـوْمِـي  سَـمِـيِّـك لا يَـجُـود كـمـا تَـجُـودُ

واقرأ له رابعاً ما كان بين المهديّ وبينه، فلقد اشتهت جواري المَهديّ أن يَلْهون بربيعةَ، فبعث المهديُّ مَن يحمله من الرَّقّة، وآستمع المهديّ إليه كما آستمعت الجواري، وكان في ربيعةَ لِينٌ، وضَحِك المهديّ وضَحِكت الجواري وُسْعَهُنّ، وتَسْخُو يَدُ المهديّ فيُعطيه ما يُرضيه، ويَمضي ربيعةُ في دُعابته فيقول:

يـا أمـيـرَ المُـؤْمـنـيـن الـلَّـ  ـهُ سَـمَّـاك الأمـيـنَـا
سَـرَقُـونـي مِـن بـلادِي  يـا أمـيـرَ الـمُـؤْمِـنِـيـنَـا
سَـرَقُـونـي فـاقْضِ فيـهـم  بِـجَـزَاءِ الـسَّـارِقـيـنَـا

فيَقْضِي المهديُّ بأن يُحْمَل إلى حيث كان.

هذا عن صِفة رَبيعةَ الأُولى، وهي المدح، أرأيتَ معي بَوَاعِثَه، التي لم تَكُنْ غيرَ الارتزاق بالتَّهديد مَرَّةً، وبالتذلُّل أُخْرَى.

ثم آقرأ معي خامساً شيئاً عن غَزله، الذي ذهب بعضُهم إلى أنّه كان أشهرَ أهلِ عصره فيه، تَغزَّل بجارية تُدْعَى رَخَاص، فقال:

أنـا للرَّحْمن عـاصِي  لجُنُـوني بـرخَـاصِ

وتغزَّل في جارية تدعى: داح، فقال:

صـاحِ إني غيـرُ صـاحِي  أبـداً مـن حُـبِّ داحِ

وتغزَّل في جارية تدعى: عَتْمة، فقال:

أَعتْمـةُ أَطْلِقِي العَلَقَ الـرَّهِينَـا  بِعيْشك وآرحمي الصَّبَّ الحَزِينَا

وتَغزَّل في جارية تُدْعى : سُعاد، فقال :

دَسَّتْ سُعَادُ رسولاً غيرَ مُتَّهَمٍ          وصيفةً فأتَت إتْيانَ مُنْكَتِمِ

وتغزّل في جارية تُدْعَى : لَيْلى ، فقال :

خَليلَيَّ هذا رَبْعُ لَيْلَى فَقَيِّدَا          بَعِيدَيْكما ثم آبْكِيَا وتَجَلَّدَا

وتغزّل في جارية تُدْعَى : غُنْم، فقال :

يا غُنْمُ رُدِّي فُؤَادَ الهائم الكَمِدِ          مِن قبل أن تَطْلُبِي بالعَقْلِ والقَوَدِ

وإن شئت أن تعرف مبلغ هذا الحُبّ من قلب هذا المُحِبّ فاقرأ معي هذا الخبر :

يقول الرواة : إن عَتمة هذه التي تغزَّل فيها ربيعةُ وأكثر، كانت جاريةً لرجل من أهل قَرَقِيسيا، وكان على حظٍّ كبير من الثَّراء، وحين بلغه شِعْرُ ربيعةُ في جاريته، أحضره إليه، وعَرض عليه أن يَهبه عَتْمة .

فأقرأ ماذا كان جوابُ رَبيعة، فلقد قال : لا تَهَبْها لي ، فإنّ كُلَّ مَبذول مَمْلُول، وأكره أن يذهب حبُّها من قلبي ، ولكن دَعْني أواصلها هكذا، فهو أحبُّ إليّ .

ولقد فاتني أن أذكر لك أنّ رَبيعة كان لا يُبْصِر، وأنّ هواه بِعَتْمة وبغَيرها من هؤلاء الجواري اللاتي ذكرتُهن لك، كان عن سَماع .

فهو لم يعرف الهَوى، ولا ذاق طعمه، ولكن ما له لا يتغزّل كما تغزّل غيره من الشعراء .

وبعد، أرأيتَ معي ربيعة على صِفَتيه، شاعرٌ أحبُّ المالَ فمَدَح وهَجا، وأَحبَّ أن يتآنسَ غيره في الشّعر الغزليّ فقال :

لهذا النِّفاق في القول مَدْحاً وغَزَلاً عاش ربيعة، وعليه مات[1] .

* * *

---

(١) الأغاني ـ طبقات ابن المعتز.

ومنهم: **أَبَانُ بنُ عبيد الحَميد اللاَّحِقيّ (٨١٥ م - ٢٠٠ هـ).**

أَوَّلَ ما بدأ أبان حياتَه الشِّعريّة بدأها على باب عيسى بنِ جعفر بن المَنصور، وكان عِندها أميراً على البصرة من قِبَل الرَّشيد.

وكان يُزاحم أباناً على هذا الباب شاعرٌ آخرُ، هو المُعَذَّل بن غَيْلان، فأخذ أبانٌ يهجو غَيْلاَنَ، وما سكت غيلانُ على هجاء أبان.

ويُجيزُ عيسى يوماً غيلانَ بِبَيْضة من عَنبر على مدحه له فيه، فَيَثُورَ لهذه أبانٌ ويقول لعِيسى:

أَصلحك الله وقد أَصلحَا إنِّيَ لا آلوك أن أَنْصَحَا
عَلاَمَ تُعْطِي مَنَوِيْ عَنْبَرٍ وأَحْسَب الخازنَ قد أَرْجَحَا
مَن ليس من قِرْدٍ ولا كَلْبةٍ أَبْهَى ولا أَحْلَى ولا أَمْلَحَا

وما كان عَطَاءُ عيسى بعد هذا التناحر مُجْزِئاً، فخرج أبانٌ من البَصرة قاصداً قَصْدَ البرامكة، ولم تكن السبيلُ مُعَبَّدةً، وكان على أبان أن يَهُونَ شيئاً لِيَصِل.

ولم تكن هذه كبيرة على أبان، فمِن قبلها أذَى صديقاً له هو غَيلان لكي يَنْفَرِدَ بعيسى.

فلقد أقام أبانٌ بباب الفَضل بن يحيى البَرْمَكِيّ لا يصل إليه. فما بالَه لا يحتال لكي يصل.

وهناك يجد هاشميًّا على صِلة بالفَضل، فيرفع إليه شِعْراً يقول له فيه:

يا غَزيرِ النَّدَى ويا جَوْهَرَ الجَوْ هر من آل هاشمٍ بالبِطَاحِ
إنّ ظَنِّي وليس يُخْلَف ظَنِّي بكِ في حاجتي سَبيل النَّجَاحِ
إنّ من دونها لَمُصْمَتَ بابٍ أنت من دون قُفله مفتاحِ
تاقت النَّفْسُ يا خَلِيلَ السَّمَاحِ نحوَ بَحْرِ النَّدَى مُجَارِي الرِّيَاحِ
ثُمَّ فكَّرْتُ كيف لي وآستخرتُ اللَّـ ـهَ بِشِعْرٍ مُشَهَّرِ الأَوْضَاحِ

ويَرِقُّ الهاشميُّ لأَبان، ويقول له: هاتِ شِعْرَك.

وكان أبانٌ قد هَيَّأَ هذا الشِّعر، فيُعطيه إيّاه، وفيه يقول:

أنـا مِـن بُـغْـيَـةِ الأمـيـر وكَـنْـزٌ ... مـن كُـنُـوزِ الأمـيـر ذو أَرْبَـاحِ
كـاتـبٌ حـاسـبٌ خـطـيـبٌ أديـبٌ ... نـاصـحٌ زائـدٌ عـلـى الـصُّـحَّـاحِ
شـاعـرٌ مُـفْـلِقٌ أخـفُّ مِـن الـرِّبـ ... ـشَـةِ ممّـا يكـون عِـنـد الجَـنَـاحِ

هذا شيء أشبهُ ما يكون بما نُسَمِّيه اليوم: طلب وَظِيفة.

ويَـرْتَضِي الفضلُ بنُ يحيى أبـاناً، ومـا له يـرتضيه، فهـذا بُـوقٌ جـديـدٌ ينضمُّ للأبواق التي تَدعو للبرامكة.

ولكنّي لن أَظْلِم أباناً أكثرَ من هذا الظُّلْمَ فأقول: إنَّ أباناً نَقل للبـرامكة كتـابَ كليلة ودِمنة ونَظمه شِعْراً، وكان مما قاله في أوله:

هــذا كــتــابُ أدبٍ ومِـحْـنَـهْ ... وهـو الـذي يُـدْعَى كليـلَ دِمْنَـهْ

كما عمل لهم قَصِيـدَته التي ذكـر فيها مَبـدأ الخَلق، وأَمْرَ الـدنيا، وشيئـاً من المَنطق، وسمَّاها: ذاتَ الحُلَل.

وكذا صَنع لهم سِيرَةَ أردشير، وسيرة أنوشروان، وكتاب مَزدك.

وكان ما ناله أبـانٌ من البرامكـة، على هذا وغيـره. شيئاً كثيـراً يُرْبي على مـا أخذه أيّ شاعر سَبقه أو عاصره.

وقد لا يكون ثمّة مَطعن على أبـان في هذه، اللهمَّ إلا إذا قُلنـا مع القـائلين: إن هذا لم يكن عن نَزْعة سليمة بل كان لإرضاء البرامكة، فهو مَدْحٌ مُسْتَتِر.

والـذي يُشجِّعنا على هـذه سابقـةٌ كانت لأبـان على باب عيسى، وسـابقةٌ لـه أُخـرى على باب الفضـل بن يحيى أوَّل ما وصـل إليه، ثم لاحقـةٌ له حين طَلب من البرامكة أن يَصِلوه بالرَّشيد.

فلقـد قال لـه البرامكـةُ، حين طلب إليهم أن يصلوه بالـرشيد: ومـا تُريـد من ذلك؟

فقال لهم أبانٌ: أُريد أن أحظى منه بمثل ما يَحْظى به مروانُ بنُ أبي حفصة.

ويقول له البرامكة: إنّ لمروانَ مَذْهَباً في هِجاء آل أبي طالب وذَمِّهم، به يَحْظَى، وعليه يُعْطَى، فاسْلُكْه حتى تَصِل.

ويقول لهم أبانٌ: لا أستحلُّ ذلك.

ويقول البرامكة: فما تَصنع؟ لا تجيء أمور الدنيا إلا بما لا يَحِلّ.

فيقول أبانٌ:

نَشَدْتُ بِحَقِّ الله مَن كان مُسْلِماً ... أعُمَّ بما قد قُلْتُه العُجْمَ والعَرَبْ
أَعَمُّ رسول الله أقربُ زُلْفَةً ... لديه أم آبن العَمِّ في رُتْبة النَّسَبْ
وأيُّهما أَوْلَى به وبِعَهْدِهِ ... ومَن ذا الذي له حقُّ التُّراث بما وَجَبْ
فإنْ كان عبَّاس أحَقَّ بتلكمُ ... وكان عليٌّ بعد ذالك عَلَى سَبَبْ
فأبناء عبّاس هُمُ يَرِثُونَهُ ... كما العَمُّ لابن العَمِّ في الإرْث قد حُجِبْ

ويَعجب الفضلُ بهذا، ثم يَعجب الرشيد مِن بعده، ويأْمُر لأبانٍ بعشرين ألف درهم، ويكون أبانٌ بعدها من المَوْصُولين بالرَّشيد، من أَجْلِ ما أَهْدر أبانٌ من رَأْيٍ وكرامة[1].

* * *

## ومنهم: الرَّقَاشيّ الفَضْلُ بن عبد الصَّمد (٨١٥ م ـ ٢٠٠ هـ).

يقول أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني:

كان الفضلُ الرَّقاشيّ مُنْقَطِعاً إلى آل برمك. مُسْتَغْنِياً بهم عمَّن سواهم. وكانوا يَصُولون به على الشعراء، ويُرَوُّون أولادَهم أشعاره. ويُدوِّنون القليلَ والكثيرَ منها.

ويُذكِّرنا قولُ أبي الفرج هذا بما كانت عليه الحالُ في الجاهليّة من آحتفاء

(١) الأغاني ـ خزانة الأدب للبغدادي ـ طبقات الشعراء لابن المعتز.

القبائل بشعرائها آحتفاءً يُشبه هذا أو يزيد، والأسباب هي الأسباب.

فكما رَجت القبائلُ شُعَراءها لساناً يُنافح عنهم، كذلك رجا البرامكة الرقاشيَّ لِسَاناً يُنافح عنهم.

وكما كانت القبائلُ تَحُوط شاعرَها بكُل رِعاية وإجلال، كذلك حاط البرامكةُ الرَّقَاشِيَّ بكُلِّ رعايةٍ وإجلال.

ولكن ثَمّة فَرْقٌ جَوْهَرِيّ.

فالشاعرُ في الجاهلية كان يُنافح عن نفسه، وإن بَدَا يُنافح عن قَبِيله، أليس مَجْدُه موصولاً بمجدهم؟

وأليس عِزُّه من عِزّهم؟

ثم أليست حياتُه من حياتهم، ووُجوده من وُجودهم؟

والرقاشيُّ يُنافح عن مالٍ يَحْيَا به، ورِزْق يَعِيش عليه.

وما أبعد الفَرقُ بين الاثنين.

فشاعرُ الأمس باقٍ على الولاء لقومه في السَّرّاء والضَّرَّاء.

وشاعر اليوم ـ أعني الرَّقاشيّ ـ على السَّرَّاءِ لا على الضَّرَّاء.

لا أقول هذا عَفْواً، فلقد مَدح الرقاشيُّ البرامكةَ ويَدُهم في فِيه، حتى إذا ما وَجد يَداً أَسْخَى، سَكت عن مَدح اليد الأُولى وأخذ في مدح اليد الثانية.

فالرُّواة يذكرون أنه حين نُكِبَ البرامكةُ نَكْبتهم المَعْروفة، وقُتِل جعفرُ بن يحيى وصُلِب، وَقَف الرَّقاشيّ يُناجِي هذا المَصْلُوبَ ويقول:

أما والله لولا خَوْفُ واشٍ وعَيْنٌ للخليفةِ لا تَنَامُ
لَطُفْنا حولَ جِذْعِك وآسْتَلَمْنا كما للنَّاس بالحَجر آسْتِلامُ

ويَبلغ قولُ الرَّقاشيِّ هذا الرَّشِيدَ، فيأمر بإحضاره ويقول له: ما حَمَلك على ما قلت؟

فيقول الرقاشيّ: يا أمير المؤمنين، كان إليَّ مُحْسِناً.

فيقول الرشيدُ: وكم كان يُجْرِي عليك؟

فيقول الرقاشيّ: ألف دينار كلَّ سنة.

فيقول الرشيدُ: فإنّا قد أضعفناها لك.

ويعني الرشيدُ: على ألّا يكون منه مِثْلُها بعدها.

وما أَظُنّ الرقاشيَّ فَعَلَ مِثْلَها، فلقد ٱنْقطع إلى طاهر بن الحُسين، وخرج إلى خراسان، ولم يزل بخُراسان حتى مات.

وقد يكون هذا غايةَ الوفاء من شاعرٍ يعيش على ما يُدِرُّه عليه شِعْره، هذا إلى خَوفه من أن يُلْحِقَه الرشيدُ بِجَعْفر.

ولكن تُرَى: هل كان هذا العطاء الذي أَمر به الرشيدُ ثَمَناً لسُكوته فَحَسْب، أم لِيَتَحوَّلَ مادحاً للرشيد؟

أكاد أُرَجِّح الثانية، وإن كانت المراجع لم تذكر لنا شيئاً مَدح به الرشيدَ، فلقد كان حَسْب الرشيد أن يَنْهاه ليضمن سكوته، أمَا وقد سخا الرشيدُ في العطاء فَلِشَيْءٍ غيرِ السكوت، وهو أن يَمْدَح الرشيد.

وما أُحِبّ أن أزيدك بعد هذا شيئاً عن الرَّقاشيّ.

فأذْكُر لك هذه المهاجاة المُتَّصلة بينه وبين أبي نُوَاس.

أو أذكر لك مُجونه وقصيدته التي أخذ يُوصِي فيها بالخَلاعة والمُجون، والتي ذاعت وشاعت، والتي يقول في أولها:

أَوْصَى الرَّقَاشيّ إلى إخوانه ... وَصِيَّة المَحْمود في نُدْمَانِهِ

فعُذْرُ الرقاشيّ وأضرابِه:

أنهم نَشَأوا ولا مَوْرِدَ لهم غيرُ ما يُدِرّه الشِّعْرُ عليهم.

وأنهم أَحَبُّوا أن يَحْيَوْا حياةَ المُترفين فأخطأوا السَّبِيل.

وهكذا هان الشِّعر حين كان بضاعةً، وهان الشُّعراء حين آرْتَضَوْا لشعرهم أن يكون بِضاعة[1].

* * *

ومنهم: **مُسْلِم بنُ الوليد (٨٢٣ م - ٢٠٨ هـ).**

دَخل مُسلمٌ على الفَضل بن سَهل لِيُنْشِده شِعْراً، فقال له الفضلُ: أيها الكَهل، إنِّي أُجِلُّك عن الشعر. فسَلْ حاجتك.

فقال له مُسلم: فأَغْنِني بما أحببتَ من عملك. فولّاه الفضلُ البريدَ بجُرْجان.
وأُحِبّك أن تعرف شيئاً عن الفَضل بن سَهل.

فهو أبو العبّاس الفَضل بنُ سَهل السَّرْخَسِيّ، وكان مَجُوسِيًّا، ثم أسلم على يدي المأمون سنة (١٩٠ هـ)، وكان يَصحبه قبل أن يلي الخلافة، وحين ولي المأمونُ الخلافةَ سنة (١٩٨ هـ) جعل للفضل الوزارةَ وقيادةَ الجيش معاً، ولهذا لُقِّب الفضلُ: ذا الرِّياستين.

كما أُحبك أن تعلم أن مُسلم بن الوليد كان مولدُه على الأرجح سنة (١٤٠ هـ).

ذكرتُ لك هذا وذاك لأَصِلَ بك إلى أنّ مسلم بن الوليد:
لم يَقْدم على الفضل قبل أن يلي للمأمونُ الوزارة سنة (١٩٨ هـ).
وأنّ عُمْرَ مُسلم عندها كان وبَينه وبين الخمسين عامٌ وبعضُ عام.

وأنّ مسلم بن الوليد لم يكن قد كَفَى نفسه مؤونةَ الاختلاف إلى أبواب الممدوحين، وما أكثرهم.

فلقد مَدح الرشيدَ، ومدح آبنه الأمين، ومدح البرامكة، ومدح يزيدَ بن مَزْيد.
وأنّ الفَضل بن سهل عَزَّ عليه أن يرى مُسلِم بن الوليد بعد هذه المَسِيرة

---

(١) الأغاني ـ تاريخ بغداد ـ طبقات ابن المعتز ـ فوات الوفيات.

الطويلة لا يزال يَسأل بِشِعْره.

وأن مُسلم بن الوليد كان هو الآخر قد كَلَّ، وأكاد أقول: وبَرِمَ السُّؤالَ.

وإخال أنّ مُسلم بن الوليد غَنِي بما نال من الفَضْل، ولم يغْدُ على أحد مادحاً بعدها.

كما إخال أيضاً أن أبيات مُسلم التي قالها في رثاء الفَضل بعد أن قتله المأمون سنة (٢٠٢ هـ)، كانت آخر ما قال، وفيها يقول:

ذهلت فلم أَنْفَع قَلِيلًا بِعَبْرة ... وأَكْبَرْت أن أُلْقي بِيَوْمك ناعِيَا

وما كان مَنْعَى الفَضل مَنْعَى وِحادة ... ولكنّ مَنْعى الفَضل كان مَنَاعِيَا

فلم أَرَ إلّا قبلَ يومك ضاحكاً ... ولم أَرَ إلا بعد يومك باكيا

وكما أكثر مُسلمٌ من المدح، فأكثرُ شِعره كان خالصاً له، أكثرَ من الغزل، وما كان مسلم في مدحه مُشْتَطًّا كما لم يكن في غزله مُشْتَطًّا.

مَدح مُسلمٌ الرشيدَ فقال:

إليك أمينَ الله ثارتْ بِنَا القَطَا ... بَنَاتُ الفَلَا في كُلِّ مِيثٍ مُسَرَّدِ

الميث: اللين من الأرض. والمسرد: المتتابع.

ويمدح الأَمينَ فيقول:

كم من يدٍ لأمين الله لو شُكِرَتْ ... لقَصَّرَ النَّفْس عن أَدْنى أدانِيهَا

ويمدح جَعفر بن يحيى بن برمك فيقول:

ولله سَيْفٌ ما على الأرض مثلُه ... مضاربُه يحيى وأنتَ مَقَاتِلُهْ

ويمدح يزيد بن مَزيد فيقول:

ذَهبتْ يَمِينُك بالسَّمَاعِ فما لها ... إلّا لسانُك أو ضميرك ثانِي

وكما كان مَدحه كان غزله، وكانت خمريّاته.

يقول:

أديرَا عليَّ الرَّاحَ لا تشربا قَبْلي ... ولا تَطْلُبا من عند قاتلتي ذَحْلِي

ويقول:

طَيْفٌ يُعاتبني وَقَلْبٌ مُغْضَبٌ نَفْسِي فداءُ مُغاضِبي ومُعاتِبِي

تُرى هل هذا الغَزل المَهِين كان السببَ في إضفاء هذا اللقب: صريع الغواني، على مُسلم؟

والرواة يقولون: إن الذي لَقَّبَ مسلمَ بن الوليد بهذا اللَّقب هو الرشيد، وكان هذا حين سَمِع الرشيدُ بيتَ مسلم، وهو:

وما العيشُ إلّا أنْ تَروح مع الصِّبا صريعَ حُمَيَّا الكَأْسِ والأَعْيُن النُّجْلِ

ويقولون: إن مسلم بن الوليد سُئل: لِمَ تُدْعَى صريعَ الغواني؟ فأنشأ يقول:

تَرَكَتْنِي لدَى الغواني صريعاً فلهذا أُدْعَى صريعَ الغوانِي

ويقولون: إنّ مُسلم بن الوليد كان لهذا اللقب كارهاً، وكان يقول لِدِعْبِل: لا تَدْعُنِي صريع الغواني، فلستُ كذلك.

وصَدَق مسلم، فما يُوحي شِعْرُه الغَزِل بما يُوجِب الصَّرَع.

وبعد، فهذه صَفحةُ مُسلم: مَدح ونال الكثير من العطاء، وكان هذا على كراهية منه لهذا، كما أشرتُ قبل، ثم تغزّل للغزل نفسه، فما كان ثَمَّة هَوًى، وبعد هذا وذاك، هَجا قليلاً وعاتب قليلاً، وأمضى حياته وما آنتفع الوجودُ منه بشيء[1].

* * *

ومنهم: **مُحمَّدُ بنُ يَسِير (٨٢٥ م - ٢١٠ هـ)**.

قد كُنت على أنْ أرفعَ القَلَمْ، بعد أَنْ أخذتُ في الحديث عن آبن يَسِير، لآخُذَ في الحديث عن غيره، إذ وجدتُني بين يدي شاعر تُحرِّكه الأحداث الهيِّنة من حوله فينظم فيها ويُطيل.

تَسْطُو على حديقة بيته شاةٌ لجارٍ له، آسمه مَنِيع، فَتَلْتَهِم ما فيها، وما أَشْبَعها هذا، فتعدو إلى داره، فتجد قراطيسَ له قد دوَّن فيها شيئاً من شعره، فتلتهمها هي

---

(١) الأغاني - تاريخ بغداد - الشعر والشعراء - الديوان.

الأُخرى، فإذا هو يُشَمِّر عن ساعديه، ويُمسك بالقلم لينظم قصيدةً تُرْبِي أبياتُها على الخمسين بقليل، يقول فيها:

لِـيَ بُـسْـتَـانٌ أَنِـيـقٌ زاهِـرٌ      نـاضِـرُ الخُضـرة ريَّـانٌ تَـرِفْ

ترف: أي قد شبع ريًا.

مـا رأى شـاةً ولا يـعـلـمـهـا      خُـلِقت خِلْقَتـهـا فيـمـا سَلَفْ

ويَنعقـد مجلسُ شرابٍ في دار والي البَصـرة حينـذاك محمـد بن أيـوب بن سُليمـان، ويكتب آبنُ رَبَـاح، وكـان ممن ضمّهم هـذا المجلس، إلى آبن يسيـر يدعوه، بعـد أن طلب إليه صـاحبُ الدار هـذا، وكان مـا كتب به آبن رَبَـاح بيتيـن وهما:

يـومُ سَـبْـتٍ وشَـنْـبـتٍ ورَذاذٍ      فعـلام الجُـلوس يـآبنَ يَـسِيـرِ

قُمْ بنـا نأخـذ المُـدامـةَ من كَفِّ      غـزالٍ مُـضَـمَّـخٍ بـالـعَـبِيـرِ

فيكتب إليه آبنُ يسير:

أَجِيءُ على شَـرْطٍ فـإن كنتَ فـاعـلاً      وإلّا فـإنِّـي راجـعٌ لا أُنَـاظَـرُ

لِيُسْـرَجْ لِيَ البِـرْذَوْن في حـالِ دُلْجَتِي      وأنتَ بـدُلْجَـاتِي مـع الصُّبْحِ خـابِـرُ

ويَهْوَى قَيْنَةً لهاشميّ، وتَعلم زوجتُه، فيقول لها:

لا تَـذْكُـري لـوعـةً إثْـرِي ولا جَـزَعَـا      ولا تُـقَـاسِنَّ بـعـدي الهـمَّ والهَـلَعَـا

ومن يُـطِيق خَـلِيعـاً عـنـد صَبْـوَتِـهِ      أم مَـن يَـقُـوم لِـمَـسْـتُـورٍ إذا خَـلَعَـا

ويَستعيـر حماراً، من جـارٍ له، فـلا يُجيبـه الجـارُ إلى مـا طلب، فيقـول فيـه شاكياً:

إن كنتُ لا عَـيْـرَ لي يـومـاً يُـبلِّغـني      حـاجِي وأَقْضِي عليـه حقَّ إخْـوانِي

رِجْـلَايَ لم تـأْلَمـا نَكْبـاً كـأنّهـمـا      قـطًّا وقَـدًّا وإدمـاجـاً مَـدَاكَـان

فـالحمـدُ لله يـا عَمْـرُو الـذي بهمـا      عن العَـوَارِي وعن ذا النـاس أغنـانِي

ويطلُب من صديق له فِراخاً من الحَمام الزَّاجِل، فيُعطيه غيـرها، فينـظم في هذا قصيدة تُرْبِي أبياتُها على الثلاثين، يقول فيها:

يـا ربُّ ربَّ الـرَّائـحيـن عَشِـيَّـةً　　بـالـقـوم بيـن مِنًى وبيـن ثَبِيـرِ
عَجِّـلْ عليـه بمـا دعـوتُ لـه بـه　　أَرِهِ بـذاك عُـقُـوبـةَ الـتَّـنْـويـرِ

التنوير: التدليس.

حتى يقـولُ جميـعُ من هـو شـامتٌ　　هـذي إجـابـةُ دَعـوة آبْنِ يَسِـيـرِ

وما أُريد أن أُطيلَ عليك، فغير هذا من شِعره لا يخرج عن مثل ما ذكرت.

وللرجل عُذْرُه، فهو لم يخرج إلى الحياة الواسعة، حيث مَقَرُّ الخلافة، وحيث شُعـراء عصره، ولكنّي أعـود فأقـول: رجلٌ هـذا شأنُـه، تَستوي حـالاه، إن ضاقت الحياة أو اتسعت.

وبعـد، ألم أَكُن على حقٍّ حين قلتُ أولاً: إني كدت أرفـع القلم فـلا أمضي في الحديث عن آبن يسير، ولكني حَرصت على أن تكون الصورةُ كاملةً عن الشِّعر في مَساره، من أجل هذا لم أترك الحديثَ عن آبن يسير[1].

* * *

ومنهم: **أبو العتاهية إسماعيلُ بن القاسم (٨٢٦ م - ٢١١ هـ).**

لعلّك تَسأل: مَن أبو العتاهية؟ ومن أَبُوه؟
وأُجيبك فأقول:

أمّا عن أبي العتاهية فلقد كان خَزَّافاً، وكان إذا مـا آستأذن على قَـوْمٍ فسُئِل: مَن هو؟ قال: أبو إسحاق الخَزَّاف.

وأمّا عن أبيه، فلقد كان حَجَّاماً.

ويُغْنِيك بَيْتَا أَبِي العتاهية عنِّي إجابةً، وهذا حيثُ يقول:

ألَا إنّمـا التَّقْـوَى هي العِـزُّ والكَـرَمْ　　وحُبُّـك للدُّنيـا هـو الفَـقْـر والعَـدَمْ
ولَـيس عـلى عَـبْـدٍ تَـقِـيٍّ نَـقِـيـصَـةٌ　　إذا صَحَّـحَ التَّقْـوى وإنْ حـاكَ أو حَجَمْ

---

(١) الأغاني - الشعر والشعراء.

بهذه الشجاعة والاعتزاز دخل أبو العتاهية الحياة. هانت الدُّنيا بين يديه، فهان الناسُ عليه.

ثم لعلّك تسأل: أنَّى لهذا الخزَّاف أن يكون هذا الشاعرَ المُكْثِر، الذي فات الحَصْرَ شِعْرُه، ولم يُجمع له منه إلا القليل؟

ثم أنَّى له أن يكون ذا مَذْهب فلسفيّ في الوجود؟

وأُجيبك فأقول:

إن التعلُّم حينذاك لم تكن له قُيود اليوم. بل كان حُرًّا، وما عليك إلا أن تجلس إلى عالم فتَستمع وتَلْقن. وكُنْ مَنْ تكون. وهذا ما فعله أبو العتاهية.

وأمّا عن مذهبه الفلسفيّ في الوُجود، فما مِن شكّ أنه كان ذا نَزْعة فلسفيّة ساقته إلى حَلقات المُتفلسفين، وإن كانت المراجعُ ضَنَّت علينا بذكر شيء عن هذا.

فأبو العتاهية الذي كان يذهب إلى أن الله خلق العالم من جَوهرين متضادَّيْن. وأن هذا العالَم حديث العَين والصنعة، وأنه لا مُحْدِث له إلا الله، وأن الله سبحانه وتعالى سيَرُدّ كلَّ شيء إلى هذين الجوهرين المتضادَّين قبل أن تفنى الأعيان كلُّها.

وأبو العتاهية الذي كان يذهب إلى أن المعارف واقعةَ بقدر الفِكْر والاستدلال والبحث.

وأبو العتاهية الذي كان يقول بالوَعيد وبتحريم المكاسب.

وأبو العتاهية الذي كان يَدين برأي الزَّيديّة البَتْريّة.

أقول: إن أبا العتاهية الذي كان يرى هذا كله، ويقول به، ويذهب إليه، لا بد أن يكون من الفَلسفة على درجةٍ ما.

ولقد بَدأ أبو العتاهية غَزِلاً، وكان ذا غَزل مُستحبّ.

هَوَى في حداثته آمرأة نائحةً من أهل الحِيرة، وكانت على حُسن وجمال، وكان يُشاركه في هذا الهوى آخر، وهو مَعن بن زائدة، وفيها يقول أبو العتاهية:

إنِّي لأَعْجَبُ من حُبٍّ يُقـرِّبني ممّن يُبـاعـدني منـه ويُقْصِيني

وفيها يقول:

بُلِيتُ وكـان المَـزْح بَـدْءَ بَلِيَّتي فـأحببتُ حقًّـا والبلاءُ لـه بَـدْوُ

وفيها يقول:

كفـاكِ بحقِّ الله مـا قـد ظَلَمْتِني فهذا مُقام المُستجير من الظُّلْمِ

وتَثور الحرب بينه وبين آبن معن من أجلها، فينال منه آبنُ معن إيـذاءً، وينال منه أبو العتاهية هِجاءً.

ويرى أبو العتاهية جارية آسمها عُتبة، فيقول فيها:

كـأنَّـمـا عَتْبـةُ من حُسْنـهـا دُمْـيـة قَسٍّ فَتـنـت قَـسَّـهـا
يـا ربّ لـو أَنْسَيْتَنِيهـا بـمـا في جَنّـة الفِـردوس لم أَنْسَهـا

ويقول فيها بما تُمليه عليه حداثته:

إنّ الـمَـلِـيـكَ رَآكَ أَحْـ ـسَـنَ خَلْقـه ورأى جَـمَـالَـكْ
فـحَـذَا بـقُـدْرة نَـفْـسِـه حُـورَ الجِنـان عـلى مِثَـالـكْ

وما من شكّ في أن أبا العتاهية قال في غَـزله الكثيـرَ المُستحبّ، مما فُتِن بـه الناس، وكان على رأس من فُتِنوا بشعره الغـزليّ الرشيـد، وكم سَمِع منـه الرشيـدُ، وكم آستمع إليه، وإذا أبو العتاهية بعد أن صحا من حَداثته يَزْهد ويَنْزِعُ مَنْزَعاً آخر، فيَغضب الرشيدُ لها، ويَحمله على أن يَعود لِغزَلِه.

ويأبى أبو العتاهية أن يَستجيب للرشيد، فيأمر الرشيـدُ بحَبسه وضَـرْبه، وكـان الرشيدُ يُجري عليه كـلَّ سنة خمسين ألف درهم، سـوى الجوائـز والمعاون، فقـطع هذا كُلَّه عن أبي العتاهية.

وهذه النفس الشُّجاعة التي لم تَذِلَّ للسّجن والضرب سُرعان ما ذلّت للمـال، فأبو العتاهية الذي بدأ يعيش على بَيـع خَزفـه، غدا يَعِيش على بَيْـع شِعره، وقـانون الحياة عند ذاك قانون ظالم، أسبابه كلها في يد الخليفة، يقضي في أُمور الناس بما يرى، وما يملك الناس غيرَ أن يُطيعوا. وما كان يملك أبـو العتاهيـة أن يعود إلى مـا

بدأ به حياته، وسَيف الإرهاب على رأسه مَسْلُول.

وحين تمثَّل أبو العتاهية هذا كُلَّه كتب إلى الرشيد:

أنا اليومَ لي والحمدُ لله أَشْهُرُ    يَروح عليَّ الهمَّ منكم ويُبْكِرُ
تَذكَّر أمينَ الله حقِّي وحُرْمتي    وما كنتَ تُوليني لعلَّك تَذْكُرُ

وقرأ الرشيد الأبيات ثم قال: قولوا له: لا بأسَ عليك.

فكتب إليه أبو العتاهية:

أمِينَ الله إنّ الحَبْسَ بَأْسُ    وقد أرسلتَ: ليس عليك بَأْسُ

ولا يستجيب الرشيدُ، فيكتب إليه أبو العتاهية:

وكلَّفتني ما حُلْتَ بيني وبَينه    وقلتُ سأبغي ما تُريد وما تَهْوَى
فلو كان لي قلبان كلَّفْتُ واحداً    هَواك وكلَّفْتُ الخَلِيَّ بما تَهْوَى

ثم يكتب إليه:

يا رشيدَ الأَمْر أَرْشِدْني إلى    وَجْهِ نُجْحِي لا عُدِمْتَ الرَّشَدَا
أَمِّن الخائفَ وارحم صَوْتَه    رافِعاً نحوكَ يَدعوك يَدَا

ثم يكتب إليه:

مَنْ لِعَبْدٍ أَذَلَّه مَولاه    ما له شافِعُ إليه سِوَاهُ
يَشتكي ما به إليه ويَخْشا    ه ويَرْجُوه مثلَ ما يَخْشَاهُ

ثم تعود إلى أبي العتاهية شجاعته فيكتب إلى الرشيد:

أمَا والله إنَّ الظُّلْمَ لُومُ    وما زال المُسِيءُ هو الظَّلُومُ
إلى دَيّان يومِ الدين نمْضِي    وعند الله تَجتمع الخُصُومُ
ألا يا أيّها الملكُ المُرَجَّى    عليه نَوَاهِضُ الدُّنيا تَحُومُ
أَقِلْنِي زَلَّةً لم أُجْرِ مِنْهَا    إلى لَوْمٍ وما مثلي مَلُومُ
وخَلِّصني تُخَلَّص يومَ بَعْثٍ    إذا للنّاس بُرِّزَت الجَحِيمُ

ويُحِسّ أبو العتاهية أن الرشيد كاد يَرِقّ، فيكتب إليه مُلَمِّحاً بأن سيعود إلى ما طلب منه، وكان أبو العتاهية حين زَهِد لبس كِسَاءَ صُوف ودُرَّاعة صوف:

يـا بـن عمِّ الـنبـيّ سَمْـعـاً وطـاعَـهْ قـد خَـلَعْـنـا الـكِـسـاء والـدُّرَّاعَـهْ
ورَجـعـنـا إلـى الـصِّـنـاعـة لـمـا كـان سُخْط الإمام تـرك الصِّنـاعـهْ

عنـدها يُحس الـرشيد أن هـذا الأَبِيَّ قد لان، فيـأمر بـإطلاقـه، ويُحضره بين يديه، ويقول له: أنشدني قولك:

يـا عُـتـب سـيِّـدتـي أَمَـا لَـكِ دِيـنُ حتّى متى قَـلبي لـديـك رَهِـيـنُ؟
يـا عُتب أيـن أفِـرُّ منـك، أميـرتي وعـليَّ حِـصْـنٌ مِـن هَـوَاكِ حَـصِـيـنُ

ويُنشده أبو العتاهية، فيأمر له بخَمسين ألف درهم.

وينضم إلى هذه القصة شيءُ لا أُحب أن أتركه:

فلقـد كـان الـرشيـدُ تـأذَّى يـومـاً بغنـاء المـلاّحين في الـزلاّلات ـ نـوعٍ من السفن ـ فـطلب ممَّن حولـه أن يسألـوا الشُّعراء الـذين معه أن يقـولوا شعـراً يُغَنِّي به الملاّحون، فقـالوا لـه: إنه لا يقـوى على مثلها إلا أبـو العتاهيـة، فأرسـل إلى أبي العتـاهيـة وهـو في الحبس من يـطلب منـه شعـراً، ومـا أمـر الـرشيـد بـإطـلاق أبي العتاهية. وآغتاظ لها أبو العتاهيـة، ووجد الفـرصة مُتـاحة في أن يُنَفِّس عن نفسـه، فكتب أبياتاً، منها:

هَـلْ لِـمَـطْلُوبٍ بِـذَنْـبٍ تَـوْبَـةٌ مـنـه نَـصُـوحْ
كُـلُّ نَـطَّاحٍ مِـن الـدَّهْـ ـر لـه يـومٌ نَـطُوحْ
نُـحْ على نَفْسِـك يـا مِسْـ ـكـيـنُ إنْ كُـنْـتَ تَـنُـوحْ
لَـتَـمُـوتَـنَّ وإنْ عُـسِّـرْ تَ مـا عُـمِّـرَ نُـوحْ

وأُحِبّ أن أَزيدك أنّ الرشيد كان أَغْـزَرَ دَمْعاً حين تَملكـه الموعـظة، وأشَدَّهم عَسْفاً حين يَملكه الغَضب.

هذه صفحة أبي العتاهية مع الرشيد.

ومِن قبل الرشيد كانت لأبي العتاهية صَفحة مع أبيه المَهديّ، أَملَتْها على أبي العتاهية شجاعتُه التي دَخل بها الحياة.

خرج المهديُّ يوماً للصيد، وكان أن أصيب بسوء، عزاه المهديّ إلى استجابته لداعي الصَّيد، وما هو إلا عن ضعف في الرأي، وطلب إلى أبي العتاهية أنْ يهجوه على غرامه هذا بالصيد، وتلبَّث أبو العتاهية قليلاً ثم قال:

يا لابِسَ الوشي على ثَوْبِهِ ... ما أقبحَ الأَشْيب في الرَّاحِ

وآستزاده المهديّ فقال:

لو شِئت أيضاً جُلْتَ في خامة ... وفي وِشاحَيْن وأوضاحِ

الخامة: ثوب من قطن. والأوضاح: الحلى من فضة.

واستزاده المهدي، فقال:

كَمْ من عَظِيمِ القَدْرِ في نَفْسِهِ ... قد نام في جُبَّةَ مَلَّاحِ

وغضب المهديُّ يوماً على أبي عُبيد الله، وأخذ يَشْتُمه، ثم أمر به فجُرَّ مِن رِجْله، ثم أرسل به إلى الحبس، وكان أبو العتاهية حاضرَ هذا، فما إن هدأ المهديُّ قَلِيلاً حتى آنْبرى أبو العتاهية له يقول:

أرى الدُّنيا لمن هِي في يَدَيْهِ ... عذاباً كلّما كَثُرت لَدَيْهِ
تُهين المُكْرِمين لها بصُغْرٍ ... وتُكرم كُلَّ من هانت علَيْهِ

الصُّغر: الضَّيم والذل.

إذا آستغنيت عن شَيءٍ فَدَعْهُ ... وخُذ ما أنت محتاجٌ إلَيْهِ

ثم أَردف أبو العتاهية قائلاً: والله يا أمير المؤمنين. ما رأيتُ أحداً أشدَّ إكراماً للدنيا ولا أَصْوَن لها، أشَحَّ عليها، من هذا الذي جُرّ برجله الساعة، ولقد دخلتُ إلى أمير المؤمنين ودَخل هو، وهو أعزُّ الناس، فما بَرِحْتُ حتى رأيتُه أَذَلَّ الناس. ولو رَضِي من الدنيا بما يَكْفيه لاستوت أحوالُه ولم تتفاوت.

وما إن سَمع هذا المهديُّ حتى رَضِي عن أبي عُبيد الله.

وثَمّة صفحةٌ أخرى تكاد تكون مُتَمِّمة لصفحة الرشيد، وهي صفحة أبي العناهية مع القاسم بن الرشيد.

فلقد مرّ القاسم يوماً في موكب عظيم، وكان تَيَّاهاً، وكان أبو العتاهية جالساً

فقام إعظاماً له، ولم يزل كذلك إلى أن مَرَّ الموكب، وكان أبو العتاهية يَطمع أن يُبادِلَه القاسمُ بالإعظام له تَحِيَّة، ولكنّ القاسم لم يفعل، فعزَّت على نفسه أبي العتاهية فقال:

يَتيه ابنُ آدمَ من جَهْلِهِ ... كأنّ رَحَى المَوت لا تَطْحَنُهْ

ويَبلغ هذا القاسمَ، فيأمر بمن يَضرب أبا العتاهية مائةَ مِقْرَعة، ويُلْزِمَه داره، فلم يَثْنِ هذا أبا العتاهية عن أن يكتب إلى زُبيدة بنت جعفر:

حتى متى ذو التِّيه في تيهه ... أصلحه الله وعافاهُ
يتيه أهلُ التِّيه من جَهلهم ... وهم يَمُوتون وإن تاهُوا
مَن طلب العِزَّ لِيَبْقَى به ... فإنّ عِزّ المَرْء تَقْوَاهُ
لم يَعْتَصِمْ بالله مِن خَلْقِه ... مَن ليس يَرْجُوه ويَخْشاه

وإليك بعد هذا صَفْحَته مع المأمون.

جلس المأمونُ يوماً وأبو العتاهية، فقال له: عِظْني، فانبرى أبو العتاهية يقول:

أنساك مَحياك المَماتَا ... فطَلَبْتَ في الدنيا الثَّبَاتَا
أَوَثِقْتَ بالدُّنْيَا وأنْـ ... ـتَ ترى جَمَاعَتها شَتَاتَا
يا مَنْ رَأى أَبَوَيْهِ فيـ ... ـمَنْ قد رَأَى كانَا فَماتَا
كُلٌّ تُصَبِّحه المَنِيَّـ ... ـةُ أو تُبَيِّتُه بَيَاتَا

ويقول:

ما تَطْلع الشمسُ ولا تغيبُ ... إلا لأمر شَأْنُه عَجِيبُ

ويقول:

الخَيْرُ والشَّرُّ بها أَزْوَاجُ ... لذا نِتَاج ولذا نِتَاجُ

ويقول:

مَن جَعل النَّمام عيناً هَلكا ... مُبْلغك الشَّرَّ كباغِيه لَكَا

ويقول:

كمـا قَضى الله فكيـف أَصْنـع          الصمتُ إن ضـاق الكلامُ أوسَعُ

ثم حَسْب أبي العتاهية أُرجوزته الجامعة الواعية التي تُمَثِّل فَلسفته في الحياة، والتي أفرغ فيها ما عَنَّ له مِن رأي، وما جال بِـذِهنه من خـاطر، والتي سمّـاها ذات الأمثـال. وهو يعني أنّ كـل بيت من أبياتهـا مَثل قـائم بذاتـه، وهي طـويلة، يضيق المقام عن إيرادها كلها، وما أذكره هنا يدل على ما لم أذكره، يقول:

حَسْبـك مـمّـا تَبْـتغيـه الـقُـوتُ          مـا أكثـر القُـوت لـمن يَـمُـوتُ

ومن قبل الرَّشيد كانت لأبي العتاهية صفحة مع أخيه موسى الهادي، كتبها أبو العتاهية بحُروف من الفزع، فلقد كان الهادي يَحْقِد على أبي العتاهية لُـزومه لأخيـه الرشيد حياةَ أبيه، وأحس هـذا أبو العتـاهية من الهـادي حين وَلِيَ فأحب أن يُخَفِّف من حِقْده، فكتب إليه:

ألَا شـافِـعٌ عنـد الخَـليفـة يَشْفَـعُ          فيَـدْفَـع عـنّـا شـرّ مـا يُـتَـوقَّـعُ

ثم اطمأن أبو العتاهية فدخل عليه وأنشده:

يـا أَمِـيـنَ الله مـا لِـي          لـستُ أَدْرِي الـيـومَ مـا لِـي
لـم أَنَـلْ مِـنْـك الـذي قَـدْ          نـالَ غـيـري مِـن نَـوَالِ

ويأمر له الهادي بمال، فيَحْجُبه عنه الخازن، فصار إلى جليسٍ للهادي، هـو أبو الوليد، وأنشده:

أَبْـلِغْ سَلِمْـتَ أبـا الـوليـد سَـلَامِـي          عَـنِّي، أمـيـرَ الـمُـؤمنـين، إمَـامِـي
وإذا فَـرغـت من الـسَّـلام فقُـلْ لـه          قـد كـان مـا شـاهـدت من إفْحَـامِي

وكان أبو العتاهية لم يَنطلق بين يدي الهادي لبقيّة خَوْفٍ منه.

هذه صفحات لأبي العتاهية تُصَوِّر لك حياته.

فلقد دخل الحياة شُجاعاً، كما قلت لك ـ لأنه كان له مِن مِهنته ما يَغْنَى به.

وحين جَعل الشعر مَطِيَّته إلى كَسْب رِزْقه ضَعُف شيئاً، ولكنـه ضَعْف لم ينزل به إلى الحضيض.

وحين كان يَطمئنّ شيئاً يعود شُجَاعاً كما بدأ ويقول ولا يُقال له، وحين كان يَلِين يقول ما يُقال له.

ولكنَّ السؤال الذي لا زِلْنا نسأله:

هل نَهض الخُلفاء بالشّعر حقًّا، أم صاغوه بألسنة الشُّعراء على نحو ما أرادوا؟.

لقد أراد أبو العتاهية أن يقول، ولكن ليس كُلّ الذي أراده قاله، ولقد قال شيئاً، لو تُرِكَت له الحُرّية ما قاله، ولو في غير هذا المُناخ عاش أبو العتاهية لكان أكثَرَ إفصاحاً عن رأيه، ولكنه على كل حال جَهد جَهْده في أن يكون كما أراد، فحالفه التوفيق في شيء وخانه في شيء، وما كان يُمكنه أن يفعل غير ما فعل[1].

* * *

ومنهم: **العَكَوَّك عليُّ بن جَبَلَة (٨٢٨ م - ٢١٣ هـ).**

ما ظَنُّك بشاعر أراد لنفسه حين نشأ أن يكون مَدَّاحاً؟ وما ظَنُّك به حين خلا إلى نفسه يتخيَّرُ أَسْخَى الممدوحين يَداً وأكثرهم عطاء؟ وما ظَنُّك به حين قَصد هذا الممدوح، فإذا هذا الممدوح يرتاب في أمره ويأبى إلا أن يسبر غَوْره ليعرف هل هذا المَدح له أم لغيره؟ وما ظَنُّك به حين يَذِلّ لهذا الاختبار ويَجلس جِلْسَةَ المُمْتَحَن؟

هذا الشاعر هو العَكَوَّك، وحين قال الشعر بَلغه أن الناس يَقصدون أبا دُلَف القاسم بن عيسى العِجْلِيّ لِجُوده، وما كان يُعطي الشعراء، فقَصده ومدحه بقصيدته التي قال فيها:

يا دَوَاء الأرض إن فَسدت ... ومُدِيلَ اليُسْر من عُسَرِهْ
كُلُّ مَن في الأرض من عَرَبٍ ... بَين باديه إلى حَضَرِهْ

---

(١) الأغاني - الديوان.

مُسْتَعِيرٌ منك مَكْرُمَةً يَكْتَسِيها يومَ مُفْتَخَرِهْ
إنّما الدُّنيا أبو دُلَفٍ بين مَبْدَاهْ ومُحْتَضَرِهْ
فإذا ولّى أبو دُلَفٍ ولّت الدُّنيا على أَثَرِهْ

وآسْتَرَابَهُ مَن حضر من الشُّعراء، وكانت هذه هي الأُولى له، فظنوا أنَّ الشعر لغيره، وأشاروا على الأمير أبي دلف أن يَطْلَب إليه وَصْفَ فرسه، فإذا العكوَّك يَخْلُو إلى نفسه ليلةً. ومعه رَجُلٌ بعثوا به رقيباً، ويُبادرهم العَكوَّك في صَبيحة اليوم بقصيدة، تَقْرُب أبياتها من الأربعين، يصف فيها الفرسَ، فيقول:

لا يَبلغُ الجَهْدَ به راكبُهُ ويبلغ الرِّيحَ به حيثُ طَلَبْ

ثم يَخْلُص إلى مدح أبي دُلف القاسم بن عيسى، فيقول:

لولا آبنُ عيسى القَرْمُ كُنّا هَمَلاً لم يُؤْتَثَلْ مَجْدٌ ولم يُرْعَ حَسَبْ

ويخرج العكوَّكُ من عند أبي دلف وفي يديه مائةُ ألف درهم.

ويُغْرِي هذا العطاءُ العكوَّكَ بالمَدْح، وكنت أحسب أنه كاد أن يتحوَّل عنه مع هذا الاختبار المَهين، وإذا هو يَبحث عن مَمدوحين آخرين، فيقوده الجَدُّ إلى حُمَيد بن عبد الحميد الطُّوسيّ، وإذا هو يمدحه ويقول:

لولا حُمَيْدٌ لم يَكُنْ حَسَبٌ يُعَدُّ ولا نَسَبْ
يا واحدَ العَرب الذي عزَّت بعزَّته العَرَبْ

ثم يجد له ممدوحاً ثالثاً، هو الحسنُ بن سهل، فيمدحه على عطاء سَبَقَ مَدْحَه إيّاه. فيقول:

أَعْطَيْتَني يا وليَّ الحقِّ مُبتدِئاً عطيةً كافأتْ شِعْري ولم تَرَني
ما شِمْتُ بَرْقَك إلا نِلْتُ رَيِّقَه كأنما كنتَ بالجَدْوَى تُبادِرُني

ويقول له حُمَيْدٌ يوماً: وما عَساكَ أن تقول فينا بعد قولك في أبي دُلَف:

إنما الدُّنْيا أبو دُلَفٍ بين مَبْدَاه ومُحْتَضَرِهْ

فيقول له العَكوَّكَ: أصلح الله الأمير: ما قلتُ فيك أحسن. فيقول له حُميد: وما قلتَ؟ فيُنشده:

إنما الدُّنْيا حُمَيْدٌ    وأياديه الجِسَامْ
فإذا ولَّى حُمَيْدٌ    فعلى الدُّنيا السَّلَامْ

وإذا حُميد يفعل مثل أبي دلف ويَزِيد في العطاء.

ويختلف العكوَّك بين أبي دُلف وحُميد، يَمدح هذا فيأخذ، ويمدح ذاك فيأخذ.

ويَنتهي إلى سمع العكوَّك أنه ثَمَّة مَمدوح على إمارة خُراسان، هو عبد الله بن طاهر، فيَقْصِدُ العكوَّكُ قَصْده، وما إن دخل إليه، ألستَ القائل:

إنما الدُّنيا أبو دُلف    بين مَبْدَاه ومُحْتَضَرِهْ

إرجع من حيثُ جئت.

ويَجدها العكوَّكُ فُرصةً، فيعرّج على أبي دُلف، ويُخبره بما كان بينه وبين عبد الله، فيُعطيه أبو دلف حتى يُرْضِيه، غير أن العكوَّك لم يدع عبدَ الله يُفْلِت منه، فعاد إليه ثانية ومدحه، فقال:

وَصَلَ الله للأَمِيـ    ـرِ عُرَى المُلْكِ فاتَّصَلْ
مَلِكٌ عَزْمُهُ الزَّمَا    نُ وأفعالُه الدُّوَلْ

فأعطاه الجَزِيل.

وكان من وراء هؤلاء جميعاً خليفةٌ، وهو المأمون، وكان يتحرَّق غيظاً حين يرى قُوَّادَه ووزراءه ينالهم هذا المديحُ، ولا يناله هو من هذا المديح شيء، فيتوعَّد العَكوَّكَ ويقول: لستُ لأَبِي إن لم أَقطعْ لسانه أو أَسْفِكْ دَمَه.

ويأمر المأمونُ بطلبه، ويبلغ هذا العَكوَّكَ فيَهْرُب إلى الجزيرة، ثم يقع عليه رِجَالُ المأمون فيَحملونه إليه.

ويسأله المأمونُ: أنت القائل للقاسم بن عيسى:

كُلُّ مَن في الأرضِ مِن عَرَبٍ    بين باديه إلى حَضَرِهْ
مُسْتَعِيرٌ منك مَكْرُمَةً    يَكْتَسِيها يومُ مُفْتَخَرِهْ

ويعتذر العكوَّكُ، والمأمونُ لا يقبل له عُذْراً. ثم يقول له: إني لستُ أستحلُّ دَمك لتفضيلك أبا دُلَف على العرب كُلِّها، ولكني أستحلُّه بقولك فيه هذا القول الذي أشركت فيه:

أنت الذي تُنْزِلُ الأيام مَنْزِلَها وتَنْقُلُ الدهرَ من حالٍ إلى حالِ
وما مَدَدْتَ مَدَى طَرْفٍ إلى أَحَدٍ إلّا قَضيت بأرزاق وآجالِ

ويلتفت المأمونُ إلى العكوَّك ويقول: ما يَقدر على ذلك أحَدٌ إلا الله عَزَّ وجَلَّ، ثم قال: سُلُّوا لسانَه مِن قَفاه.

وللمأمون أن يتعلَّل بما يشاء، وهل فاته أن هذا ومِثْلَه من غُلُوِّ الشُّعراء، ومن ذا الذي لا يؤمن أن هذا لِلَّه وحده، ثم ما بال المأمون ذَكر هذا، وأُنْسِيَ مثلها في مَدح العكوَّك لحُميد، وهذا حيث يقول:

أَنت الزمانُ الذي يَجْرِي تصرُّفُه على الأَنَام بتَشْدِيدٍ وتَلْيِينِ

وما أدفع عن هذا أو ذاك فالمادح قد جاوز ما يعتقد إلى ما لا يعتقد، والممدوح قد أجاز لنفسه أن يقال عنه ما ليس له.

وهكذا نرى أن المدح كلَّف العكوَّك كثيراً ممّا يَشِين، وهو وإن كان قد ترك لنا قولاً مَغسُولاً، فقد ترك لنا أُسْلُوباً مَرْذُولاً، فما لهذا خُلِقت الكلمة، وما لهذا خُلِق القائل، وقد نُبيح للقائل أن يكون بعض قوله للكَسب، ولكنا لا نُبيح له أن يكون قولُه كلُّه للكَسب. فما خلق القائل ليعيش لِبَطْنه فحسب[1].

* * *

## ومنهم: أبو تَمَّام حَبِيبُ بنُ أَوْس (٨٤٦ م - ٢٣٢ هـ).

إنْ كُنْتَ تُريد أن تعرف أبا تمَّام في كَلِمة مُوجزة فهاك ما رواه أبو الفرج الأصبهانيّ في كتابه الأغاني، عن يَزِيدَ المُهلَّبيّ، قال:

---

(١) الأغاني - تاريخ بغداد - الشعر والشعراء - طبقات الشعراء لابن المعتز - وفيات الأعيان لابن خلكان.

ما كان أحدٌ من الشُّعراء يقدر على أن يأخذ دِرْهَماً بالشعر في حياة أبي تمّام، فلما مات آقتسم الشُّعراءُ ما كان يأخذ.

وهـذا حقّ، فلقد آستحـوذ أبو تمّـام على السُّوق، إن صـحّ هذا التعبيـر، فلا بائعَ سِوَاه.

ما نُنْكِرَ أنّ أبا تمّام كان أَجْوَدَ قائل، مِن أجل هذا رُغِبَ فيمـا عنده، ووجـدها أبو تمّام فُرصته، فلم يترك واحداً يُطمع في عطائه إلّا مدحه، جَلَّ أو قَلَّ، وقـد كان بِمَقدوره أن يَعِفَّ شيئاً فَيَخُصّ شِعْـرَه بمن جَلّ، ويتـرك لغيره من الشّعـراء مَن قَلَّ، وكيف يفعلها أبو تمام بعد أن عرف أن ميدان الكَسب لا مُنافِسَ له فيه.

لقد كان شِعر المَدْح، وما إليه من عِتاب وهجاء، يَبلغ ضِعْفَيْ ما قالـه في غير هذا من غَزل ووصف وزُهد، وما عاتب أبو تمام إلّا على إبطاء في العطاء.

من هذا قولُه لأبي دُلَف، وهو من ممدوحيه:

أبـا دُلَـفٍ لم يَبْـق طـالـبُ حـاجـةٍ ... من النـاس غيـري والمَحَـلُّ جَـدِيبُ

ثم قوله لإسحاق بن إبراهيم، وقد آستبطأ عطاءه:

ولي عِـدَةٌ قـد راث عنِّي نَجـاحُـهـا ... ومَجْـدُك أَدْنَى رائـدٍ في آقتضـائهـا

ثم قوله في عبد الله بن طاهر، وكان قد حجبه:

مـا دُونَ بـابـك لي بـابٌ أَلُـوذ بـه ... ولا وراءك لـي مَـثْـوًى ومُـطَّلَبُ

وكذا قوله لأبي سَعيد الثَّغْرِيّ يَستنجده:

لَـعَـمْـرُكَ لَـلْيَـأسُ غيـرُ الـمُـرِيـبِ ... خَـيْـرٌ مـن الـطَّمـع الـكـاذبِ

وكـذا قولُـه لممـدوح لـه آخـر كـان قـد حَجبه مرةً، وهـو عيّـاش بنُ لَهِيعـة الحَضْرميّ:

فـإذا جِئْـتُ زائـراً حَـجَـبَـتْ وَجْـهَـ ... ـك عَـنِّـي كـآبـةٌ وبُـسُـورُ
فـتَـطلَّق مـع العِـنـايـة إنّ الـبِـشْـ ... ـرَ فـي أكـثـرِ الأُمـور بَـشِـيـرُ

وما هجا أبو تمام شاعراً زاحمه على باب المَمْدوحين، ولكنّه هجـا لِيُوقِظَ من

لم يَستيقظ، ممن يَطمع في عطائهم.

قال يهجو أبا الوليد محمد بن أحمد بن أبي دُؤاد:

أتدري لِمَ؟

لأنّ أباه أبا دُؤاد كان من المُكثرين في إعطائه، ولكن آبنه رأى غير ما رآه أبوه، فقبض يده، فآنبرى أبو تمام يهجوه لِيَرُدَّه إلى كرم أبيه، فيقول له:

أتطمع أن تُعَدَّ كريمَ قَوْمٍ وبابُك لا يُطِيفُ به كَرِيمُ

ويَهجو موسى بن إبراهيم الرَّافعيّ، وكان قد مدحه فلم يَحْظَ منه بشيء، فيقول له:

أَعْمَلْتُ فيك قصائدي ووَسَائِلِي فحَرَمْتَنِي فَلَبِئْسَ أجرُ العامِلِ

ويَهجو المُطَّلب الخُزاعيّ، وكان قد مَدحه فلم يُعطه، فقال:

مدحتكُم كذباً فجازَيْتَنِي بُخلاً لقد أَنْصَفْتَ يا مُطَّلِبْ

وكما تدنَّى أبو تمّام فمدح من لم يَخْطِر ببالٍ شاعر أن يمدحه، كذلك هَجا من لم يَخْطِر ببال شاعر أن يَهْجُوه. هجا عبدَ الله الكاتب فأكثر، وهجا عُتْبة بن أبي عاصم فأكثر، وهجا موسى بن إبراهيم الرافعيّ فأكثر، وهجا مُقْران المُباركيّ فأكثر، وهجا محمد بنَ وهب فأكثر، وهجا يوسف السَّرّاج فأكثر.

وإذا حاولت أن تعرف عن واحد من هؤلاء شيئاً، فلن تُسْعِفك المراجعُ، ولكن شعره فيهم يكاد يُعَرِّفك بشيء، هو أنه كان بَرِماً بهم.

لقد أَرْبَى عددُ مَن مدحهم أبو تمام على السِّتين، وكان من هجاهم دون هذا بكثير، وإن كان من هجاهم لم يجلّ منهم أحد إلا في القليل الذي لا يُذكر، فلقد كان من مدح منهم من جَلّ، ومنهم من قَلّ، ودليلي على هذا بيته:

وسُوقَة في قوله وفِعْلِهِ بذلتُ مَدْحي فيه باغِي بَذْلِهِ

وبعد، فما أُراك في حاجة إلى نماذج من مديح. فلن تزيد على ما يُقال في المدح، غيرَ الرّصانة والإتقان، أما عن هجائه وعِتابه فلقد رأيت منه شيئاً، وبقي

عليّ أن أحدثك عن غزله، فلقد قال في الغَزل الكثير، وحسبك منه هذا الأُنْموذج:

إجعلي في الكَرَى لعيني نَصِيبَا          كي تنالَ المَكْرُوهَ والمَحْبُوبَا
أَشْركي بين دمع عَيني ونَوْمي          وٱجعلي لي من الرُّقاد نَصِيبَا

فهذا هَوًى على اللسان ولا نَصِيبَ له في القُلوب، والتعبيرُ عنه يُغني قليلُه عن كثيره، فهو إلى الصنعة أكثر قُرْباً ولُصوقاً.

وبعد هذا فلقد رثى أبو تمام مَن رَثَى، وهو رثاء ألصقُ بالمديح، اللهمَّ إلا ما كان من رثائه لولدٍ له ٱخْتُطف صغيراً، فقال يرثيه:

إنّي أَظُنّ البِلَى لو كان يَفْهمه          صَدَّ البِلَى عن بَقَايَا وَجْهه الحَسَنِ

وكذا قوله في رثاء جاريةٍ له:

يَقُولون هل يَبْكي الفَتَى لِخَرِيدةٍ          متى ما أراد ٱعْتاض عشراً مكانَهَا
وهل يَسْتَعِيضُ المرءُ مِن خَمْسِ كَفِّه          ولو صاغ من حُرِّ اللُّجَيْنِ بَنَانَهَا

وشِعْرُ الوَصف عند أبي تمام قليل، ويبدو أنه لم يكن مَشْدُوداً إليه.

فلقد وصف الغَيم والمطر مرةً فقال:

الغَيْمُ مِن بَين مَغْبُوقٍ ومُصْطَبَحٍ          مِنْ رِيقِ مُكْتَفِلَاتٍ بالثَّرَى دُلُحِ

ووصفه أُخرى فقال:

وخَيَّمت صادقةَ الشُّؤْبُوبِ          فقام فيها الرَّعْدُ كالخَطِيبِ

وقال يصف البَرد بخُراسان:

لم يَبْقَ للصَّيْفِ لا رَسْمٌ ولا طَلَلُ          ولا قَشِيبٌ فيُسْتَكْسَى ولا سَمَلُ

وقال يصف حجَّةً حجَّها:

لعلَّك ذَاكِرُ الطَّللِ القديمِ          ومُوفٍ بالعُهود على الرُّسُومِ

ثم بعد هذا لعلّك مشتاقٌ لتقرأ قوله في الزُّهد، إذ بعيدٌ على مثل هذا الراغب في الدنيا أن يزهد فيها، وما أُظُنُّك مستقرئاً كثيراً فليس لأبي تمام في الزهد إلا مقطوعتان.

أُولاهما:

ولـي مـن الـدُّنـيـا هـوًى واحِـدٌ    يـا ربّ فـآصْفَـحْ لي عن الـواحـدِ
لا تـتـركُنّـي فيـه يـا ذا الـعُـلا    أُحْـدُوثَـةَ الـصـادرِ والـوارِدِ
فـألْـحِـقْ الـرُّوحَ وجُـثْـمَـانَـهُ    بـوَهْـدة الـمُـحْـتَـفَـر الـلاَّحِـدِ

وثانيتهما:

إذا مـا شُـبْـتَ حُـسْـنَ الـدِّيـ    ـنِ مـنـك بـصَـالِـحِ الأَدَبِ
فـنَـفْـسُـكَ قطُّ أَصْـلِحْـهَـا    ودَعْـنِـي مـن قَـديـمِ أَبِ

وبعد، فما نَعِيب على المادح أن يَمدح. فالمَدْحُ واجبُ كُلِّ قائلٍ لِيُنْهِضَ الهمم ويَحْفِز الجُهود، هذا إذا كان المدح ممّا تُمليه نَفْسُ القائل عليه، لا ممّا يُمليه المَقُولُ فيه، وأن يكون المَدح خالصاً لا لغرض.

ولكنّ الأمر قد يختلف الآن شيئاً عمّا كانت عليه الحالُ قبل، فالقائل الآن يقول ما شاء وهو ضامنٌ أنّ له قارِئين يقرأُون ما يقول فيما يَشْترونه مَطْبُوعاً، والقائلُ فيما سَلف يَسعى إلى المَقُول فيه، ولا يقول إلا ما يُرضيه، لِيَضْمَن إعجابَه وعطاءه.

تلك حالٌ ماضية أفسدت على القائلين رَأْيَهم، لا سيّما من جعل منهم القول بِضاعة، وكان أبو تمام واحداً منهم.

ويبدو أنّ نشأته الأولى هي التي أزلقته إلى هذا المُنْزَلَق، فآبْنُ خَلِّكان يَحكي عن عبد الله بن محمد الزَّبيدي، يقول: كنتُ جالساً عند دِيك الجنّ، فدخل عليه حَدَثٌ وأنشده شعراً عمله، فأخرج ديكُ الجِنّ من تحت مُصَلاَّه دُرْجاً كبيراً فيه كثير من شِعره، فسلَّمه إليه وقال: يا فتى: تَكَسَّب بهذا وآستعن به على قولك.

وكان هذا الفَتى هو أبو تمام(١).

* * *

وما أريد أن أَخُصَّ ديكَ الجنّ بكلمة مستقلّة، فحياتُه ليس فيها الكثير، لقد كان مُتَشَبِّعاً في غير إسراف، وله في هذا شِعر، ثم إذا هو يُفْتَن بجارية فيتزوّجها،

---

(١) الأغاني ـ طبقات الشعراء لابن المعتز ـ وفيات الأعيان ـ الديوان.

ثم ما لبث أن آرتاب في أمرها فقتلها، وعاش حياتَه بعدها يَنْدُبها بشعره.

هـذه الحياة المَحـدودة التي ليست فيها لَفتـة من ديك الجن إلى الـوجـود من حوله، إلا فيما يَشغله ويَعْنيه، هي التي صَرفتني عن الحديث عنه.

ولقد كانت وفاة دِيك الجنّ عبد السلام بن رغبان سنة (٨٥٠ م ـ ٢٣٥ هـ) أي بعد وفاة أبي تمّام، ويُقال: إنّ ديك الجِنّ رثاه[1].

* * *

## ومنهم: مَرْوانُ بن أبي الجَنُوب (٨٥٥ م ـ ٢٤٨ هـ).

مَرْوان هذا، هو مَرْوان الأَصغر، حَفِيد مـروان الأكبر، الـذي مَرَّ بـك ذِكْرُه، أعني مَرْوان بن أبي حَفصة.

وقد عرفت ما كان عليه الجَدُّ من كراهية لآل أبي طالب، تلك الكراهيـةُ التي آتَّخذها وسيلتَه للتقرُّب إلى العبّاسيّين، فنال منهم ما شاء بالنَّيل ممن شاء.

ولا أُحب أن أُعَلّل تلك الكراهية وأقول: إنهـا كانت كـراهيةً مُصـطنعة، فمـا كان من سَبب يدعو إليها. ولكن الحاجة دعت إليها، وما كان على مروان عندها إلا أن يكره ما كَرِهه العبّاسيون ليحظى عندهم، لا سيّما أنّ المكروهين عنـدها لم يكن لهم حَوْلٌ ولا طَوْلٌ.

وهذا الرِّيَاءُ، وَرِثه الأصغرُ عن الأكبر، وإذا الأصغـرُ ينال بـه ما يُـرْبِي على ما ناله الأكبر.

وكان المتوكِّل هو الخليفـة العبّاسيّ الـذي أَنِسَ فيه قَلْبـاً لا يزال عـامراً بتلك الكراهية، التي عفَّى الزمنُ على أسبابها، فأَشبعه شِعْراً، وأشبعه المتوكلُ أَجْراً.

دخل على المتوكّل يوماً فأنشده شِعْرَه الذي يقول فيه:

أبـوكـم علـيٌّ كـان أفضـلَ منـكـمُ ... أبـاهُ ذوو الشُّورى وكـانـوا ذَوي عَـدْلِ

---

(١) الأغاني ـ وفيات الأعيان.

وحَكَّم فيها حاكمَين أبوكمُ هما خلعاه خَلْعَ ذي النَّعْلِ للنَّعلِ
وقد باعَها من بعده الحَسَنُ ابنُه فقد أَبطلا دعواكما الرَّثةَ الحَبْلُ
وخَلَّيتموها وَهي في غير أهلها وطالبتُموها حيث صارت إلى الأَهْلِ

فوهب له المتوكلُ مائةَ ألف درهم.

ثم دخل على المتوكِّل مرةً أُخرى فأنشده:

الصِّهْرُ ليس بوَارِثٍ والبِنْتُ لا تَرِثُ الإمَامَهْ
لو كان حقُّكُمُ لهم قامَت على الناس القِيَامَهْ

فحشَا المتوكلُ فاه بجَوْهَرٍ لا يُدْرَى ما قيمته.

ويُغْرِيه هذا المرتعُ الخَصِيبُ بمزيدٍ من القول، وما له لا يقول ليستدرَّ يداً مبسوطة بالعطاء، بغير حِساب، فدَخل على المتوكل لا لشيء غير أن يَسْتَعْطِيَ، فيُنشده فيقول:

فأَمْسِكْ نَدَى كَفَّيْكَ عنِّي ولا تَزِدْ فقد كِدْتُ أن أُطْغَى وأن أَتَجَبَّرَا

ويقول له المتوكل: لا والله إلا أن تعرف جودي. ويأمر له بمائة ألف درهم.

ثم يذهب المتوكّلَ ويَخْلُفه آبْنُه المنتصر، ولم يكن يُدِينُ بما دان به أبوه من كراهية عَمْيَاء.

ويستأذن عليه مروانُ، فلا يأذن له، ويذكر له قوله:

وحَكَّم فيها حاكمَيْن أبوكمُ هما خَلَعاه خَلْع ذي النَّعْلِ للنَّعْلِ

ويُلِحُّ مروانُ في أن يلقى المنتصر، ويُصِرُّ المنتصرُ على ألاّ يدخلَ عليه.

ولكن المُتكسِّبين لا ييأسون، فيصنع مروانُ شِعْراً، ويحتال في أن يُوصِلَه إلى المنتصر، وكان ممَّا قال فيه:

رأيتُك في بُرْدِ النبيِّ محمَّدٍ كبَدْرِ الدُّجَى بين العِمَامة والبُرْدِ

ويستمع المنتصرُ إلى ما قال مروان، فلا يُلين له قلبُه، ويأمر له بعَشرة آلاف درهم، يتحمَّل بها إلى اليمامة..

هذا هو مروان الأصغر، أتُراه أَبْعَدَ عن مروان الأكبر.

لقد ظلم هؤلاء الشُّعَراءُ الشِّعْر حين جعلوه وسيلتُهم الوحيدة لكَسْب رِزْقهم وما كان أولاهم أن يجعلوا من غيره وسيلتَهم لكَسْب الرزق، وأن يَفْرَغوا بشِعرهم إلى كلمة حقٍّ يقولونها، فما خُلِق الشِّعر إلا ليكون كلمة الحق التي نَنْشدها دَوْماً(1).

* * *

ومنهم: **دِعْبِلُ بنُ عليّ الخُزَاعِيّ (٨٦٠ م - ٢٤٦ هـ).**

قالوا عنه: إنّه هجّاء، وإنه لم يَسْلَم من هِجائه أحدٌ من الخُلفاء، ولا من وُزرائهم، ولا من أولادهم.

وما نستطيع أن ندِينَ بما قالوا إلا بعد أن نعرف: كم كان دِعْبل هجَّاءً؟

ولكي نَعرف هذه علينا أن نَعْرِفَ أولاً: مَن هجاهم؟ ولِمَ هجاهم؟ وبِمَ هجاهم؟

لقد هجا دِعْبِلُ من الخلفاء: الرشيدَ، والمأمونَ، والمعتصمَ، والواثق، والمتوكّل.

وهجا من أولادهم إبراهيمَ بنَ المهديّ.

وهجا من المَلْحوظين في عَصره: أحمد بن أبي دُؤَاد، والحسنَ بن وَهب، والفَضل بن مروان، ومالكَ بن طَوْق، والمطَّلب بن عبد الله الخُزاعيّ، والهَيْثم بن عديّ، ويَحْيى بن أكثم.

وكما هجا هؤلاء هجا آخرين، وكانوا قلَّة، على رأسهم مُؤَدِّبُه الفضلُ بن عبّاس بن جعفر بن محمد بن الأشعث.

وكما هجا دِعبلٌ مَدح، ولكنّه في هذا كان مُقِلًّا، وما بَرِيء مَمْدوحٌ منهم من هجائه مع مَدْحه إياه، لا نَستثني منهم غيرَ عبد الله بن طاهر.

هذا هو دِعْبِل في صَفْحته المقروءة، ولْنَعُدْ معاً إلى صفحته غير المقروءة.

---

(١) الأغاني - تاريخ بغداد - طبقات ابن المعتز - معجم الشعراء للمرزباني - وفيات الأعيان.

لقد دَخل دعبلٌ الحياةَ بَرِماً بها، غيرَ راضٍ عما تَجْرِي به، ولم يكن يَمْلِكُ يَداً تُقوِّم مَسَارَها، فلا أقلَّ عليه من أن يَسْتبدل بتلك اليد التي لم يَمْلكها ذلك اللسانَ الذي يملكه، ولقد كان بلسانه هذا بين أمرَيْن آثنين لا ثالث لهما، إلا إذا آثَر الصمت ومعه العافية، ولكنه كان أعزَّ من أن يَصْمُتَ فتكلَّم.

ثم لقد كان أعرف بأن النُّصح قد فات أوانه فلم يقل ناصِحاً، وأن الذي يُمليه عليه بَرَمُه أن يكون هاجياً فهجا، وما هو عِندي بالهِجَاء، بل هو الكَشْف عن أخطاء كانت، وهذه نَفْثَةُ المَكْلوم.

قلتُ لك إن دعبلاً دخل الحياة بَرِماً، بَرِمَ بالناس لأنهم مَوْجُودون غيرَ موجودين، فقال فيهم:

ما أكثرَ الناسَ لاَ بَلْ ما أقَلَّهُمُ والله يَعلم أنِّي لم أقُلْ فَنَدَا
إنِّي لأفتح عَيْنِي حين أفتحها على كثيرٍ ولكنْ لم أجِدْ أحَدَا

وبَرِمَ بأهله، بَرِمَ بقَبيلته، لأنها لم تَصنع ما كان عليها أن تَصنعه، فقال فيهم:

أخُزَاعَ إنْ ذُكِرَ الفَخَارُ فأَمْسِكُوا وضَعُوا أكُفَّكُمُ على الأفْوَاهِ

وبرِم بأخيه رَزين، لأنه ليس غيرَ واحد من الناس لا وفاءَ عندهُ، فقال فيه:

مَهَدْتُ له وُدِّي صغيراً ونُصْرَتي وقاسمتُه مالِي وبَوَّأْتُه حِجْرِي

وتسألني عن سَبب هذا البَرَم الذي صَحِبَ دِعْبِلاً منذ أن دخل الحياة؟

فأقول لك: إن دِعْبِلاً كان يَرى أنّ العلويِّين قد ظُلِموا حقَّهم في الحياة، وأن هذا الظالم لهم هم بنو عُمُومتهم، وها هم أولاء خلفاء يَنْعمون بما كان حقًّا للعلويّين أن يَنعموا به، من هنا كان هذا الهِجاء المُتَّصل للخُلفاء العباسيِّين، ممن عاصرهم، واحداً بعد الآخر، ثم هذا الهِجاء لرجالهم الذين يؤازرونهم.

أُعْجِب الرشيدُ بشعر لدِعْبِل غُنِّي به، وهو قوله:

لا تَعجبي يا سَلْمُ من رَجُلٍ ضَحِكَ المَشِيبُ برأسِه فبَكَى

فأرسل إليه من يُحضره، وعاش دِعبل في ظل الرشيد جسْماً لا رُوحاً، يجْرِي

عليه الرشيدُ رزقاً سَنِيًّا، لا لشيء إلا أنه شاعرٌ مجوِّد، يطمع الرشيدُ في أن يجعل منه مادحاً.

وما صَحَّ لنا أن دِعْبِلاً، على الرَّغم من هذا، مدح الرشيد، وإذا هو بعد أن مات الرشيدُ يقول:

قَبْران في طُوسَ خيرُ الناس كلّهم وقَبر شرِّهم هذا من العِبَرِ

يريد قبر الرِّضا وقَبرَ الرشيد.

ويَعُدُّ المُنكرون على دعبل هذه من جُحوده، ولم يَعُدُّوها من صُموده، فما آستطاع الرشيدُ أن يحوِّله عن مُعتقده بعَطائه، فما مَدح دعبلٌ الرشيدَ حيًّا، وما قاله عنه مَيْتاً إلا ما يُمليه عليه مُعتقده، وهو ما عَدَّه المُنْكِرون عليه هِجَاءً.

ويَلِي المأمونُ الخلافة، وإذا هو يَعْهد بالخلافة من بعده لِعَلِيّ بن موسى الرِّضا، من الأئمة الاثني عشر عند الإماميّة، وهل يُريد دعبلٌ غيرَ هذه، فدخل على المأمون لا لِيَمْدَحه، ولكن لِيُذَكِّره بفضل هذا البيت العَلَوِيّ، وأنه لم يفعل غير أن رَدَّ الحق إلى ذَوِيه، فيقول:

مَدارِسُ آياتٍ خَلَتْ مِن تِلاَوَةٍ ومَنْزِلُ وَحْيٍ مُقْفِر العَرَصَاتِ

دِيَارُ عليٍّ والحُسَيْنِ وجَعْفَرٍ وحَمْزة والسَّجَّادِ ذي الثَّفِنَاتِ

جعفر، هو جعفر الصادق الإمام السادس، وحمزةَ، هو آبن عبد المُطَّلب، عَمُّ الرسول ﷺ.. والسَّجَّاد ذو الثفنات: لقب أبي محمد علي بن الحسين زين العابدين.

همُ أَهْلُ مِيراثِ النبيّ إذا آعْتَرَوْا وهُمْ خيرُ قاداتٍ وخيرُ حُمَاةِ

ألم تَرَ أنِّي مُذْ ثلاثونَ حِجَّةً أروح وأَغدو دائمَ الحَسَرَاتِ

خُرُوجُ إمَامٍ لا مَحَالَةَ خارجٌ يَقُوم على آسم الله والبَرَكَاتِ

فيا نَفْسُ طِيبِي ثُمَّ يا نَفْسُ أَبْشِرِي فَغَيْرُ بَعِيدٍ كلُّ ما هو آتِي

أرأيت ما حدَّثتك به قَبْلُ عن دِعْبِل، من أنه كان على رَأْيٍ، ومن أنه عاش

على حَسْرة حين فاتَ الحقُّ أصحابَه، ومن أنه وهَب نفسه للنِّضال عمّا يَعتقد ولا يَتزحزح عنه ولا تُغْويه المُغْويات.

ويُحِسّ دِعْبِلٌ من المأمون زَهْواً عليه فيُذكِّره بما كان من قومه الخُزاعيِّين حين ناصروه على أخيه الأمين، فيقول:

أيَسُومُني المأمونُ خُطَّةَ عاجزٍ ... أوَما رأى بالأمْسِ رأسَ مُحَمَّدِ
إنِّي من القوم الذين سُيوفُهمْ ... قَتلت أخاك وشَرَّفَتْك بِمَقْعَدِ

وحين رَدَّ المأمون فَدَكَ على آل عليّ قال دِعْبِل:

أَصْبحَ وَجْهُ الزمان قد ضَحِكَا ... بِرَدِّ مأمونِ هاشمٍ فَدَكَا

ويذهبُ المأمونُ ويجيء المُعتصمُ، ويُحِسُّ المعتصمُ أنّ بين يدَيْه شاعراً عَلَوِيًّا سوف يُقِضُّ عليه مَضْجعه، فيَهُمُّ بِقَتْله، ويَخْرُج دِعْبَلٌ هارباً إلى الجَبل، لا يُرْهِبُه القتلُ فيلين وَيَتَنَصَّل ممّا يرى ويَعتقد، بل يُشَمِّر لهذا الخليفة يُحارِبُه بلسانه، وما يَملك غيره، فيقول:

وقام إمَامٌ لم يَكُنْ ذا هِدَايَةٍ ... فَلَيْس له دِينٌ وليس له لُبُّ

ثم يَبلغه موتُ المعتصم وقيام الواثق، وما رَهب دِهْبِلٌ الذّاهبَ، وكان ظَنُّه بمن جاء لا يَختلف عن ظَنّه بِمَن ذهب، فيقول:

خَلِيفَةٌ مات لم يَحْزَنْ له أَحَدُ ... وآخَرُ قام لم يَفْرَحْ به أَحَدُ

ويَقْتُل الواثقُ واحداً من الخارجين عليه، ويَفْصِل رَأْسَه عن جسده فيَنْصِبُه ببغداد، ويَنْصِب جَسده بِسُرَّ مَن رأى، وكان هذا الخارجُ على الواثق خُزَاعِيًّا من قوم دِعْبِل، وكان على رَأْيه، وهو أحمد بن نَصْر بن مالك الخُزَاعِيّ، فيُطْلِقُ دِعْبِلٌ في الواثق لِسَانَه، يُريد أن يُثِيرُ قومَه خُزَاعَةَ عليه، فيقول:

بَني مالكٍ صُونُوا الجُفُونَ عن الكَرَى ... ولا تَرْقُدُوا بعد ابْنِ نَصْرِ بن مالِكِ
وسُلُّوا من الأجفان كُلَّ مُهَنَّدِ ... بَصِيرٍ بِضَرْبٍ للطُّلَى مُتَدَارِكِ

وكما شَنَّها دِعْبِلٌ حَرْباً على هؤلاء الخُلفاء الأربعة: الرشيد، والمأمون،

والمُعتصم، والواثق، شَنَّها حَرْباً على خامِسهم، وهو المُتوكِّل، فقال:

ولستُ بقـائـلٍ قَـذَعـاً ولكنْ    لأمـرٍ مـا تـعبَّـدك الـعَبِيـدُ

ألم يَكُن في مَقدور دِعْبِل، وكان شاعراً فَحْلاً، أن يعيشَ في ظِلّ هؤلاء الخُلفاء الخمسة، وكانوا فيه راغبين، فَيَنْعم برضاهم وعَطائهم، ولكنّه كان صاحِبَ رأيٍ آثر أن يَعِيشَ له مَحْروماً، وكان مما كان من شعره هذا الذي ذَهب الناقدون له على أنّه هَجّاء، وما كان هَجَّاءً فيما أرى، ولكنه كان أقل مما ينفَث به مكْبوت عن نفسه.

أمّا من هجاهم دِعْبِل بعد هؤلاء، من رجال الخُلفاء الذين سَمَّيْتُهم لك قَبْلُ، فالدَّوافع هي الدَّوافع.

وحَسبي وحَسْبك أن تَخُصّ منهم رجلين:

أولهما: المُطَّلب الخُزاعيّ، وهو من قوم دِعْبِل، مَدحه دِعْبِلٌ مرةً واحدة، لهذه الرابطة القَبَلِيّة، فقال:

سـألتُ النَّدَى لا عُـدِمْتُ النَّـدَى    وقـد كـان مِنَّـا زمانـاً غَـرَبْ

فـقـال بَـلى لـم أَزَل غـائِبـاً    ولـكنْ قَـدِمْـتُ مـع المُـطَّلِبْ

ورثاه حين مات لهذه الرابطة القبليّة أيضاً، فقال:

أَضْحَى قِـرًى للمَنَـايَـا إذ نَـزَلْنَ بـه    وكـان في سـالِف الأيـام يَـقْـرِيهَـا

وبين هـذا وذاك كلماتٌ كثيرة هَجَاه بها حين رأى مَيْلَه مع خُصومه، فقال يُحَذِّره إياه منهم:

أَمُـطَّلِبٌ أنـت مُـسْتَـعْـذِبٌ    هُـمَـاتِ الأفـاعِي ومُـسْتَقْبِـلُ

فـإنْ أشْفِ مِنْـكَ تَـكُنْ سُبَّـةً    وإن أَعْفُ عنـك فـمـا تَفْـعَـلُ

وثانيهما: مالك بن طوق التَّغْلبيّ، وكان دِعبل قَصده مرةً فحجبه الحاجبُ، فقال:

لَعَمْـرِي لَئِنْ حَجَبَتْنِي الـعَبِيـدُ    لَمَـا حَجبتْ دونـك الـقـافِيَـه

وما أُنْكِر بعد هذا أنّ دِعْبِلًا كان قليلًا ما يُسِفّ في هجائه، وهذا ما لا نُبيحه لشاعر، كما لا أُحب أن أُخْتِم حديثي عن دعبل قبل أن أَسُوقَ لك شيئاً مما قاله في عليٍّ بن موسى الرضا، يقول:

كَأَنَّ سِنَانَه أبداً ضَمِيرٌ　　فليس له عن القَلْبِ آنْقِلَابُ
وصارِمُهُ كَبَيْعَتِه بخُمٍّ　　فموضعُها من الناس الرِّقابُ

ويقول:

ولو كنتُ أملك عنك الدِّفَاعَ　　دَفَعْتُ ولكنَّني أُغْلَبُ

ويقول في رثائه:

يا حسرةً تتردَّدْ　　وعَبْرَةً ليس تَنْفَدْ
عَلَى عَلِيّ بن مُوسى بـ　　ـنِ جَعْفَرَ بنِ مُحَمَّدْ

ويقول: يَنْعَى على العبّاسيين ما فعلوه به:

أيا عَجَباً منهمْ يُسَمُّونك الرِّضَا　　ويلقاك منهم كَلْحَةٌ وغُضُونُ

هذه صفحة دعبل. أتُراك بعد أن قرأتَها معي من ألفها إلى يائها، على رأي من دانوا دِعْبلاً، أم أنت معي من المُنصفين له[1].

* * *

ومنهم: **عليُّ بنُ الجَهْم (٨٦٣ م - ٢٤٩ هـ).**

لا أدري أَعَنْ رأيٍ كان عليُّ بن الجَهم خَصْماً لآل أبي طالب، أم عن إِحْنَة حَملها لعليّ بن أبي طالب، لِمَا كان مِن عامله مَصْقَلَة بنِ هُبيرة مع أهله، أم عن زُلْفَى للعبّاسيّين؟

وأكبرُ الظَّنّ أن هذه الخُصومة لتلك الإحْنة وذلك الرِّياء لا للرَّأي.

ولقد سَبقه إلى مثلها مروانُ بن أبي حَفصة، وقَفَّى على إثره حَفِيدُه مروانُ بن أبي الجَنُوب.

---

(١) الأغاني - تاريخ بغداد - الشعر والشعراء - وفيات الأعيان - الديوان.

والـذي يُعزِّز ظنّي هـذا أنَّ شِعْر الـرَّأي يَمْلِكُ الحُجَّة، وأنّ غَيْـرَه يقـوم على السِّباب والتَّشنيع، وهذا ما وجدنا عليه شِعْرَ عليٍّ حيث يقول:

ورَافِضَـةٍ تَقُـولُ بِشِعْبِ رَضْـوَى إمَـامٌ خَـابَ ذلـك مِن إمَـامِ

وردّ عليه البُحتريُّ فقال:

عَـلامَ هَجَـرْتَ مُجْتَهِـداً عليًّـا بِمَـا لَفَّـقـتَ مـن كَـذِبٍ وزُورِ

والبُحتـريُّ في بَيْته هـذا يذكّـرنـا بمـا عُـرِف بـه ابن الجَهم من تَلْفيق وكـذب جَعلهما سَبِيلَه للإنفراد بالمتوكِّل، فكم لَفَّق وكم كذب ليُبغِّض للمتوكل رجالَـه. وثم ينكشف أمـرُه للمتوكِّـل فيأمـر بحَبسه بعـد أن قال فيـه: عليُّ بن الجَهم أكذبُ خَلْق الله.

وكم كَتب عليُّ بن الجَهم من حَبسه يَسْتنيب، فيقول:

تـوكَّلنـا عـلى رَبِّ الـسَّمَـاءِ وسَـلَّمنـا لأسبـاب الـقَـضَـاءِ

ويقول:

أَقِـلْنِي أقـالَـك مَـنْ لـم يَـزَلْ يَقِيـكَ ويَصْـرِفُ عنـك الـرَّدَى

ويقول:

قـالت حُبِسْتَ فقلتُ ليس بضـائِـري حَـبسـي وأي مُـهَـنَّـدٍ لا يـغْـمَـدُ

ويأمر المتوكل طاهرَ بن الحُسين بإطلاقه، فيقول:

أطـاهـرُ إنّي عن خُـراسـانَ راحِـلُ ومُسْتَخْبَـرٌ عـنهـا فـمـا أنـا قـائِـلُ

ثم إذا هو بعد خُروجه من الحَبس يلزم المَقابِر، ويُسأل عن هذا فيقول:

يَشْتَـاقُ كُـلُّ غَـرِيبٍ عنـد غُـرْبَتِـهِ ويـذكُـر الأَهْـل والجيـرانَ والـوَطَنَـا
ولَـيس لـي وطـنٌ أمسـيتُ أذكُـره إلا المَقـابِـرَ إذ صـارت لهم وَطَنَـا

وفيما بين هذا وذاك فلقد كانت لعليّ بن الجَهم أخبـار قليلة لا تُغْنِي شيئاً في تصوير حياته التي جعلها وَقْفاً على المتوكّل خارجَ السّجن وداخله[1].

* * *

---

(١) الأغاني ـ تاريخ بغداد ـ وفيات الأعيان ـ الديوان.

ومنهم: **الحُسَيْنُ بنُ الضحَّاك (٨٦٤ م - ٢٥٠ هـ).**

يُحدِّثنا الحسينُ عن نفسه فيقول: كنتُ أنا وأبو نواس تِربَين، نشأنا في مكان واحد، وتأدَّبنا بالبَصرة، ثم خَرج قبلي عن البصرة، وآتصل بي ما آل إليه أمرُه، فخرجتُ من البصرة إلى بغداد، ولقيت الناسَ ومدحتُهم، وأخذتُ جوائزَهم، وهذا كلُّه في أيام الرشيد، إلا أني لم أَصِلْ إليه، واتصلتُ بآبنه صالح، ثم آتصلتُ بمحمد آبن زُبيدة في أيّام أبيه وخدمتُه، ثم اتصلتْ خدمتي له في أيّام خلافته.

وأزيدك أنا على هذا أنّه بعد الأمين وصل حَبْله بالمأمون، ثم بالمُعتصم، ثم بالواثق، ثم بالمتوكِّل.

وعلى الرغم من أنه عايَش بعدالمتوكل المنتصر، ثم المُستعينَ. غير أننا لا نجد له أخباراً معهما، فلقد كان عندها قد هَدَّه الكِبَرُ فلم يترك فيه نَأْمَةً، إذ كان عمره عندها قد قارب المائة.

وكما عاش حُسَيْنٌ مع مَن كانوا قبل الخُلفاء من مَمدوحيه، عاش مع الخُلفاء، يُعْطِي شِعْراً ويأخذ أَجراً، ولكنّه كان في هذه التجارة أولَ الأمر غَيْرَ فطِنٍ، يَنْظُر لحاضره ولا ينظُر لِغَده، يظُنّ أن ممدوحه مُخَلَّد ما خُلِّد هو، يُطريه بما لا يدع له مَجَالاً لإطراء غيره.

فلقد أفرغ ما عِنْده في مَمدوحه الأول الأمين. وهذا حين قال:

هلاَّ بَقِيتَ لِسَدِّ فاقَتنا ... أبداً وكان لغيرك التَّلَفُ
فلقد خَلَفْتَ خلائفاً سَلَفُوا ... ولسوف يُعْوِزُ بعدك الخَلَفُ

ويَقْتُلُ الأمينُ فيرثيه ويقول:

أطِلْ حَزَناً وآبْكِ الإمَامَ مُحمَّدَا ... بِحُزْنٍ وإن خِفْتَ الحُسَامَ المُهَنَّدَا
فلا تَمَّت الأشياءُ بعد مُحَمَّد ... ولا زال شَمْل المُلْك منها مُبَدَّدَا
ولا فَرِحَ المأمونُ بالمُلْك بعده ... ولا زال في الدُّنْيا طريداً مُشَرَّدَا

ويُدْرِك زَمِيلٌ للحُسين، هو أبو العتاهية، أنّ هذا التفاني في الوَفاء لا وُجُودَ له

في سُوق البَيع والشِّراء، إلا إذا كان هذا المُتفاني في غِنًى عمّا في أيدي الناس.

ويَجلس أبو العتاهية إلى الحُسين ويقول له: يا حُسين، أنا إليك مائل، ولك مُحِبّ، وقد علمتُ مكانَك من الأمين، وإنه لحقيق بأن تَرْثِيَه، إلاّ أنك قد أطلقت لسانك من التلهُّف عليه والتوجّع له بما صار هِجَاءً لغيره وثَلْباً له، وتحريضاً عليه، وهذا المأمونُ مُنْصَبٌّ إلى العراق قد أقبل عليك، فأَبْقِ على نفسك، اكْفُفْ غَرْبَ لسانك، واطْوِ ما انتشر عنك، وتَلاَفَ ما فَرَطَ منك.

وهنا يقول حُسَين: فعلمت أنه نصحني فجزيتُه الخير، وقطعتُ القول، فنجوتُ برأيه.

ولو كان حُسَين في غِنًى عما في أَيْدِي الناس ما فعلها، ولو كان أبو العتاهية يدري أن شعر حُسَين عن وفاءٍ ما قالها.

ويُسْتَعِدُّ حسين للقاء جديد، فيدبِّرُ له، وكان هذا اللقاء الجديد، هو لقاؤه للمأمون الذي طالما ناله بلسانه، فيقول له:

رَأى الله عبدَ الله خيرَ عِبَادِهِ ... فملَّكه والله أَعْلَمُ بالعَبْدِ
أَلاَ إنّما المأمونُ للناس عِصْمَةٌ ... مميِّزة بين الضَّلالة والرُّشْدِ

والحُسين الذي يقول هذا هو الذي قال للأمين من قبل في تلك الحرب التي قُتِل فيها:

أمينَ الله ثِقْ بالـلَّـ ... ـه تُعْطَ العِزَّ والنُّصْرَهْ
ولِلمُرَّاقِ أعْدائـ ... ـكَ يومَ السّوء والدَّبْرَهْ

ويُحْضِرُه المأمونُ بين يديه بَعْدَ لأيٍ ويذكِّره بما قال، ممّا فيه نيلٌ من المأمون، فيقولها حُسين صريحةً: يا أمير المؤمنين، لوعةٌ غلبتني، ورَوعة فاجأتني، ونِعْمة فقدتُها بعد أن غمرتني، وإحسان شكرتُه فأنطقني، وسيِّد فقدتُه فأقلقني.

وغير هذا كان أولى بِحُسَين لو كان الوفاءُ للرأي لا للمال هو الغالب.

وكان المأمونُ أَخْبَرَ بالشعراء، فلم يُدْنِ حُسَيْناً منه ليكون شاعرَه، ولكنه لم

يَحْبِس عنه ما يَطمع فيه، وهو العطاء، فأجراه عليه.

ويَمْضِي المأمونُ إلى رِحَاب الله، ويتطلّع إلى الخلافة، اثنان: العبّاس بن المأمون، والمُعتصم، ويخال حُسَين أولَ ما يخال أن الأمر للعبّاس، فيمدحه، وإذا الأمر يَؤول إلى المعتصم فينقلب هاجياً للعبّاس علّه يُرْضِي المُعتصم، وكان قد فَرَّ منه لما بلغه أنه غاضب عليه، ويقول:

ضَلَّ اللَّعِينُ وما آكتسبْ لا زال مُنْقَطِع السَّبَبْ

ثم يُقْبِل حُسَين على المُعتصم لمّا وَلِي فيمدحه ويقول:

وافتْه في الشهر الحرام سَلِيمةً من كُلِّ مُشْكِلة وكُلِّ شِقَاقِ

فيأمر له المُعتصم لكل بيت بألف درهم.

وبَقي حُسَين موصولاً بالمعتصم يمدحه، وينال على مديحه إياه كلَّ الذي يرجو، وفوق الذي يرجو.

ويَمضي المعتصمُ ويلي آبنُه الواثق، فيدخل عليه مادحاً مهنِّئاً فيقول:

أَلَمْ يَرُعِ الإسلامَ موتُ نَصِيرِهِ بلى حَقّ أنْ يرتاع مَن مات ناصِرُهْ
وما قَدَّمِ الرحمنُ إلاّ مُقَدَّماً مَوَارِدُهُ مَحْمودةٌ ومَصادِرُهْ

فيأمر له الواثقُ بمثل ما أَمر به أبوه من قبل، لكُلّ بيت ألف درهم.

وبَقي حُسَين موصولاً بالواثق حياتَه كلَّها يقول وينال، حتى مضى الواثق ووَلي المتوكل، وكان أسْخى يداً على حُسين، يقول في وصف مَجلس شراب للمتوكل:

سَقى الله عَيْشاً لم أَبِتْ فيه ليلةً من الدهر إلا من حَبِيبٍ على وَعْدِ

فيأمر له المتوكل لكل بيت بمائة دينار.

في ظِلّ هذا السخاء من الخلفاء عاش الحسين كما شاء، يأخُذ بيد ويُنْفِق بيد، فلقد أفسح لنفسه في الخَمر والهوى، حتى قيل له: الخَلِيع.

وما أُحِبّ أن أَسُوق لك من شِعره في الخَمر والهوى، فهذا شيء أَلِفْناه على

أَلْسنة الشعراء، الذين أحبوا أن يُنافسوا الخُلفاء في بَعض ما يفعلون.

ولعلّ فيما يُحدِّثنا به حُسين عن نفسه مما يُصوِّر لك حياته، يقول حُسَيْن:

ضَربني الرشيدُ في خلافته لصُحْبَتي ولده، وضَربني الأمينُ لمُمَايلة ابنه عبد الله، ثم ضربني المأمون لِمَيْلِي إلى محمد، ثم ضربني المُعتصم لمودّة كانت بيني وبين العباس ابن المأمون، ثم ضربني الواثق لشيء بَلغه مِن ذهابي إلى المتوكل، ثم أحضرني المتوكِّل وأمر شَفِيعاً بالوَلع بي.

وحين يبلغ حُسين أرذلَ العمر، ويُحس أنه مودِّع، يقول:

أصبحتُ من أُسَراء الله مُحْتَبَساً  في الأرض نحو قَضاء الله والقَدَرِ

هذه حياةُ شاعر. كانت كلّها خالصةً له، ليس للوجود من حوله منها نَصِيب[1].

* * *

ومنهم: آبنُ الرُّوميّ عليُّ بن العباس (٨٩٦ م - ٢٨٣ هـ).

لعلَّ ما قاله المَرْزُبانِيُّ في وصف آبن الرُّوميّ يكاد لا يُرَدُّ عليه، فما من قارىءٍ مُنْصِف قرأ شِعْرَ آبن الرومي إلا وشارك المرزبانيَّ في حُكمه.

وإخالك بعد هذا تُحب أن تعرف ما قاله المَرزبانيُّ.

يقول المَرزبانيّ: هو في الهجاء مُقَدَّم، لا يلحقه فيه أحد من أهل عصره، غَزَارةَ قول، وخُبْث منطق.

ويَمضي المَرْزُبَانِيّ فيقول: ولا أعلم أنه مدح أحداً من رَئِيس أو مرؤوس إلاّ وعاد عليه فهجاه.

وأضيف أنا إلى هذا الحُكم الذي حكم به المَرْزُبَانِيّ على آبن الرُّوميّ جديداً:

---

(١) الأغاني - تاريخ بغداد - طبقات آبن المعتز - معجم الأدباء - ديوانه.

فآبن الرومي كان لا يرى جُود مَن جاد تفضُّلاً مِنْه، بل كان يـراه حقًّا لـه على الممدوح، فما أَغْلَى ما يُعطي المادح وما أَرْخص ما يُعطي الممدوح.

مِن هنا جاء هِجاء آبن الرُّوميّ عن مَدح قبلُ، وعلى الـرغم من أن هذا حَبَس عنـه الكثيرَ ممـا كان يَـطمع فيـه، ولكن حَسْبه أن يَبْـدُوَ أنّه الأَقْـوَى، وأنّ نَفْسـه لم تَرْخُص، وأنّ لِسانه لم يُسْتَعْبَد.

يكشف لك عن هذا قولُه:

الـمُنْعِمُـون ومـا مَنُّـوا عـلى أَحَـدٍ يـومَ العَطاء ولـو مَنُّوا لَمَـا مـانُـوا
كم ضَنَّ بـالـمـال أقـوامٌ وعِنـدهـمُ وَفْـرٌ، وأَعْـطَى العـطايا وهـو يَـدَّانُ

ثم آقرأ قولَه فيما يكون عليه مَدْحُ المادح:

وإذا آمـرؤٌ مـدح آمـرأً لِنَـوالِـهِ وأطـال فيـه فقـد أراد هِجـاءَهُ

ثم آقرأ قولَه، وقد سأل أحدَ الرؤساء شيئاً وهو لا يتـوقع منـه أن يُعطيـه، وإذا هذا الرئيسُ يُخْلِف ظنَّ آبن الروميّ ويُرسل إليه ما سألـه إياه، ولكنّ آبن الـروميّ لا يَكْتُمه ما راوده عنه ويقول له:

سـألتُـك في أَمْـرٍ فَجُـدْتَ بِبَـذْلِـه عـلى أنّني مـا خِلْتُ أنّـك تَـفْـعَـلُ
وأَلْـزَمْـتَني بـالبَـذْلِ شُـكْـراً وإنّـه عليَّ من الـحِـرْمـان أَدْهَى وأَعْـضَـلُ
ومـا خِلْتُ أنّ الـدهـرَ يَثْني بصَـرْفِـهِ إلَى أن أَرَى في النـاس مِثْلَك يُسْـأَلُ
لئن سَـرَّني مـا نِلْتُ منـك فـإنّني لـقـد سـاءني إذ أنت مِمّـن يُـؤَمَّـلُ

هذا هو آبنُ الـرومي الذي رأى نَفْسـه المُتَفَضِّلَ لا المُتَفَضَّـل عليه، وأنـه مَن يَجود لا من يُجاد عليه، ولو أن الزمن رَزق ابنَ الرُّومي ما يَحْيا به ما مَدَح ولا هجا، ولعـاش للحياة يُعْطِي، وكان أقدَر ما يكـون على أن يُعْطِيَ، يتجلّى لـك هـذا في إيمانه بوطنه حيثُ يقول:

ولـي وَطَـنٌ آلَـيْـتُ ألاَّ أَبِـيـعَـه وألاّ أَرَى غيـري لـه الـدهـرَ مـالِكَـا
وقـد أَلِـفَـتْـه الـنفسُ حـتـى كـأنّـه لهـا جَسَـدٌ إنْ غـاب غُـودِرْتُ هـالِكَـا

وغادر ابنُ الرومي الحياةَ بعد أن ضرب المثل الصادقَ للشُّعراء في أنهم هم المتفضلون. وما ناله الممدوحون أبْقَى مما نالوه هم، وما كان أَولى الممدوحين أن يَقِفُوا على أبواب الشعراء، لا أن يقف الشعراء على أبوابهم، وما أذلَّه مِن موقف[1].

* * *

### ومنهم: البُحْتَرِيّ الوليدُ بن عُبَيْد (٨٩٨ م - ٢٨٤ هـ).

سُئِل أبو العلاء المَعْرِّيّ: أيّ الثلاثة أشعر، أبو تمام، أم البحتري، أم المتنبي؟ فقال: حكيمان - يعني أبا تمّام والمُتنبِّي - والشاعر البُحْتُرِيّ.

ولْنَعُدْ إلى الوراء قليلاً لتعرف كيف بدأ هذا الشاعر الفَحْلُ حياتَه، ولْنَتْرُكْ الحديثَ عن هذا للبُحْتريّ نفسه، فهو به أولى، يقول البُحتريُّ:

أَوَّلُ أمري في الشِّعر ونَباهتي فيه أنِّي صِرْتُ إلى أبي تمّام، وهو بحِمْص، فعرضتُ عليه شِعْري، فقال لي: أنت أشعرُ مَن أنشدني، فكيف حالُك؟ فشكوت خَلَّةً، فكتب إلى أهل مَعَرَّة النُّعمان كتاباً قال فيه: كتابِي هذا على يَد الوليد أبي عُبَادة الطائيّ، وهو على بَذَاءَته شاعر، فأكْرِمُوه.

وكان ما أُوصى به أبو تمام البحتريَّ قولَه له: آمتدحهم.

ويَمضي البُحتريّ في حديثه فيقول: فَصِرْتُ إليهم فأكرموني بكتابه، ووَظَّفُوا لي أَربعةَ آلاف درهم.

وأُحِبّ أن أعود بك إلى ما قبل هذا بقليل، لِتَعْرِفَ شيئاً عن نشأته، وسوف أترك الحديثَ عن هذه لِرَجُلٍ من أهل مَنْبج، حيثُ وُلِد البحتريّ ونشأ، يقول: رأيتُ البُحتريّ قبل أن يَخْرُجَ إلى العراق، يَمدح أصحاب البَصل والباذَنْجان، ويُنشد الشِّعْرَ في ذَهابه ومَجيئه.

ونَخْطُو مع البُحتريّ بعد أن شبّ ودبّ، وأصبح ذا لِسَانٍ يُرْغَبُ فيه إن مَدَح،

(١) تاريخ بغداد - معجم الشعراء للمرزباني - وفيات الأعيان - الديوان.

ويُخاف منه إن هجا، يَضُمّ إليه غلاماً روميًا، يجعله باباً من أبواب الحِيَل على الناس، فكان يَبيعه، ويعتمد أن يُصَيِّره إلى مِلْكِ بعض أهل المروءات، ومن يَنْفَق عنده الأدب، فإذا حصل في مِلْكِه شَبَّب به، وتَشَوَّقه ومَدح مولاه، حتى يَهبه له، ولم يَزَلْ ذلك دأبَ البحتريّ حياتَه إلى أن مات هذا الغُلام، وكان يُدْعَى نَسِيماً.

وهكذا مدح فأكثر حتى أكاد أقول: إنه لم يترك إنساناً يُرْجَى منه بِرٌّ وأَجْر إلاّ مَدَحه.

ولقد هجا فأكثر، حتى أكاد أقول: إنه لم يترك إنساناً تخلَّف عن بِرِّه إلاّ هجاه.

ولقد تَغَزَّل في نَسِيم مرةً، وفي نَصْر أُخرى، وفي عَلوة صاحبته، فأكثر.

وما بعد هذه الثلاث فشذرات لا تُمَثِّل رأياً.

لقد مَدح البحتريُّ ما يُرْبي على المائتين بكثير، وكان من بين هؤلاء الممدوحين من أشبعهم مدحاً، مثل: إبراهيم بن الحسن بن سهل، وإبراهيم بن المُدَبِّر، وأحمد بن محمد الطائي، وأحمد بن المُدَبِّر، وإسماعيل بن بُلْبل، وابن بِسْطام، وآبن ثَوابة، والحَسن بن مَخْلد، والحسن بن وَهْب. وصاعد بن مَخْلد. وعبد الله بن يَحيى بن خاقان، والعَلاء بن ساعد بن مَخلد، والفَتْح بن خاقان.

ومَدح من الخلفاء: المتوكّل، والمستعين، والمعتز، والمُعتمد.

ولا أُحِبّ أن أطيل عليك وأُثقل بذكر نماذج للبحتريّ مما مدح به هؤلاء، وأجتزىء من مديحه بما يُفْصح لك عن غايته من هذا المديح.

ويتجلّى لك هذا في قوله لمحمد بن نَصر بن بسّام مادِحاً:

رأيتُك تَهوَى آقتناءَ المَدِيـ ... ـح وتَجْهل مقدار إيجابِهِ

وكيف تُرَجّي وُصولاً إليـ ... ـه ولم تتوصَّل بأَسْبَابِهِ

كما يتجلّى لك هنا فيما كان بينه وبين محمَّد بن داود السِّيبي بعد مَقتل المتوكل.

وكان المتوكل، قبل أن يُقْتَل، قد كتب إلى أحمد بن داود السِّيبي وزيره، بإعطاء البُحتريّ عشرين ألف درهم، فآنتهزها السِّيبيُّ فرصةً بعد مَقتل المتوكل، وطَمِع في المال، فآستعان البحتري على السِّيبيّ بالحَسن بن مَخلد، وأخذ يمدح الحَسن ويهجو السِّيبيّ، وما زال بهما حتى أخذ المالَ كُلَّه، يقول:

أَمُطْلِقٌ مِن يَد السِّيبيّ أنت فقد كَلَّتْ لَدَيْه رِكَابُ الطالِب الطُّلُحُ
إذا طَلَبْنا بِلِينِ القول غِرَّتَهُ ظَلْنَا نُعالج قُفْلاً ليس يَنْفَتِحُ

وكذا يَتَجلّى لك هنا في سؤاله ابن شُجاع أن يُرْسِلَ إليه نَبيذاً:

غداً يَحْرُمُ الماءُ القَراحُ وتَنْتَوي وُجوهٌ من اللّذات مُشْجِيَةِ الفَقْدِ
أعِنَّا على يَوْمٍ تُشَيِّعُ لَهْوَنَا إلى ليلةٍ فيها له أَجَلٌ مُرْدِ

وكذا يتجلّى لك هذا في سُؤاله آبنة حُمَيد الطُّوسي كِسَاءً مع دُخول الشتاء:

جُعِلْتُ فِداءك مِن كُلِّ سُوءٍ أتانِي الشِّتاء بِقُرٍّ شَدِيدِ
ولي حُرْمَةٌ حَقُّها واجِبٌ بِعَمِّي حُمَيْدِ بن عَبْد الحَمِيدِ

هذا عن تَبَذُّل البُحتريّ في السُّؤال وهو ممَّا يُعَدُّ عليه.

وثاني ما يُعَدُّ عليه هِجاؤه لمن مَدَح، لا لشيء إلّا لتخلُّف في العَطاء.

يقول في هجاء صَاعد، وكان قَعد عن إسعافه، وهو الذي مَدحه البُحتريُّ فاكثر:

قالتْ أَشَدْتَ بكُلِّ ما أَخْفَيْتَه والصَّبُّ في حُكْم الصَّبَابة جاحِدُ
فلأسْكُتَنَّ فلا أبوح بِسِرِّكم حتى كأنِّي في سُكوتي صاعِدُ

ويقول يَهجو ابنَ بِسْطَام لمثلها، وما أكثر ما مدحه:

لله دَرُّكَ قد أَكْمَلْتَ أربعةً ما هُنَّ في أَحَدٍ من سائر البَشَرِ
العِرْضُ مُمْتَهَنٌ والنفسُ ساقطةٌ والوجهُ من سَفَنٍ والعينُ من حَجَرِ

السفن: الجلد الخشن.

ويهجو العَلاء بنَ صاعد بمثلها، وكان قد مَدحه فأكثر، فيقول:

لِلْعَلاء بنِ صاعدٍ فيَّ مَدْحُ وثناءٌ مُجاوِزُ المِقْدارِ

بـاذلٌ بِشْـرَه ضَنِينٌ بـمـا يَحْـ ـوِيـه مـن دِرْهـم ومِـن ديـنـارِ

ويهجو ٱبن ثَوَابة مثلها، وما أكثر ما مدحه، فيقول:

تَـرَوْنَ بُـلُوغَ الـمَـجْـدِ أنّ ثـيـابَـكُـمْ يَـلُوحُ عليـكم حُـسْنُـهـا وبَصِـيصُـهَـا
ولـيس الـعُـلَا دُرَّاعَـةٌ ورِدَاؤُهـا ولا جُـبَّـةٌ مـوشـيّـة وقَـمـيـصُـهـا

ويهجو أبا الصقر إسماعيل بن بُلْبل بمثلها، وما أعجزني عن أن أُحْصِي لك مدائحَه فيه، فيقول:

لأبِـي الـصَّـقْـرِ دَوْلَـةٌ مِـثْـلُه فـي الـتـخـلُّفِ
مُـزْنَـةٌ حين خَـيَّـلَتْ آذَنَـتْ بـالـتـكـشُّـفِ

وما هذا ومثله بضريب على شاعر عَرف المالَ قبل أن يعرف الممدوح.

وأنت بهذا الذي سُقته تكون قد عرفت البُحتريّ مادحاً وهاجياً، فما مـدح إلا للمال، ولا هجا إلا للمال..

ثم هو في غزله صانِع، حتّى في غَزله الشاذّ.

ألا تَرَى معي بعد هـذا كيف بُدِّدَتْ هـذه الطاقـة الكبيرة هَبَـاءً، ولم نَجْنِ من ورائها غير ما يُرْضِي المُتَهافتين على الكلمة الجَيِّدة، وإن كانت جَوفاء لا تمثِّل غير تلك الصورة التي تقع عليها عَيني وعَيْنُك، فتأنس بجمالهـا صامتين، ومـا يفعل بنـا قولُ هذا الواصف لها غيرَ أن يُحَرِّك منّا ما كان صامتاً[1].

* * *

## ومنهم: عبدُ الله بن المُعْتَزّ (٩٠٩م ـ ٢٩٦ هـ).

إذا أردت أن تكون في الحُكْم على ٱبن المعتز شاعراً، مع العدل، وبَعِيـداً عن الحَيف، فٱعرف أوَّلاً كيف بـدأ هذا الشـاعرَ حيـاتَه، وكيف مَضى فيهـا، وكيف خَرج عنها.

فعبدُ الله، ابنٌ لأمير المؤمنين المُعتزّ بالله محمد بن جعفر المتوكِّل على الله.

---

(١) وفيات الأعيان ـ الديوان.

وكـان جدُّه المتـوكّل حين آلت إليـه إمرة المؤمنين جَعـل ولايةَ العهـد لأولاده الثلاثة: المُنتصر، ثم المعتزّ، ثم المؤيَّد.

وكان المتوكِّل أقْسَى ما يكون على آبنه المُنتصر حياتَـه، فإذا هـذا الابن يَعْزِمُ على قَتـل أبيـه، ويَجِـد من يُعِينـه على هـذه من المَـوَالي، وتَمَّ لـه مـا أراد، وقُتِـل المتوكِّلُ سنة سبع وأربعين ومائتين (٢٤٧ هـ).

وكان المعتز عندها آبنَ خمسةَ عشرَ عـاماً، تـزيد أو تنقص قليـلاً، فلقد كـان مولده قبل مَقتل أبيه بأشهر، على حين كان المُنتصر ابنَ خمسةٍ وعشرين عاماً.

ويَلِي المنتصرُ الخلافةَ فيَخْلَع أخويه: المُعتزّ، والمؤيَّد، من وِلاية العهد.

وبالكأس التي سَقى المنتصرُ بها أباه سُقِيَ هو، وإن اختلف الأمرُ شيئاً، فلقد مات مَسْمُوماً، وما جَلس على كرسيّ الخلافة غيرَ ستّة أشهر وأيّاماً.

ويَلِي الخلافة بعد موت المُنتصر المُستعينُ.

غيرَ أن الأتراك اتّفقوا حول المعتزّ وبايعـوه، وتَهِيج الحـربُ بين رجال المُعتَـزّ ورجال المُستعين، ويَضع المستعينُ نهايةً لهذه الحَرب، فينزل عن الخِلافة للمُعتزّ، بعد أن عاش خليفةً ثلاثَ سنين وأشْهُراً.

ويلي المُعتزُّ الخلافـةَ سنة إحـدى وخمسين ومائتين (٢٥١ هـ)، وهـو عندهـا فتًى أشْـرَفَ على العِشرين، ويَثُـور به قُـوَّادُه بعد سِنينَ ثـلاثٍ من خلافتـه وأشْهُـرٍ. ويَقتلونـه، وكان هـذا في سنة خمس وخمسين ومـائتين (٢٥٥ هـ) وكان عنـدها فتًى في الثالثة والعشرين من عُمره.

وفي السنة التي قُتل فيها المتوكِّل، وهي سنة سبع وأربعين ومائتين (٢٤٧ هـ) كان مولدُ عبد الله بن المُعتزّ، وكان عند مَقتل أبيه المعتزّ فتًى في الثـامنة أو التـاسعة من عُمره.

وعــاصـر الفتَى من الخُلفــاء المُهتـديَ، ثم المُعْتَمِـد، ثم المُعْتَضِــد، ثم المُكْتَفِي، ثم المُقْتَـدِر، الذي وَلِيَ الخـلافة سنـة خمس وتسعين ومائتين (٢٩٥ هـ)

ثلاث عشرةَ ليلةً خَلت من ذي القعدة.

وبعد أشهر أربعة من خِلافته أَجْمع الكُتَّاب والقُوَّاد على خَلعه والبَيْعة لعبد الله ابن المعتزّ يومَ السبت للنّصف الثاني من شَهر ربيع سنة ست وتسعين ومائتين(٢٩٦ هـ).

وما مَضت على مُبايعة آبن المعتزّ ليلةٌ حتى ثار به الثائرون فقَتلوه، وكان آبْنُ المعتزّ عندها قد أَشرف على الخمسين.

هنا عن الحَياة التي أظلَّت آبنَ المعتزّ، منذ أن نُشِقَ أوَّل نَسْمةً إلى أن لَفظ آخرَ نَسمة، ولم يَبْقَ إلّا أن نَعرض بين يديك شِعْرَه.

يقول في وصف الخمر:

فَهَاكَ عُقَاراً في قَمِيص زُجَاجَةٍ ... كيَاقُوتَةٍ في دُرَّةٍ تتوقَّدُ
يصوغ عليها الماء أَشْبَاكَ فِضَّةٍ ... له حَلَقُ بِيضٌ تُحَلُّ وتُعْقَدُ

ويقول يصف ليلةً لاهية:

ومُقَرْطَقٍ يَسْعَى إلى النُّدَماء ... بعَقِيقَةٍ في دُرَّةٍ بَيْضَاءِ
كم لَيْلَةٍ قد سَرَّني بِمَبِيتِهِ ... عِندي بلا خَوْفٍ من الرُّقَباء
حَرَّكْتُه بيدي وقلتُ له آنْتَبِهْ ... يا فَرحة الخُلَطاء والنُّدَماءِ
فأَجَابَنِي والسُّكْرُ يَخْفِضُ صَوْتَه ... بِتَلَجْلُجٍ كتَلَجْلُجِ الفَأْفَاءِ
دَعْنِي أُفِيقُ من الخُمَارِ إلى غدٍ ... وآحْكُمْ بما تَختار يا مولائِي

ويقول يصف هَوًى له:

وجَاءَنِي في قَمِيص اللَّيْلِ مُسْتَتِراً ... يَستعجلُ الخَطْوَ من خَوْفٍ ومن حَذَرِ
وكان ما كان ممّا لستُ أَذْكُره ... فظُنَّ خَيراً ولا تَسأل عن الخَبَرِ

ويقول في غُلام له كان يُحِبّه، جُدِرَ ثم شُفِي ولم يُؤَثِّر الجُدَرِيّ في وجهه، وكان هذا مُغنِّياً:

لي قَمَرٌ جُدِّرَ لمّا آسْتَوَى ... فزاده حُسْناً فزادت هُمُومْ
أَظُنّه غنَّى لِشَمس الضُّحى ... فنقَّطَته طَرَباً بالنُّجُومْ

ويَغضب عليه هذا الغلام فيقول يترضّاه:

بأبي أنتَ قد تَمَا دَيْتَ في الهَجْرِ والغَضَبْ
لَيس لي إنْ فَقَدْتُ وَجْـ ـهَكَ في العَيش مِن أَرَبْ

وكان يُحب مُغنِّية فآنقطعت عنه، فقال:

لَيت شِعري بِمن تَشَاغَلْتِ بَعْدي وهو لا شَكّ جاهل مَغْرُورُ
هكذا كُنْتِ مِثْلَه في سُرُورٍ وغداً في الهُموم مثلي يَصِيرُ

وعاتبه صديقٌ له على شَغفه بمغنِّية قبيحة الوجه، فقال:

قَلْبِيَ وثَّابٌ إلى ذا وذا ليس يَرى شيئاً فَيَأْبَاهُ
يَهِيمُ بالحُسن كما يَنبغي ويَرْحم القُبْح فيَهْواه

وهوِي في شبابه مغنِّية كانت تُنادمه على النَّبيذ، ثم أقلعت عن هذا وتركته، فقال:

رأيتُك قد أَظْهَرْتِ زُهْداً وتَوْبَةً فقد سَمُجت من بعد تَوْبتك الخَمْرُ

ويُفيق آبن المعتزّ من لهوه مع آخر أيامه، فيقول، وبينه وبين القَتل خُطوات:

وقُلْ للشّامِتين بنا رُوَيْداً أمامكُم المصائبُ والخُطُوبُ

ويُحِسّ في ليلته الأخيرة أنه لا شك مُوَدِّعٌ فيقول:

يا نَفْسُ صَبْراً لعلّ الخيرَ عُقْبَاكِ خانَتْكِ من بَعد طُول الصَّبْرِ دُنْيَاكِ
أظُنُّه آخرَ الأيام من عُمُري وأَوْشَك اليومَ أن يَبْكي لنا الباكِي

وهكذا تَرى أنّ آبن المُعتزّ، بعد الذي رَأَتْه عيناه من هذا الصِّرَاع الدَّامي على المُلك، لا يُشارك فيه من قُرْب أو مِن بُعد، من أجل هذا كان آنغماسُه في اللّهو، كي ينسى، وكي يَنسى الخائِفُون من وُثوبه أنه متطلِّع إلى مُلْك، ولولا أن أَرْغَمه المتمرِّدون على المُقتدر على أن ينزل إلى هذا الصراع ما نزل، وكان ما قُدِّر، فما إن نزل إليه حتى خرج منه محمولاً على الأعناق.

وكما لَهَا ابنُ المعتز لِيَنْسَى كذا آنْكَبّ على التأليف لِيَنْسَى، وأضاف إلى هذا ما هو أَقوى على أن يَصْرِفَه. فخالط المُغنِّين، وصنع لهم أصواتاً يُغَنُّون بها.

فـآبْنُ المُعتزّ عَبَّـر في شِعره عن هـذه الحيـاة الخـاصـة، حَسْبُـه أن يقـول مـا يُستجاد، وحسبه أن يَسمع له شِعْرٌ يُغَنَّى به، وحَسبه أن يرى بين يـديه هـذا التواليف الكثيرة[1].

* * *

ومـنـهـم: **أَبـو الـطَّيّب الـمُـتـنـبِّي أحـمـد بـن الـحُـسـيـن (٩٦٥ م ـ ٣٥٤ هـ).**

إن كنت تُحب أن تعرف المتنبِّي منذ أن دَخل الحياة إلى أن خرج من الحياة فاقرأها معي في هذه الكَلِمات القليلة.

ففي الكوفة نشأ المُتنبِّي وشبّ وتعلّم وقرأ.

حتى إذا ما بلغ السادسةَ عشرةَ من عمره خرج بـه أبوه إلى الشـام، وأخذ أبـو الـطيب يَختلف إلى بعض أمصـار الشـام يَمـدح من عَنَّ لـه أن يمـدحـه طَمَعـاً في جَدْواه، إذ لم يكن يَملك ما يقوم بأَوَدِه.

ويُغْـرَى هـذا الفتى، وهـو لا يـزال على أوّل الـطريق، بـآحتفـاء النـاس بـه وإطرائهم له، فيرفع نَفسه إلى صف الأنبياء.

هـذا شيء لا نَستطيـع أن نُثْبته أو أن نَنْفِيـه، ولكن الذي يُثْبِتـه قَبْضُ لؤلؤ أمير حمص عليه وسَجنه، ثم إطلاقه بعد أن آستتابه.

ويَخرج أبو الطيب من السّجن، يحمل لقباً جديداً، هو المتنبّي، أي المدَّعي النُّبوَّة.

وما أظن أبا الطيِّب كان راضياً بهذا اللقب، بل كان بَرِماً بـه أَشَدَّ البَـرَم، ممّا يَدُلُّك على أن الأمر كان بين آثنتين:

إما عن نزوة من نزوات الشباب لم يُمْلِها رأيٌ بل حرَّكها فيه هذا الـذي لَقِيَه من الناس من آحتفاء وإكبار.

---

(١) الأغاني ـ تاريخ بغداد ـ وفيات الأعيان ـ الديوان.

وإمّا أن تكون من كَيْدِ الكائدين له فلم يَجِدُوا أَجْدَى من أن يَصِمُوه بهذه الفِرْية ليُخْمِلُوه.

ولكن الذي أُعجب له كيف عاش أبو الطيب بعد أن اسْتُتِيب فتاب، وهو يحمل هذا اللَّقب إلى أن مات.

وآتصل أبو الطيب بسيف الدولة عبد الله بن أبي الهيجاء أمير حلب سنةَ سبع وثلاثين وثلاثمائة (٣٣٧ هـ). وهو عندها في الرابعة والثلاثين من عمره، فلقد كان مولد أبي الطيب في الثالثة بعد الثلاثمائة (٣٠٣ هـ).

وحظي أبو الطيب عند سيف الدولة، وكان أكبر شعرائه، وكادت مدائح أبي الطيب تُرْبي على الثلاثين بقليل.

وهذا الذي كِيدَ به لأبي الطيب أوّلاً كِيد به له ثانياً، عند سيف الدولة، ولكن كان شيئاً آخر غير آدعائه النبوة، فإذا سيف الدولة يتنكّر له، ويفارق أبو الطيب سيف الدولة سنة ست وأربعين وثلاثمائة (٣٤٦ هـ) بعد أن عاش في ظلّه ما يُرْبي على تسع سنين.

ويُحِسّ كافورُ الإخشيدي حاكمُ مِصْرَ حينذاك أنّه أفقرُ ما يكون إلى أن يَضُمَّ أبا الطيب إليه فيكتب إلى عامله بالرَّمْلة وكان أبو الطيب قد آختارها مقاماً ـ أن يَحْمِلَه إليه.

ونَزل أبو الطيب مِصْرَ، وكان ما رَجاه كافور من أبي الطيب، فلقد مَدحه أبو الطيب.

وبعد أعوام قليلة عاود أبا الطيب غُرورُه الأوّل، وبَدَلاً من أن يَدَّعِي النُّبوة طَلب أن يكون والياً على ولاية ما.

وهنا أَحَسّ كافورُ الخَطَر، فهذا الطامعُ اليومَ في ولايةٍ قد يَنقلب بعد قليلٍ طامعاً في مُلْكِ مِصر، فلم يُجِب المتنبيَ إلى ما طلب.

وخَرج المُتنبِّي عن مِصر، وبِقَدْر ما مَدح كافوراً هجاه.

وكان خُروجِ المُتنبِّي من مِصر سنة خمسين وثلاثمائة (٣٥٠ هـ)، أي بعد نَحْوٍ من سِنِينَ أربعَ قضاها في ظِلّ كافور.

وينتهي المَطاف بأبي الطَّيّب إلى أن يَنْزِلَ أَرَّجَانَ على أبي الفَضل بن العَمِيد، وَزِير رُكن الدولة آبن بُوَيه، بعد أن كتب له أبو الفضل يسْتَزِيرُه.

وحَظِي المُتنبِّي عنده، ثم خَرج من عنده قاصداً قَصْدَ بَغْدَادَ، ومعه من الأموال والنَّفائس الشيءُ الكثير.

وحين بَلغ المتنبِّي دَير العاقُول، وهو موضعٌ قريبٌ من بغداد، خَرج عليه جماعةٌ من البَدْو فقتلوه، وقَتلوا معه آبْنَه مُحَسَّداً، وغلاماً له يُدْعى مُفْلِحاً، وانتَهبوا كُلَّ ما كان معه، وكان هذا سنةَ أربع وخمسين وثلاثمائة (٣٥٤ هـ)، ولم يكن قد جاوز الخَمسين إلا بقَلِيل.

هذه هي دُنيا المتنبِّي، كما كانت كانَ، تُقْبِلُ عليه فيَشْكُر لها إقْبَالَها، وتُعْرِضُ عنه فيُشْبِعُها هجاءً.

وما مدح أبو الطيب الدُّنيا ولا هَجاها، وإنما مدح هؤلاء الذين أعانوه عليها، وحين قَبضوا أيديهم دُونه هَجاهم.

ولكنّ شيئاً كان أولى الأشياء جميعاً بأن يقولَ فيه المتنبِّي ويُكثر، وهو ما آستقبلتْه به الحياةُ، وما استقبل هو به الحياة، وهو دَعْوَى النُّبوّة.

فلقد سُجِن من أجلها، ولم يَقُل في هذا شيئاً.

وكان الذي سَجنه لُؤْلؤٌ أميرُ حِمْص، ولم يَعْرِضْ له أبو الطيِّب بقليلٍ أو كثير.

ثم إن هذه الدَّعْوَى التي حَمل لَقبها ما بالُه لم يَنْفِهَا إن كان حقًّا لم يَدَّعِها.

ثم شيء آخر لا يَقِلُّ عن الأول شأناً وهو ما كان بينه وبين أبي محمد المهلَّبِيّ، وزير مُعِزِّ الدولة بن بُوَيه، فلقد طَمِع هذا الوزيرُ في أن يكون من مَمْدوحي أبي الطيِّب، وأطمعه في هذه حين وجد أبا الطيّب قد آنصرف عن كافور وعاد إلى بغداد. ولكنّ أبا الطيب رأى غيرَ ما طَمع فيه هذا الوزير، ولم يَسْتَجِبْ لهُ

ولم يَمْدُحه، فأغْرَى به هذا الوزيرُ جماعةً من شُعراء العراق فعَرَّضُوا به.

فسكت أبو الطيب عن هؤلاء الشعراء، كما سَكَت عن هذا الوزير، فلم يذكره لا بِخَيْرٍ ولا بشرّ.

ونَستطيع أن نُعلّل سكوتَ أبي الطيّب في الأُولى بأنه رأى باباً من الشرّ قد فَتحه وأنّ عليه أن يُغْلِقَه.

كما نستطيع أن نُعلِّل الثانيةَ بأنها كبرياءُ أبي الطيّب التي دفعته إلى آدّعاء النبوة أولاً، لِيَرْفع بها من شأنه، وحين لم يُفلح فيها صَوَّرها على صُورة أُخرى، وهي تعاليه، هذا التَّعالي الذي يَجعل صاحبَه يتجاوز عن هَنَات من لم يَرْقَوْا إلى مُستواه.

وما بعد، فلقد مَدح أبو الطيب سيفَ الدولة حيت وَصل حَبْلَه بَحْبله، فقال فيه الكثير، وكان مما قال فيه:

فبُورِكْتَ مِنْ غَيْثٍ كأنَّ جُدُودَنا      به تُنْبِتُ الدِّيباج والوَشْيَ والعَصْبَا

وقال فيه:

فلا تَعْجَبَا إنّ السُّيُوفَ كثيرةٌ      ولكنَّ سَيْفَ الدولة اليومَ واحِدُ

وقال فيه:

أَنْت الذي بَجِحَ الزمانُ بِذِكْرِهِ      وتزيَّنت بحدِيثه الأَسْمَارُ

بَجِح: فَرِح.

وقال فيه:

إذا ظَفِرَت منك العُيونُ بنَظْرَةٍ      أَثَابَ بها مُعْيِي المَطِيّ ورازِمُهْ

وقال فيه، وكان هذا آخر ما قاله فيه:

لا تَطْلُبَنّ كريماً بعد رُؤيَتِهِ      إنْ الكِرَامَ بأَسْخاهم يداً خُتِمُوا

وقال فيه بعد أن كِيد له عنده، وخَرج عنه:

وكُلُّ وِدَادٍ لا يَدُومُ على الأَذَى      دَوَامَ وِدَادِي للحُسَيْنِ ضَعِيفُ

فـإنْ يَـكُـنِ الـفِـعْـلُ سـاءَ واحـداً	فـأفـعـالـه الـلاَّئي سَـرَرْن أُلُـوفُ

ويَبْدُو أنّ أبا الطيِّب كان يُدِين نفسَه فيما كان من تنكُّر سَيف الدولـة له، وأنّـه هو الذي أمكن الكائدين له مِن نفسه، لهـذا لم يَهْجُه هـذا الهجاءَ، الـذي هجا بـه كافُوراً، وهو ما ستقرؤه بعدَ قليل.

ويَنْزِل أبو الـطيّب مِصْرَ، وكـان كافـورٌ فيه راغبـاً، وهو الـذي كَتب إلى عامله بالرَّمْلة أن يَحْمِلَه إليه، كما ذكرتُ قبل.

وكان أوّلَ ما مدح به أبو الطيّب كافوراً قولُه من قصيدة له:

تَـرَعْـرَعَ الـمَلِكُ الأُستـاذُ مُكْتَهِـلاً	قَبْـلَ آكتهـالٍ أدِيبـاً قَبْـلَ تَـأْدِيبِ
يُـدَبِّـرُ المُلْكَ من مِصْـر إلـى عَـدَنٍ	إلى العِرَاقِ فأرضِ الـرُّوم فـالنُّـوبِ
أنـت الـحَـبِـيـبُ ولـكـنّـي أعُـوذُ بـه	مِن أن أكـونَ مُحِبًّـا غيـرَ مَـحْبُـوبِ

وقال فيه:

فـإنْ نِلْتُ مـا أَمَّلْتُ مـنـك فـرُبَّمـا	شَـرِبْتُ بمـاءٍ يُـعْجِـزُ الـطَّيْـرَ وِرْدُهُ
وَوَعْـدُكَ فِـعْـلٌ قَـبْـلَ وَعْـدٍ لأنَّـه	نَـظِيـرُ فَعَـالِ الصادق القَـوْلِ وَعْـدُهُ

وقال فيه:

لا خَيْـلَ عِنْـدَكَ تُـهْـدِيهـا ولا مَـالُ	فَلْيُسْعِـدْ النُّـطْقُ إن لم تُسْعِـدْ الحـالُ
وآجْـزِ الأميـرَ الـذي نُعْمـاه فـاجِئَـةٌ	بِغَيْـرِ قَـوْلٍ ونُعْمَـى النـاسِ أَقْـوَالُ

وقال فيه:

قـد آخْتَرْتُـكَ الأمْـلاكَ فـاخْتَـرْ لهم بِنَـا	حَـدِيثـاً وقـد حَكَّمْتُ رَأْيَـكَ فـآحْكُـمِ

الأملاك: أي من الأملاك. فحذف وأوصل الفعل.

فـأَحْسَنُ وَجْـهٍ في الـوَرَى وَجْـهُ مُحْسِنٍ	وأَيْـمَـنُ كَـفٍّ فـيـهـمُ كـفُّ مُـنْـعِـمِ

وإنك لتكاد تُحِسّ معي أنه ثَمَّة فَرْق بين مَدْح أبي الـطيِّب لِسَيف الدولـة وبين مَدحه لكافور، فأبو الطيّب كان يُؤمن بسيف الدولة سَيِّداً وبكافور نِدًّا، وإيمـانه هـذا بكافور هو الذي حَدَاه إلى أن يُشاركه مُلْكَه فيَلِي ولايةً، وأحسّ كافور ما وراءها فلم يُجِبه إلى ما طلب، وخَرج عن مصر هاجياً لكافور، وما عَهِدْنا من أبي الطيِّب هذا،

أو دون هذا، حين تَرك سَيف الدولة.

وكان أول ما قال في خُروجه من مِصر:

لِتَعْلَمَ مِصْرُ ومَن بالعِرَاقِ ... ومَنْ بالعَوَاصِمِ أنّي الفَتَى
وأنّي وَفَيْتُ وأنّي أَبَيْتُ ... وأنّي عتَوْتُ على مَنْ عَتَا
وماذا بِمِصْرَ من المُضْحِكَات ... ولكنّه ضَحِكٌ كالبُكَا
بها نَبَطِيٌّ من اهْلِ السَّوَادِ ... يُدَرِّسُ أَنْسَابَ أهلِ الفَلاَ
وأَسْوَدُ مِشْفَرُهُ نِصْفُهُ ... يُقال له أنت بدرُ الدُّجَى
وشِعْرٍ مَدَحْتُ به الكَرْكَدَنَّ ... بين القَرِيضِ وبين الرُّقَى
فما كان ذلك مَدْحاً له ... ولكنّه كان هَجْوَ الوَرَى

وكان قبل سَيره من مِصْرَ قال فيه:

إنّي نَزَلْتُ بكَذَّابِينَ ضَيْفُهُمُ ... عن القِرَى وعن التَّرْحَالِ مَحْدُودُ
صار الخَصِيُّ إمَامَ الآبِقِينَ بها ... فالحُرُّ مُسْتَعْبَدٌ والعَبْدُ مَعْبُودُ
نامت نَوَاطِيرُ مِصْرٍ عن ثَعالِبِها ... فقد بَشِمْنَ وما تَفْنَى العَنَاقِيدُ

النواطير: جمع ناطر، وهو من يحفظ الكرم والنَّحل، يريد سادات مِصْر وكبارها.

أرأيت كم كان أبو الطيّب جريئاً، وكم كان راغِباً في أن يُثيرها فتنةً على كافور في مِصر، وما آستطاع أن يقول شيئاً عن سَيف الدولة، لأنه كان يَعرف مكانة سيف الدولة وقدره.

وما أُحب أن أزيدَك من هجائه لكافور، فما ذكرتُه يُغني عما لا أُحِبّ أن أذكره.

ولقد مَدح أبو الطيب غيرَ سَيف الدولة وكافور، كما هجا أبو الطيب غيرَ كافور، وكان في هذا وذاك يُمْلِي عن كبرياء، وكأنه وهو يمدح هو الممدوح، وكأنه وهو يهجو يتوعد.

يسأله مرة أبو سَعيد المجيرميّ عن تركه لقاء المُلوك صَبِيًّا، فيقول له:

أبـا سَعِيـدٍ جَنِّبْ العِتَـابَـا ... فَـرُبَّ رائِي خَـطَأ صَـوَابَـا

فإنّهم قـد أكثـروا الحُجَّابَـا ... وآستوقفوا لـردِّنـا البَـوَّابَـا

ويتوعده أبو دُلَف بالبَقَاءِ في الحبس فيقول له:

كُنْ أيُّهـا السِّجْـن كيف شِئْتَ فقـد ... وطَّـنْـتُ لـلمـوت نَـفْسَ مُـعْـتَـرِفِ

لـو كـان سُكْنـايَ فِيـكَ مَنْقَصَـةٌ ... لـم يَـكُـنِ الـدُّرُّ سـاكِنَ الـصَّـدَفِ

ويقول وهو يمدح عليَّ بن صالح الكاتب:

ولـنـا الـقَـوْلُ وهـو أدْرَى بِـفَـحْـوَا ... هُ وأَهْـدَى فـيـه إلـى الإعْـجَـازِ

مَـلِكٌ مُـنْـشِـدُ الـقَـرِيض لَـدَيْـه ... واضـعُ الـثَّـوْبِ فـي يَـدَيْ بَـزَّازِ

وحاول والي طَرَابلس إسحاق بن كَيَغلَغْ أنْ يَمدحه أبو الطيب فأباها عليه أبو الطيّب، إذ كان يَراه لا يَرْقَى إلى أن يُمْدَح، وأراد إسحاق أن يقطع الطريق عليه، فقال فيه:

ولقـد رأيتُ الحادثـاتِ فـلا أَرَى ... يَقَقـاً يُميتُ ولا سَـواداً يَعْصِمُ

اليقق: البياض في الشعر.

ومـن البَلِيَّـةِ عَـذْلُ مَن لا يَـرْعَـوِي ... عـن غَيِّـه وخِـطابُ مـن لا يَـفْـهَـمِ

وبعد هذا المَدْح والهِجاء فلقد جَنح أبو الطيّب للغزل حيناً، ولكنه كان فيه المُقِلّ، كما فَخر حيناً، وكان فيه المُقِلّ، اللهم إلاّ إذا عددنا آعتزازه بنفسه، حين يَمدح وحين يَهجو، من الفخر.

وإخالني بعد هذا أنني بين يدي شاعر طَلَب الدنيا مُلْكاً وسِيَادَةً، ولكنه لم يملك أسبابَ هذا، أو لم يُوفَّق إلى هذا، فلقد جَعل الشعر مَطِيَّته إلى ما تَصْبو إليه نفسه، والشِّعر إن جَمع حولك المُعْجَبين فلن يَقْوَى أن يجمع حولك الثائرين، إلا إذا كان خِطَاباً للناس عما يُعانون ويُقاسُون، وتذكيراً لهم بما لهم من حق في الوجود مَفْقود، عليهم أن يُدركوه، وهذا ما لم يُوفَّق له أبو الطيب إلا في لمحات ما بدت حتى اختفت، ولو أن أبا الطيب وطَّن نفسه لتلك الرسالة، لقد كانت تلك

البيئةُ المُنقسمة على نفسها شيَعاً وأحزاباً، مَلِك هنا ومَلِكُ هناك، وقاتِلٌ هنـا ومَقتول هناك، في ظمأ إلى من يُوحِّد صُفوفها، ويَجمع كلمتها، وكان أبو الـطيب يملك أن يكون هذا الـرجل المَنْشُـود، الذي ملك وَعْيـاً لـم يملكه كثيـرٌ من ملوك ذلك الحين مثله، ثم لِسَاناً يستطيع أن يَهِيجُ به الخواطر، ولكن أبـا الطيب قَنـع بأن يكـون مَلِكاً على هؤلاء المُلوك، بكبريائه عليهم وتَعلِيله، وكانت هذه حَسْبَه[1]

* * *

## ومنهم: أبو فِرَاس الحمدانيّ الحارثُ بن سَعِيد (٩٦٨ م - ٣٥٧ هـ)

في عَصْـرٍ بَلْبَلَتْه آثنتـان: فِتَنٌ داخليّة، وحُـروبٌ خارجيّـة، وُلِدَ شـاعرُنـا أبو فِرَاس، وفي حِجْر فارسٍ مَعدود كان في مدحه زمامُ القضـاء على الاثنتين معاً نشـأ شـاعرنـا أبو فِـراس، ومن أسرة لـم تَبْعُـد عن هذا الصـراع الداخليّ وذلـك الصـراع الخارجي آنحدر بشاعرنا أبو فراس، وكما كانت الحياةُ بمظاهرهـا هذه الثـلاثة كـان شاعرنا أبو فراس، وأَسْعفه شِعْره كما يُسْعف الكاتبَ قَلَمُه، فجعل من شعره سِجِـلاً حافلاً للأحداث كلها من حولـه، وكأنهـا كتاب يُؤرِّخ لهـا، ولو أنّ شِعـره سِيقَ على تَرتيبه الزمنيّ لكان مَرْجِعاً تاريخيًّا تَمْضِي فيه مع الأحداث على تَتَابُعها.

وإذ كـان آبْنُ عَمِّـه سيفُ الـدولـة هـو الـذي أَخـذ بيـده، ووَضـع رِجْلَه على الطريق، فقد جَعل منه أبو فراس مَمْـدُوحَه، وأُنْسِي أنـه شريـكٌ له في شُؤونـه كُلِّها سَلْماً وحَرْباً، غيرَ أنَّ السَّبْقَ الزمنيّ هو الـذي جَعل من سيف الـدولة أُستـاذاً وجعل من أبي فِراس تلميذاً وعلى الـرغم من أنّ هذا التلميـذ قد شَبَّ وكـان أقربَ إلى أن يكـون نِدًّا لِسَيف الـدولة، إلا أن سيف الـدولة أَبَى إلا أن تكـون أستاذيّتـه أستـاذيّـة دائمة، وأن تكون تَلمذة أبي فراس تَلمذةً دائمة، من أجل هذا جعـل أبو فـراس من سيف الدولة ممدوحاً له، فِعْل الشعراء من قبل.

يُهْدِي الشُّعراء إلى سيف الدولة ويُكثِرون فيكتب إليه أبو فراس:

---

(١) تاريخ بغداد - وفيات الأعيان - الديوان.

نَـفْسِـي فِـدَاؤُك قــد بَـعَـثْـ ـت تَعهُّــدِي بيـد الــرَّسُـولْ
أهــديــتُ نَـفْـسِـي إنــمــا يُهْـدَى الجَلِيـلُ إلى الجَلِيــلْ
وجـعـلتُ مــا مَـلَكَـتْ يَـدِي صِـلةَ المُـبَشِّــر بــالـقَـبُــولْ

وتمر الأيامُ وإذا أبو فراس قد أسرته الرُّومُ، ويُبْطِيء سيفُ الدولة في آفتدائـه، فيكتب إليه أبو فراس:

فــإنْ تَفْتَـدُونِي تَفْتَــدُوا شَـرَفَ العُــلاَ وأســرع عَــوَّاد إلــيــهــم مُـعَــوَّدِ
يُـدَافِــعُ عـن أعــراضكـم بـلســانــه ويَضْــرِبُ عنكم بــالحُسَــامِ المُهَنَّــدِ
مـتى تُـخْلِف الأيــامُ مـثلي لـكم فَـتًى طَــوِيــلَ نِجَـاد السَّيْفِ رَحْبَ المُـقلَّدِ

ثم يكتب إليه شاكياً:

هــل تعــطفــان على الـقَلِيــل لا بــالأَسِيــرِ ولا الـقَـتِـيــلْ
كُـنْ يــا قَــوِيّ لِـذَا الـضَّـعِـيـ ـفِ ويــا عـزيـز لـذا الـذَّلِيـلْ
أيــن الــمَــحــبَّــة والأمــا ن ومــا وَعَــدْتُ مـن الجـميــلْ

هكـذا أَرْخَص أبـو فـراس نَفْسَـه حين جعـل من سَيف الـدولـة مَمْدوحـاً، والممدوحين أبعدُ ما يكونون عن أن يَرفعوا المادحين إلى مَصَافِّهم، وأبو فـراس لم يكن هذا الشاعر الكاسِبَ بلسانه، بل كان أولاً هذا الجُنْدِيّ المُكافح بسنـانه، فهـو بهـذه الثانيـة يستـوي وسيف الـدولـة في المِيـزان، ولكنـه حين هبط إلى مستـوى المادحين حَطَّ من قَدْره ورفـع من قدر سَيف الـدولة، فـإذا الهُوَّةُ بينهمـا بَعِيدة، وإذا سَيف الدولة سَيِّدٌ، وإذا أبو فراس مَسُود.

ولعلّ قول أبي فراس لأُمه، وقد كتب إليها من حَبسه:

ومَن ذا الــذي يَبْقى على العَهــد إنهم وإن كَــثُـرت دَعْــوَاهُــمُ لَــقَــلِيــلُ

لعلّ هذا القول فيه ما يُشير إلى رجوع أبي فراس إلى وَعْيِه.

وبعـد، فما نُنكـر أن أبا فـراس شارك بلسـانه في كُـلٍّ مـا وقـع تحت سَمعـه وبَصره، ولكنها كانت مُشاركة الواصف، ثم إنه كان يعزو كُلَّ ما حقّقه هو بسنانه إلى

ممدوحه سيف الدولة، وهكذا نَسِي نفسه فَنَسِيه سيفُ الدولة[1].

* * *

ومنهم: **الشَّريفُ الرَّضِيّ محمدُ بن الحُسين (١٠٢٥ م ـ ٤٠٦ هـ).**

مِن بَيْتٍ كانت إليه زعامة الطالبيِّين، وحين نزل له أبوه الحُسين عنها سنة ثمانين وثلاثمائة (٣٨٠ هـ)، وكان عندها في العشرين من عمره يَزيد قليلاً، قال يَشْكُره على ما فعل:

أُنْظُرْ إلى الأيام كيف تَعُودُ وإلى المَعَالِي الغُرِّ كيف تَزِيدُ
ما السُّودَدُ المطلوب إلا دون ما يرمي إليه السُّودَدُ المَوْلود
فإذا هما ٱتَّفَقا تكسَّرت القَنَا إن غالباً وتَضعضع الجُلْسُودُ

فهذه رسالةٌ لا تزال حيَّةً في قلوب الطالبيِّين، وإلا ما توارثوها نَقِيباً عن نَقِيب، تَحْيَا على ألسنتهم كلاماً، وما مَلَكوا غيرَه ليفعلوه، وما شَمِتُوا بخُصومهم مع النَّكَبات، بل جعلوا منها عِظَةً يُذكِّرونهم بها، ولا نَفِسُوا عليهم حين أقبل عليهم الزمان، بل ذكَّروهم أنهم فيما يَنعمون به شُركاء.

يُطيح القدرُ بالخليفة الطائع لله، فيُخْلَع ويُهان، فيكون الرَّضيُّ على رأس من يُواسونه، فيقول له:

مِنْ بَعد ما كان ربُّ المَلْكِ مُبْتَسِماً إليَّ أُدْنِيه في النَّجْدَى ويُدْنِينِي
أَمْسَيْتُ أَرْهَمُ مَن قد كنتُ أَغْبِطُه لقد تَقَارب بين العِزِّ والهُونِ
هَيهات أغْتَرُّ بالسُّلطان ثانيةً قد ضَلَّ وَلاَّجُ أبواب السَّلاَطِينِ

ويموت الطائع لله فيرثيه حين عَزَّ الرَّاثُون:

يا ناصِرَ الدين الذي رَجع الزمانُ به كَلِيلاَ

---

(١) وفيات الأعيان ـ يتيمة الدهر للثعالبي ـ الديوان.

لَهْفِي على ماضٍ قَضى    أن لا يُرَى منه بَدِيلا

ويلي أبو العباس القادر بعد الطائع لله. فيُقبل عليه مُهَنِّئاً، فخُرُوج المُلْك عن بني العبّاس إلى طامعين جُدُد، يُباعد ما بين الطالبيِّين وبين هذا الملْك، وكان مما هنَّأه به:

شَرف الخلافة يا بَنِي العبّاس    اليومَ جَدَّده أبو العبّاسِ

ثم لا يَنِي أن يكتب إلى أبي العبّاس القادر:

عَطْفاً أميرَ المُؤمنين فإنّنا    في دَوْحة العَلْيَاء لا نَتَفَرَّقُ
ما بَيننا يوم الفَخَار تفاوُتٌ    أبداً كلانا في المَعَالِي مُعْرِقُ
إلا الخِلَافة ميّزتك فإنّني    أنا عاطِلٌ منها وأنت مُطَوَّقُ

وهكذا لم يَفُتْ الطالبيّين دَوْماً أن يُذَكِّرُوا العباسيِّين بأنهم أحقُّ بالخلافة منهم.

هذا ما أستطيع أن أُطالعك به من شِعر الرضيّ ممّا يَحْمِلُ مُنافحةً عن حق كان هو نَقِيبَه، وما كان أولاه لهذه أن يَخْلُص شِعْرُه كلُّه لها، وقد نَعُدُّ له من هذا شِعْرَه في الإشادة بالطالبيّين، فهي دعوة وما ملكوا فيها غير أن يقولوا، يقول:

بَنُو هاشمٍ عَيْنٌ ونحنُ سَوادُها    على رَغْمِ من يأبى وأنتم قَذَاتُها

ويقول:

أكابِرُنا والسابقون إلى العُلا    ألا تِلك آسادٌ ونحن شُبُولُها
وإنْ أُسُوداً كنتُ شِبْلاً لبعضها    لَمَحقوقة ألّا يُدَالَ قَبِيلُها

ولعل قوله:

سأَبْذُل دون العِزِّ أكرمَ مُهْجَةٍ    إذا قامت الحَرْبُ العَوَانُ على رِجْلِ
وما ذاك أنّ النَّفْسُ غيرُ نَفِيسَةٍ    ولكنْ رأيتُ الجُبْنَ ضَرْباً من البُخْلِ

لعل هذا القول يَدُلّك على ما كان يَرْجُوه الطالبيُّون من آستعادة حقٍّ مُغْتَصب، فعاشوا لا يَفْتُرون عن المطالبة به بألسنتهم، ولكي لا يُظَنّ بهم أنهم يُريدون هذا

الحقَّ بِسُيوف غيرهم، كان هذا الجَهْرُ بالتَّضْحية على لِسان الرَّضِيّ[1].

* * *

## ومنهم: الشريف المُرْتَضى عليُّ بن الحُسَين (١٠٤٤ م - ٤٣٦ هـ).

هذا شريفٌ أخٌ لشريفٍ سَبق، وكان السابقُ، وهو الرضيّ محمد بن الحُسين، يَصْغُر عن اللاحق بسنين أربع، فلقد كان مولدُ محمد سنة تسع وخمسين وثلاثمائة (٣٥٩ هـ). وكان مولد عليّ سنة خمس وخمسين وثلاثمائة (٣٥٥ هـ)، وعلى الرغم من كبَر عليّ وصغر محمد فلقد أقام الأبُ الابن الأصغر نَقِيباً للأشراف. ولم يُقِمْ الأكبر، ولهذه سَبَبُها، وهو أنّ الأب كان يَلْمَح في الأصغر طُمُوحاً لم يَلْحَظْه في الأكبر.

ولقد مَرّ بك عند الحديث عن الرضيّ ما يُشير إلى طُموحه، فلقد مَدح مَن عاصر من الخُلفاء العبّاسيّين مدحاً أقرب إلى التَّقريع منه إلى المدح، وأزِيدُك إلى ما ذُكِر قَبْلُ قوله:

مـا أنـا لـلعَـلْـيـاء إن لـم يَـكُـنْ ... مِـنْ وَلَـدي مـا كـان مِـن والـدِي
ولا مَـشَـتْ بِـيَ الـخَـيْـلُ إن لـم أطَـأْ ... سـريـرَ هـذا الأصـيـد الـمـاجـدِ

ثم قوله:

مَـتـى أرى الأرض وقـد زُلْـزِلَـتْ ... بـعـارض أغـبـر دامـي الـنَّـواح

ثم قوله:

فـوا عَـجَـبـا مـمـا يَـظُـنّ مُـحـمَّـدٌ ... ولِـلـظَّـن في بَـعض الـمـواطـن غَـدَّارُ
يُـقَـدِّر أن الـمُـلـك طَـوْع يَـمِـيـنـه ... ومِن دون مـا يـرجـو المقـدِّر أقـدارُ
وإنِّـي أرى زَنْـداً تـواتـر قَـدْحُـه ... ويُـوشـك يـومـاً أن تكـون لـه نـارُ

ثم قوله وقد خال أنه نال ما تمنّى:

هـذا أمـيـرُ المؤمـنـين مُـحـمَّـدُ ... كَـرُمَتْ مَغارِسُـه وطاب المَـوْلِـدُ
أوَمَـا كفـاك بـأنّ أُمَّـك فـاطمٌ ... وأبـوك حَـيْـدَرَةٌ وجَـدُّك أحمـدُ

---

(١) تاريخ بغداد - وفيات الأعيان - يتيمة الدهر - الديوان.

هذا شيء لا تُحِسّ مثلَه في شِعر المُرْتَضَى. فأغراض المرتضى كلُّها أغراض ثانويّة في الزُّهد والرِّثاء والشِّيب والعُتْبَى والغَزَل، وما أكثر ما قال في هذا الغَرض الأخير.

ولقد مَدح مَن عاصر من الخُلفاء، ولم يكونوا غيرَ الخُلفاء الذين عاصرهم أخوه، ولكنْ فَرْقٌ بين مَدْح ومدح، فالرَّضِيّ مدح مُقَرِّعاً والمرتضى مَدح راضِياً.

يَمدح الطائعَ كما يمدحه المادحون، فيقول:

بالطَّائِعِ اطَّادت مذاهبُ أُمَّةٍ ... فَوْضَى على سُنَن النبيّ المُرْسَلِ
نال الخلافةَ وهي أبعدُ مُرْتَقًى ... وأقام فيها وهي أكرمُ مَنْزِلِ

ويمدح القائم فَيذِلّ بين يديه ويقول:

عليكَ أميرَ المُؤمنين سلامِي ... وفي يدك الطُّولَى زِمَامُ غَرَامِي
ولم يَكُ لي إلاّ عليك توكُّلِي ... ولا كان إلاّ في ذَرَاك مُقَامِي

ويمدح القادر، وقد أُنْسِي الطالبيين ومطالب الطالبيّين فيقول:

قَرَّت عُيُونُ بني النبيِّ مُحمَّدِ ... بالقادر الماضِي العَزيمةِ أَحْمَدِ
فَخْراً بني العبّاس إنْ قَدِيمَكُمْ ... يَأْبَى على الأيّام غيرَ تَجَدُّدِ
ما حاجَتِي إلاّ بقاؤُكَ سالماً ... تُعْلِي مَقَامَاتي وتُدْنِي شُهَّدِي

أرأيتَ لِمَا آثَر الوالدُ الرَّضِيَّ دون المُرْتَضَى بِنقابة الطالبيّين، وكان المُرْتَضَى أكبر، لهذا الذي أحسّه الوالدُ في المُرْتَضَى بِحَدْسه، وقد أَحْسَسْتُهُ أنا حين قرأتُ شِعْرَه.

وقد مات الرَّضِيّ ولم يُتِمْ الخَمسين، ومات المُرْتَضَى وقد جاوز الثَّمانين، ولكنْ ما تركه الرَّضِيّ في عُمره ذاك القصير أَبْقَى ممّا تركه المُرْتَضَى في عُمره ذاك الطويل[1].

* * *

(١) إرشاد الأديب ـ وفيات الأعيان ـ الديوان.

**ومنهم: أبو العلاء المَعَرِّيّ أحمدُ بنُ عبد الله بن سُلَيمان (١٠٥٧ م - ٤٤٩ هـ).**

أُحِب أن أَصِف لك الحياة، أعني حياةَ الأُمة العربيّة التي كانَ أبو العلاء من أَبْرز أبنائها، منذ أن دخل أبو العلاء هذه الحياة إلى أن خرج منها.

لقد كان مولدُ أبي العلاء سنَة ثلاث وستين وثلاثمائة (٣٦٣ هـ)، وهي السنة التي نَزل فيها المُطيع لابنه الطائع لله عن الخلافة، بعد فِتَنٍ كانت بينه وبين عَضُد الدَّولة البُويهيّ والوزير بَخْتِيَار.

وبعد سِنين أربعَ مَضت من خلافة الطائع قُتل بَختيار، وبعدها بسنين تِسْعٍ مات عَضُد الدولة، غيرَ أنّ بَختيار إن كان قد مَضى دون أن يجد من يَخْلُفه على الطريق، فلقد كان لعَضُد الدولة من يخلفه، وهو ابنُه بهاء الدولة، الذي قَبض على الطائع سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة (٣٨١ هـ) وحبسه وأشهد عليه بِخَلْع نفسه، وبَقِي الطائعُ مَحْبُوساً إلى أن وافَتْه منيّتُه سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة (٣٩٣ هـ).

وكان الذي خلف الطائعَ هو القادر، وكان هذا سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة (٣٨١ هـ)، وهي السنة التي خُلع فيها الطائع.

وآتسعت سَنواتُ خلافة القادر إلى أن جاوزت الأربعين، فقد ودّع القادرُ الحياةَ سنة آثنتين وعشرين وأربعمائة (٤٢٢ هـ) بعد حُروب كثيرة، مَلَك فيها الجزيرة والشام، وفتح فيها السند والهِند.

وإذا عرفنا أنّ أبا العلاء قال الشِّعْر وهو في الحادية عشرة من عُمره، أي حوالى سنة أربع وسبعين وثلاثمائة (٣٧٤ هـ).

وهذه تعني أن أبا العلاء كان على وَعْيٍ بالحياة سِنِينَ من خِلافة الطائع تبلغ السبع، كما أنه عايش القادرَ سِنِي خلافته كُلِّها، كما أمضى بقيةَ عُمره مع القائم بأمر الله، الذي آمتدت خلافتُه إلى أن مات سنة سبع وستين وأربعمائة (٤٦٧ هـ)، أي بعد أن وَدّع أبو العلاء الحياة بنحو من ثمانيةَ عشرَ عاماً.

والآن فَلْنَعُد إلى أبي العلاء لِنَرى كم أخذ أبو العلاء من تلك الحياة وكم أعطى.

لأبي العلاء ديوانان من الشِّعر: ديوان قَصَره على فَلسفته في الوُجود. وهو لزوم ما لا يلزم، وديوان عَبَّر فيه عمّا كان له من مُشاركة في هذه الحياة، وهو سَقْط الزَّند.

ويكاد شِعْرُ أبي العلاء في ديوانه الثاني يُلْحَق بشعره في ديوانه الأول، فهو فيه وإن بدأ دُنْيَوِيَّ النَّزعة فَسُرْعان ما ارتدَّ فيلسوفاً حَكِيماً، تدلك على هذه كلمتُه وهو يُقدِّم لقصيدته الأولى في ديوانه سقط الزند، يقول: قال أبو العلاء في مَذْهب المديح، ولم يكن من طُلَّاب الرِّفْد، والله يُحمد على تلك.

وهذه العبارة تَعني أن أبا العلاء لم يَزِلَّ زَلَّةَ غيره من الشُّعراء قبله لِيُتاجِرَ بشعره، يمدح لينال، ويهجو لِيُفْسِح الطريقَ أمامه لهذا النَّوال، فعاش حياتَه وما أحسَّ بأنّه ثمة خليفة مِن هؤلاء الخُلفاء الذين ذكرتُهم لك، ولا ثَمَّةَ كبيرٌ من هؤلاء الكبراء الذين آمتلأت بهم بلاطات هؤلاء الخُلفاء. وجَرَّه هذا الإحساس وذاك إلى أن يَنْسى أنه يعيش في ظِلّ دولة عليه لها تَبِعات، وشادَ لِنَفسه دولتَه الخاصّة، كان هو فيها الخليفة والرعيَّة معاً، وما كان ما سَمَّى به نَفْسَه بأنّه رَهِينُ المَحْبِسَيْن، وانعزاله عن الناس، إلّا تأييداً لهذا الذي أقول.

إقرأ له وهو يَمدح الشَّريف أبا إبراهيم العَلويّ، وما أَكثر ما قال فيه أبو العلاء:

إلَيك تَنَاهَى كُلُّ فَخْرٍ وسُودَدِ ... فأَبْلِ اللَّيالِي والأَنَامَ وجَدِّدِ
لِجَدِّكَ كان المَجْد ثم حَوَيْتَه ... ولابنك يَبني منه أشرف مَقْعَدِ

ثم إذا هو سُرعان ما يَعود فيلسوفاً حَكِيماً فيقول:

ثلاثة أيّام هي الدَّهْرُ كُلُّه ... وما هُنَّ غير الأمْسِ واليومِ والغَدِ

ويَمدح أبا الفضائل سَعد بن شريف يقول:

مَعَانٌ مِن أحبّتنا مَعَانٌ ... تُجِيب الصاهلاتِ به القِيَانُ

المعان: المنزل.

وقفتُ بـه لِصَـوْنِ الـوُدْ حتّـى أَذَلْتُ دُمـوعَ جَفْـنٍ مـا تُصَـانُ

ثم سُرعان ما يعود إلى فلسفته وحِكمته فيقول:

وكـالنَّـار الحيـاةُ فمـن رَمَـادٍ أواخـرُهـا وأولُـهـا دُخَـانُ

وعلى هـذا النحو يَمضي شِعْـرُ أبي العلاء في ديـوانه السَّقط، فهـو يَتَّخـذ من أسبـاب دُنياه مـا يَصِله بفلسفته وحِكمتـه، حتى إذا ما فـرغ لـديـوانـه الثـاني، وهـو اللزوم، جعله خالصاً لفلسفته وحِكمته، التي تَسودها نظرتُه التشاؤميّة.

إقرأ له قوله:

فـلا يَغْـرُرْكَ بِشْـرُ من صـديقٍ فـإن ضَـمِيـرَه إِحَـنٌ وخَـبُّ

الإحن: الحقد. والخب: الخداع.

وإنّ الـنـاس طِـفْـلٌ أو كَـبِيـرٌ يَـشِـيب عـلى الـغَـوَايـةِ أو يَـشِـبُّ

ثم آقرأ له قوله:

فـي الـبَـدْو خُـرَّابُ أَذْواد مُـسَـوَّمَـةٍ وفـي الـجَـوامـع والأسـواق خُـرَّابُ

فهؤلاء تَسَمَّوا بالعُدول أو التجّار واسم أولاك القـوم أعرابُ. ثم آقـرأ له رَأْيَـه في الإنْسان:

واطْلُبْ لِبِنْتِـك زوجـاً كي يُـراعِيهَـا وخَـوّف آبْنَـك من نَسْـلٍ وتَـزْوِيـجِ

واقرأ له رأيه في الوُجود:

تعـالَيْتَ ربَّ النَّجْمِ هـل هـو عـالِمُ بـحـالاتِـه فـي مَـطلع ومُـغَـارِ

أم الشُّهْبُ لم تَشْعُـرْ كما جَهِـل الهُدَى وَقُـودُ لـدى غـارٍ يُـحَشُّ بـنَـارِ

واقرأ له قوله في التَّسْوية بين الناس:

لا يَـفْـخَـرَنّ الـهـاشِـمـيّ على آمـرىءٍ من آل بَـرْبَـرْ

فـالـحقُّ يَـحلِف مـا علـيٌّ عِـنْـدَه إلا تَـقَـنْـبَـرْ

قنبر: مولى علي بن أبي طالب.

ويقول في آعتزاله الناس:

علمتُ بـأنْ النـاس لا خيـرَ عنـدهمُ فجـانبتُهـم من جـائـديـن ويُخَّـالِ

لقد دخل أبو العلاء الحياةَ بَرِماً بها، لما أصابه من عَمًى وهو في الرابعة من عمره، وكم من رجال مُنُوا بما مُنِي به أبو العلاء، أو بأكثر ممّا مُنِي به أبو العلاء، ولكنهم شاركوا في الحياة أخذاً وإعطاء، ولكنّ أبا العلاء أضاف إلى ظُلم الحياة له ظُلْماً آخر بِسَجْنه نفسه، وهكذا كانت الحياة في خياله ظُلْماً كلها، ومن هنا كانت نَظرته التشاؤميّة التي طَبعت شِعْرَه بهذا التشاؤم، ولقد كان من اليَسير على أبي العلاء أن يجمع إلى فلسفته الانعزالية فلسفةً وُجوديّة، ومثلُ هذا الذي رأى أبو العلاء الناس عليه رآه شُعراء كثيرون، ولكنّهم لم يجعلوه كلَّ قولهم كما فَعل أبو العلاء، وشاركوا في الحياة إيجاباً على نَحْوٍ ما.

وما كان أحوج الوجودَ إلى أن يُسْهِمَ أبو العلاء بوضع لَبِنَةٍ في البناء، وما كان أقدره عليها، لِمَا رزقه الله من وَعْيٍ وفِكر، ولكنّه مَضَى أسيرَ تلك النَّزْعة التشاؤميّة[1].

---

(١) معجم الأدباء ـ وفيات الأعيان ـ السقط ـ اللزوم.

## تعقيب

وهكذا مرّت تلك الحِقْبة في مَدٍّ وجَذب، يَقْوى الخلفاء، ومَن هم حول الخلفاء، فتنبسط أيديهم بالعطاء إلى الشعراء، إذ كانوا أداتَهم في التَّمْكين لسُلطانهم، وإحياء ذكرهم. ولم يكن هؤلاء الخلفاء في عَصْرٍ ما من عصور خلافتهم في غِنًى عن لسان شاعر يَمدح ويُمجِّد، لأنهم عاشُوا حياتَهم كلَّها حريصين على خَمْع الناس على رأيهم، هذا إلى ما في طبعهم من حُبّ الثناء عليهم.

وكما كان الخلفاء كان مَن حولهم، والناسُ على دين مُلوكهم، وما لهم لا يُمْدَحون هم الآخرون ليعرفهم الناسُ كما عرف الناسُ الخُلفاء.

ويَضْعُف الخُلفاء، ويَضْعُف بِضَعْفهم مَن حولهم، فلا أيدٍ مَبسوطة، ولا عَطاءٌ مَبذول، فينصرف الشُّعراء إلى أنفسهم يُعبِّرون عما يُحِسّون، ولم يكن هذا بكثير.

ويدخل السَّلاَجقة بغداد مع سنة سبع وأربعين وأربعمائة (٤٤٧ هـ)، وكان هذا في عهد القائم بأمر الله، الذي وَلِي الخلافةَ سنة آثنتين وعشرين وأربعمائة (٤٢٢ هـ). وبَقِي خليفةً إلى أن مات سنة سبع وستين وأربعمائة (٤٦٧ هـ)، ووَلِيَ بعده المقتدي بأمر الله الذي آمتدت خلافته ثمانيةَ عشرَ عاماً، فلقد كانت وفاته سنة سبع وثمانين وأربعمائة (٤٨٧ هـ). ويلي بعده المُستظهر بالله الذي امتدت خلافتُه أربعة وعشرين عاماً وأشهراً، فلقد كانت وفاته سنة آثنتي عشرة وخمسمائة (٥١٢ هـ). وولي المُسترشد بالله الخلافةَ، التي خرج منها مقتولاً على أيدي السَّلاجقة سنة تسع وعشرين وخمسمائة (٥٢٩ هـ)، ويلي الراشد بالله، ولكنّ

السلاجقة لا يُمهلونه كثيراً فيخلعونه بِفَتْوَى من فُقهاء بغداد سنة ثلاثين وخمسمائة (٥٣٠ هـ)، ثم لا يتركونه فيقتلونه سنة آثنتين وثلاثين وخمسمائة (٥٣٢ هـ).

وفي السنة التي خلع فيها الرَّاشدُ بُويع للمتَّقي لأمر الله، ويُفلح المتَّقِي في القضاء على السَّلاجقة، ويَلِي الخلافةَ بعد وفاته سنة خمس وخمسين وخمسمائة المُستنجد (٥٥٥ هـ)، ثم المُستضيء (٥٦٦ هـ)، ثم الناصر (٥٧٥ هـ)، ثم الظاهر (٦٢٢ هـ)، ثم المُستنصر بالله (٦٤٣ هـ) ثم المستعصم (٦٤٠ هـ).

وحين ولي المُستعصم الخِلَافةَ سنة (٦٤٠ هـ) كان العباسيّون قد أفلت زِمَامُ الحُكم من أيديهم، ولم يَعُدْ لخُلفائهم غيرُ هذا الكُرسيّ، أعني كرسيَّ الخلافة، الذي يَجلسون عليه، وغدا القُوَّادُ ووزراؤهم أصحابَ الكلمة.

ويَشتدّ أَمْرُ المَغُول، ويدخل هُولاكُو المغوليُّ بغدادَ سنة (٦٤٥ هـ)، أي بعد سنين خَمس من خلافة المُستعصم، ويُبْقِي على الخَليفة حَيًّا إلى أن يَدُلَّه على ما هو مَخْبوء من مال ونفائس، ثم يأمر به هُولاكو فيُقْتَل، وبِقَتْله آنتهى أمر العبّاسيّين بالعِرَاق، بعد أن حكموا أربعةً وعشرين وخمسمائة عام (٥٢٤ هـ)، تعاقَب فيها من خُلفائهم سبعةٌ وثلاثون خليفةً عاش الشُّعراء على أبواب أكثرهم في عُهودهم الأولى، آشْتَرُوا منهم أَلْسِنَتَهم بما بذلوا لهم من عَطاء كثير، وكان هَمُّ الشُّعراء أن يَحْظَوْا بِرِضَا الخُلفاء، ويا وَيْلَ مَن تخلَّف به جَدُّه منهم، فلم يَضُمّه بَلَاط.

وحين تَنْفُض بغدادُ يَدَها من الخُلفاء العبّاسيّين تتلقّفهم يَدُ مِصْر.

وكان أوّل مَن نَزل من هؤلاء الخُلفاء العباسيّين مِصْر هو أبو القاسم أحمد المُستنصر بن الظاهر، نزلها سنة تِسع وخَمسين وستمائة (٦٥٩)، أي بعد سقوط بغداد في أيدي التَّتار بسنين ثلاث، ولم تَطُلْ أيّامُه كثيراً، فلقد سَيَّره الظاهرُ بِيبرس على رَأس جَيش لاسترداد بَغداد، فآنهزم الجيشُ وقُتل المُستنصر سنةَ ستين وستمائة (٦٦٠ هـ).

وامتدت سِنُو هؤلاء الخلفاء بمصر نحواً من قَرنين ونصف القَرن، تزيد قليلاً،

وكان آخرهم المتوكل الثالث، وبوفاته سنة خمسين وتسعمائة (٩٥٠ هـ) كان انقضاء الخلافة العبّاسيّة.

وهذه الحِقبة التي بدأت بدخول السَّلاجِقة بغداد سنة (٤٤٧ هـ)، وآنتهت بآنقراض الخلافة العبّاسيّة من آخر مَعْقل لها وهو مِصر، سنة (٩٥٠ هـ)، والتي امتدَّت نحواً من قُرونٍ خَمسة، هي الحِقبة التي سنعرض لشُعرائها، وما نريد أن نسبقه فنقول رأينا فيهم، بل سنترك هذا للقارىء بعد أن يَقرأ معنا نِتاجهم الشِّعريّ.

# الحقبة
# من
# ٤٤٧ هـ - ٩٥٠ هـ

## (١٣)

فمن شعراء تلك الحقبة: صُرَّدُرّ عليّ بن الحَسن (١٠٧٣ م - ٤٦٥ هـ).

أُحبّك أن تعرف الذي أظلَّ صُرَّدُرّ قبل أن نعرض شِعره.

فلقد شَبَّ صُرَّدُرّ في ظِلِّ الخليفة العبّاسيّ القائم بأمر الله، الذي وَلِي الخلافةَ سنة آثنتين وعشرين وأربعمائة (٤٢٢ هـ)، وعاش صُرَّدُرّ أيامه كلَّها في رِحاب القائم، فلقد وَدَّع صَرَّدُرّ الحياةَ قبل أن يودعها القائم، فلقد كانت وفاة القائمُ سنة سبع وستين وأربعمائة (٤٦٧ هـ).

وفي أيّام القائم كانت فِتنة البساسيري أرسلان بن عبد الله، وكان من الأتراك، وحَظِي عند القائم فقلَّده أُمورَه جُملة، فإذا هو يخرج على القائم ويُخرجه من بغداد سنة خمسين وأربعمائة (٤٥٠ هـ)، ويخطُب للمستنصر الفاطميّ صاحب مصر، ولكنه ما لبث أن ثار به أعوانُ القائم وقتلوه سنة إحدى وخمسين وأربعمائة (٤٥١ هـ).

وكما آتصل صُرَّدُرّ بالقائم آتصل بوزيره آبن المُسْلَمة، الذي آستوزره القائمُ سنة سبعة وثلاثين وأربعمائة (٤٣٧ هـ) غير أنه ما كاد البَساسيري ينال من القائم حتى قَبض على آبن المسلمة ومَثَّل به وصَلبه، وتركه كذلك مصلوباً حتى مات سنة خمسين وأربعمائة (٤٥٠ هـ).

ويبدو أن صُرَّدُرّ كانت له صِلةٌ أولى قبل صلته بالقائم، وكانت تلك الصِّلة بالوزير نِظام الملك، الذي استوزره السلطان أَلْب أرسلان السُّلجوقيّ، ويقال إنه هو الذي لَقَّبه بصُرَّدُرّ، وكان يُقال لأبيه: صَرّ بَعر لبُخْله، وآنتقل هذا اللقب إلى الإبن

إلى أن خلعه عنه ألب، وخَلع عليه لَقَبه الثاني صَرَّدُرّ.

في هذا العصر الصاخب بأحداثه نشأ صرّدُرّ وعـاش، ولقد ولّى لهؤلاء الـذين مَدُّوا إليه أيديهم فأعانوه على الحياة فمَدحهم، شأن غيره ممّن سَبقـوه من الشعراء، ولكن تلك الحياة الصاخبـة بأحـداثها الجِسَـام لم تَلفته إليهـا، وحين كان يعـود إلى نفسـه يلهج بمـا لَهج بـه القدمـاء من هَوًى مصنـوع، لا محلَّ لـه في قلوبهم، فتراه يقول:

نسـائـل عن ثُمـامـات بحَــزْوَى ... وبــانُ الـرَّمْــل يَعلم مــا عَنَيْنَــا

لقــد كُشِف الغِـطَاءُ فمــا نُبَـالِي ... أصَــرَّحْنــا بــذِكْــرِكِ أم كَنَيْنــا

ولــو أنّي أنــادِي يــا سُلَيْـمَـى ... لقــالُـوا مــا أَرَدْتَ سِــوَى لُبَيْنَى

وقد يَصْدُق فيقول في جارية له سَوْداء:

عُـلِّقْتُـهــا ســوداءَ مَـصْـقــولَــةً ... ســوادُ قَـلْبـي صِــفَــةٌ فِـيــهَــا

لأجــلهــا الأزمــانُ أوقــاتُــهــا ... مُــؤرَّخــات بــليــالــيــهــا

وتُعاوده ذِكرى الشَّباب بعد أن خطا إلى المشيب فيقول:

لم أَبْـكِ أَنْ رَحَــل الشَّـبَــابُ وإنّمــا ... أَبْـكِـي لأن يَـتـقــاربَ الـمِـيـعَــادُ

وكأنّه قد أقبلت عليه الدُّنيا فعزَّ عليه أن يُفارقها، لا يَعنيه ما يُعـانيه النـاسُ من تلك الفِتَنُ الهَوْجاء، ولكن يَعْنيه أنه في بُحْبُوحَةٍ من العيش[1].

* * *

## ومنهم: ابنُ سَنَاء المُلْك هِبَةُ الله بن جَعفر (١٢١٢ م ـ ٦٠٨ هـ).

في عَهـد نُور الـدين محمـود بن زَنْكِي وُلـد آبنُ سَنـاء بمصـر، سنـةَ خمس وأربعين وخمسمائة (٥٤٥ هـ)، وكان نُور الدين زَنكي عندهـا يحكم سوريـا، وديار بكر، والجَزيرة ـ ومصر، وجُزْءاً من بلاد المغرب، وجانباً من اليمن، وقد خُـطِب له بالحَرَمَيْن.

---

(١) وفيات الأعيان ـ الديوان.

ويموت نُور الدين سنةَ تسع وستين وخمسمائة (٥٦٩ هـ)، ويَخْلُص أَمْرُ مِصْـرَ لصلاح الدين الذي امتدت حياته إلى سنة تسع وثمانين وخمسمائة (٥٨٩ هـ).

ويَخْلُف صلاحَ الدين على مُلْكِ مصر من الأيوبيين العزيزُ، ثم المنصـور، ثم العادل الأول، الذي آمتد به العمر إلى سنة خمس عشرة وستمائة (٦١٥ هـ).

وأنت في غِنًى عن أن أُعِيدَ عليك ذِكْـرَ الأحداث التي امتـلأت بها صفحـات بَنِي زَنْكي، وصفحات الأيوبيّين، لا سيما صفحات صلاح الدِّين.

ولـم يكن آبن سناء بعيداً عن هذا كله، فلقد عاصر هؤلاء السـلاطين جيمعاً، عاصر نُور الدين زنكي، وهو فتًى في مُقتبل العمر، وعاصـر صلاحَ الـدين، وهو في سِنيه المُكتملة، وكان على صِلَةٍ وثيقـة بوزيـره القاضي الفـاضل، حتى إذا مـا أَدرك أيّام العادل الأول وَدَّعَ الحياةَ قبل أن يُودِّعها العادل.

هذه صفحات حياة آبن سناء، فلنقرأ معاً صفحةَ شِعْره.

يَمدح توران شاه الأيوبي، وكان على دِمشق، وكان آبن سناء عندها هو الآخر في دمشق، فيقول:

وأَثْـرَيْـتُ مـن دِينـار خَـدٍّ مَـلَكْـتَـه ... فـأحسنُ وجـهٍ بـعـده مِثْـلُ دِرْهَـمِ
ولا عَـجَبـاً إنْ مِـتُّ فيـه صَبـابـةً ... فمـا النفس إلا بعضُ مَغْـرَمِ مُغْـرَمِ

ويمدح القاضي الفاضلَ فيقول:

أنـا عَـبْـدُ وخِـدْمَتِي مَـدْحُ مَـوْلًـى ... نَـجـح القَـصْـدُ عنـده والـقَـصِـيـدُ

وبعد هذا وذاك غَزَلٌ محسوبٌ عليه لا له.

يقول في جارية عَمْياء:

شَـمْسٌ بغَـيْـر الشَّـعْـر لم تَـحْتَـجِـبِ ... ولـي سِـوى العَـيْـنَـيْـن لـم تـكْـسـفِ

ويقول في غلام ضَربوه ثم حبسوه:

بِـنَـفْـسِيَ مـن لـم يَـضْـربـوه ريبَـةٍ ... ولكنْ ليبـدو الـوَرْدُ في سـائـر الغُصْنِ

ويقول في غلام آخر عَثَر فآنكسرت أسنانه:

نَشَرَ الـدَّهْـرِ عِقْـد ثَغْـر حبيـبي      فـدُمـوعي عليـه تَـحْكِـي آنْتشـارَهْ

ومن هذا الغزل الرخيص قولُه:

ومـا كـان تَـرْكِي حُبَّـه عن مَـلاَلَـةٍ      ولكن لأَمْـرٍ يُـوجب القَـوْل بـالتَّـرْكِ
أراد شَـرِيكـاً في الـذي كـان بَيْننـا      وإيمـانُ قَلبي قـد نَهـاني عن الشِّـرْكِ

ولكنّنا لا ننكر له شِعْرَه الحماسيّ الذي يقول فيه:

سِـوَايَ يخاف الـدَّهْرُ أو يَـرْهَبُ الـرَّدَى      وغَـيْـرِيَ يَهْـوَى أن يـكـون مُـخَـلَّدَا
ولكنَّـني لا أرهـب الـدَّهْـرَ إنْ سَـطَا      ولا أُحـذر المـوتَ الـزُّؤَامَ إذا عَـدَا
وإنَّـك عَـبْـدِي يـا زمـانُ وإنَّـنـي      على الكُـرْه منِّي أن أُرَى لـك سَيِّـدَا

وقد يَصِحّ هذا لنا لو أننا جَرَّبنا آبنَ سناء في شِدَّة، فـابن سناء كمـا يَبدو كـان على يَسَار، ولقد كَتب في ديـوان الإنشاء بمصـر مدة ولا يبلغهـا إلا مَن كان لـه جاهُ ابن سناء المعنويّ والماديّ[1].

* * *

## ومنهم: آبْنُ مَطْروح يحيى بن عيسى (١٢٥١ م - ٦٤٩ هـ).

وإذا كان مولد آبن مطروح سنة آثنتين وتسعين وخمسمائة (٥٩٢ هـ) بمدينـة أسيوط، إحدى مُدن صعيد مصر، فقد عـاصر من سـلاطين بني أيوب العـادلَ أحمد ابن أيوب الذي آستقل بحكم مصر سنة ست وتسعين وخمسمائـة (٥٩٦ هـ)، وبَقِي سلطاناً على عرش مصـر إلى أن توفـاه الله سنة خمس عشـرة وستمائـة (٦١٥ هـ)، وهو يُعِدُّ العُدَّةُ لحرب الإفرنج، وبعـد أن خلّص البلاد من فِتنـة الإسماعيليـة. وكان آبنُ مطروح يومَ أن مات العادل فتًى في نحو الثالثة والعشرين من عمره.

ثم عاصر الكاملَ الذي آستقل بحكم مصر بعد وفاة أبيه، وحَكم مصر وغيرها ممـا ضَمَّه إليهـا، إلى أن توفـاه الله سنة خمس وثـلاثين وستمائـة (٦٣٥ هـ)، ولقد كانت للكامل مواقف مشهودة في دِمياط مع الفِرنجة.

---

(١) معجم الأدباء ـ وفيات الأعيان ـ الديوان.

ويَمضي الكاملُ ويَلي العادلُ الثاني، الذي لم يَلْبث غيرَ عامَيْن، ثم خُلِع سنةَ سبع وثلاثين وستمائة (٦٣٧ هـ)، وولي الملك بعد خَلْعه أخوه الملك الصالح، الذي آبْتَلى في آخر حياته بغارة للفرنج على دمياط، شَهدها وهو مريض، فكانت القاضية عليه، فودَّع الحياة في سنة سبع وأربعين وستمائة (٦٤٧ هـ)، أي قبل وفاة آبن مطروح بنحو من عامين.

وما رأينا آبن مطروح حَظِي بشيء في ظل هؤلاء السلاطين الثلاثة الذين سبقوا الصالح، ولكنا رأيناه حينَ وَلِي الصالح أقامه ناظراً على الخزانة بمصر سنة تسع وثلاثين وستمائة (٦٣٩ هـ) أي بعد سلطنته بنحو مِن عامين، ثم رأيناه يَصحب الصالح أنَّى غدا وأنَّى راح. وما إن مات الصالح حتى عاد كما كان، لا يلتفت إليه سلطان، وما عُمِّر بعد الصالح طويلاً فَسُرعان ما أدركته منيَّته بعد نحو من عامين، كما قلتُ لك قبل، عن عُمر لم يبلغ الخمسين.

وديوان شِعره الذي خَلَّفه لنا آبنُ مطروح يكاد يكون جُلّه فيما كان بينه وبين صديقه الذي آصطفاه آبن خَلِّكان، وما مِن قصيدةٍ لابن مطروح قالها إلا وكان ابنُ خلِّكان سامِعَها الأول، ولا تكاد تَجِد في شِعره صَدًى لتلك الأحداث التي وقعت تحت سَمعه وبَصره، وإنما تقرأ له قوله يتغزّل:

قالت لنا أَلِفُ العِذَارِ بِخَدِّه ... في مِيمِ مَبْسِمه شِفَاءُ الصَّادِي

وكذلك تقرأ له في هذا المَنْحى قولَه:

عُلِّقْتُه من آل يَعْرُبَ لَحْظُهُ ... أَمْضَى وأفتكُ من سُيوف عُرَيبِهِ

ويَمْرض مرةً، ويَعيَا الأطباء بعلاجه، فيقول:

يا ربّ إن عجز الطبيبُ فداوني ... بِلَطِيفِ صُنعك وآشْفِني يا شافِي

ويغيب عنه آبنُ خَلِّكان مدةً ويُحِسّ الضِّيقَ فيكتب إليه:

يا من إذا آستوحش طَرْفِي له ... لم يَخْلُ قَلْبي مِنه مِن أُنْسِ

وعلى هذا تَمضي حياةُ آبن مطروح، شاعراً بلا شِعْر، وهل شِعْرُ الشاعر إلاّ

شارك به في الحياة، وجاء أقل قليله لهذا اللَّهو العابث[1].

* * *

## ومنهم: البَهَاء زُهَيْر (١٢٦٨ م ـ ٦٥٦ هـ).

يكاد يكون العَصر الذي أَظَل آبنَ مَطروح هو العصر الذي أَظَلّ البَهاء زُهير، وإن كان البهاء زُهير قد سبق آبنَ مـطروح إلى الوُجـود بنحوٍ من أعـوام عشرة، كمـا سبق ابنُ مطروح إلى الدار الآخرة بنحوٍ من أعوام سَبعة، فلقد كان مولدُ البهاء زُهير سنة إحدى وثمـانين وخمسمائـة (٥٨١ هـ)، وكـان مـولـدُ آبن مـطروح سنـة اثنتين وتسعين وخمسمائة (٥٩٢ هـ)، وكـانت وفاة آبن مـطروح ـ كما مـر بك، سنـة تسع وأربعين وخمسمائة (٥٤٩ هـ).

وهكذا تَرى أنّ البهـاء زهير عـاش سنيه الأولى، وهـو صبيّ، في ظِلّ صـلاح الدين، وحين مات صلاحُ الدين كـان البهاء زهيـر في الثامنـة من عمره، ثم عـايش آبنه العزيز عثمان سِنين سِتًّا، إذ كانت وفـاة العزيـز سنة خمس وتسعين وخمسمـائة (٥٩٥ هـ)، وكان البهاء زهير عندها في الخامسة عشرة من عمره.

ويَلِي العـادل الأَوَّلَ، ثم الكامـلُ الأول، ثم العادل الثـاني، ثم الصالـح سنة سبع وثلاثين وستمائة (٦٣٧ هـ)، وعندها كان البهاء زهيـر قد جـاوز الخمسين بنحوٍ من سِنين سِتّ، وإذا الصـالح يُقَـرِّب البهاء زهيـر ويجعله من خواصّ كُتَّـابه، وحين تُدْرِك المنيّة الملكَ الصـالح سنـة سَبع وأربعين وستمـائة (٦٤٧ هـ)، وكـان عندهـا البهاء زُهير قد جاوز الستين بسنين سِتّ، يلزم البهاء زهير دارَه حتى يُوافيه أجلُه بعد سِنين تِسع.

تُـرى كم أَعطى هـذا العُمْرُ الممتـدّ، الـذي جـاوز في آمتـداده سبعين عـامـاً بقليل، البهاء زهير؟

---

(١) وفيات الأعيان ـ الديوان.

نقرأ له يَمدح الملك الناصر يوسف، صاحب حلب:

وتَـهْتَـزّ أعـوادُ الـمنـابـر بـآسْمِـهِ فهـل ذكـرت أيّـامَهـا وهي قُضْبَـانُ

ونقرأ له يمدح أميراً من الأمراء:

فيـا ظَبْي هـلاّ كـان فيـك آلتفـاتـةٌ ويـا غُصْن هـلاّ كـان فيـك تَعَـطُّفُ

ونقرأ له يمدح أميراً آخر:

وهَـلْ كُنْتُ إلاّ السَّيْفَ خـالَطه الصَّدَا فكُنْتُ لـه فَـذَّ المَـواهب صَيْـقَـلاَ

ونقرأ له وقد صُدَّ عن باب أحد الأمراء:

فمـا لِيَ أَلْقَى دون بـابـك جَفْـوَةً لـغيـرك تُـعْـزَى لا إليـك وتُـنْسَـبُ

ونقرأ له ما يَشْكُر به معروفاً آبتدأ به أحد الأمراء:

وخُـذهـا على مـا خَيَّلت بِنْتَ سـاعـةٍ أَتَـتْـك على آستحيـائهـا تَـتَـعَـثَّـرُ

ثم نقرأ له مُتغزِّلاً:

ومـا كُـلُّ مَخْضُـوبِ البَنَـانِ بُثَيْـنَـةٌ ولا كُـلُّ مَسْلُوبِ الـفؤاد جَـمِيـلُ

وكذا نقرأ له:

كـيـف خَـلاَص مِـن هَـوًى مـازَج رُوحـي وآخْـتَـلَطْ
يـا مـانِـعـي حُـلْوَ الـرِّضـا ومـانِـحِـي مُـرَّ الـسَّـخَطْ
حـاشـاك أن تَـرْضَـى بـأن أمُـوتَ فـي الـحُـبِّ غَـلَطْ

وكذا نقرأ له:

وأنـت يـا نَـرْجِسَ عَيْـنَـيْـهِ كَـمْ تَـشْـرَبُ مـن قَـلْبـي ومـا أَذْبَـلَكْ
مـا لـك في حُسْنـك من مُشْبِـهٍ مـا تَـمَّ في الـعَـالَـمِ مـا تَـمَّ لَـكْ

وتقرأ له يَفخر:

يـا روضـةَ الـحُـسن صِـلِي فـمـا عـليـكِ ضَـيْـرُ
فـهـل رأيـتِ رَوْضَـةً لـيس بـهـا زُهَـيْـرُ

وتغرق به سفينةٌ، فيسلم هو ويُفقد كلُّ ما معه، فيقول:

لا تَعْتِبُ الـدَّهْـر في خَـطْب رَمـاكَ بـهِ إن آسْتَـرَدّ فَقِـدْمـاً طـالـمَـا وَهَـبـا

وربَّ مـالٍ نَمـا من بَعـد مَـرْزِئَـةٍ أمَـا تَـرى الشَّمـع بعـد القَطِّ مُلْتَهِبـا

وعلى هـذا النَّحْو جـاء شِعْرُ البهـاء زهير، فهـل تُرَاه بعـد هـذا صَـوَّر حيـاتـه بأحداثها، وما أكثر ما كـان فيها من أحـداث، وهل كـانت منه لَفْتَـةٌ إلى أُمِّه مِصْـر، التي على أرضها عاش، وفي ترابها دُفِن[1].

* * *

**ومنهم: صَفِيُّ الـدين الحِلِّي عبد العـزيـز بن سَـرَايـا (١٣٤٩ م - ٧٥٠ هـ).**

كان مولده بالحِلَّة سنة سبع وسبعين وستمـائة (٦٧٧ هـ)، وحين شَبَّ وشَعَـر آتَّصل بِبَنِي الأَرْتَق حُكَّام مارِدِين، وكان صـاحب الأمر منهم عنـدها المنصـور الذي آلت إليـه سلطة ماردين سنـة ثلاث وتسعين وستمـائة (٦٩٣ هـ)، أي وصَفِيّ الـدِّين فتى في نحو السابعةَ عشرةَ من عُمره.

ولقـد بلغ ما مَـدح به صفيُّ الـدِّين سُلطانَ مـاردين المنصـور تِسْعـاً وعشـرين قصيدة، أفردها وحدها صفيُّ الدين في ديـوانه الـذي جمعه في حيـاته، ورَتَّبـه على أحدَ عشرَ باباً، منها القصائد الأرتقيّات.

وحين نَفض يَـده من الأَرْتقيّين قَصد قَصْـرَ بني قَلاوون في مصـر، سنـةَ ستٍّ وعشرين وسبعمائة (٧٢٦ هـ)، وكان الأمـر عندهـا إلى النـاصـر محمد بن قـلاوون، فأغْرقه صفيُّ الدين مَدْحاً، كما أغرق آبنه إسماعيل. وكما مَدح صفيُّ الدين هـذين في مصـر مـدح غيـرهمـا، مَـدح مَن هم مُتَّصِلون بـالسلطان، وعلى رأسهم عـلاء الدين بن الأثير الذي وصله بالسلطان.

وكمـا خـرج صفيُّ الـدين من مـاردين حيثُ الأَرْتقيـون بمـا يَعْيى عن حَمله، كـذلك خـرج من مصر حيث بنـو قـلاوون بمـا يَعْيى عن حمله، وآنتهى إلى بغـداد لِيَقْضِيَ سِنيه الأخيرة، وما أظُنّها كانت كثيرة، وأَظُنّه شغلهـا بجمع ديوانه، وترتيبـه،

(١) وفيات الأعيان ـ الديوان.

وتبويبه على أبواب كانت أحدَ عشرَ باباً، كما ذكرتُ قبل. كلها أبواب حول أغراض عامة معروفة: فَخْـر، ومَدْح، ووَصْـف، وغَـزَل، ورِثَاء، إلى غيـر هذا ممّـا لا يَغِيب عنك.

ولقد كنت أَطمع أن أجد من بينها باباً للسياسيّات، أعني مـا وقع تحت سَمْـع صفيّ الدين وبَصره من أحداث لم يَخْلُ منها يوم من أيام حياته، وقد أشـار إليها في مُقدمة ديوانه: فقـد يَذْكُـر سَبَبَ نُزُوحـه عن الحِلّة، مَوْطِنه الأول: ثم جَرت بـالعراق حـرب ومِحَن، وطـالت خُـطوب وإِحَن، أُوجبت بُعـدي عن عَـرِيني، وهَجْـر أهلي وقَرِيني، بعد أن تكمَّل لي من الأشعار، ما سبقني إلى الأمصار، وحدَّث به الـرُّكبان في الأسفار.

وأكاد أنا أضيف إلى ما قال: ووجدتُ وطني أُضْيَق من أن يَضُمَّني، وأَقلَّ من أن يَسعني، فليس ثمة ممدوح يُتْبل، ولا جَوَادٌ يُجْـزِل على الكثير والقليـل، شددتُ الرِّحال، إلى حيثُ المال، أُختار من البلاد، ما يقفل بالأجواد.

من أجل هذا وحـدَه الذي أَضَفْتُـه كانت رحلةُ صفيّ الـدين إلى ماردين أولاً، ثم إلى مصر ثانياً، لا يَعْنِيه إلاّ أن يَجِدَ ممدوحاً يُطْرِيه القول، وهـو أشهى ما يكـون إليه، ولقد وجد هذا الممدوحَ حين آختار المنصور الأرتقيّ، وأَفرده بتِسـعٍ وعشرين قصيدة، وما أَظُنّ منصوراً كان يستحق منها قصيدةً، ولا أن يكون له في ديوان صفيّ الدين هذا الجُزْءُ المستقلّ الذي سمّاه: دُرَر النُّحور، في مدائح الملك المنصور.

ولا أدري لِمَ لَمْ يفعل صفيُّ الدين مع بني قلاوون، فلعل العطاء كان دون ما أَمَّل.

وأقول بعد هذا كله: كيف نُصَدِّق صفيَّ الدين حين يقول:

وأعـرضتُ عن مَـدح الأنـام تَـرَفُّعـاً     سِـوَى مَعشـري إذ كـان مَجْـدِيَ منهمُ

وأكاد أُنْصِف صَفيَّ الدّين حين أقـول: إن هذا كـان في بَدْءِ حيـاته، قبـل أن يترك الحِلّة، وقبل أن يُولد فيه طُموحه، ولكنه بعد أن رأى أنه لا مُقام له في الحِلَّة،

لِمَا ضَجّت به من أحداث، ما بَقِي فيها لِيُشارك أهلَها مِحَنَهم، بل تركها وهو يقول فيها:

مَنْ لم تَرَ الحِلَّة القَبحاء مُقْلَتُهُ ... فإنه في انقضاء العُمر مَغْبُونُ
أرضٌ بها سائِرُ الأهوال قد جُمعت ... كما تَجَمَّع فيها الضَّبُّ والنُّونُ
فالغدر طافِحَةٌ والرِّيح نافِحَةٌ ... والوُرْقُ صادِحَةٌ والظلُّ مَوْضُونُ
ما شأنها غيرُ بَغْي الجاهلين بها ... كأنَّها جَنَّةٌ فيها شياطينُ

وما بَقِي فيها ليدرأ ظُلْماً، بل مرَّ إلى حيث يهدأ هو ويقول:

حَكَمُوا وجاروا في القضاء وما دَرَوْا ... أن الإمارة تَستحيل إلى فَنَا
ظَنُّوا الإمارة أن تَدُوم عليهم ... هَيْهَاتَ لو دانَت لهم دانَتْ لَنَا

وتَجد لصفيّ الدِّين مِثْل هذا من شِعْر في الحِلّة، مِمّا يكاد يكون من الوصف والشَّكْوى.

وبعد هذا فما أظنك في حاجة إلى أن أعرض عليك من مدائحه هنا وهنا من شيء فالاستجداء وإن آختلفت صُوره فهو في حقيقته شيء واحد، إسراف في الفكر، ونكران للذات، ورفع للممدوحين إلى مستوى ليس لهم، على شيء لم يفعلوه، ولا قاربوا أن يفعلوه[1].

* * *

ومنهم: **عائشة الباعُونيّة (١٥١٦ م - ٩٢٢ هـ).**

في باعُون، التي نُسبت عائشة إليها، كان موطن أسلافها، وباعون من قُرَى الأُرْدُنّ.

أما عنها فقد وُلِدَت في دِمشق، وعلى أرضها نشأت، وإلى معاهدها آختلفت، وكانت لها رِحلة إلى مصر، ثم عادت إلى دمشق لتُدْفَنَ تحت ثَرَاها.

---

(١) شعراء الحلة - الدرر الكامنة - الديوان.

وكان لأبيها يُوسف، ولشيخها إسماعيل الخَوارزمي والمَحْيوي يحيى الأَرقويّ أَثَـرٌ كبيـر في تَنشئتهـا تلك التَّنشئـة التصـوفيّـة التي تمخضت عن مؤلفـات عـدة في التصوُّف، نَثْرية وشعرية، منها:

الفتح الحنفيّ، ويضم كلمات لَدُنيّة.

الملامح الشريفة، والآثار المُنيفة، ويضم إنشادات صوفية.

دُرَرُ الغائص في بَحر المُعجزات والخصائص، قصيدة رائيّة.

الإشـارات الخفيّـة، في المنـازل العليَّـة، أرجـوزة تلخص منـازل السـائـرين للهَرَوِيّ.

أرجوزة تلخص القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع، للسَّخَاوِيّ.

وهكذا ترى كيف تجرّدت عائشة من دُنويّاتها لتعيش لأُخْروياتهـا، فِعْلَ غيـرها من الشعراء الذين عَفُّوا عن أن يشاركوا فيما هو دُنيويّ، ففرغوا لما هو أُخرويّ.

لقد كان العصر الذي يُظِلُّ عائشةَ الباعونيّة عَصْرَ قانصوه الغُوريّ، الذي كانت بينـه وبين السلطان سَليم العُثماني حُـروب آنتهت بمقتل قـانصوه، وفي السنـة التي قُتل فيها قانصوه كانت وفاة عائشة.

هـذه الأحداث وغيـرُها لم تشغـل بالَ عـائشة في قَلِيـلٍ أو كثير، بـل عاشت لزُهدها وتصوّفها، بعد أن نَفضت يـديها من شؤون الحيـاة جُملة، اللهم إلاّ ما كـان بينها وبين من أَسْدَوْا إليها معروفاً ما.

فلقد أكرم صاحبُ ديوان الإنشاء بمصر وفادتها، فكتبت إليه تمدحه:

روى البحـرُ أسبـابَ العـطا عن نَـدَاكُمُ وَنَشْــرَ الصَّبــا من مُستــطاب ثَـنَــاكُمُ

ويُثْنِي شيخُ الأَدباء بمصـر عليها بقصيـدة بعث بها إليهـا فتُحييه بقصيـدة تقول فيها:

وافَتْ تُتَـرْجِمُ عن حبْـرٍ هــو البَحْــرُ بَــدِيعـةٌ زانهــا مــع حُسنهــا الخَفْــرُ

ويَمضي الأمرُ بينها وبين هذا الشيخ مدةً يُثني عليها وتُجيبه . .

وتلتفت مرةً إلى ما في دمشق من مفاتن فتقول:

نَــزِّه الــطَّرْفَ في دِمَشْقَ ففيهــا  كُــلُّ مــا تشتـهي ومــا تـختــارُ

وأسائل نفسي : كيف وجدت عائشةُ من من فراغهـا ما تَخُص بـه هذه الشؤون الـدنيويـة، التي لا يُؤبه لهـا، بهذا القـدر من الشعر، ولم تَخُصّ مـا هو أجـدرُ منـه بشيء.

وما كان أولاهـا، أن تذكـر أن الإنسان خُلق لـدنياه وآخـرته معـاً، وأنه إذا مـا التفت عن أخراه شيئاً فما أولاه في لفتته تلك أن يشغلها بما يُفيد الوُجود[1].

---

(١) الكواكب السائرة ـ الشذرات ـ الديوان.

## (١٤)
## تعقيب

ويَمضي الشِّعر على هذه الوَتيرة، قد خَلع عنه رِداء الدُّنيا وآرتدى رِداء الآخرة، يُمليه زُهْد في الدنيا ورَجاء في الآخرة.

وما كان هذا الزُّهد زُهْدَ القادر قد كَفّ نَفْسَه عما في يَدَيْه، ولكنّه كان زُهْدَ اليائس عن وُجوده، الذي لا يملك من أسبابه شيئاً.

وفي الحقّ لقد كانت الحياةُ لا تَطْلُع شمسها إلاّ على فِتَن، ولا تُرْخي سُدُولَها إلاّ على إحَن، مُلُوكٌ ذاهبون، وملوك طامِعون، والناسُ بين هؤلاء الذاهبين وأولئك الطامعين هم المُبْتَلُون، ويَدْخُل على الأمة العربية مَن لَيْسُوا من الأُمَّة العربيّة، لا كدُخولهم بالأمس مَسُودين، بل دُخولَ السائدين.

فلم تجد الكَلِمَةُ في ظِلّ هذه البلبلة آنطلاَقتها، ولا هي بالمُستطاع كَبْتُها، فكان لا مَعْدِلَ لها عن أن تَلُوذَ بآخرةٍ آمنة، تُفْرِغُ فيها شُحنتها، فإذا نحن بين يدي شِعْرٍ أُخْرَوِيّ، وكأن الشُّعراء في الآخرة يَعيشون، لا في الدنيا يُقِيمون.

غيرَ أنه من الطريف أنّ رِبْقَةَ الماضي كانت لا تزال آخذةً بالأعناق، وكما عاش مَن سَلَفَ من الشعراء يَبْحَثُون عن مَمْدُوح، عاش مَنْ خَلَف من الشُّعراء يبحثون عن ممدوح، وقد يكون للأوَّلين من الشُّعراء عُذْرُهم في مدحهم من يمدحونهم وهم منهم، ولكن ما عُذر المتأخرين في مدحهم من مدحوهم وهم ليسوا منهم، تلك هي الرِّبقة التي وُلد بها الشِّعر العربيّ، وبها عاش، وما آنحلّت عن عُنقه يوماً، وكأنّ الشعر أول ما جرى جَرى على لسان مَدَّاحٍ مُتَكَسِّب، وعلى هذا الدَّرب سار لم يَحِدْ يميناً ولا شِمالاً.

وحتى هذا الشعر الأُخرويّ في مَدحـه، لم يكن فيه عُمْق الفِكـرة، فالمـدائح النبـويّة التي فـاضت بها تلك الحِقْبـة لم تُجاوز الصفـات الخلقِيّة للرسـول ﷺ إلى مَرَامِي الرِّسالة، وفيها الكثيرُ ممّا تَعْجِزُ الأقلامُ عن حَصْره، وهذا ما نَلمسـه جَلِيّاً في قصيدتي عائشة الباعونيّة.

الفَتح المُبين في مدح الأمين.
والمَورد الأَهنا، في المولد الأَسْنى.
ثم في قصيدة محمّد بن نجم الهِلاليّ (١٠١٢ هـ).
سَجْع الحمام، في مدح خير الأنام.

وحين ينحرف هذا الشعر الأُخْرَوِيّ عن الجادَّة شيئاً يأخُذ في مَدْح الأشراف، لا يتناول أفعالهم، وفيها الكثير ممّا يُؤْثَر، ولكنّه يَقْصُر هَمَّـه على صفاتهم الخَلْقِيَّـة، وما وَقع بَصَرُه عليها، وهـذا ما نقـرؤه في شعر الشِّبْـراوي القاهـريّ (١٧٢٢ هـ) في ديوانيه:

١ ـ الإتحاف، بحُب الأشراف.
٢ ـ منائح الألطاف، في مدائح الأشراف.

ثم إذا هذا الشعر الأخرويّ يَعُود دُنْيَـوِيّاً بَحْتـاً، ويَهْبِطُ إلى ذلك الـدَّرْك الذي لم تَرضه للشعراء حين مدحوا مَن ليسوا منهم.

فنرى محمد بن جلال الدين القُدسيّ (١٠٥٥ هـ) الذي بدأ حياتـه قاضيـاً في البوسنة وصوفياً، نَراه يُفْرِد ديواناً في مدح أعيان الآستانة.

ونـرى من بعده مَنْجـك الدمشقي (١٠٨٠ هـ) يتـرك لنـا ديـوانـاً يبـدؤه بمـدح السلطان إبراهيم (١٠٥٥ هـ).

تلك صُورة لِمَا كان عليه الشّعر إلى زوال سلطان العثمانيين، ولنأخذ فيما بعد هذا إلى أن ننتهي بك إلى عصر شاعرنا شـوقي، الذي من أجـل الحكم على شعره كان هذا التَّمهيد الطويل.

# القرن
# التاسع عشر

## (١٥)

ويطالعنا القرنُ التاسعَ عشر الميلاديّ، ويُطالعنا مع طُلوعه شُعراؤه، فإذا نحن مع شِعْرٍ لا يبْعد كثيراً عن مَنهج السَّلف وأغراضهم، وإن هانَ شيئاً.

وهنا ما يتجلّى لنا في شِعر البَربر (١٨١١ م)، ثم في شعر الخشّاب المِصريّ (١٨١٥ م)، ثم في شعر عمر اليافيّ (١٨١٨ م)، ثم في شعر بُطرس كرامة الحِمْصي (١٨٥١ م)، الذي خصّ فيه الأمير بَشِيراً بمدائح تكاد نستوعب دواوينه الثلاثة، ثم علي الدرويش المصري (١٨٥٣ م) الذي فرغ لِمدح الأُمراء والوجهاء وأفرد خديوي مصر حينذاك عبَّاساً الأول بالكثير، ثم عليّ أبو النصر المنفلوطي (١٨٨٠ م)، الذي خَصّ الخديوي إسماعيل بالكثير من مدائحه.

ويَشِذّ عن هؤلاء أمين الجندي الحِمصي (١٨٤١ م)، وعبد الباقي العمري الموصلي (١٨٦٢ م)، ثم عبد الله نديم المِصْري (١٨٩٦ م)، وعثمان جلال المصري (١٨٩٨ م)، وجبرائيل دلال الحلبي (١٨٩٩ م)، الذين دخلوا حياة الناس وشاركوهم وُجودَهم.

وأنتهي بك بعد هذه الجَولة القصيرة إلى مَن أردتُ أن أبدأ بهم الحديثَ تفصيلاً عن الشِّعر في تلك الحقبة الأخيرة، التي سوف تمتدّ إلى عصر شوقي.

ومن هؤلاء الذين أردتُ أن أبدأ بهم الحديثَ عن الشِّعر في تلك الحِقبة تفصيلاً: **محمود سامي البارودي (١٩٠٤ م - ١٢٢٢ هـ).**

لقد سَبَق مولدُ الباروديّ وفاةَ محمد عليّ الكبير بنحو من عشر سنين، إذ كان مولد الباروديّ بالقاهرة سنة (١٨٣٩ م)، وكانت وفاة محمد علي سنة (١٨٤٩ م).

أي إنّ الباروديّ عندها كان صبياً في العاشرة من عمره، وصبيٌّ في مثل هذه السِّن، وفي هذا المَهْد الذي ضَمَّه، لا بُدَّ أن يكون على شيء من الوَعْي بما حوله.

لم ينشأ الباروديّ في أحضان أُسْرة مَغْمُورة ليجهل أكثَر ممّا يعرف، بل نشأ في أحضان أُسرة كانت موصولةً الصِّلَةَ كلها بمحمد عليّ الكبير، فلقد كان أبوه من أُمراء المدفعيّة، ثم مديراً لدُنقلة، وكان جدّه مُلتزماً لبلدة إيتاي البارود، التي إليها نُسب.

وعلى الرغم من أنّ البارودي فَقَد أباه، وهو في السابعة من عُمره، فهو لم يَفْقِد من يرعاه من أُسرته، وما إن بلغ الثانية عشرة من عمره، أو جاوزها بقليل، حتّى ضَمَّتْه المدرسةُ الحربيّة، شأنُهُ في هذا شأنُ غيره من أبناء الجراكسة والتُّرك، لتكون إليهم المناصبُ الرئيسة في الدولة.

وكان عندها قد خلا عَرش مصر، بعد وفاة محمد علي، ثم آبنه إبراهيم، ليجلس عليه عبّاس الأوّل سنة (١٨٤٨ م).

ويُقْتَل عبّاس الأوّل سنة (١٨٥٤ م) وما جاوز عمره الأربعين إلّا بقليل، وَيَخْلُفه على عرش مصر عمُّه سعيد، الذي آمتد حُكْمُهُ سنينَ تِسْعاً تزيد قليلاً، خَلفه بعدها على عرش مِصر سنة (١٨٦٣ م) إسماعيل، الذي حكم مصر نحواً من سِتَّةَ عشرَ عاماً. عُزِل بعدها وولي آبنُه توفيق سنة (١٨٧٩ م)، الذي في عهده كانت هَبَّةُ عُرَابِيّ (١٨٨١ م)، ثم الاحتلال الإنجليزي لمصر.

ويَمتدّ حُكم توفيق إلى سنة (١٨٩٣ م)، ولي بعدها آبنه عبّاس حلمي عَرْشَ مصر، ثم نُحِّي عنه سنة (١٩١٤ م)، أي بعد وفاة الباروديّ بنحو من سِنِينَ عَشْر.

ولأَعُدْ بك إلى الحديث عن الباروديّ لأَصِلَ ما انقطع، فأقول لك:

إنّه تخرج في المدرسة الحربية سنة (١٨٥٤ م)، وكان عندها في السادسة عشرة من عُمره، وهي السنة التي قُتل فيها عبّاس الأوّل بتَدْبير من عَمِّه سعيد. فيما

يُقال، الذي خلف عبَّاساً على عرش مصر، كما ذكرتُ لك قبل.

وتَرَى الفتى بعد قليل في الآستانة، فيتحيَّنها فُرْصَةً ويتعلّم التركية والفارسية. ثم عاد إلى مصر، حتى إذا ما آل الأمر إلى إسماعيل، ورأى أن يَقْصِدَ قَصْدَ الآستانة ليؤدِّي ما عليه للباب العالي، من ثناء آصطحب معه البارودِيّ.

ويعود البارودِيّ من الآستانة لِيَلِيَ مركزاً مَرْموقاً في الجيش، ثم إذا هو يُوفَد إلى فرنسا على رأس بَعثة عسكريّة، ثم إلى انجلترا.

ويعود البارودِيّ بعد هذه وتلك ليصبح على رأس الحرس الخاصّ.

وتثور إقريطش (كريت) على الباب العالي، ويرى إسماعيلُ أن يُعين البابَ العالي على إخماد تلك الثورة، فيُرسل البارودِيّ على رأس فِرْقة لِقَمْعها، ويُبْلِي البارودِيّ في هذه بلاءً حسناً، فيُنْعِم عليه الخليفةُ بوسام.

وفي سنة (١٨٧٨ م) تُشْهِر روسيا الحربَ على تركيا، وكما أعان إسماعيلُ في ثورة إقريطش أعان في هذه الحرب، وكان البارودِيّ رجلَ هذه الحرب أيضاً، وإذا الخليفة العثمانيّ يُنعم عليه كما أنعم عليه من قبل.

ويعود البارودِيّ، وكان قد أشرف على الأربعين، لِيُعَيَّنَ مديراً للشرقيّة، ثم محافظاً للقاهرة، وإذا إسماعيل يُخْلَع، وإذا توفيق ابنُه يُوَلَّى.

وكان الأمل في توفيق أن يَصِل ما آنقطع بخَلْع أبيه، وكان هذا الأمل تُزَكِّيه تلك الصلة الوثيقة بين توفيق ورجال الفِكر ودُعاة الإصلاح، وهذه الصلة الوثيقة التي كانت بين توفيق وبين هؤلاء. كانت بين البارودِيّ وبينهم، أو قُلْ: إن البارودِيّ كان منهم، من أجل هذا حَظِيَ عند توفيق، وإذا توفيق يُقِيمه مديراً للأوقاف.

ولكنّ توفيقاً ما لبث أن مالَ إلى الحُكْم المُطلق، وإذ هو بهذه يَفْقِد مُساندة الشَّعب له وإذا هو يستبدل بها مساندة الأجانب له، فإذا نفوذهم يَطْغى، وإذا هم القُوَّة المُحرِّكة لتوفيق.

ويَبْرَمُ لهذه رجالُ الفكر أولاً، وكان منهم البارودِيّ، ويَدُسّ عليه من يَدُسّ

لدى توفيق، فإذا هو مُقصًى من الحربيّة والأوقاف معاً.

وكان للجيش ما يَبْرَم به من إيثار الأتراك والجراكسة، فضَمّ هذه إلى تلك، وإذا هو على وَشْك أن يَهُبَّ هَبَّته.

ويُحِسّ توفيق الحرج فيفزع إلى البارودي ويَكِلُ إليه تأليفَ وزارة، على أن يكون هو رئيسها.

ولقد كان للبارودي رَأْيٌ، وللبارزين من رجال الجيش رَأْيٌ.

لقد رأى البارودي أن يأخذ بيد توفيق ليعود به إلى مسيرته الأولى على وَجْهٍ ما، وكان توفيق في هذه راغباً، بعد أن رأى الخطر المُحْدِق به، وكان البارودي يَرَى أنّ ما يُدْرَكُ بالسّلْم وإن قَلَّ خير ممّا يُدْرَكُ بالعُنْف وإن جَلّ، ثم إنّ ما يدرك بالسّلم على الرغم من أنه مأمون، فهو مضمون فلا كُلفة فيه، وأن ما يدرك بالعنف، على الرغم من أنه غير مأمون، فهو غير مضمون، فما أغلى ما سوف يُبْذَلُ فيه.

غير أنّ البارزين من رجال الجيش لم يُصغُوا إلى رأيه وثارُوا بتوفيق يُرِيدون خَلْعه.

عندها كانت المأساةُ التي توقَّعها البارودي، فلقد آنتهزها الإنجليز فُرْصَةً ودَخلوا مصر لحماية العَرش، بعد تلك المعارك التي لا تكافُؤَ فيها بين الجيشين المصريّ والإنجليزيّ.

ثم كانت تلك المُحاكمة التي قَضَت بِنَفْي من قاموا بتلك الثَّورة من رجال الجيش، وإذ كان البارودي لم يبعد عنهم، فقد نُفِي هو الآخر معهم.

ويَقْضِي البارودي سَبْعَةَ عشر عاماً في مَنفاه.

وفي المَنْفى أخذ هؤلاء المَنْفِيُّون يُناقِشُون أنفسهم فيما كان، فإذا هم يتناحرون. وإذا بعضُهم يَلْقِي التبعة على بعض، ويَضِجُّ البارودي بأمرهم بعد أعوام سبعة قضاها معهم في كولومبو فتركهم إلى بلدة أُخرى، قضى فيها أعواماً عشرة، إلى أن وَلِيَ عبَّاس الثاني، فعفا عنه مع غيره، وعاد البارودي إلى مصر سنة

(١٨٨٩ م)، وكان عندها في الستّين، ليقضي سائر عمره، ولم يكن غير أعوام خَمسة.

وكان أوّل من وَصل الباروديّ به حَبْلَه من خديويي مصر هو إسماعيل، وكان أوَّل ما قاله الباروديّ في مَدْحه:

أبو المَجْد نَجْلَ الجُود خالَ زمانه ... أخو الصخر إسماعيل خِدْنُ المَكارِم
هو السَّيْفُ في حَدَّيْهِ لِينٌ وشِدَّةٌ ... فتلقاه حُلْوَ البِشْرِ مُرَّ المَطاعِم
أُهَنِّيك بالمُلك الذي طَال جِيدُهُ ... بِعزّك حتى حَلَّ بيتَ النَّعَائِم

وكان الباروديّ عندها في الآستانة، وكان إسماعيل قد ذهب إليها بعد أن غدا خديوياً لمصر للشُّكْر، وكان ذلك سنة (١٨٦٣ م) والبارودي في الرابعة والعشرين من عمره.

ثم إذا الباروديَّ بعد أن ترك الآستانة وعاد إلى مصر، مع إسماعيل يهنيء إسماعيل بالخديوية فيقول:

فَٱنْعَمْ بخير ولايةٍ وَلِّأكَهَا ... ربُّ العِبَادِ برغم كُلِّ رَقِيبِ

وبعد هذا بأعوام تِسعة كانت لإسماعيل زَوْرَةٌ للآستانة، عاد بعدها إلى مصر، فلم يفعل الباروديّ غير أن أرّخ لتلك العودة بأبيات أربعة يقول فيها:

رَجع الخديو لِمِصْرِهِ ... وأَنْتَ طائعُ نَصْرِهِ
وتهلَّلَتْ بقُدومِهِ ... فَرَحاً أسِرَّةُ عَصْرِهِ
فَلْتَبْتَهِجْ أوطانُهُ ... بِحُلولِهِ في قَصْرِهِ
ولَيَشْتَهِرْ تاريخُهُ ... رَجَعَ الخدِيو لِمِصْرِهِ

وعجز البيت الثاني بحساب الجمل: ٢٧٣ + ٦٥١ + ٣٦٥ = ١٢٨٩ هـ (١٨٦٩ م).

هذا كُل ما قاله الباروديّ في إسماعيل، وإسماعيلُ هو الذي أخذ بيده، كما

مَرَّ بك، ثم إن إسماعيل كان جديراً بأن يُقال فيه ما يُرْبي على هذا بكثير، لا لإطراء ذاته بل لتعداد أعماله، ولكن الباروديّ بَدَا على نَهج آخر خالف فيه الشعراء جميعاً، مَن سَلف منهم ومَن عاصر، وهو أن لا يكون مَدَّاحاً مُسترسلاً، يَمدح على الصَّغيرة قبل الكبيرة، للارتزاق في الأكثر وللرِّياء في الأقل، ويَبدو أن الباروديّ لم يكن على واحدة منهما، إذ سرعان ما نراه يُنَدِّد برجال الحُكم أيامَ إسماعيل، وكأني به يُنَدِّد بإسماعيل تلميحاً، فيقول:

حَكَمُوا مِصْرَ وهْيَ حاضرةُ الدُّنْيَـ ـا فأَمست وقد خَلت في البَوَادِي
أصبحت مَنْزِلَ الشَّقاء وكانت جَنَّةً ليس مِثْلُها في البلَادِ

ثم يعود إلى مثلها ويقول:

ذَلَّت بهم مِصْرُ بعد العِزِّ وآضطربتْ قَواعِدُ المُلْكِ حتّى ظلَّ في خَلَلِ
وأصبحت دَوْلَةُ الفُسْطَاطِ خاضعةً بعد الإبَاء وكانت زَهْرَةَ الدُّوَلِ
بِئْسَ العَشِيرُ وبِئْسَتْ مِصْرُ مِن بَلَدٍ أضحت مُنَاخاً لأهل الزُّورِ والخَطَلِ

وهكذا كان ولاءُ الباروديّ لمصر يَعْلُو على كُلِّ وَلَاء.

ثم يعرف الباروديُّ محمد توفيق، لم يعرفه خديوياً، ولكن عَرفه ناظرَ النُّظَّار، أي رئيس وزراء، في عَهد والده إسماعيل، وكان نُوبار، رئيسَ الوُزراء قبله، وقد أحالت وزارتُهُ خمسمائة وألفين من ضباط الجيش (٢٥٠٠) إلى الاستيداع سنة (١٨٧٨ م) وكان هذا ممّا أثار رجالَ الجيش، فخرجوا في مُظاهرة تَهْتف بسُقوط وزارة نوبار، وسقطت وزارة نوبار، وألَّف محمدُ توفيق وزارةً جديدة، وكان هو رئيسَها، وتطلّع الباروديّ إلى رئيس الوزارة الجديدة تطلُّعَ الآمل في عهد جديد، فقال:

بك آستقامت مِصْرُ حتى غَدت يَحْمَدها الواردُ والصادرُ
وكَيف لا تُبْصِرُ قَصْدَ الهُدَى حكومةٌ أنت لها ناظِرُ

وهكذا أراد الباروديّ مصر قبل أن يُريد محمد توفيق.

وتمضي الأيام، كما قلت لك، وإذا توفيق على عرش مصر، وإذا الأُمور تَسُوء، وإذا الجَيْشُ يَغضب، وإذا له ثَوْرة على توفيق، وإذا هذه الثورة يَقْضِي عليها توفيق بِيَدِ الإنجليز، وإذا البارودي مع الثائرين من رجال الجيش في المَنفى، إلى أن يَلِيَ عبّاس الثاني، ويَعْفو عن البارودِيّ وعن نفر معه، كما ذكرت لك قبل.

ويذكر البارودِيّ هذه اليَد لعبّاس الثاني. فيقول سنة (١٨٩٩ م):

عبّاسُ يا خَيْرُ المُلوكِ عدالةً ... وأجلُّ من نَطق آمرُؤٌ بِثَنَائِهِ
أوليتَنِي منك الرِّضَا وجَلَوْتَ لِي ... وَجْهاً قرأتُ البِشْرَ في أثنائِهِ

ثم قالِ يُهنِّئه بمولد ولده محمَد عبد القادر سنة (١٩٠١ م):

فآهْنَأْ بعَبد القادر الشَّهْمِ الذي ... وافاك يَرْفُلُ في سَناً وسَنَاءِ

وقال يهنئه بعيد جلوسه:

لِمثْلِ ذا اليوم كان المُلْكُ يَنْتَظِرُ ... فآسْعَدْ بها دولةً عُنوانها الظَّفَرُ

وقال يهنئه بعيد الفِطر:

فلولاك ما فازت يَدُ الفِطْر بالمُنَى ... ولاَ نشأت رُوحُ العدالة في النَّاسِ

كانت هذه المقطوعات الثلاث هي كُلّ ما قاله البارودِيّ في سِنيه الخَمس التي عاشها بعد عودته من المَنْفى، ولم تكن غير كلمات شُكر يمليها الوَفاء.

ومن قبل هذا نَقرأ للبارودي قصيدته التي يُودِّع فيها مصر إلى منفاه، والتي يقول فيها:

فإنْ أَكُ فارقتُ الدِّيَارَ فلِي بها ... فُؤَادٌ أضلَّته عيونُ المَهَا مِنِّي

ونقرأ له وهو في منفاه:

يا حَبَّذا مِصْرُ لو دامت مَوَدَّتُها ... وهل يَدُومُ لِحَيٍّ في الوَرَى سَكَنُ
وكُلَّ شَيْءٍ له بَدْءٌ وعاقِبَةٌ ... وكَيْفَ يَبْقَى على حِدْثَاتِهِ الزَّمَنُ

نقـرأ له هـذا وذاك فنُحِسّ كم كان البـاروديّ يُؤْثِرَ مصـر على كُل شيء، فهـو الذي يقول، وقد خرج لإخماد ثورة إقريطش:

ذَكـرتُ مواردَهـا بِمِصْرَ وأَيْنَ مِنْ ... مــاءٍ بِمِصْـرَ منــازلُ الــرُّومَــانِ

وكما قال الشُّعراء في أغراضهم المُختلفـة من وَصف، وغَزل، ولَهـو، وفَخْر، وشَكْوى، وحِكمة، قال الباروديّ لِيُشْبِعَ شاعريّته، قد يَنْطق عن مُجَاراةٍ حِيناً، وقـد ينطق عن واقعٍ حيناً آخر، ولكن حَسْبنا منه أنه يكاد يكـون الأول الذي آطَّـرَحَ رِدَاءَ المدَّاحين، وخلَّص الشِّعْر من هذه الوَصْمة.

وكم كنّا نُحِبّ أن نراه، وقد آكتملت له مواهبُ كثيرة، أن يكون أكثرَ مُشـاركة في الحياة التي آزدحمت بمشاكلها، فلقد كان رَجُلَها الواعي الذي لم تَخْدَعه الحياةُ بِخُدَعِها.

وما نُنكر أنه بَرِمَ بالكثير، وعاب الذي بَرِمَ به وشَهَّر به في صَراحة وشجاعة.

كمـا لا نُنكر أنـه كان على أن يَمْضِيَ في الـطريق إلى آخره بـأسلوبـه الـذي أرساه، ولكنه سَرعان ما نُفِي إلى سيلان، وهو لم يُجاوز الأربعين إلاّ بسنين ثـلاث، وإذا هو يقضي في منفاه سَبعةَ عشرَ عاماً، هي عُمره كله فيما أخال، ثم يعود بعـدها إلى مصر وهو في الستّين، وقد هُدَّت قُواه، ليعيش أعوامـاً خمسةً لا يَملك فيهـا قُوَّةً بدنيَّة ولا قُوَّة ذِهْنِيّة.

ومن هنا أستطيع أن أقول؟ لقد كان الباروديّ بما طـالعني به مَـرْجُوّاً للكثيـر، ولكنا فقدنا بِنَفْيِهِ هذا الكَثيرَ، ولم يَبق لنا منه إلاّ هذا القليل، الـذي سَنَّه للشعـراء، وهو أن لا يكونوا مَدّاحين[1].

* * *

## ومنهم: محمد حافظ إبراهيم (١٨٧٢ م - ١٩٣٤ م).

إنْ صَحَّ أنَّ شاعـرنا حـافظاً وُلِـدَ في هـذه السنـة، أعني سنـة (١٨٧٢ م)،

---

(١) أعلام الجيش البحرية - تراجم مشاهد الشرق الديوان.

فيكـون قد قَضَى شبـابـه في ظِـلِّ حُكم الخـديـوي تـوفيق، الـذي آمتـدّ منـذ سنـة (١٨٧٩ م) إلى سنة (١٨٩٢ م)، وكان الاحتلال الإنجليزي قـد آستشرت سَـطْوته، والمصريُّون يُنـاهضونـه، تُزْكِي فيهم حميَّتهم أقـلامُ الكُتّاب صـراحةً مـرةً، وتلميحاً أُخرى، فلقد كان بَطْش المستعمر لا هوادة فيه ولا لِين.

ولم يكن شاعرُنا بعيداً عن هذا الصِّراع منذ أنْ عَقَل، وما أُظُن حياتَه الأولى، التي خـطاها في دَرْب الشِّعـر، الذي أُولـع به صَغِيـراً، خَلَت من مُشَاركـة بالبَيت أو البيتين، وإن كان ديوانُهُ لم يظفر بشيءٍ منها.

ويُطلُّ عهدُ عبّاس حلمي، وشاعـرُنا قـد آستوت قَـدَماه على الـطريق، وآزداد بَصَـراً بالحيـاة، وإذا مجال القـول في الحياة السيـاسيّـة قـد آنتعش شيئـاً، وآختفت الرَّهْبَةُ من النُّفوس، وجلّت محلَّها الجُرْأة والشَّجاعة.

وتلتفّ القلوبُ حـولَ عبّاس، حين رأت فيـه خيرَ خَلَف، ويَبْـرُز شاعـرُنـا بين الصُّفوف، وإذا له الصوتُ المُدَوِّي، والكلمةُ الشِّعريّة الواعظة.

والقاريء لديوان حافظ يُحِسّ مِصْريَّته بأَجْلَى صُوَرها.

فما تَرك حافظ أخاً له، علا أو دنا، إلاّ شاركه أفراحه وأتْراحـه، وما كـان أكثرَ من آخـاهم حافظ، ثم مـا أكثر مـا مَدح، وَرَثَى، وعَـزَّى، وتَوَجَّـع، وقد يَهُـولَك أن تعرف أنهم جاوزوا الأربعين عدّاً، كما قد يَهولك أنّ ما قيل فيهم يُرْبِي على ضِعْفَيْ هذا العدد.

لا عن آستجداء فَعل هذا حافظ، كما كان دَيْـدَن الشُّعراء من قبـل، بل كـان لذلك الطَّبْع المِصْرِيّ الذي عاش به المِصْريّون ولا يزالون يعيشون، كما يجتمعـون على الأفراح، يجتمعون على الأتْراح.

وما مَدح حافظ عبّاسـاً بتلك القصائـد القليلة رغبةً في عـطاء، بل لهـذا الذي قلتُـه لك قبـل، من إحسـاس المِصْـريّين عنـدهـا بمشـاركـة عبّـاس لهم في هَبَّتهم الوطنيّة.

هذا عمّا كان لحافظ مِن مدائحَ وتهانٍ وتعازٍ، ومراتٍ، لم يُمْلها عليه غيرُ هذا الشُّعور المصريّ الأصيل بالوحْدة الاجتماعيّة، وما أنا بحاجة إلى أن أعْرِض لها بِسَوْقِ نَمَاذجَ منها، فهذا التَّحليلُ لها يُغْنِي.

وما جَدَّ في مصر أمْرٌ ذو بال من الأمور الاجتماعية إلّا كان حافظ أوَّل داعٍ له، إن كان خيراً يُرْجَى، أو باكٍ عليه إن كان شرّاً وَقع.

تقرأ له في ملجأ للأطفال أُقيم:

| | |
|---|---|
| أيها الطِّفْلُ لك البُشْرَى فقد | قَدَّر الله لنا أن نُنْشَرَا |
| لا تَخف جُوعاً ولا عُرْياً ولا | تَبْكِ عيناك إذا خَطْبٌ عَرَا |

ونقرأ له في جَمعية لعَوْن العِميان أُقيمت:

| | |
|---|---|
| إنّ حَقَّ الضَّرير عند ذوي الـ | أَبْصَارِ حقٌّ مُسْتَوْجِب التَّقْدِيسِ |
| لم يَضِرْهُ فِقْدانُهُ نُورِ عَيْنَيْـ | ـهِ إذا آعتاض عَنْهما بأَنِيسِ |

وتقرأ له في مدرسة للبنات أُقيمت:

| | |
|---|---|
| الأُمُّ مدرسةٌ إذا أَعْدَدْتَها | أَعْدَدْتَ شَعْباً طَيِّبَ الأَعْرَاقِ |
| الأُمُّ أستاذ الأَساتذة الأُلَى | شَغلت مآثرُهم مَدَى الآفاقِ |

وتقرأ له يَستنهض الهِمَم لإقامة الجامعة:

| | |
|---|---|
| فما لَكم أيّها الأقوام جامعةٌ | إلا بجامعة مَوْصولة السَّبَبِ |
| هذا هو العَمَلُ المَبْرُورُ فاكْتَتِبُوا | بالمال إنّا اكْتَتَبْنا فيه بالأَدَبِ |

وتقرأ له في الدِّفاع عن اللغة العربيّة:

| | |
|---|---|
| أرى لرجال الغَرْب عِزّاً وَمِنْعَةً | وكم عَزَّ أقوامٌ بِعِزِّ لُغَاتِ |
| أيُطْرِبكم من جانب الغَرب ناعِبٌ | يُنادي بوأْدِي في رَبيع حَيَاتِي |
| فلا تَكِلُوني للزَّمان فإنَّنِي | أخاف عليكم أن تَحِينَ وَفَاتِي |

وتقرأ له وقد أَسِيَ لحريق ميت غمر، إحدى مُدن مِصْر:

أيّهـا الـرَّافِلُون في حُلَلِ الـوَشْـ ـي يَجُـرُّون للذُّيُـول آفتخـارَا
إن فـوق العَـرَاء قـومـاً جِيَـاعـاً يـتـوارَوْنَ ذِلَّـةً وآنْـكِـسـارَا

هذا قليل من مُشاركة حافظ في حياة مِصر الاَجتماعية، فلنقرأ لـه مشاركـاته السياسية:

يَفزع لتوغُّل الإنجليز جَنُوباً في السودان، وفَرْض سلطانهم عليه، وما سيكـون وراء هذا من ضَياع للقُطْرَين معاً، مصر والسودان، فيقول:

فَمَا مِصْرُ كالسُّودان لُقْمَـة جائـعٍ ولـكـنّـهـا مـرهـونـةٌ لأَوَانِ
دَعَـانِي وما أَرجَفْتُما بـآحْتمـالـه فـإنّي بمَكْـر القـوم شِقُّ زَمَـانِي

وشق: كاهن قديم عرف بالإنباء عن الغَيب.

ويُحِسّ من سُلطان مَـرَّاكُش شيئـاً من التـراخي، يُخْشَى منـه على مَـرَّاكش، فيقول:

عبـدَ العـزيـز لقـد ذكَّـرْتنـا أُمَمـاً كـانت جِـوَارَك في لَهْـوٍ وفي طَـرَبِ
ذَكَّـرْتَنـا يـومَ ضـاعت أرضُ أَنْـدَلُسٍ الحَرْبُ في الباب والسُّلطان في اللَّعِبِ

وتَهُزّ حادثةُ دِنْشَوَاي قُلُوبَ العالَم كُلِّه، مع قَلْب مِصْـر، ويَحمل حـافظُ نَصِيبَه في هذه المأساة فيقول:

ليتَ شِعْـرِي أتِلْكَ مَحْكَمـة التَّـفْتِيـ ـشِ عـادت أمْ عَـهْـدُ نِيـرون عَـادَا

ويَنْعِي على الإنجليز آحتلالهم لمِصْر فيقول:

لقـد كـان فينـا الـظُّلْمُ فَـوْضَى فَهـذَّبَتْ حـواشِيـه حتَّى بـات ظُلْماً مُنَـظَّمَـا

وَيهُـزه الطَّرَبُ لنُـزول طيَّار عُثْمـانيّ بأرض مِصـر، وكـان العـالم العـربيّ كُلُّه عندها يعقد آمالاً كِبَاراً على الخِلافة العُثمانيّة، فيقول:

أهــلاً بــأوَّلِ مُـسْـلِمٍ في المَشْـرِقَيْن عَـلاَ وَطَـارْ
الـنِّـيـلُ والـبُـسْـفُـورُ فيـ ـكَ تَجَـاذبا ذَيْـلَ الفَخَـارْ

ويخاطب المُعتمد البريطاني في مصر فيقول:

أَوْضِحْ لِمِصْرَ الفَرْقَ ما بَين السِّيَادة والحمايَهْ
ودَع الوُعُودَ فإنّها فيما مَضَى كانت رِوَايَهْ
تَزْجُر حياةً حُرَّةً مَضمونة في ظِلِّ رايَهْ

وعلى هذا النَّمط جَرَى حافظ، لا يترك فُرْصَةً للقول إلّا آغْتَنَمَها، يَذْكُر ما يُعانيه وطنُهُ الخاص مِصْر، ووطنه العام الرُّقعة العربيّة، بأسى مرةً، ويَستنهض الهِمَم أُخْرَى، ويُعَدِّد مثالبَ الاستعمار ثالثةً.

وبهذا نَستطيع أن نقول: إن الشِّعر العربي قد عَرف طريقه الحقَّ على يد الباروديّ أوَّلاً، ثم على يد حافظ ومَن عاصروا حافظاً ثانياً، وتحلَّل من تلك الوَقْفات المُخْزِية على أبواب السلاطين يَسْتَجْدِي، ولا صِلَةَ له بالحياة مِن حوله، فما عرفَ حياةً إلّا حياة السلاطين، يَفْرح لِفَرحهم، ويَحزن لحُزنهم، فَرحاً كاذباً وحُزْناً كاذباً، ولو أنهما كانا عن صِدْق لارتضيناه شيئاً ما[1].

❊ ❊ ❊

ومنهم: خَليل مُطْران (١٩٤٩ م - ١٣٦٨ هـ).

شاعر آحتضنه وطنان، فلقد وُلِد ببَعْلبك، وتلقّى عِلْمه ببيروت، ثم سكن مِصْرَ.

وعاش على الولاء للبُنْان ومصر جميعاً، ووَصل نفسه بشُؤون أهلهما أكثر ممّا وصل نفسه بقضاياهما. لذا جاء شِعره كلُّه للناس لا للأوطان، مَدَح، وهَنَّأ، وشَكَر، ورثَى، وأَثْنى، وليس ثَمّة غيرُ لَفتات قليلة للقضايا العامّة، جاءت تلميحاً أو إشارة.

ولقد عايش خليلٌ عُهوداً حافلة بالأحداث، ولكنّا لا نجد لهذه الأحداث صدًى في شعره، إلّا ما جاء من ذلك عَفْواً، كما قلتُ لك.

---

(١) مشاهير شعراء العصر - الديوان.

وعاش خليلٌ صديقاً للجميع، ما هَجَا ولا نَقد ولا ذَمَّ، وما أَوْلَى ديوانَه أَنْ يُسَمَّى: إخوانيّات، ثم ما أَولاه أن يكون سِجِلًّا لرجال لا نعرف عنهم الكَثِير.

وحَسْب خَليل في دِيوانه أنّه لم يَصِلْ نَفْسَه بالماضي، فيأْجُرُ نَفْسَه لِمن يَمْدحهم، بل وصلها بالحاضر على نَحْوٍ ما، أَمْلَى هذا عليه جُنُوحُه للسّلم فيما يَبدو لي.

وما أرى القارىء بعد هذا في حاجةٍ إلى نماذج من تلك الإخوانيّات، فهي لا تختلف عن غيرها، إلّا في مَساقها، وأنا هنا لا أَعرض إلّا ما يَدُلُّ على جيد[1].

وحَسْبي هذا الذي قدَّمتُ عن الشِّعر، مُنذ أن كان إلى الآن، تَمْهيداً، ولآخُذ بك في الحديث عن شَوقي.

---

(١) السوريون في مصر ـ الديوان.



شوقي



## (١)

في سنة ثمان وستين وثمانمائة وألف (١٨٦٨ م) حَظِيت مصر بمولد شاعر، وكان هذا الشاعر هو أحمد شوقي وما أُريد أن أحدثك عن آبائه وأمهاته، فكلمته التي يَضُمّها قسم النثر من هذه الموسوعة كَفَتني مؤونة هذا. وإن ما أريد أن أحدِّثك عنه أن مولده كان في عهد خديوِي مصر حينذاك إسماعيل الذي تبوَّأ عرش مصر سنة اثنتين وستين وثمانمائة وألف (١٨٦٢ م).

وعُزل إسماعيل سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف (١٨٧٩ م) وشاعرنا يخطو إلى الحادية عشرة من عمره.

وإذا هو يستقبل عهد توفيق، الذي خلف أباه إسماعيل على عرش مصر، وإذ كان الفتى موصولاً بهذا البيت فقد نَعِم بالسفر إلى فرنسا مبعوثاً سنة سبع وثمانين وثمانمائة وألف (١٨٨٧ م)، أي وهو في التاسعة عشرة من عمره، ليتم دراسة الحقوق التي بدأها في مصر.

ويعود شوقي إلى مصر بعد سنين أربعَ تزيد قليلاً، قضاها في فرنسا ليرأس القلم الإفرنجي في ديوان البيت الحاكم في ظل خديوي جديد هو عباس، الذي خلف أباه توفيقاً على عرش مصر سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة وألف (١٨٩٢ م).

ويكون للمُستشرقين مؤتمر بجنيف سنة ست وتسعين وثمانمائة وألف (١٨٩٦ م)، ولا تجد مصر خَيْراً من شوقي يمثلها فيه.

وتَشُبّ الحرب العالمية الأولى سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف (١٩١٤ م)، وعباس عندها في تركيا، وكانت حليفة لألمانيا ضد انجلترا، ويجدها الإنجليز

فرصة فينحون عباساً ويقيمون حسين كامل سلطاناً لمصر.

وما غاب عن الإنجليز، وكانت الكلمة لهم، أن يُشَرِّدُوا كل من كان موصولاً بعباس، وكان أولَ من شردوه شوقي، وتركوا له الخيار يختار أي بلد غير مصر يحل به، فاختار شوقي إسبانيا التي بقي فيها إلى أن وضعت الحرب أوزارها سنة تسع عشرة وتسعمائة وألف (١٩١٩ م).

وعاد شوقي إلى مصر ليجد على عرش مصر السلطان أحمد فؤاد، الذي كتب له أن يجلس على عرش مصر بعد وفاة حسين كامل سنة سبع عشرة وتسعمائة وألف (١٩١٧ م).

ويكون لمصر مجلس للشيوخ فيختار شوقي ليكون من أعضائه إلى أن توفاه الله سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة وألف (١٩٣٢ م).

## (٢)

وما مضت صفحات هذه الأعوام، منذ أن شبّ شوقي ووَعى، إلى أن آختاره الله إلى جواره، بيضاء، بل كانت تزخر بكلمات كثيرة أملتها الأحداث.

والناس على اختلاف مراتبهم علماً وجهلاً موصولون بما يجري حولهم، وتقع عليه أعينهم، ويبلغ أسماعهم، وهو أشد به صلة إذا ملكوا أن يقرؤوا، ثم هم أشد به تأثراً إذا رزقوا موهبة القول على أية صورة من صورتيها كانت: نثراً أو شعراً.

ولي إسماعيل عرش مصر وهو كهل قد جاوز الثلاثين بنحو من عامين يزيدان قليلاً، ولم يكن ليليَ عرش مصر لولا أن المنية اختطفت أخاه الأكبر أحمد، الذي كانت ولاية العهد له.

وإذا هو بين يدي أعباء ثقال خلّفها له سلفه سعيد، وكان أولها مشروع قناة السويس، الذي حظيت فيه الشركة الفرنسية بامتيازات كثيرة، وكان على إسماعيل أن يُخفِّف عن مصر من قسوة تلك الامتيازات ففعل القليل وعجز عن الكثير.

وفي سنة تسع وستين وثمانمائة وألف (١٨٦٩ م) كان احتفال إسماعيل بافتتاح

تلك القناة، احتفالا بَذل فيه إسماعيل الكثير، وكان شاعرنا شوقي عندها طفلاً رضيعاً في السنة الأولى من عمره.

ولقد كان الشغل الشاغل لإسماعيل منذ أن ولي أن يجعل عرش مصر لأكبر أولاد الخديوي لا لأكبر فرد في الأسرة، كما قضى بهذا قانون سَبق سنة إحدى وأربعين وثمانمائة وألف (١٨٤١ م)، وأن يكون لمصر استقلالها الإداري.

ولقد تمّت له هذه وتلك سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة وألف (١٨٧٣ م)، ولكن بعد أن كلَّفتاه الكثير من البذل للباب العالي، الذي كان مردّ الأمر فيهما إليه.

وكان شاعرنا شوقي عندها صبيّاً في الخامسة من عمره يخطو إلى التعلم.

وكان ممّا فكر فيه إسماعيل أن يَحُدَّ شيئاً من امتيازات الأجانب في مصر، وكان الفصل في أمورهم تتولاه محاكمهم القنصلية، فسعى إسماعيل سعيه لإنشاء المحاكم المختلطة، على الرغم من معارضة علماء الأزهر له، وكان هذا سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف (١٨٧٦ م).

ولقد ظنّ إسماعيل أنه بإنشائه هذه المحاكم المختلطة سوف يقضي على نفوذ محاكم السفارات، فإذا سلطة هذه المحاكم تعلو سلطته، وإذا لها الحق في أن تفصل في القضايا التي على الحكومة، بل وعليه نفسه، وكانت بعد من أقوى الأسباب في عزله.

وكان شاعرنا عندها صبيّاً في الثامنة من عمره، يزيد عليها قليلاً، وقد وعى وأدرك وأخذ في الحياة، لأنّ تنشئته كانت أقدر على أن تخطو به إلى الحياة خطوات أسرع وأوسع.

ولعلنا لا ننسى أن أول من خطا بمصر إلى حكم دُستوري هو محمد علي، وهذا حين أشرك معه في تدبير الأمور مجلسين: مجلساً مخصوصاً من كبار رجال حكومته يعاونه في شؤونه، ومجلساً للشورى من العلماء والأعيان.

ولما آل الأمر إلى إسماعيل أعاد هذا المجلس المخصوص، وكان قد أُلغي،

ثم زاد فشكل وزارة تحمل التَّبِعات سنة ثمانية وسبعين وثمانمائة وألف (١٨٧٨ م).

وكان هذا وشاعرنا شوقي في العاشرة من عمره يزيد عليها قليلاً، قد قدر على أن يقول، فلقد رُزق موهبة القول في سن مبكرة.

وكان إسماعيل مُسْرِفاً في شؤون، لا يعنيه إلّا أن يبدو في مصافّ كبار ملوك الأرض، الأمر الذي جرّه إلى الاستدانة ممّن جلَّ وممن قَلَّ، فإذا هو، أو قُل: مصر، غارقة في الديون إلى ذقنها، للأجانب من هذه الديون النصيب الأكبر، وللأهلين في مصر النصيب الأصغر.

وكم احتال إسماعيل واحتال معه رجاله لينجو بمصر من تلك الأزمة الاقتصادية، غير أن مسعاه ومسعاهم ذهبا سدًى.

وفَزِع الأجانب، أو قل الدول الأجنبية، إلى الباب العالي، لعزله، حين بَدَا لها أنه هو العقبة الكأداء في سبيل أية تسوية.

ويستجيب الباب العالي لطلب الدول بعد لأي، ويعزل إسماعيل في سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف (١٨٧٩ م).

وكان شاعرنا شوقي عندها في الحادية عشرة من عمره، يزيد عليها قليلاً، وقد استوى له أن يُحِسّ تلك الضائقة التي أخذت بخناق مصر، وعانَى منها فقيرَها وغنيها، وأصبحت شُغُلَ المصريين الشاغل، كما آستوى له أن يشهد انتزاع سلطان من على عرشه، وكذا استوى له أن يعرف صلة مصر بالباب العالي، وأنه ثمة سلطان أعلى فوق هذا السلطان الأدنى.

## (٣)

ويَلِي توفيق الحكم في ظلّ تلك الفوضى الضارية: الخِزانة خاوية، والأهالي الفقراء ساخِطون، والأغنياء خائفون، والأجانب متربصون، ورجال الباب العالي طامعون.

وإذا مصر تُفْرَض عليها رقابة ثنائية، من كل من انجلترا وفرنسا، لضمان

حقوق الدول الغربية عامة . .

وما إن أخذت مصر يستوي لها الأمر شيئاً حتى أخذ الجيش يدبر لثورة، وكان للجيش ما أراد، وإذا هو يواجه توفيقاً بفساده، ويلجأ توفيق إلى المراقب الإنجليزي يسأله الرأي، وتتطور الأمور إلى ما هو أسوأ، فإذا فرنسا وانجلترا تتفقان معاً على الإشراف على شؤون مصر ضماناً لما للدول الأوروبية من حقوق.

وتمضي أحوال مصر في هِيَاط ومِيَاط، ويشيع في البلاد أن الجيش على أن يخلع الخديوي، وتجدها الدول المغرضة فرصة لإثارة الفتنة بين المصريين والأجانب ليتهيأ لانجلترا بعدُ الدخول إلى مصر لحماية هؤلاء.

وقد كان، وكانت تلك المعركة بين عرابي والإنجليز في التل الكبير سنة آثنتين وثمانين وثمانمائة وألف (١٨٨٢ م).

وينهزم عرابي، ويمضي الإنجليز إلى القاهرة، ثم يُقبض على زعماء الجيش ويحاكمون، ثم ينفون إلى جزيرة سيلان، وتبدأ مصر عهداً جديداً في ظل الاحتلال البريطاني.

وكان شاعرنا شوقي عندها فتًى يخطو إلى الخامسة عشرة من عمره، قد اكتمل له وَعْيُه، وتفتّح له فكره، فعرف من الأُمور ظواهرها، وإن لم يتعمق بواطنها، ولكنه على أية حال آسى مع الآسين على ما نُكِبت به مصر من بَلبلة لم يُحْسَن علاجها فذاقت من جَرَّائها شراً كثيراً.

وتصفو الأيام شيئاً لتوفيق، ويأخذ الإنجليز بيده ليجعلوا منه تُكَأة لوجودهم في مصر، وإذا مصر تظفر بمجلس شُورى لسنّ القوانين، ثم بجَمعية عمومية من الأعيان.

وإذا للسودان هَبَّة من هبّاته التي لم تنقطع منذ أن دخله محمد علي سنة عشرين وثمانمائة وألف (١٨٢٠ م)، وإذا تلك الهبّة تذهب بجيش لمصر، لم تبق منه ولم تَـذَرْ، وكان هذا سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة وألف (١٨٨٣ م).

ولا تسل عمّا تركته هذه في نفوس المصريين من أسًى، وحُزن عميق، أحسَّه شاعرنا شوقي مع من أَحَسُّوه، وكان قد جاوز الخامسة عشرة بقليل.

وتتابعت كَبَوات الجيش المصري في السودان، لا يكاد ينهض من كَبوة حتى يكبو أخرى، إلى أن مات المهديّ الثائر الأول في السودان، سنة خمس وثمانين وثمانمائة وألف (١٨٨٥ م)، وخلفه ثائر ثانٍ هو التعايشي، وإذا هو يُغريه ما كان، فيندفع لغزو مصر، غير أنه رُدَّ على أعقابه.

وكان شاعرنا شوقي عندها يخطو إلى الثامنة عشرة، ويضع رجليه على أعتاب مدرسة الحقوق التي قضى بها عامين، ثم إذا هو يَشُدّ رحاله إلى فرنسا سنة سبع وثمانين وثمانمائة وألف (١٨٨٧ م) إلى فرنسا ليتم دراسة الحقوق بجامعة مونبلييه.

ويمضي شاعرنا شوقي في فرنسا أربع سنين تزيد قليلاً، بعيداً عن مصر بجسمه قريباً منها بقلبه، ثم يعود بعدها إلى مصر ليجد عرش مصر قد ودعه توفيق، وجلس عليه ابنه عباس، وليجد نفسه رئيساً للقسم الإفرنجي في ديوان عباس سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة وألف (١٨٩٢ م) وكان عندها فتى في الخامسة والعشرين من عمره، كما ذكرت قبل.

## (٤)

وصلة شوقي بهذا البيت الخديوي صلة قديمة، فلقد كُتب لجده من أبيه، وكان يُحسن التركية والعربية، أن يكون من رجال محمد علي، ثم من رجال سعيد، كما كُتب لجده لأُمه هو الآخر أن يكون من رجال إبراهيم ثم إسماعيل، كما كُتب لشوقي أن يدخل هذا البيت طفلاً في الثالثة من عمره على إسماعيل تحمله جدته لأمه.

والمصريون الذين طَوَوْا صدورهم على ألم حين رأوا المستعمرين وزمام الأمور في أيديهم، لم يلبثوا غير قليل حتى أخذوا يفسحون لهذا الألم أن يكون صيحات، بدأت فاترة أولاً، ثم ما لبثت أن أصبحت مُدَوِّية، وإذا ثَمّة نُخبة من ذوي

الرأي والقلم، تُلهب حماس الجماهير حين تَخطبهم، وتحرك فيهم وعيهم بما تكتبه لهم. وإذا ثمة حُزب يضم هؤلاء، وإذا شوقي غير بعيد عن هذا الصراع، يدفعه إليه دفعاً أن البيت الذي هو موصول به قد هِيض هو الآخر، كما هيض الشعب الذي إليه آنتماؤه الأول.

وتمضي الأمور في كر وفر، جولة لمصر وجولة للمستعمر، إلى أن كانت رحلة عباس إلى الآستانة، والتي طاف قبلها بمدن مصر مدينة مدينة، وكأنه يهيىء بهذا النفوس لأمر مُقْبِل، ولقد كان هذا الأمر المُقْبِل، فما إن غادر عباس مصر سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف (١٩١٤ م) حتى نَشبت الحرب العالمية الأولى، وكانت تركيا طرفاً فيها مع ألمانيا، ضد انجلترا ومن معها.

ومن قبل هذا بما يقرب من خمسة عشر عاماً، أي في سنة إحدى وتسعمائة وألف (١٩٠١ م)، كان عَفو عباس عن هؤلاء الضابط الذين ثاروا على أبيه توفيق، والذين حكم عليهم بالنَّفي إلى سيلان. وكما شهد شاعرنا شوقي نَفْيَهم وهو فتًى في الرابعة عشرة من عمره، شهد عودتهم إلى مصر وهو كَهل، قد جاوز الثلاثين بأعوام ثلاثة.

وتراها انجلترا فرصة، والأمر في يدها، فتخلع عباساً، وتُجلس مكانه على عرش مصر حسين كامل سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف (١٩١٤ م).

ولم تَنْس انجلترا أن للعبّاس دُعاةً، يبلبلون الخواطر، وأن على رأس هؤلاء الدعاة شاعرنا أحمد شوقي، فيضطرونه إلى ترك مصر، فيتركها على الرغم منه إلى إسبانيا، سنة خمس عشرة وتسعمائة وألف (١٩١٥ م)، ويعيش شوقي هناك إلى أن تضع الحرب أوزارها سنة تسع عشرة وتسعمائة وألف (١٩١٩ م).

ويعود شوقي إلى مصر ليجد على عرشها أحمد فؤاد، سلطاناً، كما قلت قبل، فلقد كانت سِنُو حسين كامل في السلطة معدودة لم تجاوز الثلاث إلّا بقليل، إذ أدركته منيته سنة سبع عشرة وتسعمائة وألف (١٩١٧ م).

## (٥)

ولقد عرف شوقي فؤاداً ضابطاً في حرس عباس قبل أن يعرفه سلطاناً، وكان أول عهده بدخول هذا البيت الخديوي، أي حين عاد من فرنسا مبعوثاً.

وها هو ذا يعود من منفاه في إسبانيا ليلقاه سلطاناً، ولكن الأسباب التي جمعت بينهما أولاً، وهي ولاؤهما لعباس، عادت أسباباً مُفَرِّقة، فلقد ظلّ شوقي على ولائه لعباس. ومن أجل هذا ترك مصر إلى إسبانيا، ونزل فؤاد عن ولائه لعباس، حين عدا على حقه في العرش. وأخذ يسعى سعيه ليحمله على التنازل فأفلح.

وكم أَسِيَ المصريون حين رأوا عرشهم يعبث به المستعمر، يعزل من يشاء ويولي من يشاء، وما كان شوقي بعيداً عن هذا الأَسَى، بل لقد كان نصيبه منه أكبر.

ويبلغ الصِّدام بين المصريين والمستعمرين في عهد فؤاد أشَدَّه، فما إن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها سنة تسع عشرة وتسعمائة وألف (١٩١٩ م) حتى هبَّت مصر هَبَّتها الخالدة، التي لم يتخلّف عن المشاركة فيها شيخ ولا صبي، ولا رجل ولا امرأة، وهذا حين قبض المستعمرون على سعد وصَحبه، حين ذهبوا إلى العميد البريطاني بالقاهرة يسألونه أن تَبَرَّ انجلترا بعهدها الذي قطعته على نفسها خلال الحرب بالجلاء عن مصر إزاء ما قدمته مصر لها من عون، وكان جواب هذا العميد البريطاني على سعد وصحبه أن حملهم إلى مالطة منفيِّين، فكانت تلك الهبّة الضاربة.

وكان شاعرنا شوقي حاضراً هذا، فلقد كانت عودته من منفاه في إسبانيا، مع تلك الهبة.

وما لان الإنجليز كما لم يَلِنْ المصريون، وكم من دَمٍ أُريق، وكم من أبرياء سيقوا إلى السجون، وكم سَقطت أبدان بأَيْدٍ مصريّة مصنوعة.

ويسعى المستعمر سَعيه، فإذا المصريون مُنقسمون على أنفسهم في غير مَدْعاة إلى هذا الانقسام، وإذا العرش أميل ما يكون إلى المستعمر الذي سانده، لا إلى الشعب الذي تنكر له.

وبهذا حقّق المستعمر خُدعته، وإذا الجهود التي كانت مُجتمعة على غرض أول، تشغل بأغراض ثانوية، وإذا المصريون مختلفون على أنفسهم، وهم لا يعرفون لِمَ هم مختلفون، قد غَلبهم شعورهم، وغابت عنهم عقولهم، وهكذا الأمم تضلّ سبيلها إذا آستسلمت لشعورها، ولم تسترشد بعقولها.

عاش شاعرنا شوقي هذا كلّه إلى أن اختاره الله إلى جواره سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة وألف (١٩٣٢ م) ومصر لم تبلغ نهاية المطاف.

## (٦)

ولعل أول ما يَلفت الدارسَ لشعر شوقي هو ذلك الجانب المديحي الذي خَصَّ به شوقي البيتَ الحاكم، وما أُحب أن أسبق فأَحْكُم قبل أن أسوق ما خَصَّ به شوقي رجال هذا البيت رجلاً بعد رجل، لكن نتبين الأسباب والعِلَل أولاً، ثم يكون لنا الحكم ثانياً.

يُثير البحر المتوسط في شوقي شاعريّته، وهو يصطاف في الإسكندرية عاماً، وتتوارد على خاطره الذكريات فيمضي يُصوّرها شِعراً، وإذا من بين هذه الذكريات التي تُلِحّ على خاطره، ذكرى محمد علي، فيقول:

سبد الماء كم لنا من صلاح ولنا مِنْ وراء مائك ذكرى

يعني صلاح الدين الأيوبي، ومحمد عليّ.

ويحضر شوقي حفلاً أُقيم في القاهرة لرفع الستار عن تمثال نهضة مصر في عهد فؤاد، فإذا شوقي يذكره هنا بمحمد علي، فيقول:

فؤاد أُرفع الستر عن نَهضة تقدَّم جدُّك أبطالها

وحين يَمْثُل شوقي في مؤتمر المستشرقين بجنيف مَندوباً عن مصـر، ويُتحفهم بقصيدته الخالدة التي عدد فيها أمجاد مصر، لا يفوته أن يذكر محمد علي فيقول:

وأتـى المُـنتـمـي لأمــة عُـثـمــا ... ن عـليٌّ مَـن يـعــرف الأحـيــاء

عثمان، يعني الدولة العثمانية. وعلي، هو محمَّد علي.

وحين هنَّأ شوقي السلطان حسين كـامل بسَلطنـة مصر يعـود إلى ما كـان يراود محمد علي من أحلام، فيقول:

رُؤيــا عليّ يــا حُسَين تــأوَّلـت ... مـا أصـدق الأحـلام والتـأويــلا

يشيـر إلى ما كـان يَحْلُم به محمـد علي من إقامـة مملكة مصـريـة مستقلة لا سلطان لتركيا عليها.

وحين يهنىء شوقي أديباً من أدباء مصر هو واصف غالي، على مـا قام بـه من ترجمة مختارات عن الأدب الغربي إلى الأدب الفرنسي، يذكر محمد علي فيقول:

هَـيّـئـوهــا لـمــا أراد عــليّ ... وتمنّى على الـظُّبَي والعـوالي

الظبى: السيوف، والعوالي: الرماح.

وحين كشف كـارنارفـون عن مقبـرة تـوت عنـخ أمـون ربط شـوقي بين مَجـد ومَجد، فقال:

وكم آستعرت جلالَكم ... لمحمّــد والمــالكيـن

يعني، محمد علي.

وحين ودع شوقي بقصيدتـه الناقـدة لأيام كـرومر في مصـر ذكر أيـادي محمد علي على مصر، فقال:

والقُـطْن مَزْروعــاً بفَضـل محمّـد ... في مِصـر مَحلوجـاً بهـا مَغـزولاَ

وحين شارك في تكريم الأديب اللبناني أمين الرَّيحـاني، إذا هو يـذكر محمـد علي، فيقول:

كم من جلائلَ أنْعُمٍ لمحمَّد ... بل كم لإسماعيل بِيضَ أيادِي

وفي قصيدة له عن ثورة عرابي يَعود إلى محمد علي، فيقول:

سَلوا تاريخَنا وسَلُوا عليّا ... ألم يملأ بنا الدُّنْيا دَوِيّا

ورثى رجلاً من رجال مصر الكبار فتعود به ذاكرته إلى مآثر محمد علي، فيقول:

وصِفِ العِزَّ في زَمان علِيّ ... وآذكر اليمن في زمان سَعِيدِ

ويَرثي أُمَّ المحسنين فلا يَنسى أن يذكر محمد عليّ، فيقول:

يُنْهض الشَّرق عليٌّ لم يزل ... مِن بَنيه سيِّد في عابدين

ويُحيِّي جماعة الصليب الأحمر فيُشيد بما كان لمحمَّد عليّ، فيقول:

بُنيان إسماعيلَ بعد محمّد ... كانت مَساعيكم له أركانا

(٧)

ويُقام حفل في الإسكندرية سنة (١٩٠٥ م) لمرور مائة عام على تولي محمد علي حكم مصر، ويشارك في الإشادة بأعمال محمد علي مصريون ملحوظون، ويجد شوقي الفُرصة مواتية ليُفْرِغ ما في جعبته جملةً فيقول:

عَلَمٌ أنت في المشارق مُفْرَدْ ... لك في العالَمين ذكرُ مُخلَّدْ

حبّذا دولة ومُلْك كَبِير ... أنت باني رُكْنَيهما يا محمَّدْ

ويمضي فيقول:

علمت مصر والحجاز وأرض النُّـ ... ـوبِ والشامُ أن عهدك مَسْجَدْ

ويمضي، يقول:

رُكْنَ مصر أقمت بعد آنقضاض ... أُمة جمعت وأمر تَوَحَّدْ

ثم يلتفت إلى سلفه، فيقول:

شَـرَفـاً فـي الـزمـان آل علي جـدّكم سيـد المُلوك المُسَـوَّدْ
إرجعـوا في العـلا إليـه ورُومـوا نَهجـه نهجه الـذي كـان أقصـد

وهكذا أحب شوقي مصر قبل أن يُحب محمد علي، وما أحب محمد عليّ إلّا لأنه أخذ بيد مصر من كَبوتها، وما ذكر شوقي محمد علي إلّا ومصر مُصَوَّرة فيه، وما تحرَّج شوقي وهو يستنهض سلفه ليحذو حذوه، وما خلَّد شوقي محمد عليّ لشخصه، بل خلّده لعمله، ولا ينظر إلى ما عمله لنفسه بل إلى ما عمله لمصر.

فشوقي هنا مع محمد عليّ ليس مادحاً ملكاً لذاته، رجاء صِلاته، بل هو مادح له بلسان مِصر، فعندها الثواب الأجزل، والعطاء الأوفر، وكم كان شوقي حريصاً على الأبقى، من أجل هذا ربط مدحه لمحمد عليّ بما أسداه لمصر لا لشيء غيره.

وقد يقول قائل: إنه أطرى السالف ليرضي الخالف، ولو صحّت هذه ما رأيناه يقول للخالف:

يـا كـريم الجُـدود عِشْ لبـلاد عَيْشُهـا في ذُرَى جُدودك أَرْغَـدْ

وما عايش شوقي محمد عليّ، ولكنه عايش آثاره، فقدّرها وقدّر محمد عليّ معها.

## (٨)

والآن فلنأخذ في الحديث عن شوقي مع خالفٍ آخر هو سعيد.

كان لشوقي قصيدته في مؤتمر المُستشرقين، وهي التي أشرت إليها قبل عند الحديث عن محمد عليّ، وكان نهج شوقي في تلك القصيدة إعطاءَ صورة كاملة عن مصر قديماً وحديثاً، وكان لا بدّ له وهو يصور تلك الصورة الكاملة ألاّ يُغفل ذكر واحد ممّن جلسوا على عرش مصر، وإلّا كان ظالماً في تصويره، لهذا جاء ذكر سعيد في تلك القصيدة، وكان هذا حين يقول شوقي:

وٱذكـر العـادل الكـريم سعيـداً إن قـومـاً لـه ٱنتَمَـوا سُعـداء

وفي الحق لقد كان سعيد كما وصف شوقي حَزْمـاً وعَدْلاً، هـذا إذا اغفرنـا له فَتح باب الآستانة، ثم إذنه لديلسبس بحفر قناة السويس.

وكذا لم يَنْسَ شوقي سعيداً في موقف مثل هذا، وهو رثاؤه لمحمد ثابت، يقول شوقي:

وصِف العـزّ في زمـان علـيّ واذكـر اليُمْنَ في زمـان سَعِيـدِ

هذا وذاك هو كل ما قاله شوقي في سعيد، موقفان أُمْلِيا عليه، وكان لا بدّ لشوقي من أن يستجيب.

ولقد استجاب شوقي لهما حِرْصاً منه على الأمانة التاريخية، وما أسرف في الإطراء ولا جاوز حده، ولا قال غير كلمة عابرة لملء الفراغ.

وقد تقول: ما كان أغناه عنها، ولكنا لو ذكرنا الدافع غفرناها له، فلقد كان شوقي مؤرِّخاً في كل من الموقفَيْن كما قلت قبل، ثم لقد كان لسعيد مع لِينه مع الأجانب وإكرامه شَراهم بعضُ المآثر، فهو الذي أصدر قانون الأراضي الذي أصبح به الفلاح المصري هو المالك الحق لما يَفلحه.

ولعل هذه هي التي قرّت في نفس المؤرِّخ شوقي فجعلها يُمْناً مرة، وجعلها سعادة أخرى، ولم يكن شوقي فيما قال واصفاً لسعيد بغير ما اتصف به سعيد فنتهمه بمدح من هو غير أهل للمدح.

## (٩)

وأقول: ألم يكن من حق إبراهيم بن محمد علي على شوقي أن يذكره ويطيل، ما دام قد حمل عبء المؤرخ، وكلنا يعرف لإبراهيم كلمته المأثورة، حين سُئل: لِمَ هذا التحامل على الأتراك وأنت تُركي؟ فقال: أنا لست تركياً، لقد جئت إلى مصر صبياً، فمَصَّرْتني شمسها وغدوت عربياً لحماً ودماً. كما لا تنسى له

مناداته بالقومية العربية، وكذا لا يُنسى له مواقفه في حرب المورة التي أَقَضَّ بها مضجع الباب العالي، الذي لم يجد يداً من الاستعانة بالإنجليز لإجلائه عن سوريا.

ولقد نزل له أبوه عن إمارة مصر، وأقَرَّ هذا البابُ العالي، غير أن إبراهيم لم يحظ بهذه الإمارة طويلاً، إذ سرعان ما داهمه المرض، ثم سرعان ما اختطفه الموت، ولم يكن قد قضى غير أشهر سبعة، وكان هذا قبل أن يمضي محمد علي إلى جوار ربه.

هذا البطل وهذا الأمير إبراهيم لم يَرِدْ له ذكر على لسان شوقي إلّا في مواضع ثلاثة، وهو المؤرخ الذي وَفَّى كلَّ رجل من رجال هذا البيت العلوي حَقَّه.

وأول هذه المواضع كان فيما قاله يواسي بيروت في نكبتها حين قذفها الأسطول الإيطالي بقذائفه، فهبّ المصريون لمواساتها، وكان على رأسهم الأمير محمد علي توفيق، فقال شوقي:

| | |
|---|---|
| يكفيك برءاً للجراح ومرهماً | أن الأمير محمداً يأسوك |
| هو في ابتناء المجد صورة جدّه | أذكرت إبراهيم في ناديك |

ويذكره ثانياً في قصيدته التي ودَّع بها كرومر، فيقول:

| | |
|---|---|
| قالوا جلبت لنا الرَّفاهة والغنى | جَحَدوا الإله وصنعه والنيلا |
| وحياة مصر على زمان محمد | ونهوضها من عهد إسماعيلا |
| ومحافلاً لا تمَّحي آثارها | وجيوش إبراهيم والأسطولا |

ويذكره ثالثاً في تنديده بعرابي حيث يقول:

| | |
|---|---|
| ألم تك خلف إبراهيم لما | رقى بجواده الأبراج شُمَّا |

وقد يقول قائل: حسب إبراهيم من شوقي هذا، فلقد كانت حياة إبراهيم حُروباً لم تَجْنِ منها مصر غير أن عرفت لإبراهيم شجاعته، ولكنهم أنسوا أن الأيام لم تمتد بين يديه ليحقق لمصر وللعرب بعض ما تمنّى.

من هنا لم يجد شوقي غير ما قال، وحسب إبراهيم منه ما قال.

(١٠)

وهؤلاء الذين حدثتك عنهم من خديويي مصر لم يعايشهم شوقي كما تعلم، ولكنه عايش ذكراهم، فهذا بيت صلة شوقي به قديمة، كما حدثتك قبل، هذا إلى أن هذا البيت كان زمام الحياة المصرية في يده، والأمور كلها في مصر صغيرها وكبيرها تُرَدّ إليه، فصورة مصر فيه، تَحْسن إن حسن رجاله، وتقبح إن قبح رجاله، من أجل هذا كان الحديث عنهم هو الحديث عن مصر، لا نكال بين هذا وذاك، وصفحاتهم هي صفحات تاريخ مصر، قَرأها شوقي ليعرف ما لم يَحْضُره، فعبر عنها بما أُلْقِي في روعه عنها، وحين شبّ وأدرك أغنته المشاهدة عن القراءة، وكان أول من شاهد وتفتحت عيناه عليه هو إسماعيل.

ولقد مرّ بك ما كان من إسماعيل له حين وقعت عيناه عليه صغيراً، كما مرّ بك أن شاعرنا شوقياً كان آبن أحد عشر عاماً حين غادر إسماعيل مصر مُنَحًّى عن عرشه.

وفتى في هذه السن يملك أن يعي ويحكم، لا سيّما إذا كان موهوباً، من أجل هذا كان ذكر شوقي لإسماعيل كثيراً مُحِيطاً، مر بك شيء منه في ثنايا الحديث عن محمد علي، وإليك ما أفرد به شوقي إسماعيل.

يلين الإنجليز شيئاً لجهاد المصريين فيعترفون بمصر مملكة مستقلة ذات سيادة، ويُصبح سلطان مصر عندها أحمد فؤاد ملكاً، وإن كانوا قد ظلُّوا لهم اليد الخَفِيّة في توجيه شؤون البلاد، ولكنها على أية حال كانت خطوة على الطريق، وفي هذا قال شوقي قصيدته، التي منها:

لا رَيب أن خُطَى الآمال واسعة وأنَّ ليل سُراها صُبحةُ آقتربا

والتي يقول فيها يخاطب الملك فؤاد مُذَكِّراً إياه بما كان لأبيه إسماعيل.

بُرد الجلالة جل الله ناسجه لبسته نَسَباً في المهد أو حَسَبَا

ما زال قبلك إسماعيل ينشره حتى طَوى في ثني أذياله الشُّهُبَا

ويُقيم الجغرافيّون في مصر مؤتمراً في دار كان لإسماعيل إنشاؤها فيقول شوقي:

كفى بدار تبوَّأتم أرائكها من عبقريّة إسماعيل عُنوانَا

وتَفقد مصر نفراً من أبنائها سافروا لطلب العلم في أوروبا، فيبكيهم شوقي ويربط بين عهد حاضر وعهد مضى لإسماعيل، فيقول يصف هذه النَّكبة:

جرت بين إيماض العواصم بالضحى وبين آبتسام الثغر بالموكب الحالِي
كثيرة باغِي السبق لم يُرَ مثلها على عهد إسماعيل ذي الطَّوْل والنَّالِ

ويصل جثمان إسماعيل إلى مصر من أوروبا ليُدفن في ثَراها فيخصّ شوقي هذا الموقف بقصيدة طويلة يُحدثك فيها عن إسماعيل منذ أن شَبّ ودبّ إلى أن مات، فيقول فيها:

أين كسرى وأين قيصر ممّا نلت بالمجد أو بَلَغْتَ مُجِدًّا
لبس الشرق من لقائك تاجاً وتلقّى أعوامَ رُشدك عِقْدَا

ويقول فيها:

بانَ مَجْدُ البلاد إذ بِنْتَ والصَّفْـ ـوُ وكان الرجاء حيّاً فأَوْدَى

ويقول فيها:

عُدْ إلى مصرك الوفيّة وآنزل في ثراها وآسْكُن من المهد لَحْدَا

ويشاء القدر أن يَمُرَّ شوقي وهو في رحلة له إلى أوروبا بالدار التي كان ينزل بها إسماعيل بعد أن عزل عن عرشه فيقول شوقي:

أبكيك إسماعيل مصر وفي البُكا بعد التذكُّر راحة المُستعبر

هذا بعض الوفاء من شوقي لإسماعيل، وهو كما ترى وفاء من مصر لرجل من

رجالها، وشوقي هنا مع إسماعيل هو شوقي قبلُ مع محمد علي، أحبهما لِيَدَيْهما على مصر لا ليديهما عليه، وما كان أقلَّ ما ناله شوقي منهما، وما أكثر ما نالته مصر على يديهما، وهذا الكثير الذي نالته مصر هو الذي حرَّك شوقي لذكرهما لا هذا القليل الذي ناله هو.

## (١١)

ولقد ذكرت لك قبل أن الذي خَلَف إسماعيل على عرشه هو ابنه محمد توفيق، وأن هذا كان سنة (١٨٧٩ م)، وأنه كما كانت له أيادٍ عدّها المصريون له، كذلك كانت له أخرى عدّها المصريون عليه، وهو ما كان منه مع عرابي.

ولعلي هنا أستطيع أن أقول: إنها كانت تعلّة من تعلّات الإنجليز، فلقد كان من اليسير أن يدبر عرابي لنيل مطالب الجيش وسيلة أخرى سلمية، وهي إن أبطأت عليه شيئاً فما أظن أن هذا الإبطاء كان سيمتد طويلاً، ولكن الأمر وقع كما دبّر له الإنجليز، فإذا هم على أرض مصر محتلِّين.

ولقد ذكرت لك قبل أن الذي اختار شوقياً ليكون مبعوثاً هو توفيق، وكان هذا سنة (١٨٨٧ م) وشوقي عندها يخطو إلى العشرين.

وحين عاد شوقي من بعثته تلك في فرنسا في أواخر سنة (١٨٩١ م) أدرك أياماً قلائل من أيام توفيق الأخيرة، فلقد ترك توفيق دُنياه إلى أُخراه سنة (١٨٩٢ م).

ويكاد يكون توفيق هو الخديوي الذي عايشه شوقي معايشة حقة، فلقد ولد توفيق سنة (١٨٥٢ م) وولد شوقي بعده بأعوام تقرب من ستة عشرة، وحين ولي توفيق عرش مصر سنة (١٨٧٩ م) عرش مصر، كان شوقي عندها ابن أحد عشر عاماً، يزيد عليها قليلاً وامتدت الأعوام بتوفيق خديوياً كما آمتدت بشوقي طالباً في مصر وفي فرنسا نحواً من ثلاثة عشرة أو تزيد قليلاً، ظفر فيها شوقي برعاية توفيق التي تُوِّجت بإرساله إلى فرنسا ليُتمَّ تعليمه...

تُرَى ماذا كان لهذه الأعوام بخيرها وشرّها من أثر في شوقي الشاعر؟

يبدو أنَّ أول ما قاله شوقي في توفيق هو قصيدته الرائية التي آستهلها بقوله:

سَفــر الحبيب فقلت يــا عين انــظري وتـنــزَّهي فـي حـسـن ذاك الـمـنــظرِ
وبــدا يـميس فــلاح لـي قـمــرٌ عـلى غُـصن رطيب بــالـمحــاسـن مثمــرِ

إلى أن يقول:

لله مـنــه عــدالــة وسـمــاحــة لم تبق من مـتــظلِّم أو مُعْـسِــرِ

إلى أن يقول:

شـرَّفتِ قاهـرة العُـداة فـلا يـرى فيهـا سـوى فَـرحـان أو مستبشـرِ

وإن صـحّ أن هذه القصيـدة كانت أول مـا قال شـوقي فتكـون قـد قيلت سنـة (١٨٨٠ م) أو قبلها بقليل، والبيت الأخيـر ممّا أوردت هنـا يدلـك على أن القصيدة كانت تهنئة لعودة توفيق من مصيفه بالإسكندرية.

وبحسب شـوقي ما ذكَّـر به تـوفيقاً من صفـات أربع، يجب أن يكـون عليهـا الوالي، وهي: العدل، والسماحة، ورفع الظلم عن المظلوم، وعون المعسر.

ثم بحسبه أن ذكَّر توفيقاً بأن الوالي برضا رعيته يعيش وهل يتمثـل رضاهـا إلّا في فرحها به..

غير أننا قد نأخذ على شوقي قوله في هذه القصيدة:

مــولاي قــابِــلْ بــالـقَبــول هــديــة مـن عبــد رِقٍّ فـي الـثـنــاء مُـقَـصِّــرُ

وقد تغفرها له حين تذكر أنه كان عنـدها على عتبـة الحياة، ومـا إن جاز تلك العتبة التي لم يتلبّث عنها غير قليل حتى امتلك وعيه، وعرف نفسه، فتقرأ له في تلو هذه قصيدة في تهنئة توفيق بالعيد الكبير، فإذا هـو يحدثنـا عن نفسه مـزهواً بقلمـه، الذي إليه ما نال فيقول:

ولا استعنت على دهري سوى قلمي ولا صَحِبْتُ سوى الصَّمصامةِ الذكرِ

ثم يدخل إلى مدح توفيق في غير تذلل، فيقول:

لله درّ أبـي العبـاس مـن مـلك          متـوَّج بـالعـلا للفضـل مُبتكـرِ

ولا نراه يعود إلى العبودية والرق، كما فعل في قصيدته السابقة، بل يصور نفسه مَحْسُوداً حين بلغ ما بلغ من قرب من توفيق، فيقول:

في ظـل نعمتك الـواقي ألـوذ          وللحـواسد ظـل الشمس والقمرِ

وهكذا لم يقو شوقي على الإفلات من هذا القيد لمرَّةٍ واحدة.

ويَقْدم توفيق من رحلة له في صعيد مصر فيهنئه شوقي بعودته ثم يخرج من التهنئة إلى ذكر شيء من مآثره فيقول:

شِـدْت للعـدل في البـلاد قُصـوراً          لم تَشِـدْهـا القيـاصـر العـظمـاءُ

لمّ شَمـل الإنصـاف في عصـرك القا          نـونُ فـالـظُّلم شـمـلُهُ أجـزاءُ

وأمـتَّ الـرِّشي بـحَـزمـك كـيـلا          تـتـولـى رجـالـك الأهـواءُ

وهذه من الشاعر حثٌّ لتوفيق على أن يكون لهذه لا يحيد عنها.

ثم يختم شوقي قصيدته هذه بقوله:

وتَـحكَّـم محـبَّبـاً ومُـطاعـاً          فلك النـفس والنـفيس فِـدَاءُ

فترى في هذا الختام عودة إلى ذلك القيد، ولكنها على لون أخف شيئاً ممّا سبق. ويهنيء شوقي توفيقاً بنزوله الإسكندرية، فيقول:

تبسَّم بـالإقبال من مِصـرك الثغـرُ          وأسفرَ للآمـال من وجهك البشـرُ

ثم يقول:

سَهـرت على أمر البـلاد تسوسـه          فنام بظل الأمن في ظلك القـطرُ

ثم يشير إلى ما أنشأه توفيق من قُطُر حديدية فيقول:

كـأنيَ بـالـوابـور يعلو صفيـرُه          فيغدو ووجه الأرض بالرعب مُصْفَرُّ

ثم يذكر تقوى توفيق فيقول:

عهدناك لا تنفكُّ لله خاشعاً فحاشاك لا ترضى بأمر أَرَادَهُ

وهذا جميل من الشاعر ليربط الممدوح بما هو مَحمود له.

والطريف أن ترى شوقياً هنا في هذه القصيدة كاد أنْ يفلت من قيد الرق جملة، تُحس هذا في قوله في الختام:

نظمتُ الدراري في عُلاك مدائحاً صبيّاً وغيري في الشيوخ له الدُّرُّ

غير أننا نراه يهون شيئاً حين يقول بعد هذا:

وإني لأرجو أنّ جاهك مُسعفي فبيني وبين الدهر فيما أرى عُسْرُ

وقال شوقي يهنيء توفيقاً بعيد جلوسه سنة (١٨٩٠ م):

شرفاً أبا العباس هذا ملك مصـ ـر وذي خَزائنه وذلك دستهُ

إلى أن يقول:

فاسمع لعبدك وآبن عبدك منطقاً متطايراً بك في القوافي صيتُهُ
شِعر يقول الدهر عند سماعه هذا فتى الشعراء هذا وقتهُ

وهذا الاعتزاز بالقول من شوقي كان يجب أن يصحبه اعتزاز بالنفس، فما كان أحرى به أن يعود إلى أسر العبودية، بعد أن تحلَّل منه قبل. وأعجب لشاعر يرفع الناس بقوله ويضع من نفسه، وأعزُّ للممدوح أن يرى من المادح ندّاً له لا عبداً.

ولكن يبدو أن الدهر كان لا يزال آخذاً بخناق شوقي، ولم يكن له مفزع يفزع إليه إلاّ رحاب توفيق.

تحس هذا في قوله بعد:

ألفيت جاهك سامياً فقصدتهُ ورأيت بابك عالياً فدخلتهُ
ووقفت فيه مُؤمِّلاً متألِّماً أُثني على البر الذي أُوتيتهُ

إلى أن يقول:

وتقول يا عبدي وشاكر نعمتي فأقول يا ركني الذي أمَّلتهُ

ويقول:

ولســوف تُعــطيني فــأرضى شــاكــراً شكــري لكم من قبـل مــا أُعــطِيتُــهُ

ولنذكر أن هذه القصيدة قالها شوقي وهو في بـاريس مبعوثـاً، وكأنـه رآها مِنَّـةً ليس بعدها، ثم كأنه كان يتطلع بعدها لما هو أسمى منها، لهذا كان هذا التذلُّل.

ويقطع القدر على شوقي ما أمَّـل، فلا يَبْقى لـه توفيق بعـد عودتـه من باريس طويلاً فيقول برثيه:

في أمــانِ النَّعيم تــوفيقَ مصــر فــرع خيــر الــولاة والأولـيــاءِ

ومرت أبيات القصيدة التي أربت على الثمانين بيتاً بقليل ولا ذكر فيها لعبـودية أو رِقّ..

وكان شوقي عندها فتى قد قارب الخـامسة والعشـرين، قد اكتمـل له وعيـه، واستـوت قـدمـاه على الأرض، وغني شيئـاً بنفسـه، وانخلعت عنـه تلك الـدّينـويـة المُسـرفة لهـذا البيت العلوي، التي نالت من نفسـه، وذَلَّ فيها عن غيـر ذُل، وليس ثمة ما نعتذر به غير أنه كان راجياً، ولم يكن أمامه باب للرجاء بعد باب الله غير هذا الباب، يزيدك تأكيداً لهذا غير ما سلف قوله وهو يهنئه بمقدم ابنيه من سيـاحة لهمـا بأوروبا:

ويــا مُنيـل المعــالي والنَّـدى كــرمــاً الـرِّيحِ من غيـر هـذا البــاب خُسـرانُ

ولقد أحسَّها شوقي كبيراً، فحين عَنَّ له أن يُعيد طبع ديوانـه، إذا هو يخلِّصه من هذا المديح المسرف، ويخرج الديوان مجرَّداً من تلك القصائد.

وآحترم من نشروا ديـوان شوقي بعـد هذه الـرغبة منـه، فجردوا هم الآخـرون الديوان ممّا اطرحه شوقي.

ولكن الدارس الجاد لشوقي شاعراً يعنيه أن يرى شوقيّاً في صُورتـه الكاملة لا المنقوصة.. فكـل ما قـاله شـوقي محسوب لـه وعليه، رَضِي شـوقي أم لم يَرْضَ، حتى تكون كلمته عن شوقي كلمة كاملة هي الأخرى لا منقوصة.

ولكنا على هذا لا نظن أن شوقياً عادت له حرّيته من هذا الرق كاملة، ولكنها زادت يوماً بعد يوم، وكانت مع سلطان غيرها مع سلطان يليه. وإليك ما كان.

## (١٢)

ويصبح شوقي بعد أن ودَّع توفيقاً في عداد الرجال المُحيطين بهذا البيت العلويّ، الموصولين به، على نحو ما كان عليه جده لأبيه، ثم جده لأُمه.

فكما كان الجد الأول يتولى أعمالاً بعينها، كذلك كان الجد الثاني يتولى أعمالاً بعينها، وكان ما تولاه شوقي من عمل جعله أقرب ما يكون صلةً بكبير هذا البيت العلويّ حينذاك، وهو عباس حلمي، فقد ولي شوقي بعد عودته بقليل من فرنسا في أواخر سنة إحدى وتسعين وثمانمائة وألف (١٨٩١ م) قسم الترجمة في القصر الخديوي، وكان هذا بعد أن ولي عباس حلمي في أوائل سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة وألف (١٨٩٢ م).

ولقد يَسَّر هذا العمل لشوقي أن يقرب من عباس حلمي شيئاً فشيئاً إلى أن كان رَجُلَه الأول.

وما مرّ عصر عباس حلمي صَفْواً كلّه، هذا العصر الذي امتد نحواً من آثني عشر عاماً. فلقد أخذ الصراع يشتد بين الشعب وبين الإنجليز، وكان عباس يُذْكِي هذا الصراع بمساندته للقادة السِّياسيّين حينذاك.

وتمضي الأمور بين شدّ وجذب، ولم يقو الشعب لأن يقف لخصمه صفّاً واحداً، إذ لم يكن يملك كلمة موحدة..

فشوقي حين هنأ عباساً بعيد الفطر فقال:

مولاي طلبة مصر أن تبقي لها ... فإذا بقيت فكل خير باقِ

وحين هنأه بعدها بعيد الأضحى فقال:

في ذمة الله الكريم وحفظه ... أمل بعرشك للبلاد محقَّقُ

فهو يناصره على الاستعمار الذي كان يعز عليه أن يرى الخديوي معقد الآمال. وشوقي حين يهنىء عباساً بعودته من الآستانة ويقول:

لك عنده من ما شئت من حب ومن    عطف ومن نصر ومن إكبارِ
عرش على البوسفور معتزٌّ به    عرش قوائمه على الأنهارِ

فهو يزكي في النفوس ذلك الأمل الراسخ في قلوب المصريين عن قيام خلافة إسلامية. وشوقي يودع عباساً حين خرج حاجاً فيقول مخاطباً إياه:

فقل ربِّ وفِّق للعظائم أُمتي    وزيِّن لها الأفعال والعزماتِ

فهو يهيب بالأمة العربية أن تنفض عنها غبار الخمول، وتنهض لتواجه حياة كريمة.

وشوقي حيّا عبّاساً حين زار طنطا مع زورته لعواصم مصر جميعها، قبل سفره إلى تركيا، وكان هذا قبل إعلان الحرب العالمية الأولى بقليل، وكأنّ عباساً كان يهيىء بتلك الزيارات نفوس المصريين لما هو آت عن قريب. ودعا له على لسان السيد البدوي:

لما طلعت عليها قال سيّدها    على يد الله في حلّ وترحال

كان يدعو لعباس بالتوفيق فيما هو مقبل عليه من مهام جسام لم يغب عن شوقي كنهها.

* * *

وشوقي حين ودع عباساً، وهو يترك مصر إلى الآستانة، بعد أن زار عواصم مصر جميعها، كان يعلم أنه مقبل على تضحية غير مضمونة العواقب فيشجعه ويقول:

تجلَّد للرحيل فما استطاعا    وداعاً جنة الدنيا وداعا
عسى الأيام تجمعنا فإني    أرى العيش آختراقاً واجتماعا

وإذا الإنجليز مع سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف (١٩١٤ م)، وهي السنة التي شبَّت فيها الحرب العالمية الأولى، يخلعون عباساً، وكان عندها في تركيا، ويولُّون غيره، ثم يُثَنُّون فيضطرون شاعرنا شوقياً إلى ترك مصر إلى أي بلد يختاره، فاختار إسبانيا، كما مرّ بك.

ولنقرأ لشوقي شعره في تلك الحقبة لِنُسَايِرَ حياته شاعراً.

تُولَد لتوفيق بنت فيهنئه شوقي بمولدها، وليست هي مُرْتجى شوقي، ولكن كان مرتجاه في أخ لها سبقها إلى الوجود، هو عباس حلمي، فنراه بعد أن هنأ توفيقاً بها حيث يقول:

مولاي للنفس أن تُبدي بشائرها  بما رُزقت وأن تُهدي تهانيها
بالشَّمس قَدْراً بل الجوزاء منزلةً  بل الثريّا بل الدنيا وما فيها

نراه بعد هذا يعرج على أخيها عباس فيقول:

عبّاس عِشْ لنفوس أنت طِلْبتها  وأنت كل مُرَاد من تناحيها

وحلّ عيد الفطر وعباس على عرش مصر، فقال شوقي يهنئه:

العِيد بين يديك يابنَ محمد  نَثَر السعود حُلًى على الآفاقِ

ويذكر أمل مصر فيه فيقول:

مولاي طِلبة مصر أنْ تبقى لها  فإذا بقيتَ فكُلّ خير باق

ثم يعود إلى نفسه معتزّاً، لا عبودية ولا رقّ، فيقول:

وأنا الفتى الطائيّ فيك وهذه  كَلِمي هَزَزْتُ بها أبا إسحاقِ

يعني بالطائي: أبا تمّام حبيب بن أوس. ويعني بأبي إسحاق: المعتصم محمد بن الرشيد الخليفة العباسي.

ويلد لعبّاس ولده محمد عبد المنعم بعد طول ترقُّب، فيقول يهنئه:

وكان محمد أَمَلاً شَهَابَا  وكان اليأس شيطاناً رَجِيمَا

ثم يذكر شعب مصر معه فيقول:

أزُفّ نـوابـع الـكَـلِم الـغَـوالـي وأُهـدي حكمتي الشعبَ الحكيمـا

إلى أن يقول:

ويـا جـيـل الأمـيـر إذا نـشـأنـا وشـاء الـجَـدّ أن تُـعْـطَى وشِئـنـا

فـخُـذ سُبُـلاً إلـى الـعـلـيـاء شتّى وخَـلّ دلـيـلَك الـدِّيـنَ الـقَـوِيـمَـا

فلا سلطان ولا أمير، إنما هو شعب مصر الذي حياةُ شوقي بحياته، وإنما هي مصر التي خَفق قلبه بحبِّها قبل أن يلهج لسانُهُ بذكرها.

ويخاطب الأمير فيقول قولة المُعتز بنفسه الشامخ بأنفه:

فإن أُقْـرِئت يـا مـولاي شِعـري فـإن أبـاك يـعـرفـه ويَـدْرِي

وجـدّك كان شـأوي حين أجْري فـأصـرع في سـوابقهـا تَمِيمَـا

وفي سنة (١٩٠٢ م) يعم البلاد وباء، وكان عباس عندها في تركيا، ثم إذا هو يعود بعد أن كُتبت للبلاد النجاة من شَرّ هذا الوباء، فيهنئه شوقي باثنتين: بعودته سالماً، ثم بما كتب لمصر من سلامة، فيقول، وكأني به يعاتبه على تلك الغيبة:

هـل كنت تـدفـع حـاضـراً أو غـائبـاً عـن مصـر حُـكم الـواحـد الـقهّـار

ودهى الـرعيـة مـا دهى فتسـاءلـوا فــي كــل نــادٍ أيـنَ ربُّ الـدار

إلى أن يقول:

عـاد الأمـانُ وعُـدْتُ يـابن محمـد والبـدرُ يجمـل عنـد أمْـن السـاري

ثم يقول:

لك في كتاب الدهر يـابن محمد طُغْـرى مـذهبـة من الأشعـارِ

وما ذَلّ شوقي ذلّته الأولى بل عزّ وآعتزَّ بقوله، وكأنه المانّ لا المُمْتَنّ.

ويخرج عباس حاجاً سنة (١٣٧٨ هـ ـ ١٩١٠ م) فيودعه شوقي ويقول:

إلى عــرفـات الله يــابن محمـد عليـك سـلام الله في عـرفـاتِ

وأُحب أن أَلْفِتك هنا إلى قول شوقي في هذه القصيدة وهـو يتجه إلى الله عـزّ وجلّ:

أرى النـاس أصنـافـاً ومن كـل بقعـة إليـك انتهـوا من غُـربـة وشَتَـاتِ
تسـاوَوْا فـلا الأنسـابُ فيهـا تفـاوتٌ لـديـك ولا الأقـدار مُـختـلفـاتِ

ثم إلى قوله:

ويا ربّ هل تُغني عن العبد حَجّة وفي العمـر ما فيـه من الهَفَـواتِ

ثم إلى قوله:

ومن تضحـك الدنيـا إليه فيَغْتـرِرْ يَمُتْ كقتيـل الغِيـد بـالبَسَمـاتِ

ثم إلى قوله يخاطب عباساً:

إذا زرت يـا مـولاي قبـرَ محـمـد وقَـبَّلت مثـوى الأعـظم العَـطِرَاتِ
فقـل لـرسـول الله يـا خيـرَ مُـرْسَـلٍ أبُـثُّـك مـا تـدري من الحَسَـراتِ
شُعـوبـك في شـرق البـلاد وغـربهـا كـأصحـاب كَهف في عَمِيق سُبَـاتِ

إلى أن يقول:

فقـل رب وفِّق للعـظائم أمَّـتي وزيِّن لهـا الأفعـال والعـزمـاتِ

وقُلْ لي بربك بعد أن نقرأ هذا القليـل من كثيرٍ غيـره: أَمَلَك هذه الشجـاعةَ شاعر قبل شوقي أو بعـده؟ ثم أَمَلَك مثل هـذا الارتقاء إلى مـوقف الناصح لسلطان شاعر قبل شوقي أو بعده؟

لقد كانت أُولَى شوقي غفوة كمـا قلت لك قبـل، وما إن أفـاق منها حتى غـدا هذا الشاعر الذي يُؤمن بنفسه أولاً، ويؤمن مع إيمانه بنفسه إيمانه بوطنه، ويؤمن مع إيمانه بالاثنين إيمانه بالعُروبة، وهو إن آتَّجه للسلطان، فلقد كان السلطان ولا يـزال هو من يُفزَع إليه في كل أمر، والذي معقد الأمور بيديه.

ولنمض بعدُ مع شوقي لِنُتمَّ جولته مع عباس:

يصف شوقي قصر المنتزه بالإسكندرية حيث كان يصطاف الخديوي عباس، فيقول:

منتزه العباس لِلْمُجتلي آمنت بالله وجناتهِ
العيش فيه ليس في غيره يا طالب العيش ولذّاتهِ

وإذا أنت لا تدري أيَغْبِطُ عباساً على ما يَنْعَم به، أم هو يُثيرها في النفوس يَقظة؟

إني لا أكاد أجزم، ولكن الشعر يحتمل هذه وتلك.

ويهنِّيء شوقي عباساً بالعيد سنة (١٩١٤ م):

أبا القمرين عرشك في قلوب تجاوز في الولاء المُستطاعا

ثم إذا هو بعد أن ذكّر عباساً بولاء الشعب يذكِّره بما عليه لهذا الشعب فيقول:

أخذت لنا بشُورى الحُكم فيها وما نألو مناهجَه اتِّباعا
وأنت مُنيلها ما تبتغيه وأكرم من يروم لها النفاعا

وحين يأخذ عباس في زيارة عواصم مصر قبل سفره إلى تركيا سنة (١٩١٤ م)، وكان ممّا زاره من تلك العواصم مدينة طنطا، حيث استقبله الناس هناك خَيْرَ استقبال، وكأنهم كانوا يعلمون ما وراء تلك الرحلة من غيب، إذا لم يعد عباس بعدها، وكانت الحرب العالمية الأولى، وكان عزل عباس عن عرش مصر، كما ذكرت لك قبل، يقول شوقي:

تَوَدُّ طَنطدة لو أنها عَبِقٌ من الرَّياحِين حياكم بها الوالي

ثم يذكره بما له من مآثر فيها، وكأنه يستحثه إلى مزيد، فيقول:

فجَّرت فيها عيون العِلم فابتدرت ريّا من المال لا ريّا من الآلِ
وبالعِلم تمتلك الدنيا ونَضرتها ولا نَصِيب من الدنيا لجُهَّالِ

هذه هي مصر على لسان شوقي أنَّى قال، وهذا هو شوقي مِصْرُ تحرك منه لسانه ليقول:

تلك صفحة شوقي مع عباس، لم نظفر منها بغير قصائد ثمان سقت لك منها نماذج تغني عن سوقها كاملة، وهي تفصح لك عن شوقي اليقظ لا الغافي، لأسباب ذكرتها لك قبل.

ولقد حكم عباس نحواً من أربعة وعشرين عاماً، وما ظفر من شوقي بغير هذه القصائد الثماني، هذا إذا لم يكن له ثمة غيرها لم نقع عليه، وما أظن ذلك.

## (١٣)

ويُخلع عباس ويلي حُسين كامل، وتكون لشوقي معه صفحة، ولم تكن طويلة، فلقد ولي حسين سنة (١٩١٤ م) ولم يعمَّر بعدها طويلاً، فلقد وافته منيته سنة (١٩١٧ م).

ولم يكن الأمر على طبيعته المألوفة يموت سلطان ويلي سلطان، فلا يجد الشاعر حَرَجاً من أن يستدير ما فات لِيستقبل ما هو آت، أما أن يكون ثمة خلع وتوليةٌ، وأن يكون المخلوع لا يزال لسان الشاعر رطباً بذكره، وأن يكون هذا الخلع استهاناً لإرادة شعب، فهذا شيء يُلجم لسان الشاعر.

وهكذا أُلجم لسان شوقي فلم يسارع إلى تهنئة حسين، بل تلبث قليلاً يُراود نفسه، ثم يرى أنه كما عرف عباساً عرف حسيناً، وإن كان ثمة فرق بين معرفة ومعرفة، فلقد عرف عباساً لاثنتين هما: علويته، أي إنه من أبناء محمد علي، وما كان من ضمِّه إلى موظفي القصر، وعرف إسماعيل للأولى فقط، وحين ذكرها وجد واجباً عليه أن يهنئه فقال:

أأخون إسماعيل في أبنائه ولقد وُلدت بباب إسماعيلا

ثم يعلل تهنئته له ببقاء الأمر فيهم ولم يخرج إلى غيرهم فيقول:

ارقأ سرير أبيك وآلبس تاجه واكرم على القصر المشيد نزيلا

مَـرَّت أويـقـات عـليـه مُـوحِـشـاً ... كـالـرمسِ لا خِـلْواً ولا مـأهـولا

ثم إذا يعود إلى نفسه ويذكر نكبته بخلع عباس يقول:

يـا أهـل مصـر كِلُوا الأمـور لـربكم ... فـالله خـيـرٌ مـوئـلاً ووكـيـلا

جـرت الأمـور مـع القضـاء لغـايـة ... وأقَـرَّهـا مـن يـملك الـتـحـويـلا

وإذا أراد الله أمـراً لـم نـجـد ... لـقـضـائـه ردّاً ولا تـبـديـلاً

وهكذا كان شوقي وفيّاً لعباس، ووفيّاً لمصر مع وفائه لعباس، وما هَنَّأ حسيناً متنكّراً لعباس، بل هنأه لتلك التي ذكرتها لك من دَينونة لهذا البيت العلوي.

وأحسّ الإنجليز بما تحمله بعض أبيات من هـذه التهنئة من تعريض بهم فعجلوا بإبعاد شوقي عن مصر، وتركوا له أن يختار من البلاد ما يشاء أن ينزل به.

ومـا أظن شوقيـاً كان يؤثـر على تـركيـا غيـرهـا، ولكن السبيـل إليهـا بعـد أن أصبحت طَرَفاً في هذا الصراع كانت غيرَ ميسَّرة له، لـذا آثر شـوقي بلداً بمعزل عن هذا الصراع، وهو إسبانيا.

ونزل إسبانيا ليقضي فيها سني الحرب كلها، أي نحواً من خمس سنين كانت صفحة من صفحات حياته، ولكن فلنـدع الحديث عنهـا الآن حتى لا نقطع حـديثنا الموصول بسلاطين هذا البيت العلوي.

## (١٤)

ويعود شوقي إلى مصر مع الأيام الأخيرة من سنة تسع عشـرة وتسعمائـة وألف (١٩١٩ م) ليجـد أحمد فؤاد على عـرش مصر، وكـان قد آل إليـه بعـد وفـاة أخيـه السلطان حسين كامل سنة سبع عشرة وتسعمائة وألف (١٩١٧ م).

وكـانت عندهـا مصر في صـراع مع الإنجليـز من أجـل الخـلاص من قَبضـة الاستعمار، يتفق فيه المصريّون مرة، ويختلفون أخـرى، والسراي بين هـذا الاتفاق وذلك الاختلاف تبغي بقاءها، تنظر للمستعمر نظرة الحامي لوجودها، بعد أن لقنت

هـذا الدرس الـذي لم تنسه حين خلع المستعمـر عباسـاً، وتنـظر للمصـريين نـظرة المنتقص لحقوقها، إن كتب لهم الفوز، بعدما لقنت هذا الدرس القاسي على يدي عرابي.

وإذ كـانت السراي لا تضمن بقـاء الاستعمار، لـذا أعطت المستعمـر باليمين لترضيه ما بقي، وأعطت باليسار للمصريين ليبقى الحبل مـوصولاً بينهـا وبينهم. إن كتب لهم الفوز في صراعهم.

تلك كانت السنون التي عاشها شوقي على أرض مصر بعد عودته من إسبانيا، والتي عـايش فيها أحمـد فؤاد سلطاناً ثم مَلِكـاً، إلى أن لحق بجوار ربـه سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة وألف (١٩٣٢ م) تاركاً أحمد فؤاد كما هو على عرشه الـذي خَلَّفه هو الآخر إلى جوار ربه سنة ست وثلاثين وتسعمائة وألف (١٩٣٦ م)، أي بعـد وفاة شوقي بسنين أربع.

ولقـد بقي شوقي نحـواً من سنين ثلاث لم نقـرأ له فيهـا كلمـة لفؤاد مهنِّئـاً أو مـادحاً، ثم إذا هـو في سنة (١٩٢٢ م)، حين طُـولعت مصر بمشـروع (٢٨ فبرايـر) الذي عدَّه الإنجليز شيئاً ولـم يعدّه المصريون شيئاً، يشـاركُ المصريين الـرأي فيقول قصيدته المأثورة التي أستهلها بقوله:

أُعــدّت الـواحــة الكبـرى لمن تَعِبَــا    وفــاز بــالـحق مـن لم يَــأْلُــهُ طـلبــا

ثم يمضي شوقي يذكر ما كان للشعب المصري من كفـاح طويـل، ثم يلتفت إلى فؤاد فيقول:

فؤاد حلَّيت جِيــدَ النيـل مــأثـرة    حذوت في صوغها آباءك النُّجُبَـا

كلمة ردّ فيها الفضل لآبائه وكاد أن يسلبه منه.

* * *

وبعـدها بقليـل، أي في سنة (١٩٢٣ م)، يَتمُّ لأثـرِيّ إنجليـزيّ الكشف عن مقبرة توت عنخ آمون، فينبري شوقي للكاشف يُحييه، ثم يمضي يُشيد بمجد مصـر

الأول، ثم تكون له لفتة إلى ما نالته مصر من دستور، فيخاطب فرعون مصر، جاعلاً منه تمهيده لتحية فؤاد فيقول:

زمانُ الفَرد يا فرعون ولَّى ... ودالت دولة المُتجبّرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض ... على حُكم الرعية نازلينا
فؤاد أجلّ بالدستور دنيا ... وأشرف منك بالإسلام دينا

* * *

وفي سنة (١٩٢٤ م) يُفتتح البرلمان المصري، ومَضى فؤاد لحضور جلسة الافتتاح، وكان هذا الافتتاح ممّا هزّ شوقيّاً وذكّره بهذا الكفاح الطويل الذي سبقه، فكانت له قصيدته التي حيًّا فيها هذا النصر، فقال يصف هذا ويصف وصول فؤاد إلى مجلس النواب:

مِصر الفتاة بلغتْ أشُدَّها ... وأثبت الدم الزكيّ رُشْدَها
ولعبت على الحِبال وحدها ... وجرَّبت إرخاءها وشَدَّها
ونَثرت فوق الطريق وَردها ... وآستقبلت فؤادها ووفدها

وتحتفل مصر سنة (١٩٢٥ م) بأمور ثلاثة لها شأنها:

أولها: ما جد على الأزهر من جديد فيقول شوقي قصيدته التي أشاد فيها بماضي الأزهر وهنّأه على جديده، ثم يخاطب فؤاد فيقول:

الله أكبر يابن إسماعيل لم ... تترك لصُنّاع المآثِر مَفخرا

وثانيهما: انعقاد المؤتمر الجغرافي في مبناه بالقاهرة فانبرى شوقي يحيي هذا المؤتمر ويذكر له جهوده في ميدان العلم، ثم يلتفت إلى فؤاد فيقول:

كفى بدار تولَّيتم أرائكها ... من عبقرية إسماعيل عُنوانا
مضى لها نِصف قرن في مُكابدة ... تضيء آناً ويخبو ضوؤها آنا
حتى حواها فؤاد في عنايته ... وكم كريم تليد قبلها صانا

وثالثها: وضع حجر الأساس لبنك مصر، وكان لهذا أثره العظيم في نفوس

المصريين جميعاً، وعلى رأسهم شوقي فأخذ يعبّر عن آمال مصر، ثم يلتفت إلى فؤاد فيقول:

أبو الفاروق نرجوه لفضل ولا نخشى لما وهب ارتدادا

* * *

وفي سنة سبع وعشرين وتسعمائة وألف (١٩٢٧ م) يُبايع شوقي بإمارة الشعر، وتكون له كلمته الشعرية التي شكر فيها المُحتفين به، وما أُنسي فيها أن يذكر فؤاداً بكلمة ثناء، فقال:

ظلَّلتني عناية من فؤاد ظلّل الله عرشه بأمانهْ

* * *

وما إن كانت سنة ثمان وعشرين وتسعمائة وألف (١٩٢٨ م) حتى كان رفع الستار عن تمثال نهضة مصر، وكانت لشوقي في هذا الحفل الذي حضره فؤاد كلمته الشعرية التي خاطب فيها فؤاداً فقال:

فؤاد ارفع الستر عن نهضة تقدَّم جدُّك أبطالها

* * *

وكانت لفؤاد زورة للجيزة سنة ثلاثين وتسعمائة وألف (١٩٣٠ م)، وكان شوقي من بين المرحِّبين به، وإذا هو يقول في قصيدته التي أعدّها لهذا:

أبا الفاروق أقبلنا صفوفاً وأنت من الصفوف هو الإمام

* * *

وفي سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة وألف (١٩٣١ م) تكون لمصر جامعة حكومية، وكانت حلماً طالما راود المصريين، وكان شوقي على رأس المهنئين لفؤاد بافتتاحها، فقال:

تاجَ البلاد تحية وسلامُ ردَّتك مصر وصحَّت الأحلامُ

العلم والمُلك الرفيع كلاهما لك يا فؤاد جلالةٌ ومقامُ

## (١٥)

هذا هو كل ما قاله شوقي لفؤاد، ما هنّأه بمقدم عيد، ولا بذْكر مولد، ولا بأوبة من سفر، ولا بخروج إلى سفر، كما فعله مع غيره ممّن سبقوه، بل كان مقصوراً على مناسبات لها صلة بالحياة المصرية علمياً واجتماعياً، وما أغرق شوقي كما أغرق قبل في كل ما هو ذاتي، بل أغرق في كل ما لمصر به شأن في ميادين الحياة كلها، فكأنه حين أثنى هُنَا كان يستنهض الهمم لما فيه نفع مصر.

وما أحب أن أختم تلك الصفحة صفحة شوقي مع هذا البيت الحاكم قبل أن أذكر لشوقي مواقف ثلاثة موصولة بهذا البيت.

أولها: رثاء شوقي للأميرة فاطمة إسماعيل، سنة عشرين وتسعمائة وألف (١٩٢٠ م) وكانت لها يد في إنشاء الجامعة المصرية بما تبرعت به من مال، وفي ذلك يقول شوقي:

بَنيت رُكنيها كما يبني أبوك المأثرهْ

إلى أن قال:

فاطم من يُولدْ يَمُتْ المهد جسر المقبرهْ

ولم يعزِّ فيها فؤاداً، وهي أخته.

وثانيها: ما كان في لقائه لأم المحسنين، والدة الخديوي عباس المخلوع، حين عادت بابنها عبد القادر لتدفنه في مصر، وكان هذا سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة وألف (١٩٢٣ م) فاستهل قصيدته بالترحيب بها قائلاً:

إرفعي الستر وحَيِّي بالجبينْ وأرينا فَلق الصبح المُبينْ

إلى أن يقول:

ليس من قدري وقدر الشعر أن نذكر الصبر لأم الصابرينْ

وثالثها: ما قاله شوقي في رثائها، وكانت قد ماتت في الآستانة، ثم حمل جثمانها ليدفن في مصر، وكان ذلك سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة وألف (١٩٣١ م) وقد استهل شوقي هذا الرثاء بقوله:

أخذت نعشك مصر باليمينْ وحوته من يد الروح الأمينْ

إلى أن قال:

أُدخلي الجنة من روضته إن فيها غرفة للصابرينْ

فأُولاها من وفائه لهذا البيت، والثانية والثالثة إن دلَّتا على شيء دلتنا على وفاء شوقي لعباس، وما كان عليه من حرج إن سكت، فلقد كان العذر في يده، ولكنه كان أشجع من أن يهون.

## (١٦)

هذا حب أكَنَّهُ شوقي لهذا البيت، وما نلومه عليه، فلقد أحب هذا البيتُ شوقياً قبل أن يكون شيئاً.

وانضاف إلى هذا الحب رأي لشوقي عن أيادٍ أسداها نفر من رجال هذا البيت، وكان أعزهم عليه محمد علي، وإسماعيل، وعباس.

ولقد عايش شوقي عباساً أكثر ممَّا عايش غيره، ولَمس منه ما لم يلمسه من غيره، ولم يكن عباس على وفاق دائم مع الإنجليز، كما كانت له مَيلة إلى الباب العالي في تركيا، يطمع من ورائها أن يجد منه سنداً.

ومن هنا كان ميل شوقي هو الآخر إلى الباب العالي، يرى فيه ما رآه صاحبه عباس، ويدين مع هذا بما كانت تدين به الكثرةُ من أنه لا بدّ من عودة لخلافة ليستظل بها العالم الإسلامي، وأن هذه الخلافة لن تكون إلا لخليفة عثماني.

لهذا كانت لشوقي مع الباب العالي صفحة، لا تقل شأناً عن صفحته مع البيت العلوي بمصر، الذي رأيت أن تكون هي حديثي الثاني عن شوقي، وكما

كـانت الأولى مدحـاً كذا كـانت الثانيـة مدحـاً، وهما لهـذا شيء واحد، وإن بَـدَتَـا شيئين.

* * *

## (١٧)

في سنـة ست وتسعين وثمانمـائة وألف (١٨٩٦ م) نشبت الحـرب بين تركيـا واليونان، وكان هذا وعبد الحميد سلطانٌ لتركيا، ومـع سنة سبـع وتسعين وثمانمـائة وألف (١٨٩٧ م) كتب النصر في هـذه الحـرب لـلأتـراك، فيكتب شـوقي مهنئـاً عبد الحميد بهذا النصر فقال:

بسيفـك يعـلو الحق والحـق أغلب ... ويُـنْـصَـر ديـن الله أيّـان تَـضْـرِبُ

ويسمِّيه أمير المؤمنين فيقول:

هَـدَدْت أميـر المؤمنين كيـانهـا ... بِـأسطع مثـل الصبح لا يتكـذَّب

ويذكِّره بأسلافه فيقول:

سمـا بك يـا عبـد الحميـد أُبـوَّة ... ثـلاثـون حُضَّـار الجـلالـة غُيَّبُ

ويذكره بما تدين له مصر من ولاء فيقول:

وإنِّي لَـطَيْـرُ النيـل لا طيـرَ غيـره ... ومـا النيـلِ إلاّ من ريـاضـك يُحْسَبُ

* * *

وفي هذا الانتصار أيضاً يقول شوقي مهنئاً عبد الحميد:

بـحـمـد الله رب الـعـالـمـيـنـا ... وحـمـدك يـا أمـيـر الـمـؤمـنـيـنـا

لـقيـنـا في عـدوِّك مـا لـقـيـنـا ... لـقيـنـا الفتـح والنصـر المُبـيـنـا

ثم يلتفت إلى هـذا البيت العثماني فيقـول: وكأنـه يخاطب البيت العلوي في مصر:

بني نعمان إنا قد قدرنا فُتوحكمُ الكِبار وقد شكرنا
سألنا الله نصراً فانتصرنا بكم والله خير الناصرينا

* * *

ومن قبل هذه الحرب، بأعوام أربعة كان شوقي قد نزل الآستانة ليصطاف، فإذا عبد الحميد يَعُدُّه ضيفاً عليه، فيشكرها شوقي له ويقول:

رَضِي المسلمون والإسلامُ فَرعُ عثمان دُمْ فِدَاك الدَّوَامُ
كيف نُحْصِي على عُلاك ثناءً لك منك الثناء والإكرامُ

ويخاطبه خليفة للمسلمين فيقول:

ما تَتوَّجت بالخلافة حتى تُوِّج البائسون والأيتامُ

ثم يستنصر به لمصر فيقول:

تستميح الأيام نصراً لِمِصْرٍ مثل ما يَنصر الحُسامَ الحسامُ
فلمصرٍ وأنت بالحُب أدرى بك يا حاميَ الحمى آستعصامُ

* * *

ويطالب الجيش عبد الحميد بالدستور فيستجيب عبد الحميد لنداء الجيش سنة ثمان وتسعمائة وألف (١٩٠٨ م) فيقول شوقي:

بُشرى البريّة قاصيها ودانيها حاط الخلافة بالدستور بانيها

إلى أن يقول:

حقنت عند مناداة الجيوش بها دمَ البرية إرضاءً لباريها

ثم لا يلبث عبد الحميد سنة تسع وتسعمائة وألف (١٩٠٩ م) أن يرجع فيما أعطى فيثور به الجيش ويخلعه، فيقول شوقي:

عبد الحميد حساب مثـ ـلك في يد الملك الغَفورْ

ثم يلتفت إلى الجيش فيقول:

يـا أيـهـا الـجـيـش الـذي لا بـالـدَّعِـيّ ولا الـفـخـور
يَـخـفـي فـإنْ رِيـع الـحِـمَـى لـفـت الـبـريـةَ بـالـظهـور
كـالـليـث يُـسـرف في الـفـعـا ل ولـيـس يـسـرف في الـزئـيـر

ثم يخاطب الخليفة الجديد محمد رشاد، فيقول:

الـمـؤمـنـون بـمـصـر يُـهـ ـدون الـسـلام إلى الأمـيـر
ويـبـايـعـونـك يـا مـحـمـ ـد في الضـمـائـر والصـدور

ويذكِّره بالدستور الذي عبث به سلفه، فيقول:

بـشـرى الـخـلافـة بـالإمـا م الـعـادلِ الـنـزه الـجـديـر
الـبـاعـث الـدسـتـور في الـ إسـلام مـن حُـفْـر الـقـبـور

* * *

وما يكاد يمضي على خلافة محمد رشاد عام حتى يحيِّيه فيقول:

جـددت عهـد الـراشـدين بسيـرة نسـج الـرشـادُ لهـا عـلى منـوالـهِ
بُنيت على الشـورى كصـالـح حُكْمهم وعـلى حيـاة الـرأي واسـتـقـلالـهِ

* * *

وتنشب الحرب بين الأتراك والبلغار سنة اثنتي عشرة وتسعمائة وألف (١٩١٢ م)، وكان البلغار قد استولوا على أدرنة فيحزن لها شوقي ويقول:

يـا أُخت انـدلس عليـك سـلامُ هـوت الخلافـة عنـك والإسـلامُ

* * *

وحين انتهى الأمر إلى مصطفى كمال أتاتورك سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وألف (١٩٢٢ م) كانت نشوة طَرِب بها فؤادُ كلِّ مسلم، فنسمع لشوقي يقول:

قُمْ نــادِ أنقــرة وقُــلْ يَـهنيــكِ　　مُلْك بنيت على سيــوف بَنِيــكِ

* * *

وما مدح شـوقي رجال هـذا البيت أو ذاك مستجديـاً، كما كـانت عليه الحـال قبـل، بل كـان ثمة أمـل ورجـاء أمليـا على شـوقي هـذا الإطـراء، يشكـر على يـد أسـديت، ويستنهض الهمم لمثلها، لخيـر هذا الـوطن الأول مصـر، مـع خيـر ذاك الوطن الثاني الوطن العربي الجامع.

ومن هنا جاء مدح شوقي لهـذين البيتين لا يعرض لـذوات الأشخاص، ولكن يستجيب لهذا الأمل وذلك الرجاء.

## (١٨)

وهذا الأمل وذلك الرجاء اللذان أمليا على شـوقي مدح رجـال هذين البيتين، هما اللذان أمليا عليه مَدحه لرجـال ضَمَّهم الوطن الأول مصـر، كما ضمهم الـوطن الثاني، الوطن العربي، ذكر لهم أياديهم على وطنهم، كما استنهضهم لغيرها.

يـركب الجو للمـرة الأولى طيـاران مصـريـان، همـا أحمـد حسين، ومحمـد صدقي، فيهتز لها قلب شوقي، فيقول مهنئاً الأول:

جِنّ على جِرْم السمـاء أغــاروا　　أم فِتيـةٌ ركبـوا الجنــاح فـطاروا

ثم يقول مهنئاً الثاني، وكان قدم على طائرته من برلين لمصر:

أعقــاب في عِنــان الجــو لاحْ　　أم سحـاب فَرّ من هُـوج الريـاحْ

ويـوفق الله كاتبـاً من كتاب مصـر المعدودين، وهـو أحمد لـطفي السيد، إلى ترجمة كتاب في الأخلاق لأرسطو، فيهنئه ويقول:

عـلّمت بــالـقـلم الــحـكــيـم　　وهــديـت بــالـنجـم الـكــريـمْ
لــمَّــا رأيــت ســواد قــو　　مـي فـي دُجـى لـيــل بــهـيــم
أيــقــنــت أن الــجــهــل عــلـــ　　ــة كـلّ مــجـتــمــع سَـلـيـم

وينبغ في مصر جرّاح عبقريّ، هو علي إبراهيم، فيُهنىء مصر به ويقول:

عليّ لقد لقَّبَتْكَ البلاد ... بآسي الجراح ونِعم اللَّقبْ

ويطالع مصر مؤرخ من مؤرخيها، وهو أحمد حافظ عوض، بكتاب أرَّخ فيه لمصر الحديثة، فيشكر له هذا الجهد الكبير ويقول:

يا أبا الحُفّاظ قد بَلَّغتنا ... طِلْبَةً بَلَّغَكَ الله الرِّغابا

ويُبَرَّأ محام من كبار محامي مصر من تهمة لُفِّقت له، وهو مرقص فهمي، فيهنئه ويهنيء القضاء بمصر فيقول:

قل للمُبَرَّأ مرقص ... أنت النقي من الطَّبَعْ
مصر بَنت لقضائها ... رُكْناً على النَّجم آرتفعْ

وينزل بمصر أديب لبناني، هو أمين الريحاني، فتحتفي به مصر على لسان شوقي، فيقول له شوقي مذكِّراً إياه بهذا الرِّباط الجامع من وطن، فيقول:

حَق العشيرة في نُبوغك أول ... فانظر لعلّك بالعشيرة بادِي
إن الذي ملأ اللغات محاسناً ... جعل الجمال وسرَّه في الضَّادِ

وتُكرِّم مصر شاعر القُطرين: مصر ولبنان، خليل مطران، فيقول له شوقي:

لعلاك يا مطران أم لنهاك أم ... لخلالك التشريفَ والإكرامُ

## (١٩)

وكما مدح شوقي هؤلاء وهؤلاء يُملي عليه الأمل والرجاء من هؤلاء وهؤلاء، كذلك رثى شوقي من رثى من هؤلاء وهؤلاء، يملي عليه الوفاء، ليضمن لذكراهم الخلود، فما أبقى تلك الذكرى إذا كان الشعر لسانَها.

يختطف الموت رجلاً من رجال القانون الملحوظين في مصر، وهو عبد الحميد أبو هيف فيعزي شوقي مصر فيه ويقول:

إجعـل رثـاءك للرجـال عَـزاء وآبعثـه للوطن الحـزين جـزاءَ

ويترك دنياه إلى أخراه رجل وَلِي يوماً وزارة المعارف، وكانت لـه مآثـره، وهو سليمان أباظة، فيبكي فيه شوقي مروءته وفضله ويقول:

ونعى النُّعـاة إلى المروءة كنـزها وإلى الفضـائل نَجْمَهـا الـوضـاء

ويسبقه إلى الموت نِدُّه شِعْراً حافظ إبراهيم فتتملكه الحسرة ويقول:

قـد كـنـت أوثـر أن تـقـول رثـائـي يـا مُـنْـصِـف المـوتـى مـن الأحـيـاءِ

ومن قبل هذا بقليل يموت شاعر العـربية محمـد عبد المـطَّلب فيأسى شـوقي لِفقده ويقول:

قَلَّد الأوطـان نشئـاً صـالحـاً وشبـابـاً أهـل دين وحَسَبْ

* * *

ويمضي إلى جـوار ربه في ريعـان شبابـه شيخ الأدب القصصي حينـذا أحمد تيمور فيعز هذا على شوقي ويقول:

ولِـمَ الـتـرحُّـل عـن حـيـا ةٍ أنـت مـنـهـا فـي رِكَـابْ

ويذهب الموت بإمام مصر والشرق محمد عبده فيبكيه شوقي ويقول:

مُـفَـسِّـرَ آي الله بـالأمس بـيـنـنـا قُـم اليـوم فَسِّـر للورى آيـة المـوتِ

ويفقد الوطن العربي مُجاهداً كبيراً، هو عمر المختار، فيندبه شوقي ويقول:

رَكـزوا رُفَاتـك في الـرمـال لـواءَ يستنهض الـوادي صبـاح مسـاءَ

وتفقد سوريا سياسيّاً كبيراً من ساستها، هو فوزي الغـزّي، فيعزي فيـه شوقي سوريا ويقول:

يـا فَـوْز تلك دمشق خلت سـوادهـا تـرمي مكـانـك بـالعُيـون وتَـرْمُقُ

وتفقـد تركيـا قائـداً من قوادهاالعسكريين، وهـو أدهم، فيهـول شـوقي فقـده ويقول:

مصاب بني الدنيا عظيم بأدهم      وأعظم منه حَيرة الشعر في فَمِي

## (٢٠)

وهذا الشعور الخاص أملاً ورجاء، وإكباراً ووفاء، قَلَّ أن يبقى على خصوصيته وسط الوجود العام، فالإنسان كما هو آبن وجود محدود، هو كذلك ابن للوجود أجمع، يأنس ويأسى لما هو في نظامه وما ليس في نظامه، حتى إذا ما رُزق قلماً ولساناً مَلك أن يعبر عن هذا الأنس وذلك الأسى هنا وهناك..

وهكذا رأينا شوقياً مطرياً وراثياً، لأبعد من نطاقه وإن لم يفعلها لكان ممّن يفقدون آدميتهم بمعناها العام.

يظهر في أفق الهند زعيم يسعى لجمع شملها، وهو غاندي، فيهنىء شوقي الهند به ويقول:

بَني مصر آرفعوا الغارا      وحَيُّوا بَطَلَ الهِنْدِ

وينزل أرض مصر طيارون فرنسيّون فيحييهم شوقي ضُيوفاً ويقول:

قُم سليمانُ بساط الريح قاما      مَلك القومُ من الجو الزِّماما

ويقع باليابان زلزال مدمِّر فيهتز شوقي لهذا الخَطب ويقول:

قِف بطوكيو وطُف على يوكاهامه      وسَل القريتين كيف القيامهْ

وتحتفل انجلترا بإحياء ذكرى أديبها الأول شكسبير، فيشاركهم شوقي فرحتهم وهو على البعد ويقول مخاطباً شكسبير:

قُمْ أيِّد الحق في الدنيا أليس له      كتيبة منك تحت الأرض خرساءُ

وتحتفل فرنسا بذكرى شاعرها فكتور هيجو فيشارك شوقي فرنسا في إحياء هذه الذكرى ويقول:

ما حل فيهم عيدُك المأثور      إلا وأنت أجلُّ يا فكتورُ

وتحتفل روسيا بإحياء ذكرى كاتبها ومفكرها تولستوي، فيشارك شوقي روسيا في إحياء هذه الذكرى ويقول:

تولستوي تُجري آية العلم دَمعها  عليك ويبكي بائسٌ وفقيرُ

ويقف شوقي على قبر نابليون بباريس فتهيجه العظمة وقد طواها التراب فيقول:

قِف على كنز بباريس دفينْ  من فريد في المَعالي وثَمِينْ

ويذكر شوقي للموسيقي الإيطالي فردي جهده في أوبرا عايدة، فيقول:

فتى العقل والنغمة العاليهْ  مَضى ومحاسنه باقيهْ

عن هذه الروح السامية، التي ترى الناس جميعاً على تلك الأرض إخواناً، وإن اختلفت مواطىء أقدامهم، آستملى شوقي، يرى مَنْ بَعُد عنه مَحَلاًّ، كمن قَرُب منه مَنْزِلاً، يُحَيّي من قَرُب كما يحيّي من بَعد. ويأسى ممن دنا، كما يأسى لمن قصا.

وهذه هي إحدى مشاركات شوقي في وجوده، ولكنها تتميز عن مثيلاتها بالمشاركة في الوجود العام، مع المشاركة في الوجود الخاص.

(٢١)

ولعل أبرز ما لشوقي من مشاركات في الوجود عامة مشاركته السياسية.

ولا غرو، فلقد وصلته السياسة بحبلها منذ أن دب، وبعد أن شب.

فلقد كان آباؤه، كما مر بك، موصولين بالبيت المالك في مصر، وكان محط السياسة، وما لقنه الآباء، لهذه الصلة، لقَّنوه هم هذا الابن على صورة ما.

ولقد درس شوقي دراسته العالية في مدرسة الحقوق، وكانت لا تزال مدرسة السياسة.

وذهب شوقي بعد تخرجه فيها إلى فرنسا ليستكمل ما درس.

ويعود شوقي من فرنسا ليجد نفسه رجلاً من رجال البيت المالك، مشاركاً على نحو ما في شؤونه السياسية.

وكان ثَمَّة نِضالاً بادياً بين المصريين والمستعمر شارك فيه البيت المالك بنصيب ولم يكن شوقي بعيداً عن هذا.

ويُخلع عباس ويُبْعَد شوقي عن مصر فتُذكِّي فيه هذه انتماءه السياسي.

ويعود شوقي بعد هذا الإبعاد ليشهد ثورة المصريين بالمستعمرين.

ثم ليشهد ذلك الصراع المتصل بين المصريين والمستعمرين، وبين المصريين وهذا البيت المالك.

ثم ليشهد هذا الخلاف بين صفوف المصريين الذين كادوا أن ينسوا به خصمهم وينتهي بشوقي المطاف إلى أن يكون عضواً بمجلس الشيوخ.

## (٢٢)

وأنت تعلم معي أن شوقياً لم يدرك أن يكون مشاركاً في السياسة عن وعي حق إلّا بعد أن استقر به المقام في إدارة الترجمة بالقصر المالك سنة (١٨٩٢ م)، وكان عندها خديوي مصر هو عباس حلمي. ولقد ظلّ الأمر على هذه الحال إلى أن كانت الحرب العالمية الأولى سنة (١٩١١ م) التي في إثرها كان عزل عباس وإبعاد شوقي عن مصر.

فهذه سنون أربع وعشرون، تزيد أو تنقص عنها قليلاً، كان شوقي يملي فيها عن سياسة مُوحَّدة، تضافر فيها البيت المالك، والحِزب الوطني، الذي كان يتزعمه مصطفى كامل، ومن ورائهما الباب العالي في تركيا.

وأكاد أقول: إن مدائح شوقي لعباس كانت ذات لون سياسي، تُكِنُّ التأييدَ له أوّلًا، ثم تلفّ الشعب المصري حول خديويها ثانياً.

ثم يهون عليه بما يرجوه وطنه منه فيقول:

أمثلك يَـمْنَـعُ الأوطـان خـيـراً     وأنت خُلقت من خيـر طبـاعـا

فهذا كلُّه، وإن بدا مديحاً لعباس، فهو في حقيقته تلميحات سياسية، وعى الناس دلالاتها، ولكن على درجات متفاوتة.

## (٢٣)

وتحتفل جمعية العروة الوثقى سنة (١٩٠٤ م) بإنشاء مدرسة محمد علي الصناعية، ويحضر ذلك الحفل رئيس الوزراء حينذاك رياض، كما يحضره المعتمد البريطاني كرومر، وتكون لرياض في هذا الحفل كلمة، وتكون هذه الكلمة جلُّها إن لم يكن كلُّها إطراءاً لِكرومر، وكان أمراً لم يرضه مصريّ، وبلسان هؤلاء المصريين الغاضبين قال شوقي:

غمرت القوم إطراء وحمداً     وهم غمروك بالنِّعم الجسامِ

ثم يذكره بما نال به من كرامة مصر فيقول:

أراعك مقتل من مصر باق     فقمت تزيد سهماً في السهامِ

ثم يلفته ما يجب على كل مصري لمصر فيقول:

أحبك مصر من أعماق قلبي     وحبك في صميم القلب نامي
سيجمعني بك التاريخ يوماً     إذا ظهر الكرام على اللئامِ
لأجلك رُحت بالدنيا شقياً     أصُدَّ الوجه والدنيا أمامي

وتُقام لمأساة دنشواي ذكرى بعد عام من وقوعها، وكم تركت هذه المأساة في قلوب المصريين من كلوم، فيُفصح عنها شوقي فيقول:

يا دنشواي على رُباك سلام     ذهبت بأُنس ربوعك الأيام

ثم ينعى على المعتمد البريطاني في مصر كرومر شططه في تلك المأساة فيقول:

نيرون لو أدركت عهد كرومر     لعرفت كيف تنفَّذ الأحكامُ

ثم يتجه إلى المصريين يحرك فيهم غضبتهم فيقول:

نُوحي حمائم دنشواي ورَوِّعي ... شعباً بوادي النيل ليس ينامُ

ويرحل كرومر عن مصر سنة (١٩٠٧ م) فيفرح المصريون لرحيله، ويعبر شوقي عن تلك الفرحة فيقول لكرومر:

أيامكم أم عهد إسماعيلا ... أم أنت فرعون يسوس النيلا
أم حاكم في أرض مصر بأمره ... لا سائلاً أبداً ولا مسؤولا
يا مالكا رِقَّ الرقاب ببأسه ... هلا آتخذت إلى القلوب سبيلا
لمّا رحلت عن البلاد تشهّدت ... فكأنك الداء العَياء رحيلا

إلى أن يقول شامتاً مبكتاً:

فارحل بحفظ الله جَلَّ صنيعه ... مُستعفياً إن شئت أو معزولاً

وتختطف المَنُون المجاهد الأول مصطفى كامل سنة (١٩٠٨ م) وكان على رأس الحزب الوطني، الذي حمل لواء الثورة ضد المستعمر، أيام كانت الأصوات خافتة، والقلوب راجفة، وكان شوقي يكاد يكون عضواً من أعضاء هذا الحزب، لولا مكانه في البيت المالك، تحس هذا في مَرثيته لمصطفى التي تُعَدُّ القِمَّة في المراثي، فيستهلّها بهذا الاستهلال الذي ما أظن آستُهِل به رثاء، يقول شوقي:

المَشرقان عليك ينتحبان ... قاصيهما في مأتم والداني

ثم يَعُدّه أكرم راحل فيقول:

جار التراب وأنت أكرم راحل ... ماذا لقيت من الوجود الفاني

ثم يحيي فيه كفاحه الذي حَمَّله ما لا يُطيق فأودى به:

الله يشهد أن موتك بالحِجى ... والجِد والإقدام والعِرفان

ثم يذكر له ما كان عليه من خُلق فيقول:

إن كان للأخلاق ركنٌ قائم ... في هذه الدنيا فأنت الباني

ثم يذكر له طهره فيقول:

يا طاهر الغدوات والرَّوحات والـ ـخـطوات والإسـرار والإعـلانِ

ثم يذكر شجاعته حين تصدّى للاستعمار وهو أعزل فيقول:

هـل قـام قبلك في المـدائن فـاتـح غـاز بـغـيـر مـهـنَّـد وسِـنـانِ

ثم يذكر له مكانته بين أمته فيقول:

لـو أن أوطـانـاً تُـصـوِّر هـيـكـلاً دفـنـوك بـيـن جـوانـح الأوطـانِ
أو كـان يُحمـل فـي الجـوارح ميت حـملـوك فـي الأسـمـاع والأجـفـانِ
أو كـان لـلذكـر الـحكـيم بـقـيـة لـم تـأت بعـد رُثِـيـت فـي الـقـرآنِ

ثم يوعده فيقول:

يـا صبّ مصر ويـا شَهِيدَ غـرامهـا هـذا ثَـرى مـصـر فَـنَـمْ بـأمـانِ
اخلع على مصـر شبـابـك عـالـيـاً وآلبس شبـاب الـحُـور والـولـدانِ
فلعـل مصراً من شبـابـك تـرتـدي مـجـداً تـتـيـه بـه عـلى الـبلدانِ

ثم يختم قصيدته بما كان يدين به لمصطفى فيقول:

أقسمت أنـك في التراب طهـارة مَلَك يَهـاب سؤالـه الملكـانِ

* * *

ويُقام حفل لذكرى مصطفى فيبكيه أحرّ بكاء ويقول:

وخـلـيـلاً ذخـرتـه لـم يُـقَـوَّمْ بـمـدَّخـرْ
حـال بَـيـنـي وبـيـنـه فـي فُـجـاءاتـه الـقـدرْ
كـيـف أجـزي مـودَّة لـم يَشُبْ صفـوَهـا كـدرْ
غـيـرَ دمـع أقـولـه قَـلَّ في الشَّـأْن أو كـثـرْ
وفـؤاد مُـعـلَّل بـالـخـيـالات والـذِّكَـرْ

لـــم يَـنـــم عـنـــك ســاعـــةً        فـي الأحـــاديـث والـسَّـمَـرْ

* * *

وإيمان شوقي بكفاح مصطفى ورجال حزبه، كان إيماناً راسخاً في نفسه.

يموت محمد فريد، خلف مصطفى على رياسة الحزب، فيرثيه شوقي ويقول:

مصــر تبكي عـليــك في كُــلِّ خِـدر        وتَـصــوغ الـرثـاء فـي كـل نـادِي

ثم يقام حفل لإحياء ذكرى محمد فريد، فيرثيه ذاكراً له ما فاته أن يذكره أولاً، ويقول:

ألا في سبيــل الله والحق طــارف        من المــال لـم تـبـخــل بــه وتـليــدُ
وجودك بعد المال بالنفس صــابـراً        إذا جــزع الـمَحـضـور وهـو يجـودُ

* * *

ويموت رجل ملحوظ من رجال هذا الحزب، كانت له صفحات في الجهاد، هو عبد العزيز جاويش، ويأبى على شوقي رثاؤه له إلا أن يذكر معه مصطفى وفريداً، فيقول:

* * *

تســرّب في منكبي مصــطفى        كــأمس وبـيـن ذراعـي فــريـدْ
فيــا لــك قبــراً أكـنَّ الكنــوز        وســاحَ الحقـوق وحــاط العهـودْ

ويموت أحمد فؤاد، وكان صِنواً لمصطفى كامل مع مطلع الكفاح، فيرثيه شوقي ويقول:

نـاصرت في فجر القضية مصــطفى        فنصــرت خلقــاً في الشبــاب متيـنـا
أقـدمت في العشـرين تحت لـوائـه        وروائــع الإقــدام فـي الـعـشـريـنـا
لم تبـغ دنيــا طــالمــا أغضـيِ لهــا        حمس الـدعـاة وطـأطأوا العِـرنينـا

ويخطب غليوم الثاني، امبراطور ألمانيا سنة (١٩٠٦ م)، خطبته التي كشف فيها عن نواياه الاستعمارية، ولم يكن غير الشرق المستضعف ميدانها، فينبري له شوقي منافحاً عن وطنه الخاص والعام ويقول:

قد وَرِث العالَم حيّاً فما غادر من فج ولا من سبيلْ
فالنصف للجرمان في زعمه والنصف للرومان فيما يقولْ
إن صدقت يا ربّ أحلامه فإن خطب المسلمين الجليلْ
يا ربّ لا تنسَ رعاياك في يومٍ رعاياك الفريق الذليلْ

* * *

ويزور الرئيس الأمريكي روزفلت مصر سنة (١٩١٠ م) فيذكره شوقي بما عليه لمصر التي أكرمت وفادته، ويقول:

يا إمام الشعوب بالأمس واليو م ستُعطى من الثناء فترضى
مصر بالنازلين من ساحِ مَعْنٍ وحمى الجود حاتم الجود أفضى
كن ظهيراً لأهلها ونصيراً وآبذل النصح بعد ذلك مَحضاً

* * *

وتنهض جماعة الهلال الأحمر بمصر لغوث ضحايا العدوان الإيطالي على طرابلس سنة (١٩١٢ م) فيقول شوقي يستنهض الهمم:

كونوا الجدار الذي يَقْوَى الجدار به فالله قد جعل الإسلام بنيانا
البِر من شُعَب الإسلام أفضلها لا يقبل الله دون البر إيمانا
هل ترحمون لعلّ الله يرحمكم بالبيد أهلاً وبالصحراء جيرانا
في ذمة الله أو في ذمة نفر على طرابُلُس يقضون شجعانا

* * *

ثم يعود الإيطاليون فيُمطر أسطولهم بيروت بوابل من قذائفه سنة (١٩١٢ م)

فتهول شوقياً هذه الوحشية ويقول:

بيروت مات الأُسْد حتف أنوفهم لم يُشهروا سيفاً ولم يَحْمُوكِ
تالله ما أحدثت شرّاً أو أذى حتى تُراعي أو يراع بنوكِ
لك في رُبَا النيل المُبارك جِيرة لو يقدرون بدَمعهم غَسَلوكِ

ويستبد السلطان عبد الحميد بالأمر في تركيا: ويُغيِّب عنها دستورها، ثم يحسّ أن الجيش سوف يثور به، فيثوب إلى رشده، ويُعيد إلى الشعب التركي دستوره سنة (١٩٠٨ م)، فيقول شوقي يناصر الشعب على سلطانه، وهو عندها من رجال البيت الحاكم في مصر:

حقنت عند مناداة الجُيوش بها دم البرية إرضاءً لباريها
ولو مَنعت أُريقت للعباد دماً وطاح من مُهج الأحفاد غاليها

وحين طُلع عبد الحميد، وآستُخلف محمد رشاد، وبُعث الدستور من مرقده، بعد أن كان عبد الحميد قد دفنه، يقول شوقي:

بُشرى الخلافة بالإما م العادل النزه الجَدِيرْ
الباعث الدستور في الـ إسلام من حُفَر القُبورْ

* * *

ولعلك تسأل هنا: ما بال شوقي قد شغل نفسه بالأتراك هذا الشغل المُتَّصل، فلم يفته شأن من شؤونهم إلاّ شارك فيه، هنّأ حين انتصرت جيوشهم، وواسى حين خسروا بعض معاركهم، وبارك حين ملك الشعب دستوره.

وما إخالك أُنسيت ما ذكرته لك قبل تلميحاً وتصريحاً، من أنّ شوقياً كان ينطق في هذا عن رجاء عَمرت به قلوب المصريين، وربما شاركها فيه غيرُهم من شعوب الشرق الإسلامي، في عودة الخلافة إلى الأمة الإسلامية، وأن يكون ذلك الخليفة المرجو هو سلطان تركيا، لما كان لتركيا حينذاك من قوة لا تملكها دولة من دول العالم الإسلامي.

وكان الحزب الوطني في مصر على رأس الداعين لهذا، لما كان يتطلع إليه من قوة للدول الإسلامية إذا اجتمعت لها كلمة، وأن تلك الكلمة لن تجتمع إلّا في ظل خلافة.

وإذ كان هذا الرجاء معقوداً بتركيا، كان لا بدّ من أن تُحَاط تركيا بهذا الرعاية على أقلام الكتاب تأييداً ونُصحاً، أو نصحاً وتأييداً، لكيلا تكون خلافة مستبدة فتتبدّد في ظلّها كل الأماني.

ويؤكد عمل هذا الرجاء أنه حين كانت الحرب العالمية الأولى، وكانت تركيا مع ألمانيا ضد انجلترا، إذا ثلاثة من شباب الحزب الوطني، هم: إسماعيل كامل، وعوض البحراوي، ومحمد عبد الملك حمزة، ينضمون إلى الجيش التركي.

ويشاء القدر أن يُقْضَى على الجيش التركي الزاحف إلى مصر، وأن تخسر ألمانيا الحرب، ويبقى هؤلاء الشبان الثلاثة في أوروبا دُعاةً لمصر ضد الاستعمار، ثم يعودون إلى مصر التي آستقبلتهم بحفاوة، وكان ثمة حفل أُقيم لهم، دعا إليه مرقص حنا (باشا)، وكانت له كلمة ألقاها نيابة عن الأمير يوسف كمال.

ولم يغب شوقي عن هذا الحفل، فإذا هو يُحيِّي هؤلاء الشبان ويقول:

وطن يَرِقْ هَوًى إلى شبانهِ ... كالرَّوض رِقَّتُه على ريحانهِ

ثم يثير في الشباب حميته:

قل للشباب زمانكم متحرِّك ... هل تأخذون القِسط من دورانهِ

وحين أَلْغَى مصطفى كمال أتاتورك الخلافة، التي كلفت تركيا الكثير ولم تُفد منها هي شيئاً، وحَسبها غدر الأعراب بجيشها الذي زحف إلى مصر، حين فعل أتاتورك هذه مكان لها وقعها السيِّىء في نفوس الراجين، وإذا شوقي يقول:

عادت أغاني العُرْس رَجْعَ نُواح ... ونُعِيتِ بين معالم الأفراحِ

كُفِّنْتِ في ليل الزفاف بثوبه ... ودُفنت عند تبلُّج الإصباحِ

ضَجَّت عليك مآذن ومنابر ... وبكت عليك ممالك ونَوَاحِ

الهند والهةٌ ومصر حزينة ... تبكي عليك بمَدْمع سحّاحِ

والشام تسأل والعِراق وفارس ... أَمَحا من الأرض الخلافةَ ماحي

وأتت لك الجُمع الجلائل مأتماً ... فقعدن فيه مقاعد الأنواحِ

إلى أن يقول:

مَن قائل للمسلمين مقالة ... لم يُوحِها غيرَ النصيحة واحي

وحين قُضيَ على هذا الرجاء لم نعد نسمع لشوقي كلمة من الكلمات التي ألفنا سماعها منه عن تركيا، اللهمَّ إلاّ ما تُمليه صلة الدين والجوار، وما كان أقلها.

(٢٤)

وتثور مصر ثورتها الكبرى سنة (١٩١٩ م) على أثر نفي أربعة من رجالها، والأربعة هم: سعد زغلول، ومحمد محمود، وإسماعيل صدقي، وحمد الباسل، إلى مالطة في السابع من مارس سنة (١٩١٩ م)، بعد أن ذهب سعد، وعبد العزيز فهمي، وعلي شعراوي، إلى دار المعتمد البريطاني، مطالبين برفع الحماية عن مصر، كما وعدت بريطانيا، جزاءً لمصر على ما قدمته لها من عون في حربها.

وإزاء تلك الهَبَّة، التي عَمَّت مصر من أقصاها إلى أدناها، إثْرَ علمها بنفي رجالها، لم تجد بريطانيا بُدّاً من إخلاء سبيلهم.

ويدعوهم وزير المستعمرات البريطاني ملنر للاجتماع به في فرساي ليفاوضهم، وتتمخض هذه المفاوضات عمّا سُمِّي حينذاك بمشروع ملنر.

وينذب الوفد المصري المفاوض من رجاله من يعرض على المصريين هذا المشروع، ليقولوا فيه كلمتهم رفضاً أو قبولاً.

ويشارك شوقي الأمة رأيها، وكان من مؤيدي المشروع أساساً لمزيد يأتي بعده، فيقول:

أربعة تجمعهم همة ... ينقلها الجيل إلى عَقْبِهِ
كلُّهُمُ أغير من وائل ... على حماه وعلى شَعبهِ
لو قدروا جاءوكم بالثَّرى ... من قُطبه مُلْكاً إلى قطبهِ
يا قوم هذا زَمن قد رمَى ... بالقيد وآستكبر عن سحبهِ
لا تَستقلُّوه فما دهركم ... بحاتَم الجود ولا كَعْبهِ
ينال باللين الفتى بعضَ ما ... يَعِزُّ بالشدّة عن غَصْبهِ
فإنْ أنسقم فليكن أُنسكم ... في الصَّبر للدهر وفي عَتْبهِ
يا رُبَّ قَيد لا تُحبونه ... زمانكم لم يتقيَّد بهِ
ومَطلب في الظنّ مُستبعد ... كالصبح للناظر في قُرْبهِ

* * *

ويشاء القدر، والخلاف محتدم بين المصريين والإنجليز، أن يستشهد نفر من أبناء مصر، سافروا لتلقي العلم في أوروبا، فينقلب بهم القطار الذي كان يُقلهم في إيطاليا سنة (١٩٢٠ م)، ويستشهد منهم أحدَ عشر طالباً، وتذهب الظنون في هذا الحادث مذاهبَ شتى، الأمر الذي هاج النفوس، وقد نُقِل رُفاتهم إلى مصر لتدفن بأرضها وكان شوقي على رأس الناعين فيقول:

ألا في سبيل الله ذلك الدم الغالي ... وللمجد ما أبقى من المثل المعالي
خليليّ قوما في رُبى الغرب وآسقيا ... رياحين هام في التراب وأوصالِ
سماء الحِمى بالشاطئين وأرضه ... مناحة أقمار ومأتم أشبالِ
فيا ناقليهم لو تَركْتم رُفاتَهمْ ... أقام يتيماً في حراسة لأّل
لئن فات مصراً أن يموتوا بأرضها ... لقد ظفروا بالبَعث من تُربها الغالي
رُدِدْتُم إلى فرعون جَدّاً وربما ... رجعتم لعم في القبائل أو خالِ

## (٢٥)

ولقد أحدث مشروع ملنر بلبلة في الصفوف، فقبله أقلّهم، ورفضه أكثرهم، وآنتهى الأمر إلى أن تُستأنف المفاوضات ثانية، على أن يكون المفاوض المصري ذا صفة حكوميّة.

ويأبى هذا سعد ويرتضيه عدلي، ويؤلّف حكومة يكون هو رئيسها، ويفاوض عدلي الإنجليز، ويعود من تلك المفاوضة وما حَقَّق شيئاً.

ويَستقيل عدلي في ديسمبر سنة (١٩٢٢ م)، ويُحجم كلٌّ من تُهَيِّئه مكانته لتأليف وزارة عن أن يؤلف وزارة، وتنقسم الأمة إلى وفديِّين تحت زعامة سعد، ودستوريِّين تحت زعامة عدلي، وتضطرب الحال في مصر آضطراباً تنزعج له بريطانيا، فتضع يدها على سعد وجملة من أصحابه، وتنفيهم إلى جزيرة سيشل.

وفي الثامن والعشرين من فبراير سنة (١٩٢٢ م)، تتقدم انجلترا بما أسمته: تصريح ٢٨ فبراير، ويقضي هذا التصريح:

بإلغاء الحماية البريطانية على مصر.

وبالاعتراف بها مملكة مستقلة ذات سيادة.

وفي الخامس عشر من مارس سنة (١٩٢٢ م) أصبحت مصر مملكة مستقلة ذات سيادة، وأصبح سلطان مصر ملكاً.

غير أن انجلترا احتفظت لنفسها في هذا التصريح بأن يكون لها حق تأمين مواصلاتها في مصر، وحق حماية مصالح الأجانب والأقليات، وكذا تعهدت انجلترا في هذا التصريح بالدفاع عن مصر والسودان ضد أي تدخل أجنبي.

ثم أُلّفت لجنة لوضع دستور طالعت به مصر سنة (١٩٢٣ م).

وكما كان لشوقي وقفة مع مشروع ملنر، كذلك كانت له وقفة مع تصريح ٢٨ فبراير، فقال:

أُعـدَّت الـراحـة الكبـرى لمن تَعِبَـا وفـاز بـالـحق من لم يَـأْلُـه طَـلَبَـا
قـد فَتّـح الله أبـوابـاً لـعـل لـنـا وراءهـا فُـسَـح الآمـال والـرّحـبَـا
نِلْتُمْ جليـلاً ولا تُـعـطون خـردلـة إلّا الـذي دفـع الـدستـور أو جلبـا
تَـمـهَّـدت عـقـبـات غـيـرُ هَـيِّـنـة تلقى ركـاب السُّـرى من مثلهـا نَصَبا
وأقـبـلت عـقـبـات لا يـذلّـلـهـا في مـوقف الفصـل إلّا الشعبُ مُنْتَخبا
قـالـوا الحمـايـة زالت قلت لا عَجب بـل كـان بـاطلُها فيكم هـو العجبا
أُمنيـة دأبـت مـصـر لـتُـدركـهـا والله والـنـاسُ في إنـصـاف مَن دأبـا
دار الـنيـابـة قـد صُـفَّت أرائكـهـا لا تُجلسـوا فـوقهـا الأحجـار والخُشبـا
اليـوم يـا قـومُ إذ تَبنـون مجلسكم تـبنـون لـلعَـقـب الأيـام والـحِـقَبـا

وتظفر مصر بأول مجلس للنواب (برلمان) في الخامس عشر من مارس سنة (١٩٢٤ م)، وكان يومها قد وُفِّق عالم الآثار الإنجليزي كارنارفون للكشف عن مقبرة توت عنخ آمون. فقال شوقي:

قُم سـابق السـاعـة واسبق وعـدهـا الأرض ضـاقت عنك فـاصدع غِمْدَهَا
آثـاركم يُخْـطي الحسـابُ عَـدَّهـا إنـهـدم الـدهـر ولـم يَـهُـدّهـا
مـصـر الـفـتـاة بـلغـت أشُـدّهـا وأثـبـت الـدم الـزكـيّ رُشـدَهـا
ولَـعبت علـى الـجِبـال وحـدَهـا وجَـرَّبـت إرخـاءهـا وشـدَّهـا
فـأرسـلت دُهـاتـهـا ولُـدَّهـا في الغـرب سَـدُّوا عنـده مَسَـدَّهـا
وبـعـثـت لـلبـرلـمـان جـنـدهـا وحـشـدت للمِـهـرجـان حشـدَهـا

* * *

وكم امتلأت سجون مصر إبان تلك الأيام الخالية من الثورة بشُبّان مصريين، قذف بهم الاحتلال البريطاني إلى تلك السجون، وما إن ولي سعد الوزارة سنة (١٩٢٤ م) حتى أطلقهم جميعاً من سُجونهم، غيرَ ناظر لتلك الأحكام التي أدانتهم بها المحاكم العسكرية البريطانية، وفي هذه يقول شوقي:

يـا مصـر أشبـال العرين تَـرعـرعت ومشت إلـيـك من الـسجـون أُسـودا

قاضي السياسة نالهم بعقابه — خَشنَ الحكومة في الشباب عَنيدا
تقضي السياسةُ غيرَ مالكة لما — حكمت به نَقْضاً ولا توكيداً
يا فتية النيل السعيد خُذُوا المدى — وآستأنفوا نفَس الجهاد مَديدا
وتنكَّبوا العدوان وآجتنبوا الأذى — وقِفُوا بمصر الموقف المحمودا

* * *

وفي يوليو سنة (١٩٢٤ م) يستعد سعد للسفر إلى انجلترا ليفاوض الإنجليز، فينبري له شاب في محطة القاهرة ويُطلق عليه الرصاص، ولكن الله كتب لسعد السلامة، فلم تُصِب منه تلك الرصاصة الطائشة غيرَ ذراعه، فقال شوقي يُهنىء سعداً بنجاته:

نجا وتماثل رُبَّانها — ودق البشائرَ رُكْبانُها
نجا نُوحها من يد المُعتدي — وضل المُقاتلَ عُدوانُها
يَدٌ للعناية لا يَنقضي — وإن نَفِدَ العمر شُكْرَانُها
رماك على غِرَّة يافع — مثار السريرة غَضبانُها
تلمّس نفسك بين الصفو — ف ومِن دون نفسك إيمانُها
ويا سعد أنت أمين البلا — د قد امتلأت منك أيْمانُها

* * *

وتمر الأيام وإذا الخلاف بين المصريين يشتد، وينتهزها شوقي فرصة في الحفل الذي أقيم سنة (١٩٢٥ م)، لإحياء ذكرى مصطفى كامل، ويقول:

إلامَ الخُلف بينكم إلاما — وهذي الضَّجة الكبرى عَلاَمَا
وفِيمَ يكيد بعضكم لبعض — وتُبدون العداوة والخِصاما
وأين الفوز لا مصرُ آستقرت — على حال ولا السُّودان داما
لقد صارت لكم حُكْماً وغُنماً — وكان شعارها الموت الزُّؤاما
شَببتم بينكم في القُطر ناراً — على محتلِّه كانت سلاما

تــراميــتــم فــقــال الــنــاس قــوم إلــى الــخِــذلان أمــرهــمُ تــرامــى
وكــانــت مــصــر أول مــن أصــبــتــم فــلــم تُحْصِ الــجــراحَ ولا الكِــلَامــا
وَلِــيــنَــا الأمْــرَ حــزبــاً بــعــد حــزب فــلــم نَــكُ مــصــلــحــيــن ولا كِــرَامــا
إذا الــتَّــصــريــح كــان بَــرَاحَ كُــفْــر فــلِــمْ جُــنَّ الــرجــال بــه غَــرامــا
وكــيــف يــكــون فــي أيــدٍ حــلالاً وفــي أُخــرى مــن الأيــدي حــرامــا

* * *

وتثوب الأحزاب المصرية إلى شيء من رشدها، وتعقد للائتلاف مؤتمراً في فبراير سنة (١٩٢٦ م)، فيقول شوقي:

بُشْــرَى إلى الــوادي تَــهُــزّ نــبــاتــه هــزَّ الــربــيــع مــنــاكــبَ الأدْوَاحِ
إلــتــامــت الأحــزاب بــعــد تــصــدُّع وتــصــافــت الأقــلام بــعــد تــلاحِــي
وجَــرت أحــاديث العِــتــاب كــأنّهــا سَــمَــرٌ عــلــى الأوتــار والأقــداح
تَــرْمِي بطَرفك في المجامع لا تَــرى غــيــر الــتَّــعــانُق وآشــتــبــاك الــراح
قُــل للبنين مــقــالَ صِــدْق واقــتــصــد ذَرْع الــشــبــاب يَضِــيــق بــالــنُّــصّــاح
أنــتم بــنــو اليــوم الــعَصِيب نــشــأتمُ فــي قَــصْــف أنــواء وعَــصْــف ريــاح
ورأيــتُــمُ الــوطــنَ الــمــؤلَّف صــخــرةً فــي الــحــادثــات وَسيْلِهــا الــمُــجــتــاح
وشهــدتمُ صَــدْعَ الصفــوف ومــا جَنَى مــن أمــر مُــفــتــات ونَــهْــي وَقَــاح
صــوتُ الشعــوب من الــزَّئير مُجمَّعــاً فــإذا تــفــرَّق كــان بــعضَ نُــبَــاحِ

* * *

وفي الرابع عشر من نوفمبر سنة (١٩٢٦ م) يقام حفل لإحياء ذكرى ثورة سنة (١٩١٩ م)، فيقول شوقي:

خَطونا في الجهــاد خُطًى فِسَــاحَا وهــادنّــا ولــم نُلْق الــسِّــلاحَــا
رَضينــا في هوى الــوطن المفدَّى دمَ الشهــداء والمــالَ المُــطاحــا
ولمــا سُلَّت البيض الــمــواضي تقلّدنــا لهــا الحق الصُّــراحــا

وفي ديسمبر سنة (١٩٢٦ م) يكـون لمصـر مجلس للنـواب مؤتلف، يضم الأحزاب على اختلافها، فيقول شوقي:

سَكن الـزمـان ولانت الأقـدارُ ... ولـكُـلِّ أمـر غـايـةٌ وقـرارُ
الأُمــة آئتلفت ورَصَّ بنـاءهـا ... بـانٍ زعـامتـه هـدى ومَنـار
في مجلس لا مـال مصـر غَنيمة ... فيـه ولا غيـرَ الصـلاح شِعـار
يتعـاونـون كـأَهـل دارٍ زُلـزلت ... حتـى تـقـرّ وتـطمئـنّ الـدار
يُجـرون بالـرفق الأمـور وفُلكهـا ... والـريـحُ دون الفلك والإعصـار

* * *

وفي الثالث والعشرين من نوفمبر سنة (١٩٢٧ م) تحتفل مصر بذكـرى ثورتهـا التي شبّت في مثل هذا اليوم من سنة (١٩١٩ م) فيقول شوقي:

في مِهـرجـان الـحق أو يَـوم الـدمِ ... مُـهَـجٌ مـن الـشـهـداء لـم تـتـكـلَّمِ
يـبـدو على هـاتـور نـورُ دمـائـهـا ... كـدم الـحُسين عـلى هـلال مُحـرَّم
يـوم الـجهـاد بـهـا كصـدر نـهـاره ... متمـايـلُ الأعـطاف مُبتسم الـفَـم
يـوم البـطولـة لـو شَهِـدْتُ نـهـاره ... لنـظمت لـلأجيـال مـا لم يُـنْـظَمِ
دعت البـلادَ إلى الغِمـار فغـامـرت ... وطـنـيـةٌ بـمـثـقّـفٍ ومُـعـلّم
ثـارت على الحـامي العَتيـد وأَقسمت ... بـسـواه جـلّ جـلالُـهُ لا تـحـتـمي

* * *

وفي هـذه الثورة وذهـاب سعد وعبـد العزيـز فهمي وإسمـاعيـل صـدقي إلى المعتمد البريطاني، يقول شوقي:

ثـورة أقـبـلت الـسـلم بـهـا ... عَجَب الـرائين سِحْـر السـامعينْ
قـام رهط مـنـكُـمُ فـاقـتـحـمـوا ... كـبـريـاء الفـاتـحيـن الـظافـرين
مَـجَـدُوا الـسَّـيـف ورَدُّوا حـكـمـه ... عُـزَّلا إلا مـن الـحـق الـمُـبـيـن
هـمـة تـكـتـبـهـا مِـصـر لـهـم ... إن أبيتم أن تـكـونـوا الـكـاتِبين

ويختطف الموت سعد زغلول في أكتوبـر من سنة (١٩٢٧ م) فيهـول الخطب مصر، ويُعبِّر شوقي عن هذا الهول فيقول:

شَيَّعُـوا الشمس ومـالـوا بضُحـاهـا ... وآنـحنـى الشـرق عـليهـا فبكـاهـا

مـا دَرت مـصـر بـدَفـن صُبِّحَـتْ ... أم على البـعث أفـاقـت من كـراهـا

صـرخـت تحبسهـا بنت الشَّـرى ... طَـلبت مـن مِخلب المـوت أبـاهـا

وكـأن الـنـاس لـمّـا نَسلوا ... شُعَب السيـل طَغت في مُلتقـاهـا

تَسكب الـدمـع على سَعـد دَمـاً ... أمـةٌ مـن صخـرة الحقّ بـنـاهـا

فـي نَـعـيـم الله نـفس أُوتـيـت ... أَنْعُـم الـدنيـا فلم تَنْسَ تُقـاهـا

* * *

ومشاركة شوقي وطنه الخاص ـ أعني مصر ـ أحداثَه السياسية، يُملي فيهـا عن رأي حـرّ، نَزعت بـه إلى أن يشـارك وطنـه العـام ـ أعني الـوطن العـربي ـ أحـداثـه السيـاسية، يُملي فيهـا عن رأي حُر، ولكنْ فـرق بين مشاركـة ومشـاركـة، فهـو في الأولى على وَعي كامل بالجُزئيات والكُلِّيات، وهو في الثانيـة على وَعْي جزئي، من أجل هذا كانت المشاركة تتّفق وما يَعِي، جُزئية هي الأُخرى.

وإذ كـانت الأحداث السيـاسية التي شـارك فيهـا شـوقي شِعْـراً يحمـل رأيـاً، يتقمَّص شعـراً، في وطنه الخـاص، ثم العام، تـرتبط بغيرهـا من أحداث سيـاسيـة دارت رحاها مع رَحَى تلك الأحداث، ولكن على أرض تَمُتّ إلينا بـأكثر من سبب، عاش بها شوقي يشارك فيها على قَدَر.

* * *

يَعـدو الفـرنسيـون على دمشق في سنـة (١٩٢٥ م) فيُمـطرونهـا وابـلاً من قذائفهم، ويخلفونها يَبابا، وكم قتلوا فيها شباباً، وتَهُبّ مصر لعونها، لِتَقْوى على أن تُشَيِّد ما تهدم، وفي هذه يقول شوقي:

رِبـاعُ الـخلد ويـحـك مـا دهـاهـا    أحـقٌّ أنـهـا درسـت أحـقُّ؟
دَمُ الـثُّـوار تـعـرفـه فـرنـسـا    وتـعـرف أنـه نـور وحَـقُّ
جـرى فـي أرضـهـا فـيـه حـيـاة    كـمُـنْـهَـلِّ الـسـمـاء وفـيـه رِزْقُ
بـلاد مـات فِـتـيـتـهـا لِـتَـحْـيَـا    وزالُـوا دون قـومـهـم لـيـبـقُـوا
ولـلأوطـان فـي دمِ كُـلِّ حُـرٍّ    يَـدٌ سَـلفـت ودَيْـن مُـسـتـحـقّ

* * *

وتحظى سورية باستقلالها بعدُ في الخامس عشر من يناير سنة (١٩٢٨ م) فتعُمّ الفرحة الجميع، فيُهنئها شوقي بما كَلّلَ هذا الكفاح من نجاح، ويقول:

سَـلُوا الـحـريـة الـزَّهـراء عَـنَّـا    وعـنـكـم هـل أذاقـتـنـا الـوصـالاَ
وهـل نِـلنـا كـلانـا الـيـومَ إلا    عـراقـيـبَ الـمـواعـد والـمِـطَالا
عـرفـتم مَـهـرهـا فـمَـهـرتـمـوهـا    دمـاً صَـبـغ الـسَّـبـاسـب والـدِّغـالا
وقُـمـتـم دونـهـا حـتـى خـضـبـتـم    هـوادِجَـهـا الـشـريـفـة والحِـجـالا
دَعُـوا في الـنـاس مفتـونـاً جَـبـانـاً    يـقـول الحَـرب قـد كـانـت وَبَـالا
أيـطلب حـقَّـهـم بـالـروح قـوم    فتسـمـع قـائـلاً: ركبـوا الـضـلالا

* * *

ويَمُرّ بمصر زعيم الهند غاندي، وهو في طريقه إلى مؤتمر المائدة المستديرة سنة (١٩٣١ م)، فَيُحيّيه شوقي ويَزيده وَعْياً بما هو مُقبل عليه، ويقول:

بَـنِـي مـصـر آرفـعـوا الـغـارا    وحَـيُّـوا بـطل الـهِـنْـدِ
وأدُّوا واجـبـاً واقْـضُـوا    حـقـوق الـعَـلَم الـفَـرْدِ
أخـوكـم فـي الـمُـقـاسـاة    وعَـرْك الـمـوقـف الـنَّـكْـد
وفـي الـجـرح وفـي الـدَّمـع    وفـي الـنَّـفـي مـن الـمَـهْـد
وفـي الـرِّحـلة لـلحـقّ    وفـي مَـرحـلة الـوَفْـد
قِـفـوا حَـيُّـوه مـن قُـرب    عـلى الـفُـلْك ومـن بُـعْـدِ

إلى أن يقول:

ولاحِظْ ورق السَّير وما في وَرق اللُّورْدِ
وكن أبرعَ من يَلْـ ـعَبُ بالشِّطْرنج والنَّرْدِ
وقل هاتُوا أفاعيكم أتى الحاوي من الهِندِ

* * *

## (٢٦)

وشوقي السياسي الذي آمن بالحرية حَقّاً للشعوب آمن بالحرية حقّاً للفرد، ولا حرية مكفولة لفرد إلاّ في ظِل حكم دُستوري ثورِيّ.

يخاطب المصريين بعد أن رُفعت عنهم الحماية، وغَدَوْا أحراراً، وأصبح لهم دُستور يسوس أمورهم، فيقول:

نِلتم جَليلاً ولا تُعطون خردلةً إلا الذي دَفع الدستور أو جَلبا

ثم يلفت المصريين إلى ما في الحكم الدستوري من ضَمان لحياة سياسية سليمة، فيقول:

وبالدستور وهو لنا حياة نرى فيه السلامة والفلاحا

ويقول في رثاء سعد زغلول:

أولم يكتب لها دستورها بالدم الحر ويَرفع منتداها

ويحض المصريين على الاستمساك بالدستور، فيقول:

الحق أبلجُ والكنانة حُرة والعِزُّ للدستور والإكبارُ

ثم يردهم إلى الالتزام بالشورى فيقول:

الأمر شورى لا يَعبث مُسَلَّط فيه ولا يَطغى به جبّار

ويذكّرهم بما نعمت به مصر من حكم شورى فيقول:

عَهد من الشورى الظَّليلة نَضَّرت آصــالُـهُ وآخضـرت الأشجــارُ

ويحذّرهم من تسلط الفرد فيقول:

وإذا سبى الفـرد المُسلَّطُ مجلساً ألفيت أحــرار الـرجــال عبيــدا

ويقول وهو يخاطب توت عنخ أمون:

رأيــت جيــلاً غــيــر جيـ ـلك بــالجبــابــر لا يَـدينْ

ويقول، وهو يخاطبه أخرى:

زمــان الـــفــرد يــا فــرعــون ولَّــى ودالــت دولــة الـمُــتــجــبِّــريــنــا

ويذكِّر قومه بما أمر به تعالىٰ من شُورى فيقول:

وإنــمــا هــي شُــورى الله جــاء بــهــا كــتــابُــهُ الحق يُعليهــا ويُـغـليـهــا

* * *

ولعل من يقول: لم نسمع لشوقي مِثلها وهو في أسر البيت الحاكم.

ولهـذا أقول: تعـالَ معي نقرأ قصيـدة شوقي التي ألقـاهـا في سـاحـة مؤتمـر المُستشـرقين بجنيف سنـة (١٨٩٤م)، وكـان شـوقي عنـدهـا في أسـر هـذا البيت المالك، وهو الذي أوفده.

فهذا قوله وهو يحدِّثك عن أيام رمسيس:

ووجــود يُســاسُ والقــول فيــه مــا يقـول القضــاة والحكمــاءُ

وهذا قوله وهو يذكر آستبداد الجراكسة بمصر:

وآستبدت بالأمر منهم فباشـا التُّـ ـرك فـي مِـصــر آلــة صَــمّــاءُ

يـأخذ المـال من مواعيـد مـا كـا نُــوا لهــا مُنجــزين فهي هبــاءُ

ويُســومــونــه الـرِّضــا بــأُمــور ليس يــرضى أقـلهن الـرِّضــاءُ

وهذا قوله يحذر من عبادة الحاكم:

وإذا يُعْبَد الملوك فإن المُلْـ ... ـك فَضْلٌ تَحْبُو به من تَشاءُ

وهذا قوله يحذر الملوك من الطغيان:

إن ملكت النفوس فآبغ رضاها ... فلها ثورة وفيها مَضاءُ
يسكن الوحش للوُثوب من الـ ... ـأسر فكيف الخلائق العقلاءُ

ولو كان المقام يتسع لغيرها لقال، ومن أنحى على الظلم والاستبداد ولو تلميحاً فما أدلَّها على نفوره من الظلم والاستبداد، يُلَمِّح بهذا حيث يُغني التلميح، ويُفصح عن هذا حيث يحلو الإفصاح.

## (٢٧)

وثمة واحدة لا أستطيع أن أختم الحديث عن شوقي السّياسي دون أن أَعْرِض لها، ثم هي عندي تتصل بهذا الذي ذكرت قبلُ: إن شوقي لم يَحُلْ وجوده بالبيت الحاكم عن أن يقول ما يُمليه عليه رأيه، وإن آتَّسم بعض ما قاله في ظل هذا البيت بشيء من الكِياسة، وما كان عليه بها من يأس، فكما تستطيع أن تُفصح عن رأيك في رِفق، كذا تستطيع أن تُفصح عنه في عُنف، وقد تُلام على الثانية وأنت أبعد من أن تلام في الأولى، كما قد تبلغ بالأولى ما لا تبلغه بالثانية.

وهذه الواحدة التي أردت أن أعرض لها هي موقف شوقي من عُرابي.

لقد كانت ثورةعرابي ورِفاقه على النِّظام السائد حينذاك من إيثار الجراكسة في الجيش على المصريّين سنة (١٨٨١ م)، وعلى الرغم من المحاولات التي بُذلت ساعتها لإعادة الأمور إلى نصابها، فإن الإنجليز آنتهزوها فرصة وأشعلوها فِتنة آتَّخذوها ذريعةً لدخول مصر غازين، بحجة حماية العرش أوَّلًا، والرعايا الأجانب ثانياً، وأَعَدّ عرابيّ العُدة لحربهم وصَدِّهم، ولكن أنَّى لجيش مصر الذي كان ينقصه الكثير أن يَصْمُدَ أمام جيش تلك الامبراطورية التي تملك فوق الكثير.

ويدخل الإنجليز مصر سنة (١٨٨٢ م)، ويُقبض على عرابي وبعض من رفاقه، وينفون جميعاً إلى جزيرة سيلان، التي قضوا فيها نحواً من تسعة عشر عاماً،

إلى أن عفا عنهم جميعاً عباس حلمي سنة (١٩٠١ م).

وحين كانت تلك الثورة سنة (١٨٨١ م)، كان شوقي عندها فتًى في نحو من الثالثة عشرة من عمره، وكأني به كان في المرحلة الثانوية من التّعليم.

ويدخل الإنجليز مصر سنة (١٨٨٢ م)، وقد دخل شوقي في الرابعة عشرة من عمره، وهو لم يزل في المرحلة الثانوية من التعليم.

وتمضي الأعوام ويدخل شوقي مدرسة الحقوق، ويتخرج فيها سنة (١٨٨٧ م)، ثم يرسل إلى فرنسا مبعوثاً ليمكث فيها إلى سنة (١٨٩٢ م).

ويعود شوقي من فرنسا ليجد توفيق الذي وقعت كل هذه الأحداث في عهده قد ترك دُنياه، إلى أُخراه، وجلس على عرش مصر عباس حلمي، الذي عفا عن عرابي وصحبه سنة (١٩٠١ م).

ولقد ذهب المؤرخون والسياسيون في ثورة عرابي مذاهب، فمنهم من رأى غيرها كان أولى، ومنهم من قال غير هذا.

وما أظن شوقيّاً حين شَبّ ومثّل مصر في مؤتمر المستشرقين سنة (١٨٩٤ م) كان بعيداً عن هذا الرأي وذاك، تتمثّل هذا في قوله وهو يتحدث عن توفيق ودخول الإنجليز مصر.

إنْ أتاها فليس فيها ببادٍ ... أو جناها فذا الورى شُركَاءُ
أخطأ الأقربون في وصفها الدا ... ني وفازت بنيْله البعداءُ
لا يَلُمْ بعضكم على الخطب بعضاً ... أيها القوم كلكمْ أبرياءُ
ضلّة رامها الشقاء لِمصر ... ومن الذنب ما يجيء الشّقاءُ

ولكنّ شيئاً جد مع عودة عرابي من منفاه سنة (١٩٠١ م)، فإذا شوقي يحمل على عرابي، والعافي عنه عباس، وكان شوقي من رجال عباس.

وهذه تعني أنه كان لا يُقِرّ عباساً على ما فعل من عَفْو.

ويؤيد هذا أن القصيدتين اللتين أنحى فيهما على عرابي باللائمة نشرت أُولاهما أولَ ما نشرت بالمجلة المصرية بإمضاء (نديم)، ونشرت ثانيتهما بجريدة اللواء دون إمضاء ولم يكن بين نشر القصيدتين غير أشهر، فلقد نشرت الأولى في الخامس عشر من يونيه سنة (١٩٠١ م)، ونشرت الثانية في التاسع عشر من سبتمبر (١٩٠١ م).

ويبدو لي أن شوقياً كان متأثراً برأي الحِزب الوطني حينذاك في عُرابي، فلم تكد القصيدة الأولى تنشر في المجلة المصرية في الخامس عشر من يونيه سنة (١٩٠١ م) بإمضاء (نديم) حتى سارع اللواء، وهو لسان الحزب الوطني، فنشرها مرة أخرى في الحادي عشر من يوليه سنة (١٩٠١ م) وزاد فوضع لها عنواناً فيه تهكُّم بعرابي، وهو: أعاد لها عربي؟

وفي القصيدة الأولى يقول شوقي:

عفا عنك الأباعد والأداني     فمن يعفو عن الوطن المُصَابِ

وفي القصيدة الثانية قَسَا فيها شوقي على عرابي القَسوة كلها، وهذا حين ظنّ عرابي أنه بتلاوة البخاري سوف يَعصم البلاد من شَرّ الإنجليز، فقال:

وآظلم صحيح البخاري كل آيته     ونَمْ عن الحرب وآقرأ في لياليها

ثم يقول له في نكبة مصر بالاحتلال البريطاني:

وكنت تطرب إذ تتلى مدائحها     فأين دمْعك إذ تُتلى مراثيها

وكأني بشوقي لم ينس لعرابي كبوته، فإذا هو يعاود التنديد به في القصيدة التي حيًّا بها الأزهر سنة (١٩٢٤ م) لما أخذ فيه من تطور، وهذا التنديد بعرابي حين يقول شوقي:

الغافل الأُمِّيّ يَنطق عنكمُ     كالبَبَّغاء مُردِّداً ومُكرِّراً
لو قلتُمُ اختر للنيابة جاهلاً     أو للخَطابة باقلاً لتخيَّرا

ذُكِـر الـرجـال لـه فـأَلَّـه عُصبـة       مـنهـم وفَسَّـق آخـريـن وكَـفَّـرا
حـتـى تـلفّـت عـن مـحـاجـر رومـة       فـرأى عُـرابي في المـواكب قَيْصَـرَا

(٢٨)

والحديث عن شوقي السياسيّ يجر إلى الحديث عن شوقي الوطني، فثانيهما يُكمِّل أولهما.

ألا يكفيك من شوقي وطنيّاً مصريّاً أنه لم يجد ما يُبادي به مُؤتمر المستشرقين سنة (١٨٩٤ م) خيراً من أن يُحدِّثهم عن مصر منذ أن كُتب لها الوجود إلى يومه، حديثاً فيه الاعتزاز، وهو يَعرض عِزّها، والأسى حين يذكر ما نابها، والرَّجاء حين يتطلع إلى مستقبلها، فيقول في الأولى:

وملكنـا فـالمـالِكـون عبيـد       والـبـرايـا يـأَسـرهـم أُسـراءُ
قـلْ لِبـانٍ بنى فشـاد فـغـالَى       لم يَجُـزْ مصـرَ في الـزمـان بِنـاءُ

ويقول في الثانية:

لا رعـاك الـتـاريـخ يـا يـوم قَمبيـ       ـز ولا طَـنْـطـنـت بـك الأنـبـاءُ
دارت الـدائـرات فـيـك ونـالـت       هـذه الأُمـة الـيَـدُ الـعـسـراءُ
فـبـمـصـرٍ مـمّـا جنـيتَ لِمِـصْـرٍ       أيّ داء مـا إن إلـيـه دواءُ

ويقول في الثالثة:

عَلَّمت كـل دولـة قـد تـولّت       أنـنـا سمُّـهـا وأنّـا الـوبـاءُ

ثم إنك بعد هذا قَلَّ أن تقرأ له قصيدة إلّا وتجد فيها آسم مصر.

يُحيِّي الطيارين الفرنسيين اللذين زارا مصر فيذكر مصر المضيافة ويقول:

داركم مصـر وفيهـا قـولكم       مـرحبـاً بـالأقـربين الكـرمـاءْ

ويهنىء الكاتب القصصي الإنجليزي هول كين على روايته التي صور فيها مآسي كرومر بمصر، فيذكر ما لمصر من تاريخ متصل فيقول:

هــون كـين مـصــر روايــة لا تَنتهـي      مـنـهــا يــدُ الــكُـتَّـاب والــشــراحِ

وينزل الإسكندرية ويُطل على البحر إطلالة فإذا هو يذكر صفحة من صفحات مصر قديماً فيقول:

ورأيــنــا مِــصْــراً تُــعَــلّم يُــونــا      نَ ويُــونــان تَـقْـبِس الـعِـلْمَ مِـصْـرَا

كـم مـلأنــا مِـنَ الـسَّـفـيـن مَـواقـيـ      ـر كـشُـمٍّ الـجـبـال جُـنـدا وَوَفْـرَا

شــاكـيـات السِّــلاح يخـرجن من مِصْـ      ـر بـمَـلْمُـومـة ويــدخــلن مِـصْـرَا

وتقع عينه على البُسفور وهو في تركيا فإذا مشهد مصر العالق بذاكرته يغلب مشهد البسفور الحاضر بين عينيه، فيقول:

فــإيــهٍ يــا بــنــات الــشــعــر إيــهٍ      فمــا لــك في عُقـوق الشِّعـر عُـذْرُ

* * *

لأجــلك سِــرْت فــي بَــرٍّ وبَــحْــرٍ      وأنــت الـدهـرَ أنـت بـكُـل قُـطْرِ

* * *

حـننـت إلى الـطـبـيـعــة دون مـصــر      وقـلت لـدى الـطبيعـة أيـن مـصـر

ويشارك بشعره في رفع الستار عن تمثال نهضة مصر فإذا هو يكشف لنا عن مكانة مصر من قلبه ثم مِن ذِهنه، وأنه منها جسماً وروحاً فيقول:

وإني لَغِـرِّيـدُ هــذي الـبـطـاح      تَغَــذَّى جنـاهـا وسلسـالهـا

تــرى مـصــر كعبــة أشعــاره      وكُـل مـعـلَّقـة قـالـهـا

ثم يذكر كيف وصل هذا التمثال مصر بماضيها فيقول:

ويـوم ظـليـل الضـحى مـن بشَنس      أفـاء عـلى مـصـر آمـالـهـا

مَـشت مـصـر فيـه تُعيـد العُصـور      ويـعـمـر ذكـر الـصّـبـا بـالـهـا

ويتطلع إلى عصفور في بيته أسير في قفص فيذكر مصر وأَسرها، ويقول:

صــدّاح حــق مــا أقــول      ل حَـفِلْت أم لـم تـحـفـلِ

جــاورت أنــدَى روضــة      وحَــللت أكــرم مــنـزلِ

صِــح بـالصبـاح وبالشِّـرا      ك رَجـاك بـالمسـتقبـلِ

وَاســأل لـمـصــر عــنــايــة تــأتــي وتـهــبِط مـن عَــلِ
قــل: ربنــا أفتـح رحـمــة والـخيــرَ منــك فــأرســلِ
أدرك كـنــانــتــك الـكــريــ ــمــة ربَّــنــا وتــقــبَّــلِ

وكان شوقي يحرص دوماً على أن يكون شاعر مصر، لا انفصال بين الاثنين، فيقول:

تــســأل أتــرابــهــا مُــومئــةً بــالــعَــنَــمْ
أي فــتــى ذلــكــ ــنّ الـعــربيّ الـعَـلَـمْ
قــلن: تـجــاهــلـنــه ذلــك ربّ الــقــلـمْ
شــاعــر مصــر الـذي لــو خَــفِي النَّجـم لَمْ

ويتشـوف وهو في منفـاه إلى مصـر التي هي مـوطن أُبـوتـه وعلى أرضها ولـد فيقول:

ومصـر كـالكـرم ذي الإحسـان فـاكهـة لــحــاضــريـن وأكــواب لــبــادينــا
أرض الأبــوة والــمـيــلاد طــيَّــبـهــا مَــرُّ الصِّبـا في ذُيــول من تصــابينــا

ثم يذكر لَهْفَته إلى الرُّجوع إلى وطنه مِصر فيقول:

لـو آستـطعنـا لخُضنـا الجـو صـاعقـة والـبــر نــار وَغًى والـبَحْــر غِـسْلينـا
سَعْيـاً إلى مصـر نقضي حق ذاكــرنــا فيهــا إذا نـسيَ الــوافي، وبــاكينـا

ثم يذكر أُمه التي تركها بحُلْوان، وأُمه مصر، فيقول:

كــنــز بـحُــلـوان عــنــد الله نــطلبــه خيــر الــودائــع من خيــر المُـؤدِّينـا
إذا حـملنــا لـمصــرٍ أو لــه شَـجَـنــاً لم نَــدْرِ أيُ هَــوًى الأُمَّيْن شــاجِيـنــا

ويتمثّل أبا الهول وكأنه نَطق بما يرجوه شوقي لمصر:

ولتجمــل مصــر هي الــدنيــا ولنجعــل مصــر هي الــدنيـا

وحين عاد شوقي من منفاه أخذ يصف ما خلفه وراءه في الأندلس من ذكريات

وعلى رأسها تعلُّق قلبه بوطنه مصر، وهذا حين يقول:

وسَــلاَ مصر هــل سَـلاَ القلبُ عنهــا　　أو أَسَــا جُـرْحَــه الــزمــانُ المُؤَسِّي

ثم يذكر ما عليه أهله أهل مصر من وفاء فيقول:

هم بنــو مصــر لا الجَـمِيــلُ لـديهم　　بـمُـضَــاعٍ ولا الـصَّـنِيـعُ بـمَـنْـسِـي

وتُحِسُّ ولَعه بتاريخ مصر، هـذا الولـع الذي مـلأ عليه فِكْـرَه كلَّه، وهذا حين يقول في وصف أسوان وما بها من آثار:

أنــت سـطـر ومـجـد مِـصْـرَ كـتــابٌ　　كـيـف سـام الـبِلى كـتـابَـك فَـضًّـا

وأنــا الـمُـحْـتَـفِـي بـتــاريــخ مـصــر　　من يَصُنْ مجد قـومـه صـان عِـرْضَـا

ويقول للكاتب الإنجليزي هول كين، وكان قد جـاء مصر ليـرى ويسمع كيف يؤلف رواية:

أيهــا الكــاتب المصــوِّر صــوِّرْ　　مصــر بـالمَنْـظَرِ الأَنِيق الخَلِيقِ

إنّ مصــراً روايـة الـدهـر فــاقْـرَأْ　　عِبْـرة الدهـر في الكتـاب العَتيقِ

ويَعُدّ كَشْف عالم الآثار الإنجليزي كـارنارفـون لمقبرة تـوت عنخ آمـون فضلاً من مصر عليه لا فضلاً منه على مصر، فيقول له:

نَشَــرْتَ صفـائحــاً فَجَــزَتْـكَ مِصْــرُ　　صــحــائـف سُــؤْدُد لا يــنــطـويــنــا

فــإن تَــكُ قــد فتحـت لهــا كُـنـوزاً　　فقــد فتـحـت لــك الـفَـتْـح الـمُبِـيـنـا

وحين هبط الطيّار المصري محمد صدقي بطائرته التي طار بها من لنـدن إلى مصـر، وكان أول طيـار مصري دخـل ميدان الـطيران، مـلأت الحسرة قلب شـوقي لتخلُّف مصر في هذا الميدان، وإذا هو يقول، بعد أن هنّأه بسلامة الوصول:

مِـصــر لـلطَّـيـر جـمـيـعــاً مَـسْــرَحٌ　　مــا لــنــا فـيــه ذُنَــابَــى أو جــنــاحْ

لِــمَ لا يَـفْـتِـنُ فـتـيـانَ الـحِـمَـى　　ذلــك الإقــدام أو ذاك الــطِّـمَــاحْ

ويضع مصر مكانها بين دول الشرق عن إيمان فيقول:

عَــرُوس الـشــرق مصــر ولا أُبــالي　　لـقــد شَبَّــت ومــا بـلغ الـفِـطَامَــا

ويُحَيِّي في الـرَّحَّالـة المصري أحمـد حسنين جهوده، ويستنهض شبـان مصر لمثلها، فيقول:

قُل للشباب بمصرٍ عصركم بـطلٌ　　بكــل غـايــة إقــدام لــه وَلَــعُ

وَيـأْسَى لتخلُّف التعليم في مصر، ويَنْعى على دنلوب الإنجليـزي ما أسـاء به إلى التعليم في مصر، وكانت مقاليد الأمـور لوزارة التعليم في مصـر كلها في يـده، فيقول:

حـتى رأيـنــا مصــر تـخــطو إصبعــا　　في العِلم إن مشت الممــالــك مِيــلا

ويمتلىء قلبه غِبْطَةً بفوز بطل مصر في حمل الأثقال سيد نُصير على منافسيه من أهل الغرب، فيهنىء مصر به ويقول:

يـا قاهـرَ الغَـرْب العَتيـد مَـلأتـه　　بثنـاء مصـر على الشِّفـاه جَمِيـلاَ

ويُحب لمصر أن تكون أُمة واحدة، ويتجلّى لك هذا في تَهنئته لواصف غالي حين آختار مختارات من الأدب العربي وترجمها إلى الإنجليزية، حيث يقول:

يــا بني مـصــر، لم أقــل أُمَّــة الـقِبْـ　　ـطِ فــهــذا تَــشَــبُّــثٌ بِــمُــحَــالِ
إنــمــا نـحــن مـسـلمـيــن وقِـبْـطاً　　أمــة وُحِّــدَت عــلى الأجـيــالِ
سَـبـق الـنـيــل بــالأُبُــوة فــيـنــا　　فـهــو أصــل وآدم الـمـجــد تــالـي

وُعد إلى هذا النشيد الذي أَبدعه شوقي ليكون أُنشودة كل مصري تُحِسّ معي عُمق هذا الحب لمصر في نفس شوقي، يتمثل لك هذا في قوله:

لنــا وطن بــأَنْفسِنــا نَفيــهِ　　وبـالدُّنيـا العـريضـة نَفْتَـدِيـهِ

وفي قوله:

نَــرُومُ لمصـر عِــزّاً لا يــرامُ　　يَـرِفُّ على جـوانبــه السَّـلاَمُ

وفي قوله:

إليـك نمـوت مصـر كَمـا حَيِينــا ويَبقى وجهــك المَفْـدِيُّ حَيًّــا

وليس هذا بغريب على من عـرف للأوطـان حقها، وأن الأفـراد لم يخلقوا إلا لها، كما خُلقت الأوطان لهم، يُعطونها فتعطيهم الحياة والأمن، وإن هم لم يعطوها فلا حياة ولا أمن.

أليس هو الذي يقول:

هَـبْ جنــة الـخُـلْد الـيَـمَـنْ لا شــيء يـعــدل الــوطــنْ

ولقد مرّ بك الكثير ممّا يدلك على هذا الحب الذي لا يستوي فيه مع شـوقي إلّا من سَبقت إلى الحب عقـولُهم قُلوبَهم، فـإذا هم مـع حب راسـخ لا تـزعـزعــه الأهواء، ولا تذهب به المطامع.

فشـوقي لم تمتد أصـوله على أرض مصـر إلى أزمـان سحيقـة، كمـا امتـدت أصول الكثيرين الذين آنبنى حبهم لمصر على ذلـك الأُنس بها، فـإذا هم إن غلبهم أُنس على أنس هجروا مِصر إلى غيرها، مُنْجذبين بذلك الأنس الجديد.

وشوقي لم يجذبه إلى مصر أنس زائل، ولكن جذبه إليها عقل عاقـل، فما إن أحسّ بهـذه الأرض التي تَلَقَّتـه وليـداً، كمـا تَلَقَّت آبـاءَه من قبله، حتى أخـذ عقلُه يشارك أُنسه، فإذا هذا الأُنْس له أسبابـه وعِلَلُه، وإذا هذه الأسبـاب والعِلل الأساس الثابت الذي يقوم عليه هذا الأُنس.

وهكـذا أحب شـوقي مصـر، أحبهـا حُبَّ المُـدرك لحقيقـة الـوطن، لا حُبَّ الوارث لِتُحْفة لا يُدرك حقيقتها، فإذا لا أُغْرِيَ بالنزول عنها بمزيد يُشبع أُنْسَه، نزل عنها راضياً.

لقـد أحبَّ شوقي وطنـه مصر بعَقله ووجـدانه، يَطغى العقـلُ على الـوجـدان حيناً، فإذا شعره الوطني رصينٌ رزين، تُحس هذا في قوله:

وطـني لــو شُـغِـلْتُ بــالـخُـلْد عـنــه نــازعـتـني إليــه فـي الخُـلْدِ نَـفْـسِـي

ويطغى الوجدان على العقل أخرى فإذا شعره ثورة في ثورة، تُحِسّ هذا في قوله:

رَضِينا في هوى الوطن المُفَدَّى    دَمَ الشُّهداء والمالَ المُطَاحَا

ولقد سُقت لك الكثير قبل مما يزيدك إيماناً بإيمان شوقي بوطنه مصر.

## (٢٩)

والهبة الشِّعرية كالبذرة إن صادفت أرضاً جَدبة خرج نبتها ذاوياً، ليس له من النبات إلّا آسمه، وإن هي صادفت أرضاً خِصبة خرج نبتها مُزْدهراً مُونِعاً مُورِقاً قد تكاثرت ثِماره.

وهكذا هي الحال في الهبة الشِّعرية، إن صادفت شاعراً لا حظَّ له من علم وثقافة تَمَخَّضت عن شعر ليس له من الشِّعر إلّا آسمه، له وَزنه وقوافيه ولكن ليس له فُنونه ومعانيه، التي تُمليها الثقافة، ويُشكِّلها العِلْم.

وإذ كان شوقي هذا الشاعر الذي له عِلمه وثقافته، شرقيّة وغربيّة، كان أقدر ما يكون على أن يُحَمِّل شعرَه تلك الفنون المتنوعة، والمعاني المختلفة، يميل إلى التاريخ فيكون مؤرّخاً، ويميل إلى اللغويات فإذا هو لغوي على حظ كبير من اللغة.

ومن هنا كان لا بدّ لي، كما قدَّمت شوقيّاً، سياسيّاً، أن أُقدِّمه مؤرخاً، وأن أقدِّمه فيلسوفاً، ثم لُغويّاً، أي في كل ناحية من تلك النواحي التي ذكرتها علماً وثقافة.

## (٣٠)

وأحدِّثك هنا عن شوقي المؤرِّخ، وما أُريد بهذا الحديث أن أَنْزِعَ شوقيّاً من ميدان الشعراء إلى ميدان المؤرخين، بل كل الذي أُريده بهذا الحديث أن أُبْرِزَ جانباً من الجوانب الثقافية التي كان يتمتّع بها شوقي، والتي كان لها آثارها في إسباغ تلك الصفة الكُلّية على شعر شوقي، فلم يكن ذا صفة جُزئية، لا تَظفر في

ظلها إلّا على كلام مَرْصوف، في نطاق محدود، لا تلوين فيه ولا تنويع، فكأنك به في بستان لا يضمُّ غير زهرة، بعينها، سرعان ما تملُّ النظر إليها، وآستنشاق عَبيرها، ولكنه بذلك التلوين وهذا التنويع يَخْرُج بك إلى بستان اختلفت زهراته، وتعددت ثمراته، تخرج من معنى إلى معنى، ومن فكرة إلى فكرة، فإذا أنت على أنس بقراءته، ثم إذا أنت على زاد بعد زاد، من عِلم وثقافة.

الذي أريده هنا بهذا الحديث أن أُبرز لك كيف طَوَّع شوقي التاريخ لِيَجْرِيَ على لسانك شِعراً، فإذا أنت قد لَقِنْتَه دون عناء، وليس هذه وحدَها، وإلا كان شعر شوقي التاريخي تاريخاً تهاوياً، وما هذه أردت ولا أرادها شوقي، وإنما أردت وأراد شوقي في أن يُضَمَّن الشعر من التاريخ عظات وعِبَراً، فإذا أنت قد أفدت آثنتين: هذه الأولى التي ذكرتها قبل من إلمام بالتاريخ، وهذه الثانية التي تُصوِّر لك التاريخ عظاتٍ وعبراً، وهذه ما لا يقصد إليها المؤرخ، وإنما هي من قَصْد الأديب.

فشوقي هنا واعظ حَمَّل التاريخَ عِظته، وجَعَل التاريخ مَطِيَّته إلى ما أراد. وأَسْمَى من هذا وأعلى قَدْراً هو أن يقف الأبناء على ما كان من خَير فيحتذونه، وما كان من شر فيجتنبونه، شأنه في شعره كلِّه، وما خُلِقت الكلمة نَثْرِيّة وشِعرية إلّا لهذا ومثله.

فالتاريخ حين يُسْرَدُ جامداً لا روح فيه نلقنه حفظاً وقلّ منا من يَعِي عِبْرَته، ولكنه حين تُبعث فيه الروح تلقنه وقد قرَّت في نفوسنا عِبَره وعظاته.

وعلى الأولى ساق المؤرخون التاريخ، وعلى الثانية قَدَّم لنا شوقي التاريخ، حين بثّ فيه روحه، وجَسَّمه لك شخصياً ينطق بما سَلف في صِدق لا التواء فيه، وفي صراحة لا خفاء معها، يقول ما له وما عليه، وهذا هو ما فعله شوقي بأرجوزته التي أَرَّخ بها للعرب من شُبِّهم إلى دُبّهم، والتي بدأها بلمحات خاطفة، جعلها مدخلاً لما أراد.

ولقد نظم شوقي هذا التاريخ الذي آمتد قروناً سِتة تنقص قليلاً، في مَلْحَمة

شعرية تُرْبي أبياتها على الخمسمائة والألف بقليل.

وما كان أحوَج شوقي ليُهيِّىء مثلها إلى فُسحة من الوقت فَسيحة، وإلى خَلْوة خالية، وإلى جلسات ممتدّة يسكن فيها إلى نفسه يَسْتَمْلِي منها.

ولقد كان لشوقي في منفاه هذا كلّه، فإذا هو يفرغ لما أراد أجمع، وإذا هو يطالعنا بتلك الصفحات، التي لا تَتَّسع لها مجلَّدات.

وفي هذا يقول شوقي في مقدّمته لهذا الملحمة:

وحَكم الله بهِجْرة الوَطَنْ ... وطالما آبتلى بها أهل الفِطَنْ
فكنت أستعدي على الهُموم ... بناتِ فِكْرٍ ليس بالمَلْمُوم
أَستدفع الفراغ والبِطَالهْ ... وبَطَلٌ من يَقتل البَطَالهْ
حتى أراد الله أن نَظمتُ ... من سِيَرِ الرجال ما آستعظمت

ثم يأخذ شوقي فيما كان للعرب في جاهليتهم من جهود لإنعاش لغتهم، وكأنهم كانوا على عِلم بما ستَحظى بها تلك اللغة من حُظوة سماوية، فتكون لغة القرآن الكريم، وإذا هي بعد قد فَرضت وُجُودَها شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، وإذا أهلها قد مَجدُوا بمَجْدها.

وفي هذا يقول شوقي:

ورُبَّ شعب نال مَجْداً باللغهْ ... لم يبلغ الأقوام فيه مبلغهْ
كانت له في ظلها حضارهْ ... رفَّت نعيماً وجرت نَضارهْ

ويذكر شوقي تلك الأسواق والمواسم التي جعل منها العرب ميادين للتباهي بالكلمة فيقول:

على عُكَاظ تتبارى الجِنّهْ ... وفوق ذي المَجاز والمجنّهْ
ويخطب الكُهّان في المواسمِ ... سَجْع الحمام في الرُّبَى النَّواسمِ
فتأخذ القبائل البيانا ... أَخْذَك من مَعْدِنه القيانا

وينتهي شوقي إلى ما حظيت به تلك اللغة حين غدت لغة السماء، فيقول:

ولـم يـزل تـاجَـهـم الـكـلامُ    والأمـراء الـصَّـاغـة الأعـلامُ
حـتى حـيـاه الله بـالجَـزيـلِ    واختـاره للوَحْـي والتَّـنْـزِيـلِ

وبعدها يمضي شوقي يذكر ما صارعت به هذه اللغةُ لتُجارِيَ الحضارات المختلفة التي لم يكن لها بها عَهد، فيقول:

ظلَّت تُعين المصلحين الضَّادُ    وظـلَّ لـلعِلم بـهـا آعْـتِـضـادُ
تُـعيـرهـا فـارسُ والـيُـونـانُ    كمـا تهـادى الـزَهـرَ الجنـانُ
مـا أخـذت غيـرَ صَفِيّ الـرُّوحِ    كـاللطف من رُوح سري لـرُوحِ

وبعد هذا كله يأخذ بيدك شوقي إلى الطريق السويّ لحفاظك على لغتك فيقول:

لسـانـك الأوَّل في الكُتَّـاب    ولُـغـة الصَّبْـوة والعِـتَـابِ
فخُضْ عُباب فِقْهه ويُسْـرهِ    وغُص على صحيحه وحُـرَّهِ
واقـرأ علوم السَّلَف الأعلامِ    فـإنـهـا معـالِـمُ الـكـلامِ

ثم يتوّج عِظته بقوله:

وكُـلُّ من لم يَـرْمِ عن قَـوْس العَـرَبْ    فـليس فـي نَـبْـعٍ لـهـم ولا غَـرَبْ

هذه أولى تكشف لك عن تواليها.

أرأيت كيف بَصَّرك شوقي في كلمات قليلة، يسيرة التلقِّي، بلغتك كيف بدأت، وكيف كان حالُها في جاهليتها، وكيف مَضت لتُثْبِت وجودها، ثم كيف دَلَّك على ما تأخذ به نفسك لتحيا للُغتك، ولتحيا لك لغتك.

* * *

## (٣١)

ويخرج بك شوقي من حديثه عن اللغة، وهي اللَّبِنة الأولى في كِيان الأُمة العربيّة، إلى الحديث عن التاريخ بمدلوله العام كيف بدأ، وكيف تطوّر، وهذه وتلك لا تُمْلِيهما إلّا فِطرة واعية، ولا تصوغهما شعراً إلّا هبة سامية.

إقرأ معي قوله:

مِن سَخَّر الصخر الأَصَمَّ للقلمْ ... حتى جرى نُوراً عليه في الظُّلَمْ
يُضيء أثناء الصَّفَا وطَورا ... ينجد كَهفا بالسَّنَا وغَوْرَا
لكل شيء عُنصر ويُنْحَتُ ... وما أبو الأقلام إلَّا المِنْحَتُ
قد نشأ التاريخ في حِجْر الحَجَرْ ... وشبّ ما بين الكُهُوف والمُتْجَرْ

ثم اقرأ قوله:

سُبحانه خَصَّ حديثَ آدمِ ... على تَنائي العَهد والتقادُمِ
ورفع التاريخ أعلى منزلهْ ... بنَصِّه في كُتْبه المنزَّلهْ
بين الأناجيل علت أصوله ... وفي الحواميم غلت فُصوله

ثم اقرأ قوله:

رمسيس وهو في البناء مَن هُوَا ... تعشّق الذكر فغالى في الهَوَى
ما زال حتى غَصَب الآثارا ... على المُلُوك قبله آستئثارا

ثم اقرأ له، وهو يؤيد ما ذكرته لك قبل عن العِبرة:

فالرُّوح في التاريخ الاعتبارُ ... وحِكمْة تُودعها الأخبارُ

ثم اقرأ أخيراً قوله: وهو يزكّي ما قلته قبل من أن الشعر يُشارك النثر في حِفظ التاريخ:

فمن كريم الشِّعر والبَيانِ ... عَينان في التاريخ تَجْريانِ
لولا أوابِدُ من البَوادِي ... مشت على أيامها العَوادِي

الشَعر بعد موتها أحياها    في شِعرها تمثَّلت دُنياها

ثم يتوِّج هذا كله بما يحب أن يكون عليه المؤرخ من تحرٍّ للصدق فيقول:

ما أقْبَحَ الكِذْبَ على الرِّفاق    والكذب من أراذل الصفاتِ
من غَشَّ ناساً جمع المظالما    ماذا ترى فيمن يَغشّ عالَما

فانظر بعد هذا أي تاريخ تقرأ، ولمن تقرأ.

## (٣٢)

وهنا يحدثنا شوقي عن الوطن، ولقد حدثتك قبل عن شوقي وطنيّاً، وأيَّدت ذاك الحديث بأبيات لشوقي مُفردة، وما غابت عنّي عندها هذه المقطوعة التي أتناولها بالحديث هنا، والتي جاءت أبياتها كلها خالصة للوطن، وليست هذه الأبيات بالقليلة فهي تبلغ الخمسين إلاّ قليلاً.

عَرَّفنا فيها شوقي بالوطن فقال:

وجانِبٌ من الثَّرى يُدْعى الوطنْ    مِلْءِ العُيون والقلوب والفِطَنْ
كم من دماءٍ سِلْنَ حولَ حوضه    ومن عُروض زِلْنَ دون عِرْضِهِ

ودَلَّنا شوقي على مكانته فقال:

وتَكْرُم الدار على الحُرِّ الأَبِي    كرامة الأُمِّ عليه والأبِ
وليس من عِرْض ولا حَرِيم    تَحْميه فوق الوطن الكَرِيم
الجِسم من تُربته ومائه    والرُّوح رَوْحُ هَبَّ مِن سمائِهِ
وفَى له من ليس بالوفِيِّ    وهَشَّ من لم يك بالحَفِيِّ

وينتقل بك شوقي إلى ما كتب الله لراية الإسلام من أن ترفرف على أرض لم تكن أرضها، فإذا هي أرضها فيقول:

وأنجز الله النبيُّ وَعْدَه    وساد قومُهُ الزمان بَعْدَه
واتخذوا كُلَّ القُرى أوْطَانا    وحاسَنُوا الأهلين والقُطَّانا

فحيث حلَّ العربيُّ حَيًّا　　مِن المَلا قَبِيلَةً وحَيًّا

ويَعود الفاتحون من حيث جاءوا، بعد أن أَرْسَوْا ديناً ولساناً، وربطوا تلك الأوطان الجديدة بالوطن الأدنى، ولا فكاك، وفي هذه يقول:

تغيرت كدأبها البلادُ　　وانتقل الزِّمام والمَقادُ
ودينُهم بين الشعوب دينُهمْ　　يُعيي على الأيام من يَدِينهمْ
وذلك اللسان باقٍ لم يزلْ　　يمضي عليه من علا ومن نَزلْ

أرأيت معي بعد ذاك الذي سُقته هناك أولاً، وهذا الذي سقته هنا ثانياً، كيف كان شوقي لوطنيه الخاص والعام، أعني مصر والديار العربية، ثم أتراني قد شَططت إذا قلت لك: دُلَّني على شاعر، من قَبل شوقي ومن بعده، جَمع بين هذا كلِّه لوطنيه الخاص والعام.

## (٣٣)

ويبدأ شوقي الحديث هنا عن العرب أول ما نشأوا على أرض الجزيرة العربية، فيحدثنا أولاً عن البيت الحرام كيف كان، فيقول:

دار عليها مِيسَمُ من القدمْ　　حُجَّت على أول خُفٍّ وقَدَمْ
لم تُبْنَ بالصُّفّاح والصَّوَّانِ　　ولا عَلت تعالِيَ الإيوانِ
بل صُنْع شَيخ مُقْبِلٍ مُزَاول　　أُعِين بابن يافِع مُنَاوِل

ثم يحدثنا عن انتصار أولاد إسماعيل فيقول:

أبناء إسماعيل حولَ بَكَّه　　تضوَّعت منهم شعابَ مَكَّهْ
آنتشروا قبائلاً على الزَّمَنْ　　مِلْء الحجاز والشآم واليَمَنْ

ثم يحدثنا عما اعتنقوا من أديان، فيقول:

تنقَّلت فيهم ديانات الأُوَلْ　　تَنَقُّلَ الأيام فيهم والدُّوَلْ
نار المجوس وجدت مَجازا　　وآبن سِنان أنقذ الحجازا

وبلبلت أَلْسُنُهم أسماءُ        فكثرت في حُبها الأسماءُ
كل فريق حول ما أَحَبَّا        وكل قوم يعبدون رَبَّا

ثم إذا شوقي يطالعنا بميلاد الإسلام، ومولد موعد خير الأنام، فيقول:

محمَّدُ سُلالَة النُّبُوَّهْ        ابنُ الذبيح الطاهر الأُبُوَّهْ
العربيّ طِينةً نَبِيلهْ        القُرشِيّ الباذخ القَبِيلهْ

يمضي شوقي يحدثنا عن حياة الرسول ﷺ بكل ما فيها من كِفاح وجهاد، في سبيل الدعوة، إلى أن كُتب للإسلام أن تثبت أركانه، ثم تَرْكه ﷺ دُنياه إلى أُخراه، فيقول:

حتى أَظَلّ العربَ الإسلامُ        وشَمِل الجزيرةَ السَّلامُ
وبلغ الصُّمَّ بلاغُ الدَّاعِي        وأسمعتهم حجَّةُ الوداعِ
هُناك حان أَجَلُ الطَّبِيبِ        وحَكم المُحِبُّ في الحَبِيبِ
سُبحان مَن له البقاء دون حَدّ        وليس فوق الموت غيرَه أَحَدْ

فهذه حِقبة من التاريخ آتسعت لها مُجلَّدات، ورسالة تعطَّرت بها صفحات، يَعْيَى القارىء عن أن يلم بها جُملة، ويَخرج منها وما آستوعب بما يُريده كلَّه، ضمنها كلّها شوقي أبياتاً من شعره، تربى على الخمسين والمائة بقليل.

وما يقوى لمثلها إلا من كان له إلْمامه الواسع الدقيق بتاريخها، وما أكثر مراجعه، إزاء من كان له هذه القدرة الشعرية على سوقها هذا المَساق المُستساغ.

وهل كان غير شوقي يقدر عليها؟

## (٣٤)

ويأخذ شوقي في تاريخ الخلفاء الأربعة: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، لا يكاد يفوته حقيقة وإن صغرت.

يذكر مع أبي بكر حُروب الردّة فيقول:

وثــاب أقــوام إلـى الأوثــانِ وقــام غــاوٍ وتــلاه ثــانِــي

ثم يذكر ما كان لأبي بكر من فُتوح فيقول:

وحُبِّبَ الفتــح إلى الإمــامِ لا بُــدّ للبُنيــان مِن تَـمَــامِ

ويذكر ما كان عليه أبو بكر من عطاء فيقول:

فيـا أخـا الضَّـرّاء والشـدائـدِ والنـاسُ إخوان لـدى الفَوَائِـدِ

ويذكر جهوده التي أُعيت من بعده فيقول:

ذَهَبْـت بـالـخيـر وأَتـعبت عُـمَـرْ يـا ويـحَ مَـن بعـد أبي بـكـر أمـرْ

ثم يُثَنِّي شوقي بذكر عُمر خليفةً بعد أن مهَّـد بما كـان من عُمر قبـل أن يكون خليفة، فيقول:

مـضـى أبــو بــكــر وولاّهــا عُـمَـرْ الـشـمسُ لا تُـخْـلَفُ إلاّ بــالــقَـمَـرْ

ويذكر ما كان عليه عمر من عدل وشِدّة في الحق فيقول:

بـالـعَـدْلِ والـدِّرَّة طـار بـالعَـرَبْ وســار في الجَـوِّ بـهم وفـي السَّـرَبْ
طــريـقــه في الـعَــدْل قَطُّ مـا سُلِكْ مَـن ذا قـضـى لـسُـوقَـةٍ عـلى مَـلِكْ

ويذكر ما كان يلزم به ولاتَهُ من عِفّة يَدٍ فيقول:

وُلاَتــه فـي مُلْكِـهم رُهْبَــانُ والفُلْكُ حيث ساقها الـربَّـانُ

ثم يثلِّث شوقي فيذكر الخليفة الثالث عثمان.

فيذكر ما أخذه عليه العائبون عليه فيقول:

آستقبحــوا إحســانــه العَمِيمَــا أَنْ يَشمَــل القــريبَ والحَمِيمَــا

وأن يُنَاط القُطر والولايهْ | بمن له الصِّهْرُ أو الولايهْ
وردَّدت قولَهمُ الغَوغاءُ | كما تُعيد القولَ بَبَّغاءُ

ثم يردُّ على هؤلاء آدعاءهم فيقول:

يا حبَّذا ولاتُه الأَخيارُ | ورأيَه فيهم والاختيارُ
فِتيان مُلْكٍ وبنو خلافهْ | قد صدقوا الأُبُوة الخِلَافهْ
قد فتحوا قبرس للإمامِ | بالسُّفن المُزْجاة بالغمامِ

ثم يعرض لرابع الخلفاء عليّ فيقول:

أمّا الإمام فالأَغرُّ الهادي | حامِي عَرِينِ الحق والجِهَادِ
القمران يأخذان عنهُ | والقَمران نُسختان منهُ

ويذكر شوقي ما أخذه عليه المغرضون من قعوده عن مناصرة عثمان فيقول:

يا ليت شِعري والأُمور تَخْفَى | والفِكْرُ في هذا الطريق يَحْفَى
كَمْ ساء هذا الناسَ من عَلِيٍّ | وحاد بالناصر والوليِّ
قيل دَمُ الشيخ الضَّعيف المُسْلَمِ | يَطلبه الله وكُلّ مُسْلِمِ

وبعد أن يعرض شوقي لهذا الخلاف وما جرّ يخاطب عَلِيّاً فيقول:

ما لك والناسَ أبا تُرَابِ | ليس الذِّئاب لك بالأَتْرَابِ

ويذكر شوقي ما في طباع الناس مُنذ القدم من تمرُّد على الهُداة، فيقول:

همُ طردوا الكليم كُلَّ مَطْرَدِ | وأتعبوا عصاه بالتَّمَرُّدِ
وبابْنِ مَرْيَمٍ وَشَوْا ونَمُّوا | وآحتشدوا لصَلْبه وهَمُّوا
وأخرجوا محمَّداً من أرضه | وسَرحت أَلْسُنهم في عِرْضِهِ
وغَيَّبوا المُسَوِّيَ الفارُوقا | وخيرَ شَمْسَيْهم لهم شُرُوقا
وذَبحوا الشيخَ على الفرقان | حتى بكى الذِّكر بدَمْعٍ قاني

وهَبَّ منهم مَن لحقِّك آختلسْ وفَجعوك بالصلاة في الغَلَسْ

ثم يُعَزِّي عليّاً فيما أصابه فيقول:

إن زال مُلْك الأرض عنك من مَلَكْ يا طُولَ مُلْكٍ في السَّمَاءِ تَمَّ لَكْ

هذه عِبَر حمَّلها شوقي للتاريخ، فإذا التاريخ تَنخلع عنه صفته التأريخية وتعدو حلقات متصلة من العِظات، يُذْكِي بها شوقي في نفوس الأبناء، ما يضمن لهم خير بقاء.

## (٣٥)

وقبل أن يأخذ شوقي في تصور الدولة الأموية يُصوِّر لنا حياة أبطال ثلاثة، هم: معاوية، وعمرو بن العاص، وخالد بن الوليد.

يصور لنا معاوية فيقول:

في الدهر لم تُصنع قُيون الهِنْدِ ولم يَسُلَّ الشَّرْقُ كابنِ هِنْدِ

ويصف لنا إطلاقه العِنان لنفسه يفعل ما يشاء لكي يُقيم دولته فيقول:

أرسل في حُبِّ الأُمور الرَّسَنَا وفي هَوَى الدَّولة جافَى الوَسَنَا

ويَنعى عليه ما شَطَّ فيه فيقول:

رَبِّ آعفُ عن جُرأته عليك فالعفو منك والرِّضَا إليك

ويصور لنا عمرو بن العاص وإرسال عمر إياه لفتح مصر فيقول:

عَمْرُو القَنا والرأيِ والجُدُودِ رَمى به الفاروقُ في الحُدُودِ

ويصف لنا جيشه وقِلّة عدده فيقول:

كتيبة قليلة العَدِيد كثيرة بدينها الجَدِيدِ
طوت إلى مصر القِفارَ طَيًّا وركبت رياحَها مَطِيًّا

ويكمل وصفه لعمرو بتلك العِبرة:

مـمّا مَضى الدَّهْرُ عليه والأُوَلْ أنّ النجاح لِفَتِيّات الدُّوَلْ

ويصور لنا ثالثهم وهو خالد بن الوليد فيقول:

مَن طَبع السَّيْفَ ومن جَلاَهُ هل يصنع الآياتِ إلا اللّهُ

ثم يمضي شوقي يُباهي به فيقول:

سُبحان ربّي مُنْشِيءَ النَّوابِغ مُرْتَجِلَ المواهب السَّوابِغِ

ثم يأخذ شوقي في تعداد وقائعه وقيعة بعد وقعة، فإذا لخالد من هذا كله صَفحة خالدة لم يظفر بمثلها واحد من صفحات التاريخ.

## (٣٦)

ولشوقي مع قيام الدول الأموية رأي، وهذه هي الصفة الأولى للمؤرخ، إن فقدها كان سارداً لأحداث التاريخ، وتكاد تكون هذه الثانية هي الصفة الغالبة على من نسميهم مؤرِّخين، وهم في حقيقة الأمر ساردون.

وإذا كان الأمر أمر دولة قامت لا أمر أفراد تتابعوا، كان لا بدّ للمؤرخ الواعي من أن يشارك برأي في قيام الدول، وها هو ذا شوقي يطالعنا برأيه فيقول:

عَلِمْتُ أنّ السيف بنّاء الدُّوَلْ ورُكْنها في الآخرين والأُوَلْ
ما زال في المَمالك الأساسا به بناها من بَنى وسَاسَا

ثم يستطرد شوقي فيسوق الأمثلة فيقول:

لم يَبْنِ للفُرس ولا الرومانِ حائطَ مُلْكِيها سوى اليَمانِي

ثم يُرْدِف بالنتيجة التي جعل هذا كله تمهيداً لها فيقول:

فـلا تـقـولـنّ بـغـت مَـروانُ        ووطَّـأ الـمُلْكَ لـهـا الـعُـدْوَانُ

وشـوقي الذي كـان يرى أن الأمـويين اغتصبوهـا من الهاشميين، وأن معـاوية غلب عليها عليّاً كان عليه أن يطالعنا برأيه، لذا يقول:

احتـازهـا مَن الجـريءُ القُلَّبُ        وغَـلب الليـث عليـهـا الثَّعْلَبُ

ثم يمضي شـوقي يذكـر ملوك بني أمية مَلِكـاً بعد ملك، شـافعاً هـذا الـذكـر برأي، فيقول:

ونـالـهـا مـن آلـه مُـلُوكُ        تـفـاوتـوا وآخـتـلف الـسُّـلُوكَ
فـمـنـهـمُ الـدُّرُّ ومـنـهـم الـحَـصَـى        ومَن هـو السيفُ ومَـن هـو العَـصَـا

حتى إذا ما انتهى شوقي إلى حيث انتهت حياة تلك الدولة قال نادياً لها:

رَمت يَـدُ الـدهـر بَنِي مَـرْوَانَـا        إنّ لـكـل مَـصْـرَع أَوَانَـا
فـذهبـوا عَنْ حسنـات تُـذْكَـرُ        وسَـيِّئـات جَـمَّـة لا تُـنْـكَـرُ

وأخذ شوقي يذكر ما عَنَّ له من سيئاتها، وهذه لا يملكها إلّا دارس مُستوعب فاحص، فقال:

منهم من آستحسن قَتْـل الآلِ        ولَـم يَخَـفْ مسـاويء الـمَـآلِ
ومَن رَمَى الكَعبـة بـالحِجـارة        وذَعـر الـبـيـت وراعَ جـارَهْ

وشوقي حين يندِّد بما كان لبني أميه في الشرق يُباهي بما كان لهم في الغرب على يدي عبد الرحمن الداخل فيقول:

حـتـى إذا قـيـل خَـلت مَـرْوَانُ        وذهـب الـسُّـلْطان والأَعْـوَانُ
تـلفَّـت الـنـاس وراءهـم عَـجَـبْ        الكوكبُ الشرقيّ في الغَرْب آحتجبْ
صَـقـر قـريش مَـنـعـوه جِـلَّقـا        فـطار فـي قُـرطـبـة وحـلَّقـا
أنـشـأ مَـلْكـاً أمـويّـاً ضـخـمـا        كَـمُلْكِ كِـسـرى رُقْـعَـةً وتَـخْـمَـا

## (٣٧)

وينفض شوقي يديه من الحديث عن بني أمية شرقاً ليحدِّثنا عنهم غرباً. فيخصُّ تلك الدولة الأمويّة الغَربية بموشح، على حين كان شوقي في كل ما قدّم راجزاً، وكأنه أراد بهذا أن يذكِّرنا بما اختصت به الأندلس من صنع الموشح.

وفي الحق لقد أبدع شوقي في موشحه هذا الإبداع كلَّه، حتى لقد كاد أن يُنسينا الموشحات الأندلسية جملة، وأنَّى لموشَّح أندلسي أن يبلغ موشح شوقي هنا حيث يقول:

مَنْ لِنِضْوٍ يَتَنَزَّى ألَمَا ... بَرَّح الشوقُ به في الغَلَسِ
حَنَّ للبانِ وناجَى العَلَما ... أين شرق الأرض من أندلسِ

أو حيث يقول:

قُلت لِلَّيل ولليل عَوَادْ ... من أخُو البَثّ فقال ابن فِرَاقْ
قُلت ما واديه قال الشَّجْو وادْ ... ليس فيه من حِجازٍ أو عِرَاقْ
قلت لكنْ جَفنه غير جوادْ ... قال شر الدمع ما ليس يُرَاقْ
نَغبط الطير وما نعلم ما ... هِي فيه من عَذَابٍ بَئِس

ويتمثل لك هذا في قوله:

يا شَباب الشرق عُنوان الشَّبَابْ ... ثَمرات الحَسب الزَّاكي النَّمِيرْ
حسبكم في الكرم المحض اللُّبابِ ... سِيرة تَبقى بقاءَ آبْنَي سَمِيرْ
في كتاب الفخر للداخل بابْ ... لم يَلِجْه من بني المُلك أميرْ
في الشموس الزُّهْر بالشام آنتمى ... ونمى الأقمار بالأندلسِ
قعد الشرق عليهم مأتماً ... وانثنى الغرب بهم في عُرسِ

ولنترك هذا فللحديث عنه مكان آخر سوف نطالعك به عند الكلام على مكانة شوقي الشعريّة، ولندخل مع شوقي في حديثه عن الدولة الأموية بالأندلس، وهذا حيث يقول:

أي مُـلك من بـنـايـات الـهِـمـمَ ... أسَّس الـداخـلُ في الغـرب وشـاءْ
ذلـك الـنـاشـيء في خَـيـر الأمـمْ ... سـاد في الأرض ولم يُـخْـلَق يُـسـادْ
حـكـمـت فـيـه الـلـيـالـي وحَـكَـمْ ... فـي عـواديـهـا قـيـاداً بِـقِـيَـادْ
سُـلِـبَ الـعِـزَّ بـشـرق فَـرَمَـى ... جـانـب الـغَـرْب لِـعِـزّ أَقْـعَسِ
وإذا الـخَـيْـرُ لِـعَـبْـدٍ قُـسِـمَـا ... سَـنَـح الـسَّـعـد لـه في الـنَّحسِ

ثم اقرأ معي أخيراً عظته:

خُـذ عـن الـدنـيـا بـلـيـغَ الـعِـظَةِ ... قـد تـجـلَّت فـي بـلـيـغ الـكَـلِمِ
طَـرفـاهـا جُـمـعـا فـي لـفـظة ... فـتـأمَّـل طـرَفَـيـهـا تـعـلمِ
الأمـانـي حُـلُـم فـي يـقـظة ... والـمـنـايـا يـقـظة مـن حُـلُـمِ
كـل ذي سِقْـطَين في الجـو سمَـا ... واقـعٌ يـومـاً وإن لـم يُـغْـرَسِ
وسـيـلقى حَـيـنـه نَـسْـر الـسـمـا ... يـوم تُـطوى كـالـكـتـاب الـدرسِ

## (٣٨)

ويعود بنا شوقي إلى الوراء ليذكر لنا خروج عبد الله بن الزبير على الأُمويين، وإقامته نفسه خليفة، فيقول، وقد خلع عنه ثوب التوشيح وآرتدى ثوب الراجز كما رأينا:

خَـلـيـفـة مـا جـاء حـتـى ذهـبـا ... ضـاع عـلـيـه الـدَّمُ والـمـال هَـبَـا

ويمضي شوقي يحدثنا عن عبد الله كيف كان، وكيف ملك، وكيف فعل، إلى أن شمّر لحرب عبد الملك بن مروان، فإذا عبد الله قد آنفضَّ عنه من كانوا حوله، وغدا لا ناصرَ له، ويستشير أُمَّه أسماء بنت أبي بكر الصديق: أيسلِّم لعبد الملك أم يمضي وحدَه لحربه؟ وفي هذا يقول شوقي:

أَسـلـمـه الأهـلون حـتـى آبـنـاهُ ... وخَـذلـت شِـمـالَـه يُـمْـنَـاهُ
فـجـاء أُمَّـه ومـن كـأُمِّـه ... لـعـلّهـا تـحـمـل بـعض هَـمِّـه
فـقـال مـا تَـرَيْـن فـالأمـر لـكِ ... لـلمـوت أمضي أم لـعـبـد الـملكِ

قــالــت: بُـنَـيَّ ولَـدَ الـقَـوَّامِ وابـن الـعَـتيـق الـقـائـم الصَّـوَّام
أنـظر فـإن كـنـت لـدِيـنٍ ثُـرْتَ فـلا تُـفـارق مـا إلـيـه سِـرْتَ
أو كـانت الـدنيـا قُصَـارَى هِمَّتـكْ فـبئس أنـت كَـمْ دمٍ بِـذمَّـتِـكْ
إلْحَقْ بـأحـرار مضـوا قـد أحسنـوا فـالـمـوت من ذُل الـحـيـاة أحسـنُ

ثم يلفتنا شوقي إلى الأم كم كانت شُجاعة، فيقول:

وعــانـقـتـه فــأعْـشَّـت دِرْعَــا قــالـت أضِقـت بـالـمَـنُـون ذَرْعَـا
لا تُمْسِ فيهـا وأرِحْ منهـا الجسـدْ وآمض بـلا دِرْع كمـا يَمضي الأسـدْ

وهكـذا يصوِّر لنـا شوقي التـاريخ بعـطائه، فـإذا هو كلمـة نـاطقـة تُدَوِّي في الآذان، ولا تحمد على أسلة اللسان.

## (٣٩)

ثم يصلنا شوقي بمَسار التاريخ بعدمـا قَطَعنـا عنه، فيـذكر كيف بلغت الـدعوة الهاشمية مبلغها على يدي الإمام إبراهيم، فيقول:

الأمـر آل أحـسـنَ الـمـآل بـيُـمْـنِ إبـراهـيـم رأس الآلِ
دعَـا الـقُـرى لأمـره فـلبَّـتِ وحَـصَّن الـدَّعـوة حتى شَبَّتِ

ولكن إبراهيم ما أوشك أن يَجني ثمرة مـا غَرس حتى آختـطفه المـوت، فإذا الأمر يؤول إلى أخيه السفاح، ويغدو وهو الخليفة، وتبدأ به الـدولة الهـاشمية، وفي هذا يقول شوقي:

ومــات لا أقــول فــي أثـنــائـهــا بــل وهي عنـد مُنتـهى بنـائـهـا
بــيـنــا بــه تَــهـامَسُ الــنُّـعَــاةُ إذ بــأخــيـه هَـتـف الــدُّعــاةُ
بُــويــع فــي الـكــوفـة لـلسَّفَّــاحِ فــي تَـيَـجِ الـدَّعـوة والـكِـفَـاحِ
نــعــى أخــاه ونــعــى أُمــيَّــهْ وقــام بــالــدولــة هــاشـمـيَّـه

ثم يذكر شوقي ما كان من ثأر الهاشميين فيقول:

مُنذ خلا الجوُّ لسيف هاشمِ     هبَّ هُبُوب المستبدِّ الغاشِمِ
فهتك القُبور وهي حُرْمَهْ     من مات فآترك للمُميت جُرْمَهْ
ومُنِيَتْ أُمَيَّةُ بسَاطِ     أبدلها النِّطْعَ من البِساط

## (٤٠)

وهنا يذكر شوقي اليد التي مكّنت للعباسيين، وهي يد أبي مسلم الخراساني فيخصه بالذكر، ويقول:

الأصل في كل بناية حَجرْ     وإن زَهت بالشُّرُفاتِ والحُجَرْ
فإن وقفت مُطْرِيَ البِناءِ     فاعطف على الأساس في الثَّناءِ
وهذه الدولةُ قد دعا لها     وقاد في ظُهورها رِعَالها
أغرُّ من سوابق الإسلامِ     فوارِس اللِّقاء والكلامِ
خاض الخراسانيّ في العشرينا     على بني أُمية العَرِينا
فلقيت دعوتُه رواجاً     ودخلت فيها القُرَى أفواجا

ثم يأخذ شوقي في التمهيد للعبّاسيين، فيذكر جدهم الأول العباس:

بجدهم في السنة استقى عمرْ     هزّ القحام بالفحام فانهمَرْ

ثم يذكر قيام الدولة العباسية فيقول:

ودَولة الحق بَدَت للناسِ     بين رِضَا الخَلْق والاستئناسِ

ثم يمضي يَعُد خلفاءهم واحداً بعد الآخر، بادئاً بأبي جعفر المنصور، فيقول:

خَيْرُ بني العبّاس بَحْرُ العِلْمِ     قُطْبُ رَحى الحرب بدارِ السِّلْمِ

وبعد أن يعرض شوقي الأحداث في عهد المنصور يأخذ في ذكر من جاء بعده فيقول:

عشرون في المُلك رَفَقْنَ أَمْنَا     وفِضْنَ نَعْماء وسِلْنَ يُمْنَا

ثم يشير إلى ما كان في عهدهم من نهضة عقلية وفكرية فيقول:

ولا تَسَل عن هِمَّة العُقول ... ونَهضة المَعْقول والمَنْقول
وكثرة الناقِل والمَعرِّب ... عن حكمة الفُرس وعِلم المَغْرِب
كانت لأيّام البهاليل سِمَهْ ... ومِهْرجان ملكهم ومَوْسِمَهْ
يَنْجُم فيها النابغ السَّعِيدُ ... ويَنْجب المقتبس البَعِيدُ

## (٤١)

وتكون للفاطميين دولة، ويكون لقيام هذه أسباب، وكانت مُيول شوقي كلها علويّة، وكذلك كانت ميول المصريين، يَدينون بحُب آل البيت، وشوقي حين أفاض في التعريف بالفاطميين وذكر مآسيهم، كان يُملي عن هذه الروح العامة، فلنقرأ معاً كيف بدأ هذا التعريف، وكيف مضى فيه، وكيف أنهاه.

يقول شوقي بدءاً:

من جعل المغرب مَطلع الضُّحى ... وسخَّر البربر جُنْداً للهُدَى
وصرف الأيام حتى أحدثت ... ما كان في الأحلام أحلام الكَرى
وأظفر الصابر بالنُّجْح فيا ... هزيمة اليأس ويا فوز الرَّجَا
قام إمام من بني فاطمةٍ ... خليفة ثم تلاه من تَكسّا
ما عجبي لملكهم كيف بُنِي ... بل عجبي كيف تأخّر البِنَا

ثم يذكر شوقي ما كان للعلويين من كِفاح طويل فيقول:

فشهد الله لهم ما قَصَّروا ... القتل صَبْراً تارة وفي اللِّقَا
كم ثار منهم في القرون ثائرٌ ... بالأُمويِّين وبالآل الرِّضَا
هذا الحُسين دمه بكَرْبَلاَ ... روى الثرى لما جرى على ظَما

ويقول:

وما خلا خليفة سُوّدُ ... من طالبيٍّ يطلب الأمر سُدَى
يُقتل أو يُزَجّ في السجن به ... أو يتوارى أو يُبيده الفَلاَ

ثم يقول بعد أن انتهى الأمر إليهم:

ولم تــزل تَمْـضِي الـقــرون بــالــذي　　أمـضـى مُـصَـرِّم الـقـرون وقـضـى

حــتـى حــيــا الله بـنـي فـاطـمـةٍ　　مــا مــات دونـه الأُبُـوة الـعُـلا

مــاطـلـهـم دهـرهـمُ بـحـقِّـهـم　　حـتـى إذا مـا قـيـل لـن يـفـي وفـى

ثم يردُّ شوقي الناس إلى الإيمان بقدر الله فيقول:

مــا لأوان لـم يَئِـنْ مُـقـدِّم　　ولا يـؤخّـر الأوان إن أتـى

ويمضي شوقي يعدِّد مآثر تلك الدولة الفاطمية إلى أن كان اتجاهها إلى مصر فيقول:

حــتـى إذا الـمُـلْك بـدا آتِّـسـاقـه　　ونَـظم الـسـعـد لـجـوهـر الـمُـنَى

أتـى الـمُـعِـزُّ مـصـرَ فـي مـواكـبٍ　　بـاهـرة الـعِـزِّ تـكـاثـر الـضـحـى

وبعد أن يذكر شوقي للفاطميين مآثرهم في مصر يقول:

فـيـا جـزى الله بَـنـي فـاطـمـةٍ　　عن مصـر خيـر مـا أنـاب وجـزى

تـلـك أيـاديـهـم عـلـى لَـبَّـاتـه　　مـفـصَّـلات بـالـثـنـاء تُـجْـتَـلَى

كـم مـدن بَـنَـوْا ودُورٍ شـيَّـدوا　　لـلـصـالـحـات هـا هـنـا وهـا هـنـا

وينتهي شوقي إلى ما آل إليه أمرهم من إسلامهم الأُمور إلى وزرائهم ممّا أفضى إلى زوال دولتهم فيقول:

هـم مـزَّقـوا دُروعـهـم بـراحـهـمْ　　وكـسـروا بـهـا الـرمـاح والـظُّبَـى

لا الـعـربَ آسـتـبـقـوا وهـم قـومـهـمُ　　ولا رَعَـوْا لـلـمـغـربـيِّـيـن الـوَلاَ

قـد مـلَّـكـوا الأبـعـد أمـر بَـيْـنـهـمْ　　وحـكّـمـوه فـي الـعـشـائـر الـدُّنَـى

وصـيَّـروا الـمُـلك إلـى صـبـيـانـهـمْ　　فَـوَجـد الـفـرصـة مـن لـه صـبَـا

إزدادَ بَـغْـيُ الـوزراء بـيـنـهـمْ　　وأصـبـحـوا هـم الملوك فـي الـمَـلاَ

خـلـيـفـة الـرحـمـن فـي زَاويـةٍ　　مـن الـخُـمُـول والـوزيـر آبـن جَـلا

وإلى هنا انتهت تلك المَلْحمة التاريخية.

وبعد: ألم يكن شوقي مؤرِّخاً في قصيدته التي واجه بها توتر المستشرقين، وألم يكن شوقي مؤرخاً في قصيدته الهمزية التي مدح بها الرسول ﷺ..

ثم ألم يكن شوقي مؤرخاً في كل موضع من شعره تعوزه لفتة تاريخية وهذه كلها تفصح لك عن:

١ ـ شوقي المُلِمّ بتاريخ أمته.

٢ ـ شوقي الفخور بما كان لها من مجد.

٣ ـ شوقي الآسي على عثراتها.

٤ ـ شوقي المرشد لأمته إلى طريق النجاح.

٥ ـ شوقي الحكيم يقع على الداء ويصف الدواء.

٦ ـ ثم شوقي الذي ملك زمام العربية فانقادت له ولم يستعص عليه منها شيء.

## (٤٢)

وحديثي إليك هنا عن شوقي الفيلسوف، وما أدَّعي أن شوقياً كان يَملك رأياً فلسفياً ذاتياً ينضم به إلى الفلاسفة المعدودين، بل كان ذا رؤية فلسفية يستملي فيها عن وجدان، شأن غيره من شعراء سبقوا، أو يعبر فيها عن فلاسفة فهم مقولهم قبولاً أو رفضاً، وحسبه بهذه وتلك أن يُعَدّ فيلسوفاً، يضفي على شعره ما يرقى به إلى أن يكون ذا صبغة فلسفية، يشارك في تذوقها الفكرُ الوجدانَ.

ولعلَّ أول ما أطالعك به عن شوقي الفيلسوف قصيدتُهُ التي عارض بها قصيدة الفيلسوف ابن سينا في النفس، والتي آستهلها ابن سينا بقوله:

هبطت إليك من المحل الأرفعِ وَرْقَاءُ ذات تَعَزُّزٍ وتمنُّعِ

واستهلها شوقي بقوله:

ضُمِّي قِناعَك يا سُعاد أو آرْفَعِي هذي المحاسنُ ما خُلِقْنَ لِبُرْقُعِ

والدارسون للفلسفة يقولون: إن ٱبن سينا وشوقيّاً حَذَوَا حَذْوَ افلاطون مِن قبلهما، فلقد كان افلاطون يرى أن الرُّوح كانت في قبضة الخالق أوّل ما كانت، ثم إذا هي تَنقلت لِتَحُلَّ جِسم الإنسان، غير أن افلاطون خالها في كَينونتها الأولى فَرَساً ذات جناحين، على جَمال وحكمة وصلاح، وأنها قبل أن تَحُلَّ جسم الإنسان خَلعت عنها جناحَيْها، وخلعت معهما ما كانت تتجمّل به من جمال وحكمة وصلاح.

ويصوِّرها ابنُ سينا بما أملى عليه خيالُه، ويُصوِّرها شوقي هو الآخر بما أملى عليه خياله، ولسنا هنا في موضع المُقارنة، فلو أخذنا فيها طال بنا المَقام، ولكنا نَجتزىء بالقليل عن تصوّر ابن سينا لها، كما نجتزىء بهذا القليل عن تصور شوقي لها، وهما وإن ٱتفقا على مهبطها فقد ٱختلفا في تصورهما لكُنْهِها.

وهذا القليل الذي ٱجتزىء به عن تصور ابن سينا لها هو قوله بعد بيته الأول:

وصلت على كُرْهٍ إليك وربَّما  كَرهت فِراقك وهي ذاتُ تفجُّعِ
تبكي وقد ذكرت عُهودا بالحِمَى  بمدامعٍ تَهْمِي ولمّا تُقْلِعِ

وعلى حين يرى ابن سينا هذا التنافر بين النفس والجسد، يتصوره شوقي أُنْساً فيقول:

أنت الذي ٱتخذ الجمال لعِزِّه  من مَظهر ولسِرِّه من مَوْضِعِ

ويَرُد على ٱبن سينا والفلاسفة معه رأيَهم ويقول:

ذهب ابنُ سينا لم يَفُزْ بك ساعةً  وتولَّتِ الحُكماءُ لم تَتَمَتَّعِ

ثم يمضي شوقي يصوِّرها مع الجسم بوجدان الشاعر، لا برأي الرائي، فيقول:

هذا مَقامُ كلُّ عِزٍّ دُونه  شمسُ النهار بمثله لم تَطْمعِ

ثم يعود إلى ابن سينا يُفَنِّد رَأْيَه فيقول:

نَظر الرَّئِيسُ إلى كمالِكِ نظرةً ... لم تخلُ من بَصَرِ اللَّبيب الأَرْوَعِ
فرآه منزلةً تَعَرَّضَ دونها ... قِصَرُ الحَياة وحال وَشْكُ المَصْرَعِ

ثم يُلقم آبن سينا والفلاسفة معه الحُجّة فيقول:

لولا كمالُك في الرَّئيسِ ومثله ... لم تَحْسُن الدُّنيا ولم تَتَرَعْرَعِ

ثم يصور شوقي النفس برُؤيته هو الفلسفية فيقول:

يا نفسُ مثلُ الشمس أنت أَشِعَّةٌ ... في عامِرٍ وأشعةٌ في بَلْقَعِ
فإذا طَوَى الله النهارَ تراجعتْ ... شتَّى الأشعة فالتقت في المَرْجِعِ
لما نُعِيت إلى المنازل غُودِرَتْ ... دَكّاً ومثلك في المنازل ما نُعِي

ثم يصوّرها شوقي مرحلةً من مراحل العمر فيقول:

ورِداء جُثمان لَبِسْتِ مُرَقَّمٍ ... بيد الشَّباب على المَشِيب مُرَقَّعِ
أَسَئِمْت من ديباجه فنَزَعْتِه ... والخَزُّ أكفان إذا لم يُنْزَعِ

ثم يجعل شوقي مفارقتها الجسم لا من بَرَمٍ به، ولكن عن قَدَر محتوم، فيقول:

أنت الوَفِيَّة لا الذِّمَامُ لَدَ ... يْكِ مَذْمُومٌ ولا عَهد الهوى بمُضَيَّعِ
أزمعتِ فانهلَّت دُموعك رِقَّةً ... ولو آستطعت إقامةً لم تُزْمعي

## (٤٣)

هذا هو شوقي الفيلسوف مُستملياً عن فكره ووجدانه، وإليك شوقيّاً الفيلسوف المعبِّر عن آراء الفلاسفة.

يقول شوقي عن ترجمة أحمد لطفي السيد لكتاب أرسطو في علم الأخلاق:

وأتيت من مِحْرابه ... بأَرِسْططاليس العَظِيمْ
مَلِك العُقول وإنها ... لنهاية المُلْك الجَسِيمْ
شَيخ آبن رُشْدٍ وآبن سيـ ... ـنا وابن بَرْقين الحَكِيمْ

مَن كـان في هَـدْي الـمَسِيـ ـح وكـان في رُشْـد الـكَلِيـمْ
وعـدا وراح مُـوَحِّـداً قـبـل الـبـنـيّـة والـحَـطِيـمْ
صـوت الـحـقـيـقـة بـيـن رَعْـ ـدِ الـجـاهـليّـة والـهَـزِيـمْ

أَتـرى واحـداً يَملك أن يحكم هـذه الأَحْكـام الفلسفيـة إلا إذا كـان ذا وَعْيٍ فلسفي يوازن به ويُرجِّح؟

ثم اقرأ معي بيئته من همزيّته في مدح ـ الرسول، ﷺ، وهو:

بِـكَ يـا بنَ عبـد الله قـامت سَمْحَـةٌ بـالـحقِّ مـن مِـللِ الـهُـدَى غـرَّاءُ
بُنِيت على التَّـوحيـد وهـو حـقيقـةٌ نـادَى بـهـا سُـقْـرَاط والـقُـدَمَـاءُ

ثم سَلْ نفسـك: أيملك أن يقـول هـذه الحقيقـة رجـلٌ لا وَعْيَ لـه بـالحيـاة الفِكْرِيّة؟

واقرأ معي أبياته في الكَشف عن مقبرة توت عنخ أمون:

أرأيـت كـيـف يـؤوبُ مِـنْ غَـمْـرِ الفـضـاء المُـغْـرقُـونْ
وتَـدُول آثـار الـقُـرُو نِ على رَحَى الزَّمن الطَّحُـونْ
حُـبّ الـخُـلود بَـنـى لـكـم خُـلْقـاً بـه تَـتـفـرَّدونْ
لـم يَـأخـذ الـمُـتـقـدِّمـو ن بـه ولا الـمُـتـأخِّـرُونْ

وقل لي: أيملك أن يقولها من ليست لها دراية وتعمّق في الحياة الفكرية؟

ورثى شوقي تُولستـوي هذا الفيلسـوف الرُّوسيّ، ويُعَـدّ من بذر البـذرة الأولى للشيوعية، فيقول:

أيكفـر بـالإنـجيـل مَـن تلك كُـتْبُـه أنـاجيـل منهـا مُـنْـذِرٌ وبَـشِـيـرُ

ويقول:

فقـل يا حكيم الـدَّهر حـدِّث عن البلى فـأنـت عـليـم بـالأُمـور خَـبِـيـرُ

ومـا كان شـوقي وهو يـرثي صاحب فكـرة، بعيـداً عن تلك الفكـرة، لا يعلم كُنهها.

وهذا قليل من كثير ممّا يمثل لك شوقيّاً فيلسوفاً، بالمعنى الذي حَدَّدْت لك معالمه لا بالمعنى المُطْلَق، وكم أَضْفَت تلك الرؤية الفلسفية لشوقي على شعره مَسحة دَعَت إلى التأمل الطويل، وما أحوج الشعر لمثلها حتى لا يُعاب.

وأعود إلى ما قلت قبلاً في أكثر من موضع. إن الموهبة الشعرية إن لم يساندها عِلْمٌ، وتَشُدُّ من أزرها ثقافة، كان موهبة رخيصة تملك أن تصوغ ولا تملك أن تقول.

(٤٤)

ولعلك تعجب إن رأيتني هنا أحدثك عن شوقي اللغوي، فأنت ترى أن اللغة هي زاد الشاعر والكاتب، ولكنك تعلم أن هذا الزاد كما يَجِلّ قد يَقِلّ، ومع الأُولى ترى الشاعر أو الكاتب يُمْلِي عن سعة، وزمام الكلمة في يده، فنجد لكُل فكرة أداتها من اللفظ، فلا تزدحهم الفِكَرُ حول لفظة واحدة لا تَعْدُوها، وإذا الفكرة قد فقدت مدلولها حين لم تجد الكلمة التي تُؤديها أداءها الصحيح.

وقديماً رأينا الشعراء تكاد تكون اللغة بجملتها ملك أيديهم، وهل أُنسيت أنهم كانوا المَنبع الأول الذي آستقى منه اللغويون ما جمعوا من عفة، ثم هل أُنسيت أن استخدام الأوائل للألفاظ كان هو الهادي لتعرّف دلالاتها، ثم هل أُنسيت أن هذا الزاد اللغوي الضخم لكلّ شاعر من الشعراء الأولين كان هو الذي أَفسح لأخيلتهم المجال، تتخيّر اللفظ الموائم ولمعانيهم أن تجد اللفظ المشاكل، لذا جاء شعرهم سامي الخيال، غزير المعنى، وفرق بين من يُنفق عن سعة ومن يُنفق عن ضيق، فصور الإنفاق عند الأول أغزر وأكثر وأجود.

ويكاد شاعرنا شوقي يُلْحَق بشعرائنا الأوائل غزارة مادة، وغزارة أخيلة، وغزارة معان، هذا لأن معجمه اللغوي كان يعدل معاجمهم، أو يقارب أن يعدلها، ومن هنا دَقَّ على كثير ممّن تناولوا شعر شوقي شرحاً، فعدوا له من ألفاظه ما ليس بمُعجمي، مستندين في هذا إلى معاجمهم الأولية، ولو أنهم جاوزوها إلى المعاجم الكبرى لوجدوا ما ليس معجمياً معجباً.

ومِن هـذا الذي عُـدَّ على شوقي غَيـر معجمي، قـولـه: بئِسٌ بمعنى بئيـس، وهذا حيث يقول شوقي؛

تـغـبط الـطيـر ومـا نـعـلم مـا هِـي فـيـه مـن عـذاب بَئِسِ

وبَئِس وبَئِيس، سواء، يقول صاحب التاج (بـائس): بؤس الرجـل فهو بَئِس، إذا كان شديد البأس.

ويقول أبو حيان عند تفسير قوله تعالىٰ: **﴿فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الـذين يَنهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بَئِيس﴾** الأعراف: ١٦٥، وفي قراءة: بَئِس، على وزن كَبِد.

وقد مرت الإشارة إلى هذه ومثلها في ثنايا الشرح، من أجل هذا أجتـزىء بها مخافة التَّكرار.

**(٤٥)**

ودعني هنا أحدثك عن شوقي الشاعر.

ولقد عرفت رأيي في الشعر فيما سُقته لك قبـل، منذ أن كـان للشعر العـربيّ وجود إلى يومنـا هذا، وعـرفت أني لا أرى الشاعـر شاعـراً، إلاّ إذا عاش لـوجوده العـام قبل أن يعيش لوجوده الخاص، بل إن الشاعر هو من ينسى وجـوده الخاص بـوجوده العام، وإنه على قدر ما يُرْزق صاحب الكلمة من نُكران لذاته يكون قَدْرُ رسالته.

والناس في نكران الذات متفاوتون، ومن هنا تفاوتت أقدارهم ومراتبهم.

ولقد مر بك أن من الشعراء من أعطوا للوجود العـام فوق مـا أعطوا لـوجودهم الخـاص، ومـا كـان أقلَّهم، وأنّ منهم من عـاشـوا لـوجـودهم الخـاص، ومـا كـان أكثرهم.

وتعال معي نَرَ أين مكان شوقي من هؤلاء وهؤلاء:

أكـاد أعُدُّ شـوقيّاً من الـذين أَعطوا لـوجودهم العـام فوق مـا أعطوا لـوجودهم الخاص، بل أكاد أقول: إن عطاءه كله كان لـوجوده العـام، لا يَصرفني عن هـذا ما

كان لشوقي في رجال البيت المالك، فلقد كان هذا لِمِصْـرَ في حقيقته، وفي رجـال هذا البيت في ظاهره، وقد أشرت إلى هذا فيما مَرَّ بك.

لقد رأيت فيما مر بك، وأنت لا شك راءٍ حين تقرأ شعر شوقي، أنـه لَمْ يترك حَدَثاً جَلَّ أو قَلَّ إلاّ شارك فيه بوُجدانه، إن كان ممّـا يَمُسُّ الوجـدان، أو بفكره، إن كان ممّا يُنهض الفكر، ففرح أو حزن مع الأولى، ونصـح ووعظ مع الثـانية، سـواء أكان هذا الحَدَث في وطنه الأول مصـر، أو في وطنه الثـاني الوطن العـربي، أو في وطنه الثالث العـالم بقاراتـه السِّتّ، فلقد كـان شوقي بحقٍّ شـاعراً إنسـاناً، مكتمـل الإنسانية.

## (٤٦)

والذي أحب أن أُكمِّلَ به الحديث عن شـوقي الشاعـر هو مَقـامه في الإجـادة لفـظاً ومعنى وما أنـا بمُستطرد في هـذا الاستطراد كله، فـأخرج إلى شيء آخـر قـد يكـون مجال القـال والقيل، ولكن أجتـزىء هنا بمـوازنات ثـلاث بينـه وبين فحـول خمسة من الشعراء المعدودين.

فأوازن بينه وبين حكيم الشعراء المُتنبِّي.
وأوازن بينه وبين وصّاف الشعراء البُحتري.
وأوازن بينه وبين غَزِل الشعراء عُمر بن أبي ربيعة.
وأوازن بينه وبين بيانيّ الشعراء أبي تمّام.
وأوازن بين وبين مدّاح الشعراء البُوصيريّ.

فهذه هي أبرز أغراض الشعر، وهؤلاء الشعراء هم المُجَلُّون في حَلَبَتها، وأنـا فيما سأعرض مُجتزىء بالقليل حتى لا أُثْقِل عليك، فيما يُغني قليلُه عن كثيره.

يقول المتنبي حكيم الأمس:

فـاطلُب العِـزَّ فـي لـظىً وذَرِ الـذُّلَّ ولـو كـان فـي جِـنـان الـخُـلُودِ

ويقول شوقي حكيم اليوم:

واحكموا الدنيا بسُلْطانٍ فما ... خُلِقت نَضْرتها للضُّعَفاءْ
واطلبوا المَجد على الأرض فإن ... هي ضاقت فاطلبوه في السماءْ

ويقول المتنبي حكيم الأمس:

ولست أبالي بعد إدراكيَ العُلاَ ... أكان تراثاً ما تناولت أم كَسْبَا

ويقول شوقي حكيم اليوم:

ودَعُوا التفاخر بالتُّراث وإن علا ... فالمَجد كَسب والزَّمان عِصَامُ

ويقول المتنبي حكيم الأمس:

وَمَن صحب الدنيا طويلاً تقلَّبت ... على عَينِهِ حتى يَرى صِدْقها كِذْبَا

ويقول شوقي حيكم اليوم:

الدَّهر لا يألو الممالك مُنْذِراً ... فإذا غَفِلْنَ فما عليه مَلاَمُ

ويقول:

أبا الهول ماذا وراء البَقاءِ ... إذا ما تطاول غيرُ الضَّجَرْ

ويقول المتنبي حكيم الأمس:

أعزّ مكان في الدُّنَى سَرْج سابح ... وخير جَليس في الزمان كتابُ

ويقول شوقي حكيم اليوم:

من سرّه ألا يَموت فبالعُلا ... خَلد الرجال وبالفَعال النابِهِ
ما مات من حاز الثَّرى آثاره ... وآستولت الدنيا على آدابه

ويقول:

وأرى العلم كالعِبادة في أبـ ... ـعد غاياته إلى الله أَدْنَى

ومما فات المتنبي حكيم الأمس وجرى به لسان حكيم اليوم شوقي:

وللأوطان في دَم كلِّ حر ... يَدٌ سلفت ودَيْن مُستحقُ
ولا يَبني الممالك كالضَّحايا ... ولا يُدْني الحُقوق ولا يُحِقُّ
ففي القتلى لأجيال حياة ... وفي الأَسرى فِدًى لهمُ وعَتْقُ

وكذا قول حكيم اليوم:

وإنما الأُمم الأخلاق ما بقيت ... فإن تولت مَضَوْا في إثرها قُدُمَا

ثم قوله:

ما المجد زُخرف أقوالي تطالعه ... لا يدرك المجد إلّا كل فَعَّالِ

ثم قوله:

ما تصنع اليوم من خير تجده غداً ... الخير والشر مِثْقال بِمِثْقالِ

ويقول وصّاف الأمس البحتري في وصفِ إيوان كسرى فيطالعنا بقوله:

صُنْتُ نفسي عما يدنس نفسي ... وترفّعت عن جدا كل جِبس
وتماسكت حين زعزعني الدَّهْـ ... ـر التماساً منه لِتَعْسي ونُكسي

ويقول وصّاف اليوم شوقي في بكاء الأندلس المفقود، فيطالعنا بقوله:

اختلاف النهار والليل يُنسي ... أُذْكُرَا لي الصبا وأيام أُنْسِي
وصِفا لي مُلَاوةً من شَباب ... صُوِّرت من تَصَوُّرات ومَسِّ

ويقول وصّاف الأمس البحتري آسياً على ما نال الديار:

أذْكَرَتْنِيهُم الخطوبُ التوالي ... ولقد تذكّر الخطوبُ وتُنْسي
وهم خافضون في ظلٍّ عالٍ ... مُشرف يحسر العيون ويُحسي

ويقول وصّاف اليوم شوقي آسياً على ما نال الديار:

ربّ ليل سريت والبرق طِرْفِي ... وبساط طويت والرِّيح عَنْسِي
في ديار من الخلائف دَرْس ... ومنار من الطَّوائف طَمْسِ

ورُبًى كـالجِنـان في كَنف الـزَّيتـو ... ن خُـضـر وفـي ذَرَا الـكـرم طِلْسِ
وإذا الـدار مـا بـهـا مـن أنـيس ... وإذا الـقـوم مـا لـهـم مـن مُـحِسِّ

ويقول وصّاف الأمس البحتري يبكي مصير الديار:

فـلها أن أُعـيـنـهـا بـدُمـوع ... مـوقـفـات على الـصـبـابـة حُبْسِ
ذاك عـنـدي ولـيـسـت الـدار داري ... بـاقـتـراب منهـا ولا الجِنس جِنْسي
غـيـر نُـعمـى لأهـلهـا عـنـد أهلي ... غـرسـوا من زكـاتهـا خيـرَ غَـرْس

ويقول وصّاف اليوم شوقي يبكي مصير الديار:

يـا ديـاراً نـزلـت كـالـخـلد ظـلا ... وجـنّـى دانـيـاً وسَـلسـال أُنْسِ
حـسـبـهـم هـذه الـطُّلول عِـظاتٍ ... مـن جـديـد على الـدهـور ودَرْسِ
وإذا فـاتـك الـتـفـاتٌ إلـى الـمـا ... ضي فقد غـاب عنـك وَجْـه التـأسِّي

وقد يقول قائل: إن الأول كان بين ديار ليست له، والثاني كان بين يدي ديار هي له، من هنا كانت حسرة الثاني أعمق.

وأقول: حسبهما أنهما كانا بين يدي غرض واحد.

ويقول بيانيّ الأمس أبو تمام في رثاء ممدوحه الأول خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني، وكان قائداً مغواراً:

نَـعـاه إلـى كـل حـي نَـعـاء ... فتى العَرب آحتـل رَبْـع الفَنَاء

ويقول بيانيّ اليوم شوقي في رثاء بطل مجاهد من أبطال المسلمين المجاهدين هو عمر المختار:

ركـزوا رُفاتـك في الـرمـال لِـوَاءَ ... يستنهض الـوادي صباحَ مسـاءَ

ويقول بيانيّ الأمس أبو تمام في خالد الشيباني:

ألـم يـك أقـتـلهـم لـلأسـود ... صَـبْـراً وأرهـبـهـم لـلظبـاءِ
ألم يَجْلِب الخيـل من بـابـل ... شـوازب مثل قِـدَاحِ السَّـرَاءِ

ويقول بيانيّ اليوم شوقي في عمر المختار:

يــا أيهــا السيف الـمجـرد بــالـفَـلاَ يكسو السيوف على الـزمان مَضَـاءَ
تلك الصَّـحـاري غِمـد كـل مهنَّـد أبْلى فـأحسـن فـي الـعـدوّ بَـلاَءَ

ويقول بيانيّ الأمس أبو تمام يرثي ابنه محمداً:

لا يَشْمَـت الأعـداء بـالمـوت إننـا سنُخلي لهم من عَرْصة المـوت مَوْرِدَا
ولا تـحسَبنّ الـمـوت عـاراً فـإننـا رأينـا المنـايـا قـد أَصَبْنَ محـمَّـدَا

ويقول بيانيّ اليوم شوقي يرثي جدته، ويا بُعد ما بين الجدّة والابن:

خُـلِقـنـا لـلـحـيـاة ولـلـمـماتِ ومـن هـذيـن كُـلُّ الـحـادثـاتِ
ومَـن يـولـد يَعِشْ وَيَمُتْ كـأن لـم يَـمُـرَّ خـيـالُـهُ بـالـكـائـنـاتِ
ومَـهـد المـرء فـي أيـدي الـرواقي كـنعش الـمـرء بيـن النَّـائـحـاتِ
هــي الـدنـيـا قـتـال نـحـن فيـه مـقـاصـد لـلـحُسـام ولـلـقَـنـاةِ

ويقول بيانيّ الأمس أبو تمام يعزّي:

هي الـنـوائب فـاشْجَيْ أو تَعِي عِـظَةً فـإنـهـا فُـرَضٌ أثـمـارهـا رَشَـدُ
هُـبِّي تَـرَي قَـلَقـاً مـن تـحتـه أَرَقٌ يَحْـدُوهـما كَمَـدٌ يَحْنُو لـه الجَسَـدُ
لـو يعلم النـاس عِلْمي بـالزَّمـان ومـا عـاثـتْ يـداه لمـا رَبُّـوا ولا ولـدوا

ويقول بيانيّ اليوم شوقي يعزي:

كُـلُّ مُسرْفٍ جَـزَعَـاً أوبُـكـاً سَيَقْتَصِـدُ
قُـلْ لثـاكِلَيْـنِ مَشَى في قـواهـمـا الكَمَـدُ
إنَّ مـنـزلاً نـزلـوا لا يَـرُدّ مَـن يَـرِدُ
كـلُّنـا إلـيـه غَـداً ليس بـالبـعـيـد غَـدُ
مـا تـقـول في قَـدَر بـعض سِنِّـه الأبـدُ؟
القَـضـاء مُـعْـضـلة لا يـحُـلُّهـا أحـدُ

عــالَــم مُــدبِّــره بــالبَقــاء مُــنْفَــرِدُ

ويقول غَزِل الأمس عمرُ بن أبي ربيعة:

تَـشُطُّ غـداً دار جيـرانـنـا ولَـلدَّارُ بـعـد غـد أبـعـدُ
فـليسـت بِـبِـدْعٍ إذا دارهـا نـأت فـالـعَـزاء إذاً أَجْـلَدُ
صَرَمْتُ وواصَلْتُ حتى عَلِمْـ ـتُ أين المَصـادرُ والمـوردُ
وجَـربتُ من ذلك حتى عـرفـ ـت مـا أتَـوَقّى ومـا أحمـدُ

ويقول غَزِل اليوم شوقي:

أتـغلبني ذاتُ الـدَّلال على صَبْـرِي إذاً أنـا أولـى بـالقِـنـاع وبـالخِـدْرِ
تَـتِيـه ولـي حِـلْمٌ إذا مـا ركـبتـه رَدَدْتُ بـه أمـر الـغـرام إلـى أمـري
ومـا دَفْعِي الـلُّوّام فـيـهـا سَـآمـة ولـكـن نَـفْسَ الـحُـرِّ أزجـر لـلحُـرِّ
أخــذت بِـحَظٍّ من هــواهـا وَبَـيْتِـهـا ومن يَهْوَ يعدلْ في الوصال وفي الهَجـرِ

ويقول غَزِل الأمس عمرُ بن أبي ربيعة:

تـصـابَـى الـقـلبُ وادَّكَـرا صِبـاه ولـم يـكـن ظـهـرا
لـزيـنـب إذ تـجـدّ لـنـا صـفـاء لـم يـكـن كـدرا
ألـيسـت بـالـتـي قـالـت لـمـولاةٍ لـهـا ظُـهُـرا
أشـيـري بـالـسـلام لـه إذا هـو نَـحـونـا خَـطرا

ويقول غزل اليوم شوقي:

صَحـا القـلب إلا من خُـمَـار أمـانِي يُـجـاذبني في الـغِيـد رثّ عِـنَـانِـي
حنـانَيك قلبي هـل أُعيـد لـك الصبا وهـل لـلفتـى بـالمُستـحيـل يَـدانِ
تـحـن إلـى ذاك الـزمـان وطيـبـه وهـل أنـت إلا مـن دم وحـنـان؟
أتــذكـر إذ نعـطي الصبـابـة حقهـا ونَشـرب من صِرف الهـوى بـدِنَـان

ويقول غزل الأمس عمرُ بن أبي ربيعة:

يـا خـليـليَّ مـن مَـلامٍ دعـانـي    وألِـمَّـا الـغَـداةَ بـالأَظْـعـانِ
لا تـلومـا فـي آلِ زَيْـنَـبَ إن الـ    ـقَـلب رَهْـنٌ بـآل زيـنـب عـانِ
إن قـلبي بـعـد الـذي نِلْت مـنـهـا    كـالـمعـمَّى عن سـائـر الـنسـوانِ

ويقول غزل اليوم شوقي :

لَـكَ أن تـلوم ولـي مـن الأعـذارِ    أنّ الـهـوى قَـدَرٌ مـن الأقـدارِ
مـا كـنت أُسلم للعُيـون سـلامتـي    وأبـيـح حـادثـة الـغـرامَ وقـاري
يـا قلب شـأنـك لا أمـدّك في الهـوى    أبـداً ولا أدعـوك لـلإقـصـار

ويقول مادح الأمس البُوصيري في بُردته في مدح الرسول ﷺ :

أمِـن تـذكُّـر جِـيـرانٍ بـذِي سَـلَمٍ    مَـزَجْت دمعـاً جـرى من مُقلة بـدَمِ

ويقول مادح اليوم شوقي في نهج البردة في مدح رسول الله ﷺ :

رِيمٌ على القـاعِ بيـن البـانِ والـعَلَمِ    أَحَـلَّ سَفْـكَ دمِي في الأَشْهُـر الحُـرُمِ

ويقول مادح الأمس البُوصيريّ :

يـا لائِمي في الهـوى العُـذريّ مَعْـذِرَة    مـني إلـيـك ولـو أَنْصَفـت لـم تَـلُمِ

ويقول مادح اليوم شوقي :

يـا لائـمي فـي هَـواه والهَـوَى قَـدَرٌ    لـو شَفَّـك الـوَجْـد لم تَعْـذل ولم تَلُمِ

ويقول مادح الأمس البوصيري :

مَحَضْتني النُّصـح لكن لستُ أسمعـه    إن الـمُحِبّ عن الـعُـذَّال في صَـمَمِ

ويقول مادح اليوم شوقي :

لـقـد أَنَـلْتُـك أُذْنـاً غـيـر واعـيـة    ورُبّ مُـنْـتَصت والـقـلبُ فـي صَـمَـمِ

ويقول مادح الأمس البُوصيريّ :

والنَّفس كـالـطِّفـل إن تُهْمِلْه شَبَّ على حُبّ الـرّضـاع وإن تَفْـطِمْـه يَنْفَـطِمِ

ويقول مادح اليوم شوقي :

والنفس من خيـرهـا في خيـر عـافيـة والنفس من شـرهـا في مَـرْتـع وَخِمِ

ويقول مادح الأمس البوصيريّ :

فـاصْـرِفْ هـواهـا وحـاذر أن تُـولِّيـه إن الهـوى مـا تَـوَالَى يُصْمِ أو يَصِمِ

ويقول مادح اليوم شوقي :

تَـطْغَـى إذا مُكّـنَتْ مـن لـذَّةٍ وهَـوًى طَغْيَ الجِيَـاد إذا عَضَّت على الشُّكُمِ

ويقول مادح الأمس البُوصيريّ :

محمـد سَيِّـد الكـونين والثَّقَلَيـ ـن مـن عُـرْبٍ ومـن عَـجَمِ

ويقول مادح اليوم شوقي :

مـحمـد صَفْـوة البـاري ورحـمـتُـه وبُـغْـيَـة الله مـن خَـلْقٍ ومـن نَـسَـمِ

ويقول مادح الأمس البُوصيريّ :

نـبيِّـنـا الآمـر الـنـاهـي فـلا أَحَـدُ أَبَـرُّ فـي قـول لا مـنـه ولا نَـعَـمِ
هـو الحَبيبُ الـذي تُـرْجى شفـاعتـه لـكُـل هـول من الأهـوال مُقْتَـحَـمِ
دعـا إلى الله فـالمُسْتَـمسكـون بـه مُستمسكـون بحَبْـلٍ غيـرِ مُنْفَـصِمِ
فـاق الـنَّبِيِّـن فـي خَـلْق وفـي خُـلُقٍ ولـم يُـدَانـوه فـي عِـلْم ولا كَـرَمِ

ويقول مادح اليوم شوقي :

وصـاحبُ الحوض يـوم الرُّسْـلُ سـائلة متى الـوُرود وجبـريـلُ الأمين ظَمِـي
ثـنـاؤه وَسَـنـاه الـشـمسُ طـالـعـة فـالجِـرْم في فَلكٍ والضَّـوء في عَلَمِ
قـد أخطأ النَّجمُ مـا نـالت أُبـوَّتُـهُ مـن سُـؤْدُدٍ بـاذخٍ فـي مـظهـرِ
نُمُـوا إليه فـزادوا في الـوَرَى شـرفـاً ورُبَّ أَصْـلٍ لِفَـرْعٍ في الفخـار نُمِي

ويقول مادح الأمس البوصيريّ:

لا تُنْكِر الوحَي من رُؤْياه إن له … قَلباً إذا نامت العَينانِ لم يَنَمِ
تبارك الله ما وَحْيٌ بمُكْتَسَبٍ … ولا نبيٌّ على غَيْبٍ بمُتَّهَمِ

ويقول مادح اليوم شوقي:

ونوديَ اقرأ تعالىٰ الله قائلُها … لم تَتصل قبلَ مَن قيلت له بفَمِ
هناك أذَّن للرحمن فآمتلأت … أسماعُ مكة من قُدْسِيَّة النَّغَمِ

ويختم مادح الأمس البُوصيري بردته فيقول:

يا ربِّ واجعل رجائي غيرَ مُنْعَكِس … لديك واجعل حسابي غير مُنْخَرِمِ
والطُفْ بعبدك في الدارَيْن إن له … صَبْراً متى تَدْعُه الأهوال يَنْهَزِمِ
وأْذَن لِسُحْبِ صلاةٍ منكَ دائمةٍ … على النبيِّ بمُنْهَلٍّ ومُنْسَجِمِ
ما رنَّحت عَذَبَاتِ البانِ ريحُ صَباً … وأَطْرَبَ العِيسَ حادِي العِيس بالنَّغَمِ

ويختم مادح اليوم شوقي نهج البردة فيقول:

يا رب صلّ وسلِّم ما أردتَ على … نَزيل عَرْشك خَيْرِ الرُّسْلِ كُلِّهمِ
مُحْيِي الليالي صلاةً لا يُقَطِّعها … إلا بدَمْعٍ من الإشفاق مُنْسَجِمِ
مُسَبِّحاً لك جُنْحَ الليل مُحتملاً … ضُرّاً من السُّهْدِ أو ضُرّاً من الوَرَمِ
يا ربّ أحسنت بَدْءَ المُسلمين به … فتمِّم الفَضل وآمنح حُسْنَ مُخْتتم

فهذه موازنات ما إخالها تحتاج إلى تعقيب منِّي ولا منك، فالسَّبْق لشوقي فيها يَفْرِض نفسه.

## (٤٧)

ثم، فهل ثَمّة شاعر قبل شوقي جعل من رسالته أن يَخُصّ الأبناء بشيء من شعره، ينصح، ويعظ، ويثقِّف، ويهذِّب. وساق ذلك قَصصاً يُقَصُّ ليتفِّق وأسنانهم

ومداركهم ووعيهم.

تقرأ له في نهاية دعيّ:

يحكون أنّ رجلاً كُرْدِيّا ... كان عظيم الجِسم همشريًّا
وكان يُلقي الرُّعب في القلوبِ ... بكثرة السِّلاح في الجُيُوبِ
نُمِي حديثه إلى صَبِيٍّ ... صغير جِسم بَطَلٍ قَوِيٍّ
فقال للقوم سأُدريكم به ... فتعلمون صِدقه من كِذْبه
وسار نحو الهَمْشَرِيّ في عَجَلْ ... والناس مما سيكون في وَجَلْ
ومَدَّ نحوه يميناً قاسِيَهْ ... بضَربة كادت تكون القاضِيهْ

ونقرأ في شُؤم الغراب:

مرَّ الغراب بشاةٍ ... قد غاب عنها الفَطِيمُ
فقال: يا أُمّ سَعْدٍ ... هذا عذاب أليم
خلَّفْت سعداً صغيراً ... والعَظْم منه هَشِيم
رأى من الذئب ما قد ... رأى أبوه الكريم
ألم أقل لك تَوّاً ... لكُل يوم هُموم
قالت: صدقت ولكن ... هذا الكلام قديم
فإن قوميَ قالوا ... وَجه الغُراب مَشُوم

ونقرأ له في حال الناس:

كان فيما مضى من الدهر بَيْتٌ ... من بُيوت الكرام فيه غَزَالُ
يُطْعَم اللَّوْزَ والفطيرَ ويُسْقَى ... عَسَلاً لم يَشُبْه إلا الزُّلَالُ
فأتى الكلبُ ذات يوم يُنا ... جِيه وفي النفس تَرْحَةٌ وَمَلَالُ
قال يا صاحب الأَمانة قُلْ لي ... كيف حال الوَرَى وحالُ الرِّجال
فأجاب الأمين وهو القَؤُول الصا ... دق الكامل النُّهى المِفْضال
سائلي عن حقيقة الناس عُذْراً ... ليس فيهم حقيقة فتُقَال

إنما هم حِقد وغِشٌّ وبُغضٌ وأذاة وغَيبة وانتحال
لا يَغُرَّنْك يا أخا العَبْدِ مِن مَوْ لاك ذاك القُبول والإقبال
أنا لولا العِظام وهي حياتي لم تَطِب لي مع ابن آدم حال

في مثل هذا الأسلوب السهل الميسَّر يَسوق شوقي عِظته على لسان الحيوان والطَّير وهذا أمر مُحَبَّب للأطفال يَشوقهم، وهم في نهاية المطاف قد لَقِنُوا العِظة ووعَوا الحِكمة، وهذا جزء من رسالة الكاتب والشاعر، وهو على لسان الشاعر أَسْوَغ.

وكما ذكر شوقي هذه ذكر أُخرى تتصل بها، وهي أمر الناشئة الذين عَدَوْا سن الطفولة بأخيلتها إلى سن التلقّي والوَعي، فنرى شوقي قد خَصَّهم هم الآخرون بشعره، مع جُنوح إلى التَّيسير، فيقول مخاطباً إياهم، ليلقِّنهم ما يجب عليهم:

أحمدِ الله وأَطْرِ الأَنبياءْ مَصْدَر الحِكمة طُرّاً والضِّيَاءْ

إلى أن يقول مذكِّرهم بآيات الخالق:

أُذكر الآية إذ أنت جنينْ لك في الظُّلْمة للنُّور حَنِينْ

إلى أن يقول حاثّاً إياهم على الأخذ من العلم بنصيب:

أُطلب العلم لذات العِلم لا لظُهور باطل بين المَلاَ

ثم يذكرهم بما يجب أن يتحلَّوا به من كرم فيقول:

كُن كريماً إن رأى جُرْحاً أَسَا وتعهَّد وتوَلَّ البُؤَسَا
واسْخَ في الشدة وازدد في الرخاءْ كل خُلْق فاضلٍ دون السَّخاءْ

ثم يناشدهم أن يكونوا على خُلق سَمْح فيقول:

وتجنَّب كلَّ خُلْق لم يَرُقْ إنّ ضِيق الرزق من ضِيق الخُلُقْ

وأخيراً يذكرهم بمصيرهم المحتوم، وهو الموت، حتى لا يغترُّوا، فيقول:

أُذكــر المــوت ولا تفــزع فَمَن　　　يَحْقِــرِ المـوت يَنَــلْ رِقَّ الـزَّمَنْ

ثم يمضي يعـدد لهم مُوبقـات الحياة، مُحَـذِّراً إيـاهم من أن ينـزلقـوا إليهـا، فيقول:

وعن المَيْسِـر ما آسْـطَعْت ابتعـدْ　　　فهـو سُلّ المـال بل سُـلّ الكَبِـدْ

هذه اللفتة إلى الأبناء طُفولة ونَشْئاً، لا تجدها عند شاعـر سابق، وإن ظفـرت بشيء منها فلن تجده غير إشارات عابرة تَمُرّ عابرة في ثنايـا القول فـلا تَعْلَق بِذِهْن، ولايُمسكها عقل، ولا تمتلىء بها نَفس.

## (٤٨)

وبعـد، فهل علمتَ شـاعراً سبق شـوقيّاً فـاقتحم على الأدب الغَربي ميـدانه، يُجاريه في مساقه، ويُضيف بهذا إلى الأدب العربي ثَروة لم تكن له من قبل.

وأول ما كان لشوقي في هذا مَلْحمته في الحرب العثمانية اليونانية (١٨٩٧ م) التي جـارى فيها الإليـاذة، وهي ملحمة للشـاعر الإغـريقي هوميـروس، يصور فيهـا حـرب طِـروادة، التي كـانت بين الإغـريق والـطرواديين، في القـرن التـاسـع قبـل الميلاد.

ولقد استهل شوقي ملحمته هذه بقوله يخاطب السلطان عبد الحميد:

بِسَيفِـك يَعـلو الحقُّ والحقُّ أغلبُ　　　ويَــنـصــر ديــن الله أَيّــان تَــضْــرِبُ
فــأدِّب بــه الـقــومَ الـطُّغــاة فــإنــه　　　لَـنِـعْـم الـمُـربِّي لـلطُّغــاة الـمـؤدِّبُ

ثم يذكر أولاً يوم جلوسه فقال:

نهضت بعَرش يَنهض الدهرُ دونه　　　خُشوعاً وتَخشـاه الليالي وتـرهبُ

ثم ثَنَّى يذكر بطشه فقال:

حُسامك من سُقراط في الخَطب أخطبُ　　　وعُــودك مـن عــود المَنــابــر أَصْلَبُ

ثم ثلّث يذكر شجاعة الجنود، فقال:

ثمانون ألفاً أُسْدُ غابٍ ضَراغمُ لها مِخلبٌ فيهم وللموت مِخلبُ

ثم رَبَّع يعجب ببسالتهم، فيقول:

تُحذِّرني من قومها الترك زَيْنَبُ وتُعْجِمُ في وصف الليوث وتُعربُ

ثم يَخمِّس يذكر الحال في بحر الروم فيقول:

ركبت إليها البحر وهو مَصِيدة تَمَدُّ بها سفْن الحديد وتُنْصَبُ

ثم يسدِّس فيذكر مَنْعه السواحل العثمانية ويقول:

فما زِلت بالأهوال حتى آقتحمها وقد تُركِب الحاجاتُ ما ليس يُرْكَبُ

ثم يُسَبِّع يذكر زينب المتطوِّعة فيقول:

وما راعني إلا لواء مُخَضَّبٌ هنالك يَحميه بَنان مُخَضَّبُ

ثم يثمِّن يذكر مضيق مَلونا فيقول:

جبال ملونا لا تَخُوري وتَجزعي إذا مال رأس أو تضعضع مَنْكِبُ

ثم يتَسّع يذكر قائداً للترك وهو على فرسه، فيقول:

وأَشمطَ سَوّاس الفوارس أَشيب يسير به في الشعب أشمط أشيبُ

ثم يمضي شوقي في ملحمته إلى أن يبلغ بها ستة عشر موضوعاً آخرها فرحة النصر، حيث يقول:

أمولاي غَنَّتْك السيوف فأَطربتْ فهل ليراعي أن يُغَنِّي فيُطْرِبُ

وعلى حين جعل هوميروس ملحمته في أربعة وعشرين نشيداً، جعل شوقي ملحمته دون هذا، كما جعلها على غير مساق النشيد الذي رأيناه في الترجمة العربية لتلك الملحمة الإغريقية التي قدمها لقراء العربية سليمان البستاني سنة (١٩٠٤ م).

(٤٩)

ولعل أروع ما كان لشوقي بعد هذه المَلحمة تلك التمثيليات الشعرية التي قاربت العشر، والتي أضافت إلى الأدب العربي ما لا عَهد له به من قبل.

وإذ كان شوقي هو البادىء في الشرق العربي بهذا النوع الذي يقتضي مع القُدرة الكلامية خبرة فنية واسعة، لذا أخذ الآخذون الفَنّيون عليه بعض المآخذ.

ومثل هذا لا يضير شوقيّاً في شيء، فحسب الوالج الأول أنه مهد الطريق بخَطْوه، وما هذا التمهيد بقليل، ثم ما هذه الهَنات التي تعلق بذيله إلاّ كالذَّرّ حَسبه مِنْفَضة، لذا كانت تلك المسرحيات تكاد تكون أنقى من الشائبات.

ثم أليس عجز اللاحقين عن أن يلحقوا بشوقي فيما أبدع يدلُّك على قدرة رُزِقها شوقي ولم يرزقها أحد من بعده، كما لم يرزقها أحد من قبله في الشرق العربي، كما قلت قبل، اللهم إلا ما كان من محاولات عابرة.

هذا وما سلمت أعمال الغربيِّين من مآخذ فنيَّة، وما أظنُّها ستسلم، فتلك نظرات تختلف باختلاف مُرسلها، وعلى الرغم من هذا فلا تزال تلك الأعمال الغربية شامخة كما هي، لم يَحُطَّ من شأنها ذلك الذي عَلِق بأَرْدانها.

وما من شك في أن أعمال شوقي تلك لها شُموخها هي الأخرى، بما جاءت عليه من صياغة أَسمى ما تكون، وبما شملت من رأي وحكمة وعِبرة، وبما تناولت من صفحات من حياة مصر السياسية والاجتماعية.

ولقد كانت لنا مع كل واحدة منها كلمة مهَّدْتُ بها لها، ولم أشأ هنا أن أعيد ما قلت هناك، ولكنها كلمة إنصاف رأيت أنّ هنا مكانها فأضفتها.

(٥٠)

والآن وقد فرغت من صفحة شوقي الشِّعرية آخذ في كتابة صفحته النثرية.

لقد كان شوقي ناثراً، يعدل نثرُهُ شعرَه قَدْراً ومكانة ورصانة، أحس شوقي هذا

من نفسه فَنَثر، كما أحس غيره من نفسه فَشَعر، ولكن ملكة الشعر كانت أسبق وأطغى، وكانت الأُذن إليه أصغى، والنفس إليه أبْغى، من أجل هذا غلبت ملكةٌ ملكةً، فإذا شوقي الشاعر المُكْثر والناثر المُقِلّ.

ولقد وُفِّقت في أن أجمع لك نثره كلَّه في صعيد واحد، وكان منه ما تفرق بدَداً، فلقد عُنِي شوقي بجَمع أكثر نثره في كتيِّب سماه: أسواق الذهب، مقتدياً في هذه التسمية بناثرين سبقاه، هما:

الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر (٥٣٨ هـ)، الذي ضمّ مواعظ له وخطباً في كتيِّب سماه: أطواق الذهب.

ثم الأصفهاني عبد المؤمن بن هبة الله، الذي جمع كلمات له في الوعظ والنصيحة في كتيِّب سمَّاه: أطباق الذهب.

ويقال: إن هذا الكتاب الثاني للجويني أحمد بن محمود بن علي.

هذا إلى ما كان لشوقي من قصص نثرية، وكلمات طويلة شيئاً.

وكان لشوقي بعد هذا النثر المجموع نَثْرٌ غيره، منه ما قدم به نفسه، ومنه ما صدّر به بعضٍ قصائده، ومنه ما فات الكتاب المجموع.

والطريف أن المتحدثين عن شوقي تحدّثوا عنه شاعراً ولم يتحدثوا عنه ناثراً.

وقد يكون لهم العذر كلَّه، فشوقي لم يُحَمِّل نثره، على قلَّته، ما حَمَّلَ شعره على كثرته، من موضوعات لها وجودها، بل أكثر ما قاله من نثره يتطوي تحت حِكَم ومواعظ، على نحو ما جاء في هذين الكتابين اللذين سبقاه في هذا الباب. وهما: أطواق الذهب، وأطباق الذهب، غير أننا لم ندع نثره يَمُرُّ بمواعظه وحِكَمه دون أن نشير إلى مكان العظة والحكمة على لسان شوقي ناثراً.

والعظة والحكمة، قديماً وحديثاً، لا يؤدِّيهما كلام مُرْسَل لا يُلتفت فيه إلى صياغة مُتْقنة، هذا إلى ما يجب أن يَحملاه من معنى تتلقّفه النفس، وينحدر إلى القلب.

وهكذا كان شوقي في موعظته وحِكمته، الصائغ الماهر، والواعظ الموهوب، والحكيم الفطن.

فمن عظاته:

أمس خبر، واليوم عبر، وغداً قدر، لا يُغني عن نفس حذر، ولا ينفعها ضجر.

ومنها:

أيُّها الزُّمر، فُقد العمر، وأرداكم البطر، هل من أثر أو صالح يُدَّخر.

ومنها:

من وثق بالله مشى على الماء.

ومن حكمه:

إثنان من نِعم الله عليك: عدوٌّ تشغله كثيراً، وصديق يشغلك كثيراً.

ومنها:

عالم ذو همة، يُحيي أمَّة.

ومنها:

مُودِع المعروف عند الأشراف، كمودع الحَطب عند النار.

## (٥١)

وبعد هذا كلِّه هل ننسى لشوقي مونولوجاته، ثم مواويله، التي شارك بها في الحياة العامَّة، وهي وإن لم تكن جديرة به، غير أنها كانت ممّا تمليها عليه بيئة سادت فيها العامية، وكان لأهلها وهم كثرة، حق على الشاعر في الإمتاع والترويح وتنمية الوجدان، وليس هذا بقليل، ثم هو واجب كل أديب، على ألا يسترسل فيه فيمكِّن للعامية من الألسن، ويفوت عليه الغرض الذي ينشده كل غيور على إحياء العربية، ثم إن عامية شوقي كانت عامية أقرب إلى الفصحى، هذا إلى أنها ممَّا يأخذ بأيدي العامة إلى التطلع إلى ما هو أصح.

إقرأ معي:

بلبـل حيـران على الغصـونْ  شِـج معنَّـى بـالـورد هـايـمْ
في الـدوح سهران من الشجـونْ  بـكـى وغـنَّـى والـورد نـايـمْ

فلا ترى ظلاً للعامية فيه إلا في القليل الذي لا يشين.

ثم اقرأ معي زجله:

الـنيـل نـجـاشـي  حـليـوه واسـمـرْ
عـجـب لـلونـه  ذهـب ومـرمـرْ
أرغـولـه في إيـده  يـسبّـح لسـيـده
حـيـاة بـلادنـا  يـا رب زيـده

ثم إنه وإن رفع من ألسنة العامة فقد رفـع من نفوسهم، وهـاج من وجدانهم، ثم اقرأ معي موّاله:

كـل الـلي حَبّ انـتـصـف  وأنـا الـلي وحـدي شكـيت
حـتى الـلي رحت أشـتكـي لـه  قـال لـي لـيـه حـبِّـيـت
لا شكـوى نفـعت ولا يـا قـلـ  ـب الـحـبـيـب رقِّـيـت

فالمعنى فيه يغفر للفظ هوانه.

ولكنا على أية حال لا نجيز لشوقي الهبوط لمثلها، وكم كنا نتمنى أن يصوغها صياغتها الصحيحة السهلة، وما كانت هذه تعزّ عليه، ولكن الأمر كما قلت لـك كان على سبيل التملُّح، وربما كان لشيء آخر، أراد بـه شوقي أن يـدلَّ على قدرتـه في خـوض كل مجـال من مجالات القـول، ولعل مـا يهوِّن علينـا من أمرهـا أنهـا تُعَـد كأصابع اليد، وأنها كانت مرحلة وسطى بين العامية والفصحى، تهيىء الألسنـة إلى أن تصحّح ما تنطق به.

## (٥٢)

تُرى بعد هذا كلّه أين نضع شوقيّاً بين الشعراء؟

لقد سبقنا إليها مَن هم أولى بها مني ومنك، وهم شُعراء عصـره، فجعلوا إليه

إمارة الشعر والشعراء في عصره.

ولكنك تملك معي الآن، بعد أن قرأت صفحات مَن سَبقوه من الشعراء، أن تُضِيف إلى هذا الحكم شيئاً، وتستبدل بكلمة كلمة فتقول: إمارة الشعر والشعراء، مُذْ كان الشعر العربي إلى هذا العصر الذي نعيشه.

لقد أبدع الشعراء قبل شوقي قولاً، وما قصر عنهم شوقي إبداعاً في القول.

ولكن الشيء الذي أبدع فيه شوقي ولم يَملكوا هم أن يُبْدِعوا فيه:

أن شوقيّاً عاش لرسالة، ولم يعش واحد منهم لرسالة.

وأن شوقيّاً جعل من الشعر مَطيَّته إلى تحقيق رسالته، وقد جعلوا هم من الشعر مطاياهم إلى كسب ذاتي.

وأن شوقيّاً كان شاعر الوجود كلّه، وما استطاع واحد ممّن سبقوه أن يلتفت ولو إلى الوجود المحدود من حوله.

وأنّ شوقيّاً عاش لوطنه الأول مصريّاً، ولوطنه الثاني عربيّاً، ولوطنه الثالث، الذي هو العالم عالميّاً، وما عرف واحد منهم الوطن غير قِطعة من الأرض يأكل من خيرها، ويَمرح على أرضها، ويعبث بحرم حريمها.

وأنّ شوقيّاً عاش لدينه مُسْلِماً فنافح عنه ما وسعته المُنافحة، ومدح الرسول ﷺ بما لم تقرأ مثله على لسان سابق له.

وأنّ شوقيّاً عرف الشعر عاطفةً يمليه الوجدان السليم، والوجدان السليم لا يملي غير الخير، من أجل هذا ما هَجا، ولا أَفحش في القول، على حين أن جملة من سبقوه عرفوا الشعر صناعة يُملون عن خواطر دنيوية، فنالوا من الناس أكثر ممّا أنالوا الناس.

وأن شوقيّاً حفظ لنا بشعره للعربيّة لسانها، وللغة بيانها، وللقوافي ميزانها، فاستقامت بشعره ألسنة، وجُرِي على خطوه بعد موته، وأقام الشعر المُقيمون.

وأن شوقياً آتَّسعت رسالته لما لم تتَّسع له رسالة شاعـر قبله، إن صحَّ أنـه كان لشاعر قبله رسـالة، فـإذا هو يشـارك في كل شؤون بيئتـه، وكان الشـاعر المثقف ذا الرأي المُحيط.

هذا هو شوقي فيما أرى، فَلْيُنْصِفْـه من أَنْصف، ولِيُجْحِفَ بِحقّه من أَجحف، فلقد أنصف هو نفسه بتلك الرسالة الخـالدة من شِعـره، التي هي حُجَّة لمن أَنصف وحُجَّـة على من أجحف، وليس شيء أبقى من الأعمـال فهي خيـرُ شـاهـد، وإن اختلف في تقديرها المختلفون.

**إبراهيم الأبياري**
**شعبان (١٤١٤ هـ)**
**فبراير (١٩٩٣ م)**

# فهرس المحتويات

الموضوع | الصفحة

## الشعراء قبل شوقي